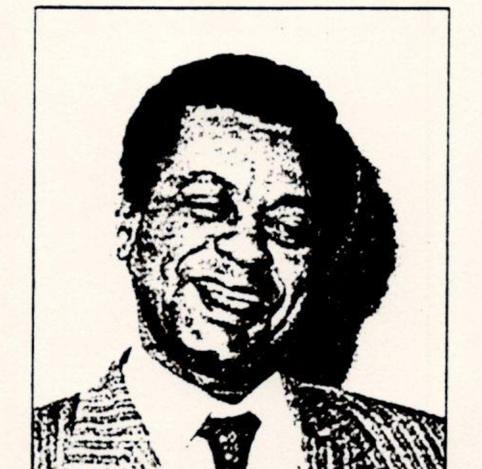
نحو أفق بعيد

-٨-



يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ٢١/٩/١٩٨٨
مطار الخرطوم ، صالة المغادرين
الساعة ٤,٥٠ مساء .

تنتظر ، وفي خيالك ذلك النسيم الذي يلاحقك من وادي النيل ، يحمل عطرا لن ينضب ما دمت حيًا . والنّيل منك على مرمى حجر . الا تعلم ؟ لكن كأنه في عالم آخر ، او كانه ليس موجودا البتّة . «النّيل بعيد» ، كما قال الشاعر. لا توجد ساعة في هذه المحطّة ، وساعتك وقفت بتاثير قوة غامضة تصيب الحركة بالشلل في هذا المكان ، وكأنّ الزمن فرسُ رهانٍ ، زلّت به القدم ، وهو يكاد يبلغ نهاية الشوط . عشر دقائق . عشر دقائق فقط ، وتكتمل الساعة الخامسة . لكنها لن تكتمل ، وسوف تظل هكذا الى الابد ، معلقة بين التّمام والنقصان ، تتوق الى الكمال ، ولا تكتمل . الحيطان المشقّقة ، والالوان الباهتة ، والصور العتيقة ، والوجوه المتعبة الصابرة . الحلم ونصف الحلم واللاّ حلم . الفعل ورد الفعل واللاّ فعل .

اختلطت الاشياء فكوّنت عجينا مطاطا لا مغزى له ولا ذات محدّدة . كأن الاشياء قد بدات وانتهت ، او كانّها لم تبدأ بعد . المكان كذكرى مكان أو كحُلم الى مكان . والمدينةُ كلا مدينة . والوطن كلا وطن . السّواقي وقفت منذ زمن وصمت غناؤها الحزين للنيل ، ولكنها ماتزال تدور، يخرج منها ماء هو احتمال ماء ، لا يسقي زرعا ولا يدر ضرعا . وسفن النيل وقطارات سكك الحديد توقّفت ، ولكنها تجري ، وسوف تظل تجري بين الساعة الرابعة الأ عشر دقائق ، والساعة الخامسة تماما ، والى الابد ، ولا تصل الى غاياتها . الحرب اشتعلت وخمدت وبدات ووقفت فهي تدور ولا تدور ، فالقتلى هم القتلى ، والجيوش هي الجيوش ، والمطامح هي المطامح ، والمزاعم هي المزاعم . هي ليست حربا ولكنها ذكرى حرب او احتمال حرب ، شبّت منذ اعوام ، وشبّت منذ قرون ، وتشب الآن في مساحة طولها عشر دقائق وطولها الابد . الزعماء السابقون والزعماء اللاحقون اضغاث احلام . ذكريات زعامات ،

احتمالات امكانات ، «لا صيرورة» واحدة ذات وجوه شتى في ازمنة غابرة هي اليوم وغدا . شمس لا تشرق ولا تغيب ، بدرٌ ليس له تمام ولا مُحاقٌ . نهرٌ يجري وليس له منبع ولا مصب . السراب في صحراء العتمور ماء حقيقةً ، عبّت منه إبل ابي العلاء المعري حتى ماتت من الرّيّ . الزرع في حقول الجزيرة ينمو وابداً لا يصل الى درجة الحصاد . الامطار تهطل والانهار تفيض ، ويعم الخير في هيئة مجاعة يموت فيها الناس من التُّخمة . الطائرة لن تقوم وسوف تقوم ، وقد قامت بالفعل .

ما اروع هذه المدينة اللاّ مدينة في هذا الوطن الذي هو كذكرى وطن او كحلم وطن . وقد سالك الشاعر، سالك انت بالذات ، دون خلق الله جميعا:

ابكت تلكم الحمامة أم غنّت على فرع غصنها الميّادِ ؟

يا سيّدي فداك نفسي . لقد كنتَ كانك لم تكن ، امّا الآن وقد صرت الى العدم المَحْض ، فانت ملء السمع والبصر. وقد حيّرني سؤالك زمانا فما وجدت له اجابة الا الآن فقط ، في هذه اللحظة التي كانها الابد .

ان الحمامة قد بكت وغنّت فما بكت ولا غنّت ، لان الغصن الذي حطّت عليه هو في وادٍ هو احتمالُ وادٍ في وطنٍ هو حلم لوطن .

الا ، لا ارى مثلي امْترى اليوم في رسم
تغصُّ به عيني وينكره وهمي
اتت صورُ الاشياء بيني وبينه
فجهلي كلا جهلٍ وعلمي كلا علمِ .

غفر الله للحسن بن هانيء . وغفر لك يا ابا العلاء وانت تزْجُر مطاياك في ذلك السراب الابدي .

وانت يا ابا تمام . اسال الله ان ينزل فيوض الرحمة على قبرك بين العدوتين . فانت قد قلت البيتين يقينا ، وذلك البيت إن لم تقله فكانك قد قلته ■

نحو أفق بعيد

-٩-



يكتبها : الطيب صالح

في عام كذا وسبعين، ايام كنت مديرا لوزارة الاعلام القطرية، حلت علينا صحافية انجليزية، نحيلة الجسم، كانها مصابة بالسل، متوترة مثل قطة مذعورة، عيناها عسليتان واسعتان، كان يمكن لو كان وجهها منبسطا سمحا، ان تكونا جميلتين. لكنهما لم تكونا كذلك، فقد كان في هيئة المراة باكملها شيء منفر، سببه، كما ادركت فيما بعد، ذلك الشبق الذي تراه في وجوه بعض الناس، أنهم يريدون ان يحققوا هدفا غير شريف باي وسيلة. ولان العرب ناس كرماء، ودولة قطر دولة كريمة فقد استقبلناها في المطار، واستضفناها في الهوتيل. ولانني عشت بين ظهراني هؤلاء القوم ردحا، فقد ادركت من اول لقاء لي معها، دون كبير جهد، ان تلك السيدة لم تجيء باحثة عن الحقيقة. لم تجيء لترى وتسمع وتفهم، فتنقل الى قرائها الانجليز صورة صادقة عن انجازات الانسان العربي في هذه البقعة من الارض، وطموحاته ومقاصده كبقية خلق الله. بل على النقيض، جاءت لتعطي المصداقية لصورة آثمة ظالمة كانت قد استقرت في ذهنها قبل ان تصل. فضربتُ حولها سياجا كثيفا ولم ادعها تقابل احداً او تكلم احداً. خرجت من عندنا الى دولة الامارات ومن ثم الى الكويت، وكانت قد زارت المملكة العربية السعودية قبل ان تصل الينا. ثم ظهر كتابها فكان كما قدرت، اكاذيب وافتراءات، بل فحش في بعض الاحيان.

عجبت وانا اقرا الكتاب، واتذكر ذلك الوجه الكئيب والذراعين النافرتي العروق، والجسم المتوتر الهزيل والسمت العصبي، انها رسمت لنفسها صورة جذابة كانها «صوفيا لورين» في زمانها، وان الرجال حيثما حلت، كادوا يفنون انفسهم هياما بها، وجريا وراءها، وان رجلا ثريا حملها في رحلة قصيرة الى القاهرة في طائرته الخاصة، وعاد بها، حتى لا تضيع عليه ولو دقيقة واحده من حديثها الشهي ومحياها البهي! الى غير ذلك من هذه الاكاذيب الساذجة. والكتاب في مجمله يقول ان هذه المجتمعات مجتمعات مترفة فاسدة، وان الحكام متسلطون لا يعرفون كيف يدبرون امور دولهم، وان الرجال همج شبقون يسيل لعاب الواحد منهم لمنظر المراة وخاصة اذا كانت اوروبية، وخاصة اذا كانت في فتنة مثل هذه الصحفية الفاضلة!. بل ان الكتاب ذهب في الفحش والكذب ابعد من ذلك، وتخلص الكاتبة الى ان هؤلاء العرب «الهمج» لا يستحقون الثروة التي هبطت عليهم. وهذا باختصار ما تقوله كل هذه الكتب والمقالات الصحفية التي يكتبها الاوروبيون والامريكان عن العالم العربي، وخاصة عن منطقة الخليج. اللهم الا قلة قليلة يكتبها اناس شرفاء امثال مايكل أدمز.

اغاظني الكتاب ايما اغاظة، ولكن سرّي عني قليلا انها لم تكتب عن قطر الا صفحة واحدة كانت الافتراءات التي تضمنتها اخف كثيرا من غيرها.

وكما هو متوقع، صاحبت صدور الكتاب ضوضاء اعلاميه مخطط لها في اوروبا، اذكى جذوتها لسوءٍ الحظ العرب انفسهم، كما يفعلون دائماً. وتحول هذا الكتاب التافه الى شيء مرغوب، طبعت منه عشرات الالاف من النسخ. وتحولت الكاتبة بين ليلة واخرى من صحفية من الدرجة الثالثة او الرابعة، الى صحفية مشهورة تكتب عموداً اسبوعيا في واحدة من كبريات الصحف البريطانية، وتكتب في كبريات المجلات الامريكية.

تلك الايام ايضا هبط علينا، كاتب له بعض الشهرة كنت قد سمعت به، ولما قابلته خيل لي انه رجل جاد رزين، فاكرمنا وفادته واحسنا ضيافته. وسافر عنا، ونشر كتابه فاذا هو اكاذيب كبقية الاكاذيب، في زي مهذب اقل فحشا من كتاب صاحبتنا تلك.

ثم جاءنا كاتب من صحيفة «الديلي تلغراف» اللئيمة. قلت له اول ما قابلته:ـ

«نحن نعتقد ان صحيفتكم منحازة ضد العرب، وانتم تكتبون عن العالم العربي اما عن جهل او عن سوء قصد».

فقال لي:

«لهذا انا جئت لاصلح الصورة، فانا لست من نوع الكتاب الذين تتحدث عنهم».

والحق انني خدعت في الرجل، فقد بدا لي مهذبا غاية التهذيب عنده رغبة صادقة، كما خيل لي، ليفهم، وليرى الامور على حقيقتها. وكان انجليزيا قحًا، له شارب مثل شوارب ضباط الجيش، يتكلم بلهجة اكسفورديه خالصة. فساعد كل ذلك على تضليلي. لذلك اكرمت مثواه اكثر من المعتاد، وانفقت عليه من زمني وقتا.

ثم رحل الرجل عنا، وظهر كتابه، فاذا الكذب نفسه، واذا البذاءة نفسها ■

نحو أفق بعيد

١٠



يكتبها : الطيب صالح

حلّ علينا في تلك الايام ايضاً ، جيش من الصحفيين الانجليز ، رجالا ونساء ، كانوا يرافقون الملكة في جولتها في بلدان الخليج . دعوتهم الى داري ، كما كنت افعل مع الصحفيين الاوروبيين خاصة ، واقول لعلني اصحح بعض الافكار الخاطئة ، لعلني ابذر في اذهانهم بعض الحقائق ، لعلني استطيع أن أوجه أنظارهم الى الامور الجوهرية في حياة الناس وانجازات الدولة ، وأصرفها عن التوافه التي اعلم انهم مشغولون بها . وجدتهم مجموعة من الهمج حقا ، باستثناء قلة منهم . كانوا ساخطين على كل شيء . وكانوا يحتقرون ملكتهم ، ويسمونها «برندا» . ولا اعلم لماذا اختاروا لها هذا الاسم ، ولكنه اسم يوحي بالخادمات في حانات «سوهو» ومقاهي «كامْدِنْ تاوِنْ» . وكانت بينهم صحفية تجيد المحاكاة ، فمضت تقلد الملكة ووصيفتها ، وكان الوصيفة ناظرة مدرسة والملكة تلميذة صغيرة . فاذا ارتدت الملكة ثوبا لمناسبة ما ، تقول الوصيفة بصوت حازم كمن يخاطب طفلة :

«برندا . إنزعي هذا الثوب فورا ، انه لا يناسبك» .

فتقول الملكة بصوت خافت كسير :

«انا آسفة يا ليدي هَسّي» .

ثم تجرب ثوباً آخر ، فتقول الوصيفة غاضبة :

«برندا . كم مرة نبهتك الى ان اللون الازرق لا يناسب لون بشرتك . اخلعيه حالا» .

وتظل الملكة المسكينة تجرّب الثياب ، ثوباً بعد ثوب ، والوصيفة القاسية لا ترضى على أي منها ، واخيرا تجهش الملكة بالبكاء مثل طفلة .

«ماذا افعل يا ليدي هسّي ؟ انني لا استطيع حضور حفل العشاء . فليس عندي ثوب مناسب» .

تصرخ الوصيفة :

«برندا . كُفّي عن البكاء فورا والا ضربتك على مؤخرتك . تذكري انك لم تعودي طفلة . انت ملكة بريطانيا العظمى» .

وظلت الصحفية التي تمثل دور الملكة تبكي بحرقة ، وظل زملاؤها يضحكون بمتعة ، وقلت لنفسي :

«لا حول ولا قوة الا بالله . اي خير يرجى من هؤلاء الرعاع اذا كان هذا حالهم مع ملكتهم؟» .

وعجبت ايضا ، فقد كنت قد رايت الملكة عن قرب مرتين . مرة حين طاف بها وزير الاعلام في جولة في متحف قطر الوطني . وهو متحف جميل حقاً ، فلم يكن غريبا أن الملكة وزوجها دوق أدنبره أعجبا بما رأيا . رأيتها سيدة مهذبة بسيطة بشوشة ، تسمع باهتمام وتسأل أسئلة ذكية . وكان واضحا ان تربيتها جعلت تلك الشمائل فيها فطرة وليس تكلفا . وقد قال لي زميل في الوزارة :

«هذه السيدة لطيفة الى حد انك تود ان تدعوها للعشاء مع عائلتك وتحس انها سوف تقبل الدعوة» .

ثم رايتها في حفل الاستقبال الذي اقامته في «اليخت» الملكي «بريتانيا» ، وكانت في ذلك المساء ترتدي ثوباً جميلاً بسيطاً لا احسب ان وصيفتها اعترضت عليه ، وكانت هي وزوجها يتنقلان بين المدعوين ويتبسطان معهم في الحديث . وكانت الملكة تقول لكل شخص تلقاه عبارة أو عبارتين تعنيان له شيئا ، وتعلقان بذاكرته . كنت ليلتها ارتدي جلابية سودانية وعمامة وعباءة ، وكانت الملكة قد زارت السودان . قالت لي :

«هذا ليس زياً قطرياً» .

قلت لها «لا» .

فقالت :

«هذا زي سوداني . اليس كذلك ؟ بالتاكيد انت سوداني» .

لم تكن الجملة في حد ذاتها مهمة ، ولكنها اسعدتني ، فقد بذلت السيدة جهداً ، وكانت هي اسعد مني لأن ظنها قد صدق ، وقلت لنفسي «والله هذه الملكة سيدة لطيفة بنت حلال» . ولم لا ؟ فالمرء لا يكره الناس ضربة لازب .

بعض الناس يلومونني ان لي صديقاً او صديقين من الاثرياء . وهم اناس صادقتهم منذ أمد ، قبل ان يكونوا أثرياء ، فهل اتركهم لأن الله سبحانه وتعالى اسبغ عليهم من فضله ، واعطاهم مالا هم مستخلفون فيه ؟ اليس ذلك كان يكون لك صديق ثري . فاذا افتقر قلبت له ظهر المِجَنّ؟

منذ اشهر ، والشيء بالشيء يذكر ، لقيت شابا في ندوة في الكويت ، فقال لي :

«يقال انك توقفت عن الكتابة لسببين» .

«ما هو السبب الاول ؟» .

«يقال انك انجرفت في التديّن واستحوذتْ عليك الجماعات الدينية» .

ضحكت لانني اعلم كم انا مقصر في جنب الله ، وان بعض الناس يقولون انني ملحد او حتى شيوعي .

قلت له :

«يا ابن اخي ، انا لا افعل اكثر من انني اصلي صلاة الجمعة كسائر المسلمين ، وكثيرا ما تفوتني صلاة الفجر في وقتها . ها . والسبب الثاني ؟» .

«يقولون انك تصادق الاثرياء والوجهاء» .

قلت له :

● «يا بُنَيّ . صحيح ان لي صديقاً او صديقين يقال انهم اثرياء . ووالله ما أدري مقدار ثرائهم ، وهو امر لا يعنيني في كثير او قليل . وهو ليس اكثر من صفة تعلق بالانسان ، كان يكون نحيلاً او بديناً او أحمر أو أسود . واما الوجهاء فقد قابلت منهم عددا ولكن لا أذكر لك صديقا واحدا بينهم . ولكن دعك من هذا . قل لي بالله كيف تراني ؟ هل أبدو لك كأني خَلِيسُ اثرياء ووجهاء . أم انك ترى رجلا أمّا اذا الشمس عارضتْ فيضحى واما بالعشِيّ فيخْصُرُ؟» .

قلت له ذلك لأنه شاعر .

هذا ما كان من أمر ملكة بريطانيا . اما من امر اولئك الصحفيين الارازل ، فسوف اقصه عليكم الاسبوع القادم ان شاء الله ■

نحو أفق بعيد

١١



يكتبها :
الطيب صالح

كُنّا نؤمِّل ان يستغل اولئك الصحفيون مناسبة زيارة ملكتهم الى قطر، فينظروا الى مجتمع ليس معروفاً لقُرّائهم بعيون مفتوحة ، ان لم يكن فيها عطف ، فليس فيها كراهية . ها هنا اناس يعيشون مثلهم تحت الشمس على سطح هذا الكوكب الصغير، الذي برُبه الخالق سبحانه عباده جميعاً ، على اختلاف الوانهم واديانهم ومذاهبم ومشاربهم . اناس يحلمون مثلهم ويسعدون ويشقون مثلهم ، ويولدون ويموتون مثلهم . لهم طريقتهم الخاصة في العيش ، ونظرتهم المميَّزة الى الكون ، لو فعلوا ذلك لعلهم كانوا يزحزحون ولو قليلاً ، ما لبس عقول قُرّائهم من خَطَل وجهل . وماذا يضير قارىء الـ «ديلي ميل» او الـ «ديلي اكسبرس» او الـ «تلغراف» ان يقرا ولو مرّةً واحدة شيئاً مفيداً عن عالم بعيد مجهول ، من هذه العوالم البشرية المتنوعة المتعددة ؟ اليس ذلك خيراً له من اخبار الجرائم والفضائح والتفاهات التي تطغى على صحفهم ؟

لكن لسوء الحظ، امعن هؤلاء الصحفيون الا القليلين منهم ، في ضلالهم القديم . فحين اقترب «يخت» الملكة من الميناء ، وكان الامير والوزراء ورجال الدولة ينتظرونها على الرصيف ، انشغل الصحفيون والمصورون برجل وامراة اوروبيين في قارب شراعي صغير . وقد زعموا بعد ذلك في مقالاتهم انهما كانا يشرفان على الغرق ، ولم يكن ذلك صحيحاً . وفي الوليمة التي اقامها الامير للملكة في خيمة في البر، سلّط الصحفيون كمراتهم وسلّط مصورو التلفزيون الاتهم على ذبابة حطّت على وجه الملكة . وتسلّل فريق منهم الى المطابخ وراء الخيمة ، حيث يُعدُّ الطعام ، والتقطوا صوراً يُقصد منها الاساءة . ولمّا راجعناهم في ذلك احتجُّوا لنا بحرية الصحافة والاذاعة وما شابه وهي شنْشِنَةٌ قديمة عرفناها عنهم . لم يلتفتوا الى مظاهر العمران الواضحة ، ولا الى الخضرة التي انبثقت في هذا المكان اليباب، ولا الى مصانع السّماد وتسييل الغاز وصهر الحديد وتحلية المياه . قالوا ان هذه اشياء مملّة لا تثير خيال القارىء الانجليزي الذي يُؤثر مواضيع ذات «بعد انساني» . واقول لهم:

ولكن اي بعد انساني في ذبابة حطّت على وجه الملكة ؟ واي بعد انساني في صور الطعام يوضع في الأواني ؟ وهل من الذوق ان تدعو انساناً الى دارك وتولم له ، فيصر على تفحُّص المطبخ والتاكد ان الطعام يُعَدُّ بطريقة «هايجينيّة»، كما تقولون ؟

واسوا من هذا كلّه ، انهم حينما حلّوا في تلك الرحلة ، كانوا يحسبون اثمان الهدايا التي يقدمها رؤساء الدول المضيفة الى الملكة ، ويبالغون في الحساب، ليوهموا قُرّاءهم ان هؤلاء القوم الأثرياء مبذّرون لا يدرون ماذا يفعلون باموالهم . وهم بذلك يتجاهلون الحكمة الانجليزية القائلة «لا تتفحّص فم الحصان الذي يُهدى لك» .

قال لي فؤاد جميعي ، وهو صديقي منذ عهدي بهيئة الاذاعة البريطانية ، وقد رافق هؤلاء الرعاع مندوباً عن القسم العربي في هيئة الاذاعة البريطانية ، وهو رجل محب للانجليز ، تعلم في جامعاتهم ، وتزوج منهم ، ويجيد لغتهم:

«انني لم اكن أدرك قبل هذه الرحلة ، الى اي درجة يزور هؤلاء الصحفيون الانجليز الحقائق . لقد كنت اشهد الأحداث معهم ، ثم اقرا ما يكتبونه في صحفهم ، فاذا هي مخالفة تماماً لما راينا وسمعنا» ■

نحو أفق بعيد

١٢



يكتبها : الطيب صالح

اذكر جيدا ذلك الامريكي العصبي العابس الوجه . كانت ملامحه يهودية لا مراء فيها . وكانت النظارة السميكة على عينيه توحي لك بانه ضيق الصدر ، وهو احساس اكتشفت فيما بعد أنه احساس خاطىء . لا انكر انني نفرت منه اول ما قابلته ، ليس لانه يهودي، فانا لا احمل مشاعر من هذا النوع ، فقد عرفت يهودا فضلاء ويهودا اراذل . لا ، لم يكن ذلك . ولكن لانه بدا لي متغطرسا متعجرفا . وربما كان معه بعض الحق ان يغترّ بنفسه . فقد كان جُوزِف كرافت صحفيا امريكا واسع النفوذ ، يكتب عمودا في صحيفة الـ «هيرالد تربيون»، وتنشره في الوقت نفسه نحو من عشرين صحيفة في كل انحاء الولايات المتحدة . كان على صلة وثيقة بصناع القرار، وكان مع ذلك معروفا بحماسه للصهيونية ولدولة اسرائيل وعدائه للعرب. وقد رأى السفراء العرب في واشنطن ، في لحظة من لحظات الالهام ، ان يرسلوه الى العالم العربي، ولم يكن قد زاره من قبل ، ليقابل الناس، ويتعرف على انماط الحياة ، ويرى مظاهر التقدم والعمران ، فلعله يغير من افكاره ، او على الاقل يخفف من حدة عدائه للعرب. وكانت دولة قطر أول دولة يزورها . كان السفير الامريكي متوتّرا جدا متخوفا من تلك الزيارة . ولان طائرة مستر كرافت وصلت قبل موعدها ، فلا السفير الامريكي ولا انا استطعنا ان نكون في استقباله في المطار . ذهبت اليه في الجناح الذي حجزناه له في فندق الخليج ، فوجدته ثائرا محمر الوجه . اول ما دخلت وعرّفته بنفسي صرخ: «اسمع . انا رجل مهم جدا . ليس عندي وقت أضيعه . اريد «صيدا ضخما» I want to Shoot Big . اريد ان اقابل حالا الامير (وكان ينطقها «ايمير») ووزير الخارجية ، ووزير المالية» .

قلت له «كل هذا سوف يحدث . لكن الوقت متاخر الان . خذ راحتك وسوف امر عليك في المساء ، وسوف تبدا مقابلاتك صباح غد» .

ولما عدت اليه في المساء ، وجدته كما تركته ، متوترا متوجّسا . قال لي اثناء الحديث ، دون أي مناسبة:

«هل تعلم انني يهودي ؟» .

قلت له :

«طبعا انا اعرف انك يهودي ، فانا اقرا مقالاتك في الـ "هيرالد تربيون"» .

لم يبْدُ عليه أنه استوعب قولي . وكنت قد بدات استمْرئ صحبتي له . قلت له:

«انا مدعو هذا المساء للعشاء في دار الملحق التجاري البريطاني . اقترح ان تاتي معي فسوف تقابل عددا من الناس وتستمع الى آراء مفيدة» .

قبل اقتراحي على مضض ، وقدّرت انه اعتبر ان في ذلك تقليلا من قيمته ، ان يبدا نشاطه الاجتماعي في الدوحة ، بدعوة من ملحق تجاري لا اكثر، وليس بدعوة من سفير او وزير . لكنني كنت اعلم ان تلك الامسية في دار الملحق التجاري البريطاني ، سوف تحدث قدرا ليس قليلا من الفوضى في عقل مستر جوزف كرافت . كان «ديفيد رايت» شابا ودودا مستنيرا ، وكانت تجمعني به صلة حسنة . لذلك كنت اعلم يقينا ان ميله للعرب لم يكن من قبيل النفاق الدبلوماسي، ولكنه كان عن قناعة حقيقية لديه .

فتحت لمستر جوزف كرافت باب السيارة ، وانحنيت له بطريقة مبالغ فيها ، وقلت له :

«تفضل يا مستر كرافت ، فانت رجل مهم جدا» .

نظر الي شزرا ولم يقل شيئا ، وكنت قد أخذت اتمتع اكثر بصحبتي لذلك الانسان العجيب . وفي الطريق الى دار مستر «ديفد رايت» قطعت عليه صمته بغتة ، فقلت له:

«لعلك ظننت اننا سوف نرجمك بالحجارة او نعلقك من فرع شجرة لانك يهودي» .

لم يجبني ، لكنني كنت متأكدا ان عبارتي قد احدثت بلبلة كبيرة لديه .

«اسمع يا مستر كرافت . كونك يهوديا .. هذه حقيقة ليست «مدهشة» بالنسبة لنا» .

نظر الي وفتح فاه ، ولكنه لم يقل شيئا .

ولما وصلنا الى دار «ديفد رايت» اسرعت بالنزول قبله ، وفتحت له باب السيارة بالطريقة نفسها ، والعبارة نفسها .

«تفضل يا مستر كرافت فانت رجل مهم جدا» .

لكن سرعان ما طغى دفء استقبال مستر «ديفد رايت» لنا ، على اي اشمئزاز قد يكون خطر لمستر كرافت . فقد كان ديفد رايت انسانا عفويا ليس في طبعه التحفظ المأثور عن الانجليز . وجدنا بالفعل ، خليطا من الناس، عربا واوروبيين . واتخذ الحديث طرقا متشعبة ، من السياسة الى الادب الى الفن الى التاريخ . وكنت معنيا طوال السهرة بوقع كل ذلك على صاحبي مستر جوزف كرافت ، فارى وجهه يرْبدُّ احيانا وينبسط احيانا ، لكنه ظل صامتا لا يفصح عما يختلج في صدره . ولما عدت به الى فندق الخليج ، قلت له:

«ارجو الا تكون وجدت هذه الامسية مضيعة لوقتك الثمين» .

نظر الي برهة خلال نظارتيه السميكتين ، وخُيل اليّ ان طيف ابتسامة حوّم حول عينيه ، كانه ادرك ، أنه ان كان جاء يطلب صيدا ضخما ، فقد صادف صيادا له أحابيل من نوع لم يخطر له على بال .

في الصباح رافقته لمقابلة وزير الاعلام ، فاستقبله الوزير بلطفه المعهود وابتسامته المضيئة . ولا بد ان مستر كرافت عجب أصلا ان شابا عربيا يلبس الغطرة والعقال ، يمكن ان يتحدث اللغة الانجليزية بتلك الطلاقة ، ويُقلّب الافكار بتلك المهارة . ثم مضينا في زياراتنا التي تُوّجت بمقابلة سمو الامير. ولما خرجنا من عنده نظرت الى صاحبي فاذا هو ، لاول مرة ، فرحا ، منفعلا من شدة الفرح . واذا ذلك الوجه المتجهم باساريره المشدودة ، كانه وجهٌ لانسان آخر . كنت اعلم ان الذي ألمّ به قد حدث لانه قد وجد «صيدا ضخما» على حد قوله . قال لي وهو على تلك الحالة :

«بيني.. هذا الامير انسان لطيف . هؤلاء الناس لا باس بهم . لا باس بهم ابدا» .

قلت اعكس عليه الآية هذه المرة . فنظرت اليه كما كان ينظر اليّ طوال مرافقتي له ، ولم اقل شيئا .

ثم جمعته بمستر «هوارد» الذي كان يزور الدوحة في الفترة نفسها ، ويقيم هو ايضا في فندق الخليج . كان مستر «هوارد» امريكيا من الولايات الجنوبية . شديد العداء للصهيونية ولاسرائيل ولليهود على وجه العموم . وقد انتج فلما عن احتلال اسرائيل لمدينة القنيطرة . وسرعان ما شبّت بين الرجلين حرب كلامية لا هوادة فيها ، وجلست بينهما ، لا اشارك في الجدل ، ولكنني استمع وأضحك . امريكي يكره الصهيونية واليهود ، وامريكي يهودي متحمس للصهيونية ، وكأنهما في حلبة ملاكمة . ورأيت صاحبي مستر جوزف كرافت ينوء تحت وابل اللكمات التي وجهها له مستر «هوارد» فقد كان هذا ملاكما شرسا ، يضرب كيفما اتفق ، ويضرب بلا شفقة .

ولما ودعت مستر جوزف كرافت في المطار احسست انه يتركنا وهو في حيرة عظيمة من امره . كان وجهه وهو يغادر الدوحة مختلفا عن الوجه الذي جاء به . وتابعت مقالاته في صحيفة الـ «هيرالد تربيون» مدة بعد تلك الرحلة ، فلم اجد انه ذكر زيارته بالخير او بالشر وان كنت لاحظت ان حماسه للصهيونية قد فتر بدرجة نسبية . ثم وانا في باريس قرات نبأ وفاته . تذكرت صحبتي له في الدوحة ، واللحظات الممتعة التي اتاحها لي من معابثتي اياه . ولا أخفي عليكم أنني شعرت بشيء من الحزن ■

نحو أفق بعيد

—١٣—



يكتبها : الطيب صالح

لا اظن ان احدا في هذا العصر، شاعرا او ناثرا، وقف على اطلال العالم القديم في نجد، ذلك العالم الذي تقوضت اركانه تحت وطأة التقدم والعمران . كما وقف الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري . ما من احد بكى بكاءه . ولا احد رثى رثاءه . ليس لانه لا يؤمن بالتقدم والعمران ، فهو في احاديثه وكتبه ، مقتنع بفوائد العلم ، متحمس للتغيير مسحور بانجازات الحضارة التكنولوجية . ولكن لانه وعى بحسه المرهف ان كل ربح وراءه خسارة ، وكل انجاز يصحبه ضياع ، وان ذلك العالم المفقود الذي يرتفع على انقاضه هذا العالم الجديد الاكثر رفاهية ، كان على علاته ، عالما اليفا ودودا .

ساقتني الى معرفته وانا في الدوحة منذ نحو عشر سنوات ، رسالة جاءتني منه على غير معرفة سابقة . كنت قد ذهبت لزيارة المملكة العربية السعودية عدة مرات ، فلم استطع تلبية الدعوة لسبب او لآخر . ثم جاءتني تلك الرسالة الجميلة ، والتي تضمنت ، كما ادركت فيما بعد ، كل خصائص اسلوب الشيخ عبد العزيز: صفاء اللغة ، وحرارة التعبير ، وسبحات الخيال ، واضاءات من فكر طريف ، تلمع فجاة بين السطور . قال لي الشيخ في رسالته :

ان صوتي قد وصله ، وانه يحب ان يتعرف بي . لم اكن اعرف من هو الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري ، ولكنني احسست ان هاهنا رجلاً غير عادي،

يستحق ان يسعى الانسان اليه . فانا كما قال البحتري «أكلف بالاشراف طرّا من كل سنخ واسٍ» . الكاتب يخاطب الناس جميعا ، ولكنه يكتب بصفةٍ خاصة لاناس «مختارين» قد يعرفهم وقد لا يعرفهم ولكنه يعلم انهم اذا سمعوا أرهفوا السمع ، واذا نظروا دققوا النظر واذا ناداهم صوت محب ، استجابوا له بمحبة ، دون قيد ولا شرط. هؤلاء هم الناس الذين اذا قرات لهم ، او علمت انهم يقراون لك ، احسست بالـ «ونس» كما يقول يوسف ادريس . فهذا عالم موحش ، وعالم الكتابة اكثر وحشة ، وهذه الإرواح المجنّدة ، والاصوات المتآلفة المتواصلة ، تخفف من وحشة العالم ، وتهوّن ولو قليلاً ، من احزان حامل القلم .

وهكذا كان . رايت قبساً من ضوء الشيخ في تلك الرسالة فقلت اسير وراءه واتقفّى اثره ، والحكمة ضالة المؤمن ، وكذلك المحبة . ولم اكن اعلم حينئذ ان الشيخ نفسه ، كان منجذبا الى ضوء عجيب ، وصوت عبقري فريد . كان الضوء لطيفاً ، وكان الصوت ، صوت الشيخ ، اليفا صافيا لا يشوبه كدر . ثم اذا انا في مجلس اهل في الرياض، واذا انا برجل كالسيف ، اقرب الى الطول، واقرب الى النحول ، اسمر مشرب بحمرة عليه وَسامٌ كرذاذ المطر خلف زجاج النافذة . لعله في الاربعين او لعله في السبعين . يبتسم . ولكن لم يغب عني انه مثقل بالاحزان ، ولكنها احزان نبيلة ، كالتي عاناها الشعراء في هذه الديار منذ عهد نابغة بني ذبيان . ولان فؤادي ليس خلْواً من هذا كله ، فقد سلمت عليه وكانني اعرفه من زمن ، سلمت عليه بمودة مشوبة بالعطف . ولم العطف ؟ لقد مضيت بعد ذلك في علاقتي بهذا الانسان الفريد ، أعجب به وأحبه ، واشفق عليه ، فذلكم العطف ، وهو يرثي لحالي ، وتلك لعمري قسمة عادلة وعلاقة متكافئة .

مثل اخي فتح الرحمن البشير، اقول لنفسي ، يا للعجب ، كانهما توامان . تلك الحيوية ، وتلك الازيحيّة . كان قلبه يخرج من بين اضلاعه ويسابق بدنه ليلقاك مرحّبا . يهش لك ويسحبك من يدك سحبا ، ويدنيك من مجلسه ، ويقحم الطعام عليك اقحاما ، ويبذل لك من نفسه كانك الوحيد لديه ، وكل واحد عنده سيان في بذله .

اعجبتني داره ، وهي مجموعة دور حول حوض سباحة . قلت له ذلك ، فقال ضاحكا «هذا من علامات الساعة» .

سالته لم ذلك ، فقال :

«الا تعرف الحديث الشريف ان من علامات الساعة ان يتطاول الحفاة العراة رعاة الابل في البنيان؟» .

كذلك هو . يبالغ في التهوين من شان نفسه ، ويسخر من حوله وطوْله ويؤكد لكل من يلقاه انه جاهل لم يدخل مدرسة ولم يتعلم في جامعة . ولقد رايته منذ عامين اثناء مهرجان الجنادرية ، يهدي كتبه لأكثر من عشرين كاتباً ومفكراً . كان يملي اهداء يملأ صفحة كاملة لكل واحد منهم ، وكل اهداء مغاير لما سبقه ، وفي كل اهداء فكرة طريفة او عبارة انيقة لم ترد من قبل . ثم رايته اوائل هذا العام ، يتحدث في داره الى جمع غفير من اساتذة الجامعة الامريكيين . بدأ حديثه كعادته بالتاكيد على جهله ، ثم حلّق في آفاق شاسعة ، متنقلاً من السياسة الى الادب الى التاريخ ، خالطاً الجد بالهزل ، يمس برفق مكامن سوء الفهم لديهم ، ويصحح ما علق باذهانهم من تصورات خاطئة عن العرب والمسلمين ، بمهارة تثير الاعجاب . وبعد ان فرغ من حديثه واجاب عن تساؤلاتهم ، شكره اكبر الاساتذة سناً وقال له في ختام كلمته

«قلت لنا انك جاهل واننا علماء . ولكن صدقني انك انت الاستاذ ونحن الجهلاء . لقد شعرنا اثناء حديثك اننا تلاميذ نجلس بين يدي استاذ» .

انما الشيخ عبد العزيز ، قد جلس من المتنبي كما يجلس التلميذ بين يدي استاذه . وانزل نفسه منه بمنزلة التابع ، يقتفي اثره بين اليمامة والدهناء يحل اذا حل ويرحل اذا رحل . يلازمه كظله ، يحاوره ويداوره يوافقه ويخالفه ، يحبه ويحاول ان يجد فكاكا من حبه . ولكن هيهات فكل من وقع في اسر المتنبي، اصبح اسيراً ليس له فكاك . وهذه العلاقة التي ابتدعها الشيخ عبد العزيز ، هي في حد ذاتها نمط جديد ، ليس له نظير في الادب العربي. قلت للشيخ :-

«هذه العلاقة التي رسمتها لنفسك ازاء المتنبي علاقة عجيبة . لقد كان المتنبي يامل طوال حياته ان يحصل على مثل ما حصلت انت عليه . الم يكن يسعى ، لا يمل ... السعي ، وراء الرفعة والسلطان؟ ثم ها انتذا وكانك تود لو كان لك ما كان للمتنبي . وكانك تريد ان تكون المتنبي وسيف الدولة في آن واحد» .

لكنني ايقنت بعد ذلك ، حين عرفت الشيخ اكثر ، انه لا يطمع مثل هذا الطموح ، وان تقفيه اثر المتنبي بين اليمامة والدهناء، كان بمثابة جري وراء اطياف العالم الذي الفه واحبه في طفولته وصباه ثم ضاع منه الى غير رجعة . لذلك فهو يقيناً امتداد لكل اولئك الشعراء الذين مروا بهذه الديار، ووقفوا على اطلالها، وناجوا اطياف محبوباتهم على كثبانها واوديتها وجبالها . اليس صوت الشيخ عبد العزيز يذكر بصوت غيلان ، ذي الرمة ، وهو يقف على رمال الدهناء ذاتها التي وقف عليها الشيخ ؟

تحن الى ميّ كما حن نازع
دعاه الهوى فارتاد من قيده قصْرا
فقلت اربعا يا صاحبيّ بدمنةٍ
بذي الرمْث قد اقوتْ منازلُها عصرا

بلى . ولكن حيث جرى امرؤ القيس وراء طيف صاحبته «هر» ، ولاحق عنترة اطياف عبلة بين لمعان الاسنة ، وبكى إمامُ الباكين غيلان ، طويلا على اطلال ميّ ، فان الشيخ عبد العزيز قد ابتدع رمزا جديدا طريفا ، هو في الوقت نفسه امتداد لتلك الرموز ، فلاحق خيال الشاعر العبقري الذي ابتلع في جوفه اخيلة كل اولئك الشعراء . وتلك ، وايم الحق ، جراة من الشيخ ليس مثلها جراة .

هل ثمة سلمى او ليلى او هند او ميّ؟ لا بد . اذا لماذا لم يبح الشيخ بكل اسراره ، ولماذا اختار هذا الرمز العسير، والرموز الغريبة المثال بين يديه؟

في تلك الزيارة ، سمعت لاول مرة قراءات لرسائل الشيخ للمتنبي . اعجبني الصوت واتضح لي الضوء اكثر. فكنت واحداً من كثيرين اهابوا به ان ينشر كتاباته على الملا . تردد كثيرا ، يقدم ويُحجم، وبعد لأي اصدر كتابه الاول «في اثر المتنبي بين اليمامة والدهناء» بعد ان اطال فيه النظر ، وحذف منه اجزاء كثيرة جميلة ، ليته ابقاها . استقبل الكتاب، كما توقعت ، باستحسان كبير . ثم اخرج الشيخ كتابه «رسائل الى ولدي» في جزاين، اعقبه كتابه «حاطب ليل ضجر» . وما يزال عنده الكثير، لم يشا ان ينشره بعد .

ولكن الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، اكثر من هذا كله ، على ان هذا ليس قليلا . انه انسان متميز ، من اميز الناس الذين عرفتهم . وهو حيث هو في الرياض، يشع ضوءا يضيء مساحات واسعة حوله . لقد اثنى عليه وعلى كتاباته اناس كثيرون ، بينهم علماء اجلاء ، امثال الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور حسن ظاظا والدكتور مصطفى هدارة ومنهم نقاد كبار مثل رجاء النقاش. وكانوا صادقين فيما ذهبوا اليه. وكنت قد اليت على نفسي ان ارجىء الحديث عنه الى حين. يقول لي الشيخ :-

«انت يا الطيب صالح القيتني على قارعة الطريق ثم تركتني» .

واقول له :

«اخشى ان تظن انني اجاملك . فقلت اترك غيري يكتبون عنك . وها انت ترى اساتذة كبارا هم خير مني ، يعبرون عن اعجابهم بكتاباتك» .

وبعد ، فليس هذا ما اردت ان اقوله عن هذا الشيخ الجليل والانسان الفريد ، فان الحديث عنه يطول ، وسوف ياتي وقته ان شاء الله . انما هذا الان ، فقط احتفاء بابلال الشيخ من علته ، وعودته سالما الى حماه ليواصل باذن الله ، الدور الذي ارتضاه لنفسه ، دليلا للحائرين ، ومنارة للسارين والمقوين

نحو أفق بعيد

١٤

يكتبها: الطيب صالح

مايكل أدمز كان شأنه مختلفا عن اولئك الصحفيين الاوروبيين الذين حلوا على هذه الديار الأمنة، كمل تحل عصابة من قطاع الطرق.

خلال السنوات التي قضيتها في وزارة الاعلام القطرية، رأيت أنماطا عجيبة من البشر. مروا امام ناظري كما تمر الاشباح. منهم افاقون وباحثون عن الشهرة وباحثون عن ادوار يلعبونها على مسرح الحياة وهاربون من سأم الحياة التي ألفوها في بلادهم. وقليل منهم المخلص الباحث عن الحقيقة.

ذلك الصحفي الذي اتفقنا معه على نشر ملحق عن دولة قطر. اشترينا منه كذا صفحة بثمن كبير، لعراقة الصحيفة وسعة انتشارها، وساعدناه على جمع الاعلانات. ثم صدر الملحق فاذا به يتضمن مقالات لا علم لنا بها، مليئة بالاخطاء وسوء الفهم. اعترضت على ذلك، فقال لي:

«هذه مادة تحريرية لا سيطرة لقسم الاعلانات عليها».

«انتم تنشرون مثل هذه المقالات في صحيفتكم على اي حال. ولكن لماذا تصرون عليها الآن في هذا الملحق بالذات. علماً بانه لم يكن ليصدر لولا الصفحات التي اشتريناها منكم والاعلانات التي ساعدناكم على جمعها؟».

«انت تعلم بان صحافتنا حرة، ومثل هذه المادة تعطي الصحيفة مصداقيتها. هذه هي الحقائق كما نراها فهل تريدوننا ان نغير الحقائق لمجرد انكم اشتريتم منا بضع صفحات؟».

«اسمع. لا تحدثني عن حرية الصحافة، فانا افهم جيداً ماذا تعني حرية صحافتكم. أليس عندكم مثل يقول «الذي يدفع أجر المغني من حقه ان يختار الاغنية؟». هل تريد ان تقنعني أن دولة قطر تدفع لكم مبلغا ليس قليلاً لتصدروا ملحقاً تشتمونها فيه؟ اي منطق هذا؟».

احيانا كانوا يقتنعون بوجهة نظرنا، واحيانا كنا نضطر الى ايقاف التعامل معهم.

ومرة جاءني صحفي يعرض علي ان ننشر ملحقا عندهم. وخطر لي ان اعبث به قليلا. قلت له:

«وما هي الفائدة من ذلك؟».

«أليس هذا واضحا؟ توجد هنا حركة تنمية عظيمة. وللدولة احتياجات كثيرة. لا بد ان تعلن دولة قطر عن احتياجاتها فتعلم بها شركاتنا فتاتي الى هنا وتساعد الدولة في انجاز التنمية».

«شيء عجيب. تقصد ان دولة قطر تدفع كل هذا المال لصحيفتكم لتقولوا لشركاتكم «دولة قطر تريد ان تعطيكم مالاً اذهبوا وخذوه منها؟». أليس المعقول هو ان يحدث العكس؟».

«ماذا تعني؟».

«أعني ان تعلن شركاتكم عن نفسها في الصحف القطرية، فيعلم القطريون بوجودها فاذا كانت لهم حاجة بها تعاملوا معها. تذكر يا مستر.. ان شركاتكم ليست الوحيدة في السوق، ودولتكم ليست الوحيدة في العالم».

بعضهم كان كأنه يستيقظ من نوم، وكأنه نسي ان عهدا قد انقضى، وعهداً قد اطل. وأحياناً كان الواحد منهم حين يبلغ به الضيق مبلغه وتعوزه الحجة، يتفرس في وجهي طويلا، ثم يقول لي بصوت بارد:

«أنت لست قطرياً. أليس كذلك؟».

كنت حين أوصل الواحد منهم الى هذا الحد، احس ان يومي لم يذهب سدى، فقد كنت اعلم تمام العلم ماذا يقصد بقوله. وأنّى له ان يدرك ان كوني لست قطريا ما كان ليغير من الامر شيئا. وأنى له ان يدرك انه ان كان قد جاء يطلب صيداً، فقد لاقى صياداً له شباك من نوع آخر. انه يرى امامه رجلا يجلس وراء مكتبه على شكل حدوة حصان منفرجة، في مكتب مُصفر الحيطان في الطابق العلوي من مبنى التلفزيون. انه يشغل منصباً ليس ذا خطر، في حقيقة الامر. ولكنه قد يبدو لوهلة للطامعين والمغامرين والحالمين، انه قد يكون وسيلة لتحقيق كل ذلك. انه وضع صعب. واصعب منه الرجل الذي يجلس وراء ذلك الرجل، رجل لا يرونه ولكنه يراقب عبث الناس وألاعيب الحياة، كأنه بمعزل عنها. ويمتص التجاريب كما تمتص الصحراء قطرات المطر. يتركها تتجمع وتغور بعيدا في قيعان الذاكرة. ثم ينساها. يتركها تنصهر في بوتقة «الفن». ريثما تنضج، وهو يعلم انها سوف تطفو فجأة بعد أمد، على هيئات مختلفة، واشكال لم تكن في الحسبان.

هكذا كنت أسرّي عن نفسي، وأُدافع الوحشة التي تخامرني. وحشة الكتاب والشعراء والمفكرين. حين أجد الوقت وخلو البال اسري عن نفسي بمثل تلك المواجهات والمعابثات. ولا انكر انني كنت اقسو على الانجليز بصفة خاصة، فانا أخبر بمسالكهم. وأنا في حقيقة الامر اكثر ميلاً اليهم من بقية الاوروبيين، فقد عاشرتهم زمناً، ومارست عندهم اكثر تُرهات حياتي، ايام كان الشباب «مطيّة الجهل، ومحسّن الصبوات والعزَل». وقد اكلت من عيشهم وملحهم، وعلمت علم اليقين، انهم رغم كل شيء وعلى علاتهم، قوم خيرهم اغلب من شرهم.

بلى. كان الخير وفيراً في تلك الايام، فجذب افواجا الى تلك الارض الهادئة القصية من بلاد العرب، كما يتجمع الذباب على صحن العسل، وكنت أقول «ليتني اجد الوقت لأسجل كل هذا. هذا يصلح شخصية في رواية وهذا لو رسمته كما هو على الورق لما صدقني احد».

لكن مايكل أدمز كان من طراز آخر

نحو أفق بعيد

—١٥—



يكتبها : الطيب صالح

لا اعلم كيف بدأت صلة مـايكل آدمز بـالعـالم العـربي، ولكنني أذكـره في الخمسينات والستينات، يكتب بانتظام في صحيفة الـ «غارديان» منذ أن كان اسمها، الـ «مانشستر غارديان». كان واحدا من الكتاب المرموقـين، من حفنة اعطوا هذه الصحيفة العتيدة، السمعة التي تتمتع بها الى اليوم. منهم «ديفد هولدن» الذي قُتل منذ سنوات في القـاهرة في ظـروف غامضـة. ومنهم «جيمس موريس» الذي تحول الى امراة وهو على عتبة الاربعين بعد ان تزوج وانجب، وما يزال يكتب باسم جان موريس.

كيف حاقت بمايكل آدمز بلوى الدفـاع عن قضايا العرب. فذلك بالنسبة للكاتب الاوروبي والامريكي امتحان عسير وبلاء مستطير وعبء لا يقوى على حمله الا اولو العزم؟

لقد حطم تبني قضايا العرب، بريطانيين سُراة منذ لورد كيرْزُنْ الذي كان يبدو وكأنه سفينة لن تغرق. كان من صفوة الارستقراطية البريطانية، الى ثراء واقتدار وسعة نفوذ وجاذبية، جعلت من المؤكد انه سوف يصبح رئيساً للوزارة. كـان وزيراً في وزارة «لويد جورج» التي اصدرت وعد بلفور المشؤوم، وما كان محباً للعرب بقدر ما كان محباً للحق. ظل يقاوم ببسالة ولا ينى عن الالحاح في مجلس الوزراء «انتم تتحدثون عن اعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين. انكم تقصدون قيام «دولة» يهودية في فلسطين. والارض ليست خالية من السكان». لم يُصغ احد لكلامه وتبددت احلامه في رئاسة الوزارة. ثم مستر «ارنست بفِنْ» وزير الخارجية في حكومة العمال برئاسة «كلِمِنْت أتلي». كان في شكله الجسمي، وفي قوته وسعة نفوذه في الحزب، يبدو هو الآخر مثل بارجة حربية لا يمكن اغراقها. صرخ في مجلس العموم في وجه النواب اليهود «انني ارى هنا يهوداً ولكنني لا ارى عرباً». فقد منصبه ومات كسير القلب. ثم مستر «انتوني نَتِنْغْ». كان وزيراً للدولة في وزارة الخارجية وكان مقرّبا من رئيس الوزراء «انتوني إيدن». وكانوا يتحدثون عنه كرئيس وزراء مقبل. كانت انجمه في صعود، ومقاديره في صعود. استقال من منصبه اثناء حرب ٥٦، حين تآمرت بريطانيا وفرنسا مع اسرائيل على غزو مصر، وقال في خطاب استقالته الموجه الى استاذه وصديقه ووليّه «يؤسفني انني لا استطيع ان ادافع عن سياسة حكومة صاحبة الجلالة». ماذا حدث له واين هو الآن؟

حتى «جورج براون» المسكين. كان محتملا ان يكون رئيساً لحزب العمال ورئيسا للوزارة بدلا من «هارولد ولسن». لم يكن العرب في حد ذاتهم يعنونه كثيراً ولعله كان أميل لليهود فقد كانت زوجته يهودية. ولكنه كان أرْيَحي النفس شجاع القلب، ولعله فهم ابعاد القضية الفلسطينية بفضل مجهودات بذلها رجال أمثال اميل البستاني. في تلك الايام الحالكة بعد هزيمة ٦٧، حين عزّ النصير، كان صوته من الاصوات القليلة التي ارتفعت في بريطانيا منادياً «الفلسطينيون لهم قضية». الفلسطينيون لهم قضية، فقد كل شيء، ومات من كثرة الشراب ووجع القلب.

من هؤلاء الناس الشرفاء، يهود ايضا، منذ لورد مُنْتاجيو الوزير اليهودي الوحيد في حكومة لويد جورج. ومنهم يهود امريكيون امثال «حنا ارنْدْت» و«ناعوم جُمْسْكي» و«الفرد ليلينْتال»، بل واسرائيليون مثل الجنرال «ماتِيُو بلِدْ»، الذي كان قائداً للطيران الاسرائيلي في حرب ٦٧، ثم تغيرت حياته، وتخصص في اللغة العربية، وكان احد اساتذته في جامعة «بيركلي» الشاعر الفلسطيني المرحوم توفيق صايغ. وهو الآن استاذ اللغة العربية في الجامعة العبرية.

ما الذي رمى بمستر مايكل آدمز هذا المرمى، وأصابه بهذه العدوى؟

لا أدري، ولكنني اعلم ان بـريطانيـا بقدر مـا الحقت اضرارا جسيمـة بالعرب، ظهر فيها دائما اناس شرفاء رجالاً ونسـاء، سبحوا عكس التيـار وتصدوا لآراء قوية معاكسة. ولم يجبُنوا عن المناداة بما رأوا أنه الحق والعدل. وتلك والحق يقال، سجية في طبعهم. الدفاع عن «القضايا الخاسرة» والتحيز للضعيف. ولعل ذلك لا يرضي غرور العرب الذين ينهزمون وكأنهم ينتصرون، ويُخيّل لهم مع خسرانهم انهم رابحون!

كذلك أنا اعلم، ان ديار العرب، باتساعها وتنوعها وذكائها وغبائها وسحرها وأوهـامها وهداها وأباطيلها، قد جذبت اليها منذ دهر، اوروبيـين كثيرين. وانجليـز بصفة خـاصة، جاءوا اليها لاسباب شتى ثم وقعوا في اسرها فلم يستطيعوا منه فكاكاً. لورد ولفرد بلَنْت، وسير رتشـارد بيرْتُن وفـيرترود بـل، وليدي هِسْتَـرْ ستانْهوب، وداوْتي وثِسِجَرْ، وتي اي لورنس. وليدي دَفْ قوردُنْ وفِلْبي وغيرهم. هذا العالم الذي بدا لهم كسراب الصحراء، أغواهم وحيرهم وأربك عليهم حياتهم، وكانوا منه كما قال المتنبي العظيم الذي يصيب كبد الحقيقة كلّ مرة:

وتـولّـوْا بغصّـة كلّهـم منـه
وأنّ سرّ بـعـضـهـم أحيـانـا.

لكن مايكل آدمز حين تقابله لا يبدو لك كأنه يمكن ان يكون اسيراً لأية اوهام.

ترى رجلاً هادئاً واضحاً جم التواضع. ولعلك لا تدرك الا اذا امعنت النظر، ان تحت ذلك الإهاب، فؤاداً جريئا، وعقلا مصمّما اذا وقرتْ فيه فكرة آمن بها، لا يتزحزح عنها، ويدافع عنها حتى آخر رمق.

كان، كما قلت لكم، صحفياً مرموقاً، ولو سارت به الامور سيرا طبيعيا، لاصبح دون شك رئيساً لتحرير صحيفة كبرى. ثم قليلا قليلا بدأ يغطس في ذلك البحر العربي المتلاطم الامواج. اخذت مقالاته تزداد قوة واحساسه بالغبن الذي حاق بالفلسطينيين يزداد حدة. وكانت مقالاته شيئاً آخر، قليلون من يستطيعون ان يكتبوا مثلها حتى من العرب انفسهم. كان صوته قوياً واضحاً مخلصاً ينفذ الى العقل والقلب معا. وقليلا قليلا بدأ نجمه يأفل وبدأت حظوظه تنعكس. ثم انقطع عن الكتابة اللهم الا من مقالة او رسالة تنشرها لـه الـ «غارديان» او الـ «تايمز» من حين الى آخر على استحياء.

قابلته في باريس منذ بضع سنوات في مؤتمر من هذه المؤتمرات، دعوته الى داري مع آخرين، منهم الدبلوماسية الذكية النشطة ليلى فانوس، ومنهم مستر روبرت ستيفنْ الذي كان يعمل وقتها محررا للشؤون السياسية في صحيفة «الاوبزرفر» ويتولى شرح قضايا العرب بأسلوبه الهادىء، مثله في ذلك مثل زوجته الدكتورة هِلْقا قريفْهِمْ. سألته ماذا يعمل فأجابني ببساطة:

«أعمل دليلا سياحياً».

عجبت أشد العجب وقلت له:

«ماذا تقصد دليلاً سياحياً؟».

«أرافق السواح الى البلاد العربية، وقد عدت لتوي من زيارة لعُمان».

ولما رأى دهشتي تزداد، قال لي، دون أي انفعال:

«عندي ولدان يدرسان في الجامعة ولا بد ان اكسب عيشي بطريقة ما».

سكت، ولكنني ردّدت بيني وبين نفسي قول الشاعر الانجليزي:

«ماء ماء حيثما نظرت، ولا قطرة واحدة تشرب».

بعد ذلك في جولاتي في العالم العربي، كنت أقول لكل من أقابلهم من اصحاب الشأن ومن بيدهم الحل والربط:

«هل تعلمون ان مايكل آدمز.. مايكل آدمز.. يعمل دليلاً سياحياً؟».

وكانوا يتعجبون أشد العجب، ويَعِدون خيرا.

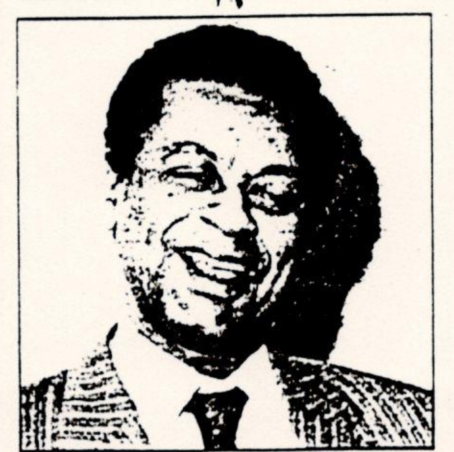
ثم هبّت لنجدته دولة قطر.

انه الآن، حسب علمي، يحيا حياة اكاديمية هادئة. ارجو له العافية وراحة البال، حيثما كان، فقد حق له ان يستريح.

ثم، يا رعاك الله. أليس أهل مكة أدرى بشعابها؟ بل أليس أهلُ مكة أوْلى برمْضاءِ أرضها ومَطَل سحابها؟

نحو أفق بعيد

-١٦-



يكتبها : الطيب صالح

في مثل هذا الوقت من العام الماضي توفي رجل لم يكن مهماً بموازين الدنيا. ولكنه كان مهماً في عرف ناس قليلين، مثلي، قبلوه على عواهنه، واحبوه على علاته. رجل قطع رحلة الحياة القصيرة وثبا وشغل مساحة اكبر مما كان متاحا له، واحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه، ضوضاء عظيمة. حمل عدة اسماء، احمد منسي يوسف، ومنسي يوسف بسطاوروس، ومايكل جوزف. ومثل على مسرح الحياة عدة ادوار، حمالا وممرضاً ومدرساً وممثلا ومترجماً وكاتباً واستاذاً جامعياً ورجل اعمال ومهرجا. ولد على ملة ومات على ملة. ترك ابناء مسيحيين وارملة وابناء مسلمين. حين عرفته اول مرة، كان فقيرا معدما، ولما مات ترك مزرعة من مائتي فدان من اجود الاراضي في جنوب انجلترا، وقصرا ذا اجنحة، وحمام سباحة، واسطبلات خيل، وسيارة «رولزرويس» و«كاديلاك» و«مرسيدس» و«جاغوار» وماركات اخرى. وخلف ايضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية «فرجينيا» بالولايات المتحدة، وبيتاً في «واشنطن» ومطعماً وشركة سياحة.

لما بلغني نبأ وفاته، اتصلت بداره في «ثانتشبري» في ضواحي ساوثهامبتون» بانجلترا. اجابني صوت امريكي لشاب، هو ابنه الاكبر «سايمون» علمت منه ان الموت اخذ اباه على حين غرة وهو في اوج الصحة والعافية، فاصيب بسرطان الكبد الذي قضى عليه خلال اسابيع، وكنت وقتها في السودان. ثم خطر لي ان اساله كيف دفن ابوه فاخبرني انهم لم يدفنوه بعد، وكان قد مضى على موته نحو عشرة ايام، وانهم ينتظرون ان تتم الاجراءات لحرق جثمانه.

قلت له «ولكن اباك رجل مسلم، وحرق الجثمان محرم عند المسلمين».

فاجابني «نحن لا نعلم عن اسلامه شيئا. الذي نعلمه ان والدنا كان مسيحياً،وكان يقول لنا «حين اموت احرقوا جثماني».

قلت له «اسمع. لا يوجد ادنى شك ان اباك كان مسلماً، وانا شاهد على ذلك. انه امر خطير ان تحرقوا جثمان رجل مسلم. وتذكر ان اباك خلف ارملة مسلمة ولكم منها اخ مسلم. اذا قلتم انه لم يكن مسلماً فمعنى هذا ان زواجه هذا كان باطلا».

اتصلت بزوجته في الرياض فاستغاثت بوزارة الخارجية السعودية التي سارعت بالتدخل، فحسم الامر، ودفن «منسي» - كما كنا نسميه - كمسلم، واقيمت عليه شعائر المسلمين، وذلك بعد نحو شهر من موته. ومع ذلك نشرت صحيفة «الاهرام» ان اهله في مصر اقاموا القداس على روحه في الكنيسة القبطية. ورغم حزني عليه فقد ضحكت. قلت هكذا «منسي» لغز في حياته ولغز في مماته. لقد اربك الناس حوله وهو حي، وهاهو يربكهم وهو ميت. كانت الحياة بالنسبة له، نكتة كبيرة، وضحكة متصلة لا تنقطع. كانت الحياة، سلسلة من «شغل الحلبسة» كما كان يقول.

ولد ونشا قبطيا في بلدة «ملاوي» في عمق صعيد مصر. وكان يقول لنا انه كان يقضي معظم اوقاته مع اطفال المسلمين من سنه، فنشا اقرب الى المسلمين. توفيت والدته وهو بعد صبي، وكان اكبر اخوته، وتزوج ابوه وانجب بعدها. وهذه حقيقة مهمة في حياته. كانوا فقراء مستورين ولم تكن الحياة سهلة. وصل الجامعة بعد جهد، فدرس اللغة الانجليزية في جامعة الاسكندرية فاتقنها، لفظاً ومعنى، بشكل ملفت للنظر، وكان اضرابه قليلين في اتقانه للغة الانجليزية بين من عرفت من العرب. كان صعبا ان يقتنع الناس ان «منسي» في عبثه وهذره يمكن ان يتقن اي شيء. وقد قضيت كل سنوات معرفتي له، احاول ان اقنع الناس، انه انسان عنده مواهب، وانه يتقن اشياء كثيرة. قاده حبه للغة الانجليزية بطبيعة الحال، الى انجلترا، فوصلها العام ٥٢، بعد سلسلة من المغامرات والالاعيب والـ «اونطة» وانخرط في الدراسة في جامعة ليفربول. كان فقيراً لا يملك قوت يومه، فكان يدرس ويعمل، فعمل حمالا وغاسلا للصحون في المطاعم، وممرضا. ثم انتقل الى لندن. وكان في كل تحركاته كما اخبرنا فيما بعد، يستعين بالجمعيات الخيرية والهيئات الكنسية ويلعب على كل الحبال.

عرفته العام ٥٣، اول عهدي بهيئة الاذاعة البريطانية، فكنا نعطيه اشياء يكتبها او يترجمها وادواراً صغيرة في التمثيليات الاذاعية تعينه على العيش والدراسة. ظل طول حياته يحب التمثيل، وحتى بعد ان اثرى، كان ياتي الى الاذاعة، ويؤدي ادوارا في التمثيليات، ويصر على تقاضي الاجر. وكنت اقول له «انت ممثل جيد في الحياة، ولكنك ممثل فاشل في الفن».

قبل ان تتوثق صلتي به في تلك الايام، زارني ذات يوم في داري، وكان يسكن مني غير بعيد في حي «فلهام» وانا في حي «ساوث كنزنجتون». قدم لي زوج جوارب من نوع رخيص. قلت له:

«ما هذا؟»

«هدية»

«وما هي المناسبة؟»

قال ضاحكاً:

«بمناسبة عيد ميلادك»

«اي عيد ميلاد؟ يا اخي اليوم ليس عيد ميلادي. وافرض انه عيد ميلادي. هذه رشوة».

قال ضاحكاً:

«يعني..»

«الله يخيبك. يعني حين تريد ان ترشوني، تعطيني رشوة لا تزيد قيمتها عن شلنين؟»

لم يبد عليه اي شعور بالحرج، وقد كانت تلك من ميزاته الكبرى في الحياة، انه لا يخجل ولا يهاب ولا يبالي ولا يحس بالحرج. قال لي وهو يضحك من اعماق قلبه، بطريقة طفولية كانت من مقومات جاذبيته:

«قلت اجرب. مين عارف؟»

لكننا اصبحنا صديقين حميمين بعد ذلك، بل انني من بين سائر اصدقائنا المشتركين، اصبحت بمثابة «اب روحي» له، رغم اننا كنا من سن واحدة، ربما لان الآخرين، عبد المنعم الرفاعي، واكرم صالح، وعبد الحي عبد الله، ونديم صوالحة وغيرهم، كانوا، على حبهم له، يعاملونه بفظاظة، ولا ياخذونه ماخذ الجد.

نحو أفق بعيد

— ١٧ —



يكتبها: الطيب صالح

لو ان قامة «منسي» كانت اقصر ببوصة واحدة او بوصتين، لاصبح قزماً. ومع تقدم السن، ترهّل جسمه، وصار له كرش كبير، ومؤخرة بارزة، فكانك تنظر الى كرة شقت نصفين، نصف اعلى ونصف أسفل. وكان شديد العناية بمظهره، يلبس قمصان الحرير، والـ «بدل» الفاخرة، يحصل عليها بانمان بخسة. كان باديء الامر يفصّل ثيابه عند «ترزي» في نواحي «هولبورن»، وكان هذا يحصل على القماش بسعر الجملة من محلات «دورْميني» المعروفة في بيكاديللي. وذات يوم انشغل فتطوع «منسي» ليحضر له القماش، فاعطاه الرجل بطاقته، واستغل «منسي» الفرصة فسجل اسمه عند «دورميي» على انه «ترزي» وحصل على بطاقة، واصبح بعد ذلك يحصل على القماش بسعر الجملة بهذه الصفة. واشهد ان «منسي» كان كريماً معنا، فكنا نذهب معه الى «دورميي» ونشتري ما يلزمنا بسعر الجملة. كذلك اكتشف «منسي» بقدرته الخارقة على الاكتشاف، ترزياً ماهراً في منطقة الـ «ايسْت آند» الفقيرة، يتقاضى ربع الاسعار التي يتقاضاها الترزية في وسط لندن، فاصبح يفصل ثيابه عنده. حتى بعد ان هاجر الى امريكا وفتح الله عليه هناك، كان يحضر خصيصا الى لندن، فيشتري القماش من «دورميي» ويفصله عند صاحبه ذاك في الـ «ايست اند». كان يقتني البدل والقمصان بالعشرات دفعة واحدة. ولا بد انه ترك كميات كبيرة منها بعد موته. لن يستفيد منها احد لسوء الحظ، لانني اشك ان يكون في كل هذا العالم الطويل العريض، شخص واحد مثل «منسي».

ومع ذلك لم يعدم طوال حياته نساء يحببْنه، بعضهن كن جميلات جمالا بيّنا، فارعات، تراه يختال الى جانب الواحدة منهن، فكان نخلة الى جانب شجرة الدُومْ. كان وجهه صبوحاً يميل الى الاستدارة تزحمه عينان واسعتان وقحتان يركزهما على محدثه طول الوقت، دون ان يطرف له جفن. وكانت تلك حيلة نعرفها عنه، فكنا نعابثه بوسائل شتى، وكان سريع الضحك، فلا يلبث وجهه ان يتكسّر بضحك طفولي. هذا مع سرعة بديهة وتملك تام لناصية اللغة الانجليزية، وقدرة عجيبة في الذهاب بها كل مذهب. وكان جريئاً، يقتحم الناس اقتحاماً، ويرفع الكلفة فوراً كانه يعرف الشخص من زمن، وكان هذا الشخص مهما علا شانه دونه مرتبة. رافقني الى حفل تخرجي من الجامعة، فقابل لاول مرة، سفيرا عربياً وزوجته، وكانا من اسرة حاكمة. انشغلت عنه فترة ولما عدت اليه، وجدته قد اوقف الرجل وزوجته، ووقف هو بينهما، يضرب الرجل على كتفه مرة، ويضرب السيدة على كتفها مرة، ويقول وهو يقهقه بالضحك:

«آه. اتكلموا كمان، والله لهجتكم ظريفة جداً».

جررته عنهما، وقلت له:-

«انت مجنون؟ الا تعرف هؤلاء؟».

«حيكونوا مين يعني؟».

ولما افهمته، قال:-

«وايه يعني؟»

كانت الوقاحة تنفعه احيانا، وتضره احياناً، ولكنها كانت تسعفه مع النساء في الغالب.

حكى لنا اوائل معرفتنا به، انه احب فتاة في ليفربول حبا ملك عليه نفسه، وقد خطبها وحدّدا موعد الزواج. ولكنها ماتت موتاً ماساوياً في حادث سيارة. قال انها كانت حبه الاول والاخير، وانه لن يتزوج بعدها، وسوف يظل وفيًا لذكراها الى الابد. كانت طريقته عجيبة في الحزن، يقول لك انه حزين، ولكن لا تبدو عليه اية علامات للحزن. لم يمض وقت طويل حين جاء يخبرنا انه قد تزوج. دهشنا دهشة عظيمة، ثم تاكدنا انه قد تزوج بالفعل فتاة من اسرة انجليزية عريقة تنحدر من سُلالة سير تُوماسْ مُوز. بعضنا كان يعرف من هو سير توماس مور. واللذين لم يسمعوا به من قبل اعطوا «منسي» الفرصة ليتباهى امامنا جميعا. فشرح للذين يعرفون وللذين لا يعرفون من هو سير توماس مور بلغة انجليزية متقعُرة وكاننا في فصل دراسي:-

«سير توماس مور جد زوجتي العزيزة هو الوزير الفيلسوف مؤلف كتاب «يُوتوبيا».. انت يا عبد الحي جاهل، طبعاً لم تسمع بكتاب «يوتوبيا». كان الوزير الاول للملك هنري الثامن. نعم. الملك الشهير الذي تزوج ثماني زوجات. امر الملك باعدامه لانه رفض ان يؤدي له قسم الولاء حين فصل الملك هنري الكنيسة الانجليزية عن سلطة الفاتيكان في روما. كذلك رفض سير توماس مور ان يطلق الملك زوجته كاثرين اوف اراجون ليتزوج من ان بولين. فاهمين يا جهلة؟ اه سير توماس مور هو بطل المسرحية التي الفها روبرت بولْت عنه. مسرحية «رجل لكل المواسم» هذا باختصار هو الرجل الذي تنحدر من سلالته زوجتنا العزيزة».

في مثل هذه المواقف يكون «منسي» في احسن حالاته. يستعرض اجادته للغة الانجليزية، ودقة معرفته بتاريخ الانجليز. وها هو الان يجد سببا اضافيا انه هو شخصيا قد اصبح جزءاً من تاريخ الانجليز. وازداد عجبنا حين علمنا ان «العروس» بالاضافة لكل هذا، فهي ايضا عازفة بيانو موهوبة تزداد شهرة يوما بعد يوم، وتقيم حفلات «كونسيرت» في قاعة «وِجْمُور» الشهيرة.

ويقول له عبد الرحيم «وايه اللي رمى ست محترمة زي دي على واحد بغل زيك؟».

حكى لنا انه تعرف بها في اجتماع لنادي «شباب حزب المحافظين» على اثر مناظرة حامية تصدى فيها «منسي» لرئيس وزراء بريطانيا انذاك سير انتوني ايدن. وسوف نرى فيما بعد كيف ان منسي قلد مناظرة عن قضية فلسطين، وهو لا يعرف كثيرا عن قضية فلسطين، في مواجهة احد جهابذة السياسة في بريطانيا، وخرج منتصراً. يقول منسي انه كان رائعاً في تلك الليلة وهو يوجه الضربات لسير انتوني ايدن، ذلك الدبلوماسي المحنك والسياسي العتيق. دافع عن تاميم مصر للقناة السويس وهاجم سياسة حكومة سير انتوني ايدن العدوانية نحو مصر. بعد الاجتماع جاءته تلك الفتاة الطيبة واعربت له عن اعجابها بشجاعته وقوة دفاعه عن بلده، ودعته الى دارها وعرفته باهلها. يقول «منسي» انه قرر في تلك الليلة ان يتزوجها.

وهكذا تحول «منسي» بين عشية وضحاها من حال الى حال. انتقل من غرفته البسيطة في حي «فولهام» الى دار من طابقين في شارع «سِدْني» الشهير، في حي «تشلسي» العريق. كانت «ماري» تعيش هي ووالدتها وحدهما فقد كان اخواها واختها متزوجين. وسرعان ما اصبح «منسي» سيداً مطلق السلطان في تلك الدار الانجليزية المحافظة. كانت حماته التي تربت على ايدي مربيات فرنسيات، وتتحدث اللغة الانجليزية بلكنة فرنسية، تعيش في الطابق الارضي، فاستولى هو على الطابق العلوي. كنت تراه متى زرته يجري طالعا نازلا امراً ناهياً. قلب تلك الدار راسا على عقب. وسرعان ما اخذت الدار تمتليء باصناف من البشر لم تخطر على بال اجداد «ماري» النبلاء الراقدين في مضاجعهم الدارسة في اطراف انجلترا. يفتح «منسي» لك الباب، فتهجم عليك روائح الملوخية والكمونية والكوارع والمسقّعة، روائح تتلوى منها دون شك، امعاء اولئك الاسلاف في مراقدهم النائية.

يقول له عبد الحي، وقد كان يحضّر للدكتوراه في الاقتصاد في جامعة اوكسفورد، بلهجة فلاحي الدلتا التي يعتز بها:-

«يا صعيدي يا قبطي يا ابن الـ.. والله عال. بقى انت تجي بلاد الانجليز اخر الزمن وتتزوج مين؟ حفيدة سير توملس مور؟».

يترجرج جسم «منسي» الذي بدات تظهر عليه اثار النعمة، ويتقلص وجهه المستدير، ويشيع في عينيه الوقحتين ضحك طفولي كان من مكونات جاذبيته:-

«انت اصلك فلاح ما تفهمش حاجة. تفتكر دي حكاية كبيرة؟ طظ. وايه يعني سير توملس مور؟ ثم ما تنساش اني انا من سلالة ملوك الفراعنة في صعيد مصر».

«انت من سلالة ملوك الفراعنة؟ انت من سلالة شحاتين في الصعيد».

«اسكت يا فلاح. قال ايه؟ جايي يعمل دكتوراه في الاقتصاد. جاتك نيلة. ايه اللي عرف الفلاحين في الاقتصاد؟».

نحو أفق بعيد

١٨



يكتبها : الطيب صالح

كانت في «منسي» خصلتان حميدتان . حبه للبسطاء وحفاظه للود . وقد ظل طول حياته يحتفظ بكل الصداقات التي كونها منذ بداية حياته ويضيف صداقات جديدة . كانت قدرته مذهلة على التعرف بالناس واصطناع الاصدقاء والاحتفاظ بهم . وكان اصدقاؤه من مختلف الاجناس ، وشتى المذاهب والمشارب والاقدار والمراتب . وكانوا كلهم عنده سواسية ، الامير مثل الفقير . يعاملهم ببساطة ودون تكلف . الا انه كان يعنى بالفقراء والاطفال عناية خاصة ، ويكون معهم على سجيته تماما . ومع الاطفال يكون كانه طفل . لقد زار الدوحة اول عهدي بها ، منذ خمسة عشر عاما وتعرف بطريقته العجيبة على عدد كبير من الناس في وقت قصير . كلهم مازالوا يذكرونه ويسالون عنه ، خاصة بين سائقي سيارات الاجرة . كان يترك اثرا عند الناس لا ينسى ، اثرا حسنا في الغالب ، وفي احيان قليلة شيئا من الضيق والنفور. ولكن مهما كان الامر فلن كل من يتعرف به لا ينساه ابدا .

لذلك كان يجد اصدقاء حيثما ذهب. حين رافقني في رحلتي الى الهند والى استراليا ، وهي قصة سوف ارويها لكم فيما بعد ، زاره شاب في الفندق الذي اقمنا به في سيدني . كان الشاب يخاطبه باحترام بالغ لفت نظري، فسالت «منسي» ، فقال:

«هذا ابن فلان الجزار ، تذكر الجزار في سلُونْ ستريت ؟».

اول مرة رافقت فيها «منسي» الى محل ذلك الجزار اعطاني كمية عظيمة من اللحم وطلب مني مبلغا ضئيلا . قلت للرجل:

«لا بد انك اخطات في الحساب . هذا اللحم يستحق اكثر من هذا بكثير» تلفت الرجل حوله ، وكان المحل مزدحما بالزبائن . قال لي: «نعم. انا اسف» .

ثم اعاد اللحم الى مكانه ووزن لي الكمية التي طلبتها ، وتقاضاني ثمنا كبيرا عليها ، ولما خرجنا قال لي «منسي» غاضبا :

«انت مش حتبطل التغفيل بتاعك دا ؟ الرجل عاملك معاملة خاصة لاني فهّمْته انك صاحبي».

«طيب يا اخي مش كنت تفهمني ؟ انا ظنيت انه اخطا فعلا . ايه عرفني انك بتعمل شغل الاونطة حتى مع الجزارين» .

لكن لم يكن ذلك «شغل اونطة» فقد كان الرجل صديقه . كما علمت فيما بعد ، وقد اقام عنده اول قدومه الى لندن ، واصبح كانه فرد من افراد عائلته . وظل «منسي» وفيا لتلك الصلة طول حياته . ولما فتح الله عليه . كان من بعض هداياه الى صديقه الجزار، سيارة «روفر» .

في سيدني، سالت «منسي» لماذا يعامله الشاب بذلك الاحترام المبالغ فيه، فاجابني :

«لانني انقذته من مصير قاتم . وانا السبب في انه درس في الجامعة واصبح مهندسا» .

ولما استوضحته اكثر، حكى لي ان صديقه الجزار كان ينتمي الى جماعة دينية متزمتة تعيش بمعزل عن الناس ولا تتعامل معهم الا في اضيق الحدود ويرفض افرادها ان يُدخلوا ابناءهم المدارس. وقد ظل «منسي» يحاور الرجل حتى غير فكره واخرجه من الجماعة كليةً . واقنعه بادخال ابنه المدرسة وكان ابنه الاكبر.

يقول «منسي»:

«لولاي لكان هذا الشاب الآن جزارا في سو «سمثفيلد» او عتّالا في ميناء لندن» .

قلت له :

«كنتَ ادخلتَ الرجل الاسلام بالمرّة وكسبت اجراً» .

يقول «منسي» ضاحكا :

«ايامها كنت كافرا . ولو كنت مسلما ، كنت ادخلته الاسلام . بس ما تنساش اني انا ادخلت عشرات في الاسلام في امريكا» .

واقول له:

«سبحان الله . ربنا حكمته بالغة . يتحول واحد كافر زيك الى داعية للاسلام» .

يضحك بمتعة حقيقية فقد كانت تناقضات الحياة تستهويه وتنعش روحه كما ينتعش النبات بالماء . يقول:

«تصور واحد زيي يتجوز واحدة من الاشراف، وانتو المسلمين اولاد المسلمين اللي متجوز انجليزية واللي متجوز سويسرية واللي متجوز مش عارف ايه» .

زارته ايضا سيدة مصرية مع زوجها الاسترالي . وقد حكى لي «منسي» انه كان يعرفها ويعرف عائلتها ايام كان طالبا في جامعة الاسكندرية وانه لم يرها منذ ثلاثين عاما . تذكرا ايامهما في الاسكندرية ، والسيدة تضحك بسعادة ، وهو يسالها عن افراد عائلتها ، ماذا حدث لفلان واين فلانة الآن ، والزوج يبتسم ، والزوجة تقول لزوجها:

«هذا هو مايكل الذي طالما حدثتك عنه . كان يحبني ويريد ان يتزوجني. اليس كذلك يا مايكل ؟».

واقول له باللغة العربية:

«انت حترجع مايكل تاني والا ايه ؟ مش خلاص اسلمت وبقى اسمك احمد ؟».

يظل يضحك ، فقد كانت سيدني جميلة في تلك الايام ، وكان هو في احسن حالاته ، وقد عاد الزمن ثلاثين عاما الى الوراء . وماذا يهم ان كان اسمه «مايكل» او «احمد» .

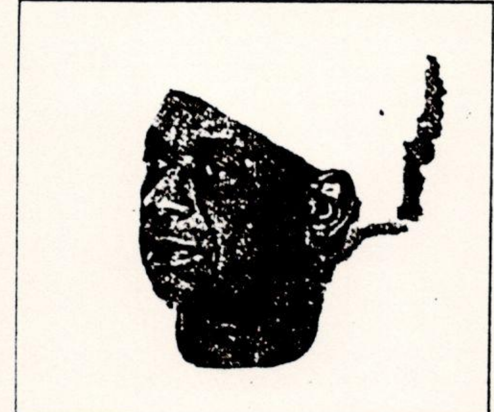
ذلك لم يمنعه من ان يدعو كل اولئك الاصدقاء القدامى الذين اكتشفهم في سيدني، على حسابي. كان يدعوهم للغداء او العشاء ويوقع الفاتورة على رقم غرفتي . وقد اسعده ذلك سعادة فائقة ، وظل يحكي القصة بعد ذلك مرارا وتكرارا ويضحك كل مرة بالطريقة نفسها . فلم يكن احب اليه من ان يبرهن على انه «حدق» وانني «مغفل» .

بتلك الطريقة ، اصبح «منسي» شخصية معروفة في كل منطقة جنوب غربي لندن بل وابعد من ذلك . كان معروفا في «وست كنزنجتن» و«ايرلز كورت» و«ساوث كنزنجتن» و«تشلسي» و«سلون» و«بلجرافيا» و«ماي فير» . يعرف بائعي الخضار والجزارين واصحاب المطاعم والحانات والمقاهي، والاطباء والممرضات في المستشفيات ، ورجال الشرطة والعمال والعاملات في المحلات التجارية واصحاب محلات البقالة والممثلين والممثلات واعضاء في البرلمان واساتذة في الجامعة ورجال دين واصنافا لا تحصى من البشر. ولم تكن معرفة سطحية . كانوا جميعا اصدقاءه يزورونه في داره ويزورهم في دورهم ، طاقة هائلة نادرة المثال ، طاقة «نابوليونية» كما كان يقول ، وسيارة مثل فقاعة الصابون وتسمى «الفقاعة» (Bubble Car) ظهرت لفترة قصيرة تلك الايام ثم اختفت . كانت له «عجلة» اول مجيئه الى لندن ، وبعد ان تزوج وانتقل الى «سيدني ستريت» وتحسنت احواله نسبيا ، اشترى تلك السيارة العجيبة . كنت اكون معه احيانا فننحشر في عز الزحام في بيكاديللي بين حافلتين من باصات لندن الحمر الضخمة ذوات الطابقين . يثير منظر تلك السيارة القمينة المكورة بسقفها الزجاجي ونحن قابعان في جوفها ، سخرية الركاب من وراء ومن امام ، ويتحول ميدان «بيكاديللي» الى سيرك ، الناس يهتفون والسيارات تزمر ، ونحن حبيسان في تلك الفقاعة ، و«منسي» يضحك ويضحك ويضحك ■

«للحديث بقية»

نحو أفق بعيد

-١٩-



يكتبها : الطيب صالح

كان باب شقتنا في «نيرلوبليس» قبالة متحف فكتوريا والبرت، يفتح على الممر الذي يؤدي الى الدار الفاخرة التي تسكنها «مارقو فونتين» فنانة الباليه الشهيرة مع زوجها سفير بنما. كانت شقة واسعة تحت الارض Basement تقاسمتها مع صلاح احمد محمد صلاح، ولما عاد الى السودان تركها لي، فسكن معي محمد ابراهيم الشوش. كان صاحب الدار، مستر «بومبيرج» وهو اخو الرسام المعروف «ديفد بومبيرج» يزورنا احيانا اواخر المساء مع زوجته، ونتحدث في الفن والشعر والادب والمسرح والسياسة، وما شئت من احاديث يسوقها شرخ الشباب وهدوء البال وانفتاح الشهية للحياة. لم اشتر الشقة لسوء الحظ كما نصحني مستر بومبيرج بذلك الثمن القليل الذي عرضه اكراما لتلك الامسيات. وكان ذلك واحدا من القرارات الكثيرة الخاطئة والفرص الضائعة. والآن وقد اخذ العمر يتقاصر ويستطيل ظل الماضي، انظر الى الوراء فارى تلك الاخطاء تشرئب باعناقها كالجبال عند خط الافق. يضحك «منسي» ويقول لي «انت حتفضل مغفل. ازاي تضيع فرصة زي دي؟» ولعله كان على حق، فمن غير «مغفل» مثلي يدفع فواتير الحساب لرجل مليونير مثل «منسي»، كما فعلت في «سيدني»؟!

كنت ارى «مارقو فونتين» رائحة او غادية في سيارتها الـ «رولز رويس» فتحييني واحييها على البعد، ولم يخطر على بالي ان اذهب اكثر ولم اقابلها وجها لوجه واتحدث اليها، الا بعد عامين من سكني جوارها. وكان ذلك في دمشق. اما «منسي» فما ان ادرك انها جارتي حتى سارع بالتعرف عليها وعلى زوجها وصار يزورهما ويزورانه. كذلك تعرف على الممثل الاسترالي المعروف «بيتر فنش» والممثل الايرلندي الشهير «بيتر اوتول» وكانا يسكنان قريبا منه في «تشلسي». كان حي «تشلسي» تلك الايام محط الرسامين والشعراء والكتاب والممثلين، ثم ارتفعت اسعار السكن في السبعينات فهاجروا بعيدا الى شرق وشمال لندن، وبعضهم ذهب الى الريف. لم يكن عسيرا على «منسي» ان يتوغل في ذلك المجتمع الجذاب، وهو مجتمع منفتح بطبيعته، اقل نفورا من الانسان الاجنبي، من المجتمعات الانجليزية الاخرى. وهب انه لم يكن كذلك، فهل كان الامر يستعصي على «منسي»؟ ابدا. انه الآن على اي حال مسلح تسليحا غير عادي. فهو، بالاضافة الى جراته ولغته الانجليزية المطواعة، يسكن في شارع معروف في حي عريق، ووراءه اصهاره الاماجد، ثم زوجته عازفة البيانو المعروفة في الاوساط الموسيقية. العجيب ان «ماري» زوجة «منسي» لم تكن تكترث بالوسط الفني ولم يكن يبدو على سمتها انها «فنانة». كانت سيدة بيت عادية، تجدها دائما تكنس او تغسل او تطبخ، بينما هو يتصدر المجلس يتدفق في الحديث عن الرسم والشعر والمسرح والموسيقى وما شابه.

عن طريق هذه الصلات الواسعة، حصل على ادوار صغيرة في السينما. كان يهول لنا الامر، كانه هو البطل، ثم نذهب ونشاهد الفيلم فاذا «منسي» سائق تكسي في القاهرة او «جرسون» في مقهى في بيروت، واذا دوره لا يتجاوز دقيقة او دقيقتين. ولو كانت عنده ادنى موهبة في التمثيل لحملته تلك الصلات بعيدا، ولكنه كان ممثلا موهوبا في الحياة فقط اما في «الفن» فكان شيئا آخر. ما ان يقف امام الميكرفون او الكاميرا، حتى يصبح فاترا او يبالغ في الاداء فيبدو سخيفا. كان جمال الكناني رحمه الله، وقد كان رئيسا لقسم الدراما في الاذاعة تلك الايام، يحبه ويعطيه دورا في اي تمثيلية يخرجها، ليستمتع بمعابثته وشتمه. كانوا كلهم يشتمونه يبداون حديثهم معه بيا كذا، ويا ابن كذا. يصرخ جمال كناني «يا واد يا ابن.. انت طول الوقت عمال تتنطط وتترقص واول ما يولع النور الاحمر ويبدا التسجيل تتهمد. الله يخرب بيتك. ما تحط شوية من الاونطة دي في الشغل».

لكن «منسي» لم يكن يستطيع. فالحياة شيء والفن شيء، والاونطة قد تصلح في الحياة، ولكنها لا تصلح في الفن ابدا. في الحياة، يمثل بالسليقة، وكان قوى غير مرئية تسنده. يجازف. ويتخطى الحواجز، ويذهب ابعد مما يجب، تماما كما يفعل الشعراء الموهوبون. ولو انه رضي بذلك الدور الذي هياته الحياة له، لعله كان ينجز اكثر مما انجز بكثير. وانا لا اشك، انه كان في متناول يديه لو اراد، ان يصبح من اساطين التجارة والمال. لكن «منسي» كان يريد ان يحيا وان يكتب وان يمثل، وفوق كل شيء، ان يضحك. كانت تلك متعته الحقيقة، ان يحول احداث حياته الى مادة للضحك. ولم تكن تراه اسعد حالا منه وهو يتصدر مجلسا والناس منجذبون اليه وهو يحكي لهم بعض ما حدث له. ذلك كان مسرحه الحقيقي. ويستحسن ان يوجد شخص، مثلي، يكون شارك في تلك الاحداث، لكي يذكره ويذكي جذوة حماسه:

«احك لهم يا طيب لما سافرنا لبيروت، حصل ايه في المطار».

هذا معناه انه يريد ان يحكي هو القصة، فاعطيه طرف الخيط، واضيف شيئا من حين لآخر، واوجهه الوجهة التي يريدها بالفعل. لذلك فبالاضافة الى انني كنت «ابا روحيا» له، فقد كنت اقوم بدور الممثل المساند في العروض الكوميدية، كما عند «لوريل وهاردي» و«موركم ووايز». تجد شخصين في هذا النوع من الكوميديا، بينهما تباين واضح جسميا وعقليا فالنحيل ازاء السمين والطويل ازاء القصير. واحد ذكي واسع الحيلة يخرج من المشاكل مثل الشعرة من العجين، والثاني «اهبل» يتعثر فيقع ولا يدري اين الباب فيخبط راسه في الحائط، وهو الذي تقع على راسه المشاكل، عموما. هذا كان دوري، واعترف انه دور قمت به طائعا مختارا وعن ادراك تام، فالى جانب مودتي العميقة له، فقد كان «منسي» ظاهرة فريدة، ظللت اسايره واراقبه بحيرة ودهشة وضيق في بعض الاحيان ومتعة بصحبته في احيان كثيرة. لقد كان مثلي في هذا كل اصدقائه الحميمين، ولكن لعلني كنت الوحيد بينهم الذي قبله على علاته واخذه ماخذ الجد.

انما «منسي» نفسه لم ياخذ الدور الذي هياته الحياة له ماخذ الجد، واراد ان يلعب ادوارا لم يكن مهيا لها. وكان حين يخطىء في الحياة يخطىء لانه يتصرف كـ «فنان» في ذلك الفن الحقيقي الموهوم، فيصبح مثل ممثل على المسرح ينسى دوره ويتلعثم ويفقد حاسة التوقيت والقدرة على الاستجابة. لذلك اكتفى ببضعة ملايين بدلا من مليارات، وبقصر واحد بدلا من قصور ويخوت وطائرات خاصة وبنوك وشركات. والآن، وقد مات فجاة مثل حصان سباق كبا ولما يبلغ نهاية الشوط، اعود فاقول، انه كان حكيما بل زاهدا بدرجة ما، فماذا يضير الانسان بعد الموت انه لم يترك وراءه شيئا؟ وماذا يجديه انه ترك مليونا او مليارا؟

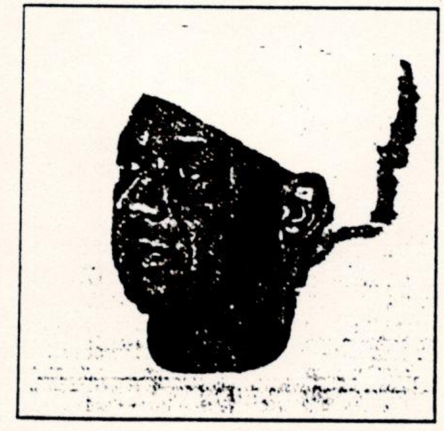
كان يكتب تمثيليات لا قيمة لها نقبل بعضها ونرفض اغلبها. واذكر انه كتب مرة تمثيلية عن رجل صادف رجلا يهم ان ينتحر بالقاء نفسه في النهر من الجسر، فاخذ يحاوره الى ان اقنعه بعدم الانتحار. ذهب الثاني الى حال سبيله، وانتحر الاول بان القى بنفسه في النهر. كان «منسي» سعيدا بها، ولكنني حين قراتها وجدتها ميتة ليس فيها حياة، وكان متاثرا تاثرا واضحا بالكاتب المسرحي الكبير «صامويل بكت» دون اي شيء قريب من فكر «بكت» واعماقه الفلسفية. لذلك رفضتها. وعجبت حين علمت فيما بعد، ان منسي عرضها مترجمة الى اللغة الانجليزية، على «صامويل بكت» شخصيا، وان ذلك الكاتب العملاق الذي احدث فتحا حقيقيا في المسرح العالمي بمسرحيته «في انتظار غودو» قد قراها بامعان وناقش «منسي» عنها باهتمام، وانه اثنى عليها وقال له:

«هذا عمل جميل ملفت للنظر» ■

«للحديث بقية»

نحو أفق بعيد

- ٢٠ -



يكتبها : الطيب صالح

لولا «منسي» رحمه الله وغفر له . لعل الرياح كانت تمضي بي رخاء في عملي في هيئة الاذاعة البريطانية. كنت سعيداً ، مرضيا عني ، يضرب بي المثل . وقد رفعوني الى رتبة مساعد رئيس قسم ولما ابلغ الثلاثين . وكان ذلك امرا عزيزا تلك الايام . اصبحت احضر اجتماعات رؤساء الاقسام ، ولي مكتب مستقل وسكرتيرة . شاهدت حفل تتويج الملكة من داخل بيعة «وستمنستر ابي» مع علية القوم الذين دعوا لتلك المناسبة من الشرق والغرب، وبعدها جالست رؤساء ووزراء في الحفل الذي اقيم في «وستمنستر هول». صحيح ان الزي الذي ارتديته لتلك المناسبة، كان «عارية» مستاجرا من محلات «موس برذرز» في «كوفنت غاردن» . سترة سوداء ذات ذيل تجعلك تبدو مثل طائر البطريق ، وقبعة طويلة وياقة منشاة . وصحيح انني بعد ان انتهى الحفل وانفض السامر، جاءت السيارات الفاخرة تحمل اولئك الرؤساء والوزراء . اما انا فقد سرت على قدمي الى محطة القطار الذي يسير تحت الارض، وكان القطار مزدحما . فظللت واقفا والناس يعجبون مني وانا في زي الوجهاء ووضع الدهماء . ذلك وضع كان اليق بمنسي. اذن لاستغله احسن استغلال وحوله الى قصة اخرى تروى . لكنني على اي حال تمتعت بذلك العالم السحري في ذلك اليوم القصير، وما كنت اعلم ان الحياة كانت تعابثني مثل امراة لعوب، كما ظلت تفعل ، لانها كانت تراودني لامر لم يكن يخطر لي على البال .

كذلك كنت اول عربي يرسلونه الى نيويورك لـ«تغطية» اجتماعات الجمعية العامة للامم المتحدة . ذلك الحدث المشهود الذي امه معظم زعماء العالم ، وكنت شاهدا حين خلع نيكيتا خروشوف حذاءه ، وضرب به المائدة احتقارا . ورئيس وزراء بريطانيا واقفا يخطب . رايت اعضاء نيجيريا يدخلون القاعة في ثيابهم الفضفاضة . والدنيا لا تسعهم من الفرح ، يتقدمهم ذلك الرجل الوقور سير ابو بكر تفاوا بليوه . كانت نيجيريا قد استقلت توها وقبلوها عضوا في منظمة الامم المتحدة . ذبحوه ذبحا بعد ذلك ، كما ذبحوا احمدو بللو السردوانا الجليل في هوجة من هوجات الجند التي يسمونها ثورات . وكنت شاهدا حين اعلن داج همرشولد الامين العام للامم المتحدة انه لن يستقيل كما طالب الاتحاد السوفييتي . مرت الاعوام ولعبت الولايات المتحدة الدور نفسه ازاء صاحبنا احمد مختار امبو مدير عام منظمة اليونسكو . يومذاك في نيويورك شن خروشوف حربا شرسة ضد همرشولد واتهمه بانه ذيل الغرب وانه مسؤول عن مقتل باتريس لومومبا وكل الماسي التي حدثت في الكونغو . واذكر جملة قالها همرشولد في خطابه القصير الذي اعلن فيه انه باق في منصبه . قال موجها حديثه لزعماء دول العالم الثالث «هذه المنظمة لم تقم لخدمة الدول الكبرى. انها انشئت لخدمتكم انتم ، فانتم الذين تحتاجون لها لا الدول الكبرى» .

كان العرب في ذلك الاجتماع مجمعين على نصرة القضية الفلسطينية وتاييد كفاح الجزائر الذي كان قد اينع وحان قطافه ، ومختلفين على كل ما عداهما . لكنني كنت غض الاهاب جدا . وكذلك العالم العربي، ومصر وسورية متحدتين ، ودمشق «الفيحاء» فيحاء بحق وحقيق ، والقاهرة الظافرة تصنع احلاما تبدو كلها قريبة المنال . صلاح جاهين يكتب وام كلثوم تغني، وعبد الوهاب . وصباح تهتف ، كانها تصدق ما تقول «انا عارفة السكة لوحدية ، من الموسكي لسوق الحميدية» . مسكين سوق الحميدية . كان تلك الايام حول الجامع الاموي العتيد ، كما كان على ايام هشام بن عبد الملك . لم يكونوا قد ازالوا بعد، ذلك الماضي السحيق العريق ولم يشقوا طرق الاسفلت . ولبنان كانه في حلم جميل لن ينتهي . المال يتدفق من كل الجهات ، كما قال الشاعر القطري «البيب فاض ومصب السيل لبنان» ، والمصارف لا تدري اين تضع «البيزات» ، والليرة مثل الذهب، والمطاعم والمراقص والملاهي غاصة بالخلق من مغيب الشمس حتى مطلع الفجر، ونساء بيروت على طول الساحل يستقبلن شمس البحر المتوسط وكان ذلك الزمان الرغد سوف يدوم الى الابد . كان اخونا نزار قباني يكتب شعرا يبكي العذارى في خدورهن ويجعل العجائز يتحسرن على شبابهن . وقال بيتين سار بهما الركبان:

ايلول للضم   فمد لي زندك
هل اخبروا امي   اني هنا عندك

اه يا صفاء . ما اقسى ما عبثت بي وبكم الحياة منذ ذلك العهد !

اجل كانوا احفياء بي حقا . ارسلوني لفترات طويلة الى مكتبهم في بيروت ، وكانت تلك ميزة لا ينالها الا اصحاب الحظوة ، وحاضرت في معهد التدريب عدة مرات ، وكان مستر ووترفيلد رئيسنا الاعلى يقول لي ضاحكا :

«انهم دعوني مرة واحدة ثم لم يدعوني بعدها . لماذا انت دعوك مرة وثانية وثالثة ؟»

كان نصيبي من السفر في مهمات رسمية اكثر من غيري، وكان كلما يجد امر يضفي بريقا ويزيد من الحسنات التي تسجل في التقارير السنوية ، يقولون «فلان» في اغلب الاحيان .

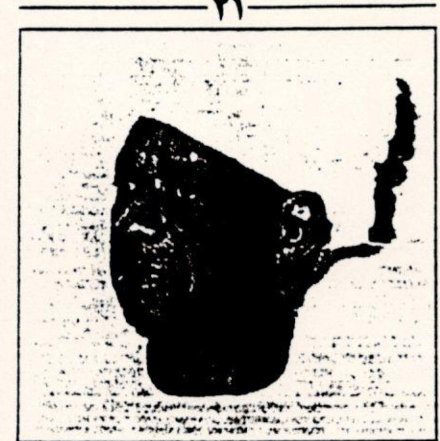
لا عجب اذا انني كنت مغتبطا بوضعي، راضيا عن نفسي، ارى الدنيا مثل حسناء مرغوبة تدعوها فتستجيب .

وبينا انا كذلك ، اذا بمنسي ، رحمه الله وغفر له ، يعرض لي كما عرض ابليس لأدم عليه السلام في الفردوس ■

«للحديث بقية»

نحو أفق بعيد

٢١



يكتبها : الطيب صالح

دخلت مكتب مستر ووترفيلد فاذا هو ومساعده ومعهما مراقب الادارة للاذاعات الخارجية. كان رجلا مرهوب الجانب . لا يظهر عندنا الا اذا طرا أمر جلل، ولم يكن بيني وبينه ود ، فقد كان يعتقد انني مدلل اكثر مما يجب وانني لا اعبا كثيرا بالنظم الادارية . لم يهش مستر ووترفيلد في وجهي كعادته ، واشار إلي بالجلوس . نظر اليّ مراقب الادارة نظرة صارمة من وراء نظارته السميكة ، ولم يمهلني طويلا ، ولكنه ناولني في صمت رزمة من الاوراق. قلبتها وانا لا اعلم حقيقة الامر ، فاذا هي جميعا اوامر دفع باسم مستر «بسطاوروس» نظير اشتراكه في عدد من البرامج . وكلها ممهورة بتوقيعي . لم يلفت انتباهي فيها شيء فاعدتها اليه . اعطاني اياها مرة اخرى وقال لي:

«تفحص الاوراق جيدا» .

درستها على مهل ، وانا اعمل فكري محاولا ان اجد تفسيرا لهذه المحاكمة . كان من الواضح انها محكمة ادارية وان امرا خطيرا قد حدث، فإلى جانب وجود ذلك الموظف الكبير، كانت في ركن المكتب سكرتيرة تسجل ما يدور. ايضا لم الاحظ اي شيء غير عادي، ولما فرغت رفعت راسي ونظرت اليه نظرة لا بد انها نمّت عن احساس تجاهه . فقد سارع مستر ووترفيلد . وقد كان كريما معي دائما ، وابتسم لي ابتسامة خفيفة جدا كانه يقول لي «طول بالك» . كان مستر ووترفيلد كما حدثتكم في مكان آخر ، كاتبا ، وكان منصب رئيس الاذاعة العربية اقل منه بكثير، وكان في قرارة نفسه يحتقر البيروقراطيين ويضيق بالتزمت الاداري، وقد خاض معارك عدة ضد هذا الرجل بالذات .

قال لي مراقب الادارة بصوت بارد ، كما يكون صوت الانجليزي باردا حين يخلو من الود :

«هذه التوقيعات هي توقيعاتك . اليس كذلك ؟» .

«نعم» .

«هل درست الاوراق جيدا؟» .

«نعم» .

«الم تلاحظ اي شيء غير عادي؟» .

«ماذا تقصد اي شيء غير عادي ؟» .

«الاجور المطلوب دفعها مثلا» .

«ما لها الاجور المطلوب دفعها؟» .

«كم تدفعون لممثل من الدرجة (الف) على تمثيلية طولها نصف ساعة ؟» .

ندفع كذا» .

«واذا كان موظفا في هيئة الاذاعة البريطانية ؟» .

«ندفع له ثلث الاجر» .

«انظر الى الاجور التي دفعت لمستر بسطاوروس على مدى...» .

قال هذا ، وناولني الاوراق. نظرت فيها فاذا هي اجور كاملة .

«هل كنت تعلم ان مستر بسطاوروس او مستر مايكل او مهما كان اسمه موظف في هيئة الاذاعة البريطانية ويعمل محررا في قسم الاستماع للاذاعات الاجنبية في كافرشام ؟» .

صمت وقد بدات افهم جسامة الخطا الذي وقعت فيه . ومع انني لعنت «منسي» في سري ، فانني لم افكر طويلا . فقد كنت غرًّا، وقد اخذتني العزّة بالاثم . ولعلني قلت لنفسي «ان كان هذا (الخواجا) متعجرفا فبوسعي ان اجهل فوق جهل الجاهلينا . واسوا ما يمكن ان يحدث هو ان استقيل واعود ادراجي من حيث اتيت وارتاح من التناقضات ووجع القلب» . قلت له ، وقد استقر عزمي على الاستبسال ، كما يفعل «اولاد العرب» عندنا حين يخرب الامر:

«نعم» .

التفت اليّ مستر .. مساعد رئيس القسم فجاة ، واعاد علي السؤال بلؤم وبطء :

«هل كنت تعلم ان مستر بسطاوروس موظف في هيئة الاذاعة البريطانية ويعمل محرّرا في قسم الاستماع في كفرشام ؟» .

هذا «الخواجا» ايضا لم يكن بيني وبينه ود ، او على احسن الفروض كانت علاقة متارجحة تحسُن احيانا وتسوء في اغلب الاحيان . لم يكن من «العروبيين» كما كانوا يسمُّون ، امثال مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد ، اولئك الرجال والنساء الذين عاشوا سنوات شبابهم في العالم العربي، وتعرّفوا على العرب عن قرب واحبوهم . كان هذا متخصصا في الشؤون الالمانية ، رجلا متوقد الذهن وراءه تاريخ اكاديمي مشرق . ولكن يبدو ان اشياء قد حدثت له عكرت عليه صفو حياته . وقد عمل معظم وقته في اقسام الاذاعات الموجَّهة الى شرق اوروبا . وهي اذاعات كنا نعدها اقرب الى وزارة الخارجية منها الى هيئة الاذاعة البريطانية . وقد كان كفاحنا نحن العرب تلك الايام ، يؤيدنا في ذلك مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد ، منصبا على ابعاد القسم العربي من نفوذ وزارة الخارجية ، وجعله خدمة اذاعية حقيقية . كان انسانا متناقضا مستفزا يستدرجك الى النقاش، فاذا انسقت له وعبُرت عن رايك بصراحة ، فجاة يقلب لك ظهر المجَنْ . وكان يزعم انه مفكر متحرر، ويقول لكل من يقابله من الزوار العرب:

«انا رجل راديكالي الفكر، انتمي الى اليسار المتطرف من حزب العمال» .

وكنت اعقب علي قوله :

«مستر .. هذا يدّعي انه متحرر ولكنه في الواقع استعماري امبريالي» .

هذا كان يغيظه ، كما قدُرت ، وقد ناداني مرة الى مكتبه وقال لي:

«انت تحرجني بهذا الكلام» .

واقول له ، مستندا الى «اصول اللّعب» الانجليزي:

«ولكن يا مستر .. هذه دُعابة . الا تقبل المزاح ؟ الستم تقولون انكم تمتازون على سائر الامم بروح الدعابة ؟» .

انني ادرك الآن انني كنت «لا مباليا» اكثر مما يجب ، ربما لانني كنت اعي تناقض وضعي، خاصة في سنوات الغليان القومي تلك في العالم العربي، وكانما كل نجاح احرزه في عملي مع الانجليز ، يزيد وضعي تعقيدا ، وكانني كمن يهدم اليوم بيديه ما بناه بالامس . وذلك سلوك لم يكن يقدره او يحتمله الا رجال «كبار» حقيقة ، امثال مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد .

قلت له :

«نعم» .

نظر بعضهم الى بعض بطريقة لم افهم مغزاها الا فيما بعد .

سالني مراقب الادارة وهو يتصنع الرفق، وقد حق له ان يتصنع الرفق، فقد وضعني، كما خُيِّل له ، في مازق لا مخرج منه :

«هل كان مستر كناني يعلم؟» .

كان جمال الكناني ، رحمه الله ، العربي الاول في القسم تلك الايام ، مسنودا سندا كاملا من مستر هوايتهد ومستر ووترفيلد ، يفعل ما يشاء ولا يبالي، وكانت كراهية مراقب الادارة هذا له ربما تفوق كراهيته لي ، لذلك ، من الواضح انه يريد ان يقتل عصفورين بحجر واحد. قلت له:

« لا اعلم» .

«كيف لا تعلم ؟ الست مساعده وتقوم مقامه في غيابه ؟ الم تتحدثا ابدا في هذا الموضوع؟» .

«لا» .

نظر بعضهم الى بعض كرّة اخرى . وقال لي مساعد رئيس القسم بسماحته المعهودة :

«مستر بسطاوروس صديقك . اليس كذلك ؟» .

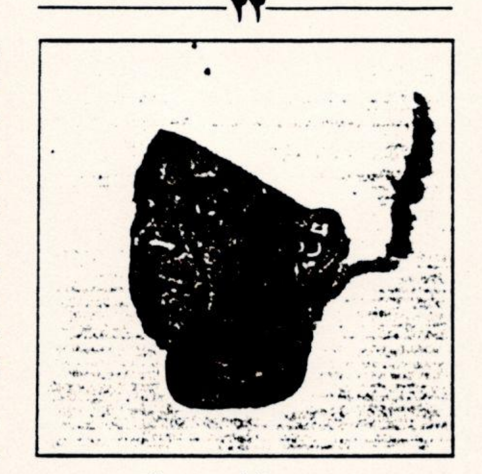
هنا سارع مستر ووترلفيلد الى نجدتي . نظر الى مساعده نظرة صارمة ، وقال له :

«على رِسْلك يا فلان» ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

—٢٢—



يكتبها : الطيب صالح

ليتني، غفر الله لي، اكون ولو ممسكا بخطام بعير سيدنا عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما. ذكروا ان رجلا سبه في الطريق، فلم يرد عليه وظل سائرا والرجل يتبعه ويسبه. فلما وصل سيدنا عبد الله بن عمر الى داره التفت الى الرجل وقال له: ،يا هذا. انا وعاصم اخي لا نسب الناس،. واكثر ما يهزني في هذه القصة انه قال ،انا وعاصم اخي. ولك ان تتخيل انه لم يرد ان ينفرد بالفضل، او انه ذكر اخاه في ذلك السياق لفرط محبته له، وكانه معه، يستحضره في جميع احواله. وعاصم هذا كما نعلم هو جد عمر بن عبد العزيز لامه، من تلك الاعرابية التي ابت ان تغش اللبن وقالت لامها ،ان كان عمر لا يرانا فان الله يرانا،. فراى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفراسته ما راى، فزوجها من ابنه وجاء من ذريتهما اشج بني مروان، الذي اوسق الدنيا عدلا، زمنا قصيرا ليته طال، الى ان مات او قتل. تلك ذرية بعضها من بعض.

ذلك لان من حسناتي القليلة، عفا الله عني، انني لست شتاما ولا صخابا في الاسواق. بيد ان منسي يومئذ، اخرجني عن طوري. لقد قطع علي طريقي، وظهر فجاة مثل الشيطان ليفسد علي ذلك الحلم الجميل. هاانذا الان متهم بالتقصير الاداري وهو تقصير واضح لا مراء فيه. لكنه محتمل، الذي لا يحتمل هو انني متهم في امانتي وقد كنت اظنها فوق الشبهات.

،مستر بسطاوروس صديقك، اليس كذلك؟،.

هكذا قال مساعد المدير. ومع ان مستر ووترفيلد الكريم هب لنجدتي، فان الضرر قد وقع والكلام قد قيل ان حقا وان كذبا.

بل ان الامر كان اكثر فداحة، فقد علمت فيما بعد انهم استجوبوا قبلي، جمال الكناني رئيس القسم، وكان رغم نضجه وتجربته الطويلة قد وقع في الخطا نفسه. قال انه لم يكن يعلم ان ،منسي، موظف في قسم اخر في هيئة الاذاعة البريطانية. كل المسؤولين في القسم انكروا انهم يعلمون، وهذا يعني انني خرجت على اجماع المسؤولين في القسم فاغضبهم ذلك، وقبلت تهمة التقصير، ووضعت نفسي في وضع مريب.

لذلك خرجت عن طوري، وشتمت ،منسي، اقصى ما اعانني عليه طبعي. لكنه لم ياخذ الامر ماخذ الجد، واعتبره نكتة وشطارة و ،شغل خلبسه،. لقد اربك كعادته، جهازا اداريا ضخما منظما تنظيما دقيقا. كانت اوامر الدفع تذهب من عندنا الى الوحدة الادارية في القسم للتدقيق والمراجعة، وهي بدورها ترسلها الى القسم الاداري للاذاعات الخارجية ومن ثم تذهب الى الجهاز الاداري المركزي. كان ،منسي، رحمه الله، يعمل في قسم الاستماع باسم ،مايكل، ويعمل معنا باسم ،بسطاوروس، وفي الوقت نفسه يعمل مدرسا للغة الانجليزية في مدرسة ثانوية باسم ،جوزف،. وظل هكذا قرابة ثلاث سنوات، وكل اولئك الاداريين يدققون ويحسبون ويراجعون، ولا احد يدري، الى ان اكتشف بالصدفة المحضة بعد ذلك، حين كان يسترجع هذه القصة كان اكثر ما يطربه فيها انه كان يعلم الانجليز لغتهم.

كيف كان ينجز كل هذه الاعمال في وقت واحد؟ يتحرك بين اماكن متباعدة مستعملا سيارته الـ ،فقاعة، تلك. فبينما تراه في، ،كفرشام، على بعد ساعة من لندن، اذا هو في اقصى شمال المدينة، ثم اذا هو عندنا في ،بش هاوس،، فكانك تراه ولا تراه، وكانك تدري اين هو وكانك لا تدري. لا عجب ان كل المسؤولين في القسم انكروا انهم يعلمون. لقد كانوا فعلا لا يعلمون، وكانوا يعلمون في الوقت نفسه. وانا لا استطيع ان اوقن هل خالفتهم حماية لمنسي، ام خيل لي انني اعلم بالفعل.

امضيت وقتا وبذلت جهدا بعد ذلك في اصلاح خطئي، ولكن تلك البحبوحة التي غمرتني لم تعد الى سابق عهدها ابدا، فقد ظلت تلك الحادثة تلاحقني في التقارير السنوية زمنا ليس بالقصير. اما ،منسي، فقد خرج كعادته من القضية كلها كما تخرج الشعرة من العجين. وصل بطريقته الى مدير الاذاعات الخارجية، وكان يعتبر الرجل الثاني في ادارة الـ B.B.C. باسرها، ياتي بعد المدير العام مباشرة. اقتحم على مستر ،تانجي لين، مكتبه دون موعد، ولما عرفه بنفسه، قهقه الرجل بالضحك. قال له، كما روى لنا منسي، وهو يغرق في الضحك ،انت الرجل الذي ادخل القسم العربي في ورطة كبيرة،.

كان ،تانجي لين، هذا من الرجال ،الكبار، من فصيلة مستر ووترفيلد، ولم يكن اداريا بالمعنى الضيق، ولكنه كان متسامحا حليما واسع الافق. كان رجلا مستنيرا قضى فترة من حياته في مصر. وكان كاتبا مرموقا له كتاب مهم اسمه ،النابوليونيون، عن الانجليز الذين سبحوا عكس التيار القومي في بريطانيا وايدوا ،نابليون بونابرت، في صراعه ضد الانجليز. وقد كان على صلة وثيقة باوساط الكتاب والفنانين، فاخوه ،ديفد لين، المخرج السينمائي المعروف الذي اخرج فيلم ،لورانس العرب،، ولا بد ان شخصية ،منسي، قد استهوته، فقد استماله تماما الى جانبه ودعاه الى داره وعرفه بزوجته وعياله. وسرعان ما اعيد ،منسي، الى عمله في ،كفرشام، وصدر امر للقسم العربي بان يرفعوا الحظر الذي كانوا فرضوه عليه.

ظل ،منسي، على صلة وثيقة به حتى مات. وقد رد له الجميل حين زار مستر ،تانجي لين، مصر، وكان ،منسي، يعمل وقتها استاذا في الجامعة الامريكية في القاهرة. سخر كل نفوذه وصلاته الواسعة لخدمته، فاستقبل كانه رئيس وزراء، ورتب له طائرة خاصة حملته وزوجته الى الاقصر واسوان، ورافقه في كل تحركاته في مصر.

انني لم اكن اقابل مستر ،تانجي لين، الا مرة واحدة في العام، حين كان يقرا علي التقرير السنوي وكان حين يصل الى الجملة التي ظلت تتردد في التقارير على مدى سنوات، ولكن عليه ان يعتني اكثر بالمسائل الادارية، يبتسم بلطف كانه يقول لي:

،لا عليك فانا اعلم مصدر هذه التهمة، ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

—٢٣—



يكتبها: الطيب صالح

اقتحم «منسي» بصخبه وضوضائه عالم «صاموئيل بكت» الهادىء المنعزل وكانت وسيلته الى ذلك «مسز باربرا براي». هذا الكاتب صاحب المسرحيات والروايات التي اصبحت معالم في مسيرة الادب العالمي، يعيش في فرنسا منذ سنوات، لا يقابل الا نفرا قليلا من الحواريين والاصدقاء، ولا يتحدث للصحف ولا يظهر على شاشات التلفزيون. وحين فاز بجائزة نوبل قال مذعورا «الان حلت اللعنة» واختفى زمنا الى ان هدأت الضجة. وقد خطر لي منذ اعوام ان اعمل معه مقابلة لمجلة حوار التي كان يحررها المرحوم توفيق صايغ وطلبت من مسز باربرا براي ان ترتب لي لقاء معه. قالت لي:-

«سوف ارتب لك اللقاء. ولكن حين تقابل «سام» سوف تدرك انه يجب عليك الا تصر على اجراء حديث صحفي معه».

سالتها عن السبب فقالت:-

«سام رجل قديس، منطو على نفسه وافكاره، لا يفهم امور الدنيا ولا يحفل بها، ويريد ان يترك وشانه».

قدرت رغبته ولم احاول بعد ذلك مقابلة «صاميول بكت».

قد يبدو هذا العزوف عن الناس غريبا من كاتب تقوم اعماله على صعوبة التواصل بين البشر والعزلة الحتمية التي تلازم الكائن البشري مثل اللعنة في رحلته القصيرة في الحياة. هل لانه نشا كاثوليكيا في ايرلندة ثم ابتعد عن الحظيرة؟ ام لانه صاحب عن قرب الكاتب الايرلندي العملاق «جيمس جويس» مؤلف «يوليسيس»، الكاتب الذي ربما احدث الثورة الوحيدة في دنيا الادب في القرن العشرين؟ لقد اخذ «صاميول بكت» عن «جويس» عنايته باللغة والذهاب بها كل مذهب، وكذلك نظرته العبثية للحياة. لكنه خرج عن طوق استاذه وشق لنفسه طريقا طريفا نسيج وحده، وقدم رؤيا ادبية مريعة يبدو فيها الانسان كانه في صحراء يباب في ليل كوني حالك السواد، بلا نصير ولا معين. هذا كاتب عنده فترات الصمت بين الجمل اهم من الجمل نفسها، لذلك فهو لا يعطي مسرحياته الا لمخرجين يثق بهم، وكثيرا ما يصر على اخراجها بنفسه. وقد ظل في كتاباته يكثف ويحذف ويقلل من الكلمات ويزيد من الصمت حتى نشر مؤخرا عملاً اسماه «رواية» من صفحة واحدة فقط.

هذا هو العالم الذي اقتحمه «منسي» بلغطه وجلبته ومرحه، عالم على النقيض تماما من عالمه. ام تراه كان كذلك حقا؟ وكانت وسيلته «مسز باربرا براي».

هذه السيدة من الناس الاخيار الذين صادفتهم في رحلة الحياة. تعرفت بها عام ١٩٥٤ او نحوه بواسطة «منسي». كانت تعمل رئيسة لقسم النصوص في الاذاعات الداخلية في هيئة الاذاعة البريطانية، فاكتشف «منسي» وجودها فوراً، وكانت قد درّسته اللغة الانجليزية في جامعة الاسكندرية. واذا كنت انا قد قمت بدور «الاب الروحي» له فان هذه السيدة كانت له بمثابة الام. كانت علاقة مؤثرة حقا. يكون «منسي» على سجيته تماما معها، يضحك كالطفل، ويقص عليها كل نزهات حياته، وهي تضحك، ولا تجد غرابة في كل ما يقوله او يفعله. وكان «منسي» على صلة دائمة بها، يكلمها بالتلفون حيثما كان، ويمر عليها في باريس في كل سفراته ليقضي اليوم واليومين.

تخرجت باربرا من جامعة كامبردج اواخر الاربعينات حيث درست الادب الانجليزي، وعملت فترة هي وزوجها، محاضرين في جامعة الاسكندرية. وقد مات زوجها، وكان شاعرا موهوبا في حادث سيارة في اليونان، وترك لها طفلتين عكفت على تربيتهما، فنشأتا نابغتين، فدرست الكبرى اللغة الصينية وهي الان من العلماء المعدودين في ميدان الدراسات الصينية، وتخصصت الصغرى في اللغة العربية ونبغت فيها. وربما يعود اغلب الفضل الى «باربرا براي» في اكتشاف الاسماء التي اصبح لها فيما بعد شأن كبير في المسرح الانجليزي، امثال هارولد بنتر وجون ازدن وجون اوزبورن فقد استغلت نفوذها كرئيسة لقسم النصوص في الترويج لاعمالهم واخرجت بعضها للاذاعة في البرنامج الثالث. واليها ايضا يعود الفضل في ذيوع شهرة «صاميول بكت» في انجلترا. كان «بكت» معروفا في القارة الاوروبية وخاصة في فرنسا، فهو يكتب باللغة الفرنسية بالجودة نفسها التي يكتب بها بالانجليزية. لقد احبه الالمان لانهم وجدوا في القتامة الموحشة التي تشيع في اعماله شيئا صادف نزوعا في طبعهم، واحبه الفرنسيون لانهم اعجبوا بجراته اللغوية، واغوتهم موهبته، وهي موهبة يمتاز بها الكتاب الايرلنديون عموماً، في خلط الجد بالهزل ودفع الاشياء الى ما وراء حدود المعقول. اما الانجليز الانجلوسكسون فقد انتظروا الى اوائل الخمسينات الى ان قيّض لـ«بكت» اناس امثال «باربرا براي» يفتحون عيونهم على ابعاد عبقرية هذا الكاتب الفذ ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

٢٤



يكتبها : الطيب صالح

حين اعدم الرئيس السابق جعفر محمد نميري ، الرجل الهرم محمود محمد طه رحمه الله ، كلمتني «باربرا براي» في الدوحة من باريس ، أخر الليل . كان صوتها على التلفون غاضباً حاداً ، اقرب الى الصراخ ، وذلك امر لم اعهده منها ، فهي عادة هادئة رقيقة مهذبة . قالت لي:

«الا تنوي ان تفعل شيئا ؟»

«افعل شيئا بخصوص ماذا ؟»

«الم تسمع الأخبار ؟ الم تسمع بان رئيسكم الهمجي قد اعدم رجلا في الثمانين من عمره ؟ انه امر مخجل حقا ، من يصدق ان هذا يحدث في هذا العصر ؟».

صمت وتركتها تسترسل فماذا اقول لها . لم تهدا ثائرتها بل ان غضبها ازداد قوة وهي تمضي في الكلام . وحين يطول صمتي تقول لي بعنف :

«هل انت هنك ؟ هل تسمعني ؟»

«نعم يا باربرا ، انا هنا و اسمعك جيدا »

«اذاً لماذا لا تفعل شيئا ؟»

قلت لها متضاحكا لعلني اعيدها الى هدوئها :

«الآن ؟ في هذه الساعة المتاخرة من الليل ؟».

لم تستجب لمحاولتي ، وقالت لي بصوت اكثر غضبا :

«انني كنت اتحدث منذ لحظات مع البيت الابيض في واشنطن . طلبت محادثة الرئيس ريجان . طبعا أنكروا انه موجود . كلمني أحد مساعديه . قلت له كل ما خطر على بالي . قلت له أن دم هذا الرجل المسكين معلق في رقبتكم» .

سالتها متغابيا :

«ولكن ما دخل الرئيس ريجان بمقتل محمود محمد طه ؟».

«لا تكن غبيا . هل تظن انهم ما كانوا يستطيعون انقاذه لو ارادوا ؟ هل يستطيع نميري ان يرفض لهم طلبا ؟ اليسوا هم الذين جاءوا به وهم الذين يساعدونه على البقاء في الحكم ؟».

«وماذا قال لك مساعد الرئيس ؟».

«ماذا يمكن ان يقول لي ؟ احد هؤلاء الشبان التافهين الذين يسمونهم تجاوزاً مساعدي رئيس . كل عملهم انهم يحملون حقائبه ويتراكضون حوله . لم يظهر عليه انه فهم ما اقول واظنه لا يعلم اين السودان ومن هو نميري او محمود محمد طه . اخذ اسمي وعنواني وتلفوني ووعد بان ينقل احتجاجي للرئيس . بعد ان انتهت المكالمة طلبتك فورا ».

قلت لها متضاحكا مرة اخرى :

«انه لشرف عظيم ان تضعيني في كفة مع رئيس اكبر دولة في العالم . انا الموظف الغلبان في منظمة اليونسكو».

تحول سخطها من الرئيس الامريكي الى اليونسكو ، فهي تكره المؤسسات البيرقراطية من حيث هي . فقد استقالت من هيئة الاذاعة البريطانية وتعاونت فترة قصيرة مع منظمة اليونسكو ثم رفضت التعامل معها:

«متى تستقيل من هذه المنظمة الجوفاء وتتفرغ لما هو اهم؟».

«وما هو الاهم ؟».

«الا تعرف الى الآن ما هو الاهم ؟»

بلى ، انا اعرف ما هو الاهم في نظر «باربرا براي» وفي نظري انا ايضا . ولكن من يطعم الزوجة والعيال ، ويدفع اقساط المدارس والجامعات ؟ كل هذه الاشياء الصغيرة ، ام الكبيرة ، التي تكبل الانسان بقيود يشتد وثاقها يوما بعد يوم ، وتجعله يصمت حين يجب عليه ان يصرخ ، ويذعن حين يتحتم عليه ان يرفض . «باربرا براي» لا تابه لذلك . لقد استقالت من هيئة الاذاعة البريطانية منذ ثلاثين عاما وهي في قمة النجاح ، وليس عندها مصدر دخل . غامرت وحملت طفلتيها وجاءت الى باريس . استاجرت شقة صغيرة في الحي اللاتيني قريبا من «بوليفار سان ميشيل» وعلى مرمى حجر من نهر الـ «سين» ، ماتزال تعيش فيها الى اليوم . رفضت بتاتا ان تشتري بيتا او شقة بالاقساط كما يفعل كل النلس . «منسي» وانا حاولنا اقناعها ولكنها قالت انها لا تحب ان تمتلك اي شيء ، وتحب ان تفارق الدنيا وليس وراءها شيء . اخذت تعيش من كتاباتها في النقد للصحف الفرنسية والانجليزية ، فهي ناقدة متمكنة لها نفوذ وصيت ، وتترجم من الفرنسية الى الانجليزية ، وكثيرون يعتبرونها احسن مترجم في هذا المجال . وقد ترجمت جميع روايات الكاتبة الفرنسية الشهيرة «مارجريت دورا» لا حبا في المال ولكن لأن الكاتبة صديقتها . وحين يضيق بها الحال ، تكتب «سيناريوهات» للسينما ، فهي تحتقر السينما ، ولا تعتبرها شكلا فنيا محترما . وكان بوسعها ان تجمع مالا وفيرا من كل هذا الجهد ، ولكنها لا تحسن تدبير المال ولا تابه له ، وتقع دائما فريسة لطمع الناشرين وخداعهم .

دائما تجعلني احس بالخجل من نفسي ، هذه السيدة العجيبة . لا تنتمي لحزب ، وليس عندها اي مطمح ، وتعطي الحياة اكثر ما تاخذ منها . كانها تحمل على عاتقها هموم الانسانية باسرها ، اذا وقع زلزال في الجزائر او فيضان في السودان او مجاعة في اثيوبيا ، يعصر الألم قلبها ، كانها مسؤولة شخصيا عما حدث . ولا تكتفي بذلك بل تجمع التوقيعات وترسل الاحتجاجات . تؤيد كفاح الشعب الفلسطيني وتكره النظام العنصري في جنوب افريقيا ، وتمقت التسلط والقهر حيثما يكون . وانا لا اشك انها تحس ماساة جنوب السودان اكثر مما يحسها جون قرنق وبقية هؤلاء الزعماء النجباء ، الاذكياء الاغبياء . «باربرا براي» تؤمن كما جاء في القران الكريم ان من قتل نفسا واحدة بغير حق، فكانما قتل الناس جميعا ، وهؤلاء عندهم ان يموت مليون ، لا شيء ، في سبيل ان يصبح الواد منهم زعيما .

في تلك الليلة شعرت بخجل عميق . قلت لها ، وانا اعلم ان كلامي اعرج وحجتي جوفاء :

«انت تعلمين اننا حين ندخل اليونسكو ، كما في كل المنظمات الدولية ، نقسم يمينا ان نكون محايدين ولا نتدخل في شؤون الدول الاعضاء في المنظمة» .

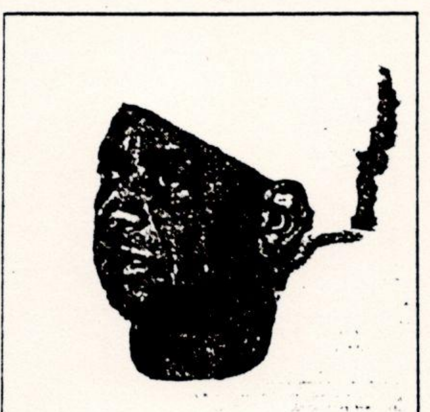
«كلام فارغ» .

اطارت النوم من عيني ، وقضيت الليل مسهدا اضرب اخماسا في اسداس .. وذلك اضعف الايمان ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

٢٥



يكتبها: الطيب صالح

ذلك الكاتب الكبير. ويا للغرابة، قد وجد في «منسي» انسانا يجذب اهتمامه ويستحق ان يقضي معه الساعة والساعتين، واصبح «منسي» بعد ذلك يشير اليه باسم «سام» كانه صديقه الحميم وكانه يعرفه منذ سنوات.

ماذا وجد «ساميول بكت» في منسي؟ انه يبدو كانه على طرف نقيض منه. فهذا رجل مترهب قضى حياته يحدق في اغوار ذاته، ويعاني اوجاعا روحية وعقلية مفرطة. كل ذلك يظهر في وجهه الغريب، الحاد التقاطيع المليء الاخاديد، كان الزمن حفر عليه بمعول. العينان اللامعتان، نظراتهما مركزة، فيهما خليط من التحدي والذعر، كانه يحدق في شيء مهول لا يراه احد غيره. لقد حدق الكتاب والشعراء والرسامون والفلاسفة قبله في تلك الهوة واصيبوا بالذعر. بعضهم انتحر، وبعضهم اصيب بالجنون، واخرون لجاوا الى وسائل شتى ليسرّوا عن انفسهم. ولكن هذا رجل فعل ما فعله ابو العلاء الضرير، فاخذ نفسه بالشدة، وعاش في عزلة متفرغا تماما لهمومه العقلية والروحية و«منسي» كما خيل لي، عاش على سطح الحياة يركض من تجربة ليدخل في تجربة، ولا يلبث طويلا حتى يرى ما تحت السطح، يثرثر ويضحك، وتحيط به اينما ذهب، جلبة وضوضاء. لكن من المؤكد ان «بكت» قضى ايضا من وقته يستمع الى «منسي»، ولا بد انه كان مستمعا، فان «منسي» لم يكن يترك لاحد حتى «بكت» فرصة للكلام ومن المؤكد ايضا انه قرا كتابات «منسي» على علاتها، ولعله وجد فيها شيئا جذابا، كما يجد كبار الرسامين احيانا اشياء جذابة في رسوم الاطفال. ولعل ذلك الكاتب الذي يزن الكلمات بميزان، اعجب بجراة انسان يقول، ولا يبالي ما يقول.

من حسن حظ «بكت» ان «منسي» كان يلم بباريس كما يهب الاعصار، فيمكث اليوم واليومين ثم يختفي. و«بكت» يقضي معظم وقته في الريف فكان «منسي» يصادفه او لا يصادفه. ولكنه كان دائما يقابل «باربرا براي» بل انه كان يجيء الى باريس خصيصا لمقابلتها. يكلمها بالتلفون اينما كان من واشنطن او لندن او القاهرة او الرياض، ثم يحل فجاة ودائما يجدها كانها تنتظره، كما تنتظر الام اوبة طفلها. حين كنت اكون في باريس كنت احضر تلك المقابلات. يكون «منسي» على سجيته تماما يضحك ويثرثر، وهي وانا نستمع، وانا اؤدي دوري المعتاد كممثل مساعد، اوقظ ذاكرته واتم له جملة واعطيه بداية القصة ليستهل هو في رواياتها، تستمع باربرا وعلى وجهها حنو عظيم. تقول وهي تضحك ضحكتها الخجولة المهذبة:

«انت ومنسي يجب ان تشتركا في تقديم كوميديا على المسرح».

واقول لها:

«مثل لوريل وهاردي».

ويقول «منسي»:

«او ابوت وكوستيللو».

كل مرة نكتشف معها مطعما جديدا في ذلك الحي من باريس الذي تعرفه كراحة يدها، مطاعم صغيرة. كل منها يتخصص في نوع معين من الطعام رخيصة الاسعار لا يؤمها السواح. اخر مرة اجتمعنا معا كان في مطعم يتخصص في الاسماك والاصداف، قريب من النهر، في الضفة اليسرى. كان «منسي» يصطحب زوجته العربية المسلمة، ويحمل طفله عبد العزيز على كتفه. اسماه عبد العزيز على اسم الشيخ عبد العزيز التويجري، فقد احتضنه ورعاه طوال مدة اقامته في الرياض.

وقد حكى لنا «منسي» في تلك الليلة كيف انه خرج رابحا ماليا من ذلك الزواج. فقد تكفل الشيخ عبد العزيز بجميع النفقات، وحجز للعروسين جناحا في الهوتيل على حسابه واعطاه مبلغا اضافيا نقدا. وحين جاء وقت الذهاب الى الهوتيل لم يجدوا «منسي» وبحثوا عنه فوجدوه نائما في غرفة من غرف الدار. وحكى لنا ايضا انه حين اراد ان يطلب العروس من اهلها ضربوا له موعدا، ووصفوا له كيف يصل اليهم، فذهب الى دار اخرى، وظل ينتظر زمنا طويلا الى ان جاء احد اهل البيت فوجده جالسا. ساله من هو وماذا يريد. قال «منسي»:

«امال فين الجماعة؟».

«اي جماعة؟».

«الله دا مش بيت ...؟».

كل هذا واصهاره الجدد ينتظرونه في بيت اخر. واخيرا وصلهم وقد كادوا ييأسون منه وينفضون.

حين جاء وقت دفع الحساب تصدت له «باربرا». دائما اما تدفع هي او ادفع انا و«منسي» ينظر الينا وكل منا يلح، وكان الامر لا يعنيه ليس لانه بخيل، فقد كان كريما جدا بعض الاحيان، ولكن لانه مع اناس معينين كان يضع نفسه في وضع الذي ياخذ ولا يعطي، وكانه يؤكد محبته بهذه الطريقة. لكنني هذه المرة صممت ان يدفع «منسي» الحساب. قلت لباربرا مستعيرا وصف عبد الرحيم الرفاعي له:

«هذا البغل رجل ثري. جاء الى باريس في سيارة امريكية طويلة عريضة ونزل في هوتيل ذي خمس نجوم. وثمن هذا المعطف من الفراء الذي يلبسه وحده يكفيك شهرا كاملا. لماذا تدفعين او ادفع انا؟ انت وانا فقيران».

قال لي «منسي»:

«بس بلاش غلبة. ادفع او سيب باربرا تدفع».

احرجت زوجته التي يبدو انها لم تكن عرفت طباعه بعد. قالت له:

«يا احمد ادفع الحساب يا اخي».

قال لها ضاحكا:

«طيب ادفع وامري لله. لو كنت عارف اني «حاتوكح» بالفاتورة كنا طلبنا حاجات ارخص».

حين مات، لم اشا ان اتصل بـ «باربرا» الا بعد زمن، فقد خفت الا تكون قد سمعت النبا وكنت اعلم وقع ذلك عليها. وجدتها تعلم، وكانت مبتئسة اكثر حتى مما توقعت. قالت لي في نهاية المكالمة:

«طبعا سوف تكتب عن (منسي)».

«كنا قد اتفقنا ان نكتب قصة حياته معا، باللغة الانجليزية ثم باللغة العربية».

«كان سيكون كتابا مهما... ورائجا ايضا... «منسي» كان انسانا مهما ونادرا... على طريقته».

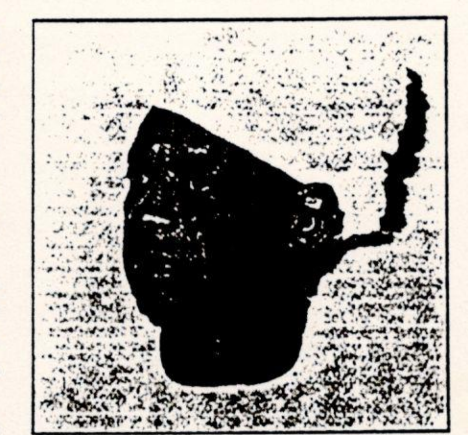
«الان، بعد موته، لا ادري... توجد احداث لا اعرفها... واشياء كان احسن ان يرويها هو، بطريقته... سوف افكر... لعلني اكتب عنه، ولكن بعد حين». ■

(للحديث بقية)



نحو أفق بعيد

—٢٦—



يكتبها : الطيب صالح

في طريقنا الى مقر اتحاد طلبة جامعة لندن، سألني «منسي» عن قضية فلسطين.

كانت جرأة كبيرة من اتحاد الطلبة ان يختار ذلك الموضوع، في تلك الايام العصيبة اوائل الستينات:

«هذا المجلس يوافق على ان تقوم دولة مستقلة للفلسطينيين في فلسطين».

ولا ادري من الذي اختار «منسي» ليكون المدافع الرئيسي عن قضية فلسطين تلك الليلة، في مواجهة خصم قوي شديد المراس. ولكن لانه كان يحب الجدل، ويحب الظهور والضوء فلا بد انه بذل جهدا ليحصل على الدور. كان المتحدث الرئيسي المعارض له، هو مستر ريتشارد كروسمان.

«ريتشارد كروسمان؟ طز. وايه يعني؟».

لكن «ريتشارد كروسمان» لم يكن رجلا سهلا. في الواقع، ولو كان المعني بالامر شخصا اخر غير «منسي» لحسب لمواجهته الف حساب. كان من مفكري اليسار المعدودين، ومن المنظرين الكبار في حزب العمال. عمل استاذا في جامعة اوكسفورد قبل ان يصبح نائبا في البرلمان. وقد صار فيما بعد وزيرا ومستشارا اثيرا عند هارولد ولسن رئيس الوزراء. ولما ترك الوزارة اصبح رئيسا لتحرير مجلة الـ «نيو ستيتسمان» الواسعة النفوذ. وكان قد اشترك من قبل في لجنة كونتها الحكومة البريطانية لدراسة اوضاع العرب واليهود في فلسطين ورفع تقرير عن ذلك. وكان منحازا تماما لوجهة النظر الصهيونية.

قال لي «منسي» ونحن في سيارته تلك في طريقنا الى مقر الاتحاد، وقد بقي اقل من ساعة على بدء المناظرة:

«اسمع. قول لي بسرعة ايه حكاية فلسطين دي».

«الله يخيبك. تقصد انك سوف تواجه ريتشارد كروسمان وانت لم تستعد؟ الا تعرف من هو ريتشارد كروسمان؟».

«بلاش غلبة. بس انت قول لي بسرعة ايه حكاية وعد بلفور ومش عارف ايه وشغل الحلبسّة دا؟».

«يا ابني دا مش لعب. هذه مناظرة مهمة جدا... فرصة نادرة لن تتكرر. الله يخرب بيتك. انت مين اختارك لتكون ناطقا باسم العرب؟».

«مالكش دعوة. بس اديني شوية معلومات وما تخافش علي. قال ريتشارد كروسمان. طز وايه يعني؟».

انتابني قلق حقيقي. امتلأت القاعة بالخلق، والذين لم يجدوا اماكن وقفوا في الطرقات والردهات. سفراء عرب واجانب، واعضاء في البرلمان وصحفيون ومصورون. وراديو وتلفزيون. كان واضحا ان كلا من الجانبين، عربا ويهودا قد بذل جهدا كبيرا لحشد الناس. لا غرابة فان المناظرات التي تعقدها اتحادات الطلبة في الجامعات، خاصة في اوكسفورد ولندن، لها تاثير ووزن معنوي كبير، ودائما تحظى باهتمام وسائل الاعلام.

لحسن الحظ كان مع «منسي» فريق قوي، كان احدهم، على ما اذكر، «ارسكن شلدرز» الكاتب الصحفي الذي دافع ببسالة عن العرب وقضية فلسطين بالذات، ثم لما ازداد عليه العنت والضغط القى السلاح واختفى من الساحة تماما.

حين خطا «منسي» الى المنصة بقامته القصيرة، وجسمه الذي كانت نتوءاته قد بدأت تتضح من وراء ومن امام هبت في وجهه عاصفة قوية من التشجيع والهتاف من الجانب العربي، زادته جرأة على جرأته. تكلم بجنان ثابت ولغة انجليزية فصيحة. لكنه لم يقل شيئا يجذب الاهتمام وقد حاول ان يغطي جهله بقوله، انه سوف يترك التفاصيل للفريق المساند له.

كل واحد من هؤلاء كان على بينة من امره فتحدثوا كلهم حديثا مفيدا مليئا بالحقائق الدامغة.

ثم اعطى الرئيس الكلمة لريتشارد كروسمان، فخطا نحو المنصة بقامته المديدة، وسط زوبعة من التاييد ضمت كثيرين لم يكونوا مع العرب او اليهود، ولكنهم كانوا يعرفون من هو ريتشارد كروسمان.

تحدث بصوت اجش تميز به، واسلوب جمع فيه بين وقار استاذ سابق في جامعة اوكسفورد ودهاء سياسي متمرس تعلم الصنعة في مؤتمرات حزب العمال، وغمار معارك مجلس العموم حيث واجه خصوما ضخاما من وزن ونستون تشيرشل وانتوني ايدن. ماذا يصنع حلمي حمى العروبة، فارسنا المسكين «منسي» في مواجهة هذا «العلج» الجبار؟ ولما فرغ ريتشارد كروسمان، تاكد لي ان قضية فلسطين قد خذلت تلك الليلة في تلك الساحة.

بعد ذلك حدث امر عجيب لا اذكر بوضوح كيف حدث، ولكنني اذكر «علج» الصهيونية الجبار، وقد تقلص وصغر، يفتح فمه ويغلقه كانه فقد القدرة على الكلام، وقد احمر وجهه وسال العرق على جبينه، وفارسنا «منسي» قد تحول الى سبع كاسر، يجري غاديا رائحا من اخر القاعة الى المنصة يشير بيديه، ويشب في حلق الرجل ويكاد يضع اصبعه في عينه ويلح في سؤاله:

«قل لي. هل انت بريطاني ام اسرائيلي؟».

يزداد وجه ريتشارد كروسمان احمرارا، وصاحبنا «منسي» يرمح كالغزال الى اخر القاعة ثم يمرق كالسهم الى المنصة، يمد كرشه الى امام ومؤخرته الى وراء ويدير عينيه اللتين زادتا اتساعا في القاعة، وقد حلت عليه طاقة لا ادري من اين جاء بها.

«نحن نعلم انك يهودي.. لا اعتراض لنا على ذلك. من حق كل انسان ان يكون كما يشاء.. نحن لسنا ضد اليهود.. لكن نريد ان نفهم.. ولاؤك لمن؟ مع بريطانيا ام مع اسرائيل؟».

لم يكن ريتشارد كروسمان يهوديا حسب علمي ولكنه كان من الواضح ان «منسي» اراد ان يزعزع الثقة في مصداقيته ويمزق ثوب الوقار والاحترام الذي يكسوه. وقد نجح في ذلك تماما. حوّل المناظرة الى مهزلة وحوّل خصمه الى شيء يثير الضحك.

ولما عدّت الاصوات، انتصر، ويا للعجب، الاقتراح الذي دافع عنه فارسنا «التعبان» وهو لا يعرف عن قضية فلسطين اكثر مما يعرف راعي الابل في بادية كردفان. وكان ذلك النصر دليلا اخر اضافه «منسي» الى ذخيرته، ان الصدق والمنطق واتباع الاصول، لا تجدي، انما الذي يجدي في الحياة وفي قضية فلسطين وفي كل شيء، هو «الاونطة» و «شغل الحلبسّة».

لفتت تلك الليلة الانظار اليه، ومنها نظر الرئيس عبد الناصر الذي ارسلت له السفارة المصرية -حسب رواية منسي- تقريرا مدعما بالصور كيف ان شابا مصريا «مسح الارض» باحد جهابذة السياسة في بريطانيا. ولعل ذلك كان صحيحا فقد تلقى «منسي» دعوة لحضور مؤتمر للمغتربين المصريين وبذلك بدأت مرحلة جديدة في حياته. ولكنه قبل ذلك قام بعمل ربما يكون اجرأ عمل اقدم عليه وكاد بسببه ان يُطرد من بريطانيا ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة

نحو أفق بعيد ٢٧



بقلم الطيب صالح

عند باب «بوش هاوس» وانا في طريقي الى محطة «بادنجتن»، لأخذ القطار الى اكسفورد، عرض لي «منسي».

«طيب. رايح فين؟»

«اكسفورد».

«عندك ايه في اكسفورد؟»

«بروفيسور توينبي» يلقي محاضرة عن قضية فلسطين».

«برضه فلسطين. يا اخي خليك في لندن. الويك اند قربت».

«هذه محاضرة مهمة».

«خلاص اجي معاك».

كانت تلك عادة «منسي». ضحكت لانه كان يجدني ذاهبا الى اي مكان فيقول لي «اجي معاك» وقد رافقني بالطريقة نفسها الى الهند والى استراليا.

«يا اخي انت صايع ما عندك اهل؟ ما تروح لزوجتك وعيالك».

«بلا زوجة بلا عيال بلا غم. يالك بينا».

كان محظوظا في «ماري» تلك السيدة الطيبة. تزوج وانجب، وعاش كما يحلو له، كانه اعزب. يسافر ويعود ويظهر ويختفي، وهي في حالها، كانه ضيف.

احيانا كنت انتبه فجأة انني لم اره منذ اسبوعين او ثلاثة، فاتصل بداره، فترد علي «ماري».

«منسي ليس موجودا».

«اين هو؟»

«لا اعلم».

«منذ متى»

«منذ اسبوعين».

«ولا تسالينه اين يذهب؟»

«انت تعرف «منسي». هكذا هو. لكنه يعود دائما».

ظل يذكرها كثيرا بعد ان توفيت في حادث حريق في دارهم في واشنطن. وكان يقول انها قديسة. واشهد انها كانت شيئا من ذلك.

«قطار بتاع ايه يا شيخ. نروح بسيارتي».

«لا يا عم. لا يمكن اروح لحد اكسفورد «بالقملة» بتاعتك دي. تسمي دي سيارة؟»

«انت لسه في زمن الـ «بيل»؟ يا ابني احنا دلوقت في مرحلة جديدة. اشتريت سيارة محترمة.. حاجة ابهة».

اتضح انها سيارة «نصف عمر». لا اذكر نوعها اشتراها بطريقته الملتوية. صاحبه الجزار، يعرف واحدا، يعرف صاحب كاراج، يعرف واحدا يتاجر في السيارات المستعملة.

«لكنني احب السفر بالقطار».

لو كان لي من الامر شيء، لربطت العالم العربي كله، من طنجة الى مسقط، ومن اللاذقية الى نيالا، بشبكة من السكك الحديدية مثل قطارات الـ T.G.V. السريعة في فرنسا، وقطارات الـ Bullit في اليابان. الانسان الذي كان يسير الشهر والشهرين بالبعير، من صنعاء الى مكة، لماذا قفز فجأة لهذه الوسيلة الجنونية؟ المطارات مهما بلغت، تبدو شيئا موقتا. محطات السكك الحديدية لها طعم اخر وسحر خاص. المحطات الخلوية والمناظر المتنوعة. تعرف انك قد قمت من مكان ووصلت الى مكان. تنام وتقرا وتصادف اصنافا من خلق الله. ليس مثل الطائرة. تغمض وتفتح فاذا انت قد انتقلت من حال الى حال.

«يا للا بلاش كلام فارغ. يا للا يا اخي سيب البطء بتاعك دا. احسن تضيع مننا المحاضرة».

عكس الآية كعادته، وتصدر المجلس، واصبح كانه هو الذاهب الى اكسفورد، وانني مجرد تابع له.

في منتصف الطريق، قال لي:

«في واحد صاحبي هنا، نمر عليه خمس دقائق».

«مين»؟

«واحد من المسؤولين الكبار في شركة ارثر رانك».

«يا اخي خلينا نواصل. المحاضرة في السابعة مساء».

«اصلهم ناويين ينتجوا فيلم عن «لورنس». تعرف مين حيمثل دور لورنس؟ الك جنس. في دور لعربي شاب، اهم دور بعد «لورنس» بيفكروا في عمر الشريف. انا ناوي الطش الدور. المخرج حيكون «ديفيد لين» اخو «تانجي».. تانجي وعدني يكلم اخوه».

ضحكت ولم اقل شيئا.

«بتضحك ليه؟ هو يعني عمر الشريف احسن مني»؟

«ابدا. مين قال عمر الشريف احسن منك»؟

«اذا كانت الحكاية انه بيتكلم انجليزي كويس، انا اجدع منه الف مرة في الانجليزي».

«مؤكد».

«واذا كانت حكاية تمثيل. دا حتى سير لورانس اليفييه اعجب بتمثيلي».

«عجيب».

«انت مش مصدق؟ انتّ عارف مين علم لورانس اليفييه ازاي يمثل شخصية المهدي في فيلم «الخرطوم»؟

«انت»؟

«ايوه يا سيدي انا. الراجل كان حيجنن لما قرات له من الذاكرة كل المونولوجات بتاع هاملت.. بنفس الطريقة لي هو اداها بيها في الفيلم».

«يا ابني سيب الهزار. الحكاية مش لعب. الاونطة تنفع في كل شيء الا في الفن.. انت تعرف انجليزي كويس وتحفظ مونولوجات هاملت وريتشارد الثالث. لكنك ممثل فاشل. عمر الشريف ممثل عالمي.. وانت مين؟ مين سمع بمنسي بسطاوروس. حتى اسمك لا يصلح للسينما. وبعدين.. عمر الشريف رجل وسيم وانت ما شاء الله».

«انا مش وسيم؟ البنات بتقول لي اني اشبه علي خان. في الاحتفال في قصر بكنجهام الاميرة مارجريت اخذت بي».

«انت قابلت الاميرة مارجريت»؟

«الا قابلت الاميرة مارجريت! يا اخي ما انت عارف القسة من طقطق للسلام عليكم».

مجرد تذكر تلك الحادثة اسعده جدا فضحك بطريقته. وانا ايضا ضحكت. فقد كنت اعلم انهم كادوا يطردونه من انجلترا.

وجدنا دارا كبيرة تطل على واد جميل، ورجلا انجليزيا كانه جاء من عصر اخر. ومع اننا حللنا عليه على غير موعد فقد فرح حقيقة للقاء «منسي».

«مايكل! يا لها من مفاجاة سارة. عجيب انك جئت فقد كنت افكر فيك».

«قلت امر عليك. انا في طريقي الى اكسفورد للاستماع الى محاضرة هامة يلقيها بروفيسور توينبي.. اه.. نسيت ان اقدم لك مستر صالح.. صديقي. يعمل معي في الـ «بي.بي.سي» (B.B.C.) التفت الرجل الي:

«اه. انت اذا تعمل مع مايكل»؟

«نعم. مستر.. مايكل من كبار المسؤولين في الـ B.B.C. كما تعلم. وهو رئيسي المباشر».

لم يخف «منسي» سروره انني اؤدي الدور كما يجب، وكانه اراد ان يرد لي التحية، فقال للرجل:

«مستر صالح من المعاونين الاكفاء الذين يعملون معي».

انصرف الرجل كليا الى «منسي» واتضح لي من الحديث لماذا كان يفكر في «منسي» ولماذا فرح لمقدمه■

للحديث بقية

آخر ورقة

نحو أفق بعيد ٢٨



بقلم الطيب صالح

كان «منسي» يضحك كعادته في اغلب الاحيان. وقد وقف الرجل من شركة «ارثر رانك» عند باب داره، يلوح لنا بيده.

اخلدت السيارة الى الطريق، واعتدلت في سيرها.

سيارة «نصف عمر»، اي نعم، وحصل عليها «منسي»، الله اعلم كيف. اي نعم. ولكنها سيارة لها نوافذ وابواب، تصل سرعتها الى مائتي كيلومتر في الساعة.

حياة «منسي» يمكن ان تقاس، بوجه من الوجوه بانواع السيارات التي اشتراها، او هبطت عليه من السماء. في آخر حياته، حين اصبح «سيّد تاتشبري» او «لورد تاتشبري»، كما كان يقول، ويسكن في القصر الذي زعم انه كان استراحة صيد للملك جون، كان يخرج كل صباح في زي الفرسان، ممتطياً صهوة حصانه «سام»، يمر على قطعان البقر والضأن، ويتفقد اشجار البلوط والصنوبر والتفاح والتوت والفراولة. جاره من ناحية الشرق لورد «منتباتن» عم الدوق زوج الملكة، او خاله، وجارته من ناحية الغرب ليدي هذه او تلك. ثم يصل الى الاصطبل. يربت على رقاب الخيل ويحادثها ويستنشق تلك الرائحة الفريدة التي تنبعث من الخيل في مراحها. يختم جولته بالكراجات. يفتح الابواب فاذا السيارات مصطفة كما الخيل في الاصطبل. يتفحصها واحدة واحدة. يرفع الغطاء ويفتح الباب ويدخل. يجلس ويمسك بعجلة القيادة، وينطلق بها وهي ساكنة، في آفاق رحبة ولا بد. سيارة الفورد وسيارة الروفر وسيارة البيوك وسيارة الجاكوار وسيارة المرسيدس. ثم اخيرا يصل الى نهاية المطاف، الى سيارة... الرولز. يرفع عنها الغطاء كما يُرفع النقاب عن وجه العروس الجميلة المشتهاة. يدخل ويملأ رئتيه بذلك العطر العجيب. يمسك بعجلة القيادة، ويدير المحرك ثم يوقفه. يخرج ويقف على حافة حوض السباحة وينظر الى خياله يتفرق ويتجمع ويطول ويقصر على صفحة الماء. قليلون جداً هم الناس الذين يمشي الواحد منهم حافيا او يركب حماراً او بعيراً وتراه عند الافق، شامخا كأنه امير من امراء الحياة. كان «منسي» قد وصل بالفعل الى نهاية المطاف، وكانه فيما يبدو، لم يجد بعد ذلك سببا للبقاء.

لكنني استبق الاحداث نحن الان في بداية الرحلة، في طريقنا الى اكسفورد، في سيارة لها نوافذ وابواب، تمد رجليك، وتفتح النافذة اذا شئت، وتستنشق هواء الريف الانجليزي المنعش اذا شئت. تتألق الحقول على الجانبين، حقول ناعمة بتلالها المنخفضة مثل طيات الثوب، والقرى الانجلوسكسونية بأبنيتها الحجرية وسقوفها الازدوازية في قيعان الاودية وعلى سفوح التلال. تركنا الرجل الانجليزي من شركة «ارثر رانك»، واقفا امام باب داره، يلوح لنا بيده، وفي عينيه حلم لن يتحقق، كما ان حلم «منسي» في الحصول على دور عمر الشريف في فلم «لورنس العرب» لن يتحقق.

كنت قد المت بطرف من القصة من الحديث بين «منسي» وصاحبه الانجليزي، وقد اثرت الا اسأله الان ونحن في طريقنا الى اكسفورد، وان اتركها تتفخم وتتغير وتتبدل في خياله. كنت اشهد الواقعة معه، ثم يرويها فاذا هي مختلفة تماما عما رايت وسمعت.

وجدنا كرّار احمد كرّار وحسن بشير في استقبالنا.

قال لي كرّار وهو ينظر الى «منسي»:-

«مين الحلبي دا اللي جبته معاك؟».

نسمي اشقاءنا المصريين «حلب»، و«اولاد ريف» بدافع المحبة، وهم يسموننا اشياء بدافع المحبة.

قال «منسي»، وكانه يعرف الرجل من زمن:

«ايه يا خوي حلبي دي؟ انت فاكرني من المصريين بتوع وجه بحري؟ دا انا صعيدي من قرايبكم.».

كان كرّار، رحمه الله، سودانيا قحّا، فيه كل فضائل السودانيين الاقحاح، وبعض مساوئهم. كان رجلا «شيخ عرب»، كما نقول، حتى في بذلته الافرنجية، وفي اكسفورد، كانه يتلفع ثوبا ويمسك عصا، ويجلس في ظل شجرة كبيرة وسط قبيلة. عمل في الادارة منذ عهد الانجليز. فكان مامورا ومفتش مركز. ووصل في العهد الوطني الى رتبة محافظ. وقد عمل مساعدا للامين العام لمجلس الوزراء في حكومة الصادق المهدي الاولى، وصار وزيرا لشؤون مجلس الوزراء في عهد النميري. وكان خبيرا بشؤون جنوب السودان. ذلك لان «منسي» دخل معه بعد ذلك في جدل حاد عن الجنوب وهو لا يعرف عنه الا كما يعرف في قضية فلسطين.

اما حسن بشير، فهو زميلي وصديقي منذ عهد الدراسة، عمل في وزارة المالية، واصبح مساعدا لمحافظ البنك المركزي. وكان بوسعه ان يذهب ابعد، ولكنه انسان واضح، لا يحب اللف والدوران، فلم يرق ذلك لاصحاب الشأن ■

للحديث بقية

آخر ورقة

نحو أفق بعيد ٢٩



بقلم الطيب صالح

جلسنا في الصف الاول، وكانت القاعة ممتلئة. لا عجب، فقد كان المحاضر بروفود ارنولد توينبي اعظم مؤرخي عصره. ثم ان الحدث كان الاول من نوعه. كانت مناسبة تاريخية اذا صح القول. ذلك لان كلا من اتحاد الطلبة العرب في جامعة اوكسفورد واتحاد الطلبة اليهود وجه الدعوة لبروفيسور توينبي لالقاء محاضرة عن قضية فلسطين، فاجابهم بانه رجل تقدمت به السن ولا يقوى على القاء محاضرتين، ولكن يسره ان يلقي محاضرة واحدة على العرب واليهود مجتمعين. قبل الطلبة اليهود بلا تردد، فقد كانوا كعادة اليهود عموما، لا يجدون فرصة للتحدث الى العرب الا انتهزوها. اما العرب فمنهم من رفض ومنهم من تردد.

تغير الحال الان.

في تلك الايام كان الاتصال باليهود وحتى مجرد التحدث اليهم امرا يكاد يكون محرما على العربي. كان امرا عجيبا تلك الايام، ان ترى عربيا ويهوديا دعيا مع اخرين في تلفزيون من تلفزيونات اوروبا. يرفض العربي ان يجلس في غرفة واحدة مع اليهودي، فيجلسونه في غرفة منفصلة. ويقضون الوقت كله يضيقون الخناق على العربي، لماذا لا يريد ان يجلس في صعيد واحد مع اليهودي. ويخرج اليهودي منتصرا دون ان يفعل شيئا. قليلون جدا من كانت عندهم الشجاعة للتمرد على هذا الحظر. اما نحن فقد كنا اغوارا ولم نكن نبالي.

نقول:

اليس لنا عقول مثل عقولهم، وحجج اقوى من حججهم؟

ـ كانت تزاملنا في الدراسة في جامعة لندن فتاة انجليزية من اصل يهودي، اذكر اسمها جيدا رغم طول العهد. كان اسمها «شيرلي»، وكانت وسيمة الوجه، ضاحكة العينين، لها غمازتان على خديها، تفعلان الاعاجيب اذا ضحكت. وكنا خمسة. من مصر والعراق وفلسطين والمغرب والسودان. دائما تجد شيرلي معنا. تؤثرنا على غيرنا وتأوي الينا دون سوانا تقول لنا لماذا لا يعيش العرب واليهود في سلام؟ ونقول لها نعم والله، لماذا لا يعيشون في سلام! تقول لنا نحن ابناء عمومة واقرب الناس بعضنا الى بعض. ونقول لها صدقت. العرب ابناء اسماعيل بن ابراهيم، وانتم ابناء اسحق بن ابراهيم.

اللغة العربية واللغة العبرية متقاربتان الى حد بعيد.

صدقت يا شيرلي. هما متقاربتان الى حد بعيد..

اذا لماذا الحروب واراقة الدماء؟ لماذا اهدار الطاقات وتبديد المال؟ لماذا لا يرفرف السلام باجنحته على تلك الربوع؟ ونقول لها يا ليت السلام يرفرف على تلك الربوع! واصدقكم القول، ان كل واحد منا، كان مستعدا، لو ترك له الامر، ان يعقد صلحا منفردا مع «شيرلي».

وذات صباح جاءتنا تسعى، كما سعت اليابانية الى صاحبها المصري في قصيدة شاعر النيل الشهيرة. قالت لنا، انه الوداع.

«فيم الوداع والى اين تذهبين يا شيرلي؟».

نظرت الينا متعجبة برهة، ثم اجابتنا كما اجابت اليابانية صاحبها المصري:

«فأجابتني بصوت راعني
وارتني الظبى ليثا اغلبها
نبأوني برحيل عاجل
لا ارى لي بعده مذ نبا».

قلنا لها:

«ولكن لماذا؟».

نظرت الينا كرة اخرى، بعينين غير ضاحكتين، وخدين بلا غمازتين. قالت:

«الا تعرفون ان الحرب قد قامت بين مصر واسرائيل؟».

قلنا لها، كما قال المصري لصاحبته اليابانية في القصيدة:

«قلتُ والالام تغري مهجتي
ويك ما تفعل في الحرب الظبى؟»

قلنا لها:

«وانت ما شأنك بالحرب؟».

قالت:

«انا جندية في جيش الاحتياط الاسرائيلي، وقد دعيت للخدمة العسكرية».

نظر بعضنا الى بعض، ودار بين كل واحد منا وبين نفسه، وبين كل واحد منا والاخرين حديث طويل في صمت. هل يعقل ان هذه الفتاة الجميلة اللطيفة تذهب الى الحرب، وتحمل السلاح، وتحارب مع الاعداء، وتقتل العرب؟

ثم تحولت الحيرة الى غضب عظيم. على انفسنا، وعلى شيرلي، وعلى اسرائيل.

كنا في مقتبل العمر، عندنا، كما عند الشباب، قدرة عظيمة على التسامح. وايضا، كما عند الشباب، استعداد كبير للتضحية والفداء. الا ان احدا لم يطلب منا فعل اي شيء.

نحن وغيرنا. كثيرون من الشباب العرب ذهبوا الى السفارة المصرية يعرضون التطوع. قالوا بارك الله فيكم. حين تدعو الحاجة اليكم سوف نتصل بكم. ولكن الجيش المصري مسيطر تماما على الموقف.

ثم نظرنا الى شاشات التلفزيون، فاذا الجنود الاسرائيليون يستحمون في قناة السويس.

صحيح ان الانجليز والفرنسيين اعانوا اسرائيل في تلك الحرب، عام ٥٦. ولكن الامر نفسه حدث بعد ذلك في حرب ٦٧.

اما «شيرلي»، فانها لم تعد. ولعلها قتلت او قُتلت. ولعلها أثرت البقاء نهائيا في اسرائيل.

ما اعجب ما كانت تلك الايام. ويا هل ترى، يا رعاك الله، انتهت بعد الاعاجيب! ■

للحديث بقية

آخر ورقة

نحو أفق بعيد ٣٠



بقلم الطيب صالح

لا عجب ان القاعة امتلات، فقد كان المحاضر هو بروفسور ارنولد توينبي اعظم مؤرخي عصره، وابعدهم نظرا، واعمقهم ادراكا. ذلك مؤرخ نظر الى تاريخ الانسانية كبحر متلاطم الامواج، موجة تصعد وتبلغ الذروة، ثم تهبط وتنحسر، لتعلو موجة اخرى. حضارات تولد وتنمو وتزدهر وتذبل فتولد بدلا منها حضارات جديدة.

جلسنا في الصف الامامي، وكان «منسي» لا يكاد يستقر في مقعده، يتلفت يمنة ويسرة ويبتسم لكل من تقع عليه عينه، لقد انعشه هواء اكسفورد. واستجابت روحه لمغناطيس ذلك المكان السحري. هذه المدينة الصغيرة التي تكتسب سمتها وروحها من وجود الجامعة فيها، هي عبارة عن رمز لافضل، وربما ايضا لاسوا، ما في «الحضارة» البريطانية. يخرج البريطاني من هنا وهو يحمل صك الانتماء الى صفوة مميزة. رؤساء اتحاد الطلبة في اكسفورد، غالبا ما يدخلون البرلمان، وغالبا ما يصيرون وزراء. وقد ذهب من هذا المكان الصغير، ايام سطوة الامبراطورية البريطانية شبان في العشرينات من اعمارهم، لا يميزهم شيء الا انهم ينتمون لتلك النخبة الحاكمة، سيطروا على مصائر شعوب في الهند والسودان ونيجيريا وكينيا وفلسطين. وكان الواحد منهم يحكم رقعة اكبر من الجزر البريطانية.

كانت جامعة اكسفورد حلما دفينا عند «منسي»، حصنا من حصون الانجليز لم يستطع اقتحامه. لذلك اشرق وجهه وتواترت لفتاته اول ما ظهرت لنا ابراج الكليات، ثم لما اجتزنا المباني التي تجمع في معمارها بين هيئة الكنائس وقلاع القرون الوسطى.. الحيطان السميكة والابواب الضخمة والنوافذ المستطيلة والباحات الداخلية التي اقتبسوها ولا بد من المعمار العربي الاندلسي.. وكان «منسي» يردد اسماء الكليات كانه ينشد نشيدا اسطوريا قديما .. باليول .. ميرتن ..مودلن .. وملدهام .. وكيبل .. يبتسم ذات اليمين وذات الشمال وخاصة للطالبات، وهن يهرولن من قاعات المحاضرات او يمتطين الدراجات .. ومن حين لآخر نمر باستاذ يسرع الخطى وقد نفخ الهواء عباءته السوداء.

نظر بروفسور توينبي الى القاعة الممتلئة، وادار عينيه المشعتين في وجوه الحضور، عربا ويهودا، وابتسم ابتسامة تحمل معاني كثيرة.

اجتمع العرب واليهود لاول مرة في جامعة اكسفورد، ولعل المرحوم كرار كان احد الذين اقنعوا الطلبة العرب بالقبول، فقد كان احد زعمائهم. كان هو وحسن بشير يحضران لدراسات عليا في كلية «سانت انتوني».

تحدث «توينبي» حديثا مليئا بالعلم والحكمة. واذكر من بعض ما قاله في تلك الليلة ان قصة العرب واليهود في فلسطين، تشبه الماسي الملحمية الاغريقية، شر يقود الى شر يقود الى شر في سلسلة لا نهاية لها. تحدث طويلا عن الشر الذي حاق باليهود في اوروبا، في روسيا وايطاليا وفرنسا والمانيا وانجلترا. ذكر مستمعيه ان اليهود كانوا يصلبون في الميادين العامة في انجلترا حتى القرن الثامن عشر. تحدث عن معاناة اليهود على ايدي النازيين في المانيا، وقال ان تلك البشاعة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الانسانية، لا يمكن ان تفسر بانها عمل شخص واحد مختل العقل، هو ادولف هتلر، ولكنها إثم تحمل وزره حضارة اوروبا الغربية باسرها.

في مقابل ذلك افاض «توينبي» في الحديث عن التسامح الذي وجده اليهود من العرب والمسلمين، وخاصة في الاندلس، حيث اطلقت الحضارة العربية الاسلامية العنان لطاقات اليهود، فكان منهم وزراء وسفراء وعلماء وفلاسفة. وتعجب كيف ان شعبا عانى ما عاناه اليهود من عنت واضطهاد، على ايدي الاوروبيين، يلحق الاضطهاد نفسه بقوم لا ذنب لهم فيما حدث. واختتم محاضرته بقوله ان على الفريقين ان يعملا على كسر هذه الحلقة الشريرة والخروج من ذلك المازق التاريخي، والا فان الامر سوف ينتهي حتما بكارثة تحيق بالبشرية باسرها، كما يحدث في الماسي الاغريقية. وناشد اليهود خاصة ان يعملوا الفكر بشجاعة وجراة لايجاد وسيلة اخرى غير العنف للخروج من ذلك المازق التاريخي.

صفق اكثر الناس مجاملة، لا تاييدا، فقد كان حديث «توينبي» اكثر حكمة ورصانة مما كان يطلبه العرب واليهود تلك الايام. اما العرب فقد كانوا في تلك الايام العصيبة المريرة يريدون انحيازا واضحا الى جانبهم. واما اليهود، فقد كانوا ومازالوا مزهوين بباطلهم. ولكن هذا رجل فكر طويلا في مصائر الشعوب والامم، وراى اكثر من اي مؤرخ آخر في عصره، مسيرة الانسان منذ فجر التاريخ، كشيء واحد متكامل مترابط الاجزاء، وكان قد بلغ الثمانين او قاربها، فلم يكن يهمه ان يرضى العرب او اليهود.

ثم حل على القاعة صمت عميق، كما يحدث للناس حين يلقى عليهم قول طريف، يعرفون بعضه ويجهلون البعض الآخر.

من قلب ذلك الصمت، انبثق «منسي» فجاة، تماما كما ترمي حجرا في بحيرة ساكنة ■

للحديث بقية

آخر ورقة

نحو أفق بعيد ٣١

بقلم الطيب صالح

ادار «منسي» ظهره لـ «بروفيسور توينبي» وجال بعينيه الواسعتين في الحضور الذين اخرجهم وقوفه عن صمتهم فشخصت اليه ابصارهم. وضع يده اليسرى في جيبه، ونفخ صدره، ورفع رأسه الى اعلى، ثم دار نحو «بروفيسور توينبي» ببطء، ونصف وجهه الأيسر ما يزال يميل نحو الجمهور. اتخذ وقفة دراماتيكية. ولعل صورة لورانس اوليفييه، وهو يحث جنوده على القتال في دور الملك هنري الخامس في معركة «اجنكورت» ضد الفرنسيين، كانت ماثلة في مخيلته. كان يحفظ عن ظهر قلب اغلب خطب الملك هنري في مسرحية شيكسبير تلك، ويؤديها بصوت قريب من صوت لورانس اوليفييه. او لعله تمثل نابليون في معركة «اوسترلتز»! كانت احلام العظمة تخطر احيانا على بال «منسي»، ولكن كما تمر سحابة الصيف في السماء، سرعان ما تتبدد دون ان تترك اثرا. ان قامته على الاقل، تقرب من قامة نابليون، وهو في وقفته هذه يذكر المرء من بعيد، من بعيد جدا، بوقفة نابليون في تلك اللوحة الشهيرة التي رسمها الفنان «دافيد». هذا المكان العريق، اكسفورد، مفعم بالتاريخ والاوهام، والاحلام التي تبددت كسحائب الصيف، والاحلام التي بلغت غاياتها. ولا بد ان شيئا ما قد حدث لـ «منسي» فاخرجه عن طوره.

قال بلهجة اكثر تقعرا من المعتاد، وهو يضغط على «بروفيسور» و «توينبي» التي كان ينطقها «تا انبي» بطريقة الانجليز الارستقراط:-

«بروفففسر تاانبي.. انني استمعت الى محاضرتك القيمة باهتمام بالغ، ووجدت فيها... وجدت فيها اشياء كثيرة تدعو للتفكير. واود بادىء ذي بدء... ان اشكرك اجزل الشكر.. بالاصالة عن نفسي، وبالانابة عن الحاضرين... واظن انني اعبر عنهم جميعا حين اقول... انها كانت محاضرة قيمة و ... ومفيدة جدا.... ولكن اسمح لي ان اقول... انني دهشت حقا... ان اسمع مؤرخا مثلك... مؤرخا عظيما مثلك، ليس معروفا عنه انه معاد للعرب... بل لعلنا نحن العرب نعتبرك واحدا من اصدقائنا... نعم، ادهشني حقا قولك... ان العرب، طوال تاريخهم، اساءوا معاملة اليهود... واضطهدوهم... وعذبوهم....».

كنت اجلس الى يمينه، وحسن بشير وكرار الى يساره. نظرنا ثلاثتنا اليه مذعورين في وقت واحد. وسرت همهمة بين الحاضرين وسمعت بعض الضحكات المكتومة. واخذت اجذبه من ذيل «جاكتته» لاجلسه. ولكنه كان قد تقمص دورا وأبحر بعيدا واصبح من الصعب ايقاظه من حلمه...

«وتقول... ان على العرب الآن... ان يساعدوا اليهود على الخروج من المأزق التاريخي الذي وضعوهم فيه.... يا سيدي البروفيسور... من الذي وضع اليهود في مأزق تاريخي؟ ألستم انتم؟ الاوروبيين؟ انتم الذين اضطهدتم اليهود... وعلقتموهم في المشانق في الميادين العامة... قلت ان العرب ما زالوا يشنقون من بقي عندهم من اليهود في الميادين العامة... مجرد افتراء ودعايات صهيونية كاذبة... انتم الذين فعلتم ذلك... وضعتموهم في معسكرات الاعتقال... وفي افران الغاز... والآن تريدون منا نحن العرب... نحن الابرياء الذين لا ذنب لنا فيما حدث لليهود... ان نكفر عن خطيئتكم... ان نكسر كما قلت يا سيدي البروفيسور... الحلقة الجهنمية... التي صنعتموها انتم الاوروبيون... لا يا سيدي. ان فلسطين ارض عربية. وقد ظلت عربية منذ... منذ... ثلاثة الاف عام... وسوف تظل عربية الى الابد... سوف نستردها بالقوة ان عاجلا وان.....».

تحولت الهمهمة الى ضوضاء، وارتفعت اصوات من اطراف القاعة تطلب منه باللغتين العربية والانجليزية ان يجلس. ولما نجحت اخيرا الى جره جرا الى الجلوس، قال لي:-

«ايه الحكاية؟ هو انا قلت حاجة غلط ؟».

«الله يخيبك. اسكت. افهمك بعدين».

علت وجه العالم الجليل «بروفيسور توينبي» حيرة عظيمة. وظل بقية المساء، وهو يرد على الاسئلة، ينظر الى «منسي» من وقت الى اخر، كانه يحاول ان يحل معضلة. لا بد انه، ببساطة العلماء من طرازه، ظن انه لا بد ان يكون قد اساء التعبير عن افكاره، والا فكيف يساء فهمه الى ذلك الحد. اما «منسي» فقد جلس هادئا مطمئنا وكانه لم يفعل شيئا.

ولما خرجنا، قال له كرار، وكان، كما يحدث لـ «منسي» عادة، قد الفه كانه يعرفه من زمن:-

«يا صعيدي يا مغفل. يظهر ان المصريين بتاع القاهرة على حق. يظهر ان الصعايدة فعلا اشتروا الترموواي... انت بليد ما بتفهم الكلام ولا كنت سرحان؟».

ضحك «منسي» ضحكته الطفولية الجذابة، وقال بلهجة صعيدية مزيفة كما في الافلام:

«بصراحة كدى يا رجاله... اصلو الأستاذ بتاعكم دا طول حبتين... وانا كنت تعبان... لاني مع عدم المؤاخذة... كنت امبارح سهران سهرة حلوة في لندره... وبعدين سايق العربية لحد اكسفورد.. رحت في سابع نومه....».

ثم اضاف:

«وبعدين يا اخي الواحد تعب من حكاية فلسطين دي».

قال له حسن بشير:

«ولما انت تعبان ونايم ومش فاهم الكلام... ما كنت تتلهي وتسكت. رحت عامل خطبة طنانه ولا كانك جمال عبد الناصر. انا افتكرتك حتقول (ان ما اخذ بالقوة لن يسترد الا بالقوة)».

قال «منسي» ضاحكا:

«دا انت بتقول فيها؟ طب والنبي الجملة كانت على لساني لولا ان الاخ دا عمال يشدني، وانا مش فاهم هو بيعمل كده ليه.... دا انا حتى استغربت الناس ما سقفتش ليه....».

قلت له معابثا، وكنت اعلم انه اختار الرقم اعتباطا:-

«مين قال لك ان فلسطين عربية من تلات الاف سنة بس؟».

«امال هي عربية من امتى؟».

«من سبعة الاف سنة على الاقل».

«لا يا شيخ! انا افتكرتهم تلات الاف. اصلو اليهود بيقولو انها كانت بتاعتهم من تلات الاف سنة. قلت يا واد خليهم تلات الاف... اهو برضه كويسين... هي تلات الاف سنة شويه يا رجاله؟» ■

للحديث بقية



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد ٣٢

كان «منسي» في اكسفورد مثل السمكة في الماء، كما يقال. وأصح من ذلك، انه كان مثل حمار الوحش في الخلاء. تعرفنا على اناس كثيرين. قابلنا في كلية «سانت انتوني»، كلية كرار وحسن بشير، الأخوين «ليونهارت»، عالمي الاجتماع. وتعرفنا على الرجل الذي ترجم من اللغة الروسية رواية «دكتور جيفاكو» للكاتب الروسي الشهير «باسترناك»، التي حولت الى فيلم سينمائي مثل فيه دور «دكتور جيفاكو» عمر الشريف، غريم «منسي» في فيلم «لورانس». وقابلنا الكاتب الانجليزي المعروف «جون وين» الذي كان في تلك الحقبة استاذا للشعر، هذا المنصب الذي ابتدعته جامعة اكسفورد خصيصا للكتاب والشعراء. كان «منسي» على سجيته تماما في ذلك العالم المفتوح المستنير، الذي يتحدث فيه الناس لمجرد متعة الحديث، ويلعبون بالافكار كما تلعب بكرة الـ «بنج بونج». كان يدلي بدلوه مهما كان الموضوع، لا يهمه ان كان ملما به او لا. وسواء كان علم اجتماع او اقتصاد او فلسفة او سياسة او ادبا. احيانا يصيب واحيانا يخطيء، ولكنه كان يعوض جهله بحسن استخدامه للغة، وطبيعته المرحة وبديهته الحاضرة. لذلك ترك اثرا حسنا عند كل من قابلناهم. وقد طلب له المقام فاراد ان يبقى فترة اطول، وكان كرار قد احب مرحه وهذره فشجعه على البقاء. لكنني عاندت وقلت لهم:

- هذا انسان صائع ما عنده شغل. اما انا فلا بد ان اعود الى عملي.

قال «منسي»:-

- شغل ايه يا خوي؟ هو اللي انتو بتعملوه دا شغل؟.

كان «منسي» يعتبر الاذاعة «شغل اونطة» وانها مهنة لا تحتاج الى معرفة او جهد. لكنه كان يحبها، ولما هاجر الى امريكا كان من ضمن ما فعله انه انشا محطة اذاعة للدعوة للاسلام، وكان يومئذ قد اسلم وحسن اسلامه.

تلك السعادة التي غمرته طوال وجودنا في اكسفورد، لازمته ونحن عائدون في طريقنا الى لندن. كان يضحك ويثرثر وينط من موضوع الى اخر ومن فكرة الى اخرى، دون توقف ودون تسلسل او منطق. والعته مع «بروفسور توينبي» بدات تتحول في خياله تدريجيا الى اسطورة اخرى في «ميثولوجيا» حياته. قال وهو يضحك من اعماق قلبه:-

- تصور انا رحت كابس على الراجل وانا مش فاهم الحكاية ايه ولا هو قال ايه.

قلت له:-

- انك بحماقتك في اكسفورد ضيعت انتصارك في لندن على «ريتشارد كروسمان». مثل نابليون... اضاع في موسكو ما كسبه في اوسترلتز.

اعجبه انني شبهته بنابليون، فقال:-

- انا برضه زي نابليون، مش كده؟.

اضحكني هذا جداً، فقال:-

- بتضحك ليه؟ هو ايه يعني نابليون؟ حتة تلياني من كورسيكا.

فقلت:

- بس انت تشبه مين ولاّ مين؟ مرة علي خان، مرة نابليون، ومين كمان؟.

قال وكانه لم يقفز الى فكرة اخرى:-

- انت عارف ان جمال عبد الناصر واد جدع بصحيح، صعيدي حمش. بس يا خسارة معاه شلة من الجهلة. انت عارف هو محتاج لناس زي مين؟.

- زيك انت!

- اهو كده، واحد صعيدي حمش، ومتعلم، وبتاع حَلِبسِّه، يلعب بالبيضة والحجر زي حضرتي...

اضحكني ذلك، كما اضحكني من قبل قوله انه يشبه نابليون.-

- انت برضك بتضحك؟ هو يعني الأوباش اللي معاه دول احسن مني؟

- انت تعرفهم؟

- الا اعرفهم، انت عارف الجدع دا اسمه ايه، دلوقتي بقى وزير قد الدنيا ومش عارف ايه، دا مراته كانت بتفصل هدومها عند الست اليونانية اللي انا كنت ساكن عندها في الاسكندرية كان بيجي وياها، اتعرفت عليه وبقينا اصحاب، كنا بنسهر كل ليلة ويا بعض.

بعد ذلك، حين عاد الى مصر واقام فيها فترة، زعم انه تعرف على جمال عبد الناصر وصار احد مستشاريه وكان يلخص له الكتب التي تصدر حديثا باللغة الانجليزية. وهو زعم لم ناخذه ماخذ الجد. اعدته متعمدا الى اكسفورد. قلت له:-

- اكسفورد حلوه مش كده؟

- يا سلام على اكسفورد. انت عارف اني سجلت للدكتوراه في اكسفورد؟

- لا يا شيخ؟

- الله، انت ما تعرفش الحكاية دي؟ دا انا حتى كدت اتجوز واحدة من اكسفورد، بنت زي القمر. كانت تدرس تاريخ في كلية «سانت هيلدا».

- وبعدين؟

- بعدين ايه؟ ما انت عارف الحكاية، اتلميت على حضراتكم، ولقيت الـ B.B.C ، تقول لنا كلمتين فارغين ناخد عليهم فلوس.

- وتزوجت ماري.

- اه يا سيدي.

- ماري سيدة فاضلة، وانت لا تستحقها. اي واحدة غيرها كانت طلقتك من زمان.

- ما قلناش حاجة. ماري بنت حلال وربة بيت والكلام الفارغ دا. بس البنت بتاعة اكسفورد كانت حلوة قوي. زي القشطة.

تذكرت صاحبه من شركة «ارثر رانك»، فسالته عنه. استجاب فورا لهذا الموضوع الجديد وكانه كان ينتظر السؤال منذ زمن. قال وهو يضحك:-

- الراجل الاهبل اللي انت شفته دا بشغل «منصب كبير» في الشركة ومن عائلة محترمة ومتجوز ست زي القمر.

- انا افتكرته اعزب، مش باين انه في ست في البيت.

«ما هي دي الحكاية. اصله يا سيدي الأستاذ دا راح مصر، وقابل واحدة هلفوته. عيّله بتاعة اتنين وعشرين او تلاتة وعشرين سنة، راجل مغفل. شاف بنت مصرية عيونها عسلية وشعرها اسود، وملظلظة، راح متدهول في حبها. انت عارف الراجل دا سنه فوق الخمسين.

- وبعدين؟

- بعدين ايه؟ البنت مش جاده.. ضحكت عليه واوهمته انها بتحبه ومستعدة تتجوزه.

- انت شفتها؟

- الا شفتها. ما انا يا استاذ حاضر القصة من بدايتها.

ثم قال وهو يضحك:-

- اصله انت مش واخد بالك... انا يا سيدي باشتغل معاهم مستشار في الشؤون العربية، يعني لما ييجو ينتجو فيلم زي الخرطوم او لورانس والكلام الفارغ دا، يستشيرو مين؟

- انت؟

- ايوه يا سيدي. انا، انت فاكر انا معتمد على الكلام الفارغ بتاع الـ B.B.C؟

- وبعدين؟

- وبعدين زي ما بيعملوا الانجليز الهبل. الخواجه لما رجع لانجلترا حكى لمراته، وطلب منها الطلاق. قال ايه؟ بيحب. دا مراته زي القمر.

- اوعى البنت تكون مسلمة.

- لا يا سيدي. اطمئن. قبطية من جماعتنا. انتو بس تعملو لي مسلمين في حكاية الجواز. وافرض انها مسلمة. ما هو الاستاذ دا مستعد يعمل اي حاجة عشان يتجوز حبيبة قلبه.

- والبنت؟

- يا شيخ! دي بتضحك عليه، لا حتتجوزه ولا حاجة.

- وانت دورك ايه في الحكاية دي؟

- تصور الراجل الاهبل دا، مرات يتصل بي الساعة اتنين صباحا عشان يحكي لي حكاية حبه وغرامه. دا متصور اني ساقنع البنت تتجوزه.

- وفي نظير ذلك؟

- اهو كده. في نظير ذلك نلطش الدور من مين؟ من بسلامته عمر الشريف.

- الله يلعنك. انت حتخرب بيت الراجل.

- ابدا. لا حاخرب بيته ولا حاجة. بكره يرجع لمراته وتنتهي الحكاية.

انتهت الحكاية بان الرجل من شركة «ارثر رانك» لم يطلق زوجته ولم يتزوج «البنت» وان «منسي» لم يحصل على دور عمر الشريف ولا اي دور اخر في فيلم «لورانس». ولكن الحياة كانت تخبىء له ادوارا اخرى في الواقع ■

للحديث بقية

أكثر ورقة

نحو أفق بعيد ٢٣

بقلم الطيب صالح

حين وقف «منسي» ذلك الموقف «التاريخي» في ذلك المكان الذي لا يدخله الناس ضربة لازب، لعله احس بانه جاء بمقتضى منطق عادل، وانه هو ايضا يرمز لشيء ما. كان ما يزال في المرحلة الثانية من مراحل حياته، مرحلة الـ «نبل» التي اعقبت مرحلة الـ «عجلة».

حدث ذلك اواخر الخمسينات او اوائل الستينات، لا اذكر على وجه التحديد. لكنه كان حدثا كبيرا. استضاف مجلس العموم البريطاني في لندن المؤتمر الدوري لبرلمانات العالم. جاءت الوفود من كل الانحاء وصادف ان «منسي» رحمه الله كان على صلة حميمة برئيس الوفد المصري، منذ هو طالب في جامعة الاسكندرية. لذلك كان سهلا عليه ان يلتئم بالوفد المصري. كان يرافقهم في مجيئهم وذهابهم، يساعدهم على شراء لوازمهم من الاسواق، ويرتب لهم مقابلاتهم، ويصطحب من يرغب منهم الى عيادات الاطباء، ويسهل لهم امورهم. وقد وظف لذلك، كما يمكن ان يتخيل الانسان، طاقته الهائلة ومعرفته الواسعة بمدينة لندن. اصبح شخصا ضروريا لا غنى عنه بالنسبة لهم. وقليلا قليلا اصبح كانه واحد منهم.. كانه عضو في الوفد وقد روى «منسي» انه تحايل على سكرتارية المؤتمر، فوضعوا اسمه في قائمة اعضاء الوفود، وصاروا يرسلون له كل اوراق المؤتمر بما في ذلك بطاقات الدعوات التي كانت تقام تكريما لهم. اصبح «منسي» يحضر اجتماعات المؤتمر في النهار، ويحضر حفلات الاستقبال في المساء. ولم يجد اعضاء الوفد المصري غرابة في ذلك، فقد كانوا يظنونه ايضا مندوبا عن هيئة الاذاعة البريطانية.

وجد «منسي» دورا محترما يليق به، فانهمك فيه بكل طاقته. وكعادته حين يتقمص دورا، فانه لم يكن يقف عند حد. لذلك كادت هذه الحادثة ان تنتهي بطرده من بريطانيا.

مر كل شيء بسلام، الى ان حل ذلك المساء، حين اقامت الملكة حفل الختام للوفود في قصر بكنجهام. لبس «منسي» بدلة السهرة التي لا بد انه استاجرها او استعارها. ثم مضى الى موعده المضروب في القصر. مكان اكثر سحرا والقا وهيبة من كل الامكنة التي دخلها من قبل. انني استطيع ان اتخيل كيف دخل «منسي» قصر بكنجهام ذلك المعقل الامبريالي، المحاط بالبروتوكولات والرموز والطقوس. لقد صحبني مرة الى حفل استقبال اقامته سفارة من السفارات. لم يكن مدعوا بالطبع، ولكنه جاء هكذا، وكانه يظن انه مدعو اصلا وبالفعل لكل الاحتفالات التي تقام لاي سبب وفي اي مكان على وجه الارض. كانه ضيف مستديم على مائدة الحياة! كان على الباب رجل في بذلة حمراء كانه جنرال في الجيش، يعلن بصوت جهير اسماء المدعوين وهم يدخلون قاعة الاستقبال، واحدا بعد الاخر. لم يعجبني ذلك، وقلت لنفسي لم الجلبة والضوضاء، فدخلت دون ان اعطيه اسمي. وما هو الا قليل، حتى سمعت الحاجب ينادي بصوته الجهير:

«الدكتور مايكل بسطاوروس، رئيس القسم العربي بهيئة الاذاعة البريطانية».

كان رئيس القسم العربي الحقيقي موجودا في الحفل، فالتفت متعجبا.

نعم. انني استطيع ان اتخيل، كيف اقتحم «منسي» ذلك الحصن الحصين الذي لا يدخله كل من «هب ودب»، لا يدخله كل من شاء، هكذا، ضربة لازب. تجاوز السور الحديدي الخارجي الذي يتشبث به السواح، ينظرون من بعيد الى مراسم تغيير الحرس، يراودهم الامل ان يروا وجها يطل عليهم من نافذة او ردهة. دخل الى الفناء الداخلي، ولعله صعد درجا، ثم فتحت له الابواب، وسار به الحرس الملكي في دهاليز واسعة طويلة. كل خطوة محسوبة منذ عهد سحيق غابر. اخيرا وصل الى... نهاية المطاف. الى شيء مبهم كانه سيارة الـ «رولز» بين السيارات.

وصل دون استئذان، ودون وجه حق، في ثوب مستعار وصفة منتحلة.

فتح الباب الاخير، ونادى حاجب الملكة الذي لا بد انه لم يكن كسائر الحجاب:

«الدكتور منسي يوسف بسطاوروس، رئيس الوفد المصري».

هل تذكره وهو يقارع سير انتوني ايدن في اجتماع شباب المحافظين؟

هل تذكره وهو يصرع تنينا ضخما من «تنينات» الانجليز؟

هل تذكره في اكسفورد وهو يحارب في غير محترب، ويعارك في غير معترك؟

انه الآن في هذا المكان، يقوم بدور اعظم من اي دور قام به من قبل، او سيقوم به من بعد.

مثل «منسي» بثوبه المستعار وصفته المنتحلة، امام الرمز الاكبر للامبراطورية البريطانية.. ملكة انجلترا واسكتلندا وايرلنده وويلز وجزر الهبرديز وجزيرة مان وما وراء البحار، وريثة تاج الملوك جيمس وجورج وادوارد، سليلة آل وندسور وهانوفر، راعية الكنيسة، رئيسة الكومنولث!

وماذا فعل «منسي»، هل حيّ وانصرف؟ هل اكتفى بذلك القدر؟ ابدا. كانت تلك لحظة لا بد انه ظل يستعد لها على غير علم منه منذ ولد. وكانما الاقدار قد هياته لذلك اللقاء «التاريخي». ولعله ايقن انه هو ايضا يرمز لشيء ما، وانه لم يات متسولا، ولكنه يقف ذلك الموقف بمقتضى منطق، وان بدا عجيبا، فانه عادل على وجه من الوجوه ■

للحديث بقية

نحو أفق بعيد ٣٤



بقلم الطيب صالح

كان يعلم ان رئيس الوفد الحقيقي كان مريضا تلك الليلة، وانه ما من احد سوف ينوب عنه. ولعل ذلك كان حتما، فقد كان المنطق العجيب الذي اعطى «منسي» «شرعيته» ومبررات سلوكه عن علم او عن غير علم، يقتضي ان يلعب هو ذلك الدور، ان يكون هو الرئيس. ولم لا؟

الم ينتزع نابليون وهو «حتة تلياني من كورسيكا» التاج ويضعه بيده على راسه ويفرض نفسه «امبراطورا» على فرنسا؟

الا تغدق الحياة على اناس لا يبدو انهم يمتازون على بقية خلق الله؟

الا يشغل بعض الناس مساحات من الافق اكبر مما يستحقون؟

بمقتضى هذا المنطلق العجيب، وقف «منسي» في الصف الذي يؤدي الى الملكة، بين رؤساء الوفود.. الرمز الامبريالي، الذي يعزف من اجله السلام الملكي، وتتحرك باسمه الجيوش، وتخفق الاعلام على سفن الحرب في عرض البحار.

وكان وراءه في الصف، محمد احمد محجوب، رئيس وفد السودان. ذلك ايضا كان عدلا على وجه من الوجوه، ان يقف محمد احمد محجوب بقامته المديدة، وسمته المهيب، وبيانه الناصع، وعقله الراجح، وخبرته في معترك السياسة وراء «منسي» في ثوبه المستعار وصفته المنتحلة!

بعد ذلك بزمن، حكينا القصة لمحمد احمد محجوب رحمه الله. غضب اول الامر، بوصفه زعيما، ثم نظر اليها بوصفه شاعرا، فضحك. ولعله كان يومئذ اقدر على فهم «المغزى» واستبطان «الرمز» فقد كان منفيا في لندن، بعد ان انتزعت منه «ثورة مايو المظفرة» رئاسة الوزارة. لقد جاء واحدا، لا يختلف كثيرا عن «منسي» في نهاية الامر. (دون اذن ودون وجه حق في ثوب مستعار وصفة منتحلة) فازاحه عن مقعده وجلس هو مكانه.

كان الرؤساء يسلمون على الملكة فتقول لكل منهم بضع كلمات على سبيل المجاملة، ثم ينصرفون، ولا ياخذ اللقاء اكثر من دقيقة او دقيقتين.

لكن «منسي» كان مختلفا. لم يفوضه احد. جاء بمحض ارادته، لا كمتسول، ولكن بمقتضى منطق عادل في نظره. وباسم من؟

باسم كل الذين وقفوا وراء الاسوار ينظرون من بعيد لعل وجها يطل عليهم من النافذة.

باسم اولئك الذين لم يجدوا مكانا على المائدة لان آخرين احتلوا مساحات اكبر مما يحق لهم.

يروي «منسي» رحمه الله، ان الملكة بعد ان حيته حسب ما تقتضي المراسم والاصول، فجاة قال لها، دون تفكير، ودون ان يناديها بلقب «صاحبة الجلالة» كما تقتضي الاصول:

«اسمعي. لا بد انك تجدين هذه المناسبات مملة جدا. كيف تحتملين القيام بهذا الدور الممل يوما بعد يوم؟».

يقول «منسي» ان الملكة ضحكت، ولكن اغلب الظن انها ابتسمت ابتسامة خفيفة، لتخفي دهشتها من تلك الجراة، فهي مدربة لمثل هذه المواقف.

بعد ذلك دخل معها في حديث طويل عن مهامها كملكة، وعن حياتها العائلية. وبلغت به الجراة انه سالها عن تربية الامير تشارلز ولي العهد وعن تعليمه. ليس ذلك فحسب ولكنه اخذ يعطيها نصائح عن افضل السبل لتربيته وتعليمه.

استغرقت المقابلة وقتا طويلا بحساب ذلك المكان. وقف الصف، وبدا رؤساء الوفود يتعجبون من هذا الذي اعطته الملكة كل هذا الوقت. وكان محمد احمد محجوب وراء «منسي» ينتظر دوره، بقامته المديدة، وخبرته الطويلة، وبذلته الانيقة التي لم يستعرها، ولكن اشتراها من حر ماله.

تحرك دوق ادنبرة، زوج الملكة الذي كان يقف الى جانبها، وامسك «منسي» برفق من ذراعه وخرج به من الصف. قال له: «انت صغير السن جدا. كيف اصبحت رئيس وفد دولة كبيرة كمصر؟».

قضى «منسي» ذلك المساء كما يمكن ان يتخيل المرء. اكل وشرب وحاور وجادل وضحك، وتعرف بلورد هذا وليدي تلك، وتحدث اللغة الانجليزية على اصولها في مكمن اسرارها وامنع حصونها. وفي غمرة تلك السعادة اغفل امرا مهما، وهو ان ذلك القصر ليس مكانا «هملا» وان الانسان لا يدخل ذلك الحصن دون دعوة ودون وجه حق، مهما بدا له انه رمز لشي ما، او انه صاحب حق ما. كانت ثمة عيون تراقب وتحرس، وترى وتسمع.

ثاني يوم، مع اول الصباح، وهو لم يكد يستيقظ من نومه، حل عليه رجال اشداء من طراز لم يعرفه من قبل. رجال الامن كانوا يعرفون عنه كل شيء منذ ان وطئت قدماه ارض جزيرتهم. كل صغيرة وكبيرة احصوها في سجلاتهم. وعلى مدى شهر او نحوه ضيقوا عليه الخناق، واتهموه بانه عميل للمخابرات المصرية - قالوا له انهم لا يجدون تفسيرا آخر لسلوكه المريب. العجيب ان المصريين ايضا اتهموه بانه عميل للمخابرات البريطانية فهم ايضا لم يجدوا سببا منطقيا لسلوكه.

دخل «منسي» في مازق حقيقي، فجند كل طاقته واتصالاته ومعارفه. واخيرا انتهى الانجليز الى الراي بانه شخص اما احمق او مجنون لا يدري ماذا يفعل.

انما «منسي» رحمه الله لم يكن احمق ولا مجنونا. كان كما وصفته استاذته باربرا بريي «انسانا نادرا على طريقته». ■

للحديث بقية

نحو أفق بعيد ٣٥



بقلم الطيب صالح

تشعب الحديث في دار سعد الدين وهبة الكاتب المسرحي الشهير، الذي كان يومئذ وكيلا لوزارة الثقافة، وزوجته الممثلة الكبيرة سميحة ايوب، الى ان جاء ذكر «منسي». بدأ سعد الدين وهبة يحكي قصة رحلة رافقه فيها «منسي» الى الكويت. فلم اكن انا الوحيد الذي حظي برفقته في الاسفار، الا انني ربما كنت اكثرهم حظا. كان «منسي» رحمه الله يحب السفر، لذلك اقتنى شركة للسياحة تتيح له ركوب الطائرات والنزول في الفنادق باسعار مخفضة. وكان يحب الصحبة ويحب الضحك. فاذا وجد رفيقا تطيب له صحبته مسافرا الى اي مكان، سافر معه. كان يحب صلاح جاهين بطريقة مؤثرة، فاذا خطر على باله في واشنطن، يسافر فورا الى القاهرة لرؤياه. واذا تذكر عبد الرحيم الرفاعي، سافر الى «بيرن». واذا عنت له باربرا بريي في باريس، سافر الى باريس. كان يبدو انسانا حرا تماما، طليقا مثل طائر في الفضاء.

لم يذهب سعد الدين وهبة بعيدا في رواية القصة حتى دق جرس الباب. ثم اذا صاحبنا حقيقة ماثلا للعيان. كان احدا ناداه فاستجاب. صدفة، نعم، ولكنها صدفة تكررت كثيرا. ياتي ذكره، ولا احد يظنه في المدينة، فاذا الباب يدق او التلفون يرن.

دخل ضاحكا وكأنه كان معنا منذ اول المساء.

«منسي! الله يخرب بيتك. انت جاي منين؟».

هجموا عليه بالعناق والقبل والشتائم، وخاصة الشتائم، فقد كان فيه شيء يغري بالشتم، ولكن عن محبة.

تهلل وجهه طربا لحرارة الاستقبال وكثرة السباب، والاثر المسرحي الهائل الذي احدثه بدخوله الى دار اعلم باصول المسرح الحقيقي منه... تناوشه الناس ذات اليمين وذات اليسار، وكانوا كلهم يعرفونه ويحبونه بدرجات متفاوتة، يوسف ادريس ومحمود سالم ورجاء النقاش وعبد المنعم سليم وآخرون.

اندرج حالا في الحديث وكأنه شارك فيه منذ البداية، وطابت له الامسية كما تطيب الامسيات في القاهرة، ووجد جمهورا ليس كسائر الجماهير، اناسا اصحاب مواهب واخوة سمر وفكاهة وطرائف. ولبس زي المهرج فاصبح محور الانتباه ومركز الدائرة.

مضى سعد الدين وهبة يحكي القصة، وكان «البطل» يتدخل باستمرار ويجاذبه حبل الرواية ليسير بها على هواه. وكنت استمع لاهيا وانا لا اعلم انني سوف اكون وشيكا ممثلا في فصل تعيس من فصولها في بيروت.

كان يحب الغموض، يظهر فجاة ويختفي فجاة.

«يا واد انت جاي من انهي داهية؟».

يقول «منسي»:

«وعاوزين تعرفوا ليه؟».

يقول يوسف ادريس الذي كان ماخوذا بشخصيته من زمن:

«الواد دا لازم بيشتغل في السي. اي. ايه. طب ازاي عرفت اننا سهرانين هنا؟».

يضحك «منسي». فقد كان يحب ان يضفي على نفسه مزيدا من السحر والغموض.

ويقول احدهم:

«هي السي اي ايه مغفلة تشغل واحد عبيط زي دا؟ دا كل حياته هزار وضحك وما يعرفش يخبي اي اسرار».

ويقول الثاني:

«ما هو دا كله تمثيل للتمويه».

لكن الحقيقة كانت ابسط من ذلك. لقد وصل «منسي» من امريكا منذ اسبوعين، كما اخبرني فيما بعد، بعيدا عن التمثيل والتهريج، وزار اهله في القاهرة والصعيد. فقد كان طول حياته بارا باهله، وتفقد احوال اخواته واخوته. ثم انقطع اياما بصحبة صديقه الحميم صلاح جاهين قبل ان يظهر في تلك الليلة.

كان قد مضى على هجرته الى امريكا اكثر من خمسة عشر عاما.

ايام كنا معا في لندن، كنت اقول له:

«سافر الى امريكا. انها بلاد ينفع فيها النصب. اما دخلت السجن او اصبحت مليونيرا».

لكنه لم ياخذ قولي ماخذ الجد، فقد كان سعيدا بحياته في انجلترا.

ثم ذات يوم، سافر على طريقته، دون خطة او تفكير مسبق، في رحلة من الرحلات التي كانت تنظمها هيئة الاذاعة البريطانية الى نيويورك. يدفع الانسان مبلغا زهيدا يغطي ثمن تذكرة الطائرة ونفقة الاقامة في مدينة نيويورك مدة اسبوع.

سافر وليس في نيته الاقامة، فلم يكن يحمل مالا او متاعا، ولم تكن تاشيرة الدخول تسمح له بالاقامة. ولكن الناس عادوا ولم يعد. وسالنا رفقاءه في السفر فقالوا انه اختفى منذ وصلوا نيويورك ولا يعلمون اين ذهب ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد ٣٦

كان يجب علي ان انتبه، ونحن في مطار القاهرة نستعد للسفر، وانا ألمح «منسي» يجري من مكان الى مكان، يهمس في اذن موظف شركة الطيران، ويوشوش لموظف الجمارك، ويلاطف موظف الجوازات. قلت هذه طبيعة «منسي»، يحول اي امر، مهما كان عاديا وبسيطا الى شيء يشبه المؤامرة. حتى وانا اصعد سلم الطائرة، رأيته يهمس لموظف شركة الطيران، فلم اكترث. دخل مسرورا وكانه احرز نصرا من نوع ما.

وصلنا مطار بيروت اوائل المساء في ذلك اليوم من عام ١٩٧٥ الذي اصبح يؤرخ به فيما بعد على انه البداية الحقيقية للحرب اللبنانية. الحرب التي لم تضع اوزارها الى اليوم. وكان وصولنا قريبا من المهزلة، في جو متوتر، على غير علم منا، في مساء كان بداية لليل طويل حالك، يخفي في جوفه كوارث يشيب لهولها الولدان.

في دار سعد الدين وهبة، وكان المساء مساء من نوع آخر كما وصفت لكم قبلا، سألني «منسي» عن وجهتي، قلت له انني عائد الى عملي في الدوحة، ولكنني سوف اعرج على بيروت لاقضي فيها اياما. كنت قد حضرت اجتماع اللجنة الدائمة للاعلام، في مقر الجامعة العربية. ناقشنا مواضيع اصبحت بنودا ثابتة في كل اجتماعات لجان الاعلام ومؤتمرات وزراء الاعلام الى يومنا هذا.. التحرك الاعلامي العربي في الخارج، صورة العرب المشوهة في اجهزة الاعلام الغربية، انشاء وكالة انباء عربية موحدة، اقرار ميثاق شرف اعلامي، ايقاف الحملات الاعلامية التي تشنها الدول العربية بعضها ضد بعض. الى غير ذلك. كانت لجنة محترمة من رجال افاضل. سعدون الجاسم وعلي شمو وغالب ابو الفرج وابراهيم الصلحي وعبد العزيز الرواس، ومرسي سعد الدين، وعبد الله الحوراني وجمعة الفذاني والشيخ عيسى بن سلمان، وطه يس، واديب نمنم وآخرون لا يقلون عن هؤلاء الذين ذكرت فضلا وحكمة. كانوا جميعا رجالا عقلاء، اخوة اشقاء. كانت تلك الايام تتطلب قدرا كبيرا من العقل والحكمة. الان، الله اعلم.

كنا نقول «لنضع نصب اعيننا الاهداف الثابتة للامة العربية ولا ننشغل بالمتغيرات التي تأتي وتزول»، وكنا نحاول ان نجد ارضا صلبة نقف عليها وسط عالم من رمال متحركة. وكانت تلك اللجنة، حسب علمي، اول من استعمل عبارة «الحد الادنى من الاجماع العربي»، وهي عبارة اكتسبت اعماقا وابعادا فيما بعد، حين رددت في مجالس اثقل وزنا و[illegible] احتراما. ومن محاسن الصدف ان اغلب اعضاء اللجنة ظلوا ثابتين على مدى اربعة او خمسة اعوام، فنشأت بينهم الفة شخصية وتقارب في الراي. حتى اخونا جمعة الفذاني اصبح بمرور الوقت ينظر الى الامور نظرة «واقعية مهنية» كما كنا نقول.

هذا ورئيسنا الحليم، الدكتور عبد الاحد جمال الدين، يدفع بالتي هي احسن، يخمد الثورات ويطفىء النيران، واذا تعقدت الامور يسعفه طبعه المصري فيقول شيئا يضحك الناس، فيضحكون ويستريحون، وكان يجلس الى يمينه على المنصة، الاستاذ سليم [illegible] مساعد الامين العام، يستمع في صمت، ويعاني في صبر، ويدخن بلا توقف.

كان الامين العام مريضا في المستشفى، فذهبنا نعوده. احسن استقبالنا وتلطف معنا في الحديث. ثم جاء ذكر الاعلام وقضاياه قال:

«اعلام ايه؟ انا عاوز اعمل تنمية».

فقال له احدنا:

«لكن سيادتك.. ما هو برضه الاعلام داخل في التنمية».

كان آخر اجتماع تعقده اللجنة الدائمة للاعلام في القاهرة بعد ذلك حدثت احداث، وتفرق الناس شذر مذر، وذهبوا ايدي سبا.

قال لي «منسي»:

«والله فكرة عظيمة نروح بيروت. انا اصلا مسافر الى الرياض. نقضي اياما في بيروت. بعدها انت تسافر الى الدوحة، وانا اواصل السير الى الرياض».

ساعة واحدة توصلك من القاهرة الى بيروت. مثل المسافة من القاهرة الى اسوان. ودمشق اقرب الى القاهرة من اسوان. تخيل.

حلقت الطائرة فوق سماء بيروت اول المساء. الجبال والسماء والبحر حقا كما وصفها الشعراء وتغنى بها وديع الصافي وفيروز. السلام والمحبة والعطاء كل ذلك حقا لبنان. كل شيء معد اعدادا جميلا للخراب. لقد بذل مئات الالاف من الرجال والنساء جهدا مضنيا على مدى عشرات السنين ليصنعوا بلدا مثل عروس خضلة تزف للموت.

لكننا في ذلك المساء من عام ٧٥، لم نكن نعلم ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد ٣٧

السماء فوق بيروت رحيمة قريبة المنال، نجومها عقود من اللؤلؤ تختلط بقناديل الكهرباء التي تتوهج على سفوح الجبال. وعلى اليسار، والطائرة تقترب من ارض المطار، بحر ناعم شفاف اول الليل، امواجه، كما قال الشاعر، مثل عرائس في غلائل بيض، تتراكض نحو الشاطىء، وتذوب. بعد قليل سوف تمطر هذه السماء الرحيمة شواظ من لهب، وهذه الجبال المضيئة سوف تهتز بهدير المدافع، وهذا البحر الآمن المطمئن، سوف يدفع الى الشاطىء بشياطين الدمار والهلاك.

لكننا لم نكن نعلم ان كل ذلك سوف يحدث وشيكا، ونحن ندخل صالة المسافرين القادمين، ونمضي لنتسلم امتعتنا.

فجاة انتبهت وكانني استيقظ من حلم. قلت لـ «منسي» مذعورا:ـ

«الله يخرب بيتك. ايه دا؟»

قال متضاحكا:ـ

«شوية هدايا».

«اي هدايا؟ دي لازم بضائع مهربة».

كان اخوة من السفارة القطرية قد جاءوا لاستقبالي، ودخلوا حظيرة الجمارك، فوقفوا ينظرون متعجبين.

حمل الشيالون صندوقين ضخمين، كل منهما يزن اطنانا، ولما اصر موظف الجمارك ان يرى ما بداخلهما، قال «منسي»:

«حتتعب نفسك على ايه؟ دي حاجات بسيطة. شوية هدايا».

ثم اضاف، غير مبال بوجود القطريين:

«وكمان انا موظف في دولة قطر وعضو في وفد رسمي».

نظر الي الاخوة من السفارة القطرية وفي عيونهم دهشة وتساؤل، وكنت انا اكثر دهشة منهم. لقد عرفت ضروبا من جراة «منسي» من قبل، ولكنني لم اتخيل ان تبلغ به الجراة ان يزعم انه يعمل في دولة اعضاء سفارتها حاضرون، ينظرون ويسمعون. وكما كان يحدث لي طوال صحبتي لـه، فقد اختلط الغضب والحرج لدي، باهتمام عقلي بحت، كانني ارى عملا فنيا طريفا يتكشف امامي، واريد ان اتابعه الى نهايته، وارى الى اين يصل. وفجاة تحول ذلك المكان في المطار الى مسرح، وتحولنا نحن جميعا، اعضاء السفارة القطرية وضابط الجمارك وعددا من الناس وقفوا يتابعون ما يجري وانا، الى ممثلين ثانويين في مهزلة بطلها «منسي».

اصر الموظف على فتح الصندوقين، فقد كان منظرهما يبعث على الشك، خاصة في تلك الاجواء المتوترة، كما اتضح لنا فيما بعد. لعل فيما [illegible]حا. لعل فيهما مخدرات. لعل فيهما مصائب اخرى. من يدري؟ ولما رفع عن كل صندوق غطاؤه، نظرنا فاذا هما مملوءان بثياب نسائية داخلية، من جميع الاشكال والالوان. اخذ الضابط يخرجها، ومع كل رزمة تخرج، احس بنفسي ازداد غضبا وحرجا ودهشة. وكان «منسي» اثناء ذلك كله يردد متضاحكا:ـ

«حاجات بسيطة. شوية هدايا».

الآن اتذكر القصة التي حكاها لنا سعد الدين وهبة في بيته في القاهرة وافهم سر سلوك «منسي» [illegible] في المطار وهو يجري من مكان الى مكان، يهمس في [illegible] هذا ويوشوش لذاك.

اعيدت الاشياء ورد على كل صندوق غطاؤه. اطرق الضابط زمنا وكانه فقد القدرة على التفكير وفقد القدرة على الكلام. ورغم انه لا بد ان يكون قد راى اعاجيب كثيرة من موقعه ذاك، وكانه لم ير شيئا مثل ذلك من قبل. واخيرا رفع راسه ونظر الى الاخوة القطريين وقال بصوت هادىء لا تدري ان كان وراءه غضب ام عجب:

«الاستاذ هيدا من جماعتكم»؟

تمنيت وانا في حالتي تلك لو قالوا «لا»، ولكن [illegible] سارع وقال «نعم».

ولما خرجنا من المطار، قلت لـ «منسي»ـ

«اسمع. من هنا كل واحد يروح في طريق. والله لا تصاحبني. لا تنزل معي في هوتيل، ولا تعرفني ولا اعرفك» ■

الطيب صالح

آخر ورطة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٣٨

انزلني الاخوة القطريون في فندق الـ «هوليدي إن» الذي احرقته الحرب فيما بعد، كما احرقت كل الفنادق الكبيرة في تلك المنطقة ـ «الفينيسيا» و «الكازار» و «السان جورج». كان قد انشىء حديثا يومذاك. كانت حركة التعمير في بيروت لا تنقطع، تغيب عنها شهرا ثم تعود فاذا هوتيلات وعمارات... كان اطفالا شيدوا قصورا من الرمال على شاطىء البحر، ثم سئموا، فقوضوها في لحظات.

انني اعرف جيدا تلك المنطقة بين «الزيتونة» و «عين المريسة»، حين كنت اعمل مع هيئة الاذاعة البريطانية، كنت انتدب للعمل في مكتبهم في بيروت، في نزلة الداعوق، في شارع فينيسيا الذي ينحدر الى البحر عند فندق الـ «سان جورج». كان حسن المليجي، ملك عين المريسة، ومحمود نصير رحمه الله، ملك الزيتونة. مصريان نزحا الى بيروت واستقرا فيها، وكانا ينتجان البرامج لهيئة الاذاعة البريطانية، وكانت لهما شنة ورنة تلك الايام، وحسن المليجي خاصة حياته اسطورة اكثر عجبا من اسطورة «منسي». تعرفت على بيروت من خلالهما ومن خلال صلاح احمد الذي كان ملحقا صحفيا في سفارة السودان.

اقمت معه اول مرة قدمت الى بيروت، عام ٥٨، في الطابق الثاني عشر في عمارة منقارة، على اطراف الحمراء. اذكر ذلك الصباح جيدا. نظرت الى المدينة تتارجح بين الجبل والبحر، تحت ضوء الصباح الحاد الوقح على العين، بعد ضوء لندن الشاحب وسمائها الغائمة. زرقة البحر تمتزج بزرقة السماء تمتزج باشعة الشمس المنعكسة من سطوح البيوت والعمارات، تمتزج بالخضرة على سفوح الجبال، فكانك تنظر الى مدينة وهمية ليست ثابتة تماما في الزمان والمكان. خليج جونية كانه على مرمى حجر، وتلك ولا بد، قمة «بسكنتا» حيث اعتكف ميخائيل نعيمة. لقد شددت اليه الرحال فيما بعد. ولعلك اذا دققت النظر ترى قبرص. انت هنا في مفترق طرق وملتقى حضارات. هذه بلاد «ليديا» و «فديجيا» وبلاد الشام. الى الغرب «يوروبا» والى الجنوب «افريكا بروفنسيا» وافريقيا وادي النيل. والى الشرق «ارابيا بتريا» و «ارابيا دسيرتا» ديار قحطان وعدنان. ووراء ذلك «مسوبتاميا» ارض بابل واشور ما بين النهرين. ثم جاءت النصرانية وجاء الاسلام الحنيف بلسان عربي مبين، وقامت اشياء فوق اشياء.

جاءني «منسي» وقت الضحى، سعيدا مبتسما وكان شيئا لم يحدث، وكنت والحق يقال، قد هدات ثائرتي، وبدت لي حكاية «منسي» في المطار، هينة بالقياس الى نذر الشر المحتمل. اول ما دخلت الهوتيل في الليلة الماضية، احسست بنذر الشر، ولاحظت وجود شبان كثيرين يحملون السلاح وينظرون نظرات شرسة للداخلين والخارجين. ثم جاءني احمد سعيد محمدية صاحب «دار العودة» فاكد لي ان البلد مقبلة على انفجار خطير. اما «منسي» فلم يبد عليه انه احس بشيء من ذلك. قال:ـ

«تعرف انا نزلت في هوتيل لوكس في شارع الحمراء. اصحابه شبان ارمن. ادوني جناح كامل بسعر ارخص من السعر اللي انت بتدفعه في غرفة هنا... انت ايه اللي نزلك في الكلام الفارغ دا؟».

قلت له:ـ

«انت ليك اصحاب في بيروت؟».

«اوه كتير، دول اصحابي من زمان. دايما انزل عندهم. شبان زي السكر».

ثم اضاف:ـ

«يا خوي ايه العباطة بتاعتك دي؟ عملت انك زعلان والكلام الفارغ دا. تعرف انك ضيعت على نفسك سهرة حلوة جدا».

كان «منسي» يعطش (الجيم) ولا ينطقها على الطريقة المصرية، ولا يقول (اوي) ولكن يقول (قوي) بلهجة اهل الصعيد.

قال:ـ

«يالا بينا وبلاش الكلام الفارغ دا. انا حجزت لك جناح زي اللي عندي... حيعجبك الهوتيل... دول شبان زي الحلاوة... نقضي ايام جميلة جدا».

قلت له انني قررت السفر في ذلك اليوم لان الحالة متوترة وسوف تحصل مصائب كثيرة.

«يا شيخ بلاش كلام فارغ. البلد عال ومش حتحصل اي حاجة... خليك كمان تلات ايام».

ثم سالته عن الصناديق:ـ

«البلاوي الجبتها من القاهرة عملت فيها ايه؟».

قال ضاحكا:ـ

«بعتها».

«بعتها؟ مش قلت انها هدايا؟».

«انت صدقت انها هدايا؟ وحاهدي هدوم نسوان لمين بس؟».

«لعنك الله. الاخوان من السفارة القطرية حيفتكرو اني باشتغل معاك في التهريب».

اسعده جدا انه ادخلني في ورطة. قلت له:ـ

«دي الصناديق اللي حكى لنا عنها سعد الدين. مش كده؟».

«اه. حاولت ادخلها ما عرفتش».

«ورجعت بيها للقاهرة؟».

«وسبتها في المطار سنة كاملة. ولما لقيتك مسافر لبيروت... وحضرتك قال ايه؟ موظف محترم في دولة قطر، وجايي في مهمة رسمية، قلت والله دي فرصة».

«وعملت انك موظف في حكومة قطر وانك عضو في وفد رسمي».

قال «منسي» وهو يضحك بطريقته العجيبة، كما يفعل، حين يظن انه نجح في عملية نصب بارعة:ـ

«يا محترم، انت مش واخد بالك. وانا شحنت «البضاعة» من القاهرة الى بيروت على اسم حضرتك».

«يعني ايه على اسم حضرتي؟».

«يعني يا محترم اني فهمت كل المسؤولين في مطار القاهرة انها بتاعتك... امال انت شايفني اجري من هنا لهنا فاكرني بعمل ايه؟».

رغم كل شيء، فانني لم املك الا ان اضحك. قلت له:

«واشمعنى كلها هدوم نسوان؟ وكمان ملابس داخلية... الله يلعنك. لا بد انك نصبت على واحد».

«أصل الحكاية ان تاجر يهودي في واشنطن افلس. كان بيصفي بضاعته. اشتريتها منه تقريبا ببلاش. ما عرفتش ادخلها لا في مصر ولا في الكويت ولا في بيروت. كانوا بيدفعو[illegible] جمارك اكتر من تمنها. ولما عثرت عليك قلت والله فرجت».

«كسبت فيها كتير؟».

«دول فرحوا بيها قوي... شبان زي الحلاوة... ادوني فيها سعر محترم... انت عارف انها اصناف غالية... حرير وحاجات حلوة جدا».

قلت له:ـ

«مش انت بتقول انك رجل ثري وعندك مدرسة لتعليم اللغات ومطعم وشركة سياحة وبيت في ارقى حي في واشنطن؟».

«انت بتقول حي محترم؟ انت عارف مين جارنا؟ روبرت كندي. دا عيالي بيلعبو مع عياله كل يوم».

«طيب. ما دمت من الاكابر وعيالك اصحاب عيال روبرت كندي، مش عيب عليك تتصرف كانك شحات؟».

ضحك طويلا، وضحك بسعادة حقيقية، فقد كان ذلك هو القصد. لقد قام بعمل «وجودي» طريف وجريء، عمل ليس له اي مبرر او معنى، الا انه سوف يصبح اسطورة اخرى في «مثلوجيا» حياته.

تركته في بيروت وانا مطمئن انه سوف يدبر اموره بشكل من الاشكال. ولما ارتفعت طائرة خطوط طيران الشرق الاوسط البائسة في الجو، كانت السماء صافية لا يشوبها غيم، وكان البحر مثل حلم بديع لن ينتهي، وكانت تلك المدينة الرائعة، بكل ما احتوته من اشياء ثمينة وجميلة ونبيلة، تلمع اسقف بيوتها تحت شمس البحر الابيض المتوسط تنتظر الزلزال ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٣٩

تركت «منسي» في بيروت يدبر امره بوجه من الوجوه، في ذلك اليوم من عام خمسة وسبعين، حين بدات الحرب في ديار لبنان. ولعل وجوده هناك، في ذلك اليوم بالذات، لم يكن بعيدا عن واقع الحال. الم تكن حياته سلسلة من اعمال «عبثية»، تحدث ارتجالا، بلا معنى ولا مبرر؟ الا انها كانت تنتهي نهايات سعيدة، ولا تدوم طويلا. وهذه الحرب ما معناها؟ لقد طال امدها وتنوعت مصائبها، وصدق فيها قول زهير:ـ

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر اذا ضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

فتنتج لكم غلمان اشام كلهم
كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

تبصر يا رعاك الله. اليست هذه الأبيات وبقية ابيات القصيدة، وقد قيلت منذ نحو ثلاثة عشر قرنا، اصدق ما قيل بالعربية في وصف الحرب الى يومنا هذا؟ ورغم ان الانسان يعجب بعبقرية الشاعر الذي اختصر كل هذه الأزمنة، الا انه ايضا يحس بالحزن، ان الامور لم تعتدل منذ ايام عبس وذبيان، رغم كل ما حدث من احداث، وما جد من افكار، وما اريق من دماء، وما سكب من دموع.

لكن لا يتبادر الى الذهن ان اللبنانيين وحدهم مشعلو حروب، فنحن في السودان، على سبيل المثال لا الحصر، عندنا حرب تدور رحاها منذ اكثر من ثلاثين عاما، لا تقف حتى تبدأ من جديد، اتت على الأخضر واليابس، واهلكت الزرع والضرع، وافنت الشيخ والطفل الرضيع. ولا احد يدري لماذا بدات وكيف تنتهي، وفيها من البشاعات والحماقات والاكاذيب، ما في حرب لبنان. واذا كان في لبنان «غلمان شؤم» كما قال زهير، فغلمان الشؤم عندنا كثيرون. الا انني الآن، اتحدث عن بيروت، والشيء بالشيء يذكر، وبيروت عزيزة علي مثل الخرطوم، وحزني على ماسي السودان، ليس اكثر من حزني على ماسي لبنان.

ومالي لا افعل؟ لقد عرفتهم ايام صفوهم فوجدتهم اصفياء كرماء اوفياء. وظلوا صامدين يتحملون في صبر طوال هذه السنوات التعيسة، مستشفياتهم تستقبل الضحايا تحت وابل القنابل، وطائراتهم تجوب الآفاق، ما ان يكف الضرب حتى يفتح المطار وتصعد الطائرات وتهبط، وصحفهم تطلع في اوانها، ومكتباتهم ملأى بالكتب، ومطابعهم تعمل بكفاءة ومصانعهم تنتج. ما ان تصمت المدافع حتى تفتح المحلات التجارية، ويخرج الناس الى الشوارع، بين ركام العمارات المهدمة، يتحدون بنوازع الخير والحياة الكامنة في طبعهم، قوى الشر والموت. هؤلاء هم اهل لبنان «العاديون» وهم الاكثرية، وقد حركت الحرب فيهم، عواطف التراحم والتضحية والنبل، بقدر ما ساقت من بشاعات، ولولاهم لما بقي شيء يتقاتل عليه الزعماء. كذلك في السودان، لولا طيبة الناس «العاديين» وانسانيتهم وحكمتهم، لتمزق السودان مزقا مثل ثوب قديم مهلهل، ولقضت حماقات الزعماء على البقية الباقية منه الى غير رجعة.

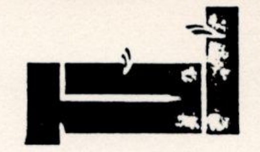
لذلك لم انقطع عن بيروت، ازورها كل عام او عامين او ثلاثة، طوال سنوات الحرب، مثل الشعراء الأوائل، كل واحد منهم مشدود الى طلل. وفي كل مرة اجد شيئا قد تحطم... مطعما الفته، او مقهى جلست فيه الى ناس اعزاء، او فندقا نزلت فيه... كل ذلك الحي، بكل تلك الذكريات، قد احترق. مكتب الـ B.B.C، الذي كان ملتقى الأدباء والشعراء والصحفيين والأكاديميين ورجال الدين ورجال السياسة... ودار حسن المليجي التي كانت منتدى عامرا، وشرفة دار محمود نصير «ملك الزيتونة»، حيث جلسنا ليالي نشرف من عل على المدينة، وننظر الى البحر، ونراقب الطائرات تمر امامنا رائحة غادية... دار «شعر» على الجانب الآخر لشارع فنيسيا قبالة مكتب الـ B.B.C. كنت حين امل العمل، اذهب الى يوسف الخال افني معه الساعة والساعتين. كان انسانا رائعا وسواء اتفقت معه او اختلفت، فانك لم تكن تملك الا ان تحبه. ولم تكن افكاره التي اثارت بعض الناس ضده، من قبيل الشعوبية والتعصب، ولكنها كانت من نتاج قريحته المتوقدة، وطبيعته المغرمة بالابتكار والاثارة... كل ذلك، واكثر منه قد احترق.

اول ما نشر لي نشر في بيروت، واول ما عرفت عرفت في بيروت. وقد رايت جبالا وثلوجا وبحارا ومدنا اكبر وعوالم ارحب، لكن هذه المدينة كان بيني وبينها وشائج من عهد غابر. ومثلي كثيرون. هذه مدينة تعيش في قلوب ناس كثيرين. لقد بكت عليها غادة السمان، خنساء هذا العصر، فاحسنت البكاء. ورثاها بلند الحيدري فاحسن الرثاء. ورثاها نزار قباني وسمير عطا الله ومحمد الفيتوري وادونيس ومحمود درويش وآخرون. وكتبت عنها خالدة سعيد مقالات مدهشة في هذه «المجلة». ولا بد ان ما هدمه الحقد سوف تبنيه «المحبة» من جديد. كل هذا الحب لا يمكن ان يذهب سدى.

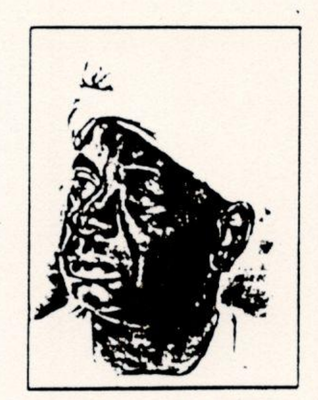
وبعد... لعل ذلك البصيص من الضوء يبشر بمطلع الفجر. ها قد هيا الله سبحانه وتعالى، رجالا اولي عزم ومروءة واريحية، مثل الحارث بن عوف وهرم بن سنان، يحملون ديات القتلى، ويضمدون الجراح، ويجففون الدموع من عيون الثواكل والأيتام. ولعل بركات تلك البقعة المباركة قد حلت على الرجال المجتمعين في «الطائف» فحنت القلوب وثابت العقول. وعسى ان يجيء شاعر عبقري مثل زهير، يوفي هذه الحرب حقها من الهجاء والرثاء، ويوفي اولئك النفر الكرام حقهم من الثناء. من قال ان المديح مبتذل في الشعر؟ ثمة اعمال اريحية، تقتضي شعرا اريحيا. وقبلا قال المتنبي العظيم:

شاعر المجد صنوه شاعر اللفظ
كلانا رب المعاني الدقاق

(للحديث بقية)



ورقة



بقلم الطيب صالح

حين قدمت على بغداد في شهر نوفمبر الماضي، كانوا قد عينوا عبد الحسين زويلف لتوهم مديراً للجهاز تعليم الكبار ومكافحة الامية. كنت فرحاً بتلك الرحلة، أنّ مكتب اليونسكو الاقليمي في عمان، الذي يرئسه الدكتور محمد ابراهيم كاظم، قد جندني في هذه المعركة. ان اكون أمياً بين الاميين، يا له من شرف عظيم. وقد اتضح لي بالفعل خلال هذه الرحلة، كم انا جاهل. زرت سبع دول عربية، من العراق الى المغرب، وفي كل بلد كنت اكتشف اشياء جديدة. لقد طوفت هذا العالم المتنوع الجميل عدة مرات من قبل، وظننت انني اعرفه، ولكنني اكتشفت هذه المرة، انني لم اعرفه حقا لانني لم انظر اليه من قبل، من هذه الزاوية، زاوية الاميين. اكثر من مائة مليون امي في العالم العربي! معنى ذلك انك لن تستطيع ان تصنع تنمية، ولا ان تقيم حاضراً ولا مستقبلاً. لن تستطيع ان تحقق شيئا من هذه الاحلام الجميلة التي تعن لهؤلاء الناس الاكابر. واذا صدقنا شعار منظمة اليونسكو، وهو حق «بما ان الحرب تنشا في عقول البشر، فلا بد من اقامة حصون السلام في عقول البشر». معنى ذلك انك لن تستطيع اقامة اي من هذه الحصون، إلا اذا فتحت كل هذه العيون المغمضة.

كانت بغداد جميلة كعهدها، بل كانت اجمل. كان سوق «المربد» عامراً وتبارى الخطباء والشعراء والقى محمد الفيتوري قصيدته العصماء «لم يتركوا لك ما تقول».

تنفس الناس الصعداء، ودفنوا موتاهم وجففوا دموعهم. الحزن دائما قريب من السطح في طبع العراقيين الاريحي، ولكنهم تناسوه واخذوا ينظرون الى المستقبل بثقة من قاوم وصمد، ودفع الثمن. ينظر حوله ويرى ماذا تهدم وماذا ظل واقفا. ماذا ضاع وماذا بقي. وكان من بين ما تهدم جهاز مكافحة الامية.

توقفت الحملة خلال سنوات الحرب، وبدأت الامية تزحف من جديد، حتى وصلت الان الى ١٥٪ من عدد السكان حسب تقديراتنا. الا ان عبد الحسين زويلف كان واثقا انهم يستطيعون القضاء عليها بسهولة، وقد صدقته، فقد كانت وراءهم تجربة عظيمة، والحملة التي قاموا بها، اصبحت مضرب المثل في المجتمع الدولي.

استقبلني بابتسامته الودودة ووجهه الطيب، ورافقني طوال اقامتي، وكان سعيداً متفائلا. لا غرو فقد خاض المعركة من قبل، مساعداً لطه يس اسماعيل، الذي كان رئيسا للجهاز التنفيذي. استمرت الحملة سبع سنوات منذ عام ٧٨. لاحقوا الاميين في كل مكان، في الاهوار حيث يعيش الناس في جزر في الماء في مضارب البدو. في قرى السواد بين النهرين. قضوا على الامية قضاء تاما. وكما تتحول احداث الحروب الى اساطير، تحولت تفاصيل حملة مكافحة الامية، الى اسطورة مثيرة في خيال عبد الحسين زويلف.

قصدت الكويت بعد بغداد، وهنالك لقيت عبد العزيز النجدي، مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الامية في وزارة التربية. رجل آخر من هؤلاء الرجال الصالحين. مثل اخيه في بغداد تماماً. كانه هو. وقد اكتشفت خلال تلك الرحلة ان كل الرجال والنساء العاملين في ميدان مكافحة الامية في العالم العربي، هم من طينة واحدة. الطيبة ودماثة الخلق وحب الخير والايمان العميق بقيمة الانسان.

بعض المهن والحرف تفعل هذا الاثر في اصحابها. الاطباء، على وجوههم شيء ما، كانهم يعرفون سراً لا يعرفه بقية الناس، ربما لكثرة ما رأوا من تقلبات الحياة والموت. وهؤلاء يرون معجزات تحدث امام اعينهم يوماً بعد يوم. هذه الكتل البشرية البكماء، مثل الحجارة قبل ان تصنع منها التماثيل، فجاة تنطق وترى. الرجل في السبعين، والمراة في الستين، بعد امد من الظلام، تنجلي لهم الرموز، وتنفك الغاز الحروف. ك.. ت.. ب.. /كَتَبَ/ع.. ر.. ف../ عَرَفَ/.

نظرت مع عبد العزيز النجدي في فصول محو الامية الى وجوه الاميين، رجالاً ونساء، فجاة تشع بالحياة حين يقراون ويكتبون ترى على وجوههم فرحاً مشوباً بالدهشة، كمن يخرج دفعة واحدة من الظلام الى النور. ما الذي جاء بهذا الرجل الطاعن في السن؟ وهذه المراة ماذا يجديها ان تتعلم الان؟ انها تلك الرغبة المتاصلة في الانسان ان يعرف ويدرك ويتواصل بطريقة افضل مع الآخرين، الا ان معظم الذين يقبلون على فصول محو الامية تحدوهم ايضا رغبات ملحة لتحسين اوضاعهم المعيشية.

وجدت في الكويت جهازاً ضخماً لمكافحة الامية، وهو احسن جهاز رأيته في البلاد التي زرتها. كان معداً اعداداً عالياً، وفيه كفاءات ممتازة في ميادين البحوث التربوية والبحوث المتعلقة بمكافحة الامية، من الكويتيين وغيرهم.

تركت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت ان اعرج على دار كريمة واسلم على ساكنها الكريم، الاستاذ عبد العزيز حسين. كان رئيسنا طوال اربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزداد مع مرور الايام تقديراً وحباً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الاعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم، فقد طابت لنا الصحبة، وطاب لنا العمل برئاسة ذلك الانسان الفذ. ومهما يكن فان تقرير اللجنة، وهو من عدة مجلدات، وقد ترجم الى الانجليزية والفرنسية، سوف يظل اثراً جليلاً في ميدان العمل الثقافي العربي، ومأثرة لا تنسى لدولة الكويت.

غذت بي الطائرة نحو صنعاء. هنالك سوف القى محمد المضواحي، سوف يكون مثل صاحبيه العراقي والكويتي. وسوف اجد صديقي عبد العزيز المقالح. وسوف ازور «حجه» وارى العيون اليمانية تضيء بالذكاء من ثنايا البراقع.

في العالم العربي، عالم الاميين على الاقل، عالم واحد ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٠

وصلت «سيدني» ليلا، وكانت من الجو مثل اغلب المدن، مساحات من الضوء تتسع او تضيق. هذه على هضبة، وهذه في واد، وهذه على ضفة نهر، وهذه على شاطىء بحر. مدن تبدو لي حين تجيئها ليلا، كانها معلقة بين السماء والارض، بين الظلام والظلام. شيء يبعث على الاسى. الانسان، هذا المخلوق القوي الضعيف. الغني الفقير. يبذل جهدا يائسا ليؤكد ذاته وسط وحشة الكون. وذلكم احساس ظل يلح على شيخنا الجليل، ابي العلاء.

عوى في ظلام الليل عاف لعله
يجاب واني والديار عوافي

صوافن خيل عند باب مملك
جمعن وما ايامه بصوافي

ها هنا مساحة شاسعة من الضوء على شاطىء بحر. كنت قد تركت «الدوحة» في عز الصيف، ونسيت ان الصيف في الدوحة شتاء في سيدني، وفي عز الصيف، من يذكر الشتاء؟ لذلك لم آخذ للبرد عدته. فوصلت في شتاء زمهرير. وايضا شعرت بالوحشة، رغم انني اخو سفر، عاشق ترحال. كانني شعرت انني ابتعدت جدا هذه المرة عن العالم الذي الفته. والشرق غرب والجنوب شمال، ولا بد من احداث قفزة كبيرة في بيداء الخيال. اوه، واين وادي هور ووادي الخزامى ووادي العقيق من هذه الاصقاع؟ ولم اكن اعرف احدا. ولم يستقبلني احد في المطار، ومع ذلك سمح لي مسؤول الجوازات بالدخول في اقل من دقيقة. لا اذكر انه قلب صفحات الجواز، او تأكد من وجود الـ «فيزا». فقط نظر الى الجواز ونظر الي ثم تمنى لي اقامة سعيدة. وقد عجبت لذلك، نظرا لما حدث من سفارتهم في دلهي، ولولا سعة حيلة «منسي» لعلني لم اكن لاجيء هنا اصلا.

قلت اذهب الى الـ «هلتون»، فلم اكن قد حجزت مسبقا. فهذه الفنادق التي اقامها مستر هلتون كصرح «حضاري» يخلد ذكراه، هي هي اينما حللت. السعر يزيد قليلا او ينقص قليلا، والغرفة تكبر قليلا او تصغر قليلا، وبوسعك ان تدخلها وانت مغمض العينين، فتعرف اين الحمام، واين خزانة الثياب، واين السرير. وقد جمع مستر هلتون، كما يفعل الامريكان، بين الدنيا والدين، فوضع في كل غرفة من غرف فنادقه المنتشرة في كل انحاء العالم، انجيلا، فضمن بذلك، كما ظن، ملايين الدنيا وثواب الاخرة. الحمد لله، بدأت تجد الان في بعض فنادق المسلمين، مصحفا شريفا، وسهما يدلك اين القبلة.

سالني موظف الاستقبال هل عندي حجز، فقلت له دون تفكير «نعم». نظر فوجد اسمي، يا للعجب، وقال:-

«نعم. يوجد حجز باسمك. انت موظف في الشركة العالمية للسياحة، اليس كذلك»؟

لا حول ولا قوة الا بالله. اذا «منسي» في المدينة.

كنت قد ضقت به ذرعا في «دلهي» كما كان يحدث احيانا، ونحن نضيق ذرعا حتى بمن نحب، وكان يريد ان نسافر الى «سيدني» عن طريق «بومباي»، وكنت انا قد عزمت ان اذهب عن طريق «بانجكوك» وهو الطريق الاقصر، فافترقنا. سافر هو في طريق وانا في طريق، وقلت لعل الطرق تذهب به وجهة اخرى، واتفرغ انا للمهمة التي كلفتني بها دولة قطر، دون ان اشغل نفسي بعبث «منسي» وابتكاراته. لكنني الان سعيد انه موجود في «سيدني». ان لك صديقا في تلك المدينة الغريبة في ذلك العالم البعيد. واتضح لي فيما بعد، ان وجوده كان خيرا وبركة، فقد كان لي نعم الرفيق وايضا نعم المعين. ومع ذلك فقد استكثرت ان اكون عاملا في شركة «منسي» العالمية للسياحة. قلت لموظف الاستقبال:-

«انا في الواقع اعمل في حكومة قطر وليس في الشركة العالمية للسياحة».

قال الموظف «آه»، ولم افهم الا فيما بعد، لماذا قال «آه» بتلك الطريقة. جاءني «منسي» بعد منتصف النهار، بعد ان نمت وصحوت على مهل، وكان رغم كل شيء، انسانا مهذبا. لا يثقل عليك، الا احيانا، واذا شعر انك تريد ان تخلو الى نفسك يتركك وشانك. قال، اول ما فتحت له الباب، دون تحية، كاننا لم نفترق في «دلهي».

«ايه يا خوي العباطة بتاعتك دي؟».

«ايه؟».

«ايه حكاية انك موظف في حكومة قطر دي؟ وانا قايل لهم انك موظف في الشركة بتاعتنا».

«طيب ما هي دي الحقيقة».

«انت عارف بالهباله بتاعتك ضيقت على نفسك قد ايه؟ خمسين في المائة. احنا كشركة سياحية بناخذ خصم خمسين في المائة في الهوتيلات».

«يا اخي انا موفد من دولة في مهمة رسمية. يعني عاوزني اجي آخر الدنيا وعشان اوفر شوية دولارات اكذب على الناس؟ وكمان اكون موظف مع مين؟ مع شركة سياحة فالصو ما حد سمع بيها».

«طيب يا سيدي. خليك زي ما انت. حتفضل طول عمرك مغفل. عامل انك ما تكذبش والكلام الفارغ دا. آه.. ولا قول لي.. انت لازم معاك فلوس كتير.. انا نسيت انك بتشتغل مع الجماعة بتوع البترول».

لسوء حظي، كما اكتشفت بعد ذلك، ان «منسي» ظن بالفعل انني احمل مالا كثيرا، لانني اعمل في دولة بترولية. فكان يستضيف الناس في الهوتيل، ويوقع الفواتير على رقم غرفتي. هذه الالاعيب الصغيرة كانت تسعده جدا. ايام كنا معا في لندن، كان يدخل كافيتريا البي بي سي (B.B.C) ويأخذ ما يشاء من اطعمة، ثم يذهب ويجلس دون ان يدفع. يفعل ذلك ليس خلسة ولكن عيانا بيانا، كانه حق من حقوقه. ولما عاد من امريكا واستقر في «عزبته» في جنوب انجلترا، قضينا معه «ويك اند» انا وعائلتي، فاحتفى بنا، كعادته، ولم يأل جهدا في اكرامنا. ولما اوصلنا الى محطة السكة الحديد لنعود الى لندن، لاحظت انه اخذ يمازح الحارس على الباب، ثم غافله وتسلل دون ان يدفع ثمن تذكرة الرصيف، وهو ليس اكثر من بضعة «شلنات». قلت له: -

«الله يلعنك. انت مهما تغتني تفضل برضك شحات».

اضحكه ذلك جدا، فقد كان يفعل تلك الاشياء بحكم دافع طفولي للضحك، ليس اكثر.

سالته الان، ونحن في فندق «هلتون» في «سيدني»:-

«كيف عرفت موعد وصولي»؟

قال ضاحكا، لسبب سوف تعرفونه فيما بعد:-

«ما هو اصله صديقي «درقا» اداني تفاصيل رحلاتك».

«طيب وكيف تأكدت اني حانزل في الهوتيل بالذات»؟

«تليباثي حاسة سادسة». انا كنت متاكد انك حتنزل في الهوتيل دا. انت ما تعرفش الحكاية دي؟ اني بأعرف الحاجات قبل ما تحصل؟ وعلى اي حال لو كنت نزلت في هوتيل تاني، كنت حادور عليك والاقيك. يعني حتروح فين»؟ ■

(للحديث بقية)

آخر وقت



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤١

وانا اتاهب للسفر الى «دلهي» كلمني «منسي» من لندن. كان عصر يوم جمعة. ولم اكن سمعت منه منذ اشهر.

ـ اسمع يا طيب.. انا حامر عليك بكرة أخد معاك كم يوم ومن هناك أسافر للرياض.

ـ بكرة انا مش حاكون موجود في الدوحة لاني مسافر.

ـ على فين؟

ـ على دلهي.

ـ وعندك أيه في دلهي؟

ـ مسافر في مهمة.

ـ لا يا شيخ؟ طب اسمع. والله دي فكرة كويسة. ايه رايك أجي معاك؟ أصلي انا مازرتش الهند قبل كدة.

ـ يا ابني انا مش مسافر من لندن الى اكسفورد او ادنبرة.. بقول لك انا مسافر الى دلهي ومنها الى سيدني، ومنها الى طوكيو. ورايح في مهمة رسمية، يعني شغل، مش رايح اتفسح.

ـ طب وماله؟ دي حتكون رحلة ظريفة جدا، انت تعمل شغلك وبرضه نتفسح ونضحك ونتفرج ع الدنيا، باللا بلاش غلبة. انا خلاص قررت أجي معاك، بس انت أديني تفاصيل الرحلة.

ـ يا ابني انا مسافر بكرة صباحا الساعة سبعة ودلوقت الساعة اربعة، ايمتى حتحصل تعمل الحجز؟

ـ قلت الساعة سبعة؟ آه، دي طيارة الـ B.A. انا كنت حاجز على طيران الخليج، لا دي بسيطة. انت نسيت اني عندي شركة سياحة؟ خلاص. بكرة حتلاقيني في المطار. دي حتكون رحلة عظيمة جدا.

كان يمر على الدوحة بين الحين والآخر في سفراته من الرياض واليها. فقد كانت له فيها اعمال تجارية ثم تزوج هناك وأصبح له في الرياض زوجة ودار. استقبلته ذات مرة في مطار الدوحة، فاذا هو قد تزيى بزي عربي، ولم اكن قد رأيته على تلك الهيئة من قبل عباءة و«دشداشة» و«غطرة» وعقال، وله لحية صغيرة على شكل مثلث و«عنفقة»، وليس له شارب، بدا لي كانه «خواجا» يمثل دور عربي في فيلم امريكي. حجزه موظف الجوازات، فذهبت اسأله قال:

ـ هادا الرجال يحمل جواز سفر امريكي واسمه مايكل ما ادري ايش، وهيئته عربي ويتكلم عربي ويقول انه مسلم. ايش هادا؟ هدا لازم جاسوس.

كان «منسي» سعيدا جدا بذلك الوضع المحير، مستغرقا في الضحك قلت للشاب القطري:

ـ يا ابني هذا ليس جاسوسا. هذا بلوى اكبر. ارجوك دعه يدخل على مسؤوليتي.

لحسن الحظ اعدت ضحكة «منسي» العجيبة التي تقول ان صاحبها لا يمكن ان يخبىء سرا او يضمر شرا. أعدت الشاب القطري، فاخذ يضحك هو الآخر. اذن له بالدخول ولكنه احتفظ بالجواز من باب الاحتياط.

انتهت المكالمة التلفونية وانا بين مصدق ومكذب وفي صباح اليوم التالي في الساعة السابعة دخلت الطائرة فاذا ثمة صاحبي بعينه. لا بد انه نام طول الطريق من لندن واستيقظ نشطا كعادته. يقال ان نابليون كانت عنده هذه الموهبة. ينام في أي وقت وفي اي مكان، واحيانا ينام لبضعة دقائق ويصحو فكأنه نام ساعات. واذا كانت العبقرية تقاس بسهولة النوم، فانني اشهد ان «منسي» كان عبقريا. نام في صحن الحرم المكي الشريف بين صلاة المغرب والعشاء، والناس في زحام وتهليل وتكبير. كان ذلك في عمرتي الاولى. وقد زاملني فيها. وكان معنا شاب من الحرس الوطني السعودي، فنكون في الشوط الخامس في السعي، و«منسي» مايزال يتلكأ في الشوط الثاني. نمر عليه فنجده قد ضل الطريق فنوجهه وجهة الصفا او المروة. ثم نعود اليه فاذا هو قد تاه مرة اخرى. ولما قضى سعيه بعد لأي، نام نوما عميقا وكانه في داره وفي غرفة نومه. الى ان نبهناه لنعود الى جدة. قلت له:

ـ الله يخيبك. هل هذا مكان ينام فيه الانسان؟

قال:

ـ ما هو اصلي انا ماليش ذنوب. عشان كده نمت لاني مرتاح الضمير.

أسعدته الدهشة على وجهي، وكان قد حجز لي المقعد المجاور له. لم يقف ليحييني ولكنه اخذ يملس كرشه بيديه وينظر حوله كانه يريد ان يشهد جمهورا غير مرئي على المعجزة الجديدة التي انجزها.

ـ شايف يا ابني ازاي؟ انت ما تخيلتش اني حاقدر اعمل الحكاية دي، مش كده؟ دا انا قلبت الدنيا. عملت اللي ما يعمل عشان اغير الحجز.

بعد ذلك «دوشني» بالثرثرة الى ان وصلنا دلهي فاضاع عليّ تلك المتعة الخاصة التي اجدها في لقاء مدينة جديدة عليّ من الجو. ان اقدم على مدينة لا اعرفها، في وضح النهار، اراها من الطائرة على كامل هيئتها مثل نموذج مصغر. بجبالها اذا كان لها جبال، وصحرائها اذا كانت وسط صحراء، ونهرها اذا كانت على نهر. ولعل تلك هي الصورة التي تعلق في الذهن، بعد ان ينسى الانسان أسماء الشوارع واشكال المباني وزحمة الناس والسيارات.

أنس له الدكتور حسن نعمة سفير قطر، وابراهيم طه ايوب سفير السودان، والفاه كانهما يعرفانه من زمن. فاسعده المكان وطابت له الحياة. وكان «منسي» رحمه الله، على ذكائه وسعة تجربته، فيه براءة الطفل. حين يحس انه محبوب ومقبول، يكون في أحسن حالاته. فتصفو روحه ويشرق ذهنه وتتأجج طاقة المرح الساكنة اصلا غير بعيد في طبعه.

كذلك كلف به «درقا» الموظف الهندي الذي كلفه السفير القطري بتنظيم مقابلاتي وتنقلاتي. ولكنه أخذ بـ «منسي» وانصرف له كلية ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

الدكتور حسن نعمة الذي ما يزال سفيراً لدولة قطر في «دلهي» انسانٌ لا تجد مثله كثيرين. نال درجة الدكتوراة في اللغة العربية من جامعة «كيمبردج»، واختارته دولة قطر سفيراً لها في الهند منذ ما يربو عن عشر سنوات، فاحب الهند وعشق فنونها و ادابها وحضارتها فطاب له المقام فيها. وكانوا كلما ارادوا ان ينقلوه الى دولة اخرى، يهرع الى الدوحة راجياً ان يتركوه حيث هو، فيتركونه. وهذه من حسنات دولة قطر، وانا اشهد عن تجربة انها دولة كثيرة الحسنات. اذا وجدت ان سفيراً ارتاح في بلد، لا تنغِّص عيشه بالنقل. وقد تركَتْ صديقنا عبد الله الجيدة في الرباط عقداً من الزمان.

هذا، وقد عاشر حسن نعمة السودانيين في «كيمبردج» وفي «الدوحة»، فحفظ شعر الحردَلّو الكبير والتجاني يوسف بشير. يقول لك حين تلقاه «يا زول. انا راقد قَفَى وامَدَحْ المصطفى». والسوداني حين يقول ذلك، فمعناه ان الحياة قد طابت له خصوصا، فيجيش خاطره بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

لم تكن هذه الصورة بعيدة عن حال الدكتور حسن نعمة حين لقيناه، «منسي» وانا، في دلهي، وجدنا له دارا جميلة رحبة مبنية على طراز اسلامي مغولي مع مسحة من الطراز الانجليزي في عهد الـ «راج» (Raj). وللدار باحة واسعة مُعْشِبة ترعى فيها ابقار تدُر له اللّبَن غريضاً. وكان يعيش حياة بسيطة متقشفة، طعامه اللبن الرائب في الغالب. وكان كثير السفر، طاف الهند شرقا وغربا، ودرس موسيقاها وفنونها وعمارتها و ادابها. وهو الى ذلك شاعر مجيد وراوية للشعر العربي قديمه وحديثه. ومغرم بصفة خاصة بالشعراء المسلمين «الميتافيزيقيّين»، امثال جلال الدين الرومي وابن الفارض والشيرازي وسعدي. لذلك لم يكن عسيراً عليه ان يجد لـ «منسي» مكانا في تلك الآفاق الرحبة التي يعيش فيها، فتالفا دون مشقّة.

كذلك انِسَ لـ «منسي» سفير السودان، ابراهيم طه ايوب. فهو من «الحلفاويّين» كما نقول، نسبة الى «وادي حلفا»، وهؤلاء قوم يعتبرهم المؤرخون اعرق شعوب وادي النيل، وكانت ديارهم تمتد من جنوب مصر الى شمال السودان، مكوِّنة ميثاقا من لُحمة جسدية بين البلدين. الى ان اغرقت مياه السد العالي ديارهم، فنُقِلَ سكان الجانب المصري الى اطراف الصعيد، وأُجلِيَ الذين في الجانب السوداني الى ارض البُطانة في الشرق. الله اعلم ايهما افضل، أن لو بقيت تلك الرحم موصولة، او ان تكسب مصر مزيداً من الماء ومزيداً من الكهرباء!

وهم قوم اشتهر عنهم في شطري وادي النيل، انهم اهل نزاهة واستقامة وجراة في الحق، ونوع من القول الساخر الذي يلقونه بشكل عفوي. وفوق ذلك فهم اهل دراية وصُنّاع دول. فقد كان منهم سدنة المعابد الفرعونية من قديم، وفي دمهم الاخلاص للرَمز والتفاني في خدمة «المؤسسة». وحين جاءهم العرب بالاسلام الحنيف، قبلوه سلما لا حربا، لانهم راوا لاول وهلة انه الحق ومنهم على الارجح «بلال» مؤذن الرسول... ومنهم في تاريخ السودان الحديث جمال محمد احمد، احد المفكرين المعدودين بين عُدْوتيْ الوادي والذي لم ينل حظه كما يجب، رغم انه صار سفيراً ووزيراً. ومنهم ابراهيم احمد، احد رواد الحركة الوطنية واحد المؤسسين لجامعة الخرطوم. ومنهم داود عبد اللطيف الذي كان محافظا ثم وزيراً، وكان من الاكفاء ومن مشاهير الاذكياء الظرفاء في السودان. ومنهم محمد نور الدين، من الرواد الاولين، ومن مؤسسي الحزب الوطني الاتحادي، وكان يدعو صراحة الى وحدة اندماجية بين مصر والسودان.

يُحكى ان محمد نور الدين كانت تربطه صداقة قوية بعبد الله خليل، الذي كان على النقيض تماما في فكره السياسي، فقد كان من قادة حزب الامة وصار رئيسا للوزارة في اول حكومة لحزب الامة. وكانا فقيرين شان كل الزعماء تلك الايام. علم السيد عبد الرحمن المهدي انهما في ضائقة، فكلف احد معاونيه ان يحمل مبلغا من المال لكل واحد منهما. ذهب الرجل اولا الى عبد الله خليل، ولما اعطاه المال، قال له:

«محمد نور الدين اكثر حاجة مني فاذهب بالمال اليه».

قال له الرجل «خذ المال فان السيد ارسل مثله لمحمد نور الدين». ثم ذهب الرجل الى محمد نور الدين، ولما اعطاه الهدية، قال له:

«عبد الله خليل احوج مني فخذه اليه». فافهمه ان السيد قد ارسل مبلغاً مثله لعبد الله خليل. ولما جاء الى السيد عبد الرحمن المهدي، عليهم جميعاً رحمة الله، وقصّ عليه القصة، بكى...

جمعتني الظروف صدفة في عَمّان بالاردن منذ عامين، باحمد المهدي، وهو ابن السيد عبد الرحمن المهدي وعم الصادق المهدي، وكنت قد عرفته في انجلترا حين كان يدرس في جامعة «اكسفورد»، ثم عملت معه فترة قصيرة لما كان وزيرا للاعلام في حكومة الصادق المهدي الاولى عام ستة وستين، وهو من جيلي وبيني وبينه مودة. سالته عن [illegible] هذه القصة فاكدها لي، وقال:

«سوف اقص عليك ما هو اعجب منها. حلّ وفد من الحزب الشيوعي السوفييتي ضيفا على الحزب الشيوعي السوداني. ولما سمع السيد عبد الرحمن المهدي، نادى عبد الخالق محجوب امين عام الحزب الشيوعي السوداني، وكان يحدب عليه ويعامله كابنه لانه كان صديقا لوالده، وقال له:

«يا عبد الخالق، انا سمعت ان الشيوعيين الروس نزلوا ضيوفا عليكم، وانا اعرف ان حزبكم ما عنده قدرة ضيافتهم واكرامهم. نحن يهمنا ان ياخذوا فكرة طيبة عن السودان وان الشيوعيين في السودان ناس كرماء يقومون بواجب الضيف. كيف انتو ماشيين تكرموهم؟».

اجابه عبد الخالق محجوب:

«والله يا سيد نحن ما فكرنا في الموضوع دا... نكرمهم على قدر قدرتنا. يمكن نعمل لهم حفلة شاي».

فقال له السيد عبد الرحمن:

«ابدا. حفلة الشاي مش كفاية. تعزموهم كلهم للعشاء هنا. نعمل لهم عشاء كبير عندي هنا».

وهكذا اجتمع الشيوعيون، سودانيون وبلشفيك، على مائدة السيد عبد الرحمن المهدي رجل الدين وامام طائفة الانصار، وراعي حزب الامة.. اولئك رجال من امة قد خلت. رحمهم الله رحمة واسعة.

ذلك، ومن قوم ابراهيم طه ايوب ايضا، محمد توفيق احد اركان الحزب الاتحادي الديمقراطي، وكان وزيرا للخارجية في حكومة الصادق المهدي بعد انتفاضة رجب المباركة، وهو الآن في السجن. وذلك من عجائب السودان، انه لا يمر عليه وقت الا وتجد فيه زعماء يحكمون، ولهم نظراء داخل السجون، كان هذا العراء الشاسع لا يتسع لهم جميعا في وقت واحد. ومن الاماني العزيزة قبل ان يغادر الانسان هذه الحياة الدنيا، والعمر مثل ظل الضحى آخذ يتقاصر، وذلك الافق الذي كان يبدو بعيداً آخذ يدنو، ان يرى زمانا يكون الناس فيه كلهم طلقاء، ولا يكون داخل السجون إلا القتلة الحقيقيون واللصوص الحقيقيون.

كان ابراهيم طه ايوب، الذي تقلبت به الاحوال بعد ذلك، ذكيا، فاحب في «منسي» ذكاءه، وكان ضحوكا فاحب في «منسي» ميله للضحك، وكان طريفا، فوجد إنسانا لم ير احداً على شاكلته من قبل.

هذا، ونحن في دار الدكتور حسن نعمة في «دلهي» صيف عام ثمانين وتسعمائةٍ والف، والليلُ ساكن إلا من عازف ينقر على الـ «سيتار» تلك الالحان الهندية الحزينة التي تمزّق نِياط القلب. وقد كان القلب خاليا لم يتنور بعدٍ نارهم من وراء ازرعات، ولا انبرى له الطيف الذي اقضّ مضجع البحتري:

الم ترَ للبرق كيف انبرى
وطيفِ البخيلةِ كيف احتضرْ
خيالٌ ألمّ لها من «سُوى»
ونحن هجودٌ على «بَطن [illegible]»

نحو أفق بعيد

٤٣

بقلم الطيب صالح



انتبهت في «دلهي» الى صفة اخرى في «منسي» لم الحظها من قبل. كان مثل بعض الحيوانات التي وهبتها الطبيعة قدرة التكيف الجسدي، حسب البيئة التي تسكنها. فاذا عاشت في خضرة وزرع، يصبح لونها اخضر. واذا عاشت في الرمل، يتلون جسمها بلون الرمل. طبعه لم يكن متقلبا. ابدا. كان دائما على سجيته في كل الاحوال. لكنني نظرت اليه في الهند، فاذا هو «هندي» بالمعنى الجسماني. اكتسى جسمه لونا اعمق سُمرة، او هكذا خيّل لي، وبدا لي شعر راسه، او ما بقي منه، مثل شعر الهنود. تناغمت خلجات وجهه وحركات يديه مع تواتر حركات الهنود. وكان يعرف بضع جمل من اللغة الهندية مثل لغات كثيرة لم يكن يعرف الا جملا منها، يستعملها بطريقة توحي انه ضليع فيها. اضف الى ذلك موهبته في رفع الكلفة وتخطي الحواجز، وتعاطفه المتاصل مع الضعفاء وصغار الناس. لا عجب إذاً، ان «دُرقا» اقبل عليه كانه يعرفه من زمن، وانصرف له كليّة. يكون عندي موعد مع مسؤول في الدولة، فانا لم اجيء سائحا، وانما جئت في عمل، فلا اجد السيّارة، ولا اجد «درقا»، واذهب الى موعدي في سيارة اجرة. واسال «درقا» فيما بعد:-

«اين كنت يا «درقا»؟».

فيقول:-

«كنت مع الدكتور احمد».

وصرت أحيانا اضطر الى اصطحاب «منسي» الى مقابلاتي، حتى اضمن السيارة.

لو ان دولة قطر كانت تعلم ان «منسي» سوف يصبح طرفا في هذه القضيّة، فلعلّها كانت تعدل عن عزمها، او تكلّف شخصا غيري بتلك المهمّة. لقد اخذت قطر قرارات مؤتمرات وزراء الاعلام ماخذ الجد، وكل الكلام عن صورة العرب المشوهة في العالم، وانبرت، نيابة عن الدول العربية، لدراسة امكان انشاء مؤسسة اعلامية كبرى، على نمط المؤسسات العالمية الكبيرة، مثل مؤسسة فورد وروكفلر والمجلس البريطاني ومؤسسة جوته الالمانية، والمؤسسات الثقافية والاعلامية في فرنسا والسويد واليابان. وكان الهدف، ان تقوم هذه المؤسسة العربية بتمويل ضخم، من الدول العربية البترولية خاصة، وتنطلق في العمل في آفاق الاعلام الرحبة والثقافة والفكر والفن، ناقلة حضارة العرب بكل ثرائها وتنوعها، في ماضيها وحاضرها، الى شتى ارجاء المعمورة. بمعنى آخر، ان يصبح العرب مشاركين فاعلين في سوق الافكار المطروحة في العالم، ومساهمين بما عندهم في «مائدة» الحضارة الانسانية، بدل ان يكونوا عالة على الآخرين، ياخذون ولا يعطون. تصوّر ايّ حلم رائع لو انه تحقق. وكان القصد ايضا ان تكون هذه المؤسسة مستقلة تماما، تتحرك بلا قيود ولا حدود، في اطار الهدف السامي المتفق عليه اصلا. ولا بد لي من القول، احقاقا للحق، ان سمو امير دولة قطر تحمس لهذه الفكرة حماسة بالغة، وايدها تاييدا مطلقا.

وهكذا اختارت دولة قطر رجل الاعلام الكبير، الاستاذ محمود الشريف، وقد كان مديراً لوزارة الاعلام القطرية قبلي، ليسافر الى امريكا، وانتدبتني لأسافر للهند واستراليا واليابان وبعض دول اوروبا الغربية. وقد كلّفنا بان نتعرّف على «الصورة العربية» في تلك البلاد، ونلم بانماط المؤسسات التي على غرار المؤسسة العربية المرجوة. وقد راينا عجبا. وئد الحلم الجميل في مهده لسوء الحظ. ولم ترتفع الهمم الى مستوى الطموح النبيل. الا انني شخصيا استفدت فائدة لا تقدر بثمن، وقد كانت تلك عارفة أسدتها الي دولة قطر، فلولاها لما اتيح لي ان ازور تلك البلاد البعيدة، واتعرف على تلك العوالم الغريبة.

وصلنا «دلهي» في اليوم الذي مات فيه «سانجي غاندي»، الابن الاكبر لرئيسة الوزراء، اذ سقطت به طائرته، وكانت تعده ليخلفها في الحكم. وكان شابا مغامرا جريئا، يثير حبا عميقا لدى بعض الناس، وكراهية مريرة لدى البعض الآخر، فوجدنا اغلب الهنود حزانى لمصرعه، وقلة من الشامتين. وقد حزن الدكتور حسن نعمة، سفير دولة قطر، حزنا عميقا، فقد كان صديقا لـ «سانجي» ومعجبا به، ويؤمل فيه خيرا كثيرا في مساندة قضايا العرب.

لم تكن الهند غريبة علي، فقد قرات شعر رابندرانات طاغور وسيرة حياة غاندي وسيرة نهرو وشاهدت افلام المخرج الهندي الموهوب «ستَاجِت روي»، وشغفت حبا بموسيقى «رافي شانكار»، واستمعت الى نهرو الفذ عن [illegible] ب، يتحدث في نيويورك عام ستين. وكنا في السودان ونحن [illegible] في المدارس الثانوية اواخر الاربعينات، نعجب بافكار المهاتما غاندي، ونتابع باهتمام مسيرة كفاح الهند ضد الاستعمار البريطاني. بل ان ظهور مؤتمر الخريجين في السودان كمنطلق للعمل الوطني، كان متاثرا الى حد كبير بحركة المؤتمر الهندي. كنا نعرف اسماء زعماء الهند، ونعرف جغرافيتها وتاريخها وتستهوينا اسماء مدنها، ونحفظ قصيدة شوقي التي حيّا فيها غاندي وهو في طريقه الى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن:-

سلام النيل يا غاندي	وهاك الزهر من [illegible] دي
سلام حالب الشاة	سلام ناسج [illegible] رد

وكنا نطرب بصفة خاصة لقول امير الشعراء:-

وقل هاتوا افاعيكم	اتى الحاوي من الهند

كنا نحس، ان هذا الرجل النحيل، العاري الجسم الا من ازار من القطن، نسجه بيديه، ينطوي على معنى جسيم يؤجج خيالنا، كنا قد قرانا عنه في الكتب في سير المسلمين الاوائل، ولم نره مجسما امام عيوننا من قبل، اللهم الا عند قلة من النسّاك والزهّاد.

هذا، وكانت بين السودان والهند علاقة بحكم الاستعمار البريطاني للبلدين، في اساليب الحكم والادارة والت[illegible]م وتخطيط المدن. وكان يفد علينا احيانا بريطانيون عملو[illegible] في الهند. اذكر منهم ضابطا في الجيش، يدعى كولونيل اكستر، جاء يعلمنا اللغة الانجليزية. فرض علينا كتابا كان بعيدا عن مداركنا في تلك السن المبكرة، وقد عرفت بعد ذلك بسنوات انه من روائع الادب الانجليزي، وهو كتاب «مذكرات صائد ثعالب» للكاتب الكبير «سيقفريد ساسون»، استسخفنا الكتاب، وقلنا ما لنا ولصيد الثعالب وطلبنا من استاذنا الكولونيل ان يستبدله بكتاب آخر. لكنه استشاط غضبا، وقرعنا بلهجة قاسية متعالية لم نتعود عليها. ولما عاد الينا في اليوم التالي، وجد اننا قد صففنا له نسخ الكتاب على منضدته، وجلسنا صامتين، علت الدهشة وجه[illegible] ثم صرخ غاضبا:-

«ما معنى هذا؟».

لم يرد عليه احد منا، وظللنا ننظر اليه في صمت.

لم يقصر في شتمنا، وقال اننا «همج» لا تجدي فينا تربية ولا تعليم، ثم خرج. ولما علم ناظر المدرسة بما حدث، وكان اسكتلنديا فاضلا يدعى «مستر لانج»، وكان محبا للسودان، عليما بطبائع اهله، كفانا مشقة الكولونيل، فاعادوه الى بلاده في غضون اسبوع.

كان ذلك اول عمل من اعمال «المقاومة السلمية» نقوم به، ونحن بعد ايفاع لم نبلغ العشرين. ولم يكن ذلك بوحي من فلسفة المهاتما غاندي، فذلك في طبعنا ومزاج شعبنا. ان نقاوم الغطرسة والتسلط بالاحتقار والصمت. ثم اذا [illegible] الكيل وعيل الصبر، نهب فجاة، كما يفيض نهر النيل و[illegible] الاعاصير في صحراء العتمور. فعلنا ذلك مع الاتراك ومع الانجليز ومع الحكام الوطنيين «اولاد البلد».

خليليّ هذا ربعُ عزّةَ فاعقِلا... هذه «دلهي» اذا. عاصمة «عموم الهند»، «انسان عين» الامبراطورية البريطانية ايام عزها. مثل الخرطوم كما بناهما المستعمرون، ولكن شتان بين هذه وتلك.

هذا، وصاحبي «منسي»، مثل صاحب الشهرزوري «جاء يقتفي الآثار»، هو على اثري وصاحبه «دُرقا» على اثره، وكلنا يغذ السير نحو ذلك الافق البعيد القريب ■

(للحديـ[illegible]ـية)

نحو أفق بعيد

بقلم الطيب صالح



طوال اقامتي في «دلهي» او «دلهي الجديدة» بالاحرى، لازمني احساس كانني في دار من هذه الدور، التي بناها في ضاحية من ضواحي الخرطوم، ثريّ من اثرياء العهود الاخيرة. يكون اثرى من تجارة العملة او تهريب البضائع المحظورة، او بطريقة من الطرق الملتوية التي تشجع عليها قوانين مرتجلة لا تملك الدولة القدرة الكافية على تطبيقها.

غير بعيد بيوت الطين وزحام الفقراء، وصاحبنا هذا أقام داره على مساحة افدنة، وجعل فيها حوضاً للسباحة وملعباً للـ «تينس» وملعباً للـ «سكواش» وما شئت من غرائب. حوّطها بسور من الحجر، فوقه اسلاك شائكة تحمي الدار من غائلة اللصوص والمتطفلين. طوابق فوق طوابق، وغرف وراء غرف مثل الهوتيل، ولا هي بالقصر ولا بالهوتيل. تغلب فيها نوافذ الزجاج في عز الحر والشمس الساطعة. والاثاث هذا من امريكا وهذا من ايطاليا وهذا من هنج كنج. شيء مفتعل لا يمت بصلة الى البيئة التي وجد فيها، مثل المستعمرات القديمة التي اقامها اليونان والرومان في الصحراء، ما لبثت ان طمرتها الرمال وعفى عليها الزمن.

كذلك هذه المدينة، انشاها الانجليز حاضرة لملكهم في الهند، وسط عالم غريب كانه بحر متلاطم الامواج. ارادوها واحة من «الحضارة» والنظام والعقل، وسط عالم «همجي» في زعمهم، وتيارات من الفوضى. وكما ان «سير كرستفر رن» خطط مدينة لندن واعطاها سمْتها وطابعها، فقد استقدموا الى الهند مهندسا معمارياً شهيراً هو «سير أدون ليوتنز» فرسم «دلهي» وفي ذهنه قصر بكنجهام وشارع الـ «مال» الذي يؤدي الى ميدان الطرف الاغر وحدائق سان جيمس ومقر رئاسة الوزارة في داوننج ستريت ومؤسسات الدولة في وايتهول. واذا كان قصر بكنجهام هو «صرّة» لندن ومركز الجذب فيها، فمركز الجذب في «دلهي» هو مقر الـ «فايس روي» نائب الملك او الملكة، وظل العرش البريطاني على ارض الهند. الميدان هنا اوسع من الميدان امام قصر بكنجهام، ودور الحكم المبنية من حجر احمر اكثر فخامة وابهة من مثيلاتها في لندن. هنا بنوا ببذخ، لانهم ظنوا انهم سوف يبقون الى الابد، اما عندنا فلم تكن عندهم نية البقاء، فبنوا بلا اكتراث وعلى عجل.

اقاموا نمطاً هزيلاً مصغّراً في الخرطوم المسكينة. اتخذوا القصر الذي قُتل فيه غوردون، مقرّاً للحاكم العام، وجعلوا امامه باحة على نمط الباحة امام قصر بكنجهام، ومدّوا شارعاً على غرار شارع الـ «مال» في لندن، يؤدي الى محطة السكك الحديدية. ويا ليتهم تركوا لنا محطة معتبرة، مثل محطة واترلو او فكتوريا، او على الاقل مثل محطات الاقاليم في «نيوكاسل» او «برايتن». اذا لحمدنا لهم ذلك ابد الدهر، لان الحكام الوطنيين «اولاد البلد» لم يجدوا الوقت حتى الان ليبنوا محطة تليق بدولة مساحتها مليون ميل مربع. حتى الحكام العسكريون، وهؤلاء كما قرأنا في كتب التاريخ، يحبون الابهة والفخفخة لم يفعلوا ذلك عندنا. لم يجُد علينا الزمان الى الان، بحاكم مثل «نابليون» او حتى «فرانكو» يترك وراءه صرحا فخماً تسمو اليه انظار الاجيال القادمة بخليط من الاعتزاز والمهابة وتقول «صحيح انه اغلق البرلمان وحظر الاحزاب وعطل الصحف. ولكن انظروا ماذا بنى. يا له من حاكم عظيم حقاً»!

لم يكن عسيراً على عوادي الزمن ان تطمس معالم الحلم المتواضع الذي حققه الحكم البريطاني في بلاد السودان، الاشجار الضخمة المتشابكةالوارفة الظل على امتداد شارع النيل، شارع كتشنر سابقا، وكانوا قد جاءوا بها من الهند، شاخت وبعضها سقط وبعضها قُطع. قصر الحاكم العام، مقر رئاسة الجمهورية الان قالوا ان سقفه تداعى وحيطانه تشققت. الميدان الذي ورثناه اياه الانجليز، وكنا نراه جميلاً اول عهدنا بالخرطوم، ذبلت ازهاره وصوّحت اشجاره، وهاجرت اطياره، ويبس عُشبه.

الحلم الانجليزي المتواضع لم تبق منه الاّ اصداء بعيدة، ابعد مما وجد امرؤ القيس من اطلال سلمى بذي خال.

ومع ذلك اجد في «دلهي» طعم الخرطوم. الحلم الامبريالي هنا اعظم واوسع مدى. لكنها هي الاخرى سوف تستسلم مثل الخرطوم، فهذه احلام مهما كانت جميلة فهي احلام الغرباء. والسودان مثل الهند، يحلم بمنطق آخر!

غير بعيد من وسط المدينة، وراء الشوارع الواسعة والباحات الفسيحة، وراء الاشجار الظليلة والحدائق المهذّبة، وراء القلل الراقية والهوتيلات الـ «لوكس» تزخر امواج من البشر هم اهل الهند كما كانوا منذ قرون، تتدافع نحو مركز المدينة لتغرق الحلم الامبريالي الى الابد. وها هي ذي الطلائع. ابقار مهملة ترعى في الاحياء الراقية من نافذة غرفتك ترى الحواة ينفخون مزاميرهم للافاعي، وترى مشعوذين يوهمونك بانهم يجعلون الناس يسبحون في الهواء. تسمع صراخ الباعة وزحمة البشر، وخليطا من الانغام الهندية وموسيقى القرب الاسكتلندية ومارشات عسكرية من ابواق نحاسية. والخلق حول المسجد الكبير، كانهم في يوم الحشر.

ماذا يفعل «النظام» الانجليزي في هذه الفوضى الازلية؟ لا بد انهم كرهوا هذا التزاحم وهذه الضوضاء. هؤلاء الناس المنطوون على انفسهم المؤثرون العزلة والابتعاد عن الاخرين، كل واحد منهم جزيرة قائمة بذاتها. ما الذي اتى بهم الى هذا العالم المسحور وجذبهم الى هذا الافق البعيد المحير؟ ■

(للحديث بقية)



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٥

أنْ ترى (جواهر لال نهرو) وتستمع الى حديثه عن قرب.

كان ذلك عام ستين، في ذلك الاجتماع المشهود للجمعية العمومية للامم المتحدة في نيويورك.

كان يشرح للامريكان في مؤتمر صحفي، ان عدم الانحياز ليس (معسكرا) ولكنه تجمع لدول يوحد بينها التقارب في وجهات النظر والمصائر المتماثلة والخوف من ان تكون ذيلا لهذه القوة العظمى او تلك.

كانت الولايات المتحدة قد استقرت الى ان عدم الانحياز (معسكر) من دول تضمر العداء لها. وتدور في فلك الاتحاد السوفييتي. فقال لهم (نهرو) ان تجمع عدم الانحياز ليس موجها ضدهم او ضد اي احد.

وقد شهد الامريكان في تلك الدورة اكثر من دليل على صدق قول (نهرو) فقد تصدى عدد من زعماء عدم الانحياز لـ (نيكيتا خروتشوف) زعيم الاتحاد السوفييتي تلك الايام. وكان احمد سيكيتوري رئيس غينيا الذي كانت وسائل الاعلام الامريكية تصورد بانه شيوعي، يخرج من الاجتماعات ويؤدي فريضة الصلاة ثم يعود. كذلك شرح لهم (نهرو) لماذا يتحتم عليهم ان يعترفوا بالصين الشيوعية ولا يحولوا دون قبولها عضوا في الامم المتحدة.

وقد ابحر بهم في آفاق التاريخ والحضارة والـ (جيوبوليتيكا) ليوضح وجهة نظره.

كان صوته هادئا سهل الوقع على الاذن ووجهه طلقٌ مبتسم، وسَمْتُهُ جميعاً. بزيّه الهندي وغطاء رأسه الابيض، والوردة الحمراء في عروة سترته، التي تميز بها، كل ذلك كان يشع جاذبية لا مراء فيها.

اصغوا كالمسحورين، الى حديثٍ رصين متنوع، زاخر بالحكمة، ومفعم بمرح داخلي، كما تجد عند كبار الفلاسفة والمفكرين. حديثٌ بسيط بلغة انجليزية عالية. ولكنها بعيدة عن التقعّر، وكان في الوقت نفسه شامخاً جمّ الكبرياء.

ولم تكن تلك هي المرة الاولى في تاريخ الانسانية، يقف فيها مثل ذلك الموقف، رجل هو في حقيقته اكبر بمراحل من اناس يرجحونه في موازين القوة.

وأي زعيم امْريكي في تلك الحقبة وما اعقبها من حقب يمكن انْ ترجح بهْ كفة الميزان على (نهرو)؟

عجب البريطانيون حين انضوت الهند المستقلة تحت لواء (رابطة شعوب الكومنولث، وعجبوا اكثر حين قال (نهرو) الذي قضى زهرة شبابه في سجونهم، في خطبة له في لندن انه لا يحسّ بأي مرارة تجاه بريطانيا، وهتف تشيرتشل الاستعماري اللدود وعيناه تكادان تدمعان من التاثر.

(هل هذا ممكن؟ نهرو لا يكرهني!)

لقد حاول تشيرتشل جهده ليحول دون استقلال الهند. واتهم رئيس الوزراء العمالي (كليمنت اتلي) الذي استقلت الهند في عهده، بانه يتخلى عن اثمن ما تملكه بريطانيا.

يا له من فارق بين الرجلين! الرجل العظيم، والرجل الذي تمنحه الظروف مخائل العظمة.

واذا كان غاندي هو روح الهند، فان (نهرو) هو مؤسسها وواضع دعاماتها الاولى.

كان محظوظا ان الاقدار قد جمعت بينه وبين ذلك الانسان في ذلك الوقت بالذات، كأنهما كانا على موعد. وذلك لا يحدث الا نادراً، ان يوافق رجل الروح، رجل الفكر والعمل.

نشأ في بحبوحة شان نبلاء الهند الـ (براهمين) ودرج مع السادة المستعمرين في (ايتون) وفي (اكسفورد) وقد استهوته حياتهم واستجاب لاغراءات حضارتهم.

وكان في سجيته اَمْيَلَ للوردات الانجليز منه الى فقراء الهند. ولو ترك نفسه على سجيّتها لعله كان يمضي مثل مئات الهنود من طبقته، ويصبح اخرا... ان لم يكن انسانا تافها، فانساناً لا يؤبه له.

ثم تلاقيا هو وغاندي، كانما على ميعاد. تعهّدهُ وحرّك فيه طاقات التفرد الكامنة، وبث فيه من روحه. فبدأ رحلةً طويلةً مضنية في استبطان مجاهل وطنه، الذي ينتمي اليه ولا يعرفه، واستبطان مجاهل نفسه. عاش على الكفاف، ولبث في السجن سنينَ، ومشى حافياً، وانخرط في زحام الدهماء وغمار الناس. فتح قلبه وعقله لتلك الاصوات البعيدة الخافتة، التي كادت تطمسها حياته في (ايتون) و(اكسفورد).

كل ذلك تجده في كتابة (اكتشاف الهند). ولما ظن المستعمرون ان زمانهم في الهند قد انقضى، كان (نهرو) مستعداً. كذلك طوال التاريخ، تجيء لحظة يُحسّ فيها الدخلاء، مهما كانت نواياهم حسنة، ومهما كانت احلامهم كبيرة، ان زمانهم قد انقضى ولا بد من الرحيل. ولم يكن في الهند كلها، رجل واحد يمكن ان ينافس (نهرو) على الزعامة.

كنا نتابع كل ذلك، ونتاثر به ونحن احداثٌ في مدرسة (وادي سيدنا) الثانوية على بعد اكثر من الف ميل، وشأننا في ذلك كما قال البحتري:

ذاك منّي وليست الدّارُ داري
باقتراب منها ولا الجنسُ جنسي

ومن اجل ذلك ايضا، لمْ تكن الهند غريبة عليّ. ولذلك وجدت في (دلهي) ما يذكرني بالخرطوم.

هؤلاء القوم الفرنجة الجرمان الانكلو سكسون، كل واحد منهم جزيرة قائمةً بذاتها، أيّ حلم غريب طاف بهم فساقهم الى هذا الأفق المسحور؟ ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح



نحو أفق بعيد

٤٦

دخل الانجليز بلاد السودان مترددين. يقدمون رجلا ويؤخرون. فقد كان المد الاستعماري قد انحسر. والقرن التاسع عشر يوشك ان ينطوي وكان رئيس وزرائهم. مستر قلادستون. اسكتلنديا تقيا له ضمير يحاسبه كل ليلة حين ياوي الى فراشه لم يكن استعماريا على نهج المستعمرين قال لهم ان الثورة المهدية حركة وطنية مشروعة لشعب يطلب الحرية ويريد ان يزيح عن كاهله نير حكم اجنبي غشوم وله قولة تبدو غريبة بمقاييس ذلك الزمان. بل حتى بمقاييس زماننا هذا قال «هذه الجزر. هذه الارض التي نقف عليها. ليست لنا. ولا هي لاوروبا. ولكنها ملك للانسانية باسرها.

لذلك ظل يقاوم ارسال جيش لفتح السودان. وكان بين كل حين وأخر. يبعث حملة صغيرة استجابة لضغط الراي العام. لانقاذ ذلك الرجل الغريب. جنرال غوردون

الاستعمار مثل مسرحية من مسرحيات شيكسبير. حيث الخير والشر يختلطان بصورة مميزة. تزخر بشخصيات بين المأساة والكوميديا والعبث. امتزجت اهواؤها وطموحاتها وغرابات سلوكها بالمطلب الاستعماري وكان من اغرب هذه الشخصيات. جنرال غوردون. او غوردون الصيني كما كانوا يسمونه

ظل في الخرطوم في قصره المتواضع على ضفة النيل الازرق. والخطوب تحيط به من كل جانب. مصرا على البقاء. يشرب الوسكي ويقرا الانجيل. ويكتب مذكراته. ويبعث رسائل مطولة الى اهله. لا يعلم ان كانت سوف تصلهم. لبث ينتظر. كانه مسلوب الارادة. ينتظر مصيره المحتوم. تقول كتب التاريخ ان الامام المهدي اراد ان يستبقيه حيا. ليفادي به الزعيم المصري احمد عرابي لكن كان واضحا. ان غوردون. وهو يقف على عتبة القصر. كانه لا يسمع ولا يرى. كان يطلب الموت ولا بد ان جند الامام راوا ذلك في عينيه. فلم يخيبوا ظنه.

الشعب البريطاني كان يبحث عن ابطال ويبحث عن شهداء فوجد في غوردون ضالته. حتى الملكة فكتوريا اهتزت لمقتل غوردون

هاج الرأي العام وماج. وكان قلادستون الحكيم يظن غير ذلك. ولكنه لم يستطع مقاومة التيار. فارسل جيشا بقيادة استعماري لدود. هو كتشنر. لاخضاع السودان. والقضاء على الثورة المهدية. واخذ الثار لمقتل غوردون. وافهام اولئك «الهمج المتوحشين» انهم لا يستطيعون ان يعبثوا بهيبة التاج البريطاني. ويظنوا انهم بمنجى من العقاب. هكذا اراد الرأي العام في بريطانيا

ولم يكن الامر سهلا. فقد اظهر اولئك «الهمج» في معركة «كرري» اعلى أم دُرمان. الوانا من البطولة الحقيقية والبسالة. لم تدر بخلد الجيش الغازي الذي جاء من وراء البحر. دون وجه حق. في ثوب مستعار وصفة منتحلة. الا إن الامر استتب لهم. واصبح كتشنر يعرف بـ «لورد كتشنر أف ام درمان». كما تقول «لورنس اف ارابيا» و«كلايف اف انديا». واصبحنا نتعلم في كتب المطالعة العربية التي الفها «مستر سكوت» الانجليزي ان كتشنر «فتح السودان ووضع فيه اساس العمران».

حكموا بلاد السودان المترامية الاطراف. بكثير من الحكمة وكثير من العدل. والحق يقال وهذه «اشكالية» كما يحلو لاخواننا ان يقولوا الاستعمار في اساسه. شر لا مراء فيه. ولكن هذا المستعمر يحكم بالعدل والقسطاس في إطار هذا الشر فكيف يكون هذا؟ وتسأل العالم الخبير بتقلبات البلاد والعباد. ودواعي الخير والشر في احوال الناس. ايهما افضل؟ المستعمر الغاصب العادل؟ ام الحاكم الوطني. ابن البلد وهو ظلوم غشوم؟

ويقول العالم الخبير ان الاجابة واضحة. وقد صدق ولكن الذين يذكرون عن الانجليز من الشعب السوداني الكريم الصبور. كل ما نزلت بهم الخطوب. واحتوشتهم النوب. خاصة في العهود الاخيرة. يقولون في حسرة «زمن الانجليز يا حليله زمن الانجليز الله يطراه بالخير» وحسبك هذا من باس

وكم كان عددهم. هؤلاء الانجليز؟ تقول مائة الف؟ .. عشرة الاف؟ تقول الفا؟ كلا كانوا اقل من خمسمائة .. الارجح حسبما تروي كتب التاريخ تبصر يا رعاك الله هذا السودان. بطوله وعرضه وسمائه وارضه. وخيره وشره وجنه وانسه. حكمه اقل من خمسمائة من هؤلاء القبيل «الحمر» الذين جاءوا من وراء البحر صحيح كانت تدعمهم جيوش غير مرئية. وضعوها في ضواحي العاصمة وفي الثغور البعيدة. وتسندهم «هيبة» الامبراطورية البريطانية ومع ذلك؟

ثم جاءت العهود «الوطنية» تترى احيانا برلمانات واحزاب. واحيانا حكم عسكري صرف. واحيانا حكم عسكري دكتاتوري. يلبس قناع الديموقراطية والاشتراكية. والعدالة الناجزة والرفاه المرتقب ونو... بغصة كلهم منه لا ارضا قطعوا ولا ظهرا ابقوا

واليوم يظلنا عهد جديد يظله. بعد انتفاضة رجب المباركة. وثورة مايو الخالدة. وثورة اكتوبر المظفرة والنيل الحكيم الصبور ينظر ويتعجب. اخواننا هؤلاء قاموا بعد ان فكروا وقدروا. نعمل لكم «نظاما فدراليا» يعني. يا رعاك الله. الدولة الواحدة تتجزا الى دول. والحكومة الواحدة تتطاير حكومات وبدلا من برلمان ووزارة في الخرطوم. تكون عندنا برلمانات ووزارات في دارفور وكردفان واعالي النيل وبحر الغزال والجزيرة وكسلا والخرطوم وقروي ودنقلا انظر كم رئيسا ووزيرا س... ينيخون بكلكلهم على كاهل الشعب المسكين. فوق ما ... محتمل يا سبحان الله اما قلتم ان الشعب ليس مهيئا للديموقراطية البرلمانية؟ اذا كيف يكون مهيئا لـ «الديموقراطية الفدرالية» وهي اكثر تعقيدا واعظم خطرا؟

هذا ايضا يصلح موضوعا لمسرحية يكتبها شيكسبير العبقري. لو كان حيا لقد كتب من قبل مسرحية عن ملك دانت له المملكة. وكان رزقه ياتيه رغدا من حيث لا يحتسب وفي لحظة من لحظات الاستهتار والثقة الزائدة بالنفس. قسم المملكة بين بناته ظنا منه انه يقضي الصيف مع هذه والشتاء مع هذه والربيع مع تلك. ويظل هو كما كان. ملكا مهيمنا فوق الجميع ولكن الامور سارت على عكس ما ... وانتهى به الامر طريدا شريدا. في العواصف والثلج والزمهرير. وحيدا الا من المهرج الذي كان يضحكه ايام العز.

قال المهرج للملك «يا احمق».

فقال الملك غاضبا

«يا ولد تقول لي احمق وانا الملك؟».

فقال المهرج

«لانك اضعت الالقاب التي ولدت بها جميعا ولم يبق لك الا هذا اللقب».

يقول نقاد شيكسبير ان عقدة هذه المسرحية. هي «الحمق».. واذا شئت قلت «الجهالة».

اذ؟

هذا ونحن في «دلهي» صيف ثمانين وتسعمائة والف والليل يجمع اطرافه ويتكثف. والغناء الحزين يزيد القلب كمدا. وتلك الذكرى التي تلاحقني من وادي النيل تحمل عطرا لن ينضب ما دمت حيا صاحبي «منسي» على اثري مثل صاحب الشهرزوري. وصاحبه «ذرفا» على اثره

«فدنونا من الطلول» والطلول ليست في بلاد الهند ولكنها في بلاد الشام عربي يغلبك؟ ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٧

تمثال «لورد كلايف» صاحب الهند، لم يزل قائما في مكانه في «دلهي»، تهب عليه الرياح من الجنوب والشمال، وتسفعه امطار الـ «منسون»، وتجلس الطير على راسه، وهو يتحمل هذه المهانة في صبر، زاماً شفتيه كما يفعل الانجليز مثله، ناظراً الى الافق نظرة تجمع بين الاحتقار والرضى عن النفس. انه مصير مهين حقا لرجل كانت تنحني له جباه «راجات» الهند، وتوجف القلوب من خشيته، وتتعلق مصائر الملايين بكلمة منه. ولعل هذا ما اراده «نهرو» ان يجعل الهند تثار لنفسها من الغزاة الفاتحين على طريقتها. كذلك ظلت تماثيل كل الرجال الذين مكنوا لسلطان بريطانيا في هذه البلاد، لم يزيحوها عن اماكنها.

جاءوا الى هذا الافق البعيد، متشبثين باذيال «شركة الهند الشرقية» يحدوهم الطمع واحلام المجد والفضول وحب المغامرة. وكان البرتغاليون والاسبان قد سبقوهم الى تلك الاصقاع من آسيا، ثم تجاوزهم الفرنسيون فانصبوا على القارة في هجمة شبيهة بهجمات القبائل البربرية التي انقضت مثل الوباء على العالم القديم، فزلزلت اركانه وقوضت بنيانه، وقلبت اعلاه اسفله.

دخلوا بخليط من التدبير والحذر، والاقدام والاحجام، وقليلا قليلا، وجدوا انفسهم سادة على شبه قارة، جزيرتهم بالنسبة لها، مثل الشامة البيضاء في جلد الثور الاسود. وجدوا عالما يموج بالوان من البشر، ويرطن بلغات عجب، منهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد البقر، ومنهم من يعبد الاله الواحد الاحد. ماذا يصنع النظام البريطاني في هذه الفوضى الكونية؟ هالهم الامر، ولكن كعبدهم حين يقعون في ورطة، فقد ربطوا جاشهم، واستجمعوا قواهم، واذعنوا للنداء، نداء المجد والخلود. انه وهم فتاك اودى باقيال قبلهم وبعدهم عبر التاريخ. لقد جر وراءه «حنابعل» عبر جبال الألب، وساق الاسكندر المقدوني الى بلاد ما بين النهرين، واغوى قيصر الرومان فاذهبه الى مصر، واخرج نابليون من مامنه وقصم ظهره في فيافي روسيا، وحدا هتلر الى فرنسا، وقاد اللنبي الى القدس، وساق كتشنر الى ام درمان. الحلم نفسه والخيلاء نفسها، مهما بدا لهم ذلك مختلفا. حلم تافه بميزان العدل الكوني. ليس اجلّ خطرا من اغفاءة العصفور على غصن الشجرة.

جاءوا باللغة الغريبة ونظامهم الطبقي المعقد، والقانون والوسكي والانجيل. اقتطعوا البلاد اقطاعيات، وحكموها بمزيج من القسوة والرحمة والشجاعة والجبن، والاهتمام والنفور. وكانت البلاد تفعل فيهم فعلها وتؤثر فيهم من حيث لا يعلمون. يقضون الشتاء في «دلهي»، والصيف في «سملا»، ويتبعون «كبيرهم» الـ «فايس روي» ظل العرش البريطاني على ارض الهند، يرحلون حيث يرحل، وينزلون حيث ينزل، مثل قبيلة من البدو، يقيسون اهميتهم بمدى قربهم او بعدهم عنه. وكان «كلايف» هو حامي بيضتهم وفارس عذرتهم، شان «لوجارد» نيجريا، و«رودس» في روديسيا، و«كرومر» في مصر، و«كتشنر» في السودان.

اعطوا الهند واخذوا منها، كما فعلوا حيثما حلوا. وقد اخذوا اكثر مما اعطوا. ولم يكونوا يتصورون انها سوف تغيرهم وتفسد عليهم حياتهم. ذلك ادركوه بعد ان رحلوا عنها.

فرضوا شرائعهم وقوانينهم، واقاموا «دلهي الجديدة» على هواهم رمزا لهذا النظام الامبريالي الجديد، الـ «باكس بريتانيكا». وقد خيّل لهم، كما خيّل للذين من قبلهم، انهم يستطيعون ان يخلدوا تلك اللحظة العابرة الى الابد. فملأوا ارض الهند بتماثيل رجالهم الذين مكنوا لهم فيها، تماثيل من الصخر والرخام والبرونز، هذا يمتطي حصانا، وهذا يمتشق حساما، وهذا ينظر بصلف، وهذا ينظر بحكمة.

ثم حان وقت الرحيل، كما يحدث حتما للغزاة الفاتحين عبر التاريخ، ودقت ساعة منتصف الليل، واعلن «نهرو» بصوت متهدج ان الهند قد عادت الى نفسها.

كان يتوقع منهم، بل كان من حقهم، ان يزيلوا تلك الانصاب الاستعمارية من اماكنها. ولكن «نهرو» الخبير بتعرجات دروب التاريخ، المدرك لسخرية الاقدار التي لا تني تضحك من تفاهة مسعى الانسان، قرر ان يدع ذكريات ذلك العهد الغريب على حالها، وظلت واقفة تعتورها الرياح، وتموج حولها وتكاد تغرقها جماهير الهنود في تدافعها الازلي. كان يعي ان الحقبة الاستعمارية ايضا، بخيرها وشرها، اصبحت ملكا للهند، تتصرف فيها كيف تشاء.

وهكذا بقي «كلايف» ماثلا في «دلهي» مثل الاسير، بعد ان كانت تعنو له الجباه. لقد اصبح «رهينة» الحلم المجنون الذي طاف ببني قومه فاخرجهم من ديارهم، وجاء بهم الى ديار لا يفهمونها ولا يعرفون عنها الا القليل. سوف تمر به الحقب، وهو في اسره الابدي، لا يستطيع منه فكاكا، تتماوج حوله جموع دهماء الهند، الذين اراد ان يفرض عليهم نظاما غريبا بلا جدوى ولو استطاع لراهم احرارا طلقاء في عوزهم وفاقتهم وفوضاهم.

انها «نكتة» من اعجب النكات في تاريخ الانسانية، ابتدعها خيال زعيم عميق التجربة، مرهف الحس لسخرية الاقدار التي لا تني تضحك من تفاهة مسعى الانسان! ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٨

ظلّ «كلايف» صاحب الهند، ماثلاً حيث وضعته الاقدار، سجين الغرور الانساني، تمر عليه الحقب وتقف على رأسه الطير.

أما صاحبانا «كتشنر» و«غوردون» فقد افلتا من ذلك المصير، لان الزعماء الذين آل اليهم امر السودان بعد رحيل الانجليز، لم يكن عندهم ذلك الحس التاريخي الساخر الذي كان عند «نهرو».

تمثالان فقط اقامهما الانجليز في بلاد السودان المتّسعة الاكناف. فقد فهموا ان اولئك القوم البدو الرعاة في ارض البطانة والبحر الاحمر وكُرْدُفانْ، الزّرّاع العبّاد حاملو كتاب الله الكريم، ليس لهم حفاوة بالاصنام. انهم يعبدون الاله الواحد الاحد، الفرد الصمد، الذي ليس كمثله شيء. ادركوا ان السودان بخلاف الهند. هناك ارْبابٌ متعدّدة، واصنام من ذهب وفضة، تغُمُّ الخيال، كما يحجب الضباب افق السماء.

ومع ذلك كان لا بد من خلق «رمز امبريالي» من نوع ما. كانوا، رغم كل شيء قوما حكماء، يحاولون ان يسبروا غوْر الشعوب التي فرضوا سلطانهم عليها. وقد فهموا انه لا بد للسلطة الجديدة ان تظهر بمظهر جديد. لذلك خطّطوا العاصمة على هيئة العلم البريطاني، وزرعوا على جنبات الشوارع اشجارا لم يعرفها اهل السودان من قبل، جاءوا بها من الهند. اشجار النيم واللّبلاب والكافور. شيّدوا دور الحكم بالحجر والطوب، وكان اهل البلد يبنون بالطين في الغالب. وجعلوا اسقف دور سكناهم بالقرْميد الاحمر مما اثار عجب الناس. وكان «الحاكم العام» يخرج من حين الى آخر في موكب فخم، ان لم يكن في عظمة موكب الـ «فايس رُوي» في «دلهي»، فقد كان كافياً لادخال الهيبة في القلوب، وافهام اولئك الزّرّاع الرعاة، انهم يتفيّأون ظل حُكم قادر، يعني ما يقول ويأمر فيطاع.

كذلك عملوا تمثاليْن من البرونز، احدهما لـ «غوردون» المسكين على ظهر جمل، والثاني لـ «كتشنر» على صهوة حصان.

ظل «غوردون» في طربوشه وهيئته المُنتحلة، يجلس على ظهر جمله، طيلة خمسين عاما ونيف، يحدق بعينين ساهمتين، كأنما الى اعماق ذاته. وظل «كتشنر» على حصانه، ينظر بعينين غاضبتيْن، مشيرا باصبعه الى أم درمان وراء النهر.

وكان حتماً ان يصبحا هدفاً لسخرية الناس. فكانوا يقولون عن «غوردون» انه خيبة الامل راكبة جمل، وسأل سائل لا يدري ما يقول «اما ان لهذا الفارس ان يترجّل؟» وهو يعني «كتشنر». هذه العبارة كما نعلم، قالتها اسماء بنت ابي بكر، ذات النطاقين، حين رأت ابنها الذي صلبه الحجاج معلّقا اياما بمكة. شتان بين ذلك «العلْج» وبين عبد الله بن الزبير، رضوان الله عليهم جميعا.

ثم، كما يحدث للدخلاء الفاتحين طوال التاريخ، جاءت ساعة الرحيل، فجلا الانجليز عن بلاد السودان، وانزل اسماعيل الازهري ومحمد احمد محجوب رحمهما الله، العلم البريطاني ورفعا مكانه العلم الجديد، على سارية قصر الحاكم العام الذي اصبح القصر الجمهوري ثم قصر الشعب فيما بعد. وهو علم صنعوه على عجل، فكأنهم أخذوا على حين غرّة، فلم يأخذوا اهبتهم للاستقلال. جعلوه من ثلاثة الوان، وقالوا اللون الازرق رمز الماء، والاخضر رمز الخصب والزرع، والاصفر لون الصحراء. وهي كما ترى رموز سطحيّة مُفتعلة لا تصلح رموزاً حتى لرواية قصصيّة. وجعلوا شعار الدولة «وحيد القرن»، وقالوا انه رمز الصلابة، وقد كان حيوانا آخذاً في الانقراض ولعلّه انقرض بالفعل. واسموا الدولة «جمهورية السودان». وهو تحصيل حاصل.

وكان حتما ان يجلو «كتشنر» و«غوردون» ويلحقا بقومهما، فسارع الحكام الجدد الى انزالهما من منصّتيهما، ولم يكونوا يعلمون انهم بذلك انما يطلقانهما من سجنهما التاريخي، مضيّعين فرصة نادرة للسخرية كما فعل «نهرو».

ثم توالت العهود الوطنية، عهد يتلو عهداً، وثورة على اثر ثورة، وزعيم مخلّص يعقب زعيما مخلصاً. انطوى عهد الديموقراطية الاول بخيره وشرّه، وكان خيره اكثر من شرّه، وانطوى العهد العسكري الاول بسلام في الاغلب الاعم، وانطوى عهد الديموقراطية الثانية باحزابه وضوضائه بلا خير ولا شر. ثم ظهر على المسرح «فتى الفتيان واخو الاخوان»، الزعيم القائد جعفر محمد النميري، فكان عهده مراحل. المرحلة الاولى غلب فيها الخير على الشر، والمرحلة الثانية استوى فيها الخير والشر، والمرحلة الاخيرة غلب فيها الشر على الخير.

ثم هبّت رياح ثورة «نيسان» المباركة في رجب شهر الخير. وهنا يدخل مسرح التاريخ لوهلة قصيرة، اقصر مما يطرف جفن العين، صاحبنا ابراهيم طه ايوب. هل تذكره، الذي لقيناه في «دلهي» انا و«منسي» صيف عام ثمانين وتسعمائة والف■

(للحديث بقية)



بقلم الطيب صالح



نحو أفق بعيد

٤٩

لما فاض الكيل وعيل الصبر، هب شعب السودان الصبور، كما يفيض النيل، وتهب الاعاصير في صحراء العتمور. سقط النميري بعد زهاء سبعة عشر عاما من حكم متقلب غريب الاطوار. ليس لانه كان رجلا شريرا: كان يظن انه يحسن صنعا. كان سودانيا كسائر السودانيين الذين يعرفونه يقولون انه رجل وديع دمث خجول. وهو امر يبدو غريبا في انسان ضرب جزيرة «ابا» بالقنابل وشنق عبد الخالق محجوب والشفيع احمد الشيخ. وقتل صديقه الحميم الذي مكن له في الحكم، فاروق حمد الله. وقتل الرجل الشيخ محمود محمد طه. انه حتما لم يرد شيئا من هذا ان يحدث. ولكن هذه الامور تبدأ صغيرة ثم تكبر. وشيء يقود الى شيء، فاذا بالرجل الوديع الخجول، يتحول الى قاتل سفاح.

الحجاج بن يوسف كان يعلم الصبية القران. وعبد الملك بن مروان الذي امر بضرب الكعبة الشريفة بالمنجنيق، كان رجلا فقيها عالما بالشعر. هذه الامور ليست جديدة. انها موجودة في كتب التاريخ وكتب الادب. وموجودة في مسرحيات شيكسبير العبقري.

ويقولون انه كريم شهم «اخو اخوان». وانا رغم انني لا اعرفه، استطيع ان اصدق هذا. فهو سوداني كسائر السودانيين. وهذه هي المأساة. كل هؤلاء الناس كرام فضلاء. كلهم رجال شرفاء، كما قال انتوني في مسرحية يوليوس قيصر. ولو ان اخانا جعفر محمد النميري، فهو اخونا على اي حال، لم يذعن لذلك الاغراء الفتاك، اغراء المجد والخلود، ولم يستيقظ مبكرا في ذلك اليوم بالذات، ولم ينتزع الحكم من اهله، او الذين خيل لهم انهم اهله، لعله كان ينتهي به الامر بان يصبح قائدا للجيش، ثم يذهب الى التقاعد بالطرق العادية ويقضي بقية ايامه هانئا قرير العين.

ينام ملء جفنيه لا تثقل ضميره كل تلك الدماء التي اراقها. وفي سبيل ماذا؟

في سبيل مطلب تافه، هو بميزان العدل الكوني، اقل خطرا من اغفاءة العصفور على غصن الشجرة.

رووا ان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقف فجأة في المسجد ذات يوم وقال «اللهم اشهدوا انني كنت ارعى غنما لخالات لي من مخزوم وكنت اجوع فلا اجد ما اطعمه، فكن يتصدقن علي بشيء من اللبن اتقوى به». ثم جلس. ولما سألوه لم فعل ذلك قال «انني احسست في نفسي زهوا فاردت ان اذلها».

وقد سمع يوما يحدث نفسه «بخ بخ يا بني الخطاب. لقد اصبحت امير المؤمنين».

النميري الذي نصب نفسه أميرا للمؤمنين اخر العهد، وبايعه اناس سرعان ما تنكروا له فيما بعد، كان يزعم انه يقتفي اثر عمر بن الخطاب، ولكن هيهات.

سمى القصر الجمهوري، قصر الحاكم العام، قصر الشعب. وسمى الجيش جيش الشعب. وسمى الدولة «جمهورية السودان الديموقراطية». غير العلم وغير شعار الدولة ووضع دستورا على هواه، ووضع صورته على العملة. اصبح عبد الملك بن مروان وابا جعفر المنصور وهرون الرشيد وروبسبيير ونابليون وعمارة دنقس وعبد الله جماع. البسوه الطاقية ذات القرنين واجلسوه على عرش ملوك سنار. زغردت له النساء وغنى له المغنون. وقد بدا له ان الامر قد استتب له تماما، وانه مخلد في الارض. كان طيلة سبعة عشر عاما، مثل ممثل وحيد على المسرح. في مسرحية من هذه المسرحيات الحديثة، التي يؤدي فيها الممثل ادوارا عدة، مستعينا بالاقنعة. يخلع قناعا ويلبس قناعا. وكان الشعب مثل جمهور صامت، ينظر ويتعجب. وكان يقول في مقابلاته الصحفية انه حول السودان الى جنة. وهو ضرب عجيب من ضروب خداع النفس. فقد كان واضحا لكل ذي عينين، ان السودان كان مثل رجل مريض يشرف على الموت. كانت الخرطوم الجميلة مثل طفل يتيم في ثوب مهلهل. وكنت اقول لمن اقابل من وزرائه

«كيف يرضى صاحبكم بهذه الخرابة حاضرة لملكه؟».

ثم كأنما سئم اللعب، وسرت فيه رغبة دفينة لتحطيم الذات. حرب الجنوب بعد ان اخمدها عاد فاشعلها من جديد. واختط سياسات رعناء، وارتكب حماقات لا مبرر لها. وكان يعين الوزراء ويفصلهم دون علمهم ودون سبب واضح. وقالوا انه تصوف وزهد. ولكن زهده لم يشمل الزهد في الحكم. واخيرا اقدم على عمل من اغرب ما يقدم عليه حاكم. فجأة اغلق عشرين سفارة من سفاراته، وهي نصف وزارة خارجيته وذلك بحجة التقشف وتخفيض النفقة. وقد اتضح ان الخسائر التي حاقت بالدولة من جراء هذا العمل العبثي، اكثر كثيرا من نفقات ترك السفارات مفتوحة. ناهيك بالضرر الجسيم الذي لحق بسمعة الدولة.

هب الشعب العظيم هبة رجل واحد، في انتفاضة رائعة كانت الثانية في تاريخه الحديث ضد حكم عسكري. ولعله كان اول شعب يفعل ذلك في العالم المعاصر. وهنا يدخل المسرح صاحبنا ابراهيم طه ايوب الذى كان سفيراً للسودان في «دلهي» حين زرناها «منسي» وانا، عام ثمانين وتسعمائة والف. حين ثار الشعب ثورته تلك، كان سفيرا للسودان في «نايروبي». ولسبب ما اصبح المصدر الوحيد لاخبار الانتفاضة في ايامها الاولى، فانحاز اليها، وكان يزود وكالات الانباء بالاخبار. ولما نجحت الثورة وسقط النميري، وقامت حكومة انتقالية برئاسة المشير عبد الرحمن سوار الذهب، اختاروا صاحبنا ابراهيم طه ايوب وزيرا للخارجية ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٠

ذلك العهد لم يدم طويلاً. وليته فعل. فقد أوفى سوار الذهب بوعده. فأجرى الانتخابات في موعدها. وسلم الحكم لأهله. أو الذين ظنوا أنهم أهله. وذهب في حال سبيله

هذا العمل البسيط، أسر خيال ملايين الناس. في السودان وخارج السودان. وأصبح ذلك الرجل الزاهد. عبد الرحمن سوار الذهب. رمزاً مضيئاً من رموز هذا العصر

لقيناه في الحج منذ أربع سنوات. فاجتمع خلق كثير في خيمته في «منى». من بينهم أحمد مختار أمبو الذي كان مديراً عاماً لمنظمة اليونسكو حينئذ. أقبل الناس يحيون الرجل الذي لما قدموا له كأس الحكم قال «اصرفوها عني». كان أمبو يصارع في تلك الآونة ليحتفظ بمنصبه. وأظنه قرر بينه وبين نفسه في تلك البقعة المباركة. أن في الحياة أشياء أخرى غير المناصب. وأن اليونسكو بهيلها وهيلمانها. لا تساوي عند الله جناح بعوضة. حججنا معه ذلك العام. الفاتح حمد والطاهر مختار وأنا. وكان معه زوجته وابنة أخته وصديقه الحميم من أيام الطفولة. فضيلو ضيوف. نقيب المحامين في السنغال. كان رجلاً عجيباً. كان يؤمّنا في الصلاة. ويرتل القرآن بصوت جميل بقراءة ورْش. طاف وسعى وأدى المشاعر. واكتشفنا بعد أن فرغنا من الحج. أنه كان يعاني طوال الوقت. فقد كان مصاباً بسرطان الكبد. وهو لا يدري

ذهب أحمد مختار أمبو الى موعد في «دلهي». وعاد الفاتح حمد وزوجة أمبو وابنة أخته الى باريس. وذهب الطاهر مختار الى الرياض. وبقيت مع الحاج فضيلو ضيوف في جدة. ظل أسبوعاً في مستشفى الحرس الوطني. وكان الأطباء يعلمون أن حالته ميئوس منها.

أدخلته الطائرة وعانقته وعانقني. ودعا لي. ودمعت عيناه. تلك دموع لن أنساها ما حييت. لم يلبث أن توفاه الله بعيد وصوله الى دكار

قابلت صديق صباه، أحمد مختار أمبو، بعد ذلك بقليل، في مكتبه في الطابق الخامس في مقر اليونسكو في باريس. كانت الأحداث تتدافع حوله وهو هادىء ساكن. وكأنه قد استقر على رأي. ولا بد أنني ذكرته بصديق طفولته. كنا قد أصبحنا صديقين في أيامه الأخيرة. حين غدا واضحاً أنه سوف يخسر المعركة. فأنا شغوف بالمعارك الخاسرة

كان أحمد مختار أمبو أيام مجده. حين يسير في أروقة اليونسكو. يحدث هزة واضحة. مثل التمساح حين يطفو في النهر ولكن انظر اليه الآن. خسر المعركة يوم السبت. وسافر يوم الأحد أو الاثنين. كان في وداعه في المطار. عبد الرزاق قدّورة. ومنير البكري. ومحمد ابراهيم كاظم. وسعيد مغربل. والفاتح حمد وأنا ورجل وسيدة من قدامى موظفي اليونسكو. هذا كل ما في الأمر. بعد ثلاثة عشر عاماً من الحل والربط. والهيل والهيلمان

لقيت عبد الرحمن سوار الذهب منذ شهرين في صلاة الجمعة في عمان. لمحني في الصلاة فلبث ينتظرني عند الباب. كذلك هو. انسان مهذب أبداً. رآه الناس. فتدافعوا نحوه. يسلمون عليه. وكأنهم يتبركون برجل صالح من عهد غابر

أما صاحبنا ابراهيم طه أيوب. الذي لمع نجمه برهة قصيرة أيام الانتفاضة فأصبح وزيراً للخارجية. فإنه لما عاد رجال الأحزاب الى الحكم بعد الانتخابات. رجع هو أدراجه الى وزارة الخارجية. فعينوه سفيراً للسودان في روما. ولا بد أنه كان يحس بالرضى. فقد قام بواجبه. وكتب أسطراً إن لم يكن صفحات من تاريخ وطنه ولعله ظن أن أسوأ ما يمكن أن يحدث له. هو أن يقضي بقية سنواته سفيراً الى أن يصل سن التقاعد. ولكن هيهات

فرح الناس بالصادق المهدي. وكنت من جملة الفرحين. قلنا إذا كان الأمر أمر تعليم. فهذا رجل تعلم في جامعة اكسفورد. وما أدراك ما جامعة اكسفورد. وإذا كان المطلوب هو التجربة والخبرة. فهذا رجل أتته رئاسة الوزارة منقادة اليه تجرجر أذيالها وهو لما يتجاوز الثلاثين. وإذا كان المعول على «العصبية». كما وصفها ابن خلدون. فهذا رجل سليل أئمة ووريث حكم. أضف الى ذلك بسطة في العقل والجسم. وطلاقة في اللسان وفصاحة في البيان. وهو بعد مهذب كريم «أخو أخوان». مثل سائر السودانيين

في تلك الأيام كنت أزور السودان. فأصر رجل «محب» للصادق المهدي أن يجمعني به. قلت له «يا أخي مالي ولهؤلاء الحكام؟ إنهم في وادي وأنا في وادي».

اتفقنا أن نصلي معه صلاة المغرب في داره في ام درمان. قبالة دار الاذاعة. ولما وصلنا. وجدنا أنه قد اتصل بالتلفون من مقر رئاسة الوزارة. واعتذر بأنه سوف يتأخر. لأن المجلس كان مجتمعاً ذلك المساء في أمر هام

وجدت داراً بسيطة كدور كثيرين من الميسورين في ام درمان. لم يكن فيها أي مظهر للبذخ أو الترف. كانت داراً واسعة. عامرة ومأهولة. وقد لاحظت وأنا أتوضأ أن «حنفية» الماء مكسورة فقلت لزوجة رئيس الوزراء -

«حتى أنتم حنفية مائكم مكسورة؟».

فأضحكها ذلك

صلينا صلاة المغرب. أنا وصاحبي. وكانت تلك أول مرة أصلي فيها في دار رئيس وزراء

جاءت لنا زوجته «سارة». وهي سيدة ذكية لطيفة. بالشاي و «الكيك». وجاءت ابنته وسلمت علينا. ثم لم يلبث أن لحق بنا السيد رئيس الوزراء

لقد عرفته في لندن حين كان طالباً في جامعة اكسفورد. كان تلك الأيام مثل «كاسيوس». كما وصفه شكسبير في مسرحية «يوليوس قيصر». ثم عملت معه فترة وجيزة عام ٦٦ حين كان رئيساً للوزراء. ووزيراً للاعلام وهو لما يتجاوز الثلاثين. ثم ها هو الآن بعد نحو عشرين عاماً هو هو. لم يتغير كثيراً. نفس أدبه الجم ودماثته المعهودة

رأيت وجه صاحبي يضيء بمحبة خالصة. وأنا كلما أرى وجود المحبين أحس بالشفقة. في حجتنا تلك مع أحمد مختار امبو. رأينا رجلاً في «منى». ينكب على يدي شيخ يقبلهما ويبكي. قلت للطاهر مختار -

«أرجو أن يكون هذا الشيخ أهلاً لمحبة هذا المريد».

جلسنا نشرب الشاي ونأكل «الكيك». وكان الصادق المهدي كعهده دائماً. مهذباً لطيفاً جم التواضع

قال لي صاحبي، الذي كان يستمع الى كل كلمة يقولها الصادق المهدي. كأنه يشرب ماء سلسبيلاً في يوم قائظ -

«انصح السيد رئيس الوزراء».

ضحكت. فقد تذكرت كيف أن الناس كانوا يقولون في مجالس خلفاء بني العباس «عظ أمير المؤمنين». ومن أنا حتى أنصح السيد رئيس الوزراء؟

قلت لصاحبي -

«لا بد أن السيد رئيس الوزراء قد استمع الى نصائح كثيرة من أناس كثيرين. ولا أظنه في حاجة الى مزيد من النصح».

ثم، كأنما عمداً، وجهت الحديث الى الأشياء العملية الصغيرة. كما يفعل عامة الناس. وقد أحسست أن السيد رئيس الوزراء، كان يؤثر أن يتحدث على مستوى أعلى. وأنا لا أبالي أن أخوض في غمار الفكر مع الخائضين. ولكنني كنت قد قضيت أياماً في السودان. ورأيت طوابير البنزين والخبز. ولمست انقطاع الماء والكهرباء. وعانيت من صعوبة المواصلات واستحالة السفر من مكان الى مكان

وخرجنا من عنده. وكان صاحبي يهوّم في سبحات من المحبة الخالصة. وأنا أيضاً كنت حسن الظن في الصادق المهدي. أؤمل فيه خيراً كثيراً. لكنني لم أقع أسير جاذبيته كما فعل صاحبي وقلت لنفسي -

«هذا رجل اجتمعت له كل مقومات الزعيم الكبير. ومع ذلك. مع ذلك...» مضى رجال الأحزاب يخبطون خبط عشواء. وكأن انتفاضة رجب المباركة لم تحدث. وكأن ما كان طوال سبعة عشر عاماً لم يكن. وكان الزمن رصيداً لا ينفد يبددونه كيف شاءوا

ثم، كما كان حتماً أن يحدث. استيقظوا ذات صباح. فإذا الجيش قد ربط خواصر الجسور وأغلق أفواه الطرق. وإذا الصحف معطلة. والبرلمان موصد. والأحزاب محظورة. وإذا هم داخل السجون

وهنا تنتهي قصة صاحبنا ابراهيم طه ايوب. التي بدأت معنا في «دلهي». عام ثمانين وتسعمائة وألف. فقد أحالوه الى التقاعد. بين عشرات رأى العهد الجديد أن مصلحة الوطن تقتضي احالتهم الى التقاعد

انني أتذكر الآن عبد الرحمن سوار الذهب. والناس مجتمعون عليه في خيمته في «منى». وأتذكر احمد مختار امبو ونحن في الحرم النبوي الشريف في صلاة العصر. وأتذكر الصادق المهدي. يتحدث حديثه المهذب في داره في ام درمان بعيد صلاة المغرب. وأتذكر فضيلو ضيوف. رحمه الله. وعيناه تدمعان. وأنا أودعه الى غير لقاء في الطائرة في جدة

أما صاحبنا الجديد في الخرطوم. فلا بد أنه هو أيضاً كريم مهذب أخو أخوان. لئن كان حقاً تقياً ورعاً كما يقال. فالبدار البدار ■

(للحديث بقية)



بقلم الطيب صالح



لم يكن في «الدوحة» تلك الايام، وليس فيها حتى الان حسب علمي، سفارة استرالية. لذلك رتبت امري على ان احصل على الفيزا في «دلهي». وقد اتصلنا بالقنصل الاسترالي في البحرين، فوعد ان يكتب الى سفارتهم في «دلهي» ليمنحوني الفيزا.

ذهبنا انا و«منسي»، وهو يحمل جوازه الامريكي، وانا احمل جوازي السوداني، وهو جواز ظللت اتشبث به كل هذه السنوات لا ارضى عنه بديلا، رغم كل ما يسببه لي من متاعب، حتى داخل السودان نفسه، حيث تدخل بصعوبة وتخرج بصعوبة. يعطونك اياه لعامين فقط، والدنيا كلها تعطي مواطنيها الجوازات لخمسة اعوام، ومنهم من يعطيه لعشرة اعوام. ويطالبونك بشيء اسمه تاشيرة الخروج، كانك في المانيا الشرقية. وحتى في المانيا الشرقية، انهارت الحيطان، ورفعت القيود، واصبح الناس يدخلون ويخرجون، احرارا كما ولدتهم امهاتهم.

دخلت لمقابلة القنصل قبل «منسي»، وكنت قد ملات «الفورمات»، واستوفيت الاجراءات. قلب صفحات الجواز طويلا، وتمعن فيه مليًا، وكانه شيء لم ير مثله من قبل. قال لي بعد لأي:

«انا أسف يا مستر صالح. الموافقة لم تصل من «كانبرا». عليك ان تنتظر.. ربما تصل الموافقة في غضون اسبوع».

«ليس عندي وقت.. سوف اسافر غدا او بعد غد».

«انا أسف لذلك».

«ولكن لماذا «كانبرا»؟ انا اعلم ان من حقكم ان تمنحوا الفيزات دون الرجوع الى «كانبرا».

«توجد حالات يجب ان نطلب فيها موافقة الوزارة في «كانبرا». وهذا اجراء طبيعي.. كل الدول تفعل ذلك.. على اي حال الامر بسيط.. سوف نتصل بـ «كانبرا».. يمكنك ان تحصل على الـ «فيزا» من سفارتنا في سنغافورة».

«لكنني لست مسافرا الى سنغافورة».

«انها في طريقك.. لماذا لا تنزل فيها ليوم او يومين؟».

«اسمع. اذا كان دخول بلدكم بهذه الصعوبة فسوف الغي الرحلة كلية.. انت تعلم انني مسافر الى استراليا، ليس للسياحة، ولكن في مهمة رسمية. اشكرك على اي حال...».

رأني «منسي» اخرج غاضبا، وحاول ان يكلمني، ولكنني سارعت بالعودة الى الـ «هوتيل».

لم تمض ساعة، واذا بالتلفون يدق.

«مستر صالح؟».

«نعم».

«هنا السفارة الاسترالية. انا سكرتيرة السفير. انه يود ان يتحدث معك».

ثم اذا صوت مرح يقول:

«مستر صالح. انا أسف جدا لسوء التفاهم الذي حدث لك مع القنصل. انه لم يكن يعلم من انت. دكتور مايكل موجود معي الان وقد شرح لي كل شيء. يسعدني ان تزورني في مكتبي. الان اذا كان ذلك يناسبك.. سوف تجد الفيزا حاضرة.. هل عندك وسيلة نقل..؟ يمكننا ان نرسل لك سيارة».

لم تكن عندي وسيلة نقل في الواقع، فقد كانت السيارة ومعها «ذرقا» وقفا على «منسي» كالمعتاد. فضلت الا استغل كرم السفير، فاخذت سيارة اجرة، وفي الطريق تخيلت ما حدث. في دقائق الم «منسي» بجلية الموقف من القنصل، فسارع واقتحم مكتب السفير، دون استئذان، كعادته. وفي وقت قصير جعل السفير يألفه، كانه يعرفه من زمن. رسم له صورة مبالغا فيها عن «اهميته». هو اولا، وعن «اهميتي» ثانيا، وعن «اهمية» المهمة التي نقوم بها معا في استراليا ثالثا.

استقبلوني عند الباب، وساقوني باحترام زائد الى مكتب السفير. وجدت صاحبي «منسي» او «دكتور مايكل» مسترخيا يشرب الشاي. هب السفير من مقعده وهرع يرحب بي. كان شابا في اوائل الاربعينات من عمره، ممشوق القامة، مملوءا حيوية، كما يتخيل الانسان الاستراليين. سنته مزيج من جامعة «هارفرد» وجامعة «كامبردج».

لاحظت ان «منسي» في تلك الفترة القصيرة، قد رفع الكلفة تماما مع السفير، والاستراليون اصلا، مثل الامريكان، في طبعهم بساطة وبعد عن التكلف. وكانما اراد «منسي» ان يفهمني مدى الانجاز الذي حققه، فقال

«هل تعلم ان «ريتشارد» حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة «ييل»؟».

قلت متغابيا

«ريتشارد؟!».

«سعادة السفير».

قال السفير:

«انا أسف جدا لما حدث يا مستر صالح. انت تعرف القناصل. يطبقون القانون بطريقة روتينية. طبعا هم معذورون. علمت من دكتور مايكل انك كاتب كبير وشخصية مرموقة في دولة قطر».

كان «منسي» يعلم انني سوف انفي عن نفسي هذه الصفات، فلم يترك لي فرصة للرد، ولكنه سارع فقال ضاحكا:

«مستر صالح رجل متواضع. لا عجب ان القنصل لم يهتم به كما يجب».

ساقنا الحديث الى الكاتب الاسترالي «باترك هوايت»، والرسام الاسترالي «سدني نولان»، ومغنية الاوبرا الاسترالية «جون سذرلاند». والاستراليون لانهم بعيدون عن مراكز الحضارة ويعلمون ان الاوروبيين خاصة، يعتبرونهم اجلافا لا فكر لهم ولا ثقافة ولا فن، يهمهم جدا ان يقدموا انفسهم الى العالم على انهم قوم متحضرون يحتفون بالفن والثقافة. لذلك فهم فخورون بالاستراليين الذين احرزوا شهرة واسعة في العالم. ولذلك ايضا فان السفير قد سعد باننا لم نكن جاهلين تماما باستراليا.

كان انسانا لطيفا بحق، انسنا له وانس لنا، وكان واضحا انه يريد ان يستبقينا اطول وقت.

اعطاني الجواز وفيه تاشيرة الدخول «مجاملة»، ولا بد انه مهد لي الطريق ايضا، لانني، كما ذكرت لكم حين وصلت الى سدني سمح لي موظف الجوازات بالدخول، دون ان يعبا بتقليب صفحات الجواز.

قال السفير:

«يسعدني ان تتعشيا معي هذا المساء اذا لم تكونا مرتبطين».

كنت اعلم ان «منسي» سوف يقبل دون تردد، فهذا طريق جديد انفتح له. يسير فيه كعادته دون ان يلوي على شيء؟ تجربة انسانية يلاحقها كما يفعل الشعراء والفنانون، وانا ايضا لا ابالي افعل ذلك في بعض الاحيان.

سارعت بالاعتذار للسفير، ولا بد انني فعلت ذلك بلهجة حاسمة لان «منسي» اكتفى بان نظر الي باستغراب ولم يقل شيئا.

لعلني لم اقبل دعوة السفير، لانني احسست انه يبالغ في الحفاوة بنا على افتراض «اهمية» ليست لنا في الواقع.

(للحديث بقية)

أخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٢

اتُضحت لي في «منسي» خلال تلك الرحلة مواهب ديبلوماسية لم اعهدها فيه من قبل. ولكنها كانت مثل كل مواهبه. شيئا فوضويا ليس له ضابط ولا رابط. تحتاج الى شخص، ربُما مثلي، يكبح جماحها ويوجهها الوجهة الصحيحة. حينئذٍ تتحول الى طاقة مبدعة بحق. وربما انه قرر منذ البداية، هكذا ضربة لازب، انه طرف في المهمة التي كلُفتني بها دولة قطر، فقد آثرت ان استفيد منه على اية حال، فصرت اصطحبه معي الى المقابلات التي ليس لها طابع رسمي. ولعله لم يكن لي في الامر حيلة، فقد كان «دُزْقا» وسيارته، وقفا على «منسي».

قابلتُ المسؤولين في الدولة بمفردي ورافقني «منسي» في مقابلاتي لرجال الصحافة والاذاعة والتلفزيون ومؤسسة الهند التي انشاها «نهرو» عقب الاستقلال مباشرة وهي مؤسسة على نمط المؤسسة التي كانت دولة قطر تفكر في انشائها. وجدنا صحافة معادية لرئيسة الوزراء، مسز غاندي، على وجه العموم، وخاصة الصحافة الناطقة باللغة الانجليزية. وهي صحافة كما تدل اسماؤها، «ستيتسمان» (Statesman) و«تايمز اوف انديا» (Times of India) وغير ذلك. قامت على طراز الصحافة البريطانية ومتاثرة بها. وقد قابلنا رئيس تحرير هاتين الصحيفتين، ولمسنا منهما عداء شديدا لمسز غاندي يصل حد الكراهية الشخصية. ويمكن القول ان ذلك العداء كان يمتد الى كل سياستها الخارجية، بما في ذلك تاييدها للقضايا العربية. وقد ابلى «منسي» بلاءً حسنا في هذه اللقاءات وكانت نزعته «الهجومية» تُجدي في تلك الحالات.

كنت وإيُاه مثل لاعبي كرة، يفهم احدهما الاخر فهما تاما. كنت ارمي الفكرة، فيتلقفها ويجري بها فاذا وجدت انه ابتعد بها عن القصد اعدتها الى مجراها. وكنا احيانا نتعمد ابداء وجهات نظر تبدو مختلفة، حتى لا يظن السامع، اننا مثل بعض الاذاعات، نردد كلاما رسميا ممجوجا. وكنا نعلم ان صورة العالم العربي في مخيلات الناس الذين نقابلهم صورة غائمة على احسن الفروض، فكنا نحاول ان نترك لديهم ذكرى عنا كاناس مستنيرين متحضرين. ولان الاشخاص الذين قابلناهم، كانوا اشخاصا مثقفين في الغالب، فكنا نجْهد ان نجعلهم يحسون اننا انداد لهم... على الاقل. اقول على الاقل لان «منسي» كان يوهمهم انهم ادنى منه بكثير. وفي الواقع، فان الامر لم يكن صعبا، فالهند اهتمامٌ قديم لديَ وكان «منسي» كعادته يُحرز بالقليل الذي عنده، اكثر مما احرز انا بالكثير الذي ربما يكون عندي.

كذلك ادهشني، انني رايت في «منسي» خلال تلك الرحلة حماسة للاسلام لم اعرفها فيه من قبل.

تسالني لماذا اسلم اصلا؟ لا ادري على وجه التحديد، ولكنه اعتنق الدين الحنيف ببساطة وكانه ينتقل من دار الى دار مجاورة. ولم يكن ذلك بغرض «تجارة يصيبها او امراة ينكحها». كان يقول انه قرا القران الكريم وهو صبي في «ملاوي» في الصعيد، مع اطفال المسلمين. وكان بالفعل يحفظ ايات منه، وذلك امر ليس مستغربا، فاقباط وادي النيل، وهم «ذوو قربى ورحم» اقتربوا جدًا من المسلمين. واذكر ان ابناء القبط كانوا يقراون القران معنا في مدارس السو[illegible] ويحضرون دروس الدين. وكان معنا قبطي [illegible] القران بصوت جميل. وفي مدينة ام درمان حيّ يُسمى «المسالمة»، وهؤلاء اقباط هاجروا من مصر، وبعضهم دخل الاسلام، فتجد في العائلة الواحدة مسلمين ونصارى. كذلك الحال في بلاد الشام وربما في العراق ايضا. وفي لبنان، تكاد لا تجد فرقة من هذه الفرق المتقاتلة، الا وفيها المسلمون والنصارى. وانا استعمل كلمة «نصارى» عمدا، فهذه هي الكلمة التي استعملها المسلمون والعرب طوال تاريخهم، وهي كلمة ليست فيها اية ايحاءات عدوانية، بل على العكس هي كلمة حافلة بالمودة والرحمة. اما كلمة «مسيحيون» [illegible] جاءتنا في العهود المتاخرة.

ونحن نعلم ان العرب النصارى انحازوا للعرب المسلمين في موقعة «اليرموك» وفي موقعة «القادسية». وقد قال القائد المسلم حين اصيب في موقعة القادسية، للعربي النصراني:

«انت اخونا وان لم تكن من ملُتنا فاحمل اللواء عني».

هذه هي الحال منذ قديم الزمان. التسامح الدِيني من سمات ارضنا ومزاج شعوبنا، ففيم اذا هذه الحروب التي تُذكى نيرانها باسم الدين، وفي سـ[illegible] ماذا هذه العداوة والبغضاء والحزازات؟

الامَ الخُلفُ بينكموا إلامَ
وهذي الضجةُ الكبرى علامَ
وفيمَ يكيدُ بعضكمُ لبعض
وتُبدون العداوة والخصاما؟

وكانما كُتب على الشعراء ان يسالوا هذه الاسئلة طوال التاريخ دون جدوى.

اسلم «منسي» في واشنطن على يدي امام مسجد[illegible] وسرعان ما اصبح داعية للاسلام، كانه مسلم منذ [illegible] وقد انشا اذاعة تدعو للاسلام، وكان يحاضر هنا وهناك في امريكا عن الاسلام. وقد زعم ان امة من الناس اعتنقت الاسلام على يديه. وكان يسالني متحديا:

«انا دخُلت ناس كثيرة الاسلام. انت دخلت كم واحد؟».

لعلُني «ليُنت» قلوب بعض الناس، او انني ازلت بعض سوء الفهم عن الاسلام، هنا وهناك. اما انني ادخلت احداً في الاسلام، فاللهم لا ■

(للحديث [illegible]



نحو أفق بعيد

٥٣

بقلم الطيب صالح

عاد «دُرْقا» صاحب «منسي» بالتذاكر والحجز. تذكر «دُرْقا» الهندي؟ لقد كلّفته السفارة القطريّة بتسهيل مهمّتي وتنظيم لقاءاتي. ولكنّ «منسي» استحوذ عليه فانصرف له تماماً. ولم يعُدْ يفيدني في شيء. انشغل «منسي» بالاسواق ومحلات تفصيل الثياب. حيث يصنعون لك بذلة كاملة في يوم واحد. وقد وجد في «دلهي» انواعاً فاخرة من الأقمشة زهيدة الثمن. كذلك لقي اصدقاء. عجيب كيف انه كان يجد معارف واصدقاء اينما ذهب. أما انا فقد كان أمامي عمل لا بد من انجازه. وقد اذعنت لذلك الوضع الذي لم يخل من طرافة. فكنت ارى «دُرْقا» طالعاً نازلاً. يجري من مكان الى مكان وراء «دكتور احمد». كنت اعبث به احياناً فاستوقفه واسأله: —

«يا درقا. أين انت؟ الم يكن مفروضاً ان توصلني الى مبنى التلفزيون؟»

فيرد بذلك الهدوء الهندي الذي يغيظ: —

«أنا آسف يا مستر صالح. ولكن دكتور احمد كان عنده موعد هام».

وكان واضحا لدي، ان «منسي» قد اوهم «درقا» بانه هو الموفد في مهمّة من حكومة قطر، وانني مجرد مرافق له.

يقول «منسي» ضاحكاً: —

«اسمع. النهارده تقدر تاخُذ «درقا» والعربيّة. انا مش محتاج لهم. بس على شرط اجي معاك».

لم اكن اجد بدًا من ان ادعه يرافقني الى بعض مقابلاتي الرسمية، وكان هذا يؤكد لـ «درقا» ان «دكتور احمد» هو الموفد الحقيقي، وهو الجدير بالرعاية، وانني مرافق له.

لكن «درقا» قد تجاوز الحد الآن. كنت قد طلبت منه ان يحجز لي على الطائرة الى «بانجكوك» ثم «سدني». وكان «منسي» يريد ان نسافر الى «بومبي» ثم الى سدني. قلت له: —

«يا اخي. يكفي اننا تعرفنا على مدينة في الهند. فلنتعرّف على مدينة في بلد آخر. ثم ان «بانجكوك» في خط سيرنا و«بومبي» تبعد بنا نحو الغرب».

اظهر لي انه اقتنع بهذا الراي، لذلك دهشت حين وجدت أن «درقا» قد عمل الحجز عن طريق «بومبي».

«اما قلت لك ان تحجز لي الى «بانجكوك»؟»

«نعم. ولكن دكتور احمد أمرني أن اعمل الحجز الى بومبي».

عاد «دكتور احمد» الى الهوتيل سعيداً لسبب او لآخر. وعجيب ايضا كيف ان «منسي» كان يجد سبباً للسعادة في كل خطوة يخطوها. هل الحياة مليئة بالمسرّات الى هذا الحد؟ ام انه كان يملك «مصنعاً» ذاتياً، لانتاج السعادة.

«اسمع. انا سوف اسافر الى «بانجكوك» كما قررت منذ البداية. اذا كنت تحب تسافر معي الى «بانجكوك» فاهلاً وسهلاً. والاّ فمع السلامة».

«يا اخي بلاش حماقة. بانجكوك ايه بس؟ دي بلد كلام فارغ. انا لازم اروح «بومبي» لأنه عندي موعد هام بتاع «بزنس»

«سبحان الله. كنت اظن انه قام بهذه الرحلة ارتجالا. عفو الخاطر. فمتى رتّب «موعداً هاماً» في «بومبي»؟

«يا ابني احنا ما بنلعبش.. «البزنس» عاوزة كده.. هُبْ هُبْ. انت فاكر الفلوس بتجي ببلاش؟ ولا انت فاكر ان الحكاية كلها اونطة؟»

اضحكني ذلك. فقال: —

«صحيح الاونطة تنفع. بس لازم كمان شوية جهد».

قلت فليذهب الى «بومبي» ولعل السُبُل تؤدي به الى وجهة اخرى، واخلو انا الى نفسي. وبعد اسبوعين من ضوضاء «منسي» والفوضى التي تلازمه، كنت قد حننت الى مصاحبة نفسي. الآن امضي وحدي في طريقي، انزل حيث اشاء، اتسكع في شوارع المدن الغريبة، واتعرّف على الأشياء على مهل، واتمعّن في المشاهد. انتقي منها كيف اشاء، اضعه في خزانة الذاكرة الى حين. معي كتبي واوراقي، ومعي زادي المطمور، الذي ربما قد نسيته، فاذكره فجاة حيث لا اتوقع.. تذكّرني به هبّة ريح او لمعة ضوء او صوت انسان او الشمس تشرق او تغيب في افق غريب. ومعي المتنبي العظيم رائد الآفاق، رهين مُفترق الطرق: —

نحن أدرى وقد سألنا بنجدٍ
اطويل طريقُنا ام يطولُ
وكثير من السؤال اشتياقٌ
وكثيرٌ من ردّه تعليلُ
زوِّدينا من حسنِ وجهك ما دامَ
فحسنُ الوجوهِ حالٌ تحولُ
وصِلينا نصِلْكِ في هذه الدنيا
فان المقامَ فيها قليلُ.

هكذا افضل ان تكون هذه الأبيات الجليلة. ليس «اقصير طريقنا ام طويل» وليس «نوّلينا من حسن وجهك» فانما اراد «الزاد» طيّب الله ثراه. والطريق قد يبدو طويلا وما هو في حقيقة الأمر بالطويل. تعلّل، رحمه الله رحمة واسعة. هذا البيت الذي يقوم مقام قصائد عند غيره من الشعراء: —

لا أقمنا على مكانٍ وانْ طابَ
ولا يُمكنُ المكانَ الرحيلُ

والمكان «بانجكوك»، وما كانت، كما بدت لي يومذاك، «بالبلد الطيّب». ■

(للحديث بقية)

أكر وورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

كنت قد قرات ان الكاتب الانجليزي «سمرست موم» كان حين يزور «بانجكوك» يقيم بنزل الـ «اوريننال». واذ انني لم اكن اعرف احدا في تلك المدينة، ولم تكن تربطني بها اية صلة فقد كانت تلك صلة من نوع ما. صلة واهية. اي نعم. فقد كان «سمرست موم» كاتبا بالمعنى الحقيقي للكلمة. لا يضيره ان الانجليز لا يعدونه بين عظماء كتابهم، وبعض نقادهم يحتقرونه احتقارا واضحا، ولكنه كان من انجح الكتاب في التاريخ. قصصه القصيرة ورواياته ومسرحياته. ان لم تحدث «ثورة» في عالم الادب، ولم تقدم «رؤى» طريفة للحياة، كما فعل الكتاب العمالقة امثال «تشارلز دكنز» و«توماس هاردي» و«جوزف كنراد» و«جيمس جويس» و«جريهام جرين»، الا انها اعمال مصقولة مكتوبة بفن ومهارة.

كان «سمرست موم» يرد على هجوم النقاد بقوله انه لا يكتب ليبشر باية افكار، وانه ليس من هؤلاء الكتاب الذين يريدون «تغيير العالم»، ولكنه يكتب لمتعته الشخصية ولادخال المتعة على نفس القارىء. وربما يكون في هذا ظلم له، فقد سلط قلمه الساخر بقسوة احيانا، على حياة «صناع الامبراطورية» في اسيا خاصة. وقدم نماذج عجيبة للغرور والطمع وحب التسلط وتقلبات نوازع القلب البشري. كانت كتبه توزع بمئات الالاف، وترجمت الى اكثر اللغات. وكان الانجليز من الطبقات التي اتخذها مادة لسخريته، تمتلىء بهم مسارح لندن، ينظرون الى انفسهم في مراة الفن، ويستعذبون هجاء الكاتب لهم. ربما لانه كان من تلك الطبقات العليا وكان يعرف اصول مخاطبتها.

كذلك جاءه مال وفير من السينما في بريطانيا وفي امريكا، التي حولت عددا من قصصه القصيرة ورواياته، الى افلام ناجحة. منها فلم «الامطار» المقتبس من قصته «العاصفة»، ومثلت فيه الدور الرئيسي تلك الممثلة التعيسة الحظ «ريتا هيوارث» التي اخنى الزمان على جمالها، فحسن الوجوه «حال تحول» كما قال «الاستاذ». كانت صاعقة الحسن في شبابها، وتزوجها الممثل الامريكي الموهوب «اورسن ولز» ومن بعده علي خان، ثم افل نجمها واصيبت بمرض عضال، وماتت العام الماضي في حالة ماسلوية في مصحة في نيويورك. كان دورها في فلم «الامطار» من ادوارها التي لا تنسى. دور المراة «الساقطة» التي نبّهت في القسيس، وهو يسعى الى اصلاحها، عواطف مدمرة لم يكن يعلم انها ساكنة في اعماقه.

نعم، هذا كاتب مليونير يستحق ان يسمى «كاتبا». والمال في نهاية الامر، واحد من المقاييس التي يقاس بها الناس. وهو مقياس سهل. شيء واضح، يرى ويحس وله دوي. اما الذكاء، واما حسن الخلق، واما الفضل، واما العلم، فكيف تقيس هذه الامور؟ ولا عليك من قول الحسن بن هانىء: —

وقد زادني تيها على الناس انني
اراني اغناهم وان كنت ذا فقر

بالله هل هذا كلام؟ هل الفقير يجوز له ان يتيه على الناس بفقره؟ اجل! كان «سمرست موم» كاتبا حقيقيا. كتبه غلت له الملايين. قضى حياته الطويلة، في داره الشهيرة «فيلا موريسك» في خليج «انتيب» على الـ «كوت دازور»، كيف قالوا؟ شاطىء اللازورد. ما هو «اللازورد» يا ام عمرو؟

ثمة لا حرٌ ولا برد، وزرقة البحر الاسطوري مثل حلم قريب المنال. الصباح يوقظ الافكار النائمة، وسكون الليل «يجيب» الاصوات من بعيد. كان يجلس في «بلكونة» داره، ينسج احلامه الغالية الثمن، يحمل له النسيم عطر الياسمين، وتغني له الطيور النازحة في هجرتها الازلية من الشمال او الجنوب، وتهدّىء ثائرة نفسه امواج البحر المتوسط. حين يكون الطقس دافئا يلبس الـ «روب دي شامبر» الحريري الشهير، وحين يبرد قليلا يتلفع ببطانية من الكاشمير. يفرغ من العمل، فيرسله الى الناشر الذي ينتظره بفارغ صبر. ثم يتوافد عليه اصدقاؤه من كل حدب وصوب، ليسرّوا عنه، بعد الالام التي عاناها في الكتابة. واي اصحاب؟ نجوم الفن ونجماته، واثرياء الكتاب واثرياء الشعراء، واثرياء الرسامين، واثرياء الاثرياء. اليس هذا جميلا؟ ما هو الخطا في هذا؟

«شي حلو» تقولين يا ام عمرو؟ صدقت. وهل انا غيران؟ نعم، سوى ان الرجل قد ترك كل هذا وراءه، وذهب الى حيث لا ينفع مال ولا شهرة. الله اعلم من ورثه فلم تكن له زوجة ولا عيال، ولم تكن له رغبة بالنساء اصلا.

نعم، هذا كاتب. فهل تسمي نفسك كاتبا مثله يا ابا زينب؟ انها لعمري صلة واهية، بل هي اوهى من خيط العنكبوت.

لي ناشر شهم شهلول، حفظه الله ورعاه، واغدق عليه من جميل عطاياه. دخل ميدان النشر اصلا لانه يعشق الكتب، يبرها ويحنو عليها، ويلم شملها كما يُجمع اللقطاء من قارعات الطرق. يؤويها ويطعمها ويسقيها، وينفق عليها من حُرّ ماله. وهو انسان ابلج يهش لك ويحسن استقبالك، يفعل ذلك مع كل الكتاب والشعراء الذين ينشر لهم. والانصاف يقتضيني ان اقول انه كلما لقيته [illegible] كنت لا اراه الا كما كان كُثيّر يرى عزّه، يدفع اليّ بالالف و[illegible] احيانا ليرات واحيانا ريالات واحيانا دولارات حسب المكان الذي يجود الزمان علينا فيه باللقاء. والف والفان، باي عملة كانت، ليس مبلغا هينا، اللهم الا بعملة لبنان والسودان. وكنت اعلم انه يقتطع ذلك من قوت عياله، فنشر الكتب عندنا، مثل كتابتها، لا يدر مالا. واين نحن من هذه الدور الكبيرة في باريس ولندن ونيويورك، حيث الناشرون اباطرة والكتاب قياصرة. هذا، وهو يعاني من تزوير المزورين وشح الموزعين. يقوم المسكين بهذا العمل الجليل في خدمة الثقافة العربية، لا تدعمه دولة ولا تشد ازره حكومة، فالدول والحكومات، ايدها الله، مشغولة في ديارنا بما هو اجدى وانفع.

اذهب عن هذا الناشر البطل الذي يخدم الثقافة في اصعب الظروف تحت وابل القنابل، وانا ارثي لحاله واعاتب نفسي [illegible]

«يا اخي حرام عليك. تاخذ فلوس من هذا المسكين؟ من [illegible] يجيب المال لك ولامثالك؟ الا يكفيك انه اذاع اسمك في الافاق؟ اما يرضيك ان كتبك تقرا من عمان الى القيروان؟ اما اصبحت بفضل هذا الناشر تدعى للملتقيات الفكرية والمنتديات الادبية؟ الم يجعلك شيئا مذكورا، بعد ان كنت لا شيء تكتب عنك الاطروحات الجامعية وتمنح لك الدكتوراهات الفخرية؟ تُرابٌ لك من كاتب! اليت، لو كانت عندك ذرة من اريحية، لدفعت انت من جيبك لهذا الناشر بدل ان تساله الدفع».

هكذا. ومع ذلك، فلا تحزن يا ابا زينب. ان عاجلا وان اجلا سوف يجيئك المال. سوف يجدك صرت «كاشلاء اللجام» لا تستطيع ان تتمتع به، فهذا ديدن الحياة كما تعلم. —

«تعطي حين يكون الوعي مشتتا،
وحين تعطي، تعطي بطرق محيرة،
تجعل العطاء يقتل الشهوة.»

هكذا قال الشاعر الانجليزي. واحسن منه قول «الاستاذ»: —

«من راها بعينها شاقه القطانُ فيها كما تشوق الحُمولُ»

لا تحزن. واحمد الله على ما اعطاك وهو كثير. تفكر انك اسعد حالا من «فان قوخ» الذي مات مخبولا، ولوحاته تباع الان بالملايين. و«بودلير» البائس، الذي يطلع اليوم عنه كل عام كتاب، ولم يكن يجد ثمن الطعام والشراب. و«قوقول» الذي خرج من تحت عباءته كل الكتاب. ومن ايضا؟ «اوسكار وايلد» التعيس، الذي خدعته الحياة برهة، فظن الامر لهوا ولعبا، ولما هوى من عليائه، نزح الى باريس، فلم يكن يجد كراء غرفته الفقيرة، وكان يستجدي ثمن عشائه. وما لك تذهب بعيدا؟ انظر الى الجاحظ العبقري الذي تداعت عليه كتبه، وابن المقفع الذي مات قتيلا [illegible] حتى «الاستاذ» الذي لن يجود الزمان بمثله. أكل طعامهم [illegible] باكل سما زعافا.. والتجاني يوسف بشير، شاعر السودان العظيم الذي لم يسموا الى الان شارعا باسمه ولا يعرف الا القليلون اين قبره. وهلم جرا.

لا تبتئس يا ابا زينب، وتمتع بهذه اللحظة العابرة، واذهب الى نزل الـ «اوريننال» حيث كان يحل «الكاتب سمرست موم». هذه المرارة التي خامرتك سحابة صيف، وهي ليست من طبعك. لعلك تعبت من الترحال، وتريد ان تاوي الى جبل. تريد ان تخلد الى مكان تحبه، لا تبرحه، تسمع فيه نداء الاذان في الفجر.. والنيل بعيد.. النيل بعيد. ولعلك ايضا تذكرت، بل انت يقينا تذكرت ام عمرو وابن منك ام عمرو؟

(للحديث بقية)

أكر وراق



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٥

قال الدُليل، بصوت ليس حسناً، ولغة انجليزية ركيكة، ولكنة امريكية تجرح الاذن:ـ

«انتم هنا في عالم الاحلام. في الشرق الساحر. في ارض «تايلاند» الخلابة. هذه البلاد يُطلق عليها «ارض الابتسام». هل تعرفون لماذا؟»

واجابته سائحة امريكية مسنّة، فاكثر السائحات الامريكيات في هذه المجموعة مُسنّات:ـ

«لان الناس هنا سعداء، يبتسمون دائما».

اسرف الدُليل في الضحك، واستجاب السوُاح الامريكان لضحكه، وقد ظل يضحك طوال الرحلة، وفي اغلب الاحيان، دون سبب. قال:ـ

«قري قود».. هذا هو.. انت لست جميلة فقط، ولكنك ذكية ايضا. الناس هنا كلهم سعداء.. «هابي».. «هابي».. دائما يبتسمون. هل انتم سعداء؟».

وإجابته اصوات امريكية، نساء ورجالاً:ـ

«شور».. بالتاكيد، نحن سعداء».

«طبعا انتم سعداء. واضح هذا على وجوهكم.. «اي لف امريكا».. احب امريكا لانها ارض السعادة.. مثل تايلاند.. تايلاند وامريكا بلاد السعادة.. سوف تتمتّعون بهذه الرحلة النهريّة الرائعة. هل تعلمون ما اسم هذا النهر الرائع؟ هذا نهر «شاو فرايا»... يعني نهر الملوك».

انا عادة انساق وراء هذه الاوهام، واستسلم لها تماما في حينها، ثم اصحو منها. صحبت دليلاً اول مرة زرت فيها الاهرامات، كان يخلط التاريخ الفرعوني بالتاريخ اليوناني بالتاريخ الاسلامي، فكانُ الخليفة المامون من الملوك الفراعنة، وكانُ رمسيس من خلفاء بني العبّاس. كان مرحاً مزحاً غير مصطنع، ويتحدث بطريقة ساخرة توحي لك انه يعلم في قرارة نفسه ان الكلام الذي يقوله لك ليس صحيحا. ولعلّه قدُر ان السوُاح، وخاصة الامريكان، لا تهمهم هذه المعلومات على اي حال. كان دليلاً مملوءاً حيوية وجاذبية، يقدّم لك تاريخاً من صنعه هو، ليس موجوداً في كتب التاريخ. ولم لا؟ فالتاريخ في الغالب، رجم بالغيب. اختفى هذا النوع الان، لسوء الحظ. اصبح الاولاد في مصر، خريجي جامعات، ويحسنون اللغات الاجنبية، ويعطونك كمّاً هائلاً من المعلومات، التي سرعان ما تنساها.

لماذا اضيق اذاً بهذا الدُليل التايلندي؟

اعجبني نزل الـ «اورينتال» الذي يقوم على حافة النهر تماماً. وجدته فندقا «كلاسيكيُا» مريحا، كل شيء فيه معمولٌ بذوق، دون ترف ودون بذخ. لا ادري ماذا حدث له الان، ولكنه كان تلك الايام، واحداً من اجمل الفنادق التي عرفتها. لاحظت اول دخولي، انهم اسموا قسماً منه باسم «سمرست موم»، اعطوني غرفة واسعة، حسنة الاثاث دون مغالاة، تطل على النهر. ولم يكن ثمن الاقامة كبيراً، كان ارخص كثيراً من نظرائه في اي بلد آخر. وكما افعل عادة، فقد انضممت في اليوم الاول الى رحلة من الرحلات التي ينظمها الـ «هوتيل» أتعرف فيها على المعالم الرئيسية للمدينة. بهذه الطريقة تكوّن صورة عامّة تضيف اليها بعد ذلك اذا شئت، بالمشي والتسكع على مهل. وفي اليوم الثاني قمت بهذه الرحلة النهرية التي تستغرق اليوم كله.

كان الدليل التايلندي يوجه حديثه بصفة خاصة الى السوُاح الامريكان الذين غلبوا على هذه المجموعة. لا عجب، فهم سادة الدُنيا الان، الرومان الجدد، جيوبهم عامرة بالدولارات وكمراتهم مشرعة كانها مدافع رشاش. يصوُرون كلُ شيء. اذا راوا معبداً او بقرة ترعى، او طفلاً نصف عار، او امراة تعمل في الحقل، او قارباً «سامبان» ينزلق على وجه الماء. ويصوّر بعضهم بعضاً. ماذا يطلبون؟ هل يريدون ان يوقفوا الفلك عن الدوران؟ ويضحكون. انهم سعداء.. «هابي».. «هابي». يبتسمون ويضحكون بالضحك.

هل يرون ما حولهم حقّاً؟ لقد جاءوا يحملون في مخيّلاتهم صوراً لن تتزحزح، عن عوالم ساحرة، صنعتها لهم الدعايات السياحية والروايات الرومنسية وافلام «هوليوود». ينظرون الى حياة الناس كما هي، فلا يرون الاّ هذه الصور الزاهية التي استقرت في اذهانهم. الناس والحياة بالنسبة لهم، مثل تلك الالوان الغائمة في لوحات الرسام الفرنسي «مونيه». و«تايلاند» خاصّة، تستجيب لكل مطالبهم، وترضي كلّ تصوراتهم الموهومة، فقد فعلت «هوليوود» فيها الاعاجيب.

اناس لطيفون، والحق يقال، ليس في طبعهم تكلف، يتعرفون على الناس بسهولة ويتحدّثون بعفوية، ولكن ليس عندهم رغبة حقيقية للمعرفة، وسيان عندهم ان كنت من مصر او الصومال او السنغال. وربّما يكونون معذورين، فبلادهم واسعة وغنية، وقد عملوا فيها بجد، واخرجوا ما فيها من كنوز، واصبحت التكنولوجيا في ايديهم مثل السحر عند قبائل بدائية، كل شيء ممكن، وكل حلم قريب المنال. وانت تستلطفهم وتضيق بهم في الوقت نفسه، كما يحدث لك مع الاطفال.

مرُت سفينتنا على القصر الملكي بقبابه المذهّبة وقد رست اسفله، «الحراقات الملكية» المستطيلة. وقال الدُليل:

«في عام ١٩٨٧ سوف يبلغ ملكنا المحبوب، صاحب الجلالة «بوميبول» الستين من العمر. سوف تقام في بلادنا احتفالات خرافية ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة. هذه القوارب الاسطورية التي ترونها سوف تنطلق فوق النهر مثل اجنحة الملائكة. لا بد ان تعودوا الى «تايلاند» حينئذ لتشهدوا هذا الحدث التاريخي».

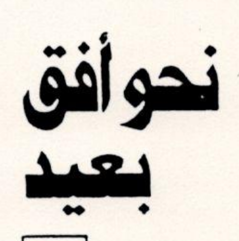
زرت القصر بعد هذه الرحلة، فوجدت معماراً «فكتوريًا» كما في قصر «بكنجهام» في لندن. الا ان السقف علته قباب مذهبة، ذات قمم حادّة تصعد في السماء كما في المعابد البوذية. ذلك ان «تايلاند» حكمها في القرن التاسع عشر ملك على شاكلة بطرس الاكبر في روسيا، ومحمد علي باشا في مصر، استهوته الحضارة الاوروبية واراد ان يجعل «تايلاند» قطعة من اوروبا فعمل هذا الخليط العجيب، وبنى هذا القصر الذي لا هو بالشرقي ولا بالغربي.

(للحديث صلة)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح



نحو أفق بعيد

٥٦

السفينة النهرية ذات الطابقين، تسير على مهل فوق نهر «شاوفرايا»، متجهة بنا الى «ايوتاهايا»، العاصمة القديمة، على بعد سبعين كيلومترا من «بانجكوك». يا له من اسم جميل، «ايوتاهايا». لماذا هجروها وانشأوا عاصمة اخرى بدلا منها؟

ظلت حاضرة الملك اكثر من اربعة قرون، كما اخبرنا الدليل، من عام ١٣٥٠ حتى عام ١٧٦٧. ثم حدث لها ما حدث لارم ذات العماد وسوالِف البلقاء. سوف نرى اطلال القصور وشظايا المعابد، والحصون، وتماثيل بوذا، مقطعة الرؤوس، مكسرة الاذرع والارجل، متناثرة الاشلاء على ساحات المدينة البائدة. سوف يلتقط السوّاح الامريكان صورا كثيرة لهذا الخراب وهم يضحكون. تركع المراة عند قدمي الـ «بوذا»، وياخذ لها زوجها صورة. يقف الرجل على بقايا درج قصر تقوّض، وتاخذ له زوجته صورة. ويبتسمون ويضحكون.

يضحكون لأوهى الاسباب، هؤلاء القوم، لانهم واثقون من انفسهم، ينتمون الى امة قاهرة و«حضارة» غالبة. وفي اعينهم، هذا النهر المربدّ ذو المياه العكرة هو «نهر الملوك»، وهذه البلاد الفقيرة، هي «سيام الاسطورية»، التي لم ينشئها اهلها ولكن انشاتها السينما في «هوليوود». وقد وفدوا اليها في طائرات الـ «بان أم» الجمبو التي صنعتها مصانعهم يحملون الدولار «الخرافي» الذي تقاس به العملات شرقا وغربا. فما لهم لا يضحكون؟

اما انا فما الذي يسعدني؟ ليس معي آلة تصوير، وقومي رعاهم الله، واصطحب شاعرا لا يدعك تهنا باللحظة التي انت فيها، لا يني يوسوس لك بما يعكر صفوك:

صحب النّاس قبلنا ذا الزمانا
وعناهُم من شانه ما عنانا

وتولوا بغصةٍ كلُّهم منه
وانْ سرَّ بعضَهم احيانا.

صدقت يا سيّد الشعراء، وليتك لم تصدُق. فهذا الحُطام والرُّكام خير شاهد على صدق قولك. وهو امر لا يبعث على الضحك، ولكنه يبعث على الاسى. فها انا قد اسيت واستعبرت كما تريد. وهبْك اشعر العالمين من عرب ورُطان، فما فائدة هذا الان؟

هذا، ونحن لم نزل بعدُ في اول الطريق، لم نبلغ العاصمة الدّارسة «ايوتاهايا»، يا له من اسم جميل له نغم سلس، بخلاف «بانجكوك» الذي كانّه هولندي. و«سيام» اجمل من «تايلاند». ما الذي حدث فغيروا اسم البلد ونقلوا العاصمة؟ وعزمت ان اقرا في تاريخ هذه البلاد، حين اعود. ومرّت السنوات منذ عام ثمانين وانا ما ازال اجهل لماذا انتقلوا من «سيام» الى «تايلاند»، ومن «ايوتاهايا» الى «بانجكوك».

الا انني في تلك الرحلة، فهمت شيئا، ان لم اكن فهمت غيره لكان ذلك حسبي.

اخبرنا الدليل، وهو يضحك كعادته ان «تايلاند» تقع في منتصف المسافة بين الهند والصين، وان مساحتها تقرب من مساحة فرنسا، وانها عرفت اقدم حضارة على وجه الارض. عجبت لذلك، فقد كنت اظن السومريين وقدماء المصريين، هم روّاد الحضارة، وان السومريين سبقوا قدماء المصريين بقليل. لا باس. فليكن التايلنديون اول من اقام حضارة على الارض. ولعل ضيقي بالدليل خفّ حينئذ، فقد اخذ يصنع التاريخ على هواه، كما فعل الدليل المصري. وربما بدأ يسخر من عقول السوّاح الامريكان الذين اوسعهم ملقاً اول الامر.

اما انها بين الصين والهند، فقد تاكد لي خلال اقامتي ان «تايلاند» لا تشبه الصين ولا الهند، بمعنى لم يقصده الدليل. ذلك انني لم اجد فيهم حيوية الصينيين ولا سكينة الهنود. فيهم شيء اخر ذكرني بناس اعرفهم ظللت اجهد ذهني لاتذكر من هم طوال اقامتي في «بانجكوك».

زرت معابد كثيرة في هذه الرحلة النهرية وخلال تجوالي - في مدينة «بانجكوك». في كل معبد، بوذا. البوذا الضخم الراقد على جنبه، وبوذا الزبرجد، وبوذا الذهبي. اختلطت المعابد في ذاكرتي فكانها معبد واحد لكنني اذكر بوضوح بوذا عملاقاً يجلس القرفصاء في معبد ما. بوذا عظيم الثديين، عظيم الكفلين، عظيم الكرش، بين الانثى والذكر، وجهه مليح يحمل تعبيرا بين الرضى والغضب، بين الحزن والابتسام. كان الوثن مثل ناقة غبْلة يَزْحَمُ جنبات المعبد، ويسدّ نوافذ الخيال، في غيْم كثيف من دخان البخور والنّد، وحوله عُبّاد يقرعون اجراساً صغيرة لها رنين ناعم، يختلط بعضه ببعض مثل ضحكات الاطفال، وهم يزمجرون بالدعاء، ويلقون للصنم بقصاصات اوراق، فيها ولا شك، رجاءاتهم وتوسّلاتهم.

هنالك، يا سبحان الله، طاف بي خاطر حنيفيّ كريم. اتّضح لي فجاة امر كان يجب عليّ ان افهمه من زمن. تخيلت الصنم العملاق وقد اُقصي عن المعبد، وسكتت الزُمزمات وصمتت الاجراس. اصبح المكان فضاء مفتوحاً على الافق اللامتناهي، فهو جزء منه وهو امتداد له. اصبح مسجدا. زالت الحُجب بين خيال العابد في مكان عبادته والافاق الممتدة داخل نفسه وخارجها. لا يوجد وثن يحصر اقطار العقل. لا ثمّة الا المطلق، الاله الواحد الاحد الذي ليس كمثله شيء ولا يحدّه زمان ولا مكان.. الله جل جلاله اله المسلمين والعالمين ●

(الحديث بقية)

5459

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٧

قفا بي يا صاحبيّ قليلا على مغاني «تايلاند» الساحرة، ارض «سيام»، «الاسطورية»، بلاد السعادة والابتسام.

فلنحتف بهذا اليوم المشرق القصير على ظهر هذه السفينة، فانه «رهين بأيام الشهور الاطاول».

لا بد ان هذه البلاد كانت في يوم من الايام فردوساً من هذه الفراديس الضائعة. ولا باس ان مثل هذه الاوصاف لا يبتدعها اهل البلد انفسهم، ولكن يسبغها عليهم عادة الغرباء، وليس اكثر غرابة من الاوروبيين.

خرجوا من ديارهم الجليدية كمن يخرج من كهف، وتدفقوا مثل سحائب من الجراد على اقوام بسطاء في آفاق بعيدة. اخذوا يسمون الاسماء بلا هوادة، ويعلّقون الالقاب جزافاً. حدّثوا ان لاسبان حين وصلوا الى حيث تقوم مدينة «مانيلا» الان، مانيلا عاصمة الفلبين، وكانت ارضا عراء مستنقعاً، وجدوا رجالا يذودون عنهم حشرة قارصة ويحكّون اجسادهم ويصرخون «مانيًا مانيًا»، اشارة الى الحشرة. فسالوهم بالاسبانية، التي لم يكونوا قد تعلموها بعد، ما اسم ذلك المكان، فقالوا «مانيًا مانيًا». فظن الاسبان ان المكان يسمّى «مانيلا». والعجيب ان اهل البلد قبلوا التسمية، فاصبحت عاصمتهم تحمل اسماً لا يعني شيئا.

مثل هذا حدث في السودان وجد الانجليز عندنا بلدة عامرة على مفترق طرق، تسمّى «اتْبَرا»، لانها قامت على نهر «اتبرا» الذي يسميه الناس «الاتبراوي». وهو نهر كبير يرفد النيل بعد ان يفارق الخرطوم، مشهورٌ ومذكور في آثارنا واشعارنا. وقد قال الحَرْدَلُو في معرض الفخر:

«شيخُ الاتبراوي وماشي فيهُ كلامي».

وقد ذكر اولو العلم ان الاسم مشتق من «اتابُوراس»، اي النهر الذي يجيء من ارض الظلام.

جلب الانجليز معهم مترجمين، ظنوا اننا قوم اعاجم غُلْف الالسنة، نجعل العين الفاً والطاء تاء كما في «عُطْبُل»، فقالوا لا بدّ انها «عُطبرة».

فاخذنا نقول «عطبرة عطبرة» الى يومنا هذا، كما قال الفلبينيون من قبلنا مانيلا.. مانيلا.

ماذا تسمّي هذا يا رعاك الله؟ اظنه يدخل في باب الغزو الحضاري وطمس الهُويّة ومحو الذاتية.

لكن لا باس، لعلّ هذه البلاد كانت حقيقة في زمن غابر فردوساً من هذه الفراديس الضائعة. حتماً على كل امة في ما يبدو، ان تضيّع فردوساً لتبكي عليه، فكانها جِبِلّةٌ جَبَلَ الله الانسان عليها.

اذاك انت يا صاحبي؟ اما تزال توسوس لي تريد ان تُفسد عليّ هذا اليوم القصير الاجل؟ صدقت، كما تصدق كل مرة، ولكن ماذا يجدي هذا الان؟

هذه بلاد واسعة، مساحتها اكثر من نصف مليون كيلومتر مربع، فيها الجبال والشلالات والغابات والسهول الخصبة والشواطىء الرمليّة الممتدة. وسواء قامت فيها اول حضارة على وجه الارض، كما زعم الدليل ام لم تقم، فثمة ادلة كثيرة تؤكد انها انتجت حضارة لا يُستهان بها. ترى ذلك في المعابد المُجمّحة، بمعمارها العجيب، وابراجها العالية، بعضها يعلو في شكل مُكدّس يضيق تدريجيًا مثل بعض الاشجار الاستوائية. هذا بالتاكيد معمار اكثر طرافة وجاذبية من المعمار الاوروبي القوطي كما في كاتدرائية «نوتردام» في باريس. معبد «وات ارون» - معبد الفجر - في بانجكوك بناء مدهش حقًا. ومعبد «وات فرا» ذو القبة المذهّبة حيث يسكن «بوذا الزمرّد». والحصون والقصور التي شيّدها الملوك المتعاقبون من آل «شاكري»، ومن سبقهم. كذلك تجد آثار هذه الحضارة في الفنون والصناعات القديمة وازياء النساء.

هذا كله يحتويه ثوب بوذي واسع فضفاض. فالبوذية اصلاً كذلك. وهي ديانة تسعين بالمائة من اهل «تايلاند»، وقد وصلتهم في القرن الثالث قبل الميلاد، بواسطة مبشرين ارسلهم الامبراطور «اسوك» الهندي وليس صدفة ان «تايلاند» التي تتجاذبها المؤثرات الصينية والمؤثرات الهندية، اختارت البوذية، مؤثرة اياها على كنفوشية الصين وهندوكية الهند. والمسلمون يأتون في المرتبة الثانية بعد البوذيين، ويغلبون في الجزء الجنوبي من القطر. كذلك توجد اقليات من المسيحيين والسيخ والهندوس.

عنصر الـ «تاي»، الغالب، جاءوا على الارجح من الصين، وجلبوا معهم الانماط الصينية في الادارة والحكم. وقد مزجوا هذا بشرائع «مانو» الهندوكية، وغلّفوه بغلاف رقيق من الاساليب الاوروبية، فحصل لهم النظام الذي هم عليه الان. وكما يحدث دائما، اختلطت السلالات والاعراق.

امتزج الـ «تاي» بمئات الالاف من الاسرى الذين جازوهم في حروبهم الطويلة مع جارتهم «بورما». ووفد عليهم الناس من الهند وفارس والصين. وجاءتهم اعداد قليلة من العرب. وكما يحدث في كل الدنيا، تفرّع الناس قبائل. فاذا كان عندنا كنانة وطيء وتميم وبنو اسد وبنو كلب وبنو مُرّة ومن لفّ لفهم، فعندهم الـ «مُن» والـ «لاوا» والـ «كارِن» والـ «تشاونام».■

(الحديث بقية)

ابوكم ادمُ سنّ المعاصي وعلّمكم مفارقة الجنان.





بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد



بلى. المدن مثل البشر، لها ظاهر وباطن، تُخفي عنك وجهاً وتلقاك بوجه. الا ان هذه المدينة، كانها بلا اسرار، وكانٌ ظاهرها هو باطنها.

السائق الذي استقبلني في المطار، اذ ان الهوتيلات في «بانجكوك» ترسل لك سيارة تستقبلك في المطار، لم يمهلني طويلا. لم تكد السيارة تتحرك، حتى التفت اليّ وعلى وجهه ابتسامة بريئة، نعم بريئة براءة حقيقية، وسالني:

«ما هي رغبات سعادتك؟ ما هو الصنف الذي تفضله؟ قل لي بصراحة. كل شيء متوفر».

كانت اجراءات المطار قد تمُت بسهولة، فالسياحة عندهم مصدر رئيسي من مصادر الدخل، والكتب السياحيُة تقول لك ان في مدينة «بانجكوك» ما يرضي كل «الاذواق». حتى الفيزا، تحصل عليها دون مشقة في المطار.

لم اضيُع وقتاً في سؤاله عن قصده، فقد فهمت قصده. قلت له:

«انا متعب الان، بعد ان استجم سوف اخبرك بـ «رغباتي». كان الفصل صيفا، وهذا مناخ استوائي. والمكان كانه.. كانه.. بماذا يذكرُني هذا المكان؟ والطائرة، هذه الرُكوبة المجنونة، تنقلك في لمح البصر من مناخ الى مناخ، ولا تترك فرصة لخيالك كي يلحق بك.

نثرت اشيائي في الغرفة فصارت اقل وحشة، غرفة غريبة في بلد غريب، في افق بعيد.

نظرت من النافذة الى النهر، الذي اصبح منذ الغد «نهر الملوك». انه الان قبيل الغروب، نهر عادي، وهذا يكفيني. تستطيع ان تتخيل لوهلة انك في القاهرة او الخرطوم. الناس على الجسور، والسيارات تروح وتجيء، وهذا النهر كسائر الانهار، يعطي المدينة وزنها وطابعها، ويحدد ابعادها، فكانه مغناطيس يجذب اليه الحياة على الضفتين.

لانني نشات على ضفة نهر، فانني اعتاد اسرع، على المدن التي تقوم على ضفاف انهار. اول ما قدمت مدينة الدوحة، قضيت زمناً وانا احس ان المدينة كانها بلا مركز ثقل وكانها معلُقة في الهواء. ثم ادركت ان سبب هذا الاحساس ان المدينة لا تقوم على ضفة نهر وليس فيها سكك حديدية فلا تسمع ذلك الصوت المثير، صوت قعقعة القطارات اواخر الليل. طبعاً الفتها بعد ذلك واحببتها كما هي.

كنت قد تمهُلت وانا اتعرف على سكني الجديد الذي سوف يُؤويني بضع ليال ثم ارحل عنه، وقد لا اعود اليه ابدا. ونسيت امر السائق الذي اوصلني من المطار، ولم يخطر لي انه سوف ياخذ مزاحي ماخذ الجد، لذلك دهشت حين وجدته ينتظر عند باب النزل. اسرع نحوي:

«ها؟ هل ارتحت الان؟».

قلت له:

«لسُع. ما ازال متعباً».

«غدا اذا؟»

«نعم، غداً».

تسكُعت قليلاً غير بعيد من الـ ـهوتيل. اعلانات «مقاصر التدليك»، وصور النساء، شبه عار ات، تحاصرك من كل جانب. وسط المدينة، مثل كثير من مدن العالم، ليس فيه شيء يميُزه، وهذه البضاعة المعروضة في السوق، تزيد المكان قبحاً على قبح. وقد اتضح لي فيما بعد، ان مصيبة هذه المدينة انها قطعت الوشائج بين ماضيها وحاضرها. وهي مدينة ليست وليدة اليوم، فقد انشئت منذ اكثر من مائتي عام. الماضي تجده في المتاحف والمعابد والابنية القديمة، وهنا هذه الحياة «الحديثة» بكل افاتها منفصلة لا تمت الى ذلك الماضي بصلة. الامر ليس سهلا، ونحن ايضا. انظر الى القاهرة المحروسة. في الوسط. تلك العمارات التي تُعد تحفاً في فن المعمار، انظر الى منظرها الكئيب وهيئتها الرثة، والى الخراب الذي حاق بالمدينة على ايدي المقاولين والتجار، رحم الله حسن فتحي الذي كان يصرخ في البريُة. والخرطوم اتعس حالا. تلك المدينة التي تقوم في موقع من اجمل مواقع المدن في العالم، اي بشاعة حاقت بها، من سوء التخطيط وقلة الذوق! هل نحن حقا فقراء الى هذا الحد؟

وقفت سيارة امريكية فارهة، فيها امراتان. التي تجلس وراء عجلة القيادة كانها خليط من دم صـ ـي ودم امريكي. انثى لا مراء في ذلك، ولكن شعرها قصـ ـير جدًا «الا جارسون» كانها غلام. قالت:

«هل تحب ان تمضي وقتا طيُباً؟».

يا له من سؤال! ومن الذي لا يحب ان يقضي وقتا طيُباً في هذه الحياة الدنيا؟ ولكن ما ابعد هذا الذي يدعونني اليه من الوقت الطيب! اليس كذلك يا اخا كنْده؟ مالك اخْلدتَ الى الصمت؟ الم تقل شعرا يصلح لهذا المقام؟

لا عليك، فانا اعلم انك تسمو عن هذا، وترباً بنفسك عن مثل هذه القاذورات. ولا تثريب عليك انك جز ـتَ وراء خيالك ابعد قليلا مما يجوز، حين قلت:

غُدْ واعذها فحبُذا تلفٌ

الصقٌ صدري بـ (...) النُاهد.

قلتُ للمراة مازحا:

«هل انت بنت ام ولد؟».

لم اتوقع ما حدث، وانتابني ما هو اكثر من الدهشة، اذ ان المراة كشفت فجاة بحركة غاضبة عن صدر عار، صدر انثى لا مراء في ذلك، واغلقت بـ ـاب السيارة بُعنف، وانطلقت لا تلوي على شيء.

اضحكني ذلك، ولا ادري ماذا كان يجب عليّ ان افعل، فانا بعدُ كاتب، وهذه التجارب على غرابتها حصادٌ يُجمع ويُخزن الى حين.

وجدت السائق عند باب الهوتيل، ضحك كانه كان شاهداً على ما حدث، ضحك ضحكة بريئة بحق. البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها، ولا بدُ لها من عزيمة تحميها. قال:

«غداً اذاً؟».

قلت له:

«نعم، غداً».■

(للحديث بـ

نحو أفق بعيد

٥٩

بقلم الطيب صالح



في اليوم الثالث قال لي السائق، ليس بغضب، ولكن كمن يعتب عليّ انني اضيع على نفسي فرصة ثمينة:

«ما هي حكايتك؟ انت دائما تعبان.. تعبان؟ لك ثلاثة ايام. الم تستجم بعد؟» قلت له ضاحكاً:-

«تريد الصراحة؟ ليس لي رغبة فيما تعرضه علي. ولكن تعال استضيفك على شراب».

جلسنا في مقهى النزل، وكنت قد اشفقت عليه، واحسست ببعض الذنب انني ضللته. مسكين. لا بد ان له زوجة واطفالاً، ويعول والديه المسنين. واضح من وجهه الوديع انه بار بابويه، رؤوف بابنائه. ليس من «بانجكوك» على الارجح، فاغلب سكان المدن في عالم الفقراء، العالم (لماذا؟ الثالث؟) نزحوا اليها من الريف. كانه من «كوستي» او «الجلد» او.. «جوبا».. نعم، هذا هو. هذه المدينة الاستوائية تذكرني بـ «جوبا» وهؤلاء الناس يذكرونني باهل جنوب السودان، دغك عن اختلاف الالوان. هل كان عندهم في سالف العصر والاوان فردوس ثم اضاعوه؟ اذاً لماذا لا يبكون عليه كما نبكي نحن على فراديسنا الضائعة؟

راوا الشوارع والزحام والعمارات الزجاجية والمحلات التجارية الموسقة باصناف السلع المستوردة. خالوا السراب ماء. صدقوا الوعود وظنوا ذلك الجحيم هو الفردوس الموعود. تركوا زراعاتهم وصناعاتهم وجاءوا يسعون وراء الحلم المستحيل.

مسكين. لا بد انه ايضا امي، او شبه امي، يخوض غمار الحياة بلا سلاح. قال وهو يمتص شراب الكوكاكولا المستورد من مصاصة البلاستيك، وقد اشرق وجهه فجاة:-

«على اي حال انا سعيد جدًا اليوم. حالفني الحظ فظفرت بزبونين ثريين. دبرت لهما شيئا ممتازا.. هاي كلاس.. ليس من النوع المبتذل الذي تجده في شوارع «بانجكوك» ومحلات التدليك.. حاجة هاي كلاس بحق. لذلك اجزلاني العطاء».

«كم اعطياك؟».

«خمسين دولاراً».

«هذا مبلغ كبير؟».

«مبلغ كبير؟ هذا اكثر مما اكسبه من الشركة في اسبوع كامل».

«السيارة ليست ملكك؟».

«طبعاً السيارة ليست ملكي؟ كل التاكسيات في «بانجكوك» تملكها شركات».

لا عجب انه مخبور لا يزعجه اي احساس بالاثم. وجهه منبسط وضميره مرتاح.

كان معدل الدخل في «تايلاند» تلك الايام اقل من مائتي دولار في العام، لكل رجل وامراة وطفل وشيخ. يوفر هذا المسكين منها نفقة السكن والطعام والشراب والعلاج والتعليم، ويدخر شيئا يصد به غوائل الزمان ونوائب الحدثان.

لا عجب. مجرد وسيط. كانه يساعدك على تاجير بيت او شراء تذكرة سفر بالطائرة. وياخذ «عمولة».

البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها ولا بد لها من قوة تحميها.

اه! والسودان؟ معدل الدخل في السودان الى الآن، لا يزيد عن اربعمائة دولار على احسن الفروض. من هذه الحصيلة الضئيلة يبدد المبددون وينهب الناهبون، وتجيش الجيوش وتشن الحروب. الفقر فضيحة.

نساء «سو دري» و«حفرة الشيخ» و«حفرة الوز» وام باد، بعد قرون من حياة مصونة وحمى امن، كن مثل البيض المكنون في اوكار النسور، جار عليهن الزمان، واجلاهن القحط وغباء الحكام عن ديارهن، فجئن يتسولن في شوارع الخرطوم. الله يستر عليهن مما هو اسوا. في اثناء ذلك تشتعل الثورات وتخمد، وتقوم العهود وتسقط.

الليله والليلة	ام بادر يا خليلة
زولا سرب سربة	خلى الجبال غربة
ادوني لي شربة	خلوني الاقض دربة

الفقر مصيبة. والثراء ايضا مصيبة. وإذا اجتمعت المصيبتان فتلكم الطامة الكبرى.

هذه المدينة افسدها الامريكان، كما افسدوا «مانيلا» عاصمة الفلبين. كانت مرتعاً لجنودهم يستريحون فيه من عذابات المعارك، في المحيط الهادي وفي شرق اسيا، خلال الحرب العالمية الثانية ثم في حرب فيتنام. اناخوا عليها بكلكلهم، كما يفعل الجنود، واراقوا عليها دولاراتهم، وجدوا قوماً بسطاء ضعفاء لا يعصمهم عاصم، فعاثوا في المدينة كما شاءوا، وتركوها كما ترى.

***

البراءة وحدها لا تكفي. مثل نبات الوشمي او نار العشب اليابس.. او كما قال الشاعر السوداني -

الحن ناز عويش ان علقوها تعيش

بس ما انت جاهل وان جفيت معنيش

قلت للسائق التايلندي، وهو يجلس قبالتي في مقهى نزل الـ «اورينتال» الذي كان يلم به الكاتب المليونير «سمرست موم»: -

«وهذه الدولارات العشر مني انا ايضا، لانني ضللتك».

فرح بها ايما فرح. ولعله يسد بها ثغرة في حياته.. ثوب يشتريه لابنته او لابنه. كان سعيداً مرتاح الضمير، لا يعذبه ادنى شعور بالاثم.

وانا ايضا شعرت ببعض الراحة. غفر الله لي، فانني لا اعلم ان كانت تلك حسنة اثاب عليها ولكن الاعمال بالنيات، كما جاء في الاثر، اليس كذلك يا رعاك الله؟

الحن، تعني العطف، وهنا تعني الحب.

عويش، اي العشب الجاف وسيقان القصب وما شابه. وناره سرعان ما تنطفىء.

علق النار، اي اشعلها■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح



نحو أفق بعيد

٦٠

لفت نظري في تلك المجموعة من السياح الامريكيين، رجل متوسط القامة. حسن الوجه. راسه مكسوُ بشعر ابيض كثيف كان مختلفاً عن بقية الامريكيين لا يحمل الة تصوير ولا يضجُ بالضحك لاوهى سبب كالاخرين ولكن يبتسم من حين لاخر ابتسامة رصينة وكان واضحاً انه يسافر وحده. لا ينتمي الى اي مجموعة منهم

«هاي».

«هلو».

كنا نتجول في اطلال مدينة «ايوتاهايا» الدارسة. ثم وقفنا ننظر الى تماثيل زعم الباعة التايلنديون انها تماثيل اثريّة

قال وهو يقلّب تمثالاً نحاسيا صغيراً لفرس مجنّح

«كل هذا لا قيمة له. يدفنونها في الارض حتى تصدأ. ويبيعونها لهؤلاء السوّاح الامريكيين الاغبياء على انها تحف اثرية. انهم مهووسون بكل ما هو قديم.. وعندهم المال.. يشترون اي شيء».

«ولكن.. الست امريكيا؟».

«بلى. من بوسطن. وانت؟».

«من السودان».

لم اتوقع ان يكون سمع بالسودان. مثل اغلب الامريكيين الذين لا يميزون بين السودان وزائير وتنزانيا

«اه. ذاك بلد يستحق ان يُزار. يبدو بلداً ذا تاريخ حافل انه بلد واسع. اليس كذلك؟».

«مليون ميل مربع».

«مليون ميل.. تصور».

«اكبر بلد في افريقيا».

«عاصمته الخرطوم. اليس كذلك؟ عند ملتقى النيلين الابيض والازرق. لا بد انه منظر ساحر».

«من اجمل ما يرى الانسان».

«لا بد انها مدينة جميلة. ما اسم المدينة الاخرى؟ التي حدثت فيها المعركة الشهيرة... التي هزم فيها الانجليز جيش المهدي؟».

«أم دُرمان».

«نعم. معركة ام درمان... كانت معركة غير متكافئة».

«كانت مع الانجليز اسلحة حديثة. ومع ذلك لم يكن النصر سهلا».

«اعرف. لقد اظهر جيش المهدي بسالة نادرة».

عجبت من هذا الامريكي الذي ليس كالامريكيين كما تخيلت قلت له

«الامريكان عادة ليس عندهم اهتمام ببقية العالم. ما هو سر اهتمامك بالسودان؟».

قال ضاحكا

«صدقت. نحن في الغالب مشغولون بانفسنا. كانه لا يوجد احد غيرنا على وجه الارض. الاقوياء دائما هكذا.. ومع ذلك لا تعدمُ امريكيين لا ينقصهم حب المعرفة».

«الواقع انني قرات بمحض الصدفة كتابين اثارا اهتمامي بالسودان. فاخذت اقرا كل ما يصادفني عنه.. كتابين مدهشين بحق لكاتب استرالي».

«الن موزهد.. النيل الابيض والنيل الازرق».

«نعم. ذلك هو.. هل قراتهما؟».

«نعم».

«يا له من كاتب! يشد انتباهك كانك تقرا رواية بوليسية».

«له كتاب اخر لا يقل روعة.. عنوانه «اللقاء المدمّر» هل قراته؟».

«ابدا. عمّ يتحدث؟».

«كيف ان الاوروبيين والامريكيين بصفة خاصة ذهبوا الى مجتمعات بدائية كانت تعيش مطمئنة على الفطرة في المحيط الهادي.. جلبوا اليها افات «الحضارة الغربية» ومنها الامراض الجنسية مثل مرض الزُهري.. مزقوا نسيجها الاجتماعي ودمّروها تدميراً».

قال بحزن

«نعم. هكذا نحن. بلاء.. نحن برابرة هذا العصر.. حيثما نحلُ نترك وراءنا اثار الدمار والخراب.. بحسن نيّة طبعا.. وهذا الْعن».

زاد عجبي من هذا الامريكي. الذي حيّر كل تصوراتي عن الامريكيين. نحن على ظهر السفينة الان. عائدون الى «بانجكوك». السياح الامريكان حولنا يضحكون ويلغطون وياخذون الصور. والدليل التايلندي الذي رفع الكلفة مع بعضهم فيما يبدو. يمازحهم ويناديهم باسمائهم

قلت له ونحن متكئان على حاجز السفينة ننظر الى مياه النهر

«اتمنّى ان تتمكن من زيارة السودان».

«لا اظن. يا للاسف».

«ولم؟».

«ليس عندي وقت».

«لماذا؟».

«انا في السادسة والسبعين على اي حال.. لم يبق الاّ القليل من العمر».

قلت له

«انت تبدو في صحة ممتازة.. من يدري؟ لعلك تعيش الى التسعين او المائة».

قال ضاحكاً

«يا ليت. ولكنَّ الاطباء لا يظنون ذلك. اعطوني عاما واحدا فقط».

قبل ان اجد الكلمات المناسبة. قال

«اكتشفوا انني مصاب بنوع غريب من انواع الـ ..ان. لا يعرفون له دواء. قالوا انني لن اعيش اكثر من عام واحد. على اقصى حد. قلت فليكن. اذا كان الامر كذلك. فلأذهب لملاقاة الموت في منتصف الطريق. بدلاً من ان اجلس وانتظر. قررت ان اقوم برحلة تستغرق عاما كاملا ازور فيها كل البلاد التي حلمت بزيارتها واقرا الكتب التي لم اجد الوقت لقراءتها.. ان ابدا حياة جديدة. اذا صح القول».

ضحك دون مرارة. ثم صمت. وانا ايضا. فماذا اقول؟

«لحسن الحظ عندي من المال ما يكفي. في واقع الامر عندي من المال اكثر بكثير مما يلزم اي انسان في الحياة. طول حياتي وانا مشغول بجمع المال.. نشات نشاة فقيرة.. فقيرة جدا.. اصبح هدفي في الحياة ان اصير غنياً. المال لعنة. تقول اصل نصـ.. مليون والف.. ثم تقول لا باس خلّيه مليوناً وكفى.. ثم مليون .مليون وهكذا.. الى ان يتدخل القدر ويضع حدًا للسباق رغماً عنك».

نظرت اليه الان نظرة جديدة. فبدا لي وهو يتكىء على الحاجز الخشبي يحدق في ماء النهر. انساناً مختلفاً. انساناً غير عادي. يسير بخطى ثابتة نحو النهاية الحتمية. ولكنها نهاية ماسلوبة على اي حال. فيه شيء.. كيف اقول؟ بطولي. قال

«لسوء الحظ نحن نضيّع جزءاً كبيراً من الحياة في اشياء تافهة. مثل جمع المال. تعرف انني الان ارى الدنيا بعيون جديدة. كانني ارى الاشياء لاول مرة.. كل شيء له وقع اخر.. مذاق اخر. لعل هذا العام الذي بقي لي هو اهم عام في حياتي. بل لعلّه العام الوحيد في حياتي. انا الان. ولاول مرة في حياتي. حرُ من كل القيو.. رتبت اموري وصفّيت شركاتي. احمل وصيّتي معي. اقول ..ـا ان يدفنوني حيث اموت. اذا مت في عرض البحر ان يلقوا بجثماني في البحر...».

تودعنا في «بانجكوك». وكنت اظنه اخر لقاء. ولكن كانما الحياة ارادت ان تؤكد لي شيئا. او تعزّيني عن شيء اضعته

ذهبت الى «سيدني». حيث وجدت «منسي» في انتظاري. ثم سافرت وحدي الى «طوكيو». اقمت في فندق الـ «نيو اوتاني» الضخم. كانك في سوق عامر. من كثرة الناس والزحام. الانسان الذي تراه. لا تراه بعد ذلك ابداً. ورغم ذلك بينما انا اسير في الممر الطويل الذي يؤدي الى الاستقبال. اذا انا فجاة بصاحبي الامريكي. سمعت صوته ينادي وسط الزُحام

«هيْ.. هيْ...»

«هلو.. اهلا.. اهلا. يا لها من صدفة عجيبة ان ..ـى مرة اخرى».

«صدفة عجيبة حقاً. لا اكاد اصدّق».

«كيف حالك؟».

«عظيم».

«والصحة؟».

«ممتازة.. انني ابداً لم اشعر بالصحة كما اشعر الان. يبدو ان الموت قد نسيني».

«اما قلت لك انك قد تعيش الى التسعين او المائة؟».

«لا اظن. سوف اقابل الموت حتما في هذه الرحلة. ولكنني مستعد له. يا للخسارة! انا الان في طريقي الى المطار. اديو ..اعاً».

«اديو.. مع السلامة».■

نحو أفق بعيد

بقلم الطيب صالح

٦١

قال المسؤول الكبير في وزارة الخارجية الاسترالية «اسمع كوننا نبيع القمح والزبد واللحوم للعرب هذا لا يحتم علينا ان نؤيد مواقفهم السياسية الا تعلم بان استراليا تسمى «البلد المحظوظ»؟ عندنا كل شيء البترول والزراعة والصناعة بلادنا شاسعة. قارة كاملة هذه بلاد مملوءة بالخيرات نحن لا نحتاج للعرب في اي شيء».

اغاظني الرجل ولكنّ صراحته اعجبتني. كنت قد قضيت معه نحوا من ساعة احاوره واداوره. ولاحظت انه لم يقدم لي قهوة او شايا. علماً بانني جئت الى موعده في التاسعة صباحاً قلت له «الا تقدّمون شيئا لضيوفكم؟ هذا وقت شرب القهوة اليس كذلك؟ نحن في بلادنا نقدم القهوة والشاي لضيوفنا».

-قال وهو يضغط على الجرس

«اه. انا اسف. انا شخصيا لا اخذ هذه المكيّفات. تضر القلب وهذه الحكومة قد فرضت علينا سياسة التقشف. يقولون ان احوالنا الاقتصادية ليست كما يجب».

اسعدني التناقض الذي اوقعته فيه. البلد المليء بالخيرات، يعاني من ضائقة اقتصادية، ويفرض سياسة تقشف! وابتسمت له كما قال «الاستاذ».

ولمّا صارودُ الناس خبًا

جزيتُ على ابتسام بابتسام

كنت وحدي في «كانبرا». تلك المدينة الجميلة ذات الباحات الواسعة والميادين المعشبة التي خططوها لتكون عاصمة ادارية. افترقنا. «منسي» وانا في مطار «سدني». هو صوب لندن، وانا صوب «كانبرا».

لم يستطع ان يجد وسيلة ليسافر معي الى «طوكيو». كانت تلك اول مرة اراه عاجزا امام هدف يريد تحقيقه. قالوا له ان الوسيلة الوحيدة هي ان يسافر اما عن طريق «موسكو» او يعود الى لندن ويسافر من هناك الى «طوكيو». وحاول ان يقنعني ان نسافر معا عن طريق «موسكو». كدت اقبل. فذاك عالم لا اعرف عنه الا ما قراته في الكتب والصحف. يا ليت. ولي عند الروس حقوق من ترجمة كتبي. يمكن ان نعيش بها زمنا رغدا وننفقها عندهم بالرّوبل. حتى الروس ياكلون مال اليتامى؟

نعم. يا ليت. فنحن نعرف الكثير عن «الغرب». انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا وامريكا. هذا هو العالم في نظرنا. نتعلم لغاته. ونعرف تاريخه. وابدا نحن غادون رائحون اليه. نهيم به حبًا ولا ناخذ منه بميزان هذا الحب. كيف قلت يا طيّب الله ثراك؟

ان كان يجمعنا حبٌ لغرّته

فليت انّا بقدر الحب نقتسمُ

اجل. نعشقه وننفر منه. اما الاتحاد السوفييتي والصين والهند واليابان وامريكا اللاتينية. فهي بلاد لا وزن لها في حسابنا. حتى اخواننا الذين شاركونا في صنع حضارتنا.. حتى الافارقة. جيراننا وذوو رحمنا.. يا ليتني. ولكن ليس عندي وقت. وامامي عمل لا بدّ من انجازه.

لو انني بذلت اقل جهد. لغيّر «منسي» مساره ليلحق بي في «طوكيو». لكنني بعد نحو عشرة ايام. كنت قد ضقت بصحبته. وتقت الى مصاحبة نفسي. لذلك ثبّطت عزيمته بشتى الطرق شجعته ان يذهب الى «باريس».

«والله فكرة. انا لي زمن ما شفتش «باربرا بربي».. باريس حتكون حلوة جدا الايام دي.. بس يا خسارة انت مش حتكون ويّانا».

معليش.. انضم اليكم بعد عودتي من «طوكيو».

«دي اول مرة تحصل لي الحكاية دي. قال ايه. اني تجاوزت الاميال المسموحة لي كشركة سياحة والكلام الفارغ دا.. قلت لهم يا اولاد الايه.. ما هي طوكيو اقرب من هنا مما ارجع للندن.. انما تعمل ايه؟ قوانين معقدة وناس ما تعرفش تتصرف».

«خلاص يا اخي. مش انت زرت «طوكيو» قبل كده؟».

«وانا زرتها يجي اكثر من عشر مرات.. انا اعرف اليابان شبر شبر. انت تعرف اني اتقن اللغة اليابانية؟».

«يا راجل حرام عليك! انت تعرف لغة يابانية؟».

«انت مش مصدق؟ انت ناسي ان عندي مدرسة لتعليم اللغات في واشنطن؟ باحدث الطرق الـ «اوديو فرْيول»؟ وانا حتى ترجمت قصة لـ «مشيما» الى اللغة الانجليزية؟ انـ ـمعا ما سمعتش بـ «مشيما»..

«لا يا سيدي، سمعت. بس انك تترجم قصة من اليابانية الى الانجليزية. دا افتراء صحيح. ونشرتها فين؟».

ضحك ضحكة. تعني ان هذا الكلام قد يكون صدقا وقد يكون كذبا. وعليّ ان اقبله على علاته ثم قال

«حتحتاج لي بصحيح في اليابان. كنت حتستفيد مني قوي في مهمتك».

«لا شك في ذلك. ولكن معليش امري لله. احاول اقوم بالمهمة وحدي. اعمل الّي اقدر عليه. طبعا سوف افتقد قدراتك المتعددة.. وعبقريتك».

«انت بتضحك؟ ما هو انا فعلاً عبقري.. ليه انتو مش عاوزين تعترفوا بالحقيقة دي؟».

«شوف يا ابني. انت فعلاً نموذج فريد من البشـ. انسان نسيج وحده. لن يتكرر.. اما انك عبقري فالله اعلم».

«اولا يا استاذ اتعلم ازاي تتكلم عربي. عامل انك كاتب وشغل «الحلنْة». دا. وانت ما تعرفش قواعد اللغة العربية. هي مش «وحده» بالكسر ولكن «وحده» بالفتح».

«ليه؟».

«لانها ممنوعة من الصرف».

«يا ابني دي مضاف ومضاف اليه».

«انت مش فاهم حاجة. انت نسيت ان عندي «بكالوريوس» في اللغة العربية من جامعة لندن؟».

ضحكت فقد كنت اعلم كيف حصل على تلك الشهادة. كنت اساعده في اللغة العربية والتاريخ العربي. لم يكن يعـ... الفرق بين عبد الملك بن مروان. الذي كان يسميه «عبد الـ... ابي مروان» - وبين ابي جعفر المنصور. الذي كان يسميه «... جعفر بن المنصور». وفي ذات اليوم الذي نال فيه الدرجة جلسنا في مقهى في شارع «كنجز رود» في «تشلسي». ودخل معي في جدل حول مسالة لغوية قلت له

«اسمع. تذكّر اني استاذك. وبدوني ما كنت تاخذ الدرجة دي».

ضحك الان. بطريقة لخّصت قصة حصوله على درجة «البكالوريوس» بكاملها. ثم قال

«سيبك من الحكاية دي. بذمّتك مش انا ساعدتك مساعدة رائعة في مهمتك؟ مش نحن ويّا بعض قمنا بعمل ديبلوماسي على اعلى مستوى؟».

«اشهد انك اظهرت مواهب ديبلوماسيّة لا يُستهان بها».

«ايه رايك في حوارنا مع مستر «كاميرون»؟ مش ... حولنا اذهل الراجل؟ انت من ناحية وانا من ناحية».

«كان كويّس».

«والشاب الفلسطيني في الـ A.B.S (هيئة الاذاعة الاسترالية) انت ماشي ولا انت واخذ بالك. انا فورا عرفت انه عربي. مش هو اللّي قدّمك للمخرج الاسترالي. واجروا معك مقابلة ساعة كاملة.. في اهم برنامج اذاعي عندهم؟».

«كله دا صحيح.. فضلك لا يُنكر».

«بس انت زُغت مني ورحت عملت المقابلة لوحدك. اصلك خفت اني اخطف الاضواء منك».

«اكيد. هوّ انا اعرف اتكلم انجليزي زيك يا دكتور؟ بذمتك انت صحيح عندك شهادة دكتوراه؟».

«الا عندي شهادة دكتوراه! انت لسّع ما تعرفش الـ...ـية دي؟ ما تعرفش اني انا عندي مش شهادة دكتوراه واحدة... عندي ثلاثة شهادات دكتوراه».

«يعني انت زي زكي مبارك.. يا راجل خاف الله».

«سيبك من الحكاية دي. بذمتك مش انا وانت ننفع سفراء متجولين؟ تصوّر لو عملونا سفراء نخدم القضية العربية مش كان احسن من الكلام الفارغ اللي بيعملوه دا».

بعد اكثر من عشرة ايام من مثل هذا اللغط. بدات ابرم بـ «منسي». واتوق الى ان اخلو بنفسي. لذلك لم اشجعه على السفر معي الى «طوكيو». ومع ذلك حين جلسنا في مطار «سدني». هو يتجه الى لندن وانا الى «كانبرا». احسست ببعض الحزن. ولما اقلعت طائرته قبل تمنيت لو استبقيته. والان. وانا اواجه هذا الانسان الصّلف. فكرت في «منسي». قلت يا ليته كان معي. فان وقاحته تنفع في مثل هذا الموقف■

(ـــ ـ ـبة)

آخر ورقة



نحو أفق بعيد

بقلم الطيب صالح

تركت بلاد «سيام» الاسطورية ورائي، ليس كما ترك «الاستاذ» حلب في ديار الشام، فلم يكن ثمة اميرٌ احببتهُ وخيَّب ظني، وكان القلب خالياً لم يتنوّر بعد، نارهم من وراء أذرعات. لا، ولا كان امامي ملكٌ اقصده لا ادري كيف يكون حالي معه، ولكن لعلّني لم اعدم حذوةً من تلك النّار المقدّسة التي احرقت ذلك القلب العظيم.

انْ كان احدٌ ينتظرنا في «سدني» فهو «منسي». في «سدني» سوف نرى.

كيف قلت، غفر الله لك؟

على قلقٍ كانَّ الريحَ تحتي..

ثم ماذا؟ لقد اشتعل الراس شيباً، وبدات الذاكرة تخون. الاّ انني اذكر جيدا بيتيك العجيبين:

صَحِبَتْني على الفلاة فتاةٌ
عادةُ اللّونِ عِنْدها التبديلُ
سترتْكِ الحجالُ عنها ولكنْ
بكِ منْها من اللّمَى تقْبيلُ

كيف تاتّى لك هذا المعنى الغريب، وايُّ فتاة كانت تصحبك في تلك الفلاة؟ ومَنْ قبّل مَنْ؟ افتاةٌ تقبل فتاةً سامحك الله!

حاشاك ان يرقى مثلي الى همومك واشواقك، وايُّ ابن انثى يسمو الى مثل اشواقك وهمومك؟ ولكنني مثلك على الاقل في هذه البيداء، ارى ولو قليلاً، واسمع.. واتذكر. اتذكر الشمس تارة عن يميني وتارة عن يساري. متى كان ذلك؟ واذكر ثلوجاً في قمم جبالٍ في عزّ الصيف. اين رايت ذلك؟ واذكر اودية وغابات وبحاراً تلمع مياهها تحت ضوء النجوم. واذكر مُدناً تضوي مصابيحها، كانَّ السماء قد انطبقت على الارض. اللّهم الاّ الخرطوم. هنالك الارض تنتظر مزيدا من الضوء، والسماء مضيئة كانك لم ترَ السماء من قبل.

الان في هذه الفلاة في الفضاء، بين «بانجكوك» و«سدني» اتذكر قولك:

ولِلّه سيْري ما اقلَّ تَئيّةً
عشيّةَ شرقيُّ الحدالى وغُرّبُ
عشيّةَ احفى الناسِ بي مَنْ قلَوْتُه
واهْدى الطريقيْنِ التي اتجنّبُ

ما اشدَّ ما صعّبت الامر على نفسك، وقد كنت تستطيع لو اردت، ان تاوي الى مكان لا تبرحه، مع الفٍ تسكن اليه، تصحوان معاً على نداء الاذان في الفجر!

ويومٍ كليْلِ العاشقين كمنْتُه
اراقبُ فيه الشمسَ ايّانَ تُغربُ
وعيني على اذْنيْ اغرّ كانّه
من اللّيل باقٍ بين عيْنيْه كوكبُ
شققْتُ به الظّلماء اُدْني عِنانه
فيطْغى و ارخيه مراراً فيطْربُ

ذلك عنان الشعر. هذا الظلام الذي تتحدث عنه ليس ظلاماً، والضوء الذي انبجس في جوفه مثل ... رية، كاشفة، ليس ضوءا. هذا ضوء الشعر في ظلام الكون. اليس كذلك؟ كانك اخذت الظلام الذي اناخ بكلكله على امرىء القيس، وعاناه نابغةُ بني ذبيان، فاشعلت في جوفه نيران عبقريتك. ولم يُجْدك ذلك نفعاً، لانك لم تلتفت كما يجب، الى النّور الذي وُلد مع الصبيِّ العربي اليتيم في ام القرى، كانت القصيدة عندك هي الهدف، وقد قال شيكسبير بعدك:

«المسرحيّةُ هي القصد. ثمّةَ يكمُن ضميرُ الملك».

وقد اعياك الملوك والامراء الامير الذي لو لم ت... خه الاّ بذَينك البيْتيْن لكان حسبُه، يستنبطُك المدح، ويـ... دارا فيطلبُ منك انْ تصفها، ويعشق جارية فيامرك ان تقول فيها شعراً، وينظم شعرا ركيكا فيطلب منك ان تُجيزه، انت الذي قلت فيه:

وقفْتَ وما في الموْتِ شكٌ لواقفٍ
كانّك في جفْنِ الرّدى وهو نائمُ
تمرُّ بك الابطالُ كلمى هزيمةً
ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسمُ

ثم ينقضُّ عليك اللُّغويُّون والمنافقون والحسّاد ... صالك الشعراء، ويقولون لك:

هلاّ مدحت الامير بافضل من هذا؟
هلاّ قلت:
وقفت وما في الموت شك لواقف
ووجهك وضاح وثغرك باسمُ

هذا وانت من انت، فتردُّ عليهم بقول امرىء القيس:

كانّي لم اركبْ جواداً بلذّة
ولمْ اتبطّنْ كاعباً ذات خلْخالِ
ولم اسْبا الزِّقَّ الرّويَّ ولم اقلْ
لخيْليَ كُرّي كرّةً ... اجفالِ

رحمك الله وغفر لك. ما اشدَّ ما قاسيْت من نفسك ومن النّاس. لنذهبْ معاً الى هذا الصقع الذي لم تركض فيه خيلك، سوف نجد «منسي» في انتظارنا. ولا عليك انه لا يفهمه ولا يقدِّرك. تعال الى «سدني» حيث الفتى العربيُّ كما وصفت:

غريبُ الوجهِ واليدِ واللّسانِ

هناك، سوف نرى!

● التّئيّة البطء في السّير، فكانه قال «ما اسرع ما كان سيْري» ■

(... ... ...)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح



نحو أفق بعيد

٦٣

لم يكن عندي حجز في واقع الامر، ولكنني اجبت موظف الاستقبال دون تفكير، وربما كان ذلك من اثر صحبتي لـ «منسي»:

«نعم».

نظر فوجد اسمي:

«نعم. يوجد حجز باسمك. انت موظف في الشركة العالمية للسياحة. اليس كذلك؟».

ايقنت حينئذ ان «منسي» قد سبقني الى «سدني». وفرحت لذلك، ان اجد انسانا اعرفه في هذه الاصقاع النائية. لقد ابعدتُ جدًا عن العوالم التي اعرفها، وربما لاول مرة في اسفاري احس بالوحشة. وعمّق هذا الشعور انني حللت في شتاء زمهرير. لقد ولدت في الصيف، في شهر يوليو - تموز العتيد، لذلك فانني احتمل الحرّ مهما طغى، اما البرد فانه يصيب روحي بالكآبة، ويصيب عقلي بالشلل. وكانت الدُوحة صيفا حين تركتها، وصاحبت الصيف في «دلهي»، ثم في «بانجكوك». وفجاة اذا بالعالم ينقلب راساً على عقب. الحمد لله اذاً، ان لي صديقا في هذا العالم الموحش.

قال «منسي»، وهو ما يزال عند الباب، دون ان يحيّيني وكاننا لم نفترق منذ اسبوع:

«انت مش حتبطّل التغفيل بتاعك دا؟».

«ليه؟».

«انا قايل لهم انك موظف معانا في الشركة عشان يدُوك تخفيض. تقوم تقول لهم انك موظف في حكومة قطر ومش عارف ايه؟ انت ما تعرفش اننا كشركة سياحيّة بناخذ خمسين في المائة تخفيض؟».

كان قد سبقني الى «سدني» بيومين، تحرّك خلالهما تحركات واسعة كما اتضح لي فيما بعد. كنت اغبطه على سرعة تاقلمه مع البيئات التي يحل فيها، وانا بطيء التاقلم، آخذ وقتا لانتقل من حال الى حال، ها هو الان في هذه المدينة الغريبة على حافّة الكون، مرتاحاً مطمئناً كانه في لندن او القاهرة او الرياض. واغاظني انه جاء مستعدًا للشتاء. كان عليه معطف من فراء الثعلب، لا بد انه غالي الثمن، وان كنت اشك انه دفع فيه قيمته الحقيقية. ذلك جعله يبدو في نظري باعثا على الضحك. قلت له:

«ايه اللي انت عامله في نفسك دا؟».

«رائع مش كده؟».

«الله يخيبك. انت عامل زي الممثلين الفرنساويين دي امور دلع».

«انت اصلك جاهل ما تعرفش في الحاجات دي. اسمع. سيبك من الكلام الفارغ دا.. انا عملت موعد بكره الصبح مع مدير عام هيئة الاستعلامات.. وبعدين حنتغدى مع مدير عام هيئة الاذاعة الاسترالية.. و..».

«الله. الله.. ايه دا؟».

«ايه دا يعني ايه؟ زي ما بقول لك. امال احنا جايين نلعب ولا نشتغل؟».

«وانت مالك ومال الحكاية دي؟».

«ازاي انا مالي؟

مش نحن جايين في مهمة اعلامية هنا؟».

«انت جاي في مهمة اعلامية؟».

قال وهو يضحك بطريقته العجيبة:

«يا استاذ انت مش واخذ بالك. انا اصبحت رسميًا شريكك في هذه المهمة. انت ناسي اني انا اللي جبت لك الفيزا؟ انت ما تعرفش اني انا خلّيت السفير الاسترالي في «دلهي» يكتب لوزارة الخارجية هنا عشان يعملوا الاجراءات اللأزمة؟».

«لمين؟».

«احنا الاتنين. احمد الله اني خلّيته يحط اسمك في الرسالة، والّا ما كانش حيسالوا فيك. انا افتكرتك حتوصل امس، وخليتهم يروحوا لك المطار».

«وانت بصفتك ايه؟».

«بصفتي مستشار اعلامي».

«مستشار اعلامي لمين؟».

ضحك دون ان يجيب. الله اعلم اي صفة جمة اضفاها على نفسه.

تاكدت من صدق قوله حين دخلنا على مدير عام هيئة الاستعلامات. هذا منصب يعادل وزير الاعلام عندنا، فاستراليا مثل بريطانيا، ليس فيها وزارة اعلام. كان «منسي» يبدو لي في زيّه الفاخر مضحكاً، لانني كنت اعلم انه يدخل على الرجل في صفة منتحلة. اما في عيني ذلك المدير العام، فلا بد انه بدا شخصا مهماً حقا. كان يلبس بدلة من الصوف الفاخر الذي لا بد انه اشتراه من «دورمي» في لندن بثمن بخس، وعليه ذلك المعطف من الفرو. اتّجه الرجل اليه دون تردد، وصافحه باحترام واضح. قدّمني «منسي» اليه بطريقة لا تترك مجالاً للشك انني تابع او مساعد له. واذ انني لم اكن قد افقت بعد من «قفزة الطائرة النفاثة - الـ Jet Lag» فقد تركته يصول ويجول وحده. لا اتدخل الا حين احس انه قد اشتط شططا بينا. ابلى في الدفاع عن القضايا العربية بلاء حسناً والحق يقال. تحدث وكانه سفير مسؤول او ناطق رسمي باسم جامعة الدول العربية. بل انه كان كذلك حقيقة، في نظر نفسه وفي نظر المدير الاسترالي ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

السادس والعشرون من شهر يناير عام ١٧٨٨. تاريخ له طعم مرير في حلوق الاستراليين، ومع ذلك فهم يحتفلون به، ربما لان للشعوب رغبة لا تُحد في الاحتفال. وربما كما يحتفل السجين باطلاق سراحه.

تسير في شوارع «سدني» فكانك في «نيويورك» تارة، وفي لندن تارة اخرى. هنا في وسط المدينة حيث يقوم نزل الـ «هلتن» في شارع «بت» Pitt تحس كانك في «نيويورك». لا بد انهم اسموه باسم «وليم بتْ» رئيس وزراء بريطانيا الذي استُعمرت استراليا في عهده. هذا المعمار البشع الذي ابتدعه الامريكان، كما في «مانهاتان» في «نيويورك»، لا لحاجة الناس اليه، ولكن لمجرد التباهي بما في ايديهم من تكنولوجيا، واحساس الكائن البشري، وهو احساس جهول كما نعلم، بانه قادر على كل شيء. وتسير باتجاه البحر، وهو غير بعيد، فاذا اسماء الشوارع وهياة المباني، كانك في لندن.

وفي واقع الامر، فان اوجه الشبه بين استراليا عموما وبين امريكا اكثر مما بينها وبين انجلترا. فاستراليا مثل امريكا، نشات على اطراف الحضارة الاوروبية، وهي مثلها قامت على اكتاف المهاجرين من العالم الاوروبي، وقد كانت مثل امريكا مستعمرة بريطانية ثم كسرت القيد وشبُت عن الطوق.

ولكن شتّان بين الهجرتين، فالاوروبيون الذين نزحوا الى امريكا، كانوا في الغالب، رجالا ونساء ذوي عقيدة ومبادىء، فرُوا بدينهم من الاضطهاد او سعيا وراء العيش الكريم. اما هؤلاء فكان لهم شان اخر.

كان البحّار المغامر «وليم دامبير» اول بريطاني تطا قدماه ارض استراليا. وكان ذلك عام ١٦٨٨. الا ان ذلك لم يحدث اثراً يذكر، فقد اهمل الاوروبيون قاطبة امر استراليا التي كانت تبدو لهم عالما اقرب الى الخرافة منه الى الواقع، مما جعل «جوناثان سوفت» مؤلف «رحلات قلفر» يطلق عليها اسم «بلاد الياهو». ثم في التاسع والعشرين من ابريل عام ١٧٧٠ رست سفينة «كابتن كوك» في خليج واسع في الطرف الجنوبي الشرقي لاستراليا، اطلق عليه اسم «بوتاني بيْ - خليج النُبات». لكنه لم يمكث طويلا بل واصل سيره شمالاً بحذاء الساحل. هبط في لسان ممتد في البحر وهنالك غرز العلم البريطاني واسمى كل ذلك الجزء الجنوبي الشرقي «نيو ساوث ويلز - ويلز الجنوبية الجديدة».

ايضا لم يابه الانجليز باستراليا، ولم يلتفتوا اليها الا بعد ان ضاعت منهم مستعمراتهم الامريكية بعد حرب التحرير. ادركوا انهم بضياع تلك المستعمرات، ما عادوا يجدون ارضا ينفون اليها الفائض من المجرمين الذين ضاقت سجونهم عنهم. وبدا لهم ان تلك الارض البعيدة التي اضافها «كابتن كوك» الى ممتلكات التاج البريطاني، تصلح لذلك الغرض. واعلن رئيس الوزراء «وليم بتْ» في البرلمان ان النفي الى استراليا هو انجع وسيلة وارخصها، للتخلص من المجرمين الذين لم تعد سجون بريطانيا تتسع لهم.

وهكذا، في ١٣ مايو عام ١٧٨٨، ابحر اسطول من احدى عشرة سفينة تحمل الفا وثلاثين سجينا، تحت امرة «كابتن ارثر فيليب»، الذي اصبح اول حاكم للمستعمرة الجديدة. وفي ١٨ يناير ١٧٨٨، بعد رحلة دامت ثمانية اشهر، القت السفن مراسيها في «بوتاني بيْ»، حيث حل «كابتن كوك» قبل ثمانية عشر عاما.

لم يرُق الموقع لـ «كابتن فيليب»، فاختار مكانا ابعد شمالا بقليل. هنالك القى عصاه، وافرغ حمولته من المجرمين، ورفع في تلك السماء البكر، العلم الامبراطوري البريطاني، واسمى المكان «سدني» على اسم «لورد سدني» وزير المستعمرات. كان ذلك على وجه التحديد في السادس والعشرين من يناير عام ١٧٨٨، اي قبل ما يربو بقليل عن قرن، من دخول الجيش البريطاني لبلاد السودان. واذا كانت حرب التحرير قد صبغت علاقة الامريكيين بالانجليز، فان هبوط اولئك النفر من «المجرمين» في ذلك المكان قد صبغ علاقة الاستراليين بالانجليز الى يومنا هذا.

على السطح لا ترى شيئا، وانت تتجول الآن في شوارع هذه المدينة المزدهرة ذات الثلاثة ملايين او اكثر، بدورها التجارية العامرة، وابنيتها التي تشرئب باعناقها في السماء، واسماء شوارعها التي تذكر بالعهد الاستعماري، ووجوه اهلها التي يغلب عليها السمت الانجلوسكسوني. ولكنك حين تمعن النظر، تدرك ان تاريخ هذا الشعب عبارة عن ملحمة من فظاظة الانسان الاوروبي، ضد نفسه وضد الاخرين. نحن نعلم من الكتب التي ظهرت مؤخرا، ان معظم اولئك «المجرمين» لم يكونوا مجرمين حقيقة، ولكنهم كانوا «ضحايا» نظام اجتماعي ظالم. وكما يحدث دائماً، فان الظلم يولّد الظلم، والعنف ينبت العنف. بعد ذلك حين آل الامر الى هؤلاء «المجرمين المضطهدين» اوقعوا هم بدورهم الظلم والاضطهاد على سكان البلد الاوائل، الـ «ابُورُوجِنيزْ» المساكين الذين عاشوا في تلك الاصقاع قرونا، على الفطرة في غفلة عما تخبئه لهم الاقدار.

ليس عجيبا اذا، ان يخرج من هذه البيئة، كاتب عظيم الموهبة هو «باترك هوايت» الذي نال جائزة نوبل عام ١٩٧١، صور في رواياته صراع الانسان الشرس من اجل البقاء، والدرك الاسفل الذي ينحدر اليه احيانا في سبيل البقاء. من هذه البيئة ايضا، خرج الرسام الكبير «سدني نولان» الذي رسم الانسان والطبيعة بشكل ليس له مثيل، كانما في كوكب خرج عن المدار واهملته الاقدار. ولا عجب كذلك، ان تنبت بيئة كهذه، كاتبا مثل «الن موزهد» مؤلف «النيل الابيض» و«النيل الازرق» و«اللقاء المدمر»، كاتبا مرهف الشعور، عميق الاحساس بوطاة الظلم الذي يلحقه الانسان باخيه الانسان■



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

ربما يخيل لك من هذا الموقع في البحر، وانت تنظر الى المدينة تعلو وتهبط، وتتفرّق وتتجمعُ في انصاف دوائر، انك قد حللت في فردوس من فراديس الارض. الزرقة تحيط بك من كل النواحي، زرقة صافية شفافة وشمس الضحى، رغم لدغة البرد، تغمر الماء والسماء، وتنعكس من زجاج الى زجاج، ومن قمة الى قمة، فوق العمارات الشاهقة على الشاطىء.

القصور الجميلة، والـ «فلل» الانيقة، والحدائق المزهرة والعشب الاخضر الغضّ، والبشر يسبحون او يستلقون على الرمال تحت شمس الشتاء. بعض النساء صدورهن عارية تترجرج وهن يتراكضن لاحتضان موجات المحيط الهادىء، ويضحكن ويحمل الموج ضحكاتهن من شاطىء الى شاطىء. وتعلو فوق ذلك كله قمم الجبال «الزرق» عند الافق.

لم يكن «منسي» يحب المشي. اعتاد على السيارة، فكانت مسيرة بضع خطوات تجعله يلهث من التعب. ولم تكن له رغبة في التعرُّف على معالم المدن التي يزورها. كان ينظر اليها نظرة مُجْمله، وكأنه يجد فيما يرى صوراً قد رآها من قبل. وكنت اعجب من اين يحصل على معلوماته، فلم اكن اراه يقرا شيئا، ولم يكن يتمعَّن في شيء. ورغم ذلك يدهشك حين تساله، بدقة ملاحظته، وغزارة معلوماته.

اقنعته بعد جهد ان نقوم بهذه الرحلة، وان نمشي سيراً على الاقدام الى المرفا، بادئين سيرنا من مبنى البلدية، غير بعيد من نزل الـ «هلتن» حيث نقيم. اتجهنا شرقاً صوب البحر في شارع «جورج ستريت» تاركين حديقة «هايدبارك» الى يميننا، ومرفا «دارلينج» الى يسارنا. نحن الان في الجزء القديم من المدينة، كما خطَّطها «لاخْلان ملكوري». الحاكم الذي يُعزىَ اليه الفضل ايضا في اسباغ اسم «استراليا» على القارة باكملها، بعد ان كانت تُعرف من قبل باسم Terra Australis ـ الارض الجنوبية!

هذا رجل من طراز الرجال الذين برزوا خلال المد الاستعماري البريطاني، رجال التفت اوهامهم وطموحاتهم الشخصية، مع المرامي الكبرى لبلادهم، مثل كلايف وكيرزن في الهند، وكرومر في مصر، ولوجارد في نيجيريا، وكتشنر في السودان، ورودس في روديسيا. «بناة الامبراطورية» كما تسميهم كتب التاريخ. كانوا جميعاً ينتمون الى الطبقة العليا، لا يخامرهم ادنى شك في تفوق طبقتهم خاصة، وتفوق العنصر البريطاني على وجه العموم، وانهم اصحاب «رسالة حضارية» واجبهم ان يفرضوها على العالم حتى ينتشر السلم البريطاني (Pax Britanica) كما عمَّ من قبل السلم الروماني (Pax Romana).

كذلك ذهب «لاخلان ملكوري» الى استراليا عام ١٨٠٩، قائداً اعلى وحاكماً عاما على مستعمرة «نيوسلوث ويلز» وملحقاتها. كان حينئذ ضابطاً عالي الرتبة في الجيش في الثامنة والاربعين من العمر، يحمل خبرة واسعة من خدمته في الشرق الاقصى والشرق الاوسط، ويؤمن ايمانا راسخا بتميز النظم البريطانية والديانة المسيحية البروتستانتية. ولا بد انه حين استلم مهام منصبه في يناير عام ١٨٠٩ نظر باشمئزاز لا حد له، الى المجتمع الغريب الذي كُلِّف بتصريف شؤونه. وجد مجتمعاً انقسم فيه البيض الى «سادة» و«عبيد»، فقد انضم الى المستعمرة في العقود التي تلت عهد «كابتن فيليب» بعض المغامرين والطامعين من الطبقة الوسطى والطبقة العليا. ووجد مظاهر انحلال خلقي لا بد انها صدمت احاسيسه البروتستانتية. كان الرجال يعاشرون النساء دون زواج، والعربدة شائعة والجرائم متفشية. وكانت الاوبئة والامراض قد فتكت بالاهالي، سكان البلد الاوائل الذين اخذ عددهم يتناقص بشكل ملحوظ. كانوا محط سخرية البيض وامتهانهم حتى انه كانت من وسائل التسلية عندهم ان يغروهم بالسكر، ثم يتفرجون عليهم يتصارعون حتى الموت، تماما كما كان يفعل الرومان

اصدر الحاكم الجديد نداءات تهيب بالطبقات العليا ان يتحلوا بضبط النفس والنزاهة، وتهيب بالطبقات الدنيا «ان يعزفوا عن شرب الخمر». وطالبهم بعدم ايذاء «الاهالي». وحثهم جميعا، بيضاً واهالي ان يقيموا شعائر الدين ويواظبوا على حضور الصلوات بانتظام في الكنيسة ايام الآحاد.

ولم يكتف الحاكم بالبيانات والنداءات، ولكنه فرض قوانين صارمة، واغلق الحانات، ولاحق شاربي الخمر، ومنع مظاهر الانحلال الجنسي، وفتح المدارس لتعليم المذهب البروتستنتي. وصاحب هذه الحملة «الخلقية» جهد كبير لتخطيط المدينة وتعميرها. وقد اوكل الحاكم بهذه المهمة، مهندسا معماريا نابغة كان سجينا بتهمة التزوير، فاعتقه واناط به امر تخطيط المدينة. ويمكن القول، ان هذا «المجرم» الموهوب، «فرانسس قرينوي» هو بالنسبة لمدينة «سدني» بمثابة «سير كرستفررن» بالنسبة لمدينة لندن، و«هوسمان» بالنسبة لمدينة باريس.

كذلك اقام «لاخْلان ملكوري» المؤسسات الملازمة ابداً للنظام الاستعماري: الكنيسة، والمدرسة، والمستشفى، والسجن، وسمَّى الاسماء. ذلك ايضا امر ملازم للاستعمار. اسماء الملوك والامراء والنبلاء وقادة الجيش والزعماء السياسيين في الوطن الام، فكأنه فرض احلاما جديدة بدل الاحلام القديمة، لان «الاهالي» سكان استراليا الاوائل كانوا يقيمون الطقوس لما يسمونه «زمن الحلم» حيث تختلط ذكريات ماضيهم البعيد بحاضرهم في عناق سرمدي. في قلب ذلك الحلم غرس «لاخلان ملكوري» رمزا اجنبيا جديداً بشكل خُيل اليه انه سوف يدوم الى الابد. اقام باحة سماها «باحة ملكوري» وبنى في وسطها مسلَّة عالية، كأنما اراد ذلك الموضع ان يكون مركز العالم، منه تؤخذ الابعاد، وبه تقاس المسافات. انه ما يزال موجوداً غير بعيد من حيث نقف الان.

ولما انهى مهمته عام ١٨٢١، كان قد نجح بمقاييس النظام الاستعماري، نجاحا جعل «تشارلز دازون» صاحب نظرية «النشأة والتطور» يقول حين زار «سدني» علم ١٨٣٦:

«... كوسيلة لجعل الناس فضلاء لاعادة خلقهم من شرذمة من السفلة الذين لا يرجى منهم خير في جزء من العالم، الى مواطنين صالحين فاعلين في جزء آخر، وبهذا تخلق بلداً جديداً رائعاً، مركزا مضيئا للحضارة، فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

لكن شاعرا من شعراء استراليا الاوائل، راى، كما يفعل الشعراء دائما، الظلام الذي يكمن وراء ذلك السطح المضيء. فقد قال «البارون فيلد» الذي كان ثاني رئيس للمحكمة العليا، قال يصف استراليا:

«ولدتْ في ساعة الخطيئة الاولى،
حين حاقت اللّعنة بالارض،
لذلك هذه الغابة من الاشجار اليابسة».

سرنا في شارع الملك «جورج» المحاذي لشوارع الامراء «يُورْك» و«كلارنس» و«كنت» مارين بـ «ماركت ستريت» و«كنج ستريت» و«مارجريت ستريت». المعمار انجليزي احيانا وامريكي احيانا، الى ان وصلنا المرفا. اخذنا هذه السفينة السياحية من سفن «شركة توملس كوك» ضربت بنا في عرض البحر، الى يسارنا عجيبتان من عجائب الانجاز الاسترالي، الجسر ومبنى الاوبرا. تجاوزنا خليج «ولُومُولو» ودخلنا خليج «اليزابث». الشمس ساطعة وزرقة البحر موازية تماما لزرقة السماء. «منسي» يضحك، لانه تذكر بفعل ترابط الافكار البنات الاستراليات اللاتي كن يجاورنه في شارع «سدني» في لندن. وانا انظر الى ناطحات السحاب ووراءها الجبال «الزرق» وافكر في قول «تشارلز دارون»... «نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

ثم افكر في قول القاضي الشاعر، الذي كأنما راى كل ذلك من وراء الغيب: «لذلك هذه الغابة من الاشجار اليابسة».

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٦

من اعجب ما سجّله التاريخ من اقوال المستوطنين البيض في استراليا، عبارة لرجل يدعى «سي. لوكهارت»، قالها عام ١٨٤٩:

«لا شيء سوف يحول دون انقراض عنصر الـ «ابوروجنيز» الذين شاءت الارادة الالهية ان تسمح لهم بالاحتفاظ بالارض ريثما يجيء عنصر افضل يحل محلّهم».

هذا الرجل المغمور الذي لم ينسب له التاريخ عملاً يُؤثر، استحق «الخلود»، وان كان خلوداً خيرٌ منه النسيان، بانه افصح بهذه العبارة التي ظلت تزحف مع حركة التاريخ، كما يتحرك الحجر في قاع النهر. انه عبّر دون مواربة، ودون حياء، عن مبرر اساسي من مبررات الاستعمار الاوروبي، وهو ان الاجناس غير الاوروبية، الـ «همج» في زعمهم، ليسوا بشراً بمفهومهم للكلمة، ويمكن اعتبارهم غير موجودين. وان الحيّز الذي يشغلونه على سطح الارض، هو في الحقيقة خال من السكان. ولم يكتفوا بهذا الصلف العرقي، ولكنّهم جعلوه قانوناً الهيا، واضفوا عليه مبرراً اخلاقيا. قد يكون الاله الذي تذرعوا به «برستنتيا»، كما في استراليا، او «كالفنيا»، كما في جنوب افريقيا، او «كاثوليكيا»، كما في امريكا اللاتينية، وقد يكون «يهوه»، اله اليهود كما في فلسطين. ويمكن ان يسمع الانسان صدى عبارة مستر لوكهارت في عبارة جولدا مائير بعد اكثر من قرن من الزمان، «الفلسطينيون؟ اين هم هؤلاء الفلسطينيون؟».

في ذلك الصباح من شهر يناير عام ١٧٨٨، حين رست سفن «كابتن فيليب» على شاطىء استراليا، نظر البيض فلم تر عيونهم بشراً. راوا شخوصا مثل الاشباح هي في اعتقادهم «لا شيء». كانوا عراة تلمع اجسامهم في الشمس، من الدهن الذي يتمسّحون به اتقاء الحشرات. على وجوههم ورقابهم علامات من طلاء. بايديهم الرماح، وفي انوفهم اشياء مثل الزِمام. منهم من يحمل درعاً، ومنهم من يحمل الة محدودبة.

وقف السود على صخور الشاطىء، وكانوا من قبيلة الـ «ايورا» كما نعلم الان، ينظرون كالمسحورين، الى المنظر الذي لا بد انه بدا لهم مثل كابوس من قوى شرّيرة اقتحمت حلمهم الطويل.

تلك المخلوقات الغريبة التي كانما تسلّخت جلودها عنها لشدّة احمرارها، اخذت تفرغ حمولة القوارب التي كانت اضخم بكثير من القوارب التي اعتادوا عليها. خرج رجال ونساء واطفال. بعضهم كانوا يرسفون في اغلال الحديد، وبعضهم يلبسون خرقاً ممزّقة، وبعضهم يحملون السلاح، ويعطون الاوامر باصوات شرسة. ثم نظروا بدهشة اكبر الى عدد منهم يتجمعون تحت شجرة. وقف رجل بينهم وتحدّث فيهم بصوت عريض، كما يتحدث الرجل الكبير الى الاطفال. ثم اخذ كانما يتلو ترانيم سحرية، كان الجمع يرددها وراءه. ذلك الرجل، كما تُحدثنا كتب التاريخ، كان قسّيساً بروتستنتيا يدعى «ريتشارد جونسون»، تخرج من جامعة كيمبردج، وتشرّب مبادىء المذهب التبشيري المتطرف الذي كان سائداً تلك الايام. وقد انضم الى هذه الرحلة ليخدم «الرّب» في تلك الاصقاع البعيدة. سارع اول ما القت السفن مراسيها فاقام الصلاة شكراً للاله انه بلّغهم مقصدهم سالمين، وانه خوّلهم تلك الارض، يتبوّاون منها كيف شاءوا. كانت مهمته عسيرة، كما اتضح فيما بعد، خاصّة بين قومه البيض، الذين كانوا ابعد ما يكون، عن «الاباء المهاجرين» الذين ذهبوا من قبل الى امريكا. واصبح «جونسون» هذا مشكلة بالنسبة للحكام العسكريين الذين لم يكونوا يشاطرونه حماسه الديني.

نظر الفريقان بعضهم الى بعض في لحظة نادرة من لحظات التاريخ. ولم يَعِ احدهم عن الاخر اي شيء. كان «السود» غارقين في حلمهم الذي خُيل لهم انه سوف يدوم الى الابد. سوف تمضي حقب قبل ان يفهموا مغزى الكارثة التي حاقت بهم.

اما البيض فانهم لم يدركوا - وما كان يهمهم ان يدركوا - ان تلك الاشباح كانت جزءاً من «شعب» توطن تلك الارض منذ اكثر من ثلاثين الف عام. جاءوا في مجرات متعددة من اسيا، عبر «تاسمانيا» و«غينيا الجديدة». انتشروا في جزيرة استراليا باكملها، وغطوا وجه الارض مثل ثوب رقيق شفاف. وتقسّموا قبائل كان عددها نحو خمسمائة في تلك اللحظة. وكان عددهم نحو ثلاثمائة الف. كانوا مثل مستنقع انقطع عن نهر التاريخ، فعاشوا كل تلك القرون في عزلة تامّة عن الاحداث التي المّت ببقية سكان الارض. ولما وصل الاوروبيون، وجدوهم ما يزالون في مرحلة البداءة الاولى. كانوا يعيشون على الصيد من البر والبحر، ويعتمدون على الات بدائية. ورغم ذلك فقد ابتكروا نظاماً مكتملاً للعيش يلائمهم تماما، وابتدعوا «ثقافة» ليست تافهة اذا نظرت فيها بامعان، يمتزج فيها البشر بالسماء بالطبيعة بالماضي بالحاضر بالمستقبل في عناق سرمدي اسموه «زمن الحلم». وكانت الارض هي مركز الحلم، اذا حرمتهم منها فقد حرمتهم كل شيء. كانما انتزعت «هُوِيتهم» كما يُقال هذه الايام.

تقول الارض، بلسان شاعر استرالي معاصر - من البيض - فالشعراء لا جنس لهم، وهم دائما اكثر انصافاً واعمق احساساً:

«... اين راح ابنائي الابكار،
الذين اخرجتُهم من رحمي،
من زمان، من زمان؟
لماذا، لماذا يبكون؟
ماذا حدث للاساطير،
الاساطير التي نسجتُ والقوانين؟
قل لي ماذا حدث؟
انت الذي ولدتُ بعدهم
بزمان، بزمان.
لماذا، لماذا لا إسمع،
الا صرخات ارواحهم تدوّي في الكهوف؟■

(التحديث ...)



ورقة

نحو أفق بعيد ٦٧



بقلم الطيب صالح

في استراليا اكثر من اي ارض اخرى استوطنها الاوروبيون، وقفت فلسفتان متناقضتان كلية، احداهما ازاء الاخرى.

الفلسفة الاوروبية المادية في ناحية، كما تبلورت في القرن التاسع عشر. فلسفة تعتبر «الارض» مجرد «شيء» من حق الانسان ان يملكه ويستأثر به، ويقسّمه كيف شاء، ويستغله كيفما بدا له. والانسان، بمقتضى هذه الفلسفة، ليس الكائن البشري عموماً، ولكنه الانسان القوي القادر، الذي اختارته العناية الالهية وقوانين التمييز الطبيعيّة، اي الاوروبي، ليكون خليفة على الارض. وكان المؤمنون بهذه الفلسفة، يستندون الى التفوق التكنولوجي والى المدافع والبارود. في الجانب المقابل، وقفت فلسفة «اسطورية - شاعريّة»، ترى «الارض» على امتدادها، كائنا حيًا، يحس ويتألم، مخلوقا له قداسة مثل «كاتدرائية مفتوحة»، كما وصفها احد الكتاب.

احتار المستوطنون الاوائل في امر الـ «ابوروجنيز» رأوا اناسا لا يشبهون اي اناس عرفوهم من قبل، او سمعوا بهم. لم يجدوا لهم زعماء ولا معابد ولا اوثانا يعبدونها ولا «ديانة» يؤمنون بها. ولم يكونوا يملكون شيئا، لا بيوتا ولا مزارع ولا مقتنيات ولا ارضا. وكانوا في ترحال مستمر، دون سبب واضح، كانهم يبحثون عن شيء مبهم ضاع منهم.

اتضح بعد زمن طويل ان الـ «ابوروجنيز» يعتبرون الارض باجمعها، معبدا لهم، وان فيها علامات والغازا واسرارا، لا بد من مواصلتها باستمرار، والا توقفت الحياة، وان «الارض» تناديهم وتتحدث اليهم، وان لهم طرقا على وجه الارض لا يخطئونها، كما يعرف الطائر المهاجر طريقه في السماء.

يصف الكاتب الانجليزي «بروس شاتون» قصة ظهور المخلوقات على الارض، كما يتصورها الـ «ابوروجنيز» في كتابه البديع «دروب الغناء»:

«في البدء كانت الارض طينا لازبا منبسطا، منفصلة عن السماء والبحر المالح الرُّصاصي. وكان يغمرها ظل رهيف مثل الشفق. لم تكن بعدُ شمسٌ ولا قمرٌ ولا نجوم. وكان يسكن في المدى القصي «سكان السماء». كانت لهم هيئة البشر وسيقانهم مثل سيقان النعام، وعلى رؤوسهم شعر عسجدي كانه نسيج العنكبوت. كانوا في نضارة دائمة، يعيشون في فردوس مُخضر وراء الغيوم في الافق الغربي.

لم يكن على وجه الارض، سوى حفر، سوف تمتلىء بالماء يوماً ما. لم تكن ثمة حيوانات ولا نباتات. لا شيء سوى مادة لينة مثل العجين، متجمّعة عند تلك الحفر. مادة ليست حية ولا ميتة. لكنها «عصارة الحياة».

تحت الغشاء الخارجي للارض، كانت الاشياء غافية تنتظر ساعة الميلاد.. الشمس والقمر والاشجار والحشرات والطير والحيوان. نائمة مثل بذور في صحراء تنتظر المطر.

في صباح اليوم الاول تململت الشمس في رحم الارض، فقد احست برغبة ملحّة لان تولد. شقّت غشاء الارض وخرجت، فغمرت الارض بالضياء والدفء، وغمر الدفء الحفر التي تحتها كان ينام «القدماء».

كانوا مُنهكين متعبين، بخلاف سكان السماء، مبيضّة لحاهم، ضامرة اجسادهم ظلوا نائمين طوال العصور.

وهكذا، احس كل واحد منهم في هذا اليوم الاول، دفء الشمس، فاذا بجسده يتشقّق عن اطفال. خرج ثعبان من صُرّة الرجل - الثعبان. الرجل - الببغاء، احس بشيء له ريش يخرج من جسده، فاذا هو ببغاء. الرجل - الكانغرو تمخض عن كانغرو. والرجل - النملة ولد نملة. والرجل الزهرة، خرجت من جسده زهرة. وكل مخلوق من هذه المخلوقات الوليدة، اول ما مسّ الارض، رفع وجهه نحو الشمس.

في قيعان الحفر، التي امتلات بالماء، حرك «القدماء» اقدامهم. القدم اليسرى، ثم القدم اليمنى. ثم هزوا اكتافهم وحركوا اذرعتهم. انشقت اجفانهم ففتحوا اعينهم، نظروا فرأوا اطفالهم يموجون في ضوء الشمس.

تساقط الطين عن افخاذهم كما تسقط المشيمة غشاء الجنين، عن جسد الجنين. وكما يصرخ الطفل اول ما يولد، فتح كل واحد من «القدماء» فمه وصرخ «انا.. انا ثعبان، انا.. انا ببغاء، انا.. انا زهرة».

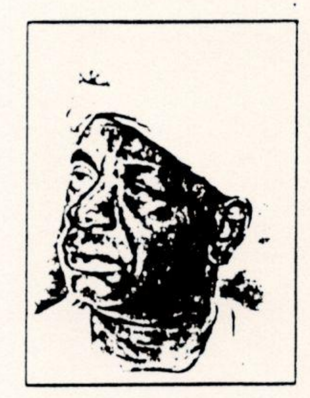
هذا النداء الاول، نداء تسمية الاسماء، ظل بعد ذلك والى الابد، اقدس طلسم في «غناء القدماء».

ثم، كل واحد منهم، خطا خطوة بقدمه اليسرى، ودفء الشمس يغمره، ونادى باسم ثان وخطا بقدمه اليمنى وهتف باسم ثالث.. نادى بركة الماء، ونبات البوص، وشجر الصُمغ، ينادي ذات اليمين وذات الشمال ينادي المخلوقات ان تولد، يغني لها ويزجل اسماءها. ثم طاف «القدماء» العالم طولا وعرضا وهم يغنون. غنوا للانهار وجبال الملح وكثبان الرمل. وكانوا اثناء تجوالهم يتركون دروبا مثل خيوط غير مرئية ويتركون علامات مثل بصمات الاصابع.

غطوا العالم باسره بلحاف من الغناء، ولما فرغوا، احسوا بالتعب. احسُوا باعضائهم تبرد ببرد الحقب الطويلة، وتيبس. بعضهم اندس حيث هو في باطن الارض. وبعضهم حبا الى اعماق المغارات والكهوف، وبعضهم غاب في الحفر الابدية، من حيث خرج. عادوا كلهم الى رحم الارض» ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد ٦٨



بقلم الطيب صالح

ذلك كان منذ عهد بعيد. الذي حدث، وكيف حدث، ظلّ ثابتاً في الزمان. هذا هو «زمان الحلم» كما يسمُّونه. كل شيء قد تمّ وانتهى. لكنه سوف يتكرر ويتجدد في صيرورة مستمرّة. والانسان هو الذي يعيد تلك اللحظة، يعيد نشاتها، بالهجرة في «دروب الغناء» في مواسم معيّنة، مهتدياً بعلامات تركها «القدماء» على الأرض، كما يهتدي الملاّحون بالنجوم، حتى يصل الى الاماكن «الحارّة»، حيث تكمن الـ «كُرُمْبا» - روح الارض.

تمتدّ «دروب الغناء» على وجه الارض من أقصاها الى اقصاها، تلتقي وتتفرق، مثل نسج العنكبوت. وطوال الرحلة، يُغنّي الانسان. يُغنّي حين يحلّ، ويغني حين يرحل، ينادي بالاسماء القديمة، ويسترجع اللحظة الاولى. تستيقظ الارض وتتحول الى جسم مضيء، الى افق ميتافيزيقي يحفظ كل تاريخ «الشعب»، وسيرته في الحياة، وكيف غمرته الهبات والنعم، مثل القدرة على الرقص والغناء، وصنع الات الصيد، وكل المهارات التي اتاحت له العيش.

في رحلة الحلم، يعيد الانسان صلته بالطبيعة، ليس بالمعنى البيئي المعاصر، ولكن بالمعنى الشاعري - الاسطوري القديم.

تقول الارض للبشر، كما غنّى شاعرهم:-

«لقد ذبلتم وغاضت نضارتكم. سوف أصوّركم. سوف أضع طلاء جديداً عليكم، فتعود اليكم نضارتكم من جديد»

ويقول أحد حكمائهم عن علاقتهم بالارض:-

«نحن نؤمن ان الارض هي التي تملكنا ولا نقول اننا نملك الارض. الارض ليست لنا، ولكننا نحن للارض».

لذلك حين جاء المستوطنون الاوربيون، وقسّموا الارض ملكيات تظل في حوزتهم الى ما لا نهاية، بحكم القوانين المعقّدة التي فرضوها، كانوا في نظر الـ «ابوروجنيز» كأنهم قطعوا جسم كائن حيّ. قطعوا ايضا خيوط الغناء القديمة، وعفّوا على الاماكن «الحارّة»، وطمسوا معالم الحلم. انتهكوا قداسة الارض، في نظر الـ «ابوروجنيز» انتهاكا افظع مما لو انهم القوا عليها قنبلة ذريّة.

حينئذ، ضاع الانسان في غمار المجتمع الاوربي الجديد بمفهومه المادّي. تزعزعت صلته بالارض، وتزعزع احساسه بالامن، واصابته البلبلة والحيرة، وانصرف الى السُكر والجريمة.

لم تكن عندهم مؤسّسات للحكم، ولا زعماء، فقط أعراف تنظم شؤون حياتهم، بطريقة عفوية. كان لهم نخبة من رجالهم، كانوا بمثابة الامناء على تراثهم. اولئك هم الـ «كاراجي» أيْ «الحكماء». كانوا يُنْتخبون منذ صغرهم حسب مواصفات معيّنة، ويُعدّون اعداداً طويلاً شاقًا، يصيرون بعده مرشدين روحيين للشعب، يقودونه في رحلة الحلم، يعرفون الدروب والاغاني القديمة والاماكن «الحارّة»، والكهوف حيث التصاوير التي خلّفها القدماء، التي لا بد من اعادة طلائها في أوقات معيّنة، والاّ اختلطت الامور وضاعت المسالك.

كانت هذه النخبة من الحكماء تقف سدًا في وجه الغزو الثقافي الاوربي، فركّز الاوربيون هجومهم عليها. ولمّا انهارت، انهار شعب الابوروجنيز برُمّته.

يقول الكاتب الاسترالي (جيمس كاوان) في كتابه «اسرار زمن الحلم»:-

«كي نفهم المحْنة العظيمة التي يتعرّض لها اي مجتمع قديم في صراعة للحفاظ بتماسكه للاستمرار في الحياة، لا بدّ لنا ان نفهم خطورة المواجهة المدمّرة، بين المادّية الاوربية والـ «كاراجي»، بحـ... قدوة ومرشداً ثقافيا وروحيًا للمجتمع. فان الكارثة التي ... بالابوروجنيز من تدمير لتراثهم الروحي والمثلوجي، ما تزال تحدث لمجتمعات اخرى الى يومنا هذا».

لذلك نستطيع ان نتخيّل احساس شاعرهم، وهو يغنّي بهذه الكلمات:-

«اتلفّت خلفي نحو الجبال العالية،
صوب «بنقارنجي»
صوب «ووريني» و «لفلاق»
نمشي نحو اسلهول ومَصبّ الوادي،
اشعر بالحزن،
اذ نفارق المخلْ،
تلك الجبال الصخريّة عند «دارنقوا»
وجبهة الجبل التي اسمها «بلاويرو»
نقتفي اثر الكانغرو
عبر السهل الواسع،
ابكي لانني اضعت «مكاني»
يتفطر قلبي وانا اقف في السهل المنبسط،
انتظر هطول المطر»

هذه الكلمات على بساطتها الا تثير في نفسك شجناً ليس غريباً عليـ... تعرفه في الشعر العربي القديم؟ الا تذكرك هذه الكلمات بقول زهير ... ابي سلمى؟:-

لمن طللٌ كالوحْي عافٍ منازلُهْ
عفا الرُّس منه، فالرُّسيسُ، فعاقِلُهْ
فرَقْدٌ، فصاراتٌ، فاكنافُ منْعج،
فشرقيُّ سلمى، حوضُه فاجاوِلُهْ
فوادي البديّ فالطَّويُّ فثادِقٌ،
فوادي القنانِ، جِزْعُه فافاكِلُهْ،
وغيثٍ من الوَسْمى، حُوٌ تلاعُه
اجابت روابيه النِّجاء، هو...

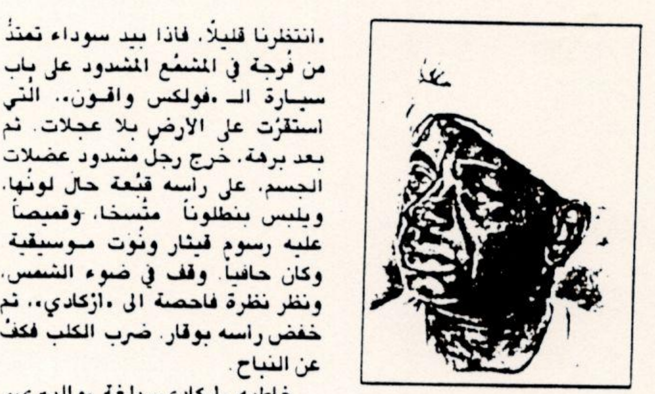
انظر الى ذكر الاماكن هنا وهناك، وان الشاعر يغمغم بها كـ... طلاسم. تخيل شاعر الـ (ابوروجنيز) وهو ينتظر المطر، والشاعر العربي وقد تذكر المطر يهطل في زمان مضى. ثم تأمّل ان الطلل العربي ليس مكاناً واحداً، ولكنه واسع شمل عدّة امكنة، وانه مثل سطور كتاب امحُت واختلط بعضها ببعض.

تقول كأنها.. لعلّها.. دروب الغناء ■

(للحديث بقية)



نحو أفق بعيد ٦٩



بقلم الطيب صالح

«انتظرنا قليلاً. فاذا بيد سوداء تمتدُ من فُرجة في المشمَع المشدود على باب سيارة الـ «فولكس واقون»، التي استقرَت على الارض بلا عجلات. ثم بعد برهة، خرج رجل مشدود عضلات الجسم، على راسه قبُعة حال لونُها، ويلبس بنطلوناً متَسخا، وقميصاً عليه رسوم قيثار ونُوت موسيقية وكان حافياً. وقف في ضوء الشمس، ونظر نظرة فاحصة الى «ازكادي»، ثم خفض راسه بوقار. ضرب الكلب فكفَ عن النباح.

خاطبه «اركادي» بلغة «والبيري»، اصغى الرجل صامتاً. ثم اختفى وراء المشمَع.

● قلت لـ «اركادي»: انه يذكَرني بهيلا سلاسي.

- اكثر هيبة.

● اكثر هيبة. صدقت. بكثير. هل يعود؟

-قال «اركادي»: «اظن».

● «هل يعرف الانجليزية؟».

-نعم. ولكنه يابى ان يتحدَث بها. الانجليزية ليست لغته المفضَلة.

علمت من «اركادي» ان سوء الحظ شاء لقبيلة الـ «كايْتيجي» ان تقطن عند ممرْ خط التلغراف، لذلك اضطروا للاتصال بالبيض مبكرا. تعلَموا صنع السكاكين ورءوس الرِماح من زجاج الموصَلات السلكية. اراد البيض ان يرعبوهم ليكفوا عن ذلك، فقتلوا عدداً منهم. اخذ الـ «كايتيجي» ثارهم فقتلوا عدداً من البيض. كنا قد مررنا من قبل، بقبر عامل التلغراف، الذي استطاع وهو في الرمق الاخير، ان يدقَ على التلغراف رسالة الى زوجته في «أدليد». كان ذلك عام ١٨٧٤، وقد اصيب بطعنة رمح. ظل البوليس يقتل الـ «كايتيجي» انتقاما حتى عام ١٩٢٠.

راى «الان» وهو صبي، اباه واخوته يقتلون رميا بالرصاص.

● تقول انه اخر من بقي منهم؟

- اخر من بقي من عشيرته، نعم. في هذه الناحية.

استندنا الى جذع شجرة صمغ، واخذنا نتابع الحياة تسري في المخيَم. «ميفس» و«روبي» ذهبتا لزيارة صديقاتهما. «بخ توم» استسلم للنوم. «تمي» يجلس القرفصاء، ويبتسم.

الارض عطشى، يابسة، مشققة. صف طويل من النمل، يدبُ نشطا على مقربة مني.

● قال «اركادي» فجاة: «اين «ماذيون»؟ كان يجب ان تصل منذ ساعات. على اي حال، لنصنع الشاي».

جمعتُ الحطب، واوقدت النار، واخرج «اركادي» عدَة الشاي من المتاع. اعطى «تمي» شطيرة لحم فالتهمها في الحال، وطلب شطيرة اخرى بطريقة رجل تعوَد ان يامر فيُطاع.

كاد الماء يفور، حين طرقت اذاننا فجاة ضوضاء كبيرة في المخيَم. ولولت النساء، وركضت الكلاب، واسرع الاطفال والكلاب يبحثون عن مكان يحتمون به. راينا صرحاً عاليا من غبار احمر يداهمنا.. اعصار الـ «ولي -ولي».

تقدم الاعصار وهو يدوِي ويزمجر. امتصَ في جوفه اوراق الشجر والحطب وصفائح الحديد، ودفعها الى اعلى والتف حولها مثل حلزون، وكنس ارض المخيم وعبر الطريق.

لحظات، ثم سكنت الضجة، وعاد كل شيء كما كان.

بعد قليل، قدم علينا رجل في اواسط العمر، يلبس قميصاً ازرق، سماوي الزرقة، راسه عار، بلا قبعَة. على راسه شعيرات قليلة، بيضاء، جعدة. وكذلك على ذقنه. ذكَرني وجهه الواضح المبتسم بوجه ابي. هبط على مؤخرته، واخذ كوباً كبيراً، صب فيه كمية كبيرة، من السُكر.

كلمه «اركادي»، فاستمع له الرجل دون ان يتدخُل، ولما سكت «اركادي»، ردَ عليه الرجل بصوت خفيض وهو يخط باصبعه رسوماً في الرمل. ثم اتجه نحو سيارة «الفولكس واقون» التي اتخذها الرجل العجوز «الان» داراً.

● سالت «اركادي»: «من هذا؟».

- ابن اخت الرجل العجوز وهو ايضا مدير اعماله الروحي

● وجاء يطلب ماذا؟

-يمتحننا.

● هل نجحنا في الامتحان؟

-توقَع ان يشرَفنا الشيخ.. الـ (Boss)

● متى؟

-قريبا.

● يا ليتني استطيع ان افهم حكاية مدير الاعمال الروحي هذه.

-صعب.

هبَ الدُخان من نار الشاي في وجوهنا. طرد الذباب على الاقل. اخرجت دفتري ووضعته على ركبتي.

قال «اركادي» ان الخطوة الاولى هي ان افهم مغزى عبارتين من كلام الـ «ابوروجنيز».. عبارة «كِزدا» وعبارة «كتنقورلو». الرجل الكبير «الن» هو «كِزدا».. اي «الرئيس».. او «صاحب» الارض التي سوف نزورها. هو المسؤول عنها.. يعتني بها.. يتاكد ان تظل الارض في عافية.. اغانيها وشعائرها تؤدى في اوقاتها. الرجل في القميص الازرق هو الـ «كُتُنقورلو» بالنسبة لـ «الان». انه مساعده ومدير اعماله، وهو ينتمي الى «فخذ» طوطمي مغاير رغم انه ابن اخت «الان» سواء حقيقة او تخيلا. كلمة «كُتنقوُرلو» تعني «ذا رجم».

● قلت هذا يعني ان مدير الاعمال، له دائماً «حلم» مختلف عن الرئيس.

-نعم. هو كذلك.

قال «اركادي» ان كلًا من الرجلين، يتمتَع بحقوق طقوسية متبادلة في ارض الاخر، وهما يعملان معاً كفريق واحد لرعاية ارض الطرفين. وكون «الرئيس» دائما اسنُ من «مدير الاعمال» معناه ان الحكمة الطقوسية حكمة قبلية، تنتقل من جيل الى جيل.

● قال «اركادي» ان الاوروبيين ظنوا اول عهدهم بالـ «ابوروجنيز» ان «الرئيس» هو شخص مثل مدير مصنع او شركة، وان «مدير الاعمال» شخص لا وزن له... كانوا جاهلين.. قال ان الـ «ابوروجنيز» احيانا يفسرون وظيفة الـ «كتنقورلو» بانه بمثابة الشرطي. الرئيس لا يخطو اي خطوة دون موافقة الشرطي. خذ حالة «الان».. يقول ابن اخته انهما تعيسان لان خط سكة الحديد سوف يُخرِب مكانا مهمًا من اماكن «الحلم».. حيث يرقد «الضب» ابو العشيرة... ولكنْ هو الذي سوف يتخذ القرار، وليس الرئيس. (Boss) هل يخرجان معنا ام لا.

-الامر المدهش في هذا النظام هو ان «مسؤولية» الارض، ليست في يد «المالك» ولكن في يد فرد من افراد العشيرة المجاورة.

● والعكس بالعكس.

-تماماً.

● اي ان الحرب بين الجارين تصبح صعبة.

-بل مستحيلة.

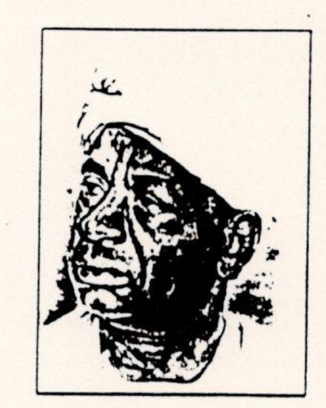
كانْ امريكا وروسيا.. كانُ كل واحدة منهما تملك حق رسم السياسة الداخليَة في البلد الآخر.

«هُسْ. ها هما قادمان».

من كتاب «دروب الغناء» للكاتب الانجليزي «بروس شاتون».

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد ٧٠



بقلم الطيب صالح

يقول الكاتب الاسترالي «جيمس كَوَانْ» في كتابه «اسرار زمن الحلم»:

«علينا ان نفهم كيف يتحول الحيِّز الطبيعي الى تعبير ميتافيزيقي عامر بالمعاني، معبِّرا بذلك اصدق تعبير عن الروح المميّزة لشعب الـ «ابوروجنيز». وحتى يتسنّى لنا ذلك، فلا بد لنا من ان نفكّ الالغاز والاسرار التي تحيط بتاريخ الارض والشعب. وعلينا باديء ذي بدء ان نطلق عنان خيالنا، ونتعوَّد على التفكير بالرمز والمجاز.

لا يُجدينا ان نستمع الى صوت الطبيعة، من وراء حجاب الحكمة الاوروبية، تلك المادة التي استسلمنا لها منذ انهيار الروحانية الدينية النُخبوية في القرن الرابع عشر وحتى القرن الخامس عشر. كل ما نلناه هو اننا قطعنا الصلة مع منابعنا الروحية العميقة، وفقدنا القدرة على ان نرهف السمع لتلك الاصوات الخفيّة الغامضة التي تحيط بنا على الدوام.

تلك القدرة على النظر الى المحسوسات المادية في الطبيعة، كانما من موقع خارج الزمن، هي قدرة يتميز بها الـ «ابوروجنيز» بدرجة خارقة. انها بحق رهبة اتاحت لهؤلاء القوم العيش والاستمرار منذ اقدم العصور. ويمكن القول ان ثقافة الـ «ابوروجنيز» هي اقدم ثقافة ابتدعها الانسان، وانها اكثر الثقافات صلابة، وانها عاشت دون ان ينال منها التشويه الذي يرتبط بما يطلق عليه «انحلال الثقافة». تلك فكرة اوروبية طارئة. فحتى وصول الاوروبيين في القرن الثامن عشر، ظلت ثقافة الـ «ابوروجنيز» التي عاشت على الارجح منذ اربعين الف عام، تعطي الدعم الروحي اللازم لمجتمع في اوج ازدهاره الاجتماعي والوجداني.

علينا ان نعي كيف نظر الـ «ابوروجنيز» الى الارض وماذا وجدوا فيها. علينا ان نغيِّر نظرتنا الى المثلوجيا على انها نوع من التعبير البدائي المتخلِّف، ونقبل بانها لغة ميتافيزيقية بالغة التعقيد للتعبير عمّا يمكن ان يُسمى بالحقيقة. سوف يتَّضح لنا حينئذ ان قصَّة يحكيها شعب ما عن جبل او نهر او شجرة، ليست لغواً تافهاً، وانما هي تعبير عن احداث حقيقية، في نظرهم، بطريقة رمزيّة مجازية.

وهكذا حين تواجهنا تلك الصخور الضُخام في وسط استراليا، المسمَّاة بصخور «الُورو» سوف يواجهنا في آن واحد، جسم مادي في هيئة صخور، وايضا وجود ميتافيزيقي هو عبارة عن الاساطير والرموز التي تحيط بتلك الصخور. ولا يبعد عن فهم الـ «ابوروجنيز» ان الصخور تكونت بفعل عوامل الطبيعة من شمس ومطر ورياح، ولكنهم يعتقدون ان ذلك لم يحدث ضربة لازب، وان قوى الطبيعة تخضع لقوى خفيَّة تنفخ روحها في الاشياء وتحدد مسارها..

هكذا صار الفراغ الممتد في الطبيعة ينطق بلسان المجاز الاسطوري. لم يعد عراء لا حياة له، ولكنه اصبح «ببلوغرافيا»، سجلاً غنيًا بالمعاني، لشعب يملك ذاكرة قوية لا يفلت منها شيء، وحاسة مرهفة قادرة على توصيل المعلومات طازجة غضة كما جاءته اول مرة.

لا يجوز ابدا الاستخفاف بملاحم الشعب وطقوسه. ان القاصّ الذي يروي تاريخ الحلم لموقع من المواقع التي تحيط بتلك الصخور، يقوم بدور خطير قُدِّر له منذ وُلد. وكل موقع له قاص. فاذا كان القاصُ من قبيلة «الارنب» مثلا، فان مهمَّته ان يتذكر الاساطير الخاصة بموقع قبيلته، ويوصلها الى بقية افراد القبيلة اثناء الاحتفالات الطقوسية التي تقام في ذلك الموقع. وكذلك القاصّ من قبيلة «الثعبان» وقبيلة «الكانغرو» وغيرها.

على كلٍ واحد منهم ان يوصِّل ادق تفاصيل الحلم الى افراد قبيلته، كي يشاركوا جميعا في استرجاع اللحظة البكر في الزمن الاول، وحتى تستطيع القبيلة ان تضيف حلمها الى احلام القبائل الاخرى.

تلتقي قبائل القطر جميعاً في مواسم معينة تجيء من الانحاء. تعسكر في موقع خاص له دلالة عندهم. تقام احتفالات من الطقوس والرقص والغناء. كل قبيلة تحكي تفاصيل حلمها وتستمع الى احلام الاخرين. كل قبيلة تضيف جزءاً الى ذلك النسيج الواسع الذي يسمونه «زمن الحلم».. نسيج متنوع الاجزاء يسع القبائل جميعاً» ■

(للحديث بقية)



نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

ربما يغفر المرء بعض الغفران لاوروبا، ما الحقه استعمارها بالبشرية من اضرار جسيمة، انها انجبت على مر العصور رجالا شرفاء ونساء، دافعوا بشجاعة عن حقوق الشعوب المغلوبة على امرها، وكانوا في احيان كثيرة يقفون في وجه تيار قوي مناهض لهم

من هذه الزمرة الكريمة، برفسر «في. جي كيرنان» استاذ التاريخ الحديث في جامعة «ادنبره» سابقا. لقد صدر كتابه المهم «سادة الجنس البشري» اول مرة عام ١٩٦٩. كان الاستعمار الاوروبي قد اخذ ينحسر حينئذ، ولكنه لم ينته تماما. وكانت المبررات الخلقية والفكرية للنظام الاستعماري - ما تزال سائدة. لذلك كان برفسر «كيرنان» من العلماء الاوائل في اوروبا، الذين دمغوا، باسلوب عميق مؤثر، الوحشية التي اظهرها الاوروبيون، في فرض نفوذهم على شعوب اسيا وافريقيا والامريكتين. وكان ايضا من الاوائل الذين نوّهوا بان ثقافات الشعوب التي اعتبرها الاوروبيون بدائية، تنطوي على حكمة انسانية عميقة، لا تقل اهمية عن الحكمة الاوروبية، بل تفضلها في كثير من الاحيان.

يقول برفسر «كيرنان» في الفصل من كتابه عن شعب الـ «ابوروجنيز» في استراليا «الاعتقاد بان ما يسمّى بالشعوب المتخلّفة، لن تستطيع ان تستجيب لمتطلبات الحضارة، ولا سبيل امامها الا الانقراض، كان اعتقادا شائعا لدى كثيرين من طلائع الاستعمار الاوروبي. ولم يكن بين قبول هذا الافتراض، والتعجيل بذهاب تلك الشعوب الى العالم الاخر، الا خطوة قصيرة. هذا ما حدث في جزيرة «تسمانيا» بشكل لم يسبق له مثيل، منذ ان فتكت جحافل الاسبان بجزر البحر الكاريبي...

وفي الارض الام (استراليا) اخذت بشاعات مماثلة تتكشف يوما بعد يوم. لعلها لم تصل الى حد القضاء قضاء مبرما على الاهلين، في شكل «حل نهائي» كما حدث في «تسمانيا». لم يستطيعوا ذلك، لان الارض كبيرة، انتشرت فيها قبائل الـ «ابوروجنيز» على مساحات واسعة، ولان البيض ارادوا ان يبقوا على اعداد من الاهلين، كطبقة من الارقاء. ولا ريب ان نظام «المهجّرين المجرمين» كان له اثر عميق على نظرة الاوروبيين الى الـ «ابوروجنيز».

في عام ١٨٣٤ وحده، نُفي الى استراليا من هؤلاء السجناء، اكثر من خمسة الاف ولما احتجت سلطات «نيوسلوث ويلز» انها لن تستطيع استقبال المزيد منهم بعد عام ١٨٤٠، صاروا ينفونهم الى غرب استراليا حتى عام ١٨٦٧. ولما توقف المد كان مجموع السجناء الذين ابعدوا الى استراليا، قد بلغ ١٣٧,٦١ اي ما يقارب نصف تعداد السكان السود. ولا شك ان كثيرين من اولئك السجناء كانوا افضل اخلاقا من القضاة الذين ادانوهم ولكنهم فسدوا بعد ذلك بالعيش في مناخ اجرامي. وفي ظل النظام الاستعماري، كان فقراء البيض يجدون عزاء في احتقار الملوّنين. وكان السجناء المعتقون يحاولون ان يقووا الثقة بانفسهم ويكسبوا الاحترام، بالامعان في تعذيب السود واضطهادهم وكانت جماعات من السجناء، تعمل تحت الحراسة المسلحة عند كبار الملاك من المزارعين، فلا غرو انهم وقد استعبدوا ابناء جلدتهم من البيض، لم يكونوا يجدون في قلوبهم قطرة من الشفقة على شراذم من السود.

احس «شارلز داروين» بالرضى اول مرة زار فيها استراليا، من مظاهر التقدم الذي تمّ بفضل نظام السُخرة، مثل انشاء الطرق بكلفة زهيدة. ولكن احساسه تغيّر في زياراته اللاحقة. لقد احسّ حين اقام في مزرعة يعمل فيها اربعون من السجناء، ان نظام السُخرة، سوف يفسد المناخ الاجتماعي، وان السلوك الاجرامي الشائع سوف يُعدي الوافدين الجدد، وان الفساد الاجتماعي سوف يتسع ويستمر.

كان سهلا على البيض ان يمتهنوا اولئك القوم الوديعين المسالمين، اسهل كثيرا مما تأتّى لهم مع قبائل الماوري الشجعان الاشاوس، وهو امر ان دلّ على شيء فانما يدل على ضعف الاثر المسيحي على سلوك المستعمرين. كانت استراليا مثل نيوزيلنده، ارضا لا تكفل رغد العيش الا لاولئك الذين يملكون نواصي التكنولوجيا المتقدمة. وانه لامر يدعو الى الاعجاب حقا، ان الـ «ابوروجنيز» نجحوا رغم مهاراتهم المحدودة، ان يستمروا في العيش اصلا. ولا جدال، انهم استخدموا ما تيسر لهم من مهارات، احسن استخدام.

كانوا صيّادين على درجة عالية من المهارة، وقد ابتدعوا سلاح الـ «بومرانج» المدهش، الذي لم يستطع البيض رغم تفوقهم التقني، ان يبتدعوا مثله ... ان الحرب كانت تشب احيانا بين القبائل ولكنها كانت حروبا صغيرة قليلة الضرر. ولم تكن تحدث الا قليلا، بسبب اتساع الارض، وبعد القبائل بعضها عن بعض

لم يحسّ الـ «ابوروجنيز» بالخوف من الرجل الابيض اول ما التقوا به. فقد كانوا قوماً ودودين، لا يعرفون الخوف، بعضهم يثق ببعض، وقد وثقوا بالرجل الابيض وظنوه «اخاً في الانسانية»، بل ان قبيلة منهم ظنت الرجل الابيض روحاً من ارواح اسلافهم بعثت الى الحياة على تلك الصورة. اما الرجل الابيض فقد كان ابعد ما يكون عن اعتبار انسان الـ «ابوروجنيز» اخا في الانسانية

لم يحسّ الرجل الابيض بحاجة الى اخفاء احتقاره او السيطرة على غطرسته، ازاء «الاهالي» العزّل من السلاح الذين لا يملكون وسائل الدفاع عن انفسهم. وقد اصدر قائد حملة استكشافية عام ١٨٦٠، وهو رجل يُدعى «بيرك» الاوامر الى رجاله :

«اذا احسستم منهم باي استفزاز، لا تترددوا في اطلاق النار عليهم في الحال

انه لامر يدعو للعجب ان الرجل الابيض كان يشتط غضباً، اذا ابدى «الاهالي» اي استعداد للمقاومة، واذا تفرّقوا خوفا من طلقات الرصاص، يحتقرهم متهما اياهم بالجبن، ورغم ذلك فقد كان هؤلاء القوم البؤساء يغدقون على الاوروبيين الوانا من الرأفة والشفقة حين يجدون احدا منهم في شدّة. كانوا يرأفون بهم كما يرأفون باطفالهم. وقد اعتنت مجموعة منهم برجل يدعى «كنج» ضلّ الطريق فاقام في ضيافتهم وعنايتهم زهاء شهرين. وقد قال كاتب معاصر (الان موزهد) ان المذكرات التي تركها «كنج» عن تجربته تعدّ «اروع سجل للعرفان بالجميل، وهي كلمات تهز المشاعر وتقدم خير دليل على انسانية الابوروجنيز. ولعلها ايضا بمثابة مرثاة للسود في «خليج كوبر» بعد ان انقرضوا الان كلية».

اقتطع المستوطنون البيض، الذين وصلوا حثيثاً على اثر الرواد المكتشفين، مساحات واسعة من الارض جعلوها مراعي لتربية الاغنام والخيول. كانوا ... شرسا من الرجال الذين جابوا الافاق بحثا عن الثروة وكانوا بمنأى عن اي سلطة ... من غطرستهم. وقد وجدوا في استراليا قوما يختلفون عن الماوري الاشداء، فساغ لهم استضعافهم، ولم يجدوا ما يحملهم على الاعتراف بحقهم في ملكية الارض. كانوا يسخّرون اعدادا قليلة من الاهالي في اعمال بغيضة. هؤلاء كانوا ينفصلون عن قبائلهم بمرور الزمن ويصبحون «مدجّنين» في نظر البيض. اما بقية الـ «ايبو» كما كانوا يسمّونهم احتقارا فكانوا يتركونهم هملا مثل الوحوش الضالّة.

اما النساء فقد كان امرهن مختلفا. هؤلاء عندهن دائما شيء يُطلب، ومهما امعن البيض، هنا وفي جنوب افريقيا، في احتقار «الاجناس المنحطّة» فان هذا الاحتقار لم يمنعهم من معاشرة نسائهم. لذلك فان غالبية الملونين في تلك البلاد اليوم، هي من دماء مختلطة.

ماذا يفعل الناس حين تغتصب منهم اراضيهم غير اللجوء الى النّهب، حينئذ ... البيض المغتصبون مبررا اخلاقيا في ابادتهم، امّا رميا بالرصاص، او بالسُّم او ... وسيلة فعّالة في عرفهم. وكانوا يقولون ان السود ليست لهم ارواح، لذلك فان التخلص منهم لا يعتبر قتلا.

ثارت احتجاجات في انجلترا من قبل الناس الذين يحتجون عادة على مثل هذه الامور، ولم يعدموا من يستمع اليهم. ففي عام ١٨٣٧، اعلنت لجنة برلمانية كان مستر «جلادستون» احد اعضائها عن استنكارها للاعمال البشعة التي كان البيض يمارسونها ضد السود في استراليا، ووصفتها بانها «من البشاعة بدرجة لا يقبلها العقل». وقد وجهت الحكومة البريطانية من لندن نداءات استنكار الى استراليا، لم يكترث لها المستوطنون. وحين مُنحت استراليا الحكم الذاتي عام ١٨٥٥ - ١٨٥٦ انتهت اي سيطرة لبريطانيا على مجريات الامور هناك. لم تحتفظ الحكومة البريطانية باي حق في حماية الاهالي وضمان حقوقهم، في حين انه ضمنت لنفسها جني الارباح من الاستثمارات واستيراد لحوم الضان، دون ان تكلف عناء السؤال عن الوسائل ... تجيء بها تلك الهبات.

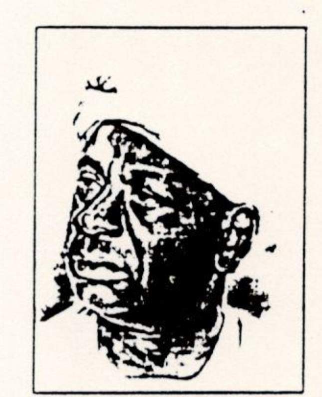
سادت في اوروبا كلها في ذلك الوقت فلسفة روّج لها ممثلو الاستعمار في تلك البلاد المقهورة، ان الشعوب «المنحطة» لا مفر لها من ان تُستبدل، بل ان تنقرض في النهاية، وان ذلك امر طبيعي مثل ضحايا المناجم ومصانع الغزل في اوروبا. لا بد ان يصير التقدم ولا بد من دفع الثمن لهذا التقدم والافضل ان يدفع اخرون هذا الثمن. وهكذا نجد «لورد روزبيري»، الذي استدرج حزب الاحرار الى تبني الامبريالية يستلهم هذه الفلسفة في خطابه الذي القاه في «ادليد» باستراليا عام ١٨٨٣

«ان الاقدار قد اختارت العنصر البريطاني ليحمل الرسالة ويكون معبّرا عن امال البشرية في الرُقي والتقدم».

هكذا طغت في استراليا، ليس فكرة «اخوة الانسان» ولكن فكرة «اخوة الانسان الابيض»■



نحو أفق بعيد ٧٢



بقلم الطيب صالح

هل ظننت انني انصرفت عنك بكل ذلك الحديث عن شعب الـ«ابوروجنيز» الوديع ؟ معاذ الله . لعلني اطنبت فيه ، لان الاسى يبعث الاسى. معاذ الله يا سيدي ، فقد كنت معي ابداً ، وانا اجوس هذه الديار التي اقامها قومٌ على انقاض قوم . ارى واسمع واحزن كما قال البحتري :

ذاك مني وليست الدارُ داري
باقتراب منها ولا الجنسُ جنسي

وكثيرا ما جال في خاطري بيتك العجيب ، الذي لا يبدو ان له صلة بهذا المقام ، لا ادري لماذا. كيف قلت ، غفر الله لك ؟

لقيتُ بدرب القُلّة الفجرَ لقيةً
شفتْ كبدي والليلُ فيه قتيلُ.

انني لقيتُ الفجر بعد ذلك ، بين «سدني» و«طوكيو» . فماذا اردت من تذكيري بقولك هذا الآن ؟

يقول الشيخ ناصيف اليازجي في شرحه :

«درب القُلّة موضع وراء الفرات . والدرب كل مدخل الى بلاد الروم . والقلّة اعلى الجبل . وقوله والليل فيه قتيل حال . ويُروى «شفتْ كمدي» . اي انه بدا له الفجر عند هذا المكان فاشتفت كبده بانصرام الليل كما يشتفي العدوُ بنكبة عدوه . وجعل الليل قتيلا لظهور حمرة الشفق عند انقضائه فشبهُها بالدم» . انتهى .

وربما يكون «درب القلّة» هذا ، هو الموضع الذي عبر منه امرؤ القيس الى بلاد الروم ، وقال في ذلك بيته المشهور:

بكى صاحبي لما راى الدرب دونه
وايقن انا لاحقان بقيصرا

وقد حدثني العالم الموريتاني الجليل ، الشيخ سالم ودّ عدّود ، ان «الدرب» في قول امرىء القيس ، تعني الحدود الفاصلة بين بلاد الحرب وبلاد الروم . ويرى استاذنا العلامة الدكتور ناصر الدين الاسد ، ان «الدرب» مكان بعينه . ومهما يكن فان «قتيل الليل» الذي راه المتنبي في ذلك الموضع ، امره عجيب .

اما الشيخ عبد الرحمن البرقوقي ، فانه يشرح البيت كما قال اليازجي ، حذوك النعل بالنعل ، ولكنه يزيد:

«يقول ابن جنّي : سالته ، يعني المتنبي ، عن معنى هذا البيت فقال: - وافينا القُلّة في وقت السحَر ، فكاني لقيتُ بها الفجر . ثم سرنا صبيحة ذلك اليوم الى العصر اربعين ميلا وشننا الغارات وغنمنا وشفيت كمدي لانحسار الليل عني ، والليل قتيل في ذلك الموضع . فكانُ النهار لما اشرق بضوئه على الليل قتله وظفر به» .

ان كان المتنبي حقًا قال هذا الكلام ، وان ابن جني فهم عنه قوله تمام الفهم ، فلا بد ان الشاعر اعطى مُريده ابن جني ، بمقدار. فكل من اطال صحبة هذا الشاعر العبقري ، يدرك ان الامر اجل من محض ليل ينحسر ، ونهار يطلع ، وضوء يفتك بالظلام . ولا يغيب عن البال ، ان القصيدة تتحدث عن صراع دموي بين قوى الخير والشر والحب والبغضاء والثار والاخذ بالثار . هذا قتل عظيم ! حتى الحب دونه الموت :

يحرّمه لمع الاسنة فوقه
فليس لمشتاق اليه وصولُ.

ما اغزر الدماء في هذه القصيدة ، دماء تفيض حتى تصبح طوفانا تخوض فيه الخيل :-

فخاضت فجيع الجمع خوضاً كانه
بكل نجيع لم تخضه كفيل

تُسايرها النيرانُ في كل مسلك
به القومُ صرْعى والديار طُلولُ

وكرُت فمرُت في دماء مَلطية
مَلطيةُ امٌ للبنين ثكول .

كل هذا راه الشاعر قبل ان يحدث حين راى الليل قتيلا بـ «درب القلة» او بالاحرى راى قتيلا في الليل . في تلك اللحظة كان الشاعر منتصراً ومهزوماً ، قاتلا ومقتولا مشاركاً في الاحداث ، ومبتعداً عنها مراقبا لها .

يقول المؤرخون ان سيف الدولة عبر الفرات الى دلوك الى قنطرة صنجة الى درب القلة ، فشن الغارة ، فعطف عليه العدو ، فقتل كثيراً من الارمن ورجع الى مَلطية ، وعبر قباقب حتى ورد المخاض على الفرات ، ورحل الى سميساط ، فورد الخبر بان العدوُ في بلد المسلمين ، فاسرع الى دلوك وعبرها ، فادرك جيش العدو راجعاً الى جيحان فهزمه واسر قسنطين بن الدُمستق وخرج الدمستق على وجهه .

كل هذا راه الشاعر رأي العيان في الواقع ، وكان قد راه بعين الشاعر قبل ان يحدث ، فكانُ القتيل الذي لقيه بدرب القُلّة لم يكن قتيلا واحدا ، بل جموعا من القتلى لما يزالون في ضمير الغيب .

كان النصر غالبا سالت فيه دماء كثيرة ، من الروم ومن العرب ايضا . والشاعر يزهو بنصر العرب، وفي الوقت نفسه لا يعدم الرثاء على العدو المهزوم ، كيف لا وهو يسمع ولولات النساء وانات الجرحى . وانا لا اجد شماتة في هذين البيتين ، اللذين يخاطب بهما الدُمستق ، وقد نجا بنفسه وترك ابنه للاسر ، بل اجد عاطفة لا تبعد عن الحزن:

نجوتَ باحدى مهجتيك جريحة
وخلفت احدى مهجتيك تسيلُ .

أتسلم للخطّيّة ابنك هارباً
ويسكن في الدنيا اليك خليل ؟

الحزن ، حتى في مثل هذا الموقف ، لا يستغرب من هذا الشاعر العظيم ، فهو خبير باحوال الناس ، عليمٌ بتقلبات النصر والهزيمة ، وقد عانى ما عانى ، مهزوم حتى في اوقات انتصاره عليه ، كما قال الرّافعي ، سيماء الملك المخلوع .

لذلك تجده ينصرف فجاة عن مدح سيف الدولة ، ويلوذ بنفسه ، في ابيات مُتْعبة كانها لا تمت الى القصيدة بصلة ، وكانها قصيدة منفصلة . يبدؤها متحدُيا:

اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقاتٌ لها وطبولُ

يقول الشارح في معنى هذا البيت: يقول اذا كنت سيف الدولة ، فان غيرك من الملوك بمنزلة البوق والطبل ، اي لا يغنون غناءك ولا يقومون مقامك.

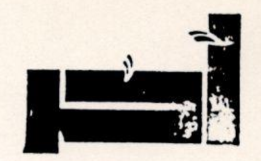
هذا كلام لا نفع منه . الا ان الشارح يضيف دون اكتراث :

«وقال العروضي: اراد بالبوق والطبل الشعراء الذين يشيعون ذكره ويذكرون في اشعارهم غزواته ...»

صدق العروضي ، فهذا ما قصده اليه الشاعر ، وقد عنى نفسه على وجه الخصوص . انظر كيف قلل من شان سيف الدولة «بعض الناس .. سيفا .. لدولة» ثم انظر كيف رفع من شان نفسه ، فصوُر انه طبول تدوُي وبوقات تصك الاسماع . وكان حزينا وكان مهزوماً ، لانه كان يدرك في قرارة نفسه ، ان الامير في واد وهو في واد .

●●●●

رحمك الله . لقد وقفت وقفةً «وجوديّة» كما يقال هذه الايام ، في لحظة كانها خارج حدود الزمان والمكان ، في ليل ليس كالليل ، ووراءه فجرٌ ليس كالفجر ، تحمل ثاراً غامضاً ، وطموحاً لا يُحد ، وحبًا مثل البغضاء ، وغروراً بنفسك لا يقرك عليه احد . الفجرُ لم يشف كمدك كما زعمت ، بل زادك كمدا سمعت انين الجرحى ورايت دماء القتلى. واذ انك متُ قتيلا بعد ذلك ، فلعلك رايت دمك ينتشر في الافق . ويتشكل على هياة فجرٍ يخرج من جوف الظلام .



نحو أفق بعيد ٧٣



بقلم الطيب صالح

قال لي المسؤول الكبير في وزارة الخارجية :-

«اسمع. كوننا نبيع القمح والزبد واللحوم للعرب، هذا لا يُحتم علينا ان نؤيد مواقفهم السياسية».

سافر «منسي» الى لندن، وكان قد عجز في ان يجد وسيلة يصحبني بها الى «طوكيو» فجئت الى «كانبرا» وحدي وقلت يا ليته كان معي فان وقاحته تنفع في مثل هذا الموقف.

العرب، لاسباب بعضها واضح وبعضها غامض، يثيرون احاسيس متناقضة عند الناس. الاعجاب والكراهية والخوف والطمع والحسد والاحتقار. على العربي ان يتوقع هذا ويصبر. صحيح ان الناس مخطئون في الغالب في حق العرب، ولكن العرب مخطئون اكثر في حق انفسهم. وكما بين الافراد، كذلك بين الامم. الناس حينما كانوا مشغولون، بمشاكلهم، ولا وقت لديهم لالتماس العذر للاخرين. واذا كان الامر كما قال «الاستاذ» :-

ولم ار في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التَمام.

فان الاحتقار يكون بمقدار «التَمام» المُحتمَل، و«النُقصان» الماثل للعيان. فليكن ذلك شاني مع هذا الرجل.

اعجبتني المدينة بقدر ما اغاظني المسؤول في وزارة الخارجية. وحاولت ان اجد له عذراً فيما بعد وانا اتمشى في «شارع الكمنولث» الواسع في اتجاه بحيرة «بيرلي قرفن». انها بحيرة اصطناعية ضخمة اعطوها اسم المهندس المعماري الامريكي الذي خطط مدينة كانبرا. وتقول الكتب ان طول شطانها يبلغ ٣٦ كيلومترا، وقد زرعوا على حافاتها الاشجار. زرعوا اثني عشر مليون شجرة في مدينة «كانبرا».

مدينة انيقة مجلوّة مثل عروس، تمشي في شوارعها كما كان يمشي فلاسفة اليونان في شوارع «اثينا» على عهد «بركليس».

حدثت نفسي، ان الرجل كان ولا بد، يطوي صدره على احساس بالاهمال والاهانة. لان احداً من كبار المسؤولين العرب لم يات لزيارته منذ زمن. واستراليا، مهما كان الامر، قارّة باكملها. قطر محظوظ. فيها كل شيء. كل امة تظن انها مركز العالم، «انسانُ عينِ» الكون. وما فائدة ان تُنشىء المدن وتشُق الطرق وتعمل بحيرات اصطناعية اذا لم يزرْك احدٌ يُعبّر لك عن اعجابه بما صنعت. الامم مثل الافراد، فيما يبدو، لا تحيا الاّ في عيون الاخرين. والعرب خاصة، يفهمون هذا الاحساس جيّداً، فهم دائما مشغولون بما يقول الناس عنهم.

قلت لنفسي، لعلّ الرجل حسبني مسؤولاً كبيراً، وما كنت كذلك، فعبّر لي عن احساسه بالاهمال، بتلك الطريقة الملتوية.

والحق ان العرب لم يكونوا يكترثون باستراليا تلك الايام. لعل الحال قد تغير الان. اغلب الدول العربية لم تكن لها سفارات في «كانبرا». والسفراء القليلون الموجودون كانهم في منفى، حين تزورهم يستقبلونك بترحاب عظيم، كما يفرح القريب النائي الذي لا يزوره احد من اقربائه الاّ لماماً. سفارات كانها مهجورة، لا احد يقف على ابوابها، والداخلون اليها والخارجون منها قليلون. كان السفير اللبناني في وضع مريح نسبيا . فلم يكن لبنان في تلك الايام ، قد اصابه الخراب الذي حاق به فيما بعد . كان مايزال يتشبث بالرمق الباقي من دوره «الحضاري» الذي اختاره لنفسه . يحكم العقل ، ويعمل على جمع الشمل ، ويدعو بالتي هي احسن . هذا ، والجالية اللبنانية اكبر جالية عربية في استراليا . بعض افرادها نزح منذ اكثر من قرن . منهم «مليونيرات» ورجال اعمال بارزون .

اما السفير المصري فقد كان في وضع صعب. كانت مصر قد ابرمت صلح «كامب ديفد» الذي عارضه اغلب العرب، وذهبوا في معارضته حدًا بعيداً، ونقلوا خلافهم حتى الى استراليا. فكانوا يتحدّثون بالسنة شتّى، بعضهم يناقض البعض الاخر. ولا شك ان المسؤول في وزارة الخارجية الاسترالية، كان على علم بكل ذلك. فكان سببا اضافيا في عدم اكتراثه بالعرب.

بعد ذلك في «طوكيو» عبّر لي مسؤول في وزارة الخارجية اليابانية عن فكرة مماثلة. كان رجلاً مهذباً، يتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة ملفتة للنظر. قال لي وهو يضحك

«هؤلاء العرب ماذا يريدون منّا؟ كل كَمْ شهر يجيئنا وفد يطلب منا ان نؤيد القضايا العربية. موقفنا واضح وقد اصدرنا به بياناً نحن لم نُعطِ وعد بلفور ولسنا مسؤولين عن قيام دولة اسرائيل، ولا نبيعها السلاح، ولا نعطيها الدعم الديبلوماسي. علاقتنا بالعرب علاقة بسيطة تقوم على التبادل التجاري. نشتري منهم البترول ونبيعهم السيارات والمعدات الالكترونية وغيرها. هذا كل ما في الامر».

اعجبتني مدينة «كانبرا» وهي كلمة من لغة الابوروجنيز تعني «مكان التجمُّع». وجدتُها كما احب ان تكون المدن ليست ضخمة بحيث يحس فيها الانسان بالضالة والغربة، وليست قميئة بحيث تقتحمها العين. فيها كل المقوّمات التي تجعل المدن مدناً.

بداوا في بنائها عام ١٩٠٨، في موقع بين المدينتين الكُبريَيْن المتنافستين، «سدني» و«ملبورن» على مساحة ٢,٣٤٩ كيلومتر مربع اقتطعوها من ولاية «نيو ساوث ويلز». وهي تمتد على نهرين، نهر «مورومبدجي» ونهر «مولونغلو». كلماتٌ لها مدلولات في لغة الـ«ابوروجنيز»، وحيث تقوم المدينة اليوم كان ولا شك مكاناً تتجمع فيه القبائل، تستعيد ذكرى تلك اللحظة البكر في «زمن الحلم». ولكن هذا حلم جديد، شيّده قدم اخرون، جاءوا من وراء البحر.

ظلوا يبنونها، ويحسّنونها ويجملونها حتى عام ١٩٨٨ حين افتتحوا مبنى البرلمان الفدرالي الجديد، بمناسبة مرور مائتي عام على قيام استراليا.

قلت للمسؤول في وزارة الخارجية، وكان قد اثار فضولي، كانه شخصية في رواية قصصية :

«ولكن... الا تهمّكم الجالية العربية في استراليا على الاقل؟»

قال :

«انها جالية صغيرة لا وزن لها».

قلت له :-

«تعدادهم حسب علمي اكثر من ثلاثمائة الف».

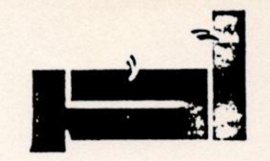
قال، وهو يتصنع الدهشة :

«حقا؟ هل هم بهذه الكثرة؟ لم اكن اعلم».

ثم زادني ايضاحاً، بعد ان فكّر قليلاً، وكانه يصف لي العرب اطلاقاً

«اذا كان عددهم كما تقول، فانهم من ناحية التاثير كانهم... كانهم لا شيء».

(للحديث بقية)



نحو أفق بعيد ٧٤

قال «منسي» فجأة، ونحن نمشي في ردهات «هيئة الاذاعة الاسترالية»: «بصّريا طيب. اوكّد لك الشاب دا عربي» قبل ان أمعن فيه النظر. كان «منسي» قد جرى نحوه:

«اسمع يا اخ. انت عربي، مش كده؟»



بقلم الطيب صالح

كنّا خارجيْن لتوّنا من اجتماع على الغداء، مع المدير العام لهيئة الاذاعة الاسترالية، وعدد من المسؤولين - دخل «منسي» مبتسماً، وخرج ضاحكا يقهقه. ولعله تذكر ايامه في هيئة الاذاعة البريطانية في لندن، حين كان يلهث في سيارته الـ «بنبل» من «كفرشام» الى «بوش هاوس» يترجم ويمثل، لقاء جنيهات معدودات. ورغم سعة حيلته فانه لم يصل الى المدير العام، الذي كان يجلس في افق بعيد المنال. ما اطول الطريق الذي قطعه. هذه ايضاً «هيئة» وهذا ايضا «مدير عام» يدخل مبتسما، عليه معطف من الفراء، و«بذلة» من الصوف الفاخر، وحذاء ايطالي من الجلد الغالي، لعلها «قوجّي». هذا «منسي» آخر لمن لا يعرفه، ولكنني اعلم انه في اعماقه لم يتغير، وان هذا المظهر البرّاق، مثل الزي المستعار الذي يرتديه الممثل ليؤدي دوراً على المسرح.

رحمه الله. انه الآن يمثّل دور السفير، المدافع عن كرامة العرب وسمعتهم. وهو دور لم يكلفه به أحد، ولم يتقاض عليه اجراً. وقد أدّاه احسن اداء، ونهض به على خير وجه. ولعله كان محقاً، فلو ان احداً كلفه بدور مهم، ربما كان يؤديه على خير وجه. ولكن احداً لم يطلب منه اي شيء. كل الادوار التي اداها، انتزعها انتزاعا.

تحدّث اثناء الغداء كانه مسؤول عربي كبير، قد يكون مستشاراً لحاكم او رئيس دولة. تعمّد ان يترك الأمر غامضا. وكان كعادته، يخلط الجد بالهزل، والصدق بالمكر، تسعفه فصاحته في اللغة، وبديهته الحاضرة، ومواهبه الكامنة.. وكان حين يحس انه في ورطة، ينظر اليّ بتلك الطريقة التي توحي بانني معاون له. وذلك، كما قلت، دورٌ راق لي، فقبلته عن طيب خاطر، لانه اتاح لي فرصة نادرة اشارك في الحديث، وأراقب «منسي»، فكأنني ممثل ومتفرج في الوقت نفسه.

شرّق بنا الحديث وغرّب، وكُنّا بين اناس مهذّبين مستنيرين، يقرعون الحجة بالحجة، ويدافعون بلطف، ويجادلون بذكاء. لذلك حين قال «منسي» هذا، لم يكن وقحاً ولكنه تحذّق وكانه يمزح: «من الواضح لنا ان وسائل اعلامكم ليست اكثر من صدى للاعلام الغربي. نفس التحامل علينا، والازدراء بنا وتشويه سمعتنا. انها اشياء اصبحت مملّة.. تعوّدنا عليها».

ضحك وهو يقول «تشويه سمعتنا»، وقد استعمل التعبير عمداً، بدهاء شديد، كما خيّل لي، بدلاً من التعبير المالوف «تشويه صورتنا». لم يكن قد قضى في استراليا اكثر من اربعة ايام، ولم يكن قد زار البلد من قبل، وليست له معرفة عميقة بما يجري فيه. انما تلك كانت صفة في طبعه، يقول دون مبالاة، ويرمي الرّمية قد تصيب وقد تخطىء.

كان واضحاً لي انهم بوغتوا بقوله، ولكنهم كانوا رجالاً اذكياء ذوي دُربة، فسارعوا الى تغطية احاسيسهم بوسائل شتى. بعضهم ابتسم، وبعضهم ضحك، وقال المدير العام:

«انتظر يا دكتور مايكل! هذا ليس عدلاً! انت تعلم ان هيئة الاذاعة الاسترالية مؤسسة مستقلة. لا تخضع لاي نفوذ. حتى الحكومة ليس لها سلطة عليها. انها مؤسسة محايدة تماماً.. نحن نغطي الشؤون الدولية بموضوعية كاملة.. لا يوجد اي سبب يجعلنا نتحامل على العرب، او.. نشوه سمعتهم كما تقول».

وكأنّ الرجل اراد ان يلوذ بي فيرتاح من «منسي» برهة، فوجه كلامه اليّ:
«هل هذا هو رايك انت ايضا يا مستر صالح؟».

لقد احدثت عبارة «منسي» اثراً، هذا لا ريب فيه، خاصة «تشويه السمعة». الاستراليون ايضا يحُسّون احياناً ان العالم لا يابه بهم، ولا يقدرهم حق قدرهم، ويتحامل عليهم في كثير من الاحيان. لا تكاد توجد امة، ليس في تاريخها شيء يسبب لها الحرج او الخزي. اليابانيون، ومعاملتهم للأسرى في الحرب العالمية الثانية. الالمان وما فعلوه باليهود وغير اليهود. الامريكان وضرب هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية. الفرنسيون وما فعلوه في الجزائر. الانجليز الذين ابتكروا معسكرات الاعتقال، وما فعلوه في فلسطين وافريقيا. والرّوس والصين والاسبان والبرتغال وهلم جرًا. قليلة هي الامم التي ليس في تاريخها عمل تتمنىّ لو لم يكن. لماذا اذاً تُلقى الاوْزارُ على العرب، وكيف اصبحوا وكانهم «الجناة» في التاريخ؟ لعلّ العرب يسالون انفسهم اولاً، قبل ان يلوموا الآخرين.

قلت له:
«لا اعرف على وجه اليقين ماذا تقدمون في برامجكم في الاذاعة والتلفزيون، فانني لم اقض وقتا كافيا هنا. ولكن بعض ما شاهدته، خاصة في نشرات الاخبار، يجعلني اعتقد ان دكتور مايكل ليس مخطئا. اما صحفكم، فمن الواضح انها تتحدث عن العالم العربي، اما عن جهل، او عن سوء قصد...».

وكأنّ «منسي» كان يقرا فكري، فقد اخذ الفكرة التي كنت انوي ان اطرحها، وانطلق بها:

«نعم. صحفكم على وجه الخصوص. لا يفتح الانسان اي صحيفة الاّ ويجد ذكراً لذلك الفلم التافه الذي كله اكاذيب، ولا هدف منه سوى الاساءه للعرب».

كانت تلك هي القضية تلك الايام. الشغل الشاغل لوسائل الاعلام، في اوروبا وفي امريكا وحتى في استراليا. مثل قضية «سلمان رشدي» هذه الايام. كل حين يخرجون بشيء جديد، يشغل الناس ويثير الجدل والبلبلة.

قال احد المسؤولين:
«على اي حال، الخطا خطؤكم انتم. والتقصير منكم انتم. لا توجد «مؤامرة» للاساءة للعرب كما تتوهمون. الامر ليس اكثر من عدم توفر المعلومات المطلوبة في الوقت المناسب. انتم لا تساعدوننا، ولا تساعدون اي احد، في الحصول على المعلومات.. بل كثيراً ما تخلقون العراقيل.. وسائل اتصالكم لم تفهم بعد، ان العالم مترابط، والعصر عصر معلومات».

واضاف المدير العام ضاحكاً، وكان اميلهم الى الضحك:
«ثم ان العرب يفعلون اشياء غير لطيفة احيانا.. فماذا تريدوننا ان نفعل؟ نتستّر عليها؟ نفرض عليها رقابة كما تفعلون انتم؟».

لم يدَع «منسي» هذا القول يمر دون رد. فلم يكن ذلك في طبعه، ولكنه سارع الى القول، وهو يضحك بخبث، كما تخيّلت:
«وهل ما تفعلونه انتم، لطيف دائما؟».

رفع الرجل يديه كمن يستسلم في معركة، وقمنا من المائدة، وكلٌ منا يبتسم او يضحك. وكان «منسي» اكثرنا سعادة، فقد حمل لواء العروبة خفاقا في ذلك الركن القصي من اركان المعمورة. أحسنَ اداء دور لم يُكلّفه به احد، ولم ينلْ عليه اجراً ولم يجْنِ من ورائه شكراً. فقط، استمتاع مجرّد باداء الدّور. لا اكثر.

كانوا رجالاً لطيفين بحق. قلنا لعلّنا تركنا عندهم افكاراً قد تثمر ولو بعد حين. كان «منسي» يحب هذا القول ويردّده كثيراً:
«ازم الخبر على وجه المياه، يُثمرْ ولو بعد حين». ثم ونحن نسير في الممر الطويل، اذا بذلك الشاب.
استوقفه «منسي» وساله:
«اسمع يا اخ. انت عربي، مش كده؟».
نعم، كان عربياً، وكان فلسطينياً مهاجراً، يعمل في هيئة الاذاعة الاسترالية، اسمه «ابراهيم الخوري»، اذا لم تخنّي الذاكرة ■

(للحديث بقية)



نحو أفق بعيد ٧٥



بقلم الطيب صالح

زارنا الشاب الفلسطيني في النُزل، مساء ذلك اليوم. كانت حقاً رمية موفقة من «منسي». فقد أصبح ذلك الشاب دليلنا فيما بعد، فتح لنا كثيراً من الابواب، وذلل لنا كثيراً من الصعاب. واخذ بايدينا في طرقات البلد الغريب. وعرّفنا على الجالية العربية في «سدني». وقد اضاف «منسي» تلك الحسنة، الى القائمة الطويلة من افضاله عليّ، وظل بعد ذلك كلما طاب له المجلس وراق له الجو، يذكرني بانه بذكائه وقوة ملاحظته ادرك فوراً، ونحن نسير في طرقات هيئة الاذاعة الاسترالية، بعد ان خرجنا من الغداء مع المدير العام، ان الشاب عربي.

«قول لهم يا طيِّب. مش دا اللي حصل؟ انت ماشي مش واخد بالك. انا عرفت في الحال... طيب بذمتك مش انا اللي نجحت لك المهمة؟ من غيري ماكنتش حتعرف تعمل حاجة... احكي لهم ازاي انا بذعت في الغداء بتاع المدير العام. الراجل ذهل.....».

كان ذلك في الرياض. كلما ازور الرياض الآن، اول ما اصل المطار، اتذكر «منسي». اكاد اراه راي العين. اول مرة زرت الرياض، بدعوة من الشيخ عبد العزيز وجدته في سيارة كبيرة ينتظر عند سلم الطائرة. ضحك، وكنت اعلم انه يريد ان يفهمني ان تلك الحفاوة ليست اكراما لخاطري بقدر ما هي برهان على نفوذه الواسع ويده الطولى. كلفه الشيخ بترتيب امر اقامتي وتنقلاتي، وهو ينشط لمثل تلك المهام، فقام بذلك على احسن وجه. كان رفيقي في اول عمرة اعتمرتها، والعمرة الاولى لها رهبة خاصة وذوق لا يجده الانسان بعد ذلك. اجده كلما عدت الى تلك الاماكن الكريمة. اراه يسعى بين الصفا والمروه، بجسمه المثقل، وهو يكاد ينوء من الاعياء. اراه مكبا على استار الكعبة. ثم وهو نائم في صحن الحرم، بين صلاة المغرب والعشاء، والناس يموجون حوله.

خرج رابحاً من زيارتي تلك، من نواح كثيرة، فقد حجز جناحا في الهوتيل بجواري، له ولزوجته، واضاف التكلفة الى حساب زيارتي. كان يفعل ذلك كل مرة. وفي المرات التي لم يقم فيها في الهوتيل، كان ينتهز فرصة وجودي فيحضر ثيابه للغسيل وبدله للتنظيف.

في الرياض ايضاً، صلينا معاً. لم اكن قد اقتنعت بعد انه اسلم حقاً. وقفت اصلي صلاة المغرب. جاء ببساطة ووقف معي. يا سبحان الله. كان قبل ذلك اخي، ثم هاهوذا الآن يصبح ايضا اخي في الله.

لكن هذه هي المرة الاخيرة التي القاه فيها في الرياض. كان قد وجد عملا في شركة. لم يكن في حاجة الى العمل، ولكنه يحب ان يشغل نفسه بشيء. يحب ان يكون له مكتب وحاجب وسكرتير وتلفون. ويا حبذا لو كان ذلك على نفقة شخص اخر. كان يستطيع لو اراد ان يحصل على هذه الاشياء من ماله الخاص.

اقول له:

«يا ابني ما تروح تقعد في «عزبتك» في انجلترا. هل انت محتاج تشتغل بمرتب؟ روح اتمتع بفلوسك قبل ما تموت وياخدوها الورثة؟».

«أموت؟ أموت دا ايه يا خوي؟ يا ابني احنا لسع ماعملناش حاجة. لسع فاضله حاجات كتير تتعمل...».

لم يكن الموت يخطر بباله. كان مشغولا بالحياة. يقول ضاحكا -

«انت فاكرني باشتغل؟ دي عملية بسيطة ماتاخدش مني ساعة بالكتير. الوقت الباقي اعمل فيه اشغالي الخاصة... فين حالاقي كل التسهيلات دي؟ تلكس وفاكس وتلفونات وطباعين. وكله ببلاش».

«وايه هو شغلك بالضبط؟».

«احضر تقارير لمدير الشركة».

«تقارير مالية؟».

«دا شغل بيعملوه ناس تانيين. انا مستشار خاص للمدير العام. في حاجات كتيرة. صحافة علاقات عامة اتصالات دولية... حاجات زي دي. انا الرجل الثاني في الشركة، بعد المدير العام مباشرة. أمال انت فاكر ايه... باعمل للمدير العام كل يوم ملخصات من الصحف الاجنبية وتحليلات سياسية والكلام الفارغ دا. اؤكد لك ان حتى في وزارة الخارجية ما بعرفوش يعملوا تحليلات زي اللي انا باعملها».

«وايه فايدة الحكاية دي لمدير عام شركة تجارية؟».

«ازاي يا استاذ؟ انت فاكر التجارة بيع وشراء وصادرات وواردات؟ انت فاكرها ايه؟ دكان بقالة في ام درمان؟ يا ابني دا شغل على مستويات كبيرة، وعلاقات وشغل حلبسه والذي منه... ثم ان المدير العام شاب متعلم وبيفهم. دا واخد ماجستير في ادارة الاعمال من امريكا... خسارة دا مسافر. كنت عرفتك بيه. شاب زي السكر. كان حيعجبك اوي. انت عارف ان ابوه يبقى ابن عم...... ووالدته.... وهو متجوز بنت.....».

«سيبك من الحكاية دي. بذمتك الشركة دي فعلا بتستفيد منك؟».

«الا تستفيد مني! دا المدير العام متمسك بي مش عاوز يسيبني. بيني وبينك انا ناوي اروح. على رايك. حاعمل ايه بالفلوس؟».

تقلب في اعمال عدة في الرياض. سرعان ما يمل العمل فيتركه الى عمل اخر. وكان الشيخ عبد العزيز التويجري، وابنه عبد المحسن، يرعيانه ويخرجانه من المازق، ويدبران له وظيفة كلما ترك وظيفة.

كان لا بد ان ازور مكتبه. اصر على ذلك حتى ارى بعيني كم هو مهم وكم هو ذو حول وطول، وما كنت في حاجة الى برهان. استقبله السعاة والحجاب والعمال بحفاوة عظيمة فيما يشبه المظاهرة. يمازحهم ويناديهم باسمائهم، وكان واضحا انهم يحبونه حباً حقيقياً. هكذا هو دائما مع صغار الناس. ظلوا يتوافدون عليه في مكتبه. هذا عنده مشكلة اقامة، وهذا يريد منه ان يتوسط له ليزيدوا راتبه، وهذا زوجته مريضة، وهو ينتفش ويكبر بخليط من الزهو باهميته وبفعل رغبة مخلصة لمساعدة ضعفاء الناس.

اخذ يلفت نظري الى اثاث المكتب، كانهم بشر احياء يريد ان يعرفني بهم. السجاد والستائر والطاولة والكراسي والتلفونات والخزانات ونباتات الظل والازهار.

«بص يا طيب. انت خدت بالك من السجاد؟ اوعى تفتكر انه سجاد عادي. دا سجاد عجمي... تحفة نادرة».

«لا يا شيخ! ويكون بكم؟».

«اوه. مبلغ كبير. اؤكد لك ان ثمنه اكثر من مرتبك في سنة كاملة».

«عجيب. وانت اشتريته بفلوسك؟».

«ليه؟ انت فاكرني عبيط زي ما الجماعة بتوع مصر بيقولوا على الصعايدة. يا استاذ دا من فلوس الشركة. انت عارف اني انا الوحيد اللي عنده مكتب زي دا. اصل المدير العام يقدرني جداً... مش عاوز يسيبني...».

لاحظت التلفونات. كل تلفون بلون. ماذا يصنع الانسان بمجموعة من التلفونات وهو لا يسمع الا باذن واحدة؟ وماذا يصنع بمجموعة من السيارات؟ لكن «منسي» لم يكن شخصا واحدا. كان مجموعة اشخاص في جلد واحد.

رايت السيارات مصطفة مثل خيل في اصطبلاتها اول ما دخلت داره في المساء. اصر على ان ياخذني في جولة، اتعرف على معالم البيت، كما يتجول الانسان في متحف. حمام السباحة... مهم جدا عنده ان يكون في الدار حمام سباحة. كان يحب السباحة، ويسبح مثل عجل البحر. «القرنتي» كما نقول في السودان و«سيد قشطة» كما يقولون في مصر. ثم القراجات وموديلات السيارات. نقل عدداً منها بعد ذلك الى «عزبته» في «ساوث هامتون». الحديقة... الاشجار... النباتات النادرة... المطابخ... جناح السواقين والعمال والشغيلة... الوصائف الفلبينيات...

«ايه دا كله يا دكتور؟ دي حكاية كبيرة بلحيل...».

«عجبك؟ ايه رايك ان دا كله ببلاش... علاوة على المرتب».

حتما كانت الحياة تمزح معه. فالحياة فيما يبدو تعامل كل واحد على طريقته.

كان ذلك آخر عهدي به في المملكة. لم اره سعيداً كما رايته تلك الليلة. يضحك ويضحك ويضحك. يحمل ابنه عبد العزيز، الذي يشبهه كانه نسخة منه، خاصة حين يضحك.

احتفى بنا حفاوة عظيمة، وتهيا له جمهور كبير في تلك الليلة، فانطلق لا يلوي على شيء، وانا اساعده وانبش ذكرياته، واعطيه اطراف المواضيع.

«أحكي لهم يا طيبُ احنا عملنا ايه في استراليا. دا احنا عملنا عمايل... قول الحق. مش انا اللي قلت لك على الشاب انه عربي... قلت لي خلينا نروح في حالنا...؟».

جاءنا الشاب الفلسطيني في المساء، واصبح دليلنا بعد ذلك طوال اقامتنا في «سدني». ومن اياديه علينا انه عرفنا برجل لبناني. من هؤلاء الناس الذين حين تصادفهم، تحس ان الحياة قد اسدت اليك جميلا لا ينسى ■

(للحديث بقية)



نحو أفق بعيد ٧٦



بقلم الطيب صالح

تسامع الناس بوجودنا في «سدني»، ولم يأل «منسي» وسعا، فأسبغ على رحلتنا اهمية اكبر بكثير مما تستحق. وكانت الجالية العربية من الخلاف والشقاق والتمزق بدرجة يُرثى لها، ولعلهم ظنوا اننا جئناهم مصلحين ووسطاء خير. وما كنّا في الحقيقة كذلك، فما من احد طلب منا القيام بتلك المهمة، ولكن «منسي»، كدابه ابداً، وجد وضعا يتيح له القيام بدور ما، دور رسول الوفاق واصلاح ذات البين، فهبّ من توّه للنهوض به.

والعرب في طبعهم الحنين الى اهلهم وذويهم على البعد، ولكنهم فيما يبدو، لا يطيقونهم عن قرب. كنا غرباء، وقد كانوا لو يعلمون اكثر غربة منا، فرحّبوا بمقدمنا، كما يرحب المقيم بالوافد.

اصبح الناس يتوافدون علينا، وكان «منسي» يزداد سعادة مع كل زيارة، فكان في احسن حالاته. انه هنا، مرّة اخرى، الممثل الرئيسي على مسرح واسع. والدور الذي يقوم به ليس هيّنا بل هو دور خطير، دور سفير الاصلاح، ورسول الوفاق. وكان صديقنا الفلسطيني يقف الى جانبنا في اغلب الأحيان، يشد أزرنا ويعرّفنا على البلد والناس. والفلسطينيون بحكم وضعهم، وما فعلته الاقدار بهم اكثر من غيرهم حماسة لأن يكون العرب يداً واحدة، وان كانوا هم انفسهم ليسوا بمنأى عن الخلاف والشقاق.

جاءنا جورج سمعان واخوه ميشيل، وهما لبنانيان، وقد كانا ولعلهما ما زالا يصدران صحيفة باللغة العربية، علمنا منهما انها توزع ما بين عشرين الى ثلاثين الف نسخة. كانت، كما اذكر، صحيفة رصينة الى حد كبير، تتوجه الى الجالية العربية ككل، وتبتعد بقدر الامكان عن مزالق الخلاف والفرقة. وقد شكَيا لنا من ضعف الموارد وقلة الدعم، علما بانهما يقومان بجهد لا ينكر، في ربط الجالية العربية في استراليا بعضها ببعض، وربطها بالوطن العربي. وقد بذلت ما في وسعي بعد عودتي في مساعدتهما، ولعلهما حصلا على بعض العون من دول الخليج.

زارنا اناس يعملون في مؤسسات الدولة، وآخرون يعملون اعمالا حرة، وبعضهم يعمل في وسائل الاعلام والاتصال. ونحن سعينا للتعرف على امام المسجد، ومطران الجالية المارونية في استراليا.

انني اذكر جيدا ذلك الانسان الكريم. رجل بسيط وقور مطمئن النفس، قلبه عامر بالخير، عليه سمت احبار النصارى الاقدمين، كما يصفهم القرآن الكريم. كان عالما بالفقه والحديث وتاريخ الاسلام وكلام العرب، فقد نال درجة الدكتوراه في الفقه الاسلامي من جامعة السوربون. وقد ظل بعيدا عن الصراعات العربية وقاوم كل وسائل الضغط والاغراء، كي ينحاز الى فريق من الفرق المتحاربة في لبنان.

كان تعداد الجالية العربية تلك الايام، زهاء ثلاثمئة الف، اغلبهم في المدينتين الكبريين «سدني» و «ملبورن». وكان اللبنانيون اكثرهم عددا، فقد بدات هجرتهم الى استراليا منذ القرن الماضي، تحت وطأة الحروب والمجاعات، كما يحدث اليوم. بعضهم امتزج بالجاليات الأخرى الوافدة، وآخرون ظلوا يتشبثون بهويتهم اللبنانية، وكلهم يحمل حنينا دفينا لذلك الوطن الجريح. ياكلون الكبة والتبولة والشاورما، ويطربون لاغاني وديع الصافي وصباح وفيروز.

يليهم من ناحية العدد المصريون، وهؤلاء هاجروا حديثا نسبيا، لم يقطعوا بعد روابطهم بمصر، يعودون اليها كلما استطاعوا، وتحس انهم يفضلون العودة اذا وجدوا الى ذلك سبيلا، وبعضهم يعود بالفعل.

ثم الفلسطينيون. وهؤلاء كما هو معروف، تفرقوا في البلاد ايدي سبا. خرجوا موجات موجات، كلما ألمّت بهم قارعة في الوطن الأم، هاجروا طلبا للماوى والامن ولقمة العيش. تجدهم حيثما ذهبت، في كندا وامريكا وفي كل بلاد اوروبا. على وجوههم شيء يميزهم عن بقية المهاجرين العرب. اكثر عزماً واكثر حزناً واكثر مرارة. يطوون اجنحتهم على حلم، يبدو لهم قريب المنال احيانا، وعسيرا احيانا.

وجدنا ايضا اعداداً اقل من اليمنيين والسوريين والصوماليين والمغاربة وبعض الاقباط السودانيين. ولا بد ان عدد السودانيين قد زاد الآن. وكلهم اصحاب خبرات ومهارات، وكثيرون منهم يحملون شهادات عالية في الطب والهندسة والزراعة وغيرها. وبعضهم اساتذة في الجامعات. ذلك لأن هذه البلاد لا تُدخل اليها الا من تستطيع ان تستفيد منه.

وكانما العالم العربي لم يكتف بما فعله بنفسه في عقر الديار، فلاحق هؤلاء المهاجرين بانقساماته وحزازاته واباطيله. ولعلهم لو تُركوا وشانهم على الاقل، لعلّ الاحوال كانت تستقر بهم في هذا البلد البعيد. انهم جميعا غرباء هنا، مشغولون بهموم الحياة، وهم في نظر المجتمع الاسترالي شيء واحد. وربما كان ينتج منهم خير ينفع العالم العربي كله.

لكننا وجدنا صورة طبق الأصل للعالم العربي. الخلافات نفسها، والصراعات نفسها، والتفاهات نفسها. عالم يموج بعضه في بعض، يتلقّى اصداء الحزازات والاحن والحماقات في الوطن الأم، ان صح القول، فكانهم حيوانات فقدت حكمة البقاء الغريزي على الاقل. او كمسافرين في سفينة تصارع الموج، وبعضهم آخذ بخناق بعض.

الا ان امام المسلمين ومطران المارونيين كانا على وفاق. كانا صديقين، يتزاوران ويتعاونان على البر والتقوى. لذلك كنا نجتمع بالناس في دار الامام مرّة، وفي دار المطران مرة.

يُقال ان الحال قد تغيّر الآن، في العالم العربي، وفي استراليا بطبيعة الحال. يا ليت. لكننا سوف نصدّق حقا، حين تضع الحرب اوزارها في لبنان وفي السودان، وفي سائر بلاد العرب والمسلمين. حينئذ سوف تطيب الليالي لسمّارها، وتعود الطيور لاوكارها، وحتى ذلك الحلم العسير، حلم العودة الى فلسطين لن يكون بعيد المنال■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد ٧٧



بقلم الطيب صالح

قبل ان يبنوا دار الاوبرا في «سدني»، كان الاستراليون يتباهون بالجسر الذي يصل الشاطىء الشمالي للمرفا بالشاطىء الجنوبي. انه هيكل ضخم، كان يُعتبر في زمانه، اية من ايات الانجاز الهندسي. وما تزال له مهابة الى اليوم، خاصة اذا نظرت اليه عند الفجر وقبيل الغروب.

اتمّوه عام ١٩٣٢، بعد تسع سنوات من عمل متصل. وكانت فكرة اقامته قد خطرت لذلك «المجرم» النابغة الذي خطط مدينة «سدني». ولكن حلم «فرانسس قرينوبي» لم يتحقق الا بعد اكثر من مائة عام. طوله ٥٠٣ امتار، ويرتفع قوسه عن سطح الماء في اعلى نقطة منه بمقدار ١٣٤ مترا. وقد انجز في مناخ من التوتر السياسي والركود الاقتصادي. وكما حدث في انحاء اخرى من العالم، فقد قامت في استراليا حركة يمينية متطرفة، متاثرة بالحركة النازية في المانيا. وكانت في مقاطعة «نيو ساوث ويلز» حينئذ حكومة لبرالية. ويحكي الاستراليون بشيء من الفخر، انه في يوم الافتتاح، وقبل ان يقص رئيس الوزراء الشريط، ركض احد زعماء حزب «الحرس الجديد» على حصانه وقطع الشريط بسيفه «باسم شعب نيو ساوث ويلز». لم تمكث الحكومة طويلا، بعد هذه الحادثة، فقد سقطت، وحلت محلها حكومة يمينية متطرفة.

كنا قد سمعنا القصة من قبل، ولكن «مستر كامرون» رئيس المجلس الاسترالي لرعاية الفنون، اعادها علينا، ونحن نجلس في مكتبه في مبنى الاوبرا، امامنا البحر والى الشمال الجسر وقد ازدحم بحركة السيارات وقت الضحى. لم يكن فخورا وهو يروي لنا القصة، فقد كان رجلا مستنيرا متحضرا واسع الثقافة، من الناس الذين تركوا لدينا ذكرى طيبة. وقد وصفه «منسي» فيما بعد بانه يشبه لوردات الانجليز.

كان منسي يحس بجاذبية تلقائية نحو افراد الطبقة الارستقراطية من الانجليز. فتزوج منهم، وجاورهم في حي «تشلسي»، وكان يصول ويجول في الاحياء الراقية، «بلقرافيا»، و«سلون سكوير»، و«نايتسبردج». وتعمّد ان يشتري مزرعة ودارا بجوار «لورد مونتباتن» قريب الملكة. وانتهت حياته هناك، بين خيله وسياراته وخدمه وحشمه، كما تخيّل كيف تنتهي حياة اللوردات.

ليس كل لوردات الانجليز اخيارا، فقد خرج من بينهم قتلة ولصوص ومزورون ونصابون. ولكن الاخيار منهم، يتمتعون بجاذبية لا تنكر. وخيارهم اكثر. يكونون اثرياء في الغالب، او ميسوري الحال على اقل تقدير، فينشاون بمناى عن الخلال التي تتاتى للناس بسبب الصراع من اجل لقمة العيش. ويعيشون في دور رحبة، تحيط بها اكثر الاحيان مزارع واسعة، فيعلق باشخاصهم احساس السّعه والرُّحابة. وفي تقاليد اسرهم طلب العلم، اما عن رغبة او وجاهة، فيلحقون بالمدارس العريقة، مثل «هارو» و«ايتن» و«رقبي»، ومن ثمّ يمضون الى احدى جامعتين، لا غير، اما «اكسفورد» واما «كيمبردج». وعادة يلحق الابن بالمدرسة نفسها، مثل ابيه وجده، والكلية نفسها، والجامعة نفسها.

وعندهم الوقت والمال للسفر والاطلاع والتمتع بالموسيقى والاوبرا والباليه وما شابه، ولا بد ان كل هذا يكسبهم ثراء روحيا واتساعا عقليا كما لا يتاح لغمار الناس. وفي طبع الاخيار منهم بساطة وبعد عن التكلف، لان التصنع والتكبر وما شابههما، امور مبعثها فقدان الثقة بالنفس، وهؤلاء لديهم ثقة بانفسهم لا حدود لها.

حيّرني دائما ما ورد في الانجيل «الذي ليس عنده يُؤخذ منه، والذي عنده يُعطى ويزاد». كان «منسي» يتمثل كثيرا بهذا القول ايضا، حسب ما تقضي الظروف. الا انه قول ينطبق على هذه الطبقة. يكونون اكثر وسامة من بقية خلق الله، فيتزوجون نساء جميلات. ويكونون اثرياء، فيتزوجون بنات الاثرياء. وقد تزوج عدد منهم امريكيات من عائلات ثرية، طلباً للمال في الغالب، فالامريكان تغريهم الالقاب ويشترون العراقة بالمال. منهن ام ونستون تشيرتشل وام هارولد ماكملان وام لورد «هيلشام».

انجبت هذه الطبقة، الى جانب رجال الحكم والسياسة، اشخاصاً مشهورين في عالم الادب والفن والفكر. منهم الفيلسوف الكبير «برتراند رَسِل» والروائية المعروفة «فرجينيا وولف» والناقد الادبي البارز «لورد سيسيل» والشاعر الرومانسي الذائع الصيت «لورد بايرون».

وفي هذه الطبقة تقليد قديم بعدم المبالاة يلخصه شعار «آل سيسل» المنحدرين من صلب احد وزراء الملكة اليزابيث الاولى «آل سيسيل لا يعباون باحد». يظهر هذا في عدم تقيُّدهم بالاصول المتّبعة في الماكل والملبس والسلوك، فتراهم احيانا في ثياب رثه، ويلبسون الجاكتات المرقّعة، فاصبحت موضة، وصار الناس يضعون رقع الجلد تقليدا لهم. وعندهم ان التانق في الملبس والاسراف في التظاهر من علامات «الوضاعة».

ربما يفسر عدم المبالاة هذا، ان كثيرين من افراد هذه الطبقة، دافعوا بشجاعة عن قضايا الشعوب المستضعفة، وثاروا في وجه طبقتهم نفسها. من هؤلاء «لورد بايرون» الذي انحاز الى جانب اليونانيين في حربهم ضد الاتراك العثمانيين، و«لورد ولفرد بلَنْت» الذي ايد الثورة العرابية في مصر ضد الاستعمار الانجليزي، وظل يدعو للقضية المصرية طول حياته. و«لورد كيرزُن» العتيد، الذي قال قولته الشهيرة في مجلس الوزراء، قبل صدور وعد بلفور «انتم تتحدثون عن اقامة «دولة» يهودية في فلسطين، والارض ليست خالية من السكان».

هذه الطبقة، ما تزال تمسك بمقاليد الامور في بريطانيا في واقع الامر، رغم ما يبدو على السطح من تحوُّلات اجتماعية وسياسيّة. وقد احتفظوا بنفوذهم بسبب قدرتهم على التاقلم ومجاراة التغيرات الاجتماعية. لذلك فهم، حين تقتضي الظروف، يتبنّون زعماء من الطبقات الوسطى والسُّفلى. وقد جعلوا دزرائيلي الفقير اليهودي الاصل، رئيسا للوزارة، وكذلك «لويد جورج» الذي نشا نشاة فقيرة في ويلز، ومارجريت ثاتشر التي تنتمي الى طبقة العمال وصغار التجار.

كان «منسي» منجذبا الى هذه الطبقة، وكانت له صلات مع بعض افرادها. ولعل تلك الصلات هي التي حالت بينه وبين الطرد من انجلترا، حين اقتحم قصر بكنجهام دون وجه حق. لا عجب انه سعيد الان بهذا اللقاء مع «مستر كامرون» فقد راى فيه سمات لورد من لوردات الانجليز.

(للحديث بقية)



نحو أفق بعيد ٧٨



بقلم الطيب صالح

وجدنا في مستر «كامرون» انساناً متحضراً مستنيراً متواضعاً. ولو كان بخلاف ذلك لالتمسنا له العذر. النجاح يغري بعض الناس بالغطرسة والخيلاء، وهذا رجل مهم، في موقع مهم، في قطر ناجح. بل ان البناء الذي يجلس فيه، هو رمز من رموز الانجاز البشري في هذا الركن من الارض. ما اطول الطريق الذي سارته استراليا منذ ان افرغت سفن كابتن «فيليب» حمولتها من «المجرمين» في ذلك الصباح من عام ١٧٨٨. وكانما تاريخ استراليا حتى هذه اللحظة هو بمثابة محاولة مستمرة للهروب من تلك البداية. لقد وُصموا بانهم ينحدرون من اصلاب مجرمين، فظلوا يحاولون ان يقنعوا العالم بانهم لا يقلّون تحضراً عن مراكز الحضارة العريقة في اوروبا.

مبنى دار الاوبرا الوطنية حيث نجلس الآن في مكتب مستر «كامرون» تحفة معماريّة وعجيبة من عجائب الدنيا، يسمّونها «عجيبة الدنيا الثامنة». وانها كذلك. مثل سفينة ذات اشرعة عدة توشك ان تنطلق في البحر. واحيانا يبدو المبنى مثل طائر خرافي كثير الاجنحة على اهبة ان يثب في الهواء.

كان مستر «كامرون» فخورا بذلك الانجاز، ولكنه لم يكن مزهوًّا به، ربما لانه كان يدرك الثمن الفادح الذي دفعه شعب الـ «ابوروجنيز» المسكين. كان فيما يبدو مهتما اهتماماً عميقاً بذلك الجانب من تاريخ استراليا. ولعلّه تعمّد ان يفهمنا ان الموقع الذي اقيمت عليه دار الاوبرا «بنلونْق بوينْت»، قد سمّي باسم رجل من الابوروجنيز، كان من اوائل من اتصلوا منهم بالاوروبيين الوافدين، وسرعان ما ألمّ باللغة الانجليزية الماماً كافياً مكّنه من ان يقوم بمهمة المترجم بين البيض والابوروجنيز. سعدوا به فارسلوه الى انجلترا، كما تُرسل الحيوانات النادرة، ليتسلّى به الناس. وهناك قضى وقتاً جميلاً، البسوه الثياب الاوروبية، وكانوا يحْضِرونه في الحفلات يتفرجون عليه يرقص ويغني. لكنه لم يلبث ان ملّ كل ذلك، وثاب الى نفسه، واحس برغبة عظيمة للّحاق بقومه، فعاد الى استراليا. وجد انه قد تغيّر ولم يعد يألف العيش مع قومه، فعاش في كوخ منعزل بنوه له في ذلك الموضع، ولجا الى السكر والعربدة. ولم يلبث ان مات وحيداً تعيساً. كان «بنلونق» المسكين من اوائل الضحايا لما يُعرف الان بـ «الصدمة الحضارية»، وشهيداً من شهداء الغزو الثقافي الاوربي.

اكبرتُ في مستر «كامرون» انه حكى لنا تلك القصة، حكاها ببساطة، وكانه اراد ان يكسر حدّة دهشتنا بذلك الانجاز الكبير. كانه اراد ان يقول، ان التقدّم له ثمن، واحيانا يكون الثمن أعلى بكثير من التقدم الذي ينتج عنه.

اهل الحكمة والعلم والفكر في استراليا، بداوا يقولون الان، ان التقدم المادّي الذي تحقق، لا يبرّر الثمن الباهظ الذي دُفع، بالقضاء على شعب الابوروجنيز وثقافته الفريدة. الّا ان كل ذلك قد يبدو لك شيئا بعيداً لا تكاد تحس وخزه، في صباح مثل هذا، في مكان مثل هذا، وانت تنظر من نافذة مستر «كامرون» الى البحر يزرقّ ويخضرُّ في ضوء الشمس. ولعلّك لا ترفض الراي الذي عبّر عنه «تشارلز داروين» عام ١٨٣٦:

«... وبهذا تخلق بلداً جديداً رائعاً.. مركزا مضيئا من مراكز الحضارة.. فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

اخبرنا مستر «كامرون» انهم شرعوا في البناء عام ١٩٥٩، وكانوا قد اختاروا تصميما لمهندس معماري شاب من الدنمارك يدعى «يُورْن اتْزن»، لم يكن معروفاً حينئذ. ولكن المحكّمين في المسابقة العالمية التي اعلنوا عنها، استهواهم التصميم لطرافته وجراته. وقد قدروا ان البناء لن يكلف اكثر من سبعة ملايين دولار، ولن يستغرق انجازه اكثر من اربع سنوات. ولكنه لم يتم حتى عام ١٩٧٣، وكلّف ١٠٢ مليون دولار.

افتتحته ملكة بريطانيا في احتفال ضخم دُعي له اناس من مختلف انحاء العالم، اشتهروا في مجالات السياسة والثقافة والفنون. وقد تالّقت الاضواء في سماء مدينة «سدني»، التي امضت اسابيع في الاعياد والاحتفالات. ولا بد ان الاستراليين قد احسّوا يومئذ انهم قد محوا الى الابد وصمة العار التي لاحقتهم قرابة مائتي عام، وانهم قد «اعتقوا الزمان من اساره»، كما يقول شيكسبير.

قال مستر «كامرون»، بشيء من الفخر:

«لم تدفع الدولة دولاراً واحداً من نفقات هذا المشروع».

سالناه كيف حدث ذلك فاجاب:

«لاننا جمعنا المال من الشعب بواسطة «اللُّوتري» - اليانصيب. هذا انجاز شعبي بحق».

ذلك احساس تجده عند الاستراليين اينما اتجهت، ان «الشعب» هو السيّد، وانهم اقاموا مجتمعا حرًّا حرية حقيقية، لا تكبله اي من القيود التي تكبل المجتمعات القديمة في اوروبا. ليست فيه فوارق ولا طبقات. مثل مبنى دار الاوبرا في «سدني». شيء جديد طريف، مثل طائر يطير بعدة اجنحة. الله اعلم. صحيح ان الانسان هنا يحس ان كل شيء ممكن، وانه يستطيع، مهما كانت ظروفه، ان يصل الى اقصى ما تمكنه قدراته. ربّما. ولكنك تعلم من قراءة تاريخهم ان ذلك يحدث ضمن حدود معيّنة، وانهم ليسوا معصومين كلية من النقائص التي هي في طبع الانسان في كل مكان.

هذا البناء ليس كما يوحي اسمه، وقفاً على الاوبرا، فهو يضم مسارح وقاعات لعرض الافلام، وصالات لعرض الرسوم، وقاعات للموسيقى والباليه. تجولنا في انحائه، وزاد عجبنا مما راينا داخله. وقد حدّثونا، ان الفرق المسرحية والموسيقية وفرق الاوبرا والبالية، تجيء للعرض هنا من لندن وباريس وموسكو ونيويورك وستكهولم وغيرها، وان الدار تقدم نحو اثني عشر عرضا متنوعاً كل يوم، وان اكثر من مليون ونصف متفرج يدخلون الدار في العام الواحد.

انه امر مدهش حقا. ولكنني حدثت نفسي بعد ذلك، انني لو كنت احد افراد قبيلة الـ «ايورا» التي كانت تقطن «سدني» قبل مجيء الاوربيين، وابادوها او كادوا، فانني لن اجد عزاء في كل هذا العالم الجميل. لن اجد عزاء عن «دروب الفناء» التي تقطّعت، والديار التي عفَتْ، وعن «زمن الحلم» الذي مضى الى غير رجعة ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد ٧٩



بقلم الطيب صالح

يروي الـ «ابوروجنيز» في أساطيرهم ، ان نهر «مورَمْبدجي» ، وهو أحد نهرين تقوم عليهما مدينة «كانبرا» اليوم ، كان في زمن مضى ، حدّا فاصلا بين قبيلتين . طال بينهما الخصام والنزاع ، ثم اجتمع الحكماء من الجانبين ، حكماء القبيلة التي تسكن الضفة الجنوبية من النهر ، وحكماء القبيلة التي تسكن الضفة الشمالية من النهر . تفاكروا في امورهم وما صارت اليه احوالهم ، وقدّروا ان السلم خير من الحرب ، والوئام خير من الخصام ، وان في الارض على عُدوتيّ النهر ، متسعاً لهم جميعاً .

بدا لهم ان الخصام والنزاع ، انما يشْجُران بسبب الاختلاط والمعاملات . يشتم سفيه من سفهاء القبيلة الشمالية سفيها من سفهاء القبيلة الجنوبية ، وهذا يضربه ، فتشتعل النار . وربما يلاحق صيّاد جشع ، سمكة اعجبته الى الضفة الاخرى ، فيرميه واحد من هناك بسهم . وقد يعبرُ فتية نزقون النهر ليلا الى الضفة الشمالية ، لانهم راوا كُوارة عسل معلقة في شجرة «يوكالبْتس» ، فاغراهم المنظر ، فيعترض سبيلهم فتيان من الضفة الشمالية . وكل قبيلة ملتزمة بحماية ابنائها ، ولو كانوا سفهاء ، فاذا هي الحرب ، واذا هو القتل والجرح والضرب . وقد تدوم الحرب اشهرا وقد تدوم اعواما .

راى حكماء القبيلتين ، ان ذلك حمق لا يجوز ، وضلال ما بعده ضلال . وقرّ رايهم على ان يضعوا حدّا لاسباب الخصام ، بان تلزم كل قبيلة حدّها وراء النهر . كل قبيلة تعيش في ارضها مستقلة عن القبيلة الاخرى ، لا تلتقيان الا في المواسم الكبرى مع بقية القبائل .

اخذوا العهود والمواثيق ، والتزمت كل قبيلة بما عاهدت عليه ، فانقطع دابر الشقاق ، وحلّ السلم ، وطاب العيش ، كل في ارضه ، وسعد الحكماء على عُدوتي النهر .

مضى ردح من الزمن . ثم ذات صباح جميل ، من هذه الاصباح التي تُغري بالمغامرة وتجرُ وراءها الشقاء ، راى فتى محارب مزهوّ بنفسه ، من القبيلة الجنوبية ، فتاة من القبيلة الشمالية تسبح وحدها في النهر . كانت هي الاخرى مزهوة بشبابها سعيدة بالشمس والمياه الصافية ، وخضرة الغابات ، ونداءات الطيور من غصن الى غصن ، فكانت تضحك وحدها كانما للا شيء . تغطس ثم تطفو ، وتسبح مسافة ثم تستلقي على ظهرها تنظر الى السماء ، وصدرها العاري يلمع في الضوء ويختفي ويبين كانما من فُرجات غيم خفيف .

وقف الفتى ينظر اليها كالماخوذ . ثم ضحك هو ايضا . اخذ يضحك ويلوّح برمحه ، فلوّحت له بيدها .

في اليوم الثاني ناداها :

«ما اسمك؟»

نادته وهي تقترب من منتصف النهر ، واسنانها مثل حبّات اللؤلؤ تلمع في ضوء الشمس ، في وجه مثل العسل المجْنيّ من شجر الكافور :

«بومنْ قالانا .. بومن قالانا .. وانت ما اسمك ؟»

«قُبَا قَمْبالن»

حمل الصدى نداء الفتاة والفتى من شاطىء الى شاطىء ، واخذ الشاطئان يناديان :

«بومنْ قالانا .. قُبَا قُمبالن» .

في اليوم الثالث دخل الفتى الماء وكأنّ قوة غامضة تشده ، وسبح صوب الضفة الشمالية ، والفتاة تجذبه اليها بوجهها العسلي واسنانها البيضاء وضحكاتها العذبة . وصل منتصف النهر ، فسبحا مع التيار جنبا الى جنب حتى وصلا جزيرة صغيرة وسط النهر ، بعيدا عن اعين الرقباء .

اخذا يلتقيان كل يوم ، واعطاهما الحب جراة ، فكان الفتى يسبح احيانا الى الضفة الشمالية ، والفتاة تسبح الى الضفة الجنوبية .

وازدادا جراة ، فلم يعودا يكترثان ان الفتاة ممهورة لفتى من قبيلتها ، والفتى ملتزم لفتاة من قبيلته ، وقرّ عزمهما على الفرار سرّا الى التلال البعيدة .

ثم ، كما كان مقدّرا ان يحدث ، كشف الرقباء سرّهما ، فاسرعوا يخبرون حكماء القبيلتين .

ادرك هؤلاء لاول وهلة ، انهم اذا لم يتداركوا الامر ، فان كارثة سوف تحدث . سينهار السلم الذي اظلهم زمنا طويلا ، وسوف تنشب الحرب ، ويعودون الى ما كانوا عليه من خصام وشقاق .

اجتمع حكماء الشمال وحكماء الجنوب وتفاكروا في الامر . قال احدهم عفو الخاطر ، دون ان يمعن النظر :

«أرى ان ندعهما ينجوا بنفسيْهما . ماذا يضيرنا من ذلك ؟ ونعود الى ما كنا عليه» .

لكن رايه لم يجد قبولا .

واشار حكيم منهم ، لعله كان ابعد نظرا مما ينبغي ، ان يقبلوا بالامر الحاصل ، ويزوجوهما ، فربما يكون ذلك بداية عهد جديد من التعايش السلمي بين القبيلتين .

ايضا هذا الراي لم يجد استحسانا ، ونظر الحكماء الى قائله كانه مجنون .

واخيرا وصلوا الى حل راوا انه الحل الحاسم . اجمعوا رايهم على قتل الفتى والفتاة العاشقين ، وبذلك يقضون على الفتنة في مهدها ، وتكون دماء العاشقين ثمنا زهيدا لدوام السلم بين القبيلتين .

في ليلة كثيفة الظلام ، تسلّل «قُبَا قَمْبالن» من الضفة الجنوبية ، ودخلت «بومن قالانا» من الضفة الشمالية . سبح كل منهما تجاه الاخر ، والتقيا في منتصف النهر . كانا ينويان السباحة اسفل النهر ، ثم ينطلقان نحو التلال البعيدة . لم يكادا يلتقيان حتى انهالت عليهما الرماح من الضفتين . اخذا يسبحان والدماء تنزف من جسديهما حتى وصلا الجزيرة . هناك اسلم كل منهما روحه .

تقول الاسطورة ان غابة البومن الكثيفة التي نمت في تلك البقعة من النهر ، هي الرماح التي أرْدَتْ الحبيبين ، وان دماءهما صبغت مياه النهر حتى وصلت الى الصخور في ذلك الموضع ، فهي حمراء الى اليوم ، وان الضفادع على الضفتين ظلت تبكي عليهما الى يومنا هذا ، تنادي ضفادع الضفة الجنوبية باكية «قُبَا قمبالن» فتجيبها ضفادع الضفة الشمالية «بومن قالانا» ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة

نحو أفق بعيد ٨٠



بقلم الطيب صالح

في أساطير الـ أبوروجنيز، من جنوب استراليا، ان جد القبيلة الاول، كان يخاطبهم كل صباح من جذع شجرة صمغ. يجيء افراد القبيلة عن بكرة ابيهم كل صباح، ويجلسون في حلقة حول جذع الشجرة. ينتظر الصوت حتى يكتمل العدد، وإذا غاب احد منهم، يحتجب، فلم يكن يتخلف احد منهم. حتى الرجال المسنون، حتى النساء اللائي اثقلهن الكبر، حتى الاطفال الرضع يجيئون على صدور امهاتهم.

يجلسون صامتين ينتظرون ان يخرج اليهم الصوت من جذع الشجرة. احيانا يطول انتظارهم واحيانا يقصر. يعمق صمتهم وترهف احاسيسهم، فاذا بالهواجس والمخاوف والاحلام والآمال لكل واحد منهم، كأنها هاجس واحد وخوف واحد وحلم واحد لهم جميعاً. حينئذ يخرج الصوت من جذع الشجرة. يحدثهم عن اشياء يعرفونها واشياء لا يعرفونها، اشياء تتصل بسير حياتهم اليومي، واخرى ترتبط بامور مبهمة من ماضيهم ومستقبلهم.

ويحسّون وقعه بطرائق شتى. يجد الرجل البهجة، كانه غطس في ماء النهر اول الصباح. ويحس بالخوف، كأن فهداً باغته في الغاب. ويجد اللذة، مثلما يجد حين يتنفس رائحة الشواء من لحم ارنب بري. ويجد الطمأنينة، كأنه في كوخه آخر المساء، وقد سكنت الحياة، وعنده زوجته وأطفاله. وتستمع المرأة الى الصوت وطفلها يرضع من ثديها، فتشملها متعة غامضة لا تدري من اين تأتي، هل من فم الطفل ام من جذع الشجرة. وقد يحس الواحد منهم، انه بئر عميقة الغور وان الصوت يخرج من تلك البئر.

وحين ينفضّون، يجدون ان الاشياء قد اعتدلت واتخذت اوضاعها الصحيحة. الكدر الذي علق بالحياة، كما يعلق الغبار باوراق الشجر، فجأة يختفي كما تغتسل الاشجار بماء المطر، فاذا العالم كانه ولد لتوه. الخلافات التي قد تكون شجرت بينهم تبدو خفيفة مثل اجنحة الفراش، والحقد يذوب وينبت محله شعور حلو المذاق بالود والانتماء الكلّي. يضحكون لأوهى سبب ودون سبب، ويجدون رغبة للغناء والرقص، ويتذكرون اشياء تجلب السعادة، كانوا قد نسوها. وكذلك يمضي بهم اليوم.

مضت حياتهم هكذا ردحاً، لا تتعكّر حتى تصفو ولا تضيق حتى تتسع. وذات صباح جاءوا كعادتهم الى جذع الشجرة، ولبثوا ينتظرون ان يخرج اليهم الصوت. لا شيء. ادركوا بعد مدة ان عددهم لم يكتمل، وتفقدوا انفسهم فوجدوا ان شاباً منهم لم يحضر. بحثوا عنه فلم يعثروا عليه. طال انتظارهم ولا صوت. ولما يئسوا تفرقوا وهم يحسون بحزن عظيم. وكان اكثرهم حزناً الحكماء، فقد ادركوا ان كارثة سوف تحل بالقبيلة.

في اليوم الثاني تخلف آخرون، وفي اليوم الثالث زاد عدد المتخلفين، وكان الحكماء يجيئون كل صباح ومن بقي معهم من الناس، ويجلسون اليوم بطوله على امل ان يخرج لهم صوت ابيهم من جذع الشجرة، ولا صوت، فينصرفون اكثر خوفاً وكآبة.

واخيراً حتى الحكماء يئسوا من سماع الصوت.

فكّروا طويلاً في مغزى ما حدث، ثم اهتدوا الى ان قوى شريرة لم يحسبوا حسابها، تسللت الى افئدة الناس، وباتت توسوس لهم. استجاب لها الشباب اول الامر، ثم تبعتهم غالبية القبيلة. كان شعور قد نما لدى الناس، بالضيق من نفوذ الصوت القديم. ونمت لديهم، والحكماء لا يعلمون، الرغبة في الانطلاق، والحياة بعيداً عن اوامر الصوت ونواهيه.

وبالفعل، بدت لهم حياتهم الجديدة اول الامر، افضل مما كانت. اصبح كل انسان على هواه يفعل ما يحلو له، لا يزعجه ذلك الصوت بحدوده وقيوده. وكان الحكماء يراقبون ما يجري، وينتظرون وقوع الكارثة.

مضى زمن على تلك الحال والناس سادرون في لهوهم. لاحظ الحكماء ان اصوات الناس اصبحت تحتد في الكلام، وان الصغار لم يعودوا يكترثون لنصح الكبار، وان الطقوس القبلية فقدت بهجتها، وان القوي لم يعد يساعد الضعيف، وان القبيلة بدات تتفكك واصبح كل شخص قائما بذاته. وأخيراً حدث ما خشيه الحكماء، تشاجر شابان، فقتل احدهما الآخر.

لم يحدث طوال تاريخهم ان اعتدى فرد من افراد القبيلة على آخر. احسّوا بكآبة لم يعرفوها من قبل. وساورهم الخوف، كأن مياه النهر قد فاضت، وان الجبال قد ارتجت وتفتتت، وكان حريقا هائلا قد اشتعل في الغابات. وانتهبوا فجأة ان صمتا رهيبا قد نزل على العالم. سكنت الريح، واستقر الماء على حالة واحدة، وصمتت الطيور والضفادع والحشرات، ولم يعودوا يسمعون حساً لوحوش الغاب، وبدت لهم الاشجار مغبرة كدرة، كأن قد ران عليها غبار قرون. احسّوا بالحيرة والضياع.

قام الحكماء، ومشوا حزانى مثقلي الخطى، وجلسوا عند جذع الشجرة. لم يجدوا شيئاً آخر يفعلونه. ورويداً رويداً اخذ الناس يلحقون بهم. واحداً واحداً. واثنين اثنين. وجماعات جماعات. الى ان جاءت القبيلة عن بكرة ابيها، وتحلقوا حول جذع الشجرة.

تكثف صمتهم ورقت مشاعرهم وتجمّعت هواجسهم فكأنهم سمك في شبكة محكمة النسج. ولما مالت الشمس للغروب وكادت تختفي وراء الافق، وبلغت اشجانهم اقصى مداها، فجأة سمعوا الصوت.

تحدّث اليهم كما كان يفعل من قديم. حدثهم عن اشياء يعرفونها واشياء يجهلونها، اشياء عن حياتهم الآن، واشياء مبهمة عن امس الامس وغد الغد.

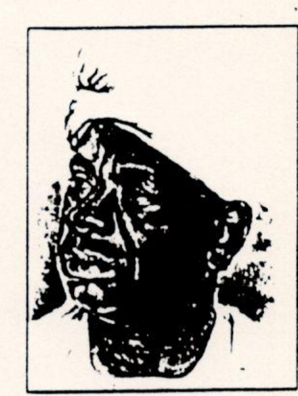
وجدوا لكلماته حلاوة اكثر مما عرفوه من قبل، فاستمعوا اليه وهم يبكون.

ولما فرغ الصوت. تريّث حتى هدأ العويل وكفت الدموع. ثم قال لهم انهم لن يسمعوه بعد يومهم ذاك، ولكنهم سوف يجدونه ان احتاجوا اليه، وسوف يعطيهم اشارة فليفهموا جيداً مغزاها، واذا التبس عليهم الامر فليسألوا الحكماء.

انشق جذع الشجرة في دويّ مثل قصف الرعد، وخرج من الجذع عمود من الضوء الساطع، صعد وتطاير اشعة كثيرة. بعضها سقط في مياه النهر، وبعضها غاب في التلال، وبعضها تناثر في الغابات، وبعضها توارى في الكهوف وبعض الاشعة اندست في اجساد الحكماء.

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد ٨١



بقلم الطيب صالح

عاشت قبيلتان من قبائل الـ «ابوروجنيز» في الماضي البعيد جنبا الى جنب في سلام وصفاء كانتا تنتميان الى أصل «طوطمي» واحد، يرتفع بهما الى جد واحد تجمعهما اعراف مشتركة وشعائر وطقوس الت إليهم من «زمن الحلم». كانت تنشب بين القبيلتين نزاعات صغيرة، كما يحدث لكل الاقوام، ولكن حكماءهم، كانوا سرعان ما يجتمعون، ويتدارسون الامر بروية، ويتذاكرون الاعراف القديمة والمواثيق التي توارثوها عن ابائهم الاولين، جيلا بعد جيل. كانوا كلما حدث فتق في ثوب حياتهم يقولون ان تصاوير اسلافهم في الكهوف تناديهم ان يعيدوا طلاءها. يذهب حكماء القبيلتين جماعة، ويتعاونون على طلاء التصاوير، حسب الاساليب القديمة التي تواترت اليهم، فتستقر ارواح اسلافهم في مراقدها، وتجلو الارواح الشريرة عن سمائهم وارضهم، وتعود حياتهم الى ما كانت عليه.

واحيانا يُخيل لهم، ان امزجة الناس قد تعكَرت، وارواحهم قد تكدُرت. لان جدًا من اجدادهم الاولين قد احس بالوحشة، فينهض حكماء القبيلتين، وهم أبناء عمومة، ويجلسون عند مرقد جدِّهم، يغنون له الاغاني العتيقة ويتوسلون بالطقوس المقدسة لديهم، فلا يبرحون حتى تكون روح أبيهم قد اطمأنت في مثابها، فتسكن حياتهم هم أيضاً.

كانت الحرب حراماً عليهم، وكان قتل ذوي الارحام عندهم، كان السماء قد وقعت على الارض.

هكذا سارت بهم الحياة حقباً، على أطراف واد واسع، في ارض بين الجدب والخصب، تمطر السماء فيها ولكن بمقدار.

حين تمطر السماء، يمتلىء الوادي بالماء، ويصير كانه بحيرة ممتدة. حينئذ تطيب الحياة للناس من القبيلتين، يشربون وتشرب الحيوانات والوحوش، يكثر الصيد، وتخضرُّ اشجار الصمغ وتغزر غابات البوص، ينتشر الفراش في السماء مثل غيم رقيق مختلف الالوان، ويهدل الحمام، وتصخب الضفادع، وتخرج السلاحف والسحالي من مكامنها.

يبدو لهم حينئذ ان ارواح اسلافهم قد هنئتْ، وان ارواح الشر قد ابتعدت عن افقهم، وان السماء قد تصالحت مع الارض.

هذا هو الوقت الذي يتجمهر فيه الناس في موسم حافل، يتناشدون الاشعار، ويصغون الى رواتهم يحركون اشجانهم بالاساطير القديمة.

حتّى كان ذات عام. نظروا الى السحاب يتراكم في الافاق في موعده المعلوم. احسوا بالفرح يتحرك في صدورهم وايقنوا انه الغيث. لكن السماء لم تف بالوعد، وكأنَّ أيدي خفية بعثرت ذلك السحاب. وكذلك في الايام التالية. يتجمع السحاب ويثقل حتى يكاد يسقط على الارض، ثم فجاة يتبدُد كما ينقشع الطيف. ثم صفت السماء تماماً، واصبحت الشمس تصب نيرانها على الارض يوماً بعد يوم، مثل عين «قرانقانش» الاسطوري، الذي نصفه من السمك ونصفه من الكواسر.

قال الحكماء ان شرًا مستطيراً قد وقع، حملته اليهم ارواح خبيثة كانت قبل سجينة في الجبال البعيدة. قالوا لا بد ان شخصا ما قد تعدى على حرمة من حرمات «القدماء» فخرجت تلك القوى الشريرة من محابسها، وجاءت تنشر الرعب والخراب على الارض.

هرع الحكماء من القبيلتين الى الكهوف، واعادوا طلاء التصاوير، لعل ارواح اسلافهم ترضى، سارعوا الى مزارات القدماء، وانشدوا لهم الاناشيد المقدسة، ذبحوا القرابين واقاموا شعائر الطقوس، ولا فائدة.

جف الماء في الوادي، وكان من قبل يوصلهم من العام الى العام. يبس العشب وتعرت فروع الشجر، وهاجرت الوحوش. كفت الطيور عن الغناء، واخلدت الضفادع الى الصمت. ثم اخذت الحرائق تشتعل في العشب اليابس والغابات كانما بفعل قوى شيطانية.

وفجاة اندلعت نار الحرب بين القبيلتين، الامر الذي لم يحدث ابدا طوال تاريخهم.

اجتمع حكماء القبيلتين علهم يردون الناس الى صوابهم. ولا فائدة، ففي اوقات الجنون لا تجدي الحكمة. ولما يئسوا قرروا ان ينزحوا عن تلك الارض الملعونة، ويذهبوا الى الجبال البعيدة، يتوسّلون الى ارواح اسلافهم علها تعيد المياه الى مجاريها.

تحاربت القبيلتان الشقيقتان بشراسة من فقد حكماءه، ولم يعد يستطيع ان يميِّز راسه عن قدميه.

تحاربوا طويلاً حتى استنفدوا كل اسلحتهم، ولم يجدوا غير الصخور والحجارة، رمى احدهم حجرا فاخذ يصعد في السماء ويكبر.

توقفت الحرب ورفع الناس وجوههم الى السماء. كانت تلك اول مرة منذ زمن طويل، فقد كانوا مشغولين بقتل بعضهم بعضا، وكانت عيونهم معلقة بالارض.

نظروا الى الصخرة تعلو وتتضخم حتى صارت شيئا مهولا ملا اقطار السماء، وحجب ضوء الشمس. ثم نظروا فاذا بالصخرة تنشق في جلجلة عظيمة عن شيء مثل العقيق الاحمر.

تقول الاسطورة، ان حجر العقيق حين نظر من ذلك العُلو الى ساحة الحرب، وراى جثث القتلى، وراى الخراب والدمار، بكى. سحّ دموعاً غزاراً مثل وابل المطر، ملات الوادي وبللت الارض. ولما كفت دموع السماء، ظهر قوس قزح.

صار الابوروجنيز بعد ذلك كلما راوا قوس قزح يظهر في السماء يقولون ان جُرماً عظيما قد وقع على الارض، وان احداً ما قد تعدّى على عرف من الاعراف القديمة، فالسماء تبكي لاجل ذلك.

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد ٨٢



بقلم الطيب صالح

يروي الـ«ابوروجنيز» في أساطيرهم قصة مأساوية عن نشأة سمك القرش، وعقرب البحر التي لا نجاة من لدغتها، وكان سبب المأساة امرأة.

تقول الاسطورة ان اخوين كانا يحب احدهما الاخر حبا جما، تجدهما دائما متلازمين، لا يفترقان ابدا. كانا وسيمين قويين، تراهما القبيلة زينة شبابها. كان «بوبادي» اكبر الاخوين، اسرع شبان القبيلة في العدو، وارماهم بالرمح. وكان الاصغر «غردانق» اكثرهم مهارة في السباحة واحسنهم في رمي الـ«بومرانج». كانا يقضيان سحابة يومهما معا، يصطادان السمك او ينصبان الشراك للطير والوحش، ويتنافسان في العدو ورمي الرمح والـ«بومرانج».

وفجاة وقع الاخ الاكبر «بوبادي» في غرام فتاة من فتيات القبيلة. كان اخوه على غير علم منه، يحبها ايضا. الا ان الفتاة استجابت لحب «بوبادي» وبادلته حبا بحب. شعر «غردانق» بخيبة الامل، وزاد من احساسه بالمرارة ان اخاه لم يعد يقضي معه كل وقته، كما كان، بل اصبح يؤثر صحبة حبيبته.

كان «بوبادي» دمث الخلق، ضحوكا بطبعه، الا ان حبه لتلك الفتاة اعطاه سعادة غامرة، جعلته يبدو في نظر اخيه شخصا مختلفا. وبقدر ما كان «بوبادي» يزداد سعادة كان «غردانق» يزداد تعاسة. ولما تزوج «بوبادي» حبيبته، تحولت مرارة «غردانق» الى حقد امتلأ به قلبه، وملك كل احاسيسه. اصبح اخوه الذي كان يحبه حبا جما حتى الامس القريب، عدوا بغيضا لن يتردد في قتله اذا عنّت له فرصة.

اصبح يتودّد، وراء ظهر اخيه، الى الزوجة، وهي تصده، فقد كانت تحب «بوبادي» بحق. وكان «غردانق» يزداد حبا لها رغم ذلك، حتى صارت عاطفته هوسا لا يفارقه.

وذات يوم انتهز الاخ الاصغر فرصة غياب اخيه في سفر، فانتظر حتى جاء الليل، فاخذ الزوجة قسرا وهرب بها الى مكان بعيد على شاطىء البحر.

ظن «غردانق» انه قد حقق حلمه، وانه سوف يعيش سعيدا مع حبيبته، يصيدان السمك، ويسبحان في البحر، وينصبان الشراك للطير، ويبنيان عشا هانئا بعيدا عن القبيلة. ولكن سرعان ما خاب ظنه، فقد كانت المرأة تحب زوجها بحق، فكانت تقضي كل وقتها في البكاء والعويل. وكانت، كلما اقترب منها تركله او تنشب اظافرها في وجهه.

عاد «بوبادي» من سفره، وعلم بما حدث. تألم ألما عظيما لفعلة اخيه، ومن فوره، انطلق يبحث عنه.

وقف الاخوان وجها لوجه، على صخرة عالية، وتحتها الشاطىء وهدير أمواج البحر.

نظر «بوبادي» طويلا في وجه اخيه واحس بالحزن حتى امتلأت عيناه بالدموع. لم يكن الشخص الذي يقف امامه هو اخاه الذي عرفه واحبه. عبرت برأس «بوبادي» ذكريات حياتهما معا في ايام الطفولة والشباب، حين كانا مثل شخص واحد، لا يفترقان، يسبحان في البحر، ويتنافسان في رمي الرمح والـ«بومرانج»، ويصيدان الـ«كانغرو» والارانب البرية. رأى «بوبادي» شخصا مختلفا مكفهر الوجه، جاحظ العينين كأنه مجنون، او كأنه روح من تلك الارواح الشريرة التي تحكي عنها اساطير القبيلة. وفجاة سمع «بوبادي» صوت زوجته يأتيه كأنما من كهف، تستغيث وتنادي باسمه، فتوتر جسمه وفار الغيظ في صدره.

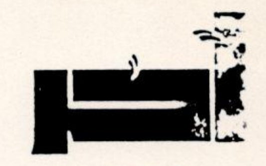
اندفع الاخوان احدهما نحو الاخر، وكل واحد منهما مصمم على قتل الاخر. تعاركا بشراسة على الربوة العالية، وكانا في شغل عن البحر فلم يسمعا هدير الموج تحت اقدامهما. وسمعت المرأة عراك الاخوين بسببها، فسكنت وارهفت السمع.

كان «غردانق» قويا، فقاوم مقاومة عنيفة، وكاد احيانا ان ينتصر على اخيه. ولكن «بوبادي» كان اقوى منه، وضاعف من قوته انه كان مظلوما، وان اعراف القبيلة وارواح الاسلاف كانت تقف الى جانبه وتقاتل معه. تمكن من اخيه وطرحه ارضا واراد ان يهشم رأسه بصخرة كبيرة. ولكن جسمه لم يطاوعه. قوةٌ ما شلت ذراعه واسقطت الحجر من يده.

ادار ظهره لاخيه، وقد عزم على ان يأخذ زوجته ويذهب. احس بغتة بسلاح الـ«بومرانج» ينغرز بين كتفيه. ترنح وسقط اسفل الربوة على شاطىء البحر والرمح في يده. قفز «غردانق» اثره فاذا بالرمح المشرع ينغرس في بطنه وينفذ من ظهره. حينئذ جاء البحر وحمل جثتي الاخوين الى جوفه.

تحول الـ«بومرانج» المغروس في كتف «بوبادي» زعنفة في ظهر سمك القرش، وصار «بوبادي» سمك قرش، كلما رأى انسانا، يظنه «غردانق» فينقض عليه. وتحول نصل الرمح في ظهر «غردانق» الى ذنب عقرب البحر، واصبح «غردانق» عقرب بحر يظن كل انسان هو «بوبادي» فيلدغه.

(الحديث بقية)



نحو أفق بعيد ٨٣



بقلم الطيب صالح

في الزمان البعيد، حين كانت اساطير الدابوروجينز، ماتزال في طور التكوين، عاش أخوان، احدهما يدعى «كاركان» والثاني يدعى «ونجو».

كان «كاركان» عظيم الجسم، تعطيه قوته الجسدية جسارة وهيبة، كانوا يشبهونه بالسبع في قوته وبالنمر في رشاقة حركته، وبالثعلب في دهائه، وبالنعام في سرعة عدوه، لم يكن له ند من بين فتيان القبيلة في الشراسة في القتال، والمهارة في استعمال الدبومرانج، ورمي الرمح. كان بلا منازع، فارسهم المعلَم، وحامي حماهم.

الا ان القبيلة رغم اعجابها به، فانها لم تكن تحبه. فقد كان متغطرسا متهورا سريع الغضب خشن الطبع. ولم يكن يكترث لنصح حكماء القبيلة، وقد جرهم بنزقه وحمقه الى صراعات مع جيرانهم لم يكن لهم يد فيها. لذلك لم يكونوا يحبونه، وكانوا يؤثرون عليه اخاه الاصغر «ونجو».

كان هذا على النقيض من «كاركان»، دمث الطبع، سمح النفس، دائم المرح. وكان صغير الحجم بالقياس الى اخيه، لا يميل الى النزاع والشجار، ولكنه يفضل السباحة في النهر، والسياحة في الغاب ينظر الى اجنحة الفراش بالوانها العجيبة. ويقلد اصوات الطيور والوحوش، ويجني العسل والتفاح البري. كان له صوت عذب، حين يغني به في العشيات، تجتمع حوله القبيلة رجالاً ونساء يصغون اليه.

هذا الحب كان يغيظ «كاركان»، ويوغر صدره على اخيه.

ليس هذا فحسب، ولكن «ميرومورا»، زينة فتيات القبيلة، فضلت هي الاخرى «ونجو» على «كاركان». كان «كاركان» يظن انه امر طبيعي ان تختاره هو، ولكن «ميرومورا» الجميلة احب «ونجو»، لرقة طبعه وجمال صوته، ولطف معشره. كان «كاركان» الشرس يبث في نفسها الانقباض، والخوف، الا انها كانت تجد الراحة والطمأنينة في صحبة «ونجو».

باركت القبيلة هذا الاختيار، وفرحت به، واخذت تستعد للعرس.

شعر «كاركان» بالاهانة والغيظ حتى امتلأ قلبه بالحقد على اخيه وعزم على ان يتحايل على قتله.

في مكان بعيد عن الحي، وسط غابة كثيفة من نبات البوص والعشب، حفر «كاركان» حفرة كبيرة، وغرس فيها أوتارا كان قد برى اطرافها فصارت حادة مثل أسنة الرماح. وغطاها بالعشب. ثم تحايل على اخيه وأوهمه ان الصيد يكثر في تلك البقعة، فخرج معه.

سارا جنبا الى جنب، وكان «كاركان» عابسا ينهش قلبه الحقد، واحيانا يحس بالخوف، فقد كان الامر الذي عزم عليه مخالفا لكل اعراف القبيلة.

لحظ «ونجو» تعاسة اخيه، فلم يفهم سببها، ولكنه حاول ان يسرّي عنه، فاخذ يمازحه ويضحك له. ثم راح يغني بصوته الجميل، فارهفت له الطيور على اغصان الشجر، وهبطت الفراشات على الصخور وتلال النمل تستمع اليه.

فجأة كف «كاركان» عن المشي، وقال لاخيه بصوت غريب لشدة غلاظته:

«لنعد الى الحي. لا يبدو اننا سنجد صيدا حسنا اليوم».

الا ان «ونجو» بدأ يستطيب الرحلة، واسعده وقع غنائه على الطيور والاشجار والصخور، وتفتحت روحه لفوح عطر الزهور، ونداء الحيوانات في الغاب، فاخذ ينط ويجري ويصرخ ويغني. لذلك لم يسمع صوت اخيه وهو يناديه من بعد:

«لنعد الى الحي. سوف نجيء في يوم آخر».

وصلا الى المكان حيث اعد «كاركان» الشرك. احس فجأة ان الوساوس التي خامرته في الطريق لتمنعه من قتل اخيه قد ذهبت. امتلأ قلبه بالحقد من جديد، واستقر عزمه على القتل.

قال لـ«ونجو»:

«اذا رأيت العشب يرتعش، فانه صيد. عليك ان تجري بكل قوتك وتقفز عليه وتمسك به. الى ان الحق بك».

ثم حرك حبلا طويلا كان قد ربطه، فاهتز العشب.

صرخ «ونجو» صرخة القبيلة حين تهجم على صيد، ونط في الهواء بكل قوته، ووقع في الحفرة، فانغرست الاوتار الحادة في جسمه.

تحولت صرخة النشوة الى صرخة مدوية بالالم، اقشعر لها جسد «كاركان»، فجرى دون وعي نحو الحفرة.

تعثرت قدمه بصخور فتطاير منها الشرر، ووقع فارتطم رأسه بصخرة حادة فتهشم ومات في الحال.

أما «ونجو» فانه لم يمت من فوره، ولكنه ظل اياما ينبش الارض ويحبو والدم ينزف من جسده، فكان من ذلك واد عميق، امتلأ بالدم.

سرت النار من الشرر المتطاير من الحجارة، في مساحة واسعة، اتت على كل ما فيها، وحولته الى رماد. من ذلك الرماد خرج طائر اشهب مثل الصقر، ظل يحوم فوق تلك البقعة.

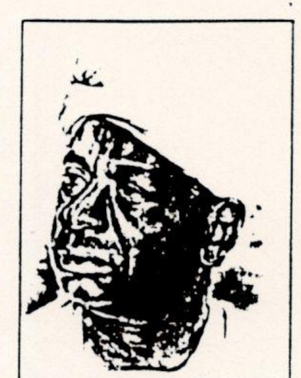
تقول الاسطورة ان الوادي الذي حفره «ونجو» بجسده هو «وادي الدم» المرعب، وان الطين الاحمر المقدس الذي يصبغون به اجسادهم لتأدية الطقوس، اصطبغ بالدماء التي نزفت من جسد «ونجو». وتضيف الاسطورة ان الصقر الاشهب الذي يلازم ذلك الموضع، ويظل يحوم فوقه، وبين كل حين وآخر يصرخ صرخة ترتجف لها القلوب، انما هو روح «كاركان» الذي يبكي على اخيه «ونجو» أبد الدهر■

(للحديث بقية)



ورقة

نحو أفق بعيد ٨٤



بقلم الطيب صالح

حين تدلهم الخطوب، أتعزى بعد كتاب الله الكريم، وسيرة الرسول الأمين، أعظم من أظلته السماء، وأقلته الغبراء، أتعزى بشعر العرب. ولو شئت لسقت شعرا كثيرا يصلح لهذه الايام، ولكن حسبي ذلك البيت من شعر «الاستاذ» الذي لا أمل من ترديده:

من راها بعينها شاقه القطان فيها كما تشوق الحمول

قال العكبري ، قال ابو الفتح : «أي من عرف الدنيا حق معرفتها تيقن ان اهلها راحلون لا محالة، فلم يجد بين القاطن والراحل فرقا، فهذا يشوقه وهذا يشوقه، لان الرحيل قد شملهما. والمعنى: - من رأى الدنيا بعينها وتوسمها بحقيقتها، شاقه القاطن فيها لقلة مقامه، كما يشوقه الظاعن عنها لسرعة زوالها...»

واضيف، غفر الله لي، ان ابا الطيب، اراد ايضا ان يضع حياة الانسان القصيرة في سياق الابد، لعل الانسان يدرك لو يستطيع، كم هي عابرة حياته، وكم هي تافهة مساعيه وطموحاته. والانسان، لانه ظلوم جهول، قد يزين له غروره ان عمره القصير هو الابد، وانه مخلد في الارض، وان لا احد قبله ولا احد بعده. ينسى ان أناسا اثر أناس جاءوا قبلنا واحسنوا وأساءوا، ثم رحلوا. وسوف يجيء بعدنا أناس قد يرون ما نحسبه نحن صوابا، انه عين الخطل وغاية الحمق.

كذلك أجد العزاء في كتب التاريخ، وقد اعارني منذ ايام صديقي الدكتور محمد ابراهيم كاظم، احد حكماء العرب في هذا العصر، كتابا مملوءا بالحكمة للكاتب الانجليزي «بروفسر سي. نورثكوت باركنسن» عنوانه «تطور الفكر السياسي»، كنت قد قرأت لباركنسن كتابه الشهير «قانون باركنسن» الذي يسخر فيه من البيرقراطية والبيرقراطيين لكنني ما كنت اعلم انه مؤرخ ايضا.

هذا الكتاب ليس مرجعا تاريخيا، ولكنه عرض لحقب متباعدة من تاريخ الانسانية بطريقة فيها روح الطرافة والعبث، تذكرك باسلوب المؤرخ الحبر «اي. جي. بي. تيلور». وقد لفتت نظري فقرات يتحدث فيها الكاتب عن علاقات «اثينا» بجيرانها في القرن الخامس قبل الميلاد، أسوقها لكم فيما يلي:

«تجدر الاشارة الى مثلين من امثلة السلوك الامبريالي لمدينة «اثينا» يرجع تاريخهما الى الفترة التي اعقبت موت «بركليس» مباشرة. ففي عام ٤٢٨ق.م، وصلت الاخبار الى «اثينا» بأن مدينة «متلين» الخاضعة لنفوذها تعد العدة للانقلاب عليها والاستقلال بذاتها، فارسل الاثينيون جيشا حاصر المدينة بالبر والبحر حتى اضطرت الى الاستسلام. اعقب ذلك جدل في «اثينا» ماذا يفعلون بالمدينة المهزومة. ونجح «كليون» بائع الجلود في اذكاء حماس العامة، فصدر قرار بذبح كل رجال «متلين» الذين بلغوا سن التجنيد، وارسلت الاوامر بالفعل لتطبيق القرار. ولكن الجدل ثار من جديد في اليوم التالي فقد طالب «ديودوتس» بالرحمة لاهل «متلين»، وعارضه «كليون» الذي طالب بما اسماه «العدل»، وقال في مرافعته ان مقتضيات النظام الامبريالي لـ «اثينا» تحتم على الدوام بث الرعب في قلوب الرعايا الرافضين لسلطان «اثينا»، والا فعلى الاثينيين ان يتوقعوا ضياع نفوذهم بالانسياق وراء عواطف الرحمة نحو اناس لن يرحموا الاثينيين اذا انتصروا عليهم.

تغلب رأي المعتدلين في هذه الحالة، ولكن حتى هذا لم يمنع الاثينيين من قتل الف رجل بدلا من الستة الاف الذين قرروا قتلهم باديء الامر.

بعد ان فتكت «اثينا» بمدينة «متلين» وجعلتها مثلا، رأى الاثينيون باغراء من «كليون» انهم يستطيعون ضربة لازب، ان يرفعوا عن كاهلهم ضريبة الحرب التي ارهقتهم، بمضاعفة «الجزية» التي فرضوها على المدن الخاضعة لسلطانهم، بمقتضى المعاهدات المبرمة بينهم وبين تلك المدن.

اعلنت الزيادة عام ٤٢٥ق.م، وارسلت طلبات الدفع الى كل المدن، ولم يستثنوا مدينة «ميلوس» المستقلة التي لم تدخل في ظل نفوذ «اثينا» ولم تربطها بها اية معاهدة. وقد رفضت «ميلوس» ان تدفع، فانتظر الاثينيون حتى عام ٤١٦ق.م، حيث احسوا بانهم يملكون القوة العسكرية الكفيلة لاجبارها على الانصياع. حينئذ جردوا حملة الى «ميلوس» وارسلوا معها طلب الدفع بأثر رجعي. ويقول المؤرخ اليوناني «ثيوسايديدس» ان سفراء «اثينا» كانوا صريحين كل الصراحة مع اهل «ميلوس» فقالوا لهم:

«لن نضيع وقتكم في الاستماع الى حجج مزيفة نبرر بها مطالبنا. لن نقول لكم اننا نستحق الزعامة والنفوذ لاننا حاربنا الفرس نيابة عنكم وطردناهم عن ارض «هيلاس»، ولن نتظاهر باننا ننتقم منكم بسبب اي ذنب ارتكبتموه ضدنا. انتم تعلمون كما نعلم نحن ان طبيعة الاشياء تقضي بان تكون «الحقوق» امرا لا ينطبق الا بين اطراف متعادلة في ميزان القوة. القوي حر في ان يفعل ما تمكنه قوته من فعله، والضعيف يذعن ويعاني كما تحتم عليه طبيعة ضعفه».

لم يقتنع اهل «ميلوس» بهذا المنطق، وقرروا الا يرضخوا لمطالبهم، وقالوا للاثينيين ان الالهة التي تؤيد الحق سوف تؤيدهم وتنصرهم، فاجابهم الاثينيون بصراحة تامة ايضا:

«حين تتحدثون عن تأييد الالهة، فلعلها تنظر الينا نحن ايضا بعين الرضى، اذ ان اهدافنا وسلوكنا لا تتعارض بوجه من الوجوه مع ما نعتقد ان الالهة ترضى عنه ومع ما يفعله الناس بعضهم ازاء بعض. فحسب ما وصل اليه علمنا عن الالهة التي نؤمن بها، والرجال الذين تعاملنا معهم وخبرناهم، فان الدول بمقتضى القوانين التي تحكم سلوكها، يحق لها ان تبسط نفوذها الى اقصى ما تسمح به قدرتها. وما نحن اول من ابتكر هذا القانون، ولا نحن اول من عمل بمقتضاه. لقد وجدناه في الدنيا حين جئنا، وسوف نتركه لمن يجيء بعدنا. كل ما فعلناه اننا استفدنا منه، ولا يخامرنا ادنى شك انكم او غيركم لو كنتم تملكون مثل ما نملك من قوة لفعلتم مثل ما نفعل. واما فيما يتعلق بالالهة فنحن مطمئنون تماما من ناحيتها».

قاومت مدينة «ميلوس» بضعة اشهر، ثم استسلمت، فذبح الاثينيون كل الرجال الذين بلغوا سن الرشد، واخذوا النساء والاطفال سبايا، وباعوهم في اسواق الرقيق. ولكن السماء لم تغض الطرف عن الظلم الذي حاق بمدينة «ميلوس» ولم تغفر لاثينا غرورها وجبروتها، فبعد ستة اشهر من هذا التاريخ ارسلت «اثينا» حملة ضخمة لغزو جزيرة صقلية، فمنيت بهزيمة نكراء. ولم يحل عام ٤١٢ق.م حتى كانت كل الشعوب الخاضعة لاثينا قد ثارت عليها ورفعت السلاح في وجهها ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد ٨٥



بقلم الطيب صالح

لي صديق أردني فلسطيني، أراه من الصالحين، وأرجو أن يكون كذلك ان شاء الله. تطيب لي صحبته، واجد فيها متعة وفائدة. داره صغيرة بسيطة في ضاحية من ضواحي عمان. عامرة بالكتب العربية والانجليزية، والرفوف ملأى بكتب الحديث والفقه وتفسير القرآن الكريم. أسعدني كل ذلك. الضاحية لانها على ربوة مخضره تطل على أودية من هنَا ومن هنَا. الهواء المنعش العليل الذي تمتع به خلفاء بني مروان. بساطة الدار. ليس فيها شيء زائد عن الحاجة. ذكّرتني بدار صديقنا صاحب «تفسير التفاسير» في الرياض أبي عبد الرحمن الطعام صنف واحد، كما أستنّ لنا رسولنا الكريم.

شيء من أرز وشيء من دجاج بالمرق وشيء من بقل وخضرة وطماطم. أعدته زوجته التي تحمل شهادة الدكتوراه، وكانت صائمة في ذلك اليوم، وجاءتنا به ابنته الوحيدة. له ستة ابناء وبنت واحدة، بارك الله له فيهم. كلهم ناجحون، وهو كنيته «ابو ناجح».

يكتب الفقه والحديث والتفاسير، لانه يترجم القرآن الكريم الى اللغة الانجليزية منذ عشر سنوات، وقد أصدر مؤخرا ترجمته لسورة البقرة. واشهد أنها خير ما رأيت من ترجمات. ذلك لان الترجمة عنده ليست محض عمل، ولكنها تقرب الى الله وزلفى. وشتان بين ان يترجم القرآن رجل مسلم فتح الله بصيرته على معاني كتابه المنزل، وان يترجمه مستشرق، سيان عنده كلام الله جل جلاله وكلام الجاحظ وابن خلدون.

هذا، الى جانب حساسية مرهفة لوقع كلام العرب، فهو شاعر مجيد، يتذوق جرس الكلمات ويفهم ابعادها ومراميها ويميز بين ظواهر المعاني ومستبطناتها. يعلم ان كلام الله بعيد الغور، يجل عن الاحاطة والحصر، فيستخير الله، ويعمل الفكر، ويرجو ان يفتح الله عليه. اين من هذا جهد مستشرق يكون على أحسن الفروض، أعمى عن النور الذي يسطع بين يديه! ولو كان لي من الامر شيء، لمنعت تداول تراجم المستشرقين بين المسلمين. انني لا أعلم أن مسلما قد ترجم الانجيل الى اللغة العربية، فما لهم يستحلون ما نحرم نحن على انفسنا؟

ذلكم ابراهيم أبو ناب، من الناس الذين يمشون على الارض هونا، القبيل الذين يحبهم قلبي، وتطيب لي صحبتهم، وأرجو ان أحشر في زمرتهم.

حدثني ان ترجمته تعتمد منهاج الاستدلال بالسياق. لذلك فهو حين يترجم الآية الكريمة من سورة البقرة: -

«أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثلُ الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب». فهو لا يترجم «تدخلوا الجنة» enter paradise كما فعل غيره، ولكنه يترجمها attain to heaven وانا معه في ذلك، فكلمة attain فيها معنى الحصول على الشيء بعد جهد، وليس مثلها enter التي هي مطلق الدخول.

ولعمري انه أسلوب في الترجمة سوف يحدث جدلاً كبيراً بين مؤيدين ومعارضين، ولكن المهم في الأمر أنها ترجمة سلسة واضحة، سوف تزيد المؤمنين من غير العرب ايمانا، ولعل الله يفتح بها على قلوب أغلقت اقفالها حتى الآن.

اليوم أعطاني تفسيراً طريفا لمعنى «يأجوج ومأجوج»، فأنا كلما لقيته أذهب منه بفائدة. ولعله أستفاد مني بشيء، فقد تحدثنا في معنى «ضحكت» في الآية، حين ضحكت زوجة سيدنا ابراهيم وقالت عجوز عقيم. وذكرت له بيت تابط شراً في قصيدته الشهيرة التي يتهدد فيها قبيلة هذيل:

نضحك الضبع لقتلي هذيل
وترى الذئب نحوها يستهل

وهو معنى عجيب نبهني اليه أخي عبدالله ولد أربيه، من ديار شنقيط، رحمه الله رحمة واسعة، كان انسانا عالما وربما، هو أيضا من عباد الله الذين يمشون على الأرض هونا، وقد سعدت بصحبته زمنا في الدوحة الميمونة، ثم نكبتني فيه طوارق الدهر، التي لا تترك حبيباً لحبيب.

حدثني ابراهيم ان رجلاً صالحاً من اصفيائه في عمان، يتردد عليه وينهل من بركاته، قال له ذات يوم، في معرض الحديث عن القرآن الكريم، أن القرآن يثير عنده الشعور بالحزن.

خطر لي بكاء الرسول الكريم حين سمع ترتيل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، وقلت لابراهيم:

«لعل صديقك قصد الحزن بالمعنى اليوناني القديم pathos فذلك كما تعلم احساس اشمل من الحزن. انه احساس ماساوي بحالة الانسان في نظام الكون، فيه معنى الشجى والأسى وربما أيضا الفرح. واذا كان اخواننا النصارى يجدون كل هذه المعاني حين ينظرون الى تمثال الـ pieta الشهير لمايكل أنجلو في الفاتيكان، فنحن عندنا اكثر منه بكثير في سورة مريم».

أقول لمن أحاور من اخواننا النصارى:-

«اقرأوا قصة ميلاد السيد المسيح عليه السلام في أناجيلكم، ثم قارنوا ذلك بسورة مريم». انظروا أي جلال وأي روعة بل وأي اعجاز في سورة مريم. سورة تبدأ بالرحمة، وتنتشر الرحمة في ثناياها وصفة الله سبحانه فيها «الرحمن» يصفها الانسان من قبيل تشبيه الاسمى بالادنى، كانها سمفونية موسيقية كبرى وحين تصل الى الآية الكريمة: -

«قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّنٌ ولنجعله آيةً للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضيا».

حينئذ تدرك كيف تجتمع معاني الاسى والشجى والحزن وفرح البشرى واكثر من ذلك في معنى واحد.

انني أجد كل هذه المعاني مجسمة، حين أستمع الى سورة مريم بصوت الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد الرحمن الدروي رحمهما الله. الاول هو أمير المقرئين بلا شك، ولكنني أجد في صوت الشيخ عبد الرحمن الدروي حلاوة لا أجدها في اصوات مقرئين اكثر منه شهرة. وانت لا تصادفه كثيراً، ومن الاذاعات القليلة التي تذيع قراءاته، اذاعة القرآن الكريم من مكة المكرمة، وقد كنت أداوم على سماعها أيام أقامتي بالدوحة.

مالي ولابي تمام؟ انني اعرف ذلك البيت من شعره منذ أمد ولكنه يبدو لي هذه الايام كأنني أراه لاول مرة. كذلك الشعر. يأخذ من نوائب الزمان وطوارق الحدثان الوانا شتى وطرائف عجبا:

أعنى على تفريق دمعي فانني
أرى الشمل منهم ليس بالتقارب ■

(للحديث بقية)



نحو أفق بعيد ٨٦



بقلم الطيب صالح

بعض الشعر مثل النار المدفونة تحت الرُماد، تُذكيه الحوادث وطوارق الأيام. وهذا الشعر الذي أسوقه اليك، لا بد أنك تعرفه، وان لم تكن رايته من قبل، فلعلك لا تالفه لأول وهلة. الا انك ستستعذبه اذا صبرت عليه، ولعلك تجد فيه مثلي فائدة وعزاء.

لله در محمد بن عبد الله الازدي حين قال:

ولا أدفع ابن العم يمشي على شفا
وان بلغتني من أذاه الجنادعُ
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه
لترجعه يوماً اليَّ الرواجعُ

هذا شعر شريف كما كان يقول أشياخنا، فابن العم لا فكاك لك منه، فاصبر على أذاه وجناديعه، أي دواهيه، فلا بد انه راجعٌ اليك في يوم من الايام.

وهذان بيتان حكيمان لا يُعرف قائلهما، الذي اطلقهما منذ اكثر من الف عام على الأرجح ومضى في سبيله:

الشر يبدؤه في الأصل أصغره
وليس يصلى بنار الحرب جانيها
الحرب يُلحق فيها الكارهون كما
تدنو الصحاح الى الجَرْبى فتعديها

وفي هذه الابيات يرثي قيس بن زهير العبسي، وقد كان من فرسان حرب داحس والغبراء وشعرائها، حمل بن بدر الفزاري، والأبيات تشير الى واقعة محزنة من وقائع تلك الحرب المشؤومة:

تعلَّمْ انَّ خير الناس ميْتٌ ... على جفْر الهباءة لا يَريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكي ... عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكنَّ الفتى حمل بن بدرٍ ... بغى والبغيُ مرتعه وخيم

وقال العبّاس بن مرداس السلمي، وكان من الفرسان المعدودين، وأمه الخنساء الشاعرة، وقد لقي الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم وابلى بلاء حسناً - وهذه الأبيات الشهيرة من المنصفات التي لا تبخس الخصم قدره، قال:

فلم أر مثل الحيِّ حياً مصبَّحا ... ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
اكر وأحمى للحقيقة منهمو ... وأضرب منا بالسيوف القوانسا
اذا ما شددنا شدّة نصبوا لنا ... صدور المذاكي والرماح المداعسا
اذا الخيل جالت عن صريع نكرها ... عليهم فما يرجعن الا عوابسا

والمعنى واضح، رغم الكلمات الغريبة، وهو انهم ثبتوا لأعدائهم، وكانوا من بني أسد، وأعداؤهم ثبتوا لهم، ولك ان تتخيل كم قتل بعضهم من بعض في هذه المعركة الطاحنة.

ولعبد الشارق بن عبد العزى أبيات جميلة مشهورة في هذا المعنى نفسه، يصف معركة لهم مع بني بُهْثة، تحاربوا فيها حتى نفدت اقواسهم وسهامهم:

فلمّا لم ندعْ قوساً وسهماً ... مشينا نحوهم ومشوا الينا
تلألؤ مزنةٍ برقت لأخرى ... اذا حجلوا بأسيافٍ ردينا

الى ان يقول:

فآبوا بالسيوف مكسَّراتٍ ... وأبنا بالسيوف قد انحنيْنا
فباتوا بالصعيد لهم أحاحٌ ... ولو خفَّتْ لنا الكلمى سرينا

وهي، كما ترى أبيات محزنة،
تلخص نهايات الحروب في كل زمان ومكان.

اما قبيصة الجرمي الطائي، فله أبيات بليغة تحدث عندي حزنا عميقاً بسبب ما قطعته الحرب من أواصر وأرحام، يقول:

ولم أر خيلاً مثلها يوْمَ أدركت
بني شمجي خلف اللُهيم على ظهر
أبرَّ بأيمانٍ وأجرأ مقدماً
وأنقض منَّا للذي كان من وِتْر
عشيّة قطعنا قرائن بيننا
بأسيافنا والشاهدون بنو بدر.

ما اعجب ذلك! وما اعجب موقف بني بدر وهم يتفرجون على العراك بين بني شمجي وبني ثعل!

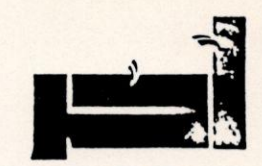
ويترك معبد بن علقمة باب الصلح مفتوحًا في هذه الابيات الرْصينة، التي تنم عن رغبة في السلم من موقف القوة، ويترك الامر للخصم:

فقلْ لزهير ان شتمتَ سراتنا
فلسنا بشتّامين للمتشتِّم
ولكننا نأبى الظلام ونعتصي
بكل رقيق الشفرتين مصمّمْ
وتجهلَ أيدينا ويحلم رأينا
ونشتم بالافعال لا بالتكلُّم
وان التمادي في الذي كان بيننا
بكفيك، فاستأخرْ له او تقدَّمْ

ثم هذه الابيات العجيبة التي قالها شُبيْل الفزاري في رثاء أبناء أخيه بعد ان حاربهم وقتلهم:

أيا لهفي على من كنتُ أدعو
فيكفيني وساعدُه شديدُ
وما من ذلة غُلبوا ولكن
كذاك الأسد تفرسُها الاسودُ
فلولا أنّهم سبقت اليهم
سوابقُ نبْلنا وهمو بعيدُ
لحاسونا حياض الموت حتى
تطاير من جوانبنا شديدُ

(للحديث بقية)



نحو افق بعيد



بقلم الطيب صالح

حين علمت بنبأ موت المؤرخ الانجليزي الحبر «اي.جي.بي تيلور» الذي توفي منذ اسبوعين، شعرت كانني افقد صديقا عزيزا، رغم انني لم اقابل الرجل ولم اعرفه الا من خلال كتبه ومقالاته ومحاضراته. ذلك لانني كنت اعتبره واحدا من هذه الزمرة الكريمة من الرجال والنساء، الذين تجمعك بهم اواصر الروح والعقل والضمير، على بعد الديار واختلاف الاعراق والانتماءات، فكانهم اهلك بحق.

كان بحر علوم في ميدانه، يملك الى ذلك عقلاً نافذاً جذاباً وبياناً ناصعاً ساخراً، وجراة على السباحة عكس التيار، والتصريح بافكار يعلم انها سوف تغضب الكثيرين وتجر عليه العداوات والاحقاد، لكنه كان باحثاً عن الحقيقة أنى وجدها، وعنده تلك النزاهة والشجاعة اللتان يمتاز بهما بعض علماء الانجليز الخلص. وكان يؤمن ان التاريخ يجب الا يكون حكراً على المتخصصين، ولكن على المؤرخ ان يجعله جذاباً ومفهوماً على اوسع نطاق. فكان من اوائل المؤرخين الذين استغلوا وسائل الاتصال الجماهيرية، فكتب في الصحف، وحاضر في التليفزيون. واكثر ما اثار عليه سخط زملائه الاكاديميين، انه لم يحجم، رغم انه كان اميل الى اليسار، ان يكتب في صحف «بيفربروك» اليمينية المتطرفة، بل انه كان صديقاً لصاحبها «لورد بيفربروك» والّف كتابا عن حياته.

ربما لأجل ذلك لم يعطوه كرسي استاذ التاريخ المعاصر في جامعة اوكسفورد الذي كان يحلم به، وفضلوا عليه منافسه «ترفر روبر»، وهو مؤرخ اقل منه قدرا في نظر الكثيرين، ولكن حسبه انه كان طوال حياته مثار اهتمام واسع، من الاكاديميين وغيرهم، وان محاضراته في التلفزيون كانت تعتبر مناسبات مهمة تظل اصداؤها تتردد زمناً طويلاً بعد عرضها، وان فصوله في جامعة اوكسفورد التي كانت تبدأ في التاسعة صباحا، كانت تمتلىء بمستمعين من تلاميذه، ومن تلاميذ يتقاطرون عليه من الكليات الاخرى، وجمهور يفد من اقاصي القطر خصيصاً للاستماع اليه.

لقد كانت اول مقالة كتبتُها في هذه الصفحة بتاريخ ١٩٨٩/١/٢٥، عن هذا المؤرخ الجليل. واستميح القارىء عذراً في ان اعيد بعض فقراتها. قلت:

«يعجبني من المؤرخين الانجليز المعاصرين، اي.جي.تيلور، او الن تيلور كما يسميه انصاره، فهو رجل له معجبون كثيرون وخصوم كثيرون. ذلك لانه ينظر الى التاريخ بجراة وطرافة وغير قليل من السخرية. وهي سخرية تقترب من روح شيكسبير التي ترثي لتفاهة مسعى الانسان، وهو يشن الحروب ويديل الدول ويرتكب الحماقات. في سمت هذا المؤرخ العتيد تبرم كانما بنفسه وبالناس، وضيق صدر، ربما لكثرة ما يعلم من قصور طموحات البشر عبر التاريخ.. تقرا كتابه، فاذا فرغت منه فكانما قرأت رواية عظيمة لروائي عظيم. حياته قلقة، فقد تزوج وطلق، وتزوج وطلق، وتغير موقفه في السياسة من اقصى اليسار الى لا قرار. كان متحمسا لحزب العمال، ثم فتر حماسه «انه الان في نحو الثمانين، عليل يقف على حافة القبر. اسال الله ان يشفيه فهو من هؤلاء الانجليز الذين يجعلونك تغفر لقومهم كثيرا من سيئاتهم..».

«قامت زوبعة اول ما صدر الكتاب - جذور نشوب الحرب العالمية الثانية - اخريات الخمسينات، لان الن تيلور قال ان ادولف هتلر لم يكن «عبقريا شيطانا» كما يزعم، ولكنه كان رجلاً عادياً لا يملك اية مؤهلات خارقة، وانه لم يكن يعمل وفق «خطة جهنمية» ولكنه كان «يتخبط» كبقية الزعماء والسياسيين، وانه نجح لان الانجليز والفرنسيين كانوا اكثر تخبطاً منه. هذا الراي اغضب اليهود وكثيراً من الاوربيين، اما الاوربيون فلانهم لم يجدوا سببا منطقيا لما حدث، فخلقوا اسطورة «ادولف هتلر العبقري الشيطان». كانت المانيا اكثر الدول الاوروبية تحضراً وكان اليهود في المانيا من اكثر الجاليات اليهودية في اوربا رخاء واستقراراً. لماذا اذا حدث ما حدث؟.. واذا كانت المانيا قد فعلت هذا، فهل كان محتملاً ان تفعله فرنسا او بريطانيا؟ هل السبب الحقيقي نزعة همجية قابعة في اعماق اللاّ وعي الاوروبي عموماً؟..».

«واما اليهود، فانهم بطريقتهم «الميلودرامية» في النظر الى تاريخهم، اعطوا ماساتهم، وهي ماساة لا شك فيها ابعاد ملحمية كما في الاساطير القديمة، فجاء الن تيلور، ونظر اليها كما ينظر الى مصائر البشر كافة عبر التاريخ. هذا، ولأن اليهود لم يكونوا بمعزل تماما عما حدث لهم..».

«اذكر ندوة تليفزيونية تلك الايام. كان الن تيلور يرد فيها عن اسئلة حول كتابه قال له احد المشاركين، وكان واضحا انه يهودي «انك بافتراضك هذا تغض من عظمة الكفاح البطولي للشعب اليهودي في اقامة دولة اسرائيل» فرد عليه تيلور بتبرم واضح «اسمع. لا تحدثني عن اسرائيل والكفاح البطولي وهذا الكلام الفارغ. اسرائيل لا شيء. بريطانيا لا شيء. امريكا لا شيء. روسيا لا شيء».

●●●

انني لا اعرف ان مؤرخاً غيره جرؤ على مثل هذا القول، وقد كان ذلك امراً جللاً بحق في تلك الايام. لقد اوصلته دراساته فيما يبدو الى ان الكائن البشري عموماً «لا شيء» وهو راي يشبه رأي المرحوم مصطفى صادق الرافعي حين قال: «ما الانسان، وما خيره وشره؟ انه مثل حفرة برجل نملة لتدفن فيها نملة».

نعم، هذا مؤرخ من طراز نادر، لا يجود الزمان بمثله الاّ على فترات متباعدة ■

(للحديث بقية)





بقلم الطيب صالح

حين قدمت على بغداد في شهر نوفمبر الماضي، كانوا قد عينوا عبد الحسين زويلف لتوهم مدير الجهاز تعليم الكبار ومكافحة الامية. كنت فرحاً بتلك الرحلة، أن مكتب اليونسكو الاقليمي في عمان، الذي يرئسه الدكتور محمد ابراهيم كاظم، قد جندني في هذه المعركة. ان اكون أمياً بين الاميين، يا له من شرف عظيم. وقد اتضح لي بالفعل خلال هذه الرحلة، كم انا جاهل. زرت سبع دول عربية، من العراق إلى المغرب، وفي كل بلد كنت اكتشف اشياء جديدة. لقد طوفت هذا العالم المتنوع الجميل عدة مرات من قبل، وظننت انني اعرفه، ولكنني اكتشفت هذه المرة، انني لم اعرفه حقا لانني لم انظر اليه من قبل، من هذه الزاوية، زاوية الاميين. اكثر من مائة مليون امي في العالم العربي! معنى ذلك انك لن تستطيع ان تصنع تنمية، ولا ان تقيم حاضراً ولا مستقبلاً. لن تستطيع ان تحقق شيئاً من هذه الاحلام الجميلة التي تعن لهؤلاء الناس الاكابر. واذا صدقنا شعار منظمة اليونسكو، وهو حق «بما ان الحرب تنشأ في عقول البشر، فلا بد من اقامة حصون السلام في عقول البشر». معنى ذلك انك لن تستطيع اقامة اي من هذه الحصون، إلا اذا فتحت كل هذه العيون المغمضة.

كانت بغداد جميلة كعهدها، بل كانت اجمل. كان سوق «المربد» عامراً وتبارى الخطباء والشعراء والقى محمد الفيتوري قصيدته العصماء «لم يتركوا لك ما تقول».

تنفس الناس الصعداء، ودفنوا موتاهم وجففوا دموعهم. الحزن دائما قريب من السطح في طبع العراقيين الاريحي، ولكنهم تناسوه واخذوا ينظرون الى المستقبل بثقة من قاوم وصمد، ودفع الثمن. ينظر حوله ويرى ماذا تهدم وماذا ظل واقفا. ماذا ضاع وماذا بقي. وكان من بين ما تهدم جهاز مكافحة الامية.

توقفت الحملة خلال سنوات الحرب، وبدات الامية تزحف من جديد، حتى وصلت الان الى ١٥٪ من عدد السكان حسب تقديراتنا. الا ان عبد الحسين زويلف كان واثقا انهم يستطيعون القضاء عليها بسهولة، وقد صدقته، فقد كانت وراءهم تجربة عظيمة، والحملة التي قاموا بها، اصبحت مضرب المثل في المجتمع الدولي.

استقبلني بابتسامته الودودة ووجهه الطيب، ورافقني طوال اقامتي، وكان سعيداً متفائلا. لا غرو فقد خاض المعركة من قبل، مساعداً لطه يس اسماعيل، الذي كان رئيسا للجهاز التنفيذي. استمرت الحملة سبع سنوات منذ عام ٧٨. لاحقوا الاميين في كل مكان، في الاهوار حيث يعيش الناس في جزر في الماء في مضارب البدو. في قرى السواد بين النهرين. قضوا على الامية قضاء تاما. وكما تتحول احداث الحروب الى اساطير، تحولت تفاصيل حملة مكافحة الامية، الى اسطورة مثيرة في خيال عبد الحسين زويلف.

قصدت الكويت بعد بغداد، وهنالك لقيت عبد العزيز النجدي، مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الامية في وزارة التربية. رجل أخر من هؤلاء الرجال الصالحين. مثل اخيه في بغداد تماماً. كانه هو. وقد اكتشفت خلال تلك الرحلة ان كل الرجال والنساء العاملين في ميدان مكافحة الامية في العالم العربي، هم من طينة واحدة. الطيبة ودماثة الخلق وحب الخير والايمان العميق بقيمة الانسان.

بعض المهن والحرف تفعل هذا الاثر في اصحابها. الاطباء، على وجوههم شيء ما، كانهم يعرفون سراً لا يعرفه بقية الناس، ربما لكثرة ما رأوا من تقلبات الحياة والموت. وهؤلاء يرون معجزات تحدث امام اعينهم يوماً بعد يوم، هذه الكتل البشرية البكماء، مثل الحجارة قبل ان تصنع منها التماثيل، فجاة تنطق وترى. الرجل في السبعين، والمراة في الستين، بعد امد من الظلام، تنجلي لهم الرموز، وتنفك الغاز الحروف. ك.. ت.. ب.. /كتب/ع.. ر..ف../ عرف/.

نظرت مع عبد العزيز النجدي في فصول محو الامية الى وجوه الاميين، رجالاً ونساء، فجاة تشع بالحياة حين يقراون ويكتبون ترى على وجوههم فرحاً مشوباً بالدهشة، كمن يخرج دفعة واحدة من الظلام الى النور. ما الذي جاء بهذا الرجل الطاعن في السن؟ وهذه المراة ماذا يجديها ان تتعلم الان؟ انها تلك الرغبة المتاصلة في الانسان ان يعرف ويدرك ويتواصل بطريقة افضل مع الاخرين، الا ان معظم الذين يقبلون على فصول محو الامية تحدوهم ايضا رغبات ملحة لتحسين اوضاعهم المعيشية.

وجدت في الكويت جهازاً ضخماً لمكافحة الامية، وهو احسن جهاز رأيته في البلاد التي زرتها. كان معداً اعداداً عالياً، وفيه كفاءات ممتازة في ميادين البحوث التربوية والبحوث المتعلقة بمكافحة الامية، من الكويتيين وغيرهم.

تركت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت ان اعرج على دار كريمة واسلم على ساكنها الكريم، الاستاذ عبد العزيز حسين. كان رئيسنا طوال اربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزداد مع مرور الايام تقديراً وحباً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الاعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم، فقد طابت لنا الصحبة، وطاب لنا العمل برئاسة ذلك الانسان الفذ. ومهما يكن فان تقرير اللجنة، وهو من عدة مجلدات، وقد ترجم الى الانجليزية والفرنسية، سوف يظل اثراً جليلاً في ميدان العمل الثقافي العربي، ومأثرة لا تنسى لدولة الكويت.

غذت بي الطائرة نحو صنعاء. هنالك سوف القى محمد المضواحي، سوف يكون مثل صاحبيه العراقي والكويتي. وسوف اجد صديقي عبد العزيز المقالح. وسوف ازور «حجه» وارى العيون اليمانية تضيء بالذكاء من ثنايا البراقع.

في العالم العربي، عالم الاميين على الاقل، عالم واحد ■

(للحديث بقية)



ورقة



بقلم الطيب صالح

في صنعاء، وجدت محمد المضواحي رئيس جهاز تعليم الكبار ومحو الامية، كما توقعت. التواضع الجم، ودماثة الخلق، والروح الخيرة التي تضيء الوجه وتطل من العينين. مثل كل العاملين في هذا الميدان. أصغر سنا من عبد العزيز النجدي في الكويت، وعبد الحسين زويلف في العراق، لذلك فهو اكثر منهما اندفاعاً.

المشكلة في نظره واضحة، والحل واضح. الامية هي الوباء الذي يجب ان تحشد لمحاربته كل الطاقات وتسخر كل الامكانات. لقد بذلت اليمن جهدا لا يستهان به، ولكن الحكومات تنظر الى الامور من زاوية مختلفة. لا بد من توفير الغذاء للجياع، والعلاج للمرضى، والعتاد للجيوش. وثمة التعليم النظامي، المدارس والمعاهد والجامعات. واذا كانت الموارد محدودة، فكيف تصنع؟

قابلت في رحلتي بعد ذلك مسؤولين يرون الامر بخلاف ما يراه محمد المضواحي. يقولون لك ان المشكلة سوف تختفي من تلقاء نفسها حين يعم التعليم النظامي، التعليم عندهم هو الذي يكون بين جدران المدارس، اما فصول محو الامية، وناس يتعلمون في العراء تحت الشجر، والقوافل المتنقلة، والدروس المسجلة على الفيديو والكاسيت، وتجيء عبر الراديو والتليفزيون الى غير ذلك من الافكار الجديدة، فهذا في رأيهم ليس تعليما وتسالهم:

«وماذا يحدث حتى يعم التعليم النظامي؟ ماذا تصنعون بأعداد الاميين التي تتزايد يوما بعد يوم؟ ما هو مصير اولئك الذين يقطعون تعليمهم في سن مبكرة لسبب او لآخر، ثم يرتدون الى الامية؟».

ويجيبونك بانه لا مناص للدولة من ان تضحي بهؤلاء في سبيل اعداد اجيال متعلمة تعليماً صحيحاً في المدارس النظامية.

منظمة اليونسكو كانت المنظمة الدولية الوحيدة التي رفضت هذه الفلسفة الممعنة في القسوة. المنظمات التي بيدها المال مثل البنك الدولي وبرنامج الامم المتحدة للتنمية، كانت تؤكد على التنمية الاقتصادية، وتؤمن بانك اذا وجدت الحل لمشكلة الفقر، فسوف تحل المشاكل الاخرى من تلقاء نفسها.

بدأ الحال يتغير. اخذت هذه المنظمات تميل الى وجهة نظر اليونسكو، وتقبل بان الانسان الامي الذي يعيش الان، لا يعزيه ان الاجيال القادمة سوف تكون متعلمة، وان له الحق هو ايضا في ان ينمي الطاقات العقلية والروحية التي منحه الله اياها الى اقصى مدى، وان التنمية الاقتصادية التي تبنى على الامية والجهل، انما تقوم على رمال. لذلك فقد اعلن المجتمع الدولي هذا العام، عام ١٩٩٠، بداية عقد مكافحة الامية في العالم، بأمل القضاء عليها كلية بنهاية القرن. وهو مطلب عسير، ولكنه ليس مستحيلاً، اذا صدقت النية وصح العزم. لو تحقق الحلم، فسوف تكون البشرية ككل، قد انجزت اول ثورة حقيقية في تاريخها. يوجد مليار، الف مليون امي في العالم الآن. يوجد مائة مليون طفل لا امل لهم في الحصول على التعليم النظامي. تصور اي ظلام يلف هذا الكوكب! اي طاقات بشرية معطلة!

وربما لأول مرة يعترف المجتمع الدولي ككل، ان التنمية الاقتصادية ليست هي كل شيء، وان تنمية قدرات الانسان العقلية والروحية، واعطاءه المهارات الضرورية لمواجهة الحياة، لا تقل اهمية عن التنمية الاقتصادية، ان لم تزد عنها في الاهمية. وقد جاء في ورقة العمل الرئيسية التي قدمت في المؤتمر العالمي حول «التربية للجميع»، الذي عقد في تايلاند في آذار (مارس) من هذا العام، ما يلي:

«ان التنمية البشرية هي في صميم اي تحرك انمائي، وان التربية لكونها عبارة عن تسليح الافراد من خلال توفير المستويات الاساسية من التعلم، هي حق من حقوق الانسان، ومسؤولية اجتماعية».

وتقول الوثيقة في مكان آخر:

«ان حلقة الوصل بين التربية الاساسية وتنمية الافراد والمجتمعات تعتمد على تحصيل مستويات التعلم المطلوبة، لا على مجرد الالتحاق او الاشتراك في البرامج التعليمية او الحصول على الشهادات.. يجب أن تتاح لكل الاطفال واليافعين والشباب فرصة بلوغ مستوى مقبول من التعلم من خلال الفرص المتاحة في التربية الاساسية.. عدم توافر فرص الالتحاق في المدارس النظامية يجب الا يمنع اي طفل من الحصول على اساس تربوي مشترك يؤهله للحياة او للتعلم في المستقبل...».

هذا يعني الاعتراف بأمرين اولاً ان التنمية البشرية هي الاساس في التنمية الاقتصادية ولا تنمية بشرية مع الامية. وثانيا ان التعليم النظامي، بشكله التقليدي، لا يستطيع وحده حل المشكلة. لا بد من استعمال وسائل جديدة متنوعة، وخاصة وسائل الاتصال الجماهيرية مثل التليفزيون في التصدي لهذه المشكلة الكبيرة.

هذا ايضا يعني ان محمد المضواحي ورفقاءه العاملين في ميدان محو الامية في العالم العربي، ومن على شاكلتهم في انحاء العالم الاخرى، كانوا ابعد نظرا من البنك الدولي وغيره من المنظمات الدولية. لقد مارسوا المشاكل عن قرب، ورأوا الحلول تتكشف لهم على هيئة معجزات تحدث بين ايديهم كل يوم. المشاكل والحلول ليست احصائيات ونظريات وتصورات يصنعها اناس اذكياء في اماكن بعيدة. انهم يرونها ماثلة امامهم في هيئة رجال ونساء يعرفونهم بأسمائهم. كل واحد منهم مثل حبة القمح في كوم القمح، قائمة بذاتها وتنطوي على سر عظيم. غداً سوف تبدأ هذه العوالم المغلقة تبوح ببعض اسرارها. تتحسس طريقها في الظلام. تأخذ في فك طلاسم الحروف. حينئذ ينشأ ضوء يغمر وجود الاميين، وينعكس على وجوه الذين ساعدوا على حدوث المعجزة مثل محمد المضواحي ومن على شاكلته من عباد الله الابرار ■

(للحديث بقية)





بقلم الطيب صالح

تسافر من صنعاء الى الرياض، فكأنك تعبر الجسر من ام درمان الى الخرطوم بحري، او من الاعظمية الى الكاظمية او من الرباط الى سلا. تركت صنعاء البلقاء قاصدا الرياض العصماء، وحين تسافر بالطائرة هكذا، تبدو لك هذه العواصم العربية كأنها احياء في مدينة واحدة. تلمّ بها ليلاً او نهاراً. الاضواء اوضح هنا، والمطار اكبر هنا، البيوت اسوأ حالاً في مكان، والمآذن اكثر ارتفاعاً في مكان. هنا يبنون بالحجر الابيض، وهنا يبنون بالطوب الأحمر، وهنا يبنون بالطين الاخضر، وهنا يبنون بالاسمنت والزجاج والحديد. هنا رواب مخضرّة، وهنا صحارى مصفرّة، وهنا نهر جار، وهنا بحر أجاج. وحين تسمع نداءات المؤذنين في الفجر، لا تكاد تميّز اين انت. الله اكبر في القاهرة كما الله اكبر في بغداد.

جموع تتزاحم في الشوارع والاسواق، امواج من محيط واحد وحقيقة واحدة. ثوب من نسيج واحد ولكنه متعدد الالوان. ويا لها من الوان مدهشة اذا نظرت اليها بعين الرضى. انما لا تتعجل شروق الشمس، ولا تمزّق الثوب لانك تضيق بتعدد الالوان.

في صنعاء ذات القوام الرشيق والسّمت المميّز، لقيت فيمن لقيت، صديقي سيد احمد الحردلّو، الشاعر الموهوب، الذي كان سفيرا ناجحاً للسودان في اليمن. وجدت انهم خلعوه من عمله. كل عهد تجود به علينا الايام، لا تقرّ عينه، حتى يعزل افواجاً من السفراء والضباط والوكلاء والمدراء ومن هم ادنى من ذلك. كأنهم يقلعون اشجاراً بدأت تثمر ليزرعوا مكانها اشجاراً أخر. وينتظرون الحصاد. ويقولون ان ذلك لاجل مصلحة الوطن. الله للوطن. ولو سألوا راعي ابل في ارض البطانة امياً لا يقرأ ولا يكتب، لافهمهم كيف تكون مصلحة الوطن. انه يعلم انك لا تذبح الناقة الحلوب، ولا تعقر الجمل الطروب.

• «رفاعة الرّبُة قافاها البليب طرْبان».

ذاك جمل الشاعر الشُكْري، الذي لو عقره لما قضى وطراً.

وقد قال ابو العلاء رحمه الله:

ألرجو لها شرّاً ولم أر مثلها
سفائنَ ليلٍ او سفائنَ آلِ
وهنّ مُنيفاتٌ اذا جُزْنَ وادياً
تخيّلْتُنا منهنّ فوقَ جبالِ

ذاك وقد قضيتُ اياما عامرة مع الاميين بصحبة محمد المضواحي. في اليمن ايضا قاموا بحملة وطنية لمحو الامية بدأت عام ١٩٨٢، شاركت فيها الهيئات الحكومية والشعبية والشرطة والجيش، وكادوا يبلغون الهدف. وقد طبقوا النظرية التي بلورها الدكتور محيي الدين صابر، المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. واحسنوا الاستفادة من الجهاز العربي لمكافحة الامية وتعليم الكبار. الا انهم لسوء الحظ ضعف حماسهم بعد ذلك كما فعلت دول عربية اخرى، فاخذت الامية تزحف من جديد.

اثناء ذلك جددت العهد بصديقي الدكتور عبد العزيز المقالح، الشاعر العالم الاديب، مدير جامعة صنعاء، وهو احد الرجال الذين يعتدّ بهم في العالم العربي. وقد زاد من سعادتي انه هيأ لي لقاءات مع الطلبة والاساتذة في الجامعة، استفدت منها اكثر مما استفادوا مني. كذلك سعدت بلقاء الاخ حسن اللوزي، الوزير الشاعر. وقد وجدت عندهم اخي سليمان العيسى، الشاعر الكبير ذا الخيال الجموح والقلب الخفّاق. وقد اهداني ابياتاً من شعره، جادت بها قريحته عفو الخاطر، ما وددتُ ان لي بها حمر النعم، يقول فيها:

دعْنا اذاً في قاعِ قاعِ النّيل
نخرج من «مغطسنا» الوبيل
نخرج من دمارنا الطويل
نخرج يوماً يا أخا «المقيل»
ليس على الله بمستحيلِ..

ثم سافرنا الى «حجّة»، على بعد قرابة اربع ساعات بالسيارة، في طريق متعرّجة تصعد في جبال جرد تحتها اودية خضر. ولما بلغنا «حجة»، اذا بلدة عامرة تشرف على مناظر تخلب اللب. اصبنا الغداء في نزل على ربوة جميلة ثمّة، كانت تتوافد عليه قوافل من السوّاح الالمان والطليان والامريكان وغيرهم. يا سبحان الله. جمال بلاد العرب يتمتع به الناس من الشرق والغرب، واهله عنه في شغل.

طفنا بعد ذلك بصفوف مكافحة الامية، رجالاً ونساء، اذكر منها على وجه الخصوص، صفاً للنساء، تراوحت اعمار النساء فيه بين العشرين واقل، وما فوق الخمسين. ووجدنا صبية في الحادية عشرة، فضّلت صف محو الامية على المدرسة النظامية، لانها أنست اكثر الى مدرسة محو الامية، ولان اختها التي تكبرها سناً كانت في فصل محو الامية. وقد وجدت في ذلك دليلاً على ان التعليم يمكن ان يتم حيثما اختار الطالب، وليس حتماً ان يقدم بين جدران المدارس النظامية.

وإن أنس لا أنس تلك العيون النجل المشعة بالذكاء، تطل من ثنايا البراقع كأنما الى افق قريب المنال.

سوف نصل ان شاء الله. انما لا تتعجل مولد الفجر. لا تتعجل مولد الفجر يا عمرك الله، فالامر ليس بيدك، وكل شيء له اوان، النخلة لا تثمر قبل الموسم، والله غالب على امره.

هذا وقد ابتعدت الطائرة من صنعاء واقتربت من الرياض. انما هما في خيالي اجزاء من مدينة واحدة. سلام على تلك المدينة. وانت ايها «الشاعر» لُذت بعالم الاطفال فراراً من عالم الكبار، كما الوذ بعالم الاميين. انت في معقلك في «تعز» اليت الاّ تكتب الاّ للاطفال. تكتب وتنتظر. ارجو الاّ يطول انتظارك، والسلام عليك اذ تقول:

اني ممن يبحثون عن رنّةْ
حديدة «للدودة» المهترئةْ
اعني بها دماءنا الكريمة
في الأمة المنكوبة العظيمة

• رفاعة مدينة على النيل الازرق جنوب شرقي الخرطوم على اطراف البطانة.

ديار قبيلة الشكرية العتيدة.

الرّبة، اي ان سكانها خليط.

قافاها، اي تركها وراءه.

البليب، اسم جمل الشاعر، ودّ عوض الكريم، ربما لجمال لونه الابيض، مثل الفضة.

(للحديث بقية)

أحر وأفكار

نحو أفق بعيد

انت هنا في نجد، بأريج هوائها الذي دوّخ الشعراء منذ قال قائلهم:
وتحسب سلمى ما تزال كعهدنا بوادي الخزامى امْ على رسّ



بقلم الطيب صالح

نجْد التي ناجاها غيْلان، واطنب فيها الشيخ عبد العزيز. هواء رقيق الحواشي حتى في شهور الصيف. نعم، تروق لي هذه المدينة الحسناء. تجد مطارها اول ما تصل، مفتوحاً على الافق، كانه امتداد له، لذلك فانت لا تحس فيه بالاختناق الذي تحسه في بعض المطارات، وقد وُفق مصممو معماره في الجمع بين القديم والجديد، فاصبح دون شك تحفة من تحف المعمار المعاصر. ليس مثله مطار جدّة، ذو الاجزاء المبعثرة، والاسقف كانها خيام مقوّضة. وعلى الجدران لوحات جميلة، بينها جدارية للفنان المغربي الشهير فريد بلكاهية، اذا مررت بها في صالة المغادرين للرحلات الدولية، فتريث عندها قليلاً، ففيها فنّ كثير. تصل، فتهبط في طريقك الى حيث ختم الجوازات وتسلّم المتاع، الى باحة فيها شلالات ماء تنهمر على صخور ملساء، واضواء رهيفة تصب على اشجار وزرع. يزداد عندك الاحساس بالرفاه والسعة.

كذلك الشوارع، وسيعة، وقد بذلوا جهداً كبيراً في زراعة النخل والشجر على جانبيها، توجد بقايا نخل قديم هنا وهنا، لم تفتك بها بعد الابنية الحديثة. لعلهم اكثروا من الاسمنت والزجاج، ورغم انني من اتباع الدكتور حسن فتحي رحمه الله، ولا يعجبني المعمار الحديث عموماً، الا انني لا انكر ان بعض هذه الابنية الحديثة ذات معمار طريف اخّاذ. واذا كانت دور الحكومة تميل الى الضخامة، فلا بأس، لان مساحة القطر شاسعة، والمقياس، الـ Scale الذي تقيس به، كبير ايضاً.

لكنك تدهش حين تدخل مبنى وزارة المعارف، فهو بناء قديم متواضع بمقاييس مدينة الرياض. وتدهش اكثر حين تدخل مكتب الوزير، الدكتور عبد العزيز الخويطر، فهو مكتب بسيط بكل المقاييس، كان واضحاً لي انه فعل ذلك عن قصد وليس بسبب ضيق ذات اليد وقد سألته اخر مرة زرته، فاجابني ضاحكاً، انه يؤثر ان يضع كل موارد الوزارة في المدارس. رجل كريم الخلق، جمّ التواضع، موطأ الاكناف، على دراية وعلم غزير. اعرفه منذ ايام دراسته في لندن في الخمسينات، تعرفت به عن طريق الدكتور محمد ابراهيم الشوش، الذي كان يزامله في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن.

قضية مكافحة الامية من اختصاص وزارته، فهو ايضا رئيس اللجنة العليا لتعليم الكبار، التي تضم عدة جهات تعنى بذلك مثل وزارة الداخلية ووزارة الدفاع ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية والحرس الوطني والرئاسة العامة لتعليم البنات ووزارة الاعلام وغيرها. وهذه اللجنة تضع الخطة الشاملة لمحو الامية، وتنسق الجهود التي تبذلها الوزارات والمؤسسات الخاصة.

ويعود التفات الدولة الى قضية مكافحة الامية في المملكة الى عام ١٩٤٩، حين وجدت ان الضرورة تقتضي فتح صفوف مسائية للاميين في المدارس. وفي عام ١٩٥٤ انشئت ادارة خاصة لمحو الامية وتعليم الكبار سميت «ادارة الثقافة الشعبية»، كانت تتبع التعليم الابتدائي، ثم استقلت بذاتها، واصبحت في عام ١٩٧٧ تُعرف بـ «ادارة تعليم الكبار ومحو الامية». وفي عام ١٩٨٥ ارتفعت الى مستوى الامانة العامة، وسميت «الامانة العامة لتعليم الكبار».

هذا ان دلّ على شيء، فانما يدل على مدى الاهمية التي توليها المملكة العربية السعودية لقضية الامية. فقد وجدت في بعض الدول التي زرتها، ان الجهاز المشرف على مكافحة الامية، لا تتاح له الامكانات البشرية والمالية اللازمة، وهذا يعني ان الدولة لا تضع قضية الامية في درجة عالية في سلم اولوياتها. ولعل لهذه الدول بعض العذر اذ ان مواردها المحدودة لا تفي بكل الحاجات، ولا تتسع لكل المطالب الملحّة. ورغم ذلك، فان جميع المؤتمرات الدولية التي انعقدت لدراسة قضية الامية، قد اوصت بان تضع الدول قضية مكافحة الامية في موضع بارز بين اولوياتها، وان يكون الجهاز الاداري المشرف على جهود مكافحة الامية، على درجة عالية. هذا بالطبع يقتضي التزاماً من الدولة، كما يقتضي اصدار تشريعات وسياسات على اعلى مستوى.

المملكة العربية السعودية واحدة من الدول العربية التي فعلت ذلك، فاصدرت التشريعات المطلوبة، وخصصت الموارد اللازمة. ويظهر عمق هذا الالتزام بوضوح، في كلمة قدّم بها وزير المعارف، الدكتور عبد العزيز الخويطر، لكتاب اصدرته الوزارة عام ١٩٨٦، عن جهودها في مكافحة الامية. جاء فيها:

«والامم تُقاس من جملة ما تقاس به، باهتمامها بالالتفات لهذا الجانب، مجتمعا وافراداً، لان التكاتف يأتي بالنتيجة السحرية المتوخّاة، والتراخي اهدار لجهد اي من الطرفين، جهد المجتمع، او جهود الافراد المتناثرة.. لهذا مجهود الدولة، وما ترصده من اموال، وما توفره من طاقات لا يستغرب - فهي الدولة المسلمة التي اشاد قرآنها، وهو منبع تعاليمها، ومصدر ارشادها ورشادها، بالعلم، واكد اجر حامله وثوابه في الدنيا والاخرة، وحثّ على طلبه وتكريم حامليه..».

كل هذا حق، وثمة جهات اخرى غير وزارة المعارف، تقوم بجهد عظيم في مكافحة الامية، اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، وزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة الشؤون الاجتماعية والحرس الوطني السعودي على وجه الخصوص، يقوم بجهد ضخم ملفت للنظر، ربما يكون فريدا من نوعه، في مكافحة الامية واتاحة فرص التعليم الى ارفع المستويات بين افراده.ورغم ذلك فان مشكلة الامية لم تحل تماما، ومعدّلاتها ما تزال مرتفعة بالنسبة لمجموع السكان. ذلك بلا شك، ليس بسبب اي تقصير من جانب الدولة، ولكنه يعزى الى ظروف بيئية واجتماعية.

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

لم تتوقف جهود المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٤٩ للقضاء على الامية. وهي جهود متنوعة شملت القطر كله وفق خطة عشرينية هي الان في نهاية مرحلتها الرابعة.

تعرفت على تنوع هذه الجهود وكثافتها، من مقابلاتي مع المسؤولين في وزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات والحرس الوطني، وغير ذلك من الوزارات والمؤسسات وقد استفدت فائدة كبيرة من صحبتي للاستاذ محمد بن ابراهيم الفوزان الامين العام لتعليم الكبار، والاستاذ محمد الحسين مدير محو الامية في منطقة الرياض. كما زرت مؤسسات عدة، ليست معنية بقضية مكافحة الامية بطريقة مباشرة، ولكنها تدخل في نطاق اهتماماتها التربوية والاجتماعية. من هذه المؤسسات برنامج الخليج العربي لمساعدة منظمات الامم المتحدة، الذي يرأسه الامير طلال بن عبد العزيز. هذا البرنامج الذي تدعمه دول الخليج، والمملكة العربية السعودية بصفة خاصة، ادى وما يزال، خدمات جليلة للمجتمع الدولي في ميادين الطفولة والتنمية والاتصال وغيرها. ويرجع اغلب الفضل في نجاحه واتساع نشاطاته الى الجهود الشخصية لهذا الانسان الكريم، الامير طلال، الذي ينفق من وقته وماله لتخفيف الام البشرية في كل مكان. وقد نذر نفسه لهذا العمل النبيل بحيث اصبح الان واحدا من هؤلاء الناس الاخيار الذين يشار اليهم بالبنان في الاسرة الدولية. كذلك زرت الدكتور صالح بن ناصر في المجلس الاعلى لرعاية الشباب الذي يرأسه الامير فيصل بن فهد، والدكتور علي التويجري المدير العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج، كما قابلت في الامانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، الدكتور عبد الله الجاسر، والدكتور عبد العزيز جلال. ولم اغفل وسائل الاعلام والاتصال، وخاصة التلفزيون اذ ان كل الدراسات والمؤتمرات تجمع، على ان بوسع هذه الوسائل ان تقوم بدور فعال في مساندة الجهود المبذولة لمكافحة الامية، اعظم كثيرا مما تفعل الان.

اتضح لي من هذه اللقاءات ثم من زياراتي لفصول محو الامية برفقة الاستاذ الفوزان والاستاذ محمد الحسين، ان الجهد متصل في مكافحة الامية، التي اجمع الناس على انها داء وبيل لا بد من القضاء عليه. وقد سرني انني وجدت انهم دائبون على مراجعة مخططاتهم في ضوء التجربة، وتقويمها واستخلاص العبر منها. وهكذا، فانهم قد طوروا مناهج الدراسة وعدلوا، حيثما اقتضت الظروف، الاساليب المتبعة فهم مثلا يغلقون فصولا او مدارس في اماكن يجدون ان الحاجة لا تدعو اليها، ويفتحون عوضا عنها فصولا في اماكن اخرى. كذلك فهم ينظمون حملات موسمية في اماكن مختارة لمكافحة الامية بين البدو الرحل، ويدعمون المؤسسات الحكومية والاهلية التي تفتح فصولا لمحو الامية للعاملين فيها، فيمدونها بالكتب والوسائل التعليمية، ويتابعون سيرها بالرعاية والنصح.

وقد اسعدني ايضا، انني وجدت ان وزارة المعارف، تنظم حملات شاملة تساهم فيها وزارات اخرى مثل وزارة الصحة والزراعة، في اماكن التجمع السكاني في الريف والبادية، تقدم فيها الى جانب دروس القراءة والكتابة، دروس ومواد فلمية بغرض التوعية الصحية والدينية والاجتماعية. هذا ما يسميه الدكتور محيي الدين صابر المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بـ «محو الامية الحضارية». فهو يرى ان الامية لا تقتصر على الجهل بالقراءة والكتابة، ولكنها تتعداها الى جوانب اخرى لا تقل خطورة، تنضوي جميعا تحت شعار «الامية الحضارية». لذلك فهو يدعو الى ان يصحب الجهد لتعليم الاميين القراءة والكتابة، جهود متزامنة لتعليمهم مهارات تمكنهم من رفع مستواهم المعيشي، وتفجير قدراتهم الكامنة بحيث يستطيعون ان يعيشوا حياة اكثر ثراء، ويكونوا مواطنين فاعلين يساهمون في تنمية البيئات التي يعيشون فيها، وبالتالي في نهضة الوطن عموما. وهكذا تكون الحملة «شاملة» لانها تتجه الى كل اعراض الامية والتخلف في وقت واحد. هذا «المفهوم» اصبح سائدا في الوطن العربي عامة، ومعمولا به بدرجات متفاوتة من الجدية.

ومن السنن الحسنة التي استنتها وزارة المعارف السعودية انها ابتكرت ما اسمته «الاسرة الوطنية لتعليم الكبار»، فقد اصدر وزير المعارف قرارا عام ١٤٠٤هـ بتكوين لجان استشارية باسم «الاسر الوطنية» تكون ضمن جهاز التطوير التربوي، الهدف منها اسداء النصح للوزارة فيما يتعلق بتطوير المناهج واساليب التعليم وغير ذلك، وهي تضم الى جانب المختصين من وزارة المعارف، اعضاء يتراوح عددهم في كل لجنة، ما بين ثمانية الى خمسة عشر عضوا، يراعي في اختيارهم ان يكونوا من مناطق وخبرات مختلفة، ويحبذ ان يكونوا من اساتذة الجامعات والعاملين في مجال التربية والتعليم. وتعمل هذه اللجان مدة ثلاث سنوات. وتجدد عضوية بعض الافراد اذا دعت الحاجة اليهم مدة اطول.

واضح من هذا، ان وزارة المعارف تعمل على توسيع الدائرة التي تتلقى منها المشورة في امور التعليم. والفكرة معمول بها لدى اغلب الدول العربية باشكال عدة، ولكنها هنا اخذت شكلا له مقومات الثبات والاستمرار. وقد اصبح من الامور المقبولة الان في العالم، ان تطرح قضايا التربية على جمهور اوسع من دائرة المختصين وبعض الدول، مثل دول اسكندنافيا، تذهب حدا بعيدا في ذلك. ويصدق هذا بصفة خاصة على قضايا تعليم الاميين. والدراسات التي اجرتها منظمة اليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمؤتمرات التي انعقدت لهذا الغرض كلها تؤكد على جدوى المشاركة الواسعة في صياغة الاهداف والخطط والوسائل للجهد القومي في التعليم. ويحمد لوزارة المعارف في المملكة العربية السعودية انها بدأت تسير في هذا الطريق، ربما بشيء من الحذر وقد يأتي يوم تجد بين اعضاء هذه «الاسر القومية» اشخاصا من غير الاكاديميين والمتخصصين. ربما يكون بعضهم من الذين تعلموا في فصول محو الامية، ولم لا؟ لقد تخرج الان بالفعل من هذه الفصول، اناس واصلوا سيرهم حتى نالوا شهادات الدكتوراه واصبحوا اساتذة في الجامعات ■

(للحديث بقية)

2597

آخر ورقة

نحوأفق بعيد

٩٣



بقلم الطيب صالح

يقول الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، الأستاذ في كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض، في دراسة حسنة عن تعليم الكبار ومحو الأمية في المملكة العربية السعودية:.

«أن التغلب على مشكلة الأمية يعني بناء أمة قادرة على الانتاج، تتكيف بالتغيرات الحضارية، ذات قدرة ومهارة فنية، وذات آفاق واسعة قابلة للتفاعل مع برامج التنمية، ميالة للعمل الجماعي، مؤمنة بأهمية العلم والتعليم والتكنولوجيا، وناظرة للمستقبل اكثر من الماضي والحاضر».

ها هنا بالطبع تأكيد على الجانب التنموي في قضية مكافحة الأمية، وهو عين الصواب، وأنه الجانب الذي أخذ يلفت انتباه المنظمات الدولية التي تهتم بالتنمية اولا وأخراً، مثل البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية. وقد كانت هذه المنظمات كما قلنا، لا تكترث للأمية، وتعتبرها عرضا سوف يزول بزوال الفقر. ثم ادكرت بعد أمة أن الفقر لن يزول ما دامت ثمة أمية.

أما ان الامة تكون «ناظرة للمستقبل اكثر من الماضي والحاضر»، فهذا قول تختلف بصدده الآراء. ومن جميل ما قيل عنه، ما كتبه الدكتور محمد ابراهيم كاظم أستاذ التربية بجامعة الأزهر، ومدير مكتب اليونسكو الاقليمي للتربية، في ورقة له عن «بناء القيادات لمواجهة تحديات العصر» قال:.

«ومحاولاتنا لرؤية المستقبل اذن، انما هي في صميمها تحليل منظومي أو نسقي للماضي والحاضر في محاولة لصياغة وتشكيل المستقبل. هذه الصياغة لا يمكن ان تنفصل عن تفضيلاتنا ورؤانا في الحاضر واستهدافنا لصياغة مقصودة ومفضلة لمكونات الاحداث والأشياء والأشخاص والأفكار حتى تقع وفق هذه الرؤية. والفرق بين الرجم بالغيب المنهى عنه، والدراسات المستقبلية التي نهتم بها من قبيل الاهتمام بأمور الجماعة والمجتمع، هو أن الدراسات المستقبلية تبدأ في ضوء الحاضر أيا كان، وأيا كان رأينا فيه، بتصور الصيغة التي تمثل تفضيلاتنا لمسارنا نحو المستقبل، وتبين ان هذا المستقبل، لكي يرجح وقوعه، يحتاج لتوفير مقومات ومكونات، كما يحتاج - اذا كان موقفنا ايجابيا - الى الايمان والعلم والحساب والخيال والأمل والطموح».

وأهم من محض التنمية عندي، ان الانسان الأمي حين ينفض عنه أغلال أميته، فانه يصبح هو نفسه، في حد ذاته، انسانا أفضل، انسانا اكثر انفتاحا على آفاق الكون الرحبة وأسراره التي تغري بالاكتشاف. ولا تعود حياته تقاس بعدد الأعوام التي قضاها على وجه الارض، ولكن بدرجة عمق تجربته الفكرية والروحية، ومدى قدرته على التواصل مع نفسه ومع الآخرين ومع أصوات الحياة في الكون. وقد عبر عن هذا المعنى أجمل تعبير المفكر البرازيلي الذائع الصيت، باولو فريري، في عبارة أوردها الدكتور محمد نبيل نوفل، في الفصل الجميل عن هذا المفكر في كتابه القيم «دراسات في الفكر التربوي المعاصر»، يقول باولو فريري، وهو واحد من الأقطاب الذين جاءوا بمفاهيم عميقة طريفة، عن قضية الأمية في العالم:

«لا يمكن ان يكون الوجود الانساني صامتاً. ولا يمكن أن يعيش على الألفاظ الجوفاء، بل يعيش على الكلمات الصادقة وحدها. الكلمات التي يغير الانسان بها العالم. ان تعيش، انسانيا، معناه أن «تسمي العالم»، أو بعبارة اخرى أن تدرك العالم. وان تتخذ منه موقفاً ايجابياً، وأن تعمل على تغييره. وعندما «نسمي العالم» فانه يبدو لنا كمشكلة تتطلب تسمية جديدة، أي أننا عندما ندرك العالم المحيط بنا، ونتعرف عليه وعلى التناقضات الموجودة فيه، حينئذ تبرز أمامنا مشكلات تفرض علينا ان نجد لها حلولا. وحين يتغير العالم فانه يناشدنا أن نتعرف عليه وندركه من جديد، وأن نتعامل مع الواقع الجديد ونحاول تطويره وحل مشكلاته باستمرار...».

«... الحوار لقاء بين الناس من أجل «تسمية» العالم، لذلك لا يمكن ان يقوم حوار بين من يريدون تسمية العالم ومن لا يريدون ذلك، بين من ينكرون على غيرهم الحق في معرفة العالم وتغييره، وبين من يريدون لأنفسهم ولغيرهم ذلك الحق. ومن ثم يجب على من حرموا هذا الحق في تسمية العالم، أن يستعيدوا أولا هذا الحق الطبيعي، وأن يمنعوا استمرار هذا العدوان اللاانساني».

وأول خطوة في سبيل استعادة هذا الحق، هي اكتساب القدرة على التعامل مع الرموز التي تتشكل منها «الأسماء». وقد بسطت لك قبلاً، كيف أن اول ما فعله الـ«ابوروجنيز» سكان أستراليا الأولين، منذ اكثر من خمسين الف عام، أنهم «سموا الأسماء». ثم جاء الاوروبيون، ومحوا تلك الاسماء القديمة وفرضوا بدلا عنها أسماء جديدة، وحالوا بين الـ«ابوروجنيز» وبين أن يستعيدوا في ذاكرتهم، الأسماء التي ضاعت منهم. وبهذا المعنى يمكن القول أيضا، ان كل ما يشكو منه العرب اليوم، من تشويه لتصوراتهم عن أنفسهم، وازدراء بحضارتهم، وتزييف لمساهماتهم الانسانية في الماضي والحاضر، انما يدخل في باب الحرمان من الحق المشروع لكل الناس في المساهمة في «صناعة الأسماء».

وعندي أيضا، أنه ليس محض صدفة، أن العرب في جاهليتهم، كانوا يحتقرون القراءة والكتابة ويعدونها ضربا من السحر والكهانة. وقد تواترت أمثلة كثيرة على ذلك، منها ما روي عن الشاعر النجدي النابغة، ذي الرمة، أنه كان يملي قصيدة على كاتب يكتبها له. ووجد أن الكاتب قد اخطأ في كلمة، فقال له: «اكتبها هكذا». فقال الكاتب متعجباً «أو تكتب؟»، فقال ذو الرمة «نعم. ولكن اكتم عني».

هكذا كانوا يرون الجهل حسنة، ويرون العلم مسبة، فلا غرو أنهم عبدوا أصناماً لا تنفعهم ولا تضرهم.

الى أن بعث الله سبحانه وتعالى اليهم، رسولاً منهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

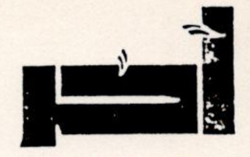
وتقول «ولكنه هو نفسه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب».

بلى، ولكنك تعلم، أنه صلى الله عليه وسلم، كان له شأن أخر. كان قلبه العظيم مفتوحا على أسرار الكون، يتلقاها من لدن حكيم عليم. كان فوق الكلمات والحروف، لأنه مفتاح خزائن الأسرار، ومنبع تجليات الانوار. ومع ذلك فقد كان يحض المسلمين على تعلم القراءة والكتابة، وكان يعتق الأسرى لقاء تعليم عدد من المسلمين. وقد كانت تلك أول حملة لمكافحة الأمية في جزيرة العرب، بل وفي العالم ■

● كان ذو الرمة، واسمه غيلان، شاعراً اسلامياً. الأ أن بعض عادات الجاهلية، ظلت في الاسلام، حتى انقرضت

(للحديث بقية)

نحو افق بعيد





بقلم الطيب صالح

تكثر الامية في بعض اقطار الوطن العربي، اما لعدم اكتراث الدولة، واما لعدم توفر الامكانات، واما للسببين معاً. ولكن في المملكة العربية السعودية، تجد الدولة ملتزمة التزاما كاملاً بمكافحة الامية ومحاولة القضاء عليها، وقد عملت كل ما يتوقع منها عمله، فاصدرت التشريعات، وانشات الاجهزة، ووضعت الخطط، ووفرت المال اللازم. ومع ذلك فان احصائيات منظمة اليونسكو تشير الى ان معدلات الامية في المملكة مرتفعة بحيث يصبح من غير المحتمل ان يقضى على الامية قضاء تاماً بنهاية هذا القرن. اللهم الا اذا بذلت جهود اعظم من الجهود التي تبذل الان - رغم عظمها - والا اذا اقحمت اسلحة اضافية في المعركة، مثل وسائل الاتصال الجماهيري وخاصة التلفزيون.

يذكر الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، في دراسته الحسنة عن مكافحة الامية في المملكة، سببين اساسيين اعاقا الجهد السعودي، اولهما هو:

«تأثير المناخ الاقتصادي المزدهر بالمملكة كعامل سلبي في جهود محو الامية، اذ انه يقلل من اهمية الحوافز المادية المقررة، كما يقلل في نظر الاميين، من اهمية التعليم كضرورة لتحقيق الرخاء الاقتصادي لعدم احساسهم بالحاجة اليه ولانصرافهم الى اغتنام الاثراء المتاح بوفرة ويسر».

حقاً، هذا عائق اساسي لان من اهم الحوافز التي تدفع الامي الى التعلم، الرغبة في تحسين حالته المعيشية. واذا كانت حالته حسنة بطبيعة الحال، فما الذي يجعله يغامر بالدخول في عالم جديد عليه كل الجدة، يتطلب منه بذل الجهد، واعمال الفكر، خاصة اذا كان قد تقدمت به السن، واستقرت حياته على وتيرة معينة؟

ويمضي الدكتور الحميدي في سبر هذه العلة فيقول:

«ولا نستغرب هذه النتيجة في مجتمع كان وما يزال يطمح لتحقيق برامج طموحة، اتاحت فرصاً للعمل امام جميع ابنائه، بما فيهم الاميين، دون ان تضع قيوداً او شروطا تمنع الاميين من الحصول السهل على العمل، بل والعمل المجزي مادياً، الامر الذي جعل من العمل المجزي دافعا لهم للعزوف عن الالتحاق بمدارس محو الامية».

هذا قول فيه نظر، وينطوي على تطرف الى النقيض ربما دفعت اليه حسن النية. اما ان الامية داء يجب القضاء عليه فذلك حق. واما ان الامي مصاب يعزل كما يعزل الجمل الاجرب ويحرم حق العمل، فذلك مذهب بعيد لم يذهب اليه احد. واذا كان صاحب العمل لا يانف من تشغيل الامي رغم اميته، فلماذا تتدخل الدولة لتحول دون ذلك، مع العلم بان حق العمل حق اساسي اقرته وثيقة حقوق الانسان في المجتمع الدولي؟ لا. افضل من ذلك ما هو متبع الان ومعمول به في المملكة العربية السعودية وفي دول عربية اخرى. ذلك ان يكافأ الامي على محو اميته، فتحسن وظيفته ويرفع راتبه.

ثم يضيف الدكتور الحميدي سبباً آخر لا يقل اهمية عن السبب الاول فيقول:

«ان المكانة الاجتماعية للتعلم، وان كانت قد بدات تحتل موقعها الطبيعي في تيار التطور الحضاري المتوثب الذي يسود المملكة، الا انها لا تزال الاضعف تأثيراً في نظر العامة والاميين خاصة، بالقياس الى نظرتهم الاخرى كالانتماء القبلي...».

نعم، هذا عائق كبير، يحول دون ازالة الامية في كثير من البلاد العربية، ذلك لان العنجهية القبلية العربية، وهي خصلة قل نظيرها في العالم، تعطي الفرد، خاصة اذا كان ينتمي الى قبيلة يظن انها ذات محتد وشرف، احساساً بالتميز لا يجد انه يحتاج معه الى اي شرف آخر. وعندنا في السودان، يرى «الجعليون» انهم اشرف القبائل، وقد يكون «الجعلي» امياً يخدم عند وزير من قبيلة ادنى في موازين الشرف القبلي في نظر «الجعليين»، فيختال عليه تيهاً وفخراً. وهذا جرير يفخر على الفرزدق في بيته الشهير:

مضرٌ ابي وابو الملوك فهل لكم
يا خزر تغلب من أبٍ كأبينا

كان جرير غفر الله له، ابن راعي غنم، وكان ابو الفرزدق رئيسا يشار اليه بالبنان، ومع ذلك انظر اي جراة وعنجهية!

ثمة عائق آخر يشير اليه الدكتور الحميدي عرضاً فيقول:

«اما ما يتبقى من الاميين، وخاصة من «النساء»، وسكان الهجر والبدو الرحل، فهؤلاء تجد الدولة مشقة كبيرة في جذبهم الى برامج محو الامية».

قضية الامية بين النساء في العالم العربي قضية كبيرة، واحصائيات منظمة اليونسكو تؤكد ان نسبة الامية بين النساء في العالم العربي، اعلى منها بين الرجال. والمملكة العربية السعودية من الدول العربية التي ترتفع فيها نسبة الامية بين النساء بشكل ملفت للنظر، رغم الجهود التي تبذل لمحاربتها.

سوف نواصل الحديث في ذلك ان شاء الله. انما هي جميعا عوامل متشابكة تؤدي في نهاية الامر الى ما اتفق على تسميته بـ «التخلف». والتخلف يساعد على استمرارها وفتكها بجسم المجتمع. انها قيد متين ذو حلقات مترابطة، ولا بد من كسر القيد بوسيلة او باخرى، كي يستطيع المجتمع ان يسارع الخطى وينتج ويبدع، وقد يحلق في آفاق لا تخطر على البال. واذا كانت توجد وسيلة واحدة انجح من غيرها، فتلكم التعليم ■

(للحديث بقية)





بقلم الطيب صالح

ترتفع نسبة الامية بين البدو وبين النساء، كما تقول الاحصائيات، والمشكلة ذات طابع خاص بين البدو، فالبداوة كما نعلم نهج حياة، ولها اصول قديمة، بعضها يعوق جهود محو الامية مثل القيم القبلية التي اشار اليها الدكتور الحميدي في دراسته. وبعض الناس يتحمس لحالة البداوة الى حد المناداة بالمحافظة عليها، اذ ان فيها، على علاتها فضائل كثيرة.

لا ينكر ان ثمة سحرا خاصا في هؤلاء القوم، الذين ظلوا مرتبطين بتلك الفيافي الواسعة، وتلك الافاق الممتدة كانهم بقية من عهد غابر، وهو سحر جذب اليه رجالاً ونساء من وراء البحر، امثال «داوتي» صاحب «ارابيا دسيرتا» و«ثسجر» الذي طاف بالربع الخالي، و«ليدي هستر ستانهوب» التي فضلت البادية على حياتها المرفهة في لندن. ويا ليت، تقول يا ليت، لو توقف الفلك عن الدوران، لو بقيت الاشياء على حالها كما كانت على عهد ذي الرمة واضرابه، لكنها سنة الحياة، وهي خيارات صعبة، ولا بد من ضياع شيء مقابل شيء.

ومهما يكن، فان من اكبر الجهود التي تبذل لمحو الامية بين البدو، تقوم بها هذه المؤسسة الفريدة الحرس الوطني السعودي. وبما ان معظم ضباط وجنود الحرس الوطني من اصول بدوية، فقد اكتسبت هذه المؤسسة بطبيعة ظروفها، مسؤوليات تربوية وثقافية واجتماعية بالاضافة الى وظيفتها العسكرية.

وهكذا، فالى جانب المعاهد العسكرية، انشا الحرس الوطني مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومدارس لتعليم المهارات مثل اعمال الصيانة وسواقة السيارات وغيرها. كذلك توجد مدارس عادية في المستوى الابتدائي والثانوي بعضها نهاري وبعضها مسائي. بالاضافة الى ذلك توجد مدارس خاصة بمحو الامية، تستوعب الاميين اول ما يدخلون الحرس الوطني وتعلمهم القراءة والكتابة ثم يواصلون دراستهم في اقسام المتابعة حيث ينالون الشهادة الابتدائية للكبار. بعد ذلك يجد الجندي الطريق مفتوحاً امامه، يكاد لا يعوقه عائق عن الوصول الى اقصى ما تسمح به قدراته.

يتم هذا النشاط بالتعاون الوثيق مع وزارة المعارف. وهو نشاط واسع، فعلى سبيل المثال بلغ عدد فصول محو الامية في عام ١٤٠٢ - ١٤٠٣ هـ ١٦٧ فصلاً ضمت اكثر من اربعة الاف دارس. وليس نادرا ان يقابل الانسان ضباطا كانوا اميين حين التحقوا بالحرس الوطني، ثم درجوا في مدارج التعليم انطلاقا من فصول محو الامية الى ان ارسلوا في بعثات تدريبية خارج المملكة، وقد تجدهم يتحدثون الانجليزية والفرنسية.

يصاحب هذا بطبيعة الحال، تحول في اسلوب العيش بالنسبة لهؤلاء الشباب. بعد البادية والخيام والابل، يجدون انفسهم وذويهم يعيشون في مجمعات سكنية تتوفر فيها كل اسباب الحياة الحديثة. ولا بد انه تحول لا يخلو من بعض المعاناة، ولكن يخفف من اي الم قد يحسونه من هذه النقلة الكبيرة في اسلوب العيش، انهم يظلون على صلة بجذورهم في البادية، يتنقلون بينها وبين نمط حياتهم الجديدة. وذلك، على اي حال ثمن لا بد للمجتمع ان يدفعه لقاء «التقدم». والمجتمع المحظوظ هو الذي تكون ارباحه اكثر من خسائره في غمار هذه التحولات.

وليس احد اكثر ادراكا لكل هذا، من الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، نائب مساعد رئيس الحرس الوطني، الذي يهتم بهذه الامور بحكم طبيعة عمله. لا غرو، فهو من بادية نجد، وقد جرب هذه التحولات بنفسه، وذاق حلوها ومرها. والذي يقرأ كتبه المليئة بالشاعرية والحكمة، ويتابع حرقته وهو يقف كالشعراء الاولين على الاطلال بين اليمامة والدهناء، يحس مدى عناء الانسان الذي يفقد عالماً اليفا، على علاته، ويكسب عالما اكثر رفاهة ولكنه اقل الفة. ومن هذا، يدرك المرء بوضوح عمق التجربة الانسانية التي خاضتها المملكة في تاريخها الحديث.

اما فيما يتعلق بمكافحة الامية بين النساء، فان احدى العقبات الكبيرة هي انعدام الحافز القوي للتعلم. ففي حالة الرجال، يوجد حافز واضح، وهو تحسين الوضع الوظيفي، وزيادة الراتب، وتحسين الوضع الاجتماعي عموما. اما النساء الاميات فليس لديهن حافز كهذا. هذا بالاضافة الى ان المراة تجد صعوبة اكثر من الرجل في الخروج من بيتها والذهاب الى فصول محو الامية، رغم ان المسؤولين يحاولون تذليل هذه الصعاب، بتوفير وسائل النقل، وجعل دروس محو الامية للنساء تنتهي قبل مغيب الشمس ■

(الحديث بقية)



بقلم الطيب صالح

بدأ المجتمع الدولي يرى بوضوح أكثر ان التعليم هو أحد المنطلقات الرئيسية، أو هو المنطلق الرئيسي لصياغة المستقبل، وبناء عالم منتج مستقر يتيح لقطانه الفرص لتحقيق ذواتهم الى اقصى ما تسمح به مواهبهم. كذلك أدرك ان عليه ان يكسر أغلال الامية التي تثقله، كي يواجه القرن الحادي والعشرين بحرية وثقة. وهكذا وحدت أربع منظمات دولية جهودها، فعقدت مؤتمرا في تايلاند في شهر مارس الماضي تحت شعار «التربية للجميع». هذه المنظمات هي اليونسكو واليونسيف وبرنامج الامم المتحدة للتنمية والبنك الدولي. وتقول الوثيقة المشتركة التي قدمتها هذه المنظمات للمؤتمر:

«تحديد أولويات الانفاق العام ضروري، اذ يواجه كل بلد في المدى القصير درجة من طلب فرص التعلم أكبر مما يمكن توفيره. وعلى هذه الاولويات ان تشجع البرامج التي تصل بعض الفئات الخاصة، مثل تلك التي تمثل نقصا في تكافؤ الفرص، دون عزل متعمد لاي مشترك محتمل. وتنوه الاعتبارات المعنية بالمساواة والفعالية، ان الافضلية الاولى في الموارد العامة، يجب ان تكون للتربية الابتدائية. ولكن يجب ان توضع الاولويات داخل مفهوم شامل طويل المدى، ينفذ على مراحل حتى يحصل الجميع على فرصة الاستفادة من التربية الاساسية، وذلك من أجل المساواة ولتأمين حاجات التعلم الاساسية للجميع».

هذا يعني ان على كل جيل ان يبذل قصارى جهده لحل المشاكل في وقتها، والا يترك حلها للاجيال القادمة، حتى لا تتراكم المشاكل الى درجة يستعصي على الحل كلية. في الوطن العربي اليوم اكثر من مائة مليون أمي. هذا يعني ان الاجيال الماضية قد قصرت بشكل ما. صحيح أنه توجد بعض المبررات لهذا التقصير، ولكن واقع الامر هو ان ها هنا دينا ثقيلا القي على كاهل الجيل الحاضر. على هذا الجيل ان يطرح عن كاهله هذا العبء، بالاضافة الى الوفاء بمسؤولياته التي تفرضها الحياة الحاضرة.

وتمضي الوثيقة فتقول:

«ان الوضع الراهن للتربية الاساسية غير كاف لتأمين حاجات التعلم الاساسية لجميع الاطفال واليافعين والراشدين. واذا استمرت الاتجاهات الحالية والطرق التقليدية المستعملة في التربية والتدريب، فمن المؤكد ان وضع التعلم في العالم سيتردى، وسيزيد هذا من حدة المشاكل العالمية عوض ان يساعد على معالجتها...».

«العالم» الذي تتحدث عنه هذه الفقرة هو «العالم الثالث». والوطن العربي عموما ينضوي تحت هذا «العالم». ولعل المرء يعجب، أنه رغم الجهود التي بذلت في مجال التعليم في قرابة نصف القرن الماضي، وبعضها جهود باسلة، فأن معدلات الأمية في الوطن العربي ماتزال أعلى منها في اغلب أقطار العالم الثالث.

ارتفاع نسب الأمية أو انخفاضها، يمكن ان يعتبر «رمزا» لمدى نجاح أي دولة أو اخفاقها في الوفاء بالتزاماتها لشعبها في الحاضر والمستقبل. كل انسان أمي او انسانة أمية، هو بمثابة «نصب تذكاري» متحرك، ذكرى مجسمة عن واجب أهمل انجازه ودين أغفل سداده. واذا تراكمت هذه الديون على أمة، يصبح وضعها عسيرا ان لم يكن مستحيلا.

وقد أجمعت الدراسات عن الامية في العالم العربي، على ان الامية اكثر ما تكون بين النساء خاصة اذا كن من البادية او الريف. وهي كذلك في البلاد العربية قاطبة، دون استثناء، بدرجات متفاوتة. واحيانا تفعل الدولة كل ما يجب عليها فعله، فتفتح المدارس، وتعد الفصول، وتهيىء المدرسين، ومع ذلك لا يقبل النساء على التعلم. توجد أسباب كثيرة، منها المفاهيم الخاطئة والنظرة البيئية المعوجة. وقد سرني انني وجدت في سوريا مثلا، ان المراكز التي يشرف عليها الاتحاد النسائي، تنظم ندوات لتوعية الرجال ايضا، ففي أحيان كثيرة يكون الرجل هو العائق للمرأة من التعلم، فيمنع زوجته او ابنته من الالتحاق بفصول محو الامية.

لقد وجدت في رحلاتي في العالم العربي، في المهمة التي كلفتني بها منظمة اليونسكو، ان وسائل الاتصال الجماهيري، وخاصة التلفزيون، تستطيع ان تساهم مساهمة اكبر بكثير مما تفعله الآن، في حل مشكلة الامية. هذه الوسائل بما لها من قدرة على التأثير، تستطيع على الاقل، ان تخلق مناخا عاما، تكون فيه الرغبة في الحصول على المعرفة، أمرا مستحبا ومألوفا. الجهد الذي يبذل الان، هو في أحسن الحالات، جهدا مبعثرا، ينقصه الالتزام الثابت، والادراك العميق لخطورة المشكلة التي يتحتم على العالم العربي ان يحلها.

مشكلة الامية في الوطن العربي مشكلة ليست عادية، وتحتاج الى جهود غير عادية لحلها، او كما تقول الوثيقة الدولية:

«هناك حاجة ملحة لرؤية جديدة في التربية الاساسية تجعلها تركز على التعلم، وتوسع هذه الرؤية مجال التربية الاساسية لتشمل نطاقا واسعا من الفئات والمجموعات ومن طرق تقديم التعلم لها، وتحشد موارد حكومية خاصة واجتماعية اضافية وتنشىء تحالفات جديدة بين المؤسسات والوكالات المختلفة المعنية بالتربية الاساسية، وتقوي مناخ التعلم». ■

(الحديث صلة)

نحو افق بعيد ٩٧



بقلم الطيب صالح

كانت «حلوان» فيما مضى، بلدة قائمة بذاتها، يقصدها الناس من مصر ومن خارج مصر، للاستشفاء في مياهها المعدنية. كذلك اشتهرت بصناعة النسيج. ثم ضاقت مدينة القاهرة بسكانها، فبنى الناس على طول الطريق الممتدة حتى حلوان، فاصبحت كانها جزء من المدينة الكبيرة. لذلك حين تصلها، تكاد لا تميز أنك قد انتقلت من مكان الى مكان، ولكنك حين تدقق النظر، تجد المباني والاسواق والمزارع والبساتين، كانك في حاضرة من حواضر الريف. ذكرتني قليلا بمدينة «ود مدني» السودانية في الجزيرة. لم تبق مزارع ولا بساتين في القاهرة. التهمت مباني الاسمنت والزجاج الخضرة والزرع وخاصة في منطقة الهرم، كما حدث لغوطة الشام الفيحاء.

يقول العلماء ان تلك الارض هي اكثر ارض الله خصوبة، ويا للعجب كيف يردم الناس طمى النيل بالاسمنت، ثم ينفقون المال الطائل لاستصلاح أرض الصحراء. ويا ليته كان بناء يسر العين. هياكل دميمة مكدسة بعضها الى بعض، وبعضها فوق بعض. وقد ظل الاستاذ الجليل الدكتور حسن فتحي يصرخ ولا مجيب، يحاول ان يوقف ذلك الطوفان. رحمه الله. مات وفي قلبه حسرة، فقد رأى مدينة القاهرة الجميلة تكاد تغرق تماما، كما حدث لاغلب المدن العربية.

تركنا الطريق الكبير، ودخلنا معسكرا كشفيا، ثم عرّجنا يسارا في طريق ليست معبدة، حتى وصلنا الى مجموعة من المباني التي بدت لي كانها بنيت على عجل لغرض مؤقت. هذا هو «مركز تعليم الكبار متعدد الاغراض». وسرعان ما تاكد لي صدق احساسي بانه بناء «مؤقت». فقد علمت من المدير، الاستاذ حسن قاسم، ان الارض التي أقيم عليها المركز هي جزء من المعسكر الكشفي الذي «أعارهم» اياها، ويطلب الآن اعادتها. ورغم ذلك فهو مركز فريد من نوعه، افتتحته وزارة التربية عام ١٩٧٨ بمساعدة من منظمة اليونسكو.

وسط هذا التقشف، يمضي السيد حسن قاسم، والسيدة عنايات الفقي المشرفة على التدبير المنزلي في عملهم النبيل، بحماسة وايمان واخلاص يدعو الى الاعجاب. انهما من هذه الفصيلة النادرة، مثل كل الناس الذين يعملون في هذا الميدان. وقد تاكد لدي في تلك الزيارة احساس ظل يخامرني منذ بدات رحلتي. انطلاقا من عمان الى بغداد الى الكويت الى صنعاء. والآن في حلوان. مشكلة الأمية في الوطن العربي مشكلة غير عادية، ولن تحل بالطرق العادية، ولكن بواسطة رجال ونساء منقطعين لخدمة المجتمع ولديهم رغبة جامحة لفعل الخير.

وها هم اولاء، اجدهم ماثلين امامي حيثما حللت. عبد الحسين زويلف في بغداد، وعبد العزيز النجدي في الكويت ومحمد المضواحي في صنعاء وابراهيم الفوزان في الرياض، واخرون سوف اقابلهم في الرباط وفي تونس وفي دمشق وفي حلب، واخرون لم أسعد بمقابلتهم ولكنهم موجودون ولا شك في كل انحاء العالم العربي. جنود مجهولون او كالمجهولين، يضيئون مثل النجوم في ظلمات الليل، يبددون الياس والخذلان، ويوقظون من سباتها، تلك المعاني النبيلة التي تكمن في وجدان هذه الأمة العظيمة. يساهمون بحق في صياغة المستقبل، بلا جلبة ولا ضوضاء، ولا غطرسة ولا كبرياء.

وهنا في حلوان، في هذه الابنية «المؤقتة» في هذه الارض «المعارة»، هذا الرجل الكريم حسن قاسم، وهذه السيدة الوسيمة الصبوحة الوجه عنايات الفقي.

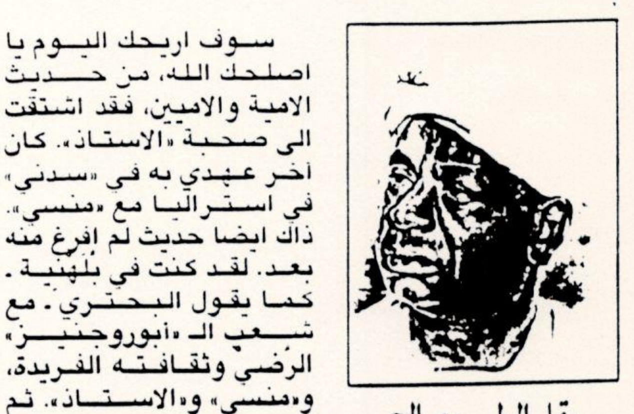
ينظم المركز للدارسين والدارسات فصولا لتعلم القراءة والكتابة، كما يهيىء لهم الفرصة لتعلم حرف مثل النسيج والتدبير المنزلي والتفصيل والخياطة والنجارة والحدادة والسباكة وغيرها. بالاضافة الى ذلك يقوم المركز بدور المرشد والموجه، فيتعرف على الظروف الخاصة للدارسين والدارسات ويسعى جهده لتذليلها، كما يوفر لهم دخلا من تسويق مصنوعاتهم التي تصل احيانا درجة عالية من الجودة.

وجدت بين الدارسات فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر، توفي والدها، وترك لها أخوة وأخوات فاضطرت ان تساعد امها على اعالتهم. ووجدت واحدة صغيرة السن دهشت حين عرفت انها زوجت وطلقت من رجل اساء معاملتها ثم هجرها. ونساء بين العشرين والخمسين، مطلقات او ارامل، يقمن باعالة اطفالهن بلا سند ولا عون. كل هؤلاء فتح لهن هذا المركز الفريد باب الامل وجدد ثقتهن في الناس والحياة. ذلك تراه واضحا في الوجوه التي اخذت الحيوية تدب في قسماتها، والعيون التي بدأت تشع بالذكاء. وهذه السيدة العجيبة، عنايات الفقي، تسبغ عليهن من عطفها، فهي لهن بمثابة الام والاخت والصديقة، تأخذ بايديهن الى ان يكملن تدريبهن، ثم تجد لهن عملا في مصنع او محل تجاري. وأحيانا تستقل الواحدة منهن في عمل حر.

كانت اثنتان من الات النسيج معطلتين. وقالت لي السيدة عنايات الفقي، ان ثمن الواحدة منهما الف دولار، لا اكثر، وانها لا تجد المال لشراء مكنات جديدة.

تامل عشرة الاف دولار يجود بها انسان سباق الى الخير، في هذه الأمة الطويلة العريضة، الغنية الفقيرة، تحدث أثرا كبيرا في هذا المركز. ومائة ألف او مئتا الف دولار لعلها تبني مركزا جديدا «دائما» يستقبل اضعاف العدد الحالي من الدارسين والدارسات. وما مائة الف ومائتا الف واكثر؟ انها محض ارقام ميتة سجينة على الورق، في مصرف ما، في مكان ما. مثل الحروف والكلمات، اذا نفخت فيها الحياة، تحولت الى ابتسامات على الشفاه واضواء في العيون ■

نحو افق بعيد



بقلم الطيب صالح

سوف اريحك اليوم يا اصلحك الله، من حديث الامية والامين، فقد اشتقت الى صحبة «الاستاذ». كان آخر عهدي به في «سدني» في استراليا مع «منسي». ذاك ايضا حديث لم افرغ منه بعد. لقد كنت في بلهنية - كما يقول البحتري - مع شعب الـ «ابوروجنيز» الرضي وثقافته الفريدة، و«منسي» و«الاستاذ». ثم فجاة قلب الزمان ظهر المجن، كما يفعل دائما.

بدا لي انه لا يليق ان تضيع بلاد، وتتهدد بلاد بالضياع، وتغلق حدود وتفتح حدود، وتشرع رماح وتستل سيوف، وتقطع اواصر وارحام، وتخرب بيوت وترمل نساء، وتسير الفتنة شعثاء غبراء في الطرقات. قلت لا يليق ان يحدث كل هذا، وانا سادل مع قبائل الـ «ابوروجنيز» في استراليا.

ولان الأمر كما قال البحتري:

وهل أرتجي ان يطلب الدم واتر
يد الدهر والموتور بالدم واتره؟

فقد اخترت عمداً ان اتحدث عن الامية والامين. قلت لعلني اذكر بني قومنا بالثوابت، فربما يثوبون الى انهم في نهاية الامر امة واحدة، مهما خيل لهم عكس ذلك، وانهم ان تفرقت بهم السبل في القمة، فطريقهم مشترك في القاع.

اجل، اشتقت الى صحبة «الاستاذ» ابتغي عنده العزاء، ان كان ثمة عزاء وفتحت ديوانه بشرح ابي البقاء العكبري كيفما اتفق، فوجدت قصيدته في مدح ابي الفضل بن العميد. وأوقفني تكالب الشراح على بيت من ابيات القصيدة ليس فيه معنى طريف ولا تصوير مدهش، الا انه اثار هؤلاء الشيوخ الاجلاء فكانهم كلاب تتناوش عظما.

اهدى ابن العميد ابا الطيب هدايا كثيرة، بينها سيف محلى بالذهب والفضة، فاطنب المتنبي في وصف السيف بابيات ليس فيها شيء لا يقدر عليه شعراء اقل منه مكانة، منها:

قلدتني يمينه بحسام ... أعقبت منه واحدا اجداده
كلما أستل ضاحكته اياه؟ ... تزعم الشمس انها أراده

قبل الشيوخ الاجلاء عن طيب خاطر، بعضهم شروح بعض، حتى جاءوا الى هذا البيت:

وتقلدت شامة في نداه جلدها منفساته وعتاده.

قال الواحدي، حكى ابو علي بن فورجه عن ابي العلاء المعري قال «يعني ان الغمد بما عليه من الحلي والذهب، انفس من السيف، لانه كان محلى بكثير من الذهب، فجعل الغمد جلدا اذ جعل السيف شامة».

قال ابو علي، والذي عندي انه اراد بجلده ظاهره، الذي عليه الفرند، لان انفس ما في السيف فرنده وبه يستدل عليه في الجودة.

وقال ابو الفتح: يعني انه يلوح فيما اعطاه كما تلوح الشامة في الجلد لحسنه ونفاسته...

ولم يعجب ابا الفضل العروضي هذا الرأي من ابي الفتح فقال «الم يجد المتنبي مما يحسن في الجسد فوق الشامة كالعين الحسناء؟ لكنه اراد ان هذا السيف على حسنه وكثرة قيمته، كالنقطة فيما اعطاه. الا تراه يقول «جلدها منفساته» اي ان قدر هذا السيف، وهو عظيم القيمة، كقدر الشامة في الجلد.

قال الواحدي «وهؤلاء الذين حكينا كلامهم كانوا ائمة عصرهم، ولم يكشفوا معنى هذا البيت ولا بينوه؟ بما يقف المتامل عليه ويقضي بالصواب. ومعنى البيت انه جعل ذلك السيف شامة، والشامة تكون في الجلد. ولما سماه شامة، سمى ما كان معه من الهدايا التي كان السيف في جملتها جلدا... قال، وقول ابن فورجه هوس لا شيء»!!

صدقت يا مولانا، ولكن اليس هذا ما قال به شيخنا ابو الفتح؟

واما ابن القطاع فقد ابحر بعيدا حين قال:

«يريد ان السيف على جلالة قدره، وما عليه من الذهب، كالشامة في جنب ما اخذت منه. وقوله «جلدها» يريد ما عليه من الفرند الذي من اجله يستعد ويغالي في ثمنه....

يا زول! اتق الله.

المعنى، يا جماعة، اقرب منالاً من كل هذه المماحكة، وقد اصابه شيخنا ابو الفتح اول مرة، الا تقع العين اول ما تقع على الشامة في الجلد؟ كذلك هذا السيف، يجذب النظر اليه دون سائر الهدايا رغم نفاستها. لذلك ركز عليه المتنبي وتفنن في وصفه، وجعل الشمس تضاحك بريقه، وانه يقسم الفارس المدجج نصفين، وانه واحد زمانه انجبته أباء صدق من السيوف! ولو شاء المتنبي ان يطنب في وصف بقية الهدايا، لفعل.

ومهما يكن، فهذه القصيدة برمتها قصيدة فاترة، غفل من روح عبقرية المتنبي. لقد تكلفها تكلفا، ربما ليدهش ببلاغتها ومحسناتها ابن العميد، وهو من هو. وقد نظمها وهو ثمة، في هناءة عيش وراحة بال وطيب خاطر. والمتنبي كما نعلم لا يقول الشعر العظيم هكذا. لا بد له من اشياء تحرك سواكن عبقريته. حينئذ يحلق في سموات لا يصلها شاعر غيره.

اللهم الا بيت واحد في هذه القصيدة، يذكرك اذا كنت قد نسيت، بانك في حضرة «الاستاذ». وهو بيت لم يكترث له هؤلاء الشيوخ الاجلاء ومروا عليه مرور الكرام. انه يخرج من جسد القصيدة كما يخرج البازي من العش، ويبسط جناحيه، ويحلق في آفاق بعيدة، ويغدو قصيدة قائمة بذاتها:

ان في الموج للغريق لعذرا ... واضحا ان يفوته تعداده

(للبحث صلة)



بقلم الطيب صالح

دخلتُ مجلسهم، وانا مشغول البال، مشتت الافكار، بي ما بسائر الناس وزيادة، فقد عاودني ايضا ذلك الطيف من وراء أزرعات، فجدد لي حزناً الى احزاني. لكنني ما لبثت ان وجدتني - وانا انظر اليهم يتبارون في مضمار «الاستاذ» - وجدتني اروق بعد كدر، واتهلل بعد ضجر، واتحرك بعد ركود. لله درهم. هل قلتُ انهم مثل كلاب تتناوش عظماً؟ حاشا لله. هؤلاء قناصون لشوارد المعاني، غواصون على اللؤلؤ في الاعماق. جافوا المضاجع، وفارقوا الدنيا بزخرفها، وانقطعوا للعلم. تركوا لنا هذا الارث العظيم من فقه وحديث ولغة وسيَر، ونحن مهما فعلنا، فلا اكثر من طائر يحسو بمنقاره في البحر، او كحصاة تكون في سفح الجبل.

اقول، ما ان ازمع المتنبي مفارقة ابن العميد، حتى تحركت سواكن عبقريته، فهذا شاعرٌ داؤه الرحيل، وشفاؤه في الرحيل. او كما قال:

ذراني والفلاةَ بلا دليلِ ... ووجهي والهجيرَ بلا لثامِ

فانيْ استريح بذي وهذا ... واتعبُ بالاناخة والمقامِ

تاقت نفسه الى ما يكرهه ويهواه، وتحلّل من قيود المكان، وسجن الدعة ورغد العيش، فجاشت قريحته الجبارة، وجاءته ابيات القصيدة تترى كانها تُملى عليه املاء، بلا تكلف ولا تصنع:

فاما تريْني لا اقيمُ ببلدةٍ ... فآفةُ غِمدي في دُلوقي من حدّي

يحلُّ القنا يومَ الطِّعان بعقوتي ... فاحرمه عِرضي واطعمُه جلدي

تُبدّلُ ايامي وعيشي ومنزلي ... نجائبُ لا يفكِّرْنَ في النَّحسِ والسعْدِ

واوجهُ فتيان حياءً تلثموا ... عليهن لا خوفاً من الحرِّ والبردِ

نعم، هذا هو صاحبنا الذي نعرفه من قديم! هذا ابو الطيب المتنبي الذي عهدناه، لا احد قبله، ولا احد بعده، وكانت تلك القصيدة الاولى في مدح ابن العميد، كانت عبثاً يعبث به ريثما يجيئه الشعر الحق في هذه القصيدة الثانية. واين من هذا السيف الذي ياكل جفنه وينذلق من حده، ذاك السيف المرقّة، المحلى بالذهب، الذي جلده «منفساته وعتاده»؟

واعجب لشاعر يصف مقدمه على الممدوح وهو مفارقة، فهو كعهده ابداً، قادمٌ ذاهب، حاضر غائب، مقيم مفارق. وما اروع هذه الابيات التي يصف فيها حال الابل التي حملته الى ابن العميد:

كفانا الربيعُ العيسَ من بركاته ... فجاءته لم تسمعْ حُداءً سوى الرّعْدِ

اذا ما استحينَ الماءَ يعرضُ نفسه ... كرَعْنَ بسبْتٍ في اناءٍ من الوردْ

كأنّا ارادتْ شكرَنا الارضُ عندَه ... فلم يُخلنا جوٌ هبطناه من رفدِ

لنا مذهبُ العُبّاد في ترْكِ غيره ... واتيانه نبغي الرّغائبَ بالزّهدِ

نعم. نعم. نعم.

يقول ابن جنّي العتيد:

«يقول، اذا مرت هذه الابل بالمياه التي غادرتها السيول لكثرتها، صارت كانها تعرض نفسها عليها، وان كان لا عرض ولا استحياء ولكنه ضربه مثلاً، فكانها تشرب مستحْيية من كثرة العرض عليها. وكرعن، شربن، واصله من ادخال الكارع الشارب في الماء ليشرب. وجعل الموضع المضمّن الماء، لكثرة الزهر فيه، كانه اناء من الورد. والسبت مشافرها...».

قال العروضي «ما اصنع برجل ادعى انه قرا على المتنبي ثم يروي هذه الرواية ويفسر هذا التفسير؟ وقد صحت روايتنا عن جماعة منهم محمد بن العباس الخوارزمي، وابو محمد بن القاسم الجرْمي وابو الحسن الرّخجي، وابو بكر الشعراني، وعدّة من الرواة يطول ذكرهم:

اذا ما استجبن الماء يعرض نفسه ... كرعن بشيب في اناء من الورد

اذا ما استجبن بالجيم من الاجابة، والاستجابة اشبه بالعرض واوفق. والمعنى انه (اي الماء) يعرض نفسه وهي تجيب. والكرع بالشيب ان ترشف الابل الماء، وحكاية صوت مشافرها عند شرب الماء، شيب...».

قال الواحدي «قول ابن جني ليس ببعيد عن الصواب، وقد شبّه المشفر بالسبْت، وهو حسن، ومنه قول طرفة:

وخدٌ كقرطاس الشآمي ومشفرٌ ... كسبْت اليماني قدُّه لم يجرّد.»

واقول، غفر الله لي، ان شيخنا العروضي قد اصاب، وشيخينا ابن جني والواحدي ذهبا مذهبا عجيبا، اذ كيف «تستحي» هذه الابل من الماء يعرض نفسه عليها؟ واين موضع «الحياء» في هذه القصيدة المتينة، وقد فسّر ابن جني البيت الذي قبل هذا بان الابل جاءت الممدوح مسرعة لم يلزم لها حادي يحدوها فقد كان الرّعد لها بمثابة الحادي؟ وكيف يستقيم «الحياء» مع كون الابل قد «كرعت» الماء، والكرع شربٌ فيه نهم وعجلة حال الظمان. وعندي ان المتنبي لو اراد هذا المعنى الذي ذهب اليه ابن جني والواحدي على طرافته، لنحا نحواً اخر.

اظنّ البيتَ كما قال العروضي:

اذا ما استجبْن الماءَ يعرض نفسه ... كرعنَ بشيب في اناءٍ من الورد

هكذا تسمع وترى. تسمع اصوات الابل الظمأى تَعبُّ الماء عبّاً «شيب. شيب. شيب»، وترى النبات والزهر من مختلف الالوان حول الماء وعلى وجهه. ولعلك ترى ظلال الابل منعكسة على صفحة الماء. هكذا تصبح الصّورة بديعة لا حدود لجمالها في الخيال، مثل مزهرية صينية نادرة، او كرسم من هذه الرسوم المرهفة التي صنعها الفنانون اليابانيون القدامى على الحرير ■

(للبحث صلة)

نحو أفق بعيد ١٠٠

أكر وفكر



بقلم الطيب صالح

قال ابو البقاء العُكبري رحمه الله، في مقدّمة شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي، انزل الله شآبيب الغيث على مثواه اينما كان: «اما بعد، فاني لما اتقنت الديوان، الذي انتشر ذكره في سائر البلدان، وقرأته قراءة فهم وضبط على الشيخ الامام ابي الحرم مكّي بن ريّان الماكسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وقرأته بالديار المصرية على الشيخ ابي محمد عبد المنعم بن صالح التيمي النحوي، ورأيت الناس قد اكثروا من شرح الديوان واهتموا بمعانيه، فاعربوا فيه بكل فن واغربوا، فمنهم من قصد المعاني دون الغريب، ومنهم من قصد الاعراب باللفظ القريب، ومنهم من اطال فيه وأسهب غاية التسهيب، ومنهم من قصد التعصّب عليه، ونسبه الى غير ما كان قصد اليه. وما فيهم من أتى فيه بشيء شاف، ولا بعوض هو للطالب كاف.

فاستخرت الله تعالى، وجمعته في كتابي هذا من أقاويل شراحه الاعلام، معتمدا على قول أمام القول المقدم فيه، الموضح لمعانيه، المقدم في علم البيان أبي الفتح بن عثمان، وقول امام الادباء، وقدوة الشعراء، احمد بن سليمان، أبي العلاء. وقول الفاضل اللبيب، امام كل أديب، أبي زكريا يحيى بن الخطيب، وقول الامام الراشد ذي الرأي المسدد ابي الحسن علي بن أحمد. وقول جماعة كأبي علي بن فورجة، وأبي الفضل العروضي، وابي بكر الخوارزمي، وابي محمد الحسن ابن وكيع، وابن الأفليلي وجماعه..».

واقول، غفر الله لي، جزاك المولى احسن الجزاء يا ابا البقاء. لقد قمت بعمل نبيل، ونهضت بعبء عظيم ثقيل. ولولاك وامثالك، لتمزقت اللغة اشلاء، وتاهت توهان الناقة الخبطاء. اذاً لبركت باجرانها الغمّة، واكتنف الظلام الامة، ورثّت حبائلها، وعمّ ضلالها، وامعنت فيها عوامل الخراب والتمزيق، فوق ما هي عليه. لو حدث ذلك، لكنا جميعا نتحدث اليوم لغة كلغة شركات الطيران العربية، ينصبون الفاعل، ويرفعون المفعول، ويجمعون المثنى، ويثنون المفرد، يذكرون المؤنث ويخنثون المذكر. يُعربون ما لا يُعرب ويضربون ما لا يُضرب. يفعلون باللغة العربية الشريفة فعل البذاءة، حسب تعبير اخواننا في تونس. وهؤلاء الاعاجم من انجليس وفرنسيس، وألمان وتليان، في مطراتهم وطائراتهم، لغتهم فصيحة واصواتهم صريحه. وهلمّ جرا. لا عجب ان الامر برمته كما نشاهد ونرى، فركاكة اللغة دليل اكيد على سماجة الفكر، وقصور الهمّة ودناءة المطلب. لا عجب أيضاً ان القوم يصطخبون في غير مصطخب، ويحتربون في غير محترب.

ونحن في هذا الزمان الاعوج كما قال الشاعر الشُكْري، على كثرة ما عندنا من دكتوراهات وجامعات، اكثر علينا من الهموم على القلوب، والفلس على الجيوب، والهزائم في الحروب، والخطل في المطلوب، لا نرى شيئا يسر الصديق ويغيظ العدو، اللهم الا أضواء تلمع هنا وهناك بين الفينة والفينة. ولو جاءهم ابو البقاء ببحره الزاخر وعلمه النادر، لما رضوا ان يجعلوه محاضرا في جامعة من جامعاتهم، ناهيك باستاذ. يقولون له «ولكن اين شهادة الدكتوراه يا أبا البقاء؟».

وهم، من اين يجيئون بشهادات الدكطوراه في اللغة العربية وعلومها وفنونها؟ من لندن ومضريض، وباريص ولوص أنجليص، من أدنبرغ وهايدلبرغ وبطرسبرغ وماشئت من اباطيل.

هذا، ونسخة ديوان ابي الطيب التي بين يديّ الآن، طبعها مصطفى البابي الحلبي بمصر المعمورة عام ١٩٣٦ ميلادية، وقد ضبطها وصححها ووضع فهارسها الاساتذة الاجلاء مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. اجزل الله عطاءهم واحسن ثوابهم. ولم تعد طباعتها بعد ذلك حسب علمي، لا ادري لماذا. وهي طبعة نادرة أعانني في الحصول عليها اخي حازم هاشم الصحفي الأديب، بثمن ليس زهيداً، ولكنه لا شيء بالقياس الى ما في جوفها من كنوز لا تقدّر بثمن. وحازم هذا اخو صدق، محب للغة العرب، يتحدث بها في حياته اليومية مؤثرا اياها على اللغة الدارجة، وهو عليم بشعاب القاهرة المحروسة، يعرف اسواقها وكتبخاناتها، يخرج لك الكحل من العين والابرة من كوم التبن. انه واحد من عصبة كريمة نادمتهم كما نادم حسان بن ثابت اصحابه بجلّق في الزمان الأول، يحلّون في عيني مدينة القاهرة وحيدة الدهر، فوق ما هي عليه من حلاوة. يجمعني وأياهم صفاء المودة وحب لغة العرب، وتنسم روائح النبل والشرف في القول والعمل، في اي تلاع حلا، وفي اي واد نزلا. نتصيد المعيات المعاني ونقتفي اثار البهاليل من القدماء والمعاصرين. نفرح لأفراح هذه الامة الشماء والرعناء، ونأسى لمآسيها. نقول، بخ بخ. وواحسرتاه وواحرباه!

(للبحث صلة)



بقلم الطيب صالح

يُطربني الاديب العبقري يتحزب للاديب العبقري، وعلى هذا البعد في الزمان، ما اجمل ما يبدو لنا تحزب أبي العلاء المعري لأبي الطيب المتنبي، وما أسخف ما تبدو لنا غيرة الشريف الرضي.

ذهب أبو العلاء رحمه الله مذهباً بعيداً في تحزبه، واسمى شرحه لديوان أبي الطيب «معجز احمد». قيل لنا ان الهيئة المصرية العامة للكتاب قد اعادت طبعه، فاخذنا نبحث عنه، واكثرنا همة في البحث، صديقنا حازم هاشم. ولا فائدة، فقد كان البرق خلّباً، أولئك اخوان صدق كما قلت، يجملون في عينيّ مدينة القاهرة الجميلة. منهم أبو سميح، رجاء النقاش، الناقد الصادق والصحفي السابق. ومنهم ابو اشرف، محمود سالم، اخو الاريحيات وحاوي علوم الموسوعات. ومنهم أبو عائشة، عبد المنعم سليم، الذي خدم اللغة العربية بتراجمه من اللغات الاجنبية، ومنهم أبو أحمد، صلاح أحمد محمد صالح، السفير اللبيب والاديب، رفيق صبوات الشباب في لندن ذات الثلج والضباب. وأحيانا يصادفنا من محبيه في سويسرا، عبد الرحيم الرفاعي، صديق السراء والضراء. وجماعة اخرون، وكلهم محب للأدب، عاشق للغة العرب، يصدق فيهم قول الحسن بن هانيء:

وخدين لذات مُعلل صاحب
تقتات منه فكاهةً ومزاحا

رحم الله أبا العلاء. لقد وقفتُ على قبره بمعرّة النعمان منذ نحو شهر، في طريقي الى حلب الشهباء مدينة المتنبي، تذكرت قول أبي الطيب في رثاء محمد بن اسحق التنوخي:

ما كنتُ أحسب قبل دفنك في الثرى
أن الكواكب في التراب تغور

وأي كوكب غار في ذلك الثرى. كانه عنى ابا العلاء الذي كان ايضا من تنوخ، وتلك من عجائب الصدف، ان يرثي السابق من لا يزال في طيات الغيب. حين سمع ابو العلاء قول المتنبي:

أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

قال «ما أظن الاّ انه تمناني بقوله هذا».

لكن الشريف الرضي رحمه الله، على فضله وسُمُوّ عقله، سمع وكانه لم يسمع، وفهم وكانه لم يفهم.

كان الاثر جميلا، بقدر ما تكون الآثار جميلة، حوله زرع وازهار في باحة مبلطة بالرخام المنقوش. كان الضريح مسجدا فيما علمت، ثم جعلوه ملتقى للشباب ومكتبة. ما لأبي العلاء والشباب؟ واي عزاء له في ذلك؟ لقد فرّ من الناس وأخلد الى داره وأفكاره، يهجو الحياة، ويغازل الموت:

فلمّا مضى العمرُ الاّ الأقلْ
وقاربت الروحُ ترك الجسد

لو عاش ابو العلاء اليوم، لاعجبه حاكم المعرّة الحالي. رجل حسن الخلق عالي الهمة، عميق الثقافة، محب للادب والادباء والعلم والعلماء، مسرور بانه يصرّف شؤون ذلك الاقليم العريق، وفي عهدته رفات ذلك الانسان الجليل. سالته ان كانوا قد اختاروه عن قصد لذلك المنصب فابتسم ولم يقل شيئا.

وقد طمانني انهم سوف يحولون ضريح أبي العلاء الى مزار لعارفي فضله، يضم مكتبة تحوي اثار الشاعر وكل ما كتب عنه.

على بعد بضع كيلومترات من المعرّة، وجدنا مثوى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز. كانت تلك صدفة اخرى، فقد كنت اظن عمر بن عبد العزيز يرقد في دمشق.

ما الذي اتى به الى دير سمعان؟ في رواية انه كان عائدا من غزوة في بلاد الروم، فعرج على صديقه القس في دير سمعان، وكانت بينه وبين القسيس مودة، فمات ثمة مقتولا بالسم على الارجح. وفي رواية انه مل العيش بدمشق، فجاء واقام في هذه الناحية الى ان مات. ثم جاء ابو العلاء، كانما عن قصد، فاقام بجواره وفي كنفه.

عند قدميه ترقد زوجته الوفيّة، التي عانت معه شظف العيش، بعد نعمة ولين، ابنة الخليفة واخت الخلفاء، فاطمة ابنة عبد الملك بن مروان. لقد اوصت ان تدفن معه عند قدميه، فكان لها ما ارادت. ولا أدري أي الامرين أدعى للاستعبار والأسى، مرقد ذلك الانسان العظيم في ذلك المكان النائي، ام مرأى زوجته الصالحة وهي تتشبث به في مماته كما تشبثت به في حياته، لقد خيّرها حين وليَ الخلافة، وخلع عنه حياة الترف، بين حياة الزهد والتقشف او الفراق، فاختارت العيش معه.

كانوا يرممون الاثر ويعيدون بناءه حين زرناه أواخر المساء. ووراء كل هذا الجهد، وزيرة الثقافة الفاضلة الدكتورة نجاح العطار، التي تعمل هي ووزارتها بهمّة وعزم في ترميم مثاوي الخالدين، وصيانة اثار الماضين.

ويا للعجب! على قبر عمر بن عبد العزيز ابيات للشريف الرضي في رثائه. هاشمي فاطمي يرثي عبشمياً أموياً من ال مروان. ما اجمل ذلك.

هو ابو الحسن محمد بن ابي احمد الحسين الطاهر الملقب بذي المناقب.

يرتقي بنسبه الى موسى الكاظم، فالى الحسين بن علي، ولهذا لقب بالشريف الرضي الموسوي. ويقول عنه الثعالبي:

«يُعدّ اليوم ابدع اهل الزمان، وانجب سادة العراق، يتحلى مع محتده الشريف، ومفخره المنيف، بادب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، وهو اشعر الطالبيين من بقي منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المفلقين...».

هو كذلك. والأبيات التي خاطب بها الخليفة العباسي المقتدر بالله، ما تزال أصداؤها تتردد عبر العصور، دليلاً على الشموخ وعزة النفس:

مهلاً أمير المؤمنين فأننا
في دوحة العلياء، لا نتفرّق
ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ
أبداً كلانا في المعالي مُعْرق
إلاّ الخلافة ميّزتك فأنني
انا عاطل منها وانتَ مطوّق

ما اشبه هذه الكبرياء بكبرياء المتنبي!

نعم، ولكن لا بد لكل عظيم من كبو وكبوة الشريف الرضي التي تكاد لا تغتفر، هي انه لم يعترف بعبقرية بكر الزمان وفلتة الدهور، احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفي، وقيل احمد بن الحسين أبن مُرّة بن عبد الجبار الجُعفي، وقيل احمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجُعفي، الملقب بأبي الطيب المتنبي، من العلويين الاشراف كما زعم أستاذنا محمود محمد شاكر واخرون، وذلك عندنا هو الارجح ■

(للبحث صلة)

نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

خرجنا من معرّة النعمان ليلاً قاصدين حلب الشهباء مدينة المتنبي. رأيت سهل حلب الواسع في طريق العـودة، اذ فارقنا حلب اول الصباح. والمعرة منها على بعد اقل من ساعتين، في طريق رحبة معبّدة.

كان سيف الدولة ما يزال بحلب في لألائه وكبريائه. وكان ابا العلاء حمّلني اليه رسالة تقول:

عوى في ظلام الليل عـــاف لعلّه
يجـــاب وأني والديار عوافي
صوافن خــــيل عند باب ممّلك
جـــمن ومـــا ايامـــه بصوافي

كان ابو العلاء احسن حظا اذا صح القول، فقد لبث في مكان واحد لا يفارقه، يغازل الموت ويناجي الابد، فمات حتف انفه، على فراشه. ودفن حيث هو، لذلك فنحن نعرف محلّه.

ليس كذلك ابو الطيب، الذي لا يعرف يقينا اين مرقده.

يقول الرواة ان المتنبي سار من واسط قاصدا بغداد في طريقه الى الكوفة في اليوم السابع عشر من رمضان، وكان قد املى عليا ابن حمزة البصري - كما روى البصري - أخر قصيدتين من شعره.

وبلغ جبُل بعد ان سار زهاء سبعة عشر فرسخاً، فنزل عند ابي نصر الجبلي، ثم واصل سيره حتى قارب النعمانية، ثم سار فمر بجرجرايا على بعد اربعة فراسخ من الجنوب الشرقي من دير العاقول، وتقدم حتى قارب الصافية وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخاً، وهنالك اعترضه فاتك بن ابي جهل الاسدي، خال ضبة بن يزيد الذي هجاه المتنبي، وكان فاتك في نحو ثلاثين فارسا مسلحين. وكان يتربص لابي الطيب، لينتقم لابن اخته، وليستولي على ما يحمله من ثروة فقد كان قاطع طريق.

كان مع ابي الطيب ابنه محسّد وغلمانه وكانوا اقل عددا من عددهم. ولكنهم استبسلوا حتى قتلوا جميعا. ويروى ان ابا نصر قال «ولما صح خبر مقتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدراً...».

انني اتخيل انه مات عند طلوع الفجر، فقد لاقى مصرعه من قبل بـ «درب القُلّة».

لقيتُ بدرب القلّة الفجر لقيــة
شفت كبدي والليل فيــه قتيل

كان مقتله على الارجح يوم الاربعاء الثامن والعشرين من رمضان سنة اربع وخمسين وثلاثمائة.

قبل هذا بعامين ارسل الى سيف الدولة من الكوفة قصيدته الفريدة التي يمدحه فيها:

مـــالنا كلنا جــوى يا رســول
انا اهوى وقلبك المتبـــــول

كلما عــاد من بعثت اليـــها
غــار مني وخــان فيــما يقــول

حملتني القصيدة على جناحيها الى المدينة لاتنفس الهواء الذي تنفسه الشاعر العبقري. يا له من لحن فرح حزين يتأرجح بين الوجود والعدم!

انظر الى القصيدة على ضوء ما حدث له بعد عامين من نظمها، الا تجد احساسا قويا بقرب «الفناء» بدنو «الرحيل»؟ وهذان البيتان، الا ترى انهما اعجب بيتي غزل في ديوان الشعر العربي؟

زودينا من حســـن وجـــهك مـــا دام
فحـــسن الوجـــود حـــال تحـــول
وصلينا نصلك في هذه الدنيـــا
فــأن المقـــام فيـــها قليل.

الطريق قصير وطويل. والشمس والجمال والحياة الى زوال. والزمان صحيح وعليل، والنعمة تحيي وتميت. لا يوجد شيء ثابت، كل شيء متأرجح. الجاه والسعادة والحب.

ثم هذا البيت العجيب:

لا اقـــمنا على مكان وان طاب
ولا يمكن المكان الرحـــيل.

قال ابن القطاع «المعنى لا نقيم على مكان وان طاب ولا يمكنه الرحيل معنا، اي لا نقيم البته، لان المكان لا يرحل معنا..».

وقال ابو الفتح «المكان لا يمكنه الرحيل معنا الى سيف الدولة شوقا اليه..».

وقال الواحدي «ويجوز ان يكون على الدعاء كما تقول لا فض الله فاك. يقول لم نقم في الطريق اليه بمكان وان طاب ذلك المكان، ولا يمكن المكان ان يرتحل، اي لو امكنه لارتحل معنا.. كلما طاب لنا مكان كأنه يرحب بنا بطيب المقام به، قلنا لذلك المكان، لا نقيم عندك لان قصدنا حلب وانت المصر».

واقول، عفا الله عني، ان هذا البيت من الابيات التي تقوم وحدها كأنها قصائد كاملة. ماذا اراد بـ «الرحيل»؟ تمعن في البيت الذي تقدم:

من رآها بعـــينها شـــاقه
القطان فيـــها كمـــا تشوق الحمـــول

اليس هؤلاء راحلين كالمقيـــمين؟

وانظر الى قوله:

وصلينا نصلك في هذه الدنيـــا
فـــان المقـــام فيـــها قليل

اليس «الراحل» عكس «المقيم»؟

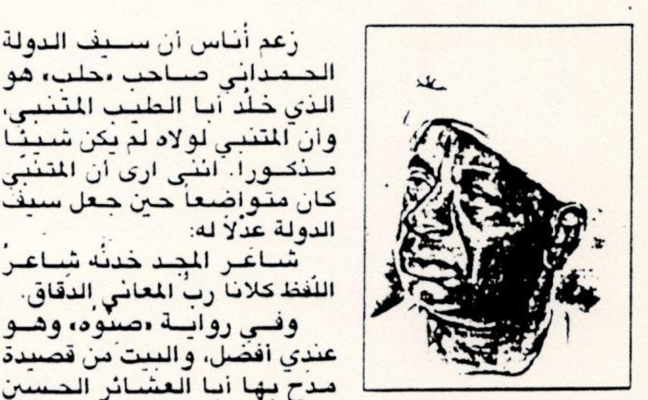
وقد قال الشاعر صراحة:

«وفي الموت من بعـــد الرحـــيل رحـــيل»

انني لا ارى الا ان هذا الشاعر الفذ يستعمل كلمة «الرحيل» بمعنى اوسع مما ذهب اليه هؤلاء العلماء الاجلاء. معنى ميتافيزيقيا اذا شئت. كأنه يقول «ان داء الرحيل لا يمكننا ان نتمتع بالاقامة في المكان وان طاب ذلك المكان» و«الرحيل» في نهاية المطاف هو الموت ■

(للبحث صلة)

نحو أفق بعيد ١٠٣



بقلم الطيب صالح

زعم أناس أن سيف الدولة الحمداني صاحب «حلب» هو الذي خلد أبا الطيب المتنبي، وأن المتنبي لولاه لم يكن شيئا مذكورا. انني ارى أن المتنبي كان متواضعا حين جعل سيف الدولة عدلاً له:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ كلانا رب المعاني الدقاق.

وفي رواية «صنوه» وهو عندي أفضل، والبيت من قصيدة مدح بها أبا العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان، ولكنه كأنما أراد بها سيف الدولة، كما اتضح بعد ذلك.

ماذا بقي اليوم من سيف الدولة؟ وماذا بقي من مدينة حلب على أيام سيف الدولة؟

يقول العالم الجليل الاستاذ محمود محمد شاكر في كتابه الهام «المتنبي» الذي صدر أول مرة عام ١٩٣٦ ولم يصدر بعد أفضل منه في موضوعه:

«... ان أبا الطيب... كان يرمي ببصره الى «الرّجل»، الرجل الذي تجتمع في رجولته صفات الخير كلها، وصفات الكمال بأسرها، كما كان يراها قلبه ويحلم بها فؤاده وأوهامه. و«الرجل» في احلام أبي الطيب هو صورة مثلها له ضميره، من احقاده والامه وثورته....».

«وكذلك لاقى العربي الثائرُ الشاعرُ الفذُّ، العربيُّ الفاتح الغازي المجاهد الفذ، على شوق وحنين، وحن الدم الى الدم، وعلقت النفس بالنفس، وتعانقت القلوب في ساعة من غفلات الدهر، أخرجت كلا الرجلين عن طوره، وكان هذا اللقاء... فاتحة مجد أبي الطيب، وخلود ذكر سيف الدولة».

يا ليت ذلك كان قد حدث حقا. لقاء رجل الفكر مع رجل الفعل، ربّ القلم مع ربّ السيف، مثل لقاء «جوتة» الالماني مع نابليون بونابارت ، حين قال «جوته» قولته الشهيرة Das ist der Mann «ذلك هو الرّجل»، وقال نابليون مثل ذلك عن «جوته».

لم يلبث «جوته» ان خاب ظنه في نابليون، كما خاب ظن بيتهوفن، كما خاب ظن المتنبي وشيكا في سيف الدولة.

هذا، وثمة وجوه شبه عدة بين علاقة المتنبي بسيف الدولة، وعلاقة «جوته» ليس بنابليون ولكن بـ «كارل أوغست» أمير دويلة «وايمار» الالمانية في القرن الثامن عشر. ولعل الامور لو سارت بالمتنبي في حلب كما اشتهى، اذاً لانتهى الى حال قريب من حال «جوته» في «وايمار». ولكن هذه قصة اخرى.

يا لها من مدينة! تقطع اليها سهلاً واسعاً خصيبا، مرورا بمدينة حماه مدينة ياقوت، مرورا بحمص التي يرقد فيها سيف الله خالد بن الوليد، عبر نهر العاصي الذي وصفوا بانه سمّي العاصي لانه عصى قوانين الطبيعة ولم يتجه نحو البحر كبقية الانهار، مرورا بمعرة النعمان، مدينة أبي العلاء.

وكان أول همي ان أرى نهر «قُوَيْق»، الذي يشق مدينة حلب، لأن ابا العلاء ذكره في قصيدته العظيمة التي يصف فيها حنينه الى الشام وهو بالعراق، وهي قصيدة أرى انها لا تقل روعة عن أي شيء قاله المتنبي نفسه. وفيها يلجا الشاعر الى طريقة فنية لم يسبقه اليها شاعر عربي آخر، فيصف في جل القصيدة حنين الابل وهو يقصد نفسه، ولا يذكر حنينه هو صراحة الا في الجزء الاخير من القصيدة:

اذا لاح إيماضٌ سترتُ وجوهها
كأني عمروٌ والمطيُّ سَعالي
وقد همّ بعضو أن يطير مع الصَّبا
الى الشام لولا حَبسُهُ بعِقالِ

ذاك عمرو بن يربوع الذي جاء بالمرأة من أرض السّعلاه فقالت له، اذا شمت البرق فانني ظاعنةٌ الى أهلي، فكان يغطّي وجهها اذا لمع البرق. وللعرب وابلهم علاقة عجيبة بالبرق. هل تذكر قول البحتري؟

ألم ترَ للبرق كيف انبرى؟
وطيف البخيلة كيف احتضر؟

اه! هذي أبل إبي العلاء تقف على ملتقى دجلة والفرات، وتنظر الى ماء عُباب كانه البحر، وترى جنات مخضرّة مدّ البصر، فلا يرضيها ذلك، وتشتاق الى ماء قليل ومرعى جدّب، فتلك حال الفتها على علاتها:

تمنّتْ قُويقاً والصَّراةُ حيالها
تراب لها من أينُقٍ وجمال
وأعجبها خرقُ العضاة أنوفها
بمثل أبار خذذت ونصال
فيا بك، هذا أخضرُ الجال مُعْرِضاً
وأزرقُ فاشربْ وارْعَ ناعم بالِ

هيهات يا عمرك الله، فالابل ادرى بما يصلحها، وكذلك الناس، ورحم الله ابا العلاء. ليس مثله احد في وصف حنين الابل، ولا حتى غيلان. ورحم الله ابا الطيب. انني اسمع صوته يدوي في اقطار هذا المكان:

وما الدهرُ الآ من رُواة قصائدي
اذا قلتُ شعراً اصبح الدهرُ مُنْشدا
فسار به من لا يسير مشمّراً
وغنّى به من لا يُغنّي مغرّدا
أجِزْني اذا أنشدتَ شعراً فانما
بشعري أتاك المادحون مردّدا
ودعْ كلّ صوتٍ غير صوتي فانني
أنا الصائحُ المحكيُّ والآخر الصّدى

رحمك الله يا سيّدي، فانت كما قلت، مُلْقى من أولئك الملوك، يعطونك عرضاً زائلاً وتُعطيهم ما يبقى أبد الدهر.

(للبحث صلة)

نحو أفق بعيد ١٠٤



بقلم الطيب صالح

وجدت ان نهر «قويق»، الذي اشار اليه ابو العلاء في قصيدته، قد انقطع ماؤه ولم يعد يجري، فقد اقاموا عليه سداً في تركيا، ومدينة «حلب»، لم يبق فيها شيء من آثار الحمدانيين، لا قصورهم، ولا نسلهم، ولا أسماؤهم. عفى عليها الزمن وكأنها لم تكن.. وكأن كل «لزوميات» ابي العلاء خرجت من قول المتنبي:

وما الدهر أهلٌ ان تؤمل عنده
حياةٌ وأن يشتاق فيه الى النسل.

ثم قوله:

يدفن بعضنا بعضاً ويمشي
أواخرنا على هام الأوالي

وقد اقتبس ابو العلاء هذا المعنى في قوله:
خفف الوطأ ما أظنُ أديم الارض الا من هذه الاجساد.

بقيت القلعة بعد الحمدانيين، وقد أفنت اقواما قبلهم واقواما بعدهم، ترنو متحدية نحو الشمال والغرب، وتطل على السهل الفسيح ناحية الجنوب. مدينة كاملة في شكل حصن. فيها مسجد ودور واسواق وحمامات، وأبراج تطل على الجهات الاربع. محاطة بخندق يمتلىء بالماء، فاذا هوجمت ترفع عنه الجسور، فيصعب النفاذ اليها. وفي كل خطوة يخطوها الغازي شرك منصوب. قطران يغلي يصب من فتحات اعلى القلعة، وسهام ومنجنيق. اقتحامها يكاد يكون مستحيلا بمقاييس ذلك الزمان. وتعجب كيف ان الفاتحين المسلمين استطاعوا اقتحامها. ولكن أولئك كانوا قوما من طينة اخرى.

ابو سليمان، خالد بن الوليد رضي الله عنه يرقد في حمص. قال للروم حين تحصنوا بقلعة قنسرين «لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم او لأنزلكم الينا». ثم مات على فراشه وليس في جسمه موضع الا وفيه اثر من ضربة سيف او طعنة رمح.

عزله عمر العظيم وهو في اوج انتصاره، لا لأية اسباب شخصية - كما يقال بلغة هذه الايام - ولكنه خشي ان يفتتن به الجند، ولأنه اراد ان يؤكد ان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء، وليس بيد خالد مهما كانت عبقريته العسكرية. ولما عزله ارسل الكتاب مع بلال الحبشي. كان بلال عظيما في الاسلام وعظيما عند عمر، فكتم ابو عبيدة الخبر، حتى انتهت المعركة، معركة اليرموك، وقال انه لم يرد ان يحرم خالدا من فرحة النصر. ولما مات قال عمر «دعوا نساء مخزوم تبكي على خالد».

ولو ان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لم يقتل في عامه ذاك، لاتخذ التاريخ مسارا آخر. ولو ان حفيده عمر بن عبد العزيز، حكم فترة اطول مما حكم. ولكنها حكمة الله الذي بيده الملك. حكم اقل من ثلاث سنوات، وقتله بالسم على الارجح اهله بنو مروان، لانه ضيق عليهم الخناق. ودفن في دير سمعان عند صديقه القس. وقد منع سب آل البيت على المنابر، واستبدله بالآية الكريمة التي ما فتىء الائمة يرددونها في صلاة الجمعة الى يومنا هذا:

«ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون».

وكان كما حدث الامام جعفر الصادق، رضي الله عنه، يرسل المال سرا الى بني هاشم في جفان العسل، حذرا من بني مروان. لا عجب ان الشريف الرضي رحمه الله قد قال في رثائه:

دير سمعان لا أغبك غاد
خير ميت من آل مروان ميتك

انت بالذكر بين عيني وقلبي
ان تدانيت منك او قد نأيتك

وعجيبٌ أنى قليتُ بني مروان طرّا وأنني ما قليتك
قرب العدل منك لما نأى الجور بهم فاجتويتهم واجتبيتك
فلو أني ملكتُ دفعاً لما نابك من طارق الردى لفديتك

ذاك، وقد ثوى ابو العلاء في المعرّة - معرّة النعمان بن بشير الانصاري - غير بعيد من دير سمعان، فثبت في الزمان والمكان. ولكن اين ثوى ذلك الانسان العجيب، الذي كأنه في لا زمان ولا مكان؟

حدث ابو الحسن السوسي قال:

«كنت أتولى الاهواز من قبل المهلبي، وورد علينا المتنبي ونزل عن فرسه ويقوده بيده، وفتح عيابه وصناديقه لبلل مسها في الطريق، وصارت الارض كأنها مطارف منشورة، فحضرته أنا وقلت «قد اقمتُ للشيخ نُزلاً»، فقال المتنبي «ان كان تمّ فاتيه». ثم جاءه فاتك الاسدي يجمع وقال «قدم الشيخ في هذه الديار وشرفها بشعره، والطريق بينه وبين دير قنّه خشن قد احتوشته الصعالكة، وبنو اسد يسيرون في خدمته الى ان يقطع هذه المسافة، ويبر كل واحد منهم بثوب بياض، فقال المتنبي «ما أبقى الله بيدي هذه الادهم وذباب الجراز الذي انا متقلده، فاني لا افكر في مخلوق». فقام فاتك ونفض ثوبه وجمع رتوت الاعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حسوا، سبعين رجلاً، ورصد له. فلما توسط المتنبي الطريق، خرجوا عليه. وحمل فاتك على المتنبي وطعنه في يساره ونكسه عن فرسه. وكان ابنه أفلت، الا أنه رجع يطلب دفاتر ابيه فقنع خلفه الفرس احدهم وحز رأسه، وصبوا امواله يتقاسمونها بطرطورة».

يا لها من نهاية، ان صحت هذه الرواية.

هذا، وقد رثاه صاحبه ابو الفتح عثمان بن جني، الذي كان وفيا له في حياته وفي مماته، بقصيدة جاء فيها:

عمرت خدن المساعي غير مضطهد
كالنصل لم يدنس يوماً ولم يصب

فأذهب عليك سلام المجد ما قلقت
خوص الركائب بالأكوار والشعب.

«المجد»، تلك الكلمة المدمّرة، كلمة كان يحبها المتنبي، لقد اخذوا مطارقه ونفائسه والسيوف المحلاة بالذهب التي أهديت له، وبعثروا اوراقه وتقاسموا امواله، وقتلوا ابنه او ابناءه، وقطعوا دابر نسله. لم يبق منه الا الشعر. ان كان هذا هو «المجد»، الذي كان يطلبه، فانه لعمري قد حاز المجد ■

(للبحث صلة)



بقلم الطيب صالح

ما دُمتَ في «حلب» فعليك بأبي الطيب سوف تجد لشعره مذاقاً خاصا هنا. انها مدينته اكثر من اي مدينة اخرى عاش فيها. هنا قال اروع قصائده وعاش اخصب سنوات عمره ان لم يكن اجملها. كانه ودَّ الاقامة في «حلب» الى آخر ايامه، لولا ذلك الداء القديم الملازمُه، داء الرحيل:

لا اقمْنا على مكانٍ وان طاب
ولا يُمكن المكانَ الرّحيلُ.

كانت اقامته بالفسطاط كمن هو ابداً على وشك الرحيل. اما في الكوفة وبغداد، فقد سبقته اصوات عبقرية اعطت المدينتين سمتهما وطابعهما قبله. ولكنَّ «حلب» هي مدينته، فهو الذي اعطاها صوتها الذي ما يزال يتردد في الاذان. كانت قبله صمّاء بكماء، فانطقها واسمعها. وهي الى الان، لولاه ليست بشيء. وما المدن؟ وما مساعي الناس في نهاية الامر؟ ما ذلك كله لولا الفنْ؟ وقد حق له ان يقول في سيف الدولة:

غضبتُ له لما رأيتُ صفاته
بلا مادح والشعر تهذي طماطمُه

أيْ انّ «صفاته» كانت «خرساء»فانطقها كما يُنطَق المثّال كُتلةَ الحجر الصماء.

مدينة فيها شيء منه. مدينة على مفترق طرق، مليئة بالاحتمالات. احتمالات المغامرة والخطر.. والمجد.. والموت. القلعة التي تحكمها تثبّتُها في الارض، وفي الوقت نفسه كانها توشك ان تحلّق بجناحين. الاسواق القديمة ملأى بالذهب والفضة والتوابل والعطور. والخانات والحمّامات. او كما قال ابو العلاء للأبل:

فأبكَ هذا اخضرُ الجال مُعْرَضاً
وانْزِقْ فاشربْ وارْعَ ناعمَ بالِ

لماذا لم يعمل المتنبى بالنصيحة؟ لا في حلب ولا في الفسطاط ولا عند ابن العميد؟

هذه مدينة «بيْن - بيْن»، كانت من قديم، نصفها الاعلى في حوافر البحر الابيض المتوسط، فنسيا وجنْوا وفلورنسا وابعد، ونصفها الاسفل في سهول الشام ودير الزور وضفاف الفرات. وقد اختار المتنبي «المجد» ففارقها وفي قلبه غصّة:

ولله سيري ما اقل تنيّة
عشيّةَ شرقيَّ الحدالي وغُرّبُ
عشيّةَ احفى الناس بي منْ قلوْته
واهدى الطريقيْن التي اتجنّبُ

وغير بعيد يرقد ابو العلاء المعرّي، خدْن المتنبي ونقيضُه والـْ (anti-thesis) له، يجيء صوته ازاء المتنبي كمن يصب الماء على النار. خُذْ عندك المتنبي، كعهده دائما:

ولا بدّ من يومٍ اغرَّ محجّلٍ
يطول استماعي بعده للنّوادبِ
يهون على مثلي اذا رام حاجةً
وقوعُ العوالي دونها والقواضبِ
كثيرُ حياة المرء مثلُ قليلها
يزولُ وباقي عمرِه مثل ذاهبِ
اليْكَ فانّي لستُ ممن اذا اتقى
عضاض الافاعي نام فوق العقارب

لك اللهُ يا سيدي، فانت ما تزال في أول الطريق. سوف تنتهي حياتك عند دير العاقول. سوف ينهبون اموالك ويبعثرون اوراقك ويقطعون دابر نسلك. لن يبقى منك الا الشعر.

علّلاني الان يا صاحبي بصوت ابي العلاء الرصين الحزين:

(٤)اذا جمحتْ خيلُ الكلامِ فانما
لديكَ يعاني من اعنّتها الضبطُ
ولا اذهلتني عن ودادِك روعةٌ
وكيف وفي امثالها يجبُ الغبْطُ
ولا فتْنةُ طائيّةٌ عامريّةٌ
يُحرّقُ في نيرانها الجعْد والسبْطُ
وقد طرحتْ حول الفرات جرانها(٦)
الى نيل مصر فالوَساعُ بها تقْطو
فوارسُ طعّانون ما زال للقنا
معِ الشيب يوماً في عوارضهم وخْطُ
وكلُّ جواد شفّة الركضِ فيهم
ودّ يتمنّى ان فارسه(٧) سقْطُ

ذاك المتنبي، مشغول بنفسه وطموحاته وثاراته واحقاده. وهذا ابو العلاء، مشغول بتقلبات الايام ومصائر البشر. وقد صدق، فصوته صاف رائق مثل «هديل الحمام» بينما صوت المتنبي في الغالب، كانه غابة من السّباع.

هذا، وقد قال تلك الابيات بالرملة عام ٣٣٦هـ في قصيدة مدح بها ابا القاسم طاهر بن الحسن العلوي. كان في طريقه الى ابي العشائر في انطاكية ومن ثم الى سيف الدولة في حلب.

كل طرق المتنبي كانت تؤدي الى «حلب» المدينة الفاضلة التي صنعها في خياله مثلِ مدينة «سانت اوغسطين» وثمة «الامير» المثَل الذي يحلم كل رجلِ فكر ان يُنيخَ رحاله عنده. ولكن هيهات!■

(للحديث بقية)

---

١) ابك اي تبًا لك والبيت يشير الى العشب الاخضر والماء الوفير
٢) التنية البطء في السير والحدالي وغرب جبلان بالشام.
٣. قلوته - اي هجرته
٤) يقصد انك حصيف تمسك باعنة الكلام فلا يذهب كل مذهب
٥) الجعد والسبط جعد الشعر وسبطه يقصد كافة الناس
٦) جران البعير باطن عنقه، ويقال القى الشيء جرانه اي ثقله.
٧) يقصد ان كل فرس تعب من الركض يتمنى لو ان الفارس الذي فوقه كان قد سقط من بطن امه قبل ان يتم نموه، وذلك هو «السقط».



نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

كانت تلك القصيدة في مدح ابي القاسم طاهر بن الحسين العلوي، قالها بالرملة عام ٣٣٦هـ وهو في طريقه الى ابي العشائر الحمداني في انطاكية، ومطلعها:

اعيدوا صباحي فهو عند الكواعب
وردوا رقادي فهو لحظ الحبائب

وهي قصيدة محشوة بالغيظ والمرارة والكبرياء، وفيها يقول:

الي لعمري قصدُ كلَ عجيبة
كاني عجيبةُ في عيون العجائب

ما كان سيف الدولة ليتخيل اي «بلاء» هو في طريقه اليه، ولا عجب ان العميد طه حسين رحمه الله، ظن ان المتنبي قال القصيدة «بعد» فراقه لسيف الدولة. ولكن كما ذكرنا، هذا شاعر عجيب، ابدا قادمٌ ذاهب، حاضر غائب، مقيم مفارق.

قال العكبري قال الواحدي:

ان الامير ابا محمد بن طغج لم يزل يسال المتنبي ان يخص ابا القاسم طاهراً العلوي بقصيدة من شعره وانه قد اشتهى ذلك، وابو الطيب يقول «ما قصدت الا الامير ولا امدح سواه» فقال ابو محمد «عزمت ان اسالك قصيدة تنظمها في فاجعلها فيه» فاجاب. قال محمد بن القاسم الصوفي «فسرت انا والمطلبي برسالة طاهر الى ابي الطيب، فركب معنا حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من الاشراف، فلما اقبل ابو الطيب نزل طاهر عن سريره والتقاه مسلماً عليه. ثم اخذه بيده فاجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس هو بين يديه وتحدث معه طويلاً. ثم انشده أبو الطيب فخلع عليه خلعاً نفيسة». قال علي بن القاسم الكاتب «كنت حاضرا ذلك المجلس، فما رايت ولا سمعت ان شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير ابي الطيب، فاني رأيت هذا الشريف قد أجلسه في مجلسه وجلس بين يديه فانشده القصيدة».

هذا رجل شريف حقاً عرف قدر الشاعر العبقري وانزله المنزلة التي يستحقها، وجلس منه مجلس التلميذ من «الاستاذ». وما كان ضر المتنبي لو انقطع اليه والى امثاله. لكنه كان يفكر في اشياء ابعد. سوف يقبل منه سيف الدولة ذلك الكبرياء على مضض، فالامير في مذهبه امير، والشاعر شاعر، وسوف يضيق به في نهاية الامر، ولن يغني عن المتنبي قوله:

«وفؤادي من الملوك وان كان لساني يُرى من الشعراء».

لم يكن المتنبي ينشد الشعر الا جالساً.

الدكتور عبد الله الطيب عالم ثبت، ومحبٌ مُدنفٌ بابي الطيب. وقد بلغ من اعجابه به انه قال «زعم ابن الاثير ان في متن شعر ابي الطيب وهنا، وقد كذب ورب الكعبة» يقول في كتابه الجميل «مع ابي الطيب»، ان الجلوس كان للمغنين، وان الوقوف كان للشعراء. ولا احسب انه قصد ان المتنبي وضع نفسه موضع المغنين، فالمغني لم يكن يقعد للغناء في مجلس الامير، بل في مكان خاص يعد له ولجوقته، واحيانا يكون بين المغني وجوقته وبين مجلس الامير ستار يزاح حين يبدأ الغناء والعزف. ثم هذا شاعر لا يجلس حيثما اتفق، بل يجلس بجوار الممدوح وعلى مرتبته.

يقدر الاستاذ محمود محمد شاكر ان هذه القصيدة قيلت عام ٣٣٦هـ «قبل» ان يتصل المتنبي بسيف الدولة. وذلك امر مهم عنده في محاولته اثبات ان المتنبي «شريف علوي». ويزيد:

«لا بد لنا هنا من التنويه الى خطا بليغ وقع فيه احد كبار ادبائنا في كتابه عن المتنبي، اذ زعم ان المتنبي قال هاتين القصيدتين (في ابن طغج والعلوي) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور. والصحيح انهما قيلتا سنة ٣٣٦هـ وهو بالرملة، ومن ثم في تلك السنة رحل الى انطاكية قاصداً ابا العشائر الحمداني الذي وصل اسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧هـ.. هذا على أن اسلوب الرجل في هاتين القصيدتين، ونفسه في الشعر، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة، وذلك بين لمن تدبر ادنى تدبر».

ولعمري ان «نفس» المتنبي في الشعر الذي قاله «قبل» ان يتصل بسيف الدولة و«بعد» ان فارقه، لا ينقسم الى قسمين واضحين، وهذه القصيدة في بعض مراراتها وغلوائها تشبه بعض القصائد التي قالها الشاعر بعد ان ترك سيف الدولة. يوجد شيء «ثابت» في شاعرية المتنبي، سواء كان عند سيف الدولة او عند كافور او عند ابن العميد. سواء كان في الرملة او الفسطاط او هنا في حلب. ذلك «هو نفسه» في لا مكان وليس عند اي احد.

استاذنا العلامة محمود محمد شاكر، اطال الله عمره، يشير الى العميد، الدكتور طه حسين، رحمه الله، وقد كانت بينهما ملاحاة لم تضر الادب، بل افادته. والحق ان العميد، رغم علمه وريادته ونظراته الثاقبة، لم يغن كثير غنى في كتابه «مع المتنبي». ذلك لانه صحب الشاعر على نفور وقلة ود، كما اعترف هو نفسه. فلا عجب انه لم يظفر منه بطائل، فالمتنبي شاعر اما ان تحبه وتتحمس له، واما ان تتركه وشانه. احسن النقد ما يكتب عن محبة لان المحبة تفتح البصيرة وتزيل الحجب التي تقوم بين ما يرمي اليه الشاعر وبين فؤاد المتلقي. هذا صنعه العميد مع ابي العلاء، وعجيب انه احب ابا العلاء ولم يانس لابي الطيب، وقد كان ابو العلاء متيما بابي الطيب

هكذا صنع عبد الله الطيب ومحمود محمد شاكر والشيخ عبد العزيز مع المتنبي. احبوا الشاعر واصغوا اليه بمحبة، فباح لهم ببعض اسراره، وفتح لهم عن بعض مكنونات قلبه. وهو بعد في طريقه الى «حلب» وكان قد فارقها قبل ان يصل اليها ■

(الحديث بقية)



بقلم الطيب صالح

العجبُ لأبي الطيب المتنبي، انه تمنّع وتعــزّز عن مـدح الشـريف العلوي طاهر بن الحسين، ولم يقبل الاّ بعد لأي، ثم لما مدحـه اندلق في مدحـه، وبالغ في اطرائه حتى كاد يخرج عن حدود الادب. وفي القصيدة بيتٌ وصل من المبالغة حداً ازعج حتى ابن جني العتيد، رغم تعصبه الشديد لأبي الطيب، فقال «قد اكثر الناس في هذا البيت، وهو في الجملة شنيعُ الظاهر، فاضربتُ عن ذكره. وقد كان (يقصد المتنبي) يتعسّف في الاحتجاج له والاعتذار بما لست اراه مُقْنعاً..».

ثم يضيف كالمعتذر «ومع هذا فليست الاعتقاداتُ والاراء في الدِّين مما يقْدح في جودة الشعر ورداءته».

والبيت المشار اليه هو:-

وأبــهر آياتِ التِّهــــــــــاميِّ انه

أبوك وأحــــدى مـــــا لكُم من مناقب

وظاهر المعنى انّ أبْهر معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، انه ابو هذا الممدوح، والعياذ بالله.

قال الواحدي «قال ابو الفضل العروضي فيما املاه عليّ: هذا بيت حسنُ المعنى، مستقيم اللفظ حتى لو قلتُ انه أمدح بيت في الشعر لم ابعد عن الصواب، ولا ذنب له اذا جهل الناس غرضه واشتبه عليهم. واما معناه، فان قريشاً اعداء النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: ان محمداً صنبور أبتر لا عقب له (الصنبور المنفرد) فاذا مات استرحنا منه. فانزل الله تعالى «انا اعطيناك الكوثر» اي العدد الكثير، ولستَ بالابتر الذي قالوه.. فقال المتنبي: انتم من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وآية لتصديقه، وتحقيق لقول الله تعالى، وذلك اجدى (بالجيم) ما لكم من مناقب.. واما قوله (التهامي) فان الله انزل في التوراة على موسى: اني باعثٌ نبياً من تهامة من ولد اسماعيل في اخر الزمان. وأمر موسى عليه السلام أمته ان يؤمنوا به اذا بُعث، ودلّ عليه بعلامات أخر. فانكر اليهود نبوته فقال صلى الله عليه وسلم «أنا النبي التهامي الامي الأبطحي» فلا ادري كيف نقموا على المتنبي لفظةً افتخر النبي صلى الله عليه وسلّم بها. ولما رووا «احدي ما لكم» بالحاء، اضطرب عليهم المعنى. واقرانا ابو الحسن الرخجي اولاً والشعراني ثانياً والخوارزمي ثالثا «وأجدى» بالجيم، فاستقام المعنى واللفظ وتشنيع ابي الفتح عليه وغيره باطل».

قال الواحدي «وليس هذا المعنى فاسداً وان رُوي بالحاء، لانه يقول، كونُ النبي التهامي أباً لكم، إحدى مناقبكم، اي لكم مناقب كثيرة، وإحداها انكم تنسبون اليه».

كلّ هذا البلاء الحسن من هؤلاء الشيوخ الاجلاء، لا يغفر للمتنبي في ظني، انه شطح شطحة خرجت به عن مقتضيات الذوق، ان لم نقل الادب. وعنده مثل هذا كثير. وكثير ايضا عنده ان يمدح الكلّ بالانتماء الى الجزْء، كقوله في رثاء جدته:-

ولــو لـم تــكـونــي بـنــت اكْرم والــد

لكان أباك الضــخمَ كـونك لى أمــاً

انها صورة بديعة بحق، قلب فيها الاشياء رأسا على عقب، فجعل الام ابنة الولد، وجعل الولد ابا الام. وذلك كما قال الشاعر الانجليزي «ويردزويرث» بعد المتنبي بقرون «الطفل ابو الرجل».

هكذا المتنبي، اذا مدح لم يلو على شيء، لا يكاد يهمه الى من يتوجه بالمدح. وقد زعم الاستاذ محمود محمد شاكر، وسار كثيرون على دربه، ان المتنبي لم يمدح كافوراً الاخشيدي، وانما اضمر له الهجاء والسخرية فيما يظن انه مدح. وضرب مثلاً على ذلك قول المتنبي لكافور:

تفــضــح الشـــمس كلّمـــا ذرّت

الشــمس بشـمس منيــرة ســودا،

ان في ثوبك الذي المجــد فــيــه

لضــيــاءً يزري بكل ضــيــاء،

ويقـول «تدبّرْ التـهكم العجيب في هذه الابيات وذكر المستحيلات التي لا تقع ولا تكون ولا تُتوهّم، اذ جعله (شمسا منيرة) ولكنها سوداء».

هذا يا عمرك الله، من قبيل الحكم على الامور باثر رجعي، وحسب معايير غير معايير العصر الذي حدثت فيه. كون المتنبي مدح كافوراً لاخشيدي، امر لا مراء فيه. وعلى اي حال، فنحن اليوم بعد كل ما افدناه من علوم الفيزياء، وخصائص اللون، وما فعله الرسامون التعبيريون، اقدر على تخيل الشمس كيف تكون «منيرة سوداء». وقد وضع اهل دولة غانا نجمة سوداء على علمهم الوطني، لانهم رأوها اكثر ضوءا من نجمة بيضاء. ومن اراد ان يعرف اكثر كيف يكون السواد مضيئا، فليقرأ شعر «سيدار سنقور» و«ايمي سيزير».

وهب ان ذلك لم يكن مدحاً، فما قولك في هذه الابيات:

قــواصـــد كـــافـــور توارك غـــيــره

من قـصـد البـحـر استـقلّ السـواقـيا

فـــــاءت بنا انسان عين زمـــــانه

وخلّت بيــاضــاً خلفهـــا ومـــآقــيا

فــتى مــا ســرينا في ظهــور حــدودنا

الى عــصــره الأ نرجي التــلاقــيا

ابا المسك ذا الوجــه الذي كنت تائقــا

اليــه وذا الفــعل الذي كنتُ راجــيا

اذا لم يكن هذا مديحا فلست ادري كيف يكون المديح!

قال شيخنا ابو البقاء رحمه الله: -

«يقال ان سيف الدولة لما سمع البيت «قواصد كافور» قال «له الويل. جعلني ساقية وجعل الاسود بحراً».

ثم يمضي ابو البقاء فيقول: -

«ان كان المتنبي قد قصد هذا، فقد ابان عن نقضِ عهْد، وقلة مروءة، لانه مدح خلْقا، فلم يعطه احد ما اعطاه علي بن حمدان، ولا كان فيهم من له شرفه وفضله، لانه عربي من سادات تغلب، عالم بالشعر، ولم يمدح مثله في الشرف والحسب الا محمد بن عبد الله الكوفي الحسيني...».

وعندي، ان اعجب من ان المتنبي جعل كافوراً بحراً مثل «بحر النيل» وجعل سيف الدولة «ساقية» مثل نواعير حمص، كونه جعله «انسان عين زمانه» فهذه آية اخرى من آيات الشمس «المنيرة السوداء»!

بلى، مدح المتنبي كافوراً الاخشيدي، لا مراء في ذلك، ثم هجاه فيما بعد، فما كان صادقا في مدحه ولا كان صادقا في هجائه. ولكنه كان صادقا في شعره في الحالتين، فهذا «شاعر فنان» وجد مادة فصنع منها «فنا»، احيانا يزيد واحيانا ينقص، وقد ذهب المتنبي، وذهب سيف الدولة، وذهب كافور. لم يبق الاّ الشعر ■

(للحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

لم يكن المتنبي، ولا كان أي من الشعراء، صادقا في مدحه أو هجائه. اللهم الا في حالات نادرة انطبق فيها الوصف على الموصوف، سلبا أو ايجابا. انما كانوا يصنعون «فنا». وكما يفعل الفن عموما، يأخذون من الواقع، يحسنونه أحيانا، ويقبحونه أحيانا. وقد أحسن الشاعر الذي قال حين عيروه أنه لا يحسن الهجاء «اننا لا يعيينا أن نقول (قبحك الله) بدل (أصلحك الله)». وفي هذا المعنى يقول الدكتور عبد الله الطيب، في اشارة بارعة في كتابه «مع أبي الطيب»:.

«وكان تنافس الامراء اذ ذاك على الشعراء، كتنافس ملوك أوروبا وامرائها على استقدام المصورين البارعين واستخدامهم. وينبغي ان ننظر الى قصيدة المدح لا على انها تسول، ولكن على أنها واجب او عمل يطلب من الشاعر فينجزه، كما كان المصورون في أوروبا يؤدي أحدهم واجبا او ينجز عملا حين يطلب منه ان يرسم هذا الامير او تلك الاميرة. وكان من أعظم ما ينبغي في الرسم ابراز الأبهة والجمال، وما كان كل امير بذي أبهة ولا كل اميرة بحسناء فتأمل».

صدق، لم يكن كل أمير بذي أبهة، او على اي حال لم يكن بمثل الابهة التي أسبغها عليه «الفنان» في فنه. ويمكن القول دون حرج، ان سيف الدولة الحقيقي، ليس هو تماما سيف الدولة الذي خلده المتنبي في شعره، وأضفى عليه بهاء لم يكن له في الواقع، مثل قوله:.

وما الفرق ما بين الانام وبينه
اذا حذر المحذور واستصعب الصعبا
لأمر أعدته الخلافة للعدى
وسمته دون العالم الصارم القضبا
ولم تفترق عنه الأسنة رحمة
ولم يترك الشام الأعادي له حبا
ولكن نفاها عنه غير كريمة
كريم النثا(١) ما سب قط ولا سبا
وجيش يثني كل طود كأنه
خريق(٢) رياح واجهت غصنا رطبا
كأن نجوم الليل خافت مغاره
فمدت عليها من عجاجته (٣) حجبا
فمن كان يرضي الكفر واللؤم ملكه
فهذا الذي يرضي المكارم والربا

ما أجمل هذا - تقول - بصرف النظر عن «المادة الخام» التي صنع منها «الفنان» فنه. وتستطيع أن تتخيل ان سيف الدولة كان حين يستمع الى مثل هذا الشعر، يستخفه الطرب، كأنه يستمع الى وصف انسان آخر، يعرفه ولكنه ليس «هو». انسان يحلم ان يكونه.

ويمضي الدكتور عبد الله الطيب في اشارته النافذة فيقول:.

«ولأنا نعيش الان في زمان نهضة اوروبا، والتاريخ الكبير لازال من صنع دولتها، فاننا بحكم ذلك نقبل قضية روايات موليير وراسين وبن جونسون وشيكسبير، وصور فان دايك وجويا ورمبرانت وروفائيل على انها من صميم الفن، وننسى وجه الشبه بينها وبين المدح والهجاء (عند العرب). وقد فطن الى نحو من ذلك ابن رشد في الدهر القديم حين شبه المأساة بقصيدة المدح والملهاة بقصيدة الهجاء فما باعد كثيرا...».

نعم. لم يكن أبطال «هومير» في الواقع اكثر من رعاة وفلاحين وبحارة وقطاع طرق في بلاد «هيلاس». ولم يكن الملك لير الذي ابتدعه خيال شيكسبير الا مثل زعيم من زعماء العشائر عندنا. ونابليون بونابارت الذي خلده في لوحاته الفنان «جاك لوي دافيد» أضخم مرات من نابليون الحقيقي.

كذلك «الفن» يرفع ويخفض، وقد رفع المتنبي كافورا الى عنان السماء حين شاء - نعم، وما العجب؟ في مثل قوله:.

هذه دولة المكارم والرأفة
والمجد والندى والأيادي
يزحم الدهر ركنها عن أذاها
بفتى مارد من المراد
متلف مخلف وفي أبي
عالم حازم شجاع جواد
أجفل الناس عن طريق أبي
المسك وذلت له رقاب العباد
كيف لا يترك الطريق لسيل
ضيق عن(٤) أتيه كل واد.

ذاك مدح وهذا مدح، لا فرق، اللهم الا ان «المادة الخام» التي صنع منها الفنان فنه فيما يتعلق بكافور، لم تكن بشيء، فقد كان سيف الدولة «من سادات تغلب» كما قال شيخنا أبو البقاء، اذ كان كافور «عبدا لحفيد مغامر» كما قال أستاذنا عبد الله الطيب، ولكن لأجل هذا يمكن القول، ان «الثوب» الذي غزله المتنبي لكافور، كان وما يزال أدعى للعجب.

أما الشعر الذي يقصر فيه «الفن» عن «الحقيقة» ولا يرقى فيه الوصف الى قريب من شمائل الموصوف، فمثل ما قال أبو دهبل الجمحي في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم:.

(٥) ان البيوت معادن فنجاره
ذهب وكل بيوته ضخم
عقم النساء فما يلدن شبيهه
ان النساء بمثله عقم

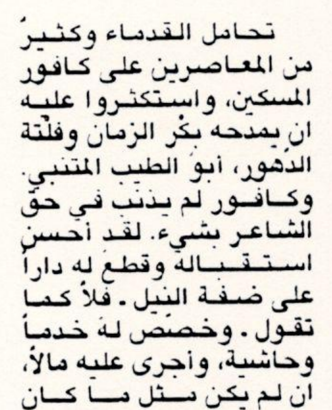
صدق الشاعر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ما هلت الديم، وما جرت على المذنبين أذيال الكرم ■

للبحث صلة

---

(١) كريم النثا أي طيب الذكر. وقالوا «النثاء» مثل «الثناء» ولكنها تقال للخير والشر بينما «الثناء» تقال للخير فحسب.
(٢) خريق رياح أي شديدة الهبوب.
(٣) العجاجة والعجاج، الغبار.
(٤) الأتي هو السيل وهو هنا يقصد قوة اندفاعه.
(٥) البيوت، يعني القبائل التي ينتمي اليها الرسول صلى الله عليهم وسلم. والنجار، الأصل والأرومة.

نحو أفق بعيد ١٠٩





بقلم الطيب صالح

تحامل القدماء وكثير من المعاصرين على كافور المسكين، واستكثروا عليه ان يمدحه بكر الزمان وفلتة الدهور، أبو الطيب المتنبي. وكافور لم يذنب في حق الشاعر بشيء. لقد أحسن استقباله وقطع له داراً على ضفة النيل - فلاً كما تقول - وخصص له خدماً وحاشية، وأجرى عليه مالاً، ان لم يكن مثل ما كان يصله من سيف الدولة، فقد كفاه مؤونة العيش وزيادة.

وأين هو الامير في زماننا هذا الذي يصنع مع «شاعر» مثل ذلك الصنيع؟ اقصى ما يفعل أن يعينه ملحقاً في سفارة او موظفاً في وزارة. وقد قضى نحبه محمد المهدي المجذوب، شاعر السودان الفحل، وأحد فطاحل شعراء العربية في هذا العصر، وهو مراقب للحسابات!

انكر المتنبي الجميل فيما بعد فقال في هجاء كافور:

جوعان يأكل من زادي ويُمسكني
لكي يقالَ عظيمُ القدر مقصودُ

ولعلّه أراد «جوعانُ يأكل من زادي ويُطعمني» فليس الأم من مضيف يقري ضيفه من طعامه، اي من طعام الضيف. او كما قال خَنْزَرُ بنُ أرقمَ يهجو قوم الراعي الشاعر:

بني قَطَنٍ ما بالُ ناقة ضيفكم
تعشَّون منها وهي مُلْقىً قُتودُها
غدا ضيفُكم يمشي وناقتُه رحله
على طُنُبِ الفَقْماءِ مُلْقىً قَديدُها
وبات الكلابيُّ الذي يبتغي القِرَى
بليلةِ نحسٍ غابَ عنها سُعودُها

لا عجب، فقد ذبحوا ناقته وأطعموه وأكلوا منها، وقددوا بقية اللحم، ونشروه ليجفَّ على طُنُب «الفقماء» امرأة الراعي.

لم يفعل كافور مثل ذلك مع المتنبي في الحقيقة، فقد كان الشاعر يأكل من طعام أبي المسك ويرفل في ثيابه. الذي لم يفعله كافور هو ان يقطع الشاعر «ضيعة او ولاية» كما طلب صراحة:

أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أناله؟
فإني أغنّي منذ حين وتشرب
وهبْتَ على مقدار كفَّي زماننا
ونفسي على مقدار كفّيك تطلب
اذا لم تنُطْ بي ضيعةً أو ولاية
فجودك يكسوني وشُغْلك يسلُبُ

وكم اعطاه في تلك اللحظة بالذات؟ ستمائة دينار، وهو مبلغ لعله لا يقاس بما وصله من سيف الدولة وعضد الدولة وابن العميد، ولكنه مبلغ لا يستهان به بحساب هذه الايام. ولو جمعت كل ما نال الشاعر من كافور طول اقامته بمصر لحسبت مالاً كثيراً. ضاع كله ويا للاسف، الذي جمعه من كافور ومن الآخرين. ذهب هدراً عند دير العاقول، انتهبه فاتك الاسدي وعصبته «يتقاسمونه بطرطوره».

لا يا رعاك الله. ما كان كافور يقدر ان يفعل غير ما فعل، فهو بعد «امير» حتى ولو كان عبداً مخصياً. وكان ملكه اوسع من ملك سيف الدولة، فقد حاز مصر واكثر الشام. وكان احد «محاور» السلطة في ذلك الزمان. والمتنبي، مهما كان، ليس غير «شاعر». ومنطق السلطة غير منطق الشعر. الا ان ابا الطيب تجرأ وأراد ان يعبر الحاجز الذي يفصل بينه وبين صاحب السلطان، ويجلس معه على سرير واحد، وهذا لا يجوز، اللهم الا ان يكون الشاعر نفسه هو صاحب السلطان، الامر الذي لم يحدث الا نادرا. وحسناً فعل كافور فماذا كان يجدي المتنبي ان يصبح «محافظا» على الفيوم، كما رووا انه اراد؟

هل قالوا انه لم يمدحه؟ بلى وايم الحق، لقد مدحه واطنب في مدحه. قال ابو البقاء:

«سألت شيخي ابا الحرم مكي بن ريان الماكسي عند قراءتي عليه الديوان سنة تسع وتسعين وخمسمائة «ما بال شعر المتنبي في (مدح) كافور اجود من شعره في عضد الدولة وابي الفضل بن العميد؟» فقال «كان المتنبي يعمل الشعر للناس لا للممدوح، وكان ابو الفضل بن العميد وعضد الدولة في بلاد خالية من الفضلاء، وكان بمصر جماعة من الفضلاء والشعراء فكان يعمل الشعر لاجلهم، وكذلك كان عند سيف الدولة بن حمدان جماعة من الفضلاء والادباء، فكان يعمل الشعر لاجلهم ولا يبالي بالممدوح».

رحم الله شيخنا ابا الحرم. لقد لمس حقيقة هامة في فهم الشعر، بل وفي فهم الادب والفن على وجه العموم.

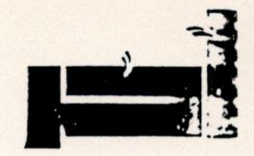
بعد ذلك، حين قلب المتنبي لكافور ظهر المجن، وفارقه على اقبح وجه كما كان حتماً ان يحدث، قال متنصلا من مدحه اياه:

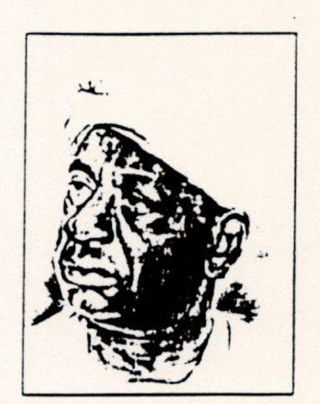
وشعرٍ مدحتُ به الكركدنَّ
بين القريضِ وبين الرُّقى
فما كان ذلك مدحاً له
ولكنّه كان هجوَ الورى

نعم، ولكن ليس على المعنى الذي ذهب اليه أولئك الشيوخ الاجلاء.

للبحث صلة

4823





بقلم الطيب صالح

اختلف الرواة في صاحب هذه القصيدة العظيمة. قالوا انها للعديل بن الفرخ العجلي. وقال آخرون انها لابي الأخيل العجلي. وذكروا ان ابا الأخيل وفد على عمر بن هبيرة الفزاري في اواخر ايام بني امية، فقيل له «ان ابا الأخيل بالباب يستاذن»، فقال «اذاً والله لا ياذن له غيري». وقام من مجلسه حتى اتاه بالباب، فاخذ بيده واقعده معه على بساطه، ثم قال له «انشدني منصفتك». فانشده اياها فكساه واعطاه ثلاثين الفاً.

كانوا يسمّون مثل هذه القصائد «المنصفات»، اي انها تُنصف الخصم فلا تحقره ولا تبخسه حقه. من ذلك شعر شبيل الفزاري وعبد الشارق ابن عبد العزى الجهني والعباس بن مرداس السلمي. وكل ذلك شعر شريف ظل يضيء في دياجير العصور حتى تناهى الينا في هذا العصر الحالك الظلام. ومن شريف ما قيل في وصف الخصم ابيات عنترة:

ومدجج كره الكماةُ نزاله
لا ممعنٍ هرباً ولا مستسلمِ
لما رآني قد نزلتُ أريده
أبدى نواجذه لغير تبسم

الا ان هذه القصيدة - ولنقل انها لابي الأخيل العجلي - اكثر من ذلك بكثير. انها قصيدة ملحمية، لا تقل في ماساويتها واثارتها للحزن والاسى، عن «تراجيديا» اليونان. وقد كانت قصيدة طويلة، فيما رووا، ضاع معظمها لسوء الحظ وبقيت منها ابيات. الا ان القليل الذي وصل الينا يعطينا فكرة واضحة عن شاعر بلغ حداً من «التجرد الفني» نادر المثال في الشعر العربي. وانت اذا استثنيت معلقة زهير في حرب عبس وذبيان، وسينية البحتري في الايوان، وبعض شعر المتنبي وابي العلاء، لعلك لا تجد الا ابياتاً قليلة متفرقة من هذا الضرب من الشعر.

الشعر العربي في الاغلب، شعر «منحاز». «التزام» الشاعر واضح، ان بالحق او بالباطل، ولا اقول «انتماؤه»، فذاك امر اوسع واعمق، يجعل الشاعر «الكبير» شاعراً عظيما.

هذا ما فعله زهير في معلقته، وهذا هو الذي جعلها في رأيي، شعراً عظيماً، وليس شعراً جميلاً فقط. انها عندي اعظم المعلقات لهذا السبب. لقد كان زهير الوحيد بين شعراء الجاهلية، بل وظل من القلائل الى يومنا هذا، الذي سما بفنه فوق اغراءات الظروف التي اكتنفته، فلم ينحز الى اي جانب في الصراع الدائر في قومه ولكنه نظر الى المأساة بكليتها، وبذلك صنع فناً «انسانيا» ينطبق على كل زمان ومكان. كذلك فعل ابو الأخيل العجلي، وزاد على زهير انه كان «مشاركاً» في الحرب و«شاهداً» عليها في الوقت نفسه. قال رحمه الله وغفر له:

ألا يا اسلمى ذاتَ الدماليج والعقْد
وذات الثنايا الغرّ والفاحم الجعْد
وذاتَ اللثاتِ الحمّ والعارض الذي
به ابرقت عمداً بابيضَ كالشهد

كأنّ ثناياها اغتبقْنَ مُدامةً
ثوتْ حججاً في رأس ذي اقنةٍ (١) فرد
جرى بفراق العامرية غدوةً
شواحجُ (٢) سودٌ ما تُعيدُ وما تُبدي
لعمري لقد مرّتْ بي الطير انفاً
بما لم يكنْ اذْ مرّتِ الطيرُ من بدّ
ظللْتُ أساقي الموت اخوتي الأُلى
ابوهم أبي عند المزاحمة والجدّ
كلانا ينادي يا نزارُ وبيننا
قناً من قنا الخطّيّ او من قنا الهند
(٣) قرومٌ تسامى من نزار عليهم
مضاعفةٌ من نسج داود والسّغْد
اذا ما حملنا حملةً مثّلوا لنا
بمرهفةٍ تُذري السواعدَ من صُعْد
وأن نحن نازلناهمُ بصوارم
ردوا في سرابيلِ الحديد كما نردي (٤)
كفى حزَنًا ان لا ازال ارى القنا
تمجّ نجيعاً (٥) من ذراعي ومن عضدي
لعمري لئن رمتُ الخروج عليهم
بقيسٍ على قيسٍ وسعْدٍ على سعْد
وضيّعْتُ عمرواً والرِّباب ودارماً
وعمرو بن أدّ كيف أصبرُ عن أدْ
لكنتُ كمُهريقِ الّذي في سقائه
لرقْراقِ آلٍ فوقَ رابيةٍ صلْد
كمُرضِعةٍ اولادَ أخرى وضيّعت
بني بطنها هذا الضلالُ عن القصدْ
فأُوصيكما يا ابنَيْ نزارٍ فتابعا
وصيّةَ مُفضي النُصحِ والصدقِ والودّ
فلا تعلَمَنّ الحربُ في الهام هامتي
ولا ترميا بالنّبل وَيْحَكُما بعدي
اما ترهبانِ اللّهَ في ابنَيْ ابيكما
ولا ترجوان اللّهَ في جنّة الخلْد؟!
فما تُرْبُ أثرى (٦) لو جمعت ترابها
باكثرَ من ابنَيْ نزارٍ على العدّ
هما كنَفا الارضِ اللّذا لو تزعزعا
تزعزعَ ما بين الجنوب الى السدّ
وانّى وانْ عاديْتُهم وجفوتُهم
لتألمُ مما عضّ اكبادَهم كَبْدي
فانّ أبي عند الحفاظ أبوهمُ
وخالُهم خالي وجدُّهُم جدّي
رماحهمُ في الطّول مثلُ رماحنا
وهم مثلنا قدّ السيور من الجلْد (٧)

---

(١) ثوت حججا الخ. خمر عتقت زمناً طويلاً في مكان على قمة جبل. يشبه به ريق الفتاة.

(٢) شواحج سود، اغربة سود.

(٣) قروم، سادة اشراف، واصل القرم الفحل من الابل.

(٤) سرابيل الحديد، الدروع، ونردي من الرديان اي سرعة المشي، وهو هنا يقصد انهم لا يقلون (عنا) اقداما وجراة على الحرب.

(٥) النجيع الدم الاسود.

(٦) اثرى والثرى اسمان للارض، يقصد ان ربيعة ومضر لا يحصيهما العد من الكثرة.

(٧) قد السيور من الجلد، يقصد انهم متساوون في كل شيء، كما تتساوى السيور المقطوعة من جلد واحد.

للبحث صلة

نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

رحم الله شيخنا ابا الحرم مكي بن ريان بن شيبة بن صالح الماكسيني المولد الموصلي الدار، المقرىء النحوي الضرير الملقب بـ «صائن الدين». ولد في ماكسين، وهي بلدة من اعمال الجزيرة على نهر الخابور. ونشأ يتيما فقيراً، ثم قصد الموصل فحفظ القرآن وتبحر في فروع اللغة والادب. ثم سافر الى بغداد فصحب علماءها وائمتها ومن ثم عاد الى الموصل وبرز للناس فعُرف وانتشر ذكره وبعد صيته. وكان يتعصب لابي العلاء فتأثر به ونسج على منواله. وكانت وفاته عام ثلاثة وستمائة بالموصل ودفن بصحراء باب الميدان.

رحمه الله. لقد ادرك حقيقة هامة في فهم الشعر، بل وفي فهم الادب والفن على وجه العموم. قال ان المتنبي كان يتوجه بشعره الى العلماء والادباء والشعراء ولا يبالي بالممدوح. وها نحن نرى في زماننا هذا مذاهب في النقد تزعم ان «النص الفني» كيان قائم بذاته، مستقلٌ عن صاحبه، لا صلة له بحياة «المؤلف»، ولا ببيئته وزمانه. وذلك ابعدُ مراحلَ مما ذهب اليه شيخنا ابو الحرم، وان كان لا يخلو من بعض ما قصد اليه. انما يمكن القول على اي حال، ان الشعر ليس وثيقة تاريخية لحياة الشاعر، وانه في جانب كبير منه حوار متصل بين الشاعر وفنه، وبينه وبين الشعراء في زمانه، وبينه وبين تراث قومه اطلاقاً. ويزيد بعض اخواننا في زماننا هذا، انه ايضا تواصل مع التراث «الانساني» عامّة. ويقولون ان «الفن» لا يصور الواقع، ولكنّه «يُعيد صياغة الواقع».

أيّاً ارادوا، فلا مراء ان الشعراء العرب، وخاصّة الافذاذ منهم، كانوا يعلمون انهم يصنعون «فنّاً» ليس مقيّدا بزمان او مكان. وكان المتنبي من اكثرهم احساسا بذلك. فها هو ذا يقول مخاطبا سيف الدولة.

وعندي لك الشُرُدُ السائراتُ لا يختصصْنَ من الارض دارا
قوافٍ اذا سِرْنَ عن مِقْوَلي وثَبْنَ الجبالَ وخُضْنَ البحارا

تدبّر يا أصلحك الله قولَه «لا يختصصْنَ من الارض دارا». اليس هذا ما يرمي اليه بعض اصحابنا حين يصفون بعض ضروب الادب بانها «عالميّة»؟ واي «عالم» يقصدون يا امّ عمرو؟

كان القدماء يدركون هذا المعنى تمام الادراك، لذلك كان الشاعر عندهم لكي يستحق صفة شاعر لا بدّ له ان يُتقن ادوات صناعة الشعر، ويتدرب على فنون القول من مديح وهجاء وغزل ونسيب وفخر ورثاء.

هكذا يفعل كل صاحب حرفة وصناعة. وفي زماننا هذا يتعلم الرسامون مزج الالوان ورسم الاجساد والطبيعة والزوايا والابعاد وخصائص الضوء وانعكاساته الى غير ذلك. وكان يلزم للشاعر ان يحيط بتراث قومه ويلمّ بما فعل الشعراء قبله . وفي الاسلام، اصبح الشعراء يدرسون علوم القرآن والحديث والفقه والتاريخ وكل ما أتيح لعصرهم من معارف. وبوسعك ان تقول ان وراء شعر ابي نواس الماجن علماً كثيراً!

فالامر اذاً ليس محض كلام يجيش في صدر الشاعر عفوَ الخاطر، ولكنه ايضا صناعة ودربة ومهارة. وهذا في ظني هو المعنى الذي اشار اليه شيخنا ابو الحرم. ولو رحتَ تطلب شاعرا عربيا واحدا، منذ امرىء القيس الى زماننا هذا توفّرتْ له كل ادوات صناعة الشعر، بالاضافة الى موهبة خارقة لم يحظ بمثلها احد قبله او بعده، لما عدوْتَ ابا الطيب المتنبي. ونحن حين نقول انه «الأستاذ» فانما نقصد بذلك المعنى الاصلي للكلمة.

قال صاحب «اليتيمة» في معنى البيت:

ازورهم وسوادُ الليل يشفع لي وانثني وبياضُ الصبح يُغري بي

«هذا البيت امير شعره، وفيه تطبيق بديع ولفظ حسن، ومعنى بديع جيّد. وهذا البيت قد جمع بين الزيارة والانثناء والانصراف، وبين السواد والبياض، والليل والصبح، والشفاعة والاغراء وبين «لي» و «بي». ومعنى المطابقة ان تجمع متضادين كهذا. وقد اجمع الحُذّاق بمعرفة الشعر والنقاد، ان لابي الطيب نوادر لم تات في شعر غيره وهي مما تخرق العقول..».

تخرق العقول، أيْ نعم، ولا عليك من هؤلاء البُنْيويين والتفكيكيين والسيمائيين وما شابه. لقد جاءوا من اودية شتّى الى وادي العقيق ووادي الرّسّ ووادي الخُزامى، فلن يطول مكثهم بها ان شاء الله. وفي البيت افضال بعد، فحكاية ابي الطيب مع الضوء والظلام حكاية طويلة. وقد قال في موضع آخر:

وكَمْ لظلام الليل عندك من يدٍ تُخبّرُ انّ المانويّةَ تكذبُ
وقاك ردى الاعداء تسري اليهمو وزارك فيه ذو الدّلال المحجّبُ

كان المتنبي شاعرا من رأسه حتى قدميه. شاعرا في حلّه وفي ترحاله. شاعرا في النعيم وفي البؤس. شاعراً في السلم وفي الحرب. شاعرا في حلب وفي الفسطاط. في الكوفة وفي شيراز. كانت حياته كلها منذورةً للشعر. كانت لديه «القصيدةُ هي الهدف». ■

للبحث صلة

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

بلى، كانت «القصيدة» هي الهدف، بل كانت هي «القدر». وهو قدرٌ لم يتقبله الشاعر طائعاً، وقد حق له ذلك. فمنذا الذي يرضى ان يحمل عن طيب خاطر ذلك العبء الفادح، عبء عبقرية مثل عبقرية المتنبي؟

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه
انى بما انا باكٍ منه محسودُ.

وهل أبكاك يا سيدي الا الشعر؟

كان المتنبي «شاعراً» اولا واخيراً، وهي حقيقة ادركها ذلك العبقري الاخر، ابو العلاء المعري. هو ايضا عبر ذلك الجسر، وقاسى ذلك الليل، واوغل في رحلة «وجودية» جريئة تختلف عن رحلة المتنبي، ولكنها تلتقي معها في نهاية الامر، لذلك كان اذا ذكر الشعراء يقول، قال فلان، وقال فلان، حتى اذا ذكر المتنبي قال «قال الشاعر».

بيد ان عميد الادب العربي الدكتور طه حسين، على علمه وسبقه وجلال قدره، لم يفطن الى هذا، ولعله فطن ولكنه غض الطرف، بسبب شعور محير تجاه ابي الطيب. اسمعه يقول:.

«قد يقال هذا كله ولكنه لا يغني عن المتنبي شيئا، ولا يزيد على ان يكون ما نذهب اليه من ان المتنبي انما كان شاعراً كغيره من الشعراء، ورجلاً كغيره من الناس، قد رفع نفسه فوق قدرها، وزعم لها ما ليس من اخلاقها، وطمع فيما لا ينبغي لمثله ان يطمع فيه. ظن نفسه حراً ولم يكن الا عبداً للمال، وظن نفسه أبياً، ولم يكن الا ذليلا للسلطان، وظن نفسه صاحب رأي ومذهب، ولم يكن الا صاحب تهالك على المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيسر الناس امراً واهونهم شأناً.».

رحم الله العميد وغفر له. لقد اخرجته البغضاء للمتنبي عن طوره تماما، وجعلت بينه وبين الشاعر حجاباً مستوراً. ولكنها بغضاء مثل الحب، فالعميد رحمه الله، شأنه في ذلك شأن الشريف الرضي والصاحب بن عباد وكثيرين الى يومنا هذا، حالهم «حال المجمعين على الحمد».

لا غرابة اذاً، ان هذا العالم الحبر، عملاق الادب في زمانه والى اليوم، لم ينتبه الى المضمون الخطير في بيت من شعر المتنبي. لا عن قلة فطنة، فقد كان العميد آية في الذكاء. ولا عن جهل حاشا لله فقد كان العميد بحر علوم. لا، انما هي البغضاء التي تجعل الانسان ينظر الى الشيء الواضح امامه، فلا يراه. قال المتنبي:.

اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقاتٌ لها وطبولُ

ظن العميد رحمه الله، ان هذا البيت متصلٌ بالابيات التي سبقته في مدح سيف الدولة، فقال:

«ومعز الدولة وحده هو المعنى بهذين البيتين، ما اشك في ذلك. فهو لقب يضاف الى الدولة، ولكنه ليس ماضياً ولا عضباً، وانما هو لفظ ضخم لا يغني شيئا. والبيت الثاني صريح في ذلك، فقد جعل امير حلب سيفاً للدولة يحميها ويذود عنها، على حين ان منافسه في بغداد لا يزيد على ان يعلن عن الدولة او عن نفسه بالبوقات والطبول.. والغريب ان النقاد الادباء مضوا مع اصحاب السياسة في انكار هذا البيت فعابوه، مع اني لا اعرف هجاء اقذع ولا اوجع، ولا سهما انفذ من هذا البيت...».

غفر الله لك. لو انك تمهلت قليلا، ونظرت بعين المحب، ولم تحمل «بوقات» و«طبول» على معناهما المعاصر والحقت البيت لا بالابيات التي سبقته بل بالابيات التي جاءت بعده، اذاً لوجدت معنى طريفا حقا. اذاً لرأيت ان الشاعر أفلت فجاة من مدح الامير، ولاذ بنفسه في ثمانية ابيات، كأنها قصيدة قائمة بذاتها فيما يسمى هذه الايام بـ «المنلوج الداخلي»، يقول:.

اذا كان بعضُ النّاس سيفاً لدولة
ففي النّاس بوقاتٌ لها وطبولُ
انا السابق الهادي الى ما أقوله
أذ القولُ قبلَ القائلين مقولُ
وما لكلام النّاس فيما يُريبني
اصولٌ ولا للقائليه اصولُ
أعادَى على ما يوجبُ الحبُ للفتى
وأهدأ والافكارُ فيّ تجولُ
سوى وجع الحُسّاد داوِ فانه
اذا حلّ في قلبٍ فليس يحولُ

واقول عفا الله عني، ان المتنبي لو اراد المعنى الذي ذهب اليه العميد، لعبّر عنه صراحة بأسلوب مباشر، كما فعل في قصيدته التي بعث بها الى سيف الدولة من الكوفة بعد ان فارقه:.

ليس الآنَ يا عليُّ همامٌ
سيفُه دون عرضه مسلولُ

انما الشاعر هنا يؤكد دوره كشاعر. كأنه يقلل من شأن سيف الدولة. فهو «بعض الناس» وهو مجرد «سيف» لمجرد «دولة». اما الشاعر، فهو طبول تصطخب وابواق تضج. وكأنه اراد ان يقول للامير «لا تظن ان الملك يبنى بالسيف وحده، انما ايضا بالفكر والادب والفن، واذا تخيلت ان ما انجزته بسيفك عظيم، فان دوري انا الشاعر، لا يقل اهمية عن دورك، ولعله يفوقه.».

هذا المعنى ادركه شيخنا ابو الفضل العروضي رحمه الله، فقال:.

«اراد بالبوق والطبل الشعراء الذين يُشيعون ذكره ويذكرون في اشعارهم غزواته، فينتشر بهم ذكره في الناس كالبوق والطبل اللذين هما لاعلام الناس بما يحدث».

* * *

رحم الله الدكتور طه حسين، فلنا مع كتابه عن المتنبي حديث اخر لعله يطول. وانت يا سيدي سقى الله قبرك اينما كان. لقد صنعت من عذابات حياتك فناً خالداً، وولدت ضوءاً، تنوره محبوك، وأعشى عيون مبغضيك فلم يروا الا الظلام.

للبحث صلة



بقلم الطيب صالح

اعتمد الدكتور طه حسين اعتماداً كبيراً في كتابه «مع المتنبي» على كتاب المستشرق الفرنسي «بلاشير»، وتبنى احكامه على ابي الطيب وشعره الى حد بعيد. وكان «بلاشير» قد قدم دراسته التي اسماها «ابو الطيب المتنبي - دراسة في التاريخ الادبي» كاطروحة نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون عام ١٩٣٥. وقد ترجم الكتاب الى اللغة العربية الدكتور ابراهيم الكيلاني الاستاذ بجامعة دمشق، ونشرته وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٥. وتلك حسنة تحمد لوزارة الثقافة السورية، فهذا كتاب مهم بذل فيه المؤلف جهدا كبيرا في البحث لولا انه لسوء الحظ انتهى الى نتائج خاطئة في الغالب. والكتاب مهم، ليس لانه يفيدنا باي جديد عن حياة المتنبي او شعره، ولكن لانه يكشف لنا بصراحة كيف نظر بعض هؤلاء المستشرقين الى الثقافة العربية بل والحضارة العربية برمتها. ولولا استثناءات ليست قليلة، لرجال ونساء منصفين لا تنقصهم الشجاعة، بذلوا جهداً عظيماً، ونظروا بعطف الى الحضارة العربية «من الداخل» - لولا ذلك لقلت ان تلك النظرة، لم تكد تتغير الى يومنا هذا.

سوف اتطرق الى كتاب «بلاشير» خلال حديثي عن كتاب الدكتور طه حسين ان شاء الله. ولكنني اكتفي الآن باقتطاف فقرات من الكتاب، يتحدث فيها المستشرق الفرنسي عن سيف الدولة، تحتوي في ظني، على كثير من الخطل والتناقض اللذين وسما النظرة الغربية الى الانسان العربي والحضارة العربية. يقول «بلاشير»:.

«وكان سيف الدولة موسوماً، خلقا وخلقا، بطابع عرقه العربي. يفرض نفسه من خلال صفات هي عماد السؤدد في نظير البدوي، كالشجاعة والكرم وشيء من سمو النفس. وكان بحكم التأسل *(١) (الردة الوراثية)، مسعر حرب، ولكن تبعا للمفهوم العربي، اذ لم يكن فيه ما يشعر برجل الحرب الحقيقي، وكان نصيبه كلما اصطدم بخصم عنيد، الهزيمة. وكانت طريقته في الحرب (تكتيك)، كما سنرى، ترتكز على مهاجمة العدو بعنف واستغلال عنصر المفاجاة واغارة جنوده الفرسان. ولم يكن قبل غزواته يستعد للمعارك، او لا يستعد الا قليلا، كما انه لم يعن بعد الانتصار بالاحتفاظ بثمرات فتحه او تامين انسحابه. وكان بالاضافة الى ذلك كغيره من القواد الارديا، *(٢) شديد العناد، يصم اذنيه عن سماع ابسط نصائح الحيطة، وكان يحب ان يستبد برايه ولا يشاور احداً لئلا يقال انه اصاب براي غيره. بيد انه كان يعوض عن هذه العيوب الخطيرة التي سببت له في اواخر حياته كوارث متتابعة، باحتمال هائل للمشاق، وجراة واستبسال بلغا اقصى الحدود، فان ما كان عند الغالبية من العرب *(٣) نفجاً، اصبح عنده وقائع حقيقية ويومية. واخيرا فان ما كان يميزه عن اخوانه بني جنسه، فهو عناد نادر مقرون بتجاهل تام لفتور العزيمة. وكان ينفذ كل ما عقد العزم عليه مهما كلفه الامر، ولم تنل في اواخر حياته، الاحزان ولا الهزائم ولا الخيانات من شجاعته الجموح.

وكان لسيف الدولة ايضا من صفات العربي، ذلك التقلب الذي ضلل (حير) توقعاتنا كافة، فهل كان جائرا ام حليما؟ لسنا ندري، فان السيد الذي اعاد لنصارى حلب جثة احد ابناء بردس فقاس *(٤) Bardas Phocas، الذي توفي في الاسر، هو ذاته الذي امر بقتل اسرى الروم، الذين وقعوا عقب احدى المعارك، في قبضته.

ولسيف الدولة ايضا من صفات العربي، تلك العصبية التي تحولت عنده الى *(٥) تقوى حقيقية. فقد كان يكن لامه اجلالا عميقا، ويضمر لاخيه ناصر الدولة ولاء، وتلك لعمري صفة استثنائية (نادرة) في الشرق.. وكان لحياته الجنسية مفارقات عجيبة لم تكن على كل حال وقفاً على العرب بل هي مشاع بين الشرقيين في القرون الوسطى. ولا يلبث هذا المحارب الذي قاسى دون تذمر، متاعب الحرب في الجبل والصحراء، ان ينقلب بعد عودته الى بذاخ مخنث، قادر مع ذلك عند الحاجة، على استرداد عزيمته دفعة واحدة. ويبدو ان قصره في ضاحية المدينة، وهو في آن واحد، دار امارة وحصن، على غاية الترف، تقام فيه المادب طويلا، ويطلق العنان، دون ريب، لجميع انواع الافراط الذي اقتضته حياة حرة جداً. والظاهر انه كان للنساء، بالاضافة الى ما تقدم، سلطان كبير عليه. وكانت احداهن، وهي مسيحية من اسرة رومانية شريفة، اسرت في احدى الغزوات، اججت في قلبه هوى جامحاً.. ونشعر احيانا ان ثمة شيئا كان من الممكن ان يفوت هذا الامير لو لم يظهر كرماً صاخباً بلغت شهرته بغداد وخراسان.. وقد كان هذا الكرم والحق يقال، اسلوبا سياسيا، الغرض منه ايقاع الدهش في قلوب اعدائه وجيرانه. ويقال انه في سنة ٣٥٤هـ - ٩٦٥م، صرف على سبيل المثال، وفي بحران الهزائم، سبعمائة الف دينار ذهباً، على زواج اثنين من ولده. وكان سخاؤه ناشئا، في اغلب الاحيان، عن اريحية تعتريه فيعطي دون ان يحسب لمقتضى الحال والضرورة حساباً.

اما وان الاهتمام الذي كان يعيره سيف الدولة للامور العقلية، صادر عن عاطفة النفج فهذا مؤكد جدا، فقد كان من مقتضيات الترف في زمنه، ان يحيط الامير نفسه بجمهور من المتملقين، وكذلك بخدور النساء العديدة، والاصطبلات الواسعة.

اما وان هذا الامير استجاب، بجعله حلب حاضرة منافسة لبغداد، لدواعي الدعاوة الشخصية ومصلحة الملك، فهذا ما لا يستطاع دحضه. ولم يكن هذا الا استمراراً للتقاليد العربية، تقاليد اللخميين في الحيرة والغساسنة في الشام قبل الاسلام، والامويين في دمشق بعد الاسلام.. فهل كان سيف الدولة ذاته شاعرا؟ هذا ممكن جدا ذلك لان نظم الشعر كان شائعا في اسرته بيد ان الابيات المنسوبة اليه مشكوك بصحتها، وفي الواقع فليس الامر ذا بال، فان الواقعة التي ينبغي الاحتفاظ بها هي ان سيف الدولة كان على شاكلة الفئة الممتازة في زمنه، واسع المعرفة بالشعر العربي. وليس عجيباً ان نجد عند امير مثله ورث الكثير من الخصال الاصيلة، ما يميز العربي كحب الفصاحة، والخضوع الاعمى لسحر الكلمة...».

---

١) لعله يقصد شيئا متاصلا في الطبع العربي بحكم الوراثة، تجعل العربي يسلك دائما سلوكا معينا، وهي كما ترى نظرة عنصرية ومتناقضة ايضا. فهو ينكر في كتابه وجود عنصر عربي قح، وفي الوقت نفسه يعزي الى العنصر العربي انماطا معينة من السلوك.

٢) الارديا، جمع ردي،. يقصد القواد الذين لا علم عندهم بفنون الحرب.

٣) يستعمل المترجم كلمة «نفج» بمعنى جيشان الحماس بشكل مؤقت، والتظاهر.

٤) Bardas Phocas هذا، هو الذي سماه العرب «الدمستق» واشار اليه المتنبي في شعره.

٥) تقوى حقيقية. لعله يقصد ان العصبية تحولت لديه الى «بر ورحمة» تجاه افراد عائلته.

(للبحث صلة)



نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

تخيّل مسافراً يختار لرحلته، عمداً وبمحض ارادته، رفيقاً لا يحبه ولا يأنس اليه. الا يكون هذا عجيباً؟ هكذا فعل استاذنا العميد الدكتور طه حسين مع ابي الطيب المتنبي. أنبانا بذلك صراحة في مطلع كتابه مع المتنبي باسلوبه الفريد الذي أثر عنه، وهو اسلوب يغيظك ويجذبك في الوقت نفسه، فقال:

«وليس المتنبي مع هذا من احب الشعراء اليّ واثرهم عندي. ولعله بعيد كل البعد عن ان يبلغ من نفسي منزلة الحب او الايثار. ولقد اتى عليّ حين من الدهر لم يكن يخطر اني سأعنى بالمتنبي او اطيل صحبته، او اديم التفكير فيه. ولو اني أطعت نفسي وجاريت هواي لاستصحبت شاعراً اسلامياً قديماً عسيراً كالفرزدق او ذي الرمّة او الطرمّاح، او شاعراً عباسياً من هؤلاء الذين أحبهم واوثرهم، لاني اجد عندهم لذة العقل والقلب، او لذة الاذن، او اللذتين جميعاً، كمسلم وابي نواس وابي تمام وابي العلاء. ولكني لم اطع نفسي، وانما عصيتها، ولم أجار هواي، وانما خالفته اشد الخلاف، وطلبت الى صاحبي على كره مني ان يستصحب المتنبي».

كان ذلك في صيف عام ١٩٣٦. وكان العميد رحمه الله، في طريقه الى جبال الألب، فراراً بنفسه كما قال «من احداث الحياة الخاصة والعامة في القاهرة»، وطلبا للهدوء والراحة وقراءة مجموعة من الكتب الفرنسية. وهكذا يخبرنا العميد منذ البداية، انه لم يكن يجد في صحبة المتنبي، لا متعة العقل ولا متعة القلب ولا متعة الاذن. لماذا اذاً يا دكتور الزمت نفسك امراً ليس يلزمها وارهقتها كل ذلك الارهاق؟

يجيبنا العميد بطريقته الجذابة التي نحبها فيه مع انها تغيظنا:

«واكبر الظن اني انما فعلت ذلك لان المتنبي كان وما زال حديث الناس المتصل منذ اكثر من عامين، ولاني حاولت وما زلت احاول ان استكشف السر في حب المحدثين له واقبالهم عليه، وإسرافهم في هذا الحب والاقبال، كما اسرف القدماء في العناية به حبا وبغضا واقبالا واعراضا».

لا جرم، فقد كان الحديث مستعراً في تلك الاونة عن ابي الطيب المتنبي في العالم العربي، بل وفي العالم الاسلامي ايضا لمناسبة الاحتفال بذكراه الالفية. كان الاستاذ محمود محمد شاكر، اطال الله عمره، قد اصدر بحثه القيّم عن المتنبي، الذي نشرته مجلة «المقتطف» في يناير عام ١٩٣٦ في عدد خاص. وكان المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام قد نشر كتابه «ذكرى ابي الطيب بعد الف عام». كذلك صدرت مقالات لكبار الكتاب امثال العقاد والمازني. وكان المستشرق الفرنسي «بلاشير» قد اصدر بحثه عن المتنبي باللغة الفرنسية عام ١٩٣٥. ولا شك ان الدكتور طه حسين - لم يكن لواء عمادة الادب العربي قد عقد له بعد - لا شك انه احس رغبة عظيمة ان يدلي بدلوه، ويخوض في لجج ابي الطيب مع الخائضين. ثم يقول:

«واكبر الظن ايضا اني انما فعلت ذلك لاني احب ان اعاند نفسي وآخذها من حين الى حين ببعض ما تكره من الامر. وقد قلت في غير هذا الموضع اني لست من المحبين للمتنبي ولا المشغوفين بشخصه وفنه فلم اجد باساً في ان اشقّ على نفسي اثناء الراحة، واثقل عليها حين تبغض الاثقال عليها».

بخ بخ. كونك يا سيدي لا تحب شخص ابي الطيب، فهذا من حقك. أما انك لا تحب فنّه فهذا امرٌ محيّر من شخص في مثل علمك وفضلك. ثم ماذا غفر الله لك؟

«نعم. لم اجد باساً في ان اقطع عليها لذة الحياة في فرنسا بين هذه الربى الجميلة وفي هذا الجو الحلو، وبين هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التي تتكشف عنها جهود الادباء والفلاسفة والنقاد، والتي اغرق فيها الى اذنيّ كلما عبرت البحر. لم اجد باساً بان اثقل على نفسي اثناء هذا كله بالتحدث الى المتنبي والتحدث عنه والاستماع له والنظر فيه. والناس يعرفون اني شديد العناد للناس، فليعرفوا ايضا اني شديد العناد لنفسي كذلك».

اللهم لقد عرفنا، ولقد كان ابو الطيب اكثر منك عناداً، جوّاب الآفاق، الواقف ابداً على مفترق الطرق. ولولا اننا نحبك ونجلك، لما قبلنا منك كل هذا «الدال». وواضح ان الدكتور يستثقل ظل الشاعر ويجده شديد الوطء على نفسه، فهو يقول في موضع آخر من كتابه، معلقًا على ابيات للمتنبي في رجل من طرابلس يدعى عبيد الله بن خلكان، اهداه هدية فيها سمك من سكر ولوز وعسل، والابيات ليست اكثر من لهو تلهى به الشاعر، وهو بعد في باكورة شبابه:

«فالشاعر كما ترى مطابق مبالغ حتى في وصف السكّر واللوز والعسل، وفي الشكر على علبة حلوى. ومن حق المتنبي ان يستريح وان يلهو بالصغائر، ويرفه بها على نفسه من هذه الهموم الثقال التي يطوف بها في الافاق، ويفكر فيها اناء الليل واطراف النهار. ولكن راحة المتنبي وفراغه، ودعابة المتنبي ومجونه، كل ذلك لا يخلو من السخف وثقل الروح كما سترى في غير هذا الموضع من الحديث. فلم يكن المتنبي حلو الروح، ولا خفيف الظل، ولا جذابا. وانما كان مرا غليظ الذوق في اوقات الدعة والفراغ».

رحمك الله. اما قال لك الشاعر؟ اما اتاك صوته الجريح المترع بكلّ تلك الاشجان النبيلة؟

سبحان خالق نفسي كيف لذّتها
فيما النفوسُ تراه غاية الالم

الدهرُ يعجب من حملي نوائبَه
وصبرِ جسمي على احداثه الحُطُم

وقتٌ يضيع وعمرٌ ليت مدّته
في غير أُمّته من سالف الأمم

اتى الزمانَ بنوه في شبيبته
فسرّهم وأتيناه على الهرم

(الحديث بقية)

أوراق



بقلم الطيب صالح

نحن اليوم، من هذه البُدة في الزمان، وقد بعدت الشقه، ومضى الدكتور العميد لحال سبيله، رحمه الله وأحسن اليه، لعلّنا لا نجد غضاضة في عبث العميد بنا وتعمده أغاظتنا. ولعلّ ذلك لا يزيد على أن يجعلنا نضحك أو نبتسم. لقد عاد العميد من فرنسا وفي نيّته ان يفعل في الأدب العربي ما وجد الفرنسيين يفعلونه في أدبهم وفي فكرهم، وقد أشار الى ذلك بقوله «.. هذه الكتب الطريفه والأراء الشاذه التي تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد، واغرق فيها الى أذني كلما عبرت البحر». طرحُ الأفكار الغريبه وتاجيج نيران الجدل، والقاء الشك على الامور التي يعتبرها الناس مقدسات او مسلّمات، كل ذلك شائع في اوروبا، وخاصة في فرنسا، يسمّونه Ic-onoelasmc، اي «تحطيم الايقونات». ولا بدّ ان العميد، أولَ عهده بفرنسا، بعد وقار الأزهر ومحاذير شيوخه، وجد نشوة روحية ومتعة ذهنيّة، لم يالفهما من قبل، في ذلك المناخ المنفتح، الذي لا يبالي أن يقول الانسان ما يشاء ويكتب ما يشاء، ولما عاد الى مصر أراد أن يقوم بذلك الدور في الأدب العربي، فاخرج للناس كتابه الشهير الذي زعم فيه ان الشعر الجاهلي كله منتحل، وضعه الروّاة بعد الأسلام، وان الشعراء الجاهليين، لا وجود لهم في الحقيقة، وانهم من صنع خيال الروّاه.

بهذه الروح ايضا أقدم العميد على دراسة المتنبي. أقتحم حضرة الشاعر العبقري، بنفور يقترب من البغضاء، ونيّة مبيّته على الغض من شانه والنيل منه، أذكاءً للجدل، وأغاظةً للناس. وأي نَيْل أبلغ من التشكيك في عروبة شاعر ترى الغالبيه انه شاعر العربيّة الأول؟ يقول العميد، وهو جادٌ كالهازل، ومُعرِضٌ كالقابل ومقرِّر كالسائل:

«فما الذي يمنعنا أن نصدّق المتنبي، ونرى معه انه كان عربيًا قحطانيًا؟ لا شيء الاّ انه لم يحفظ نسبه، ولم يحفظه له المؤرّخون، فامره في ذلك أمر الكثرة التي لا تحصى بين العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا انسابهم. أفنجحد عربيتهم لانهم أضاعوا هذه الانساب؟ وما يمنعنا أذاً ان نجحد أنسانيّة الناس لأنهم لم يحفظوا أنسابهم الى الانسان الأول؟ أو الى الناس الاولين؟.. وأذاً فلْنقبلْ من المتنبي ومن أصدقائه أنتسابه الى العرب..».

الاّ أن هذا العبث من الدكتور العميد، لم ينزل برداً وسلاماً على قلب أستاذنا محمود محمد شاكر، أطال الله عمره، فهو مُحبٌ لأبي الطيب لا يحتمل فيه المزاح، فقال وهو يعني العميد:

«... زهو بغيض، وخُيلاء نابيه، وعُجْب لا يرحم بانساً رماد حب القراءه في تنور، وقوده من زمهرير ثرثرة قاسية.. فهو دائما يحب أن «يغيظ» القرّاء، وأن يثير «سخطهم»، وأن يعاند نفسه ويعاند الناس. سلسلة طويلة مكرّرة من الأستعلاء والاستخفاف..».

ربّما يكون للأستاذ محمود بعض العذر، وما أحب الاّ أنه هو المعنيّ بقول العميد «وأذاً فلنقبل من المتنبي ومن (أصدقائه) أنتسابه الى العرب». لقد أصدر الأستاذ محمود كتابه عن المتنبي في يناير عام ١٩٣٦، أي قبل اكثر من عام من صدور كتاب الدكتور طه حسين، وبذل فيه جهداً عظيماً، وطرح فيه نظريّة طريفة دعمها بكثير من الحجج القويّة، ان المتنبي «شريف علوي». والكتاب من أقيم ما كُتب عن المتنبي الى اليوم. ثم أذاً بالعميد، لا يكتفي بانكار «علويّة»، الاّ لأنه هو زعم ذلك لنفسه، واكراماً لخاطر أصدقائه!

كذلك تجاهل العميد كتاب، الأستاذ محمود، فلم يُشر اليه الاّ تلميحاً في كتابه، بينما اشار الى كتاب الدكتور عزام عدة مرات، واشار كثيراً الى كتاب المستشرق الفرنسي «بلاشير» يتفق معه في أغلب الأحيان. وكانه أستصغره وأستقلّ شانه، فقد كان الأستاذ محمود يومئذ، حدثاً في العشرينات من عمره.

يصف الأستاذ محمود لقاءه للعميد، بعد محاضرة له بمناسبة الذكرى الألفيه للمتنبي، وكان ذلك عام ١٩٣٦، فيقول:

«.. وخرجنا من القاعة.. وأذا نحن فجاة خلف الدكتور طه، حين أنصرافه. فعزم عليّ أستاذي العبّادي أن أسلم على الدكتور. فاستَعْلَن غضبي وأبيت. ولكن لم اكد حتى سمعته يقول للعبادي «هذا محمود شاكر يا دكتور». فوقف والتفت التفاتة يسيره، ومددت يدي فسلمت وغلبني الحياء والخجل مما لقيني من فرط البشاشة والحفاوة، ثم أخبرني أنه قرا كتابي كله، وجاء بثناء لم اكن اتوقعه، وأطال وأفاض وغمرني ثناؤه حتى ساخت بي الارض».

أغلب الظن اذاً، أن الدكتور العميد، كان يتوجّه بحديثه الى الاستاذ محمود محمد شاكر خاصة، وكانه يتعمد أغاظته، وهو يعلم أنه سوف يغتاظ حين يقول:

«ليكن المتنبي عربياً من قحطان أو عدنان، أو ليكن فارسيًا، او ليكن نبطياً، او ليكن ما شئت، فالأمر الذي لا شك فيه هو أن هذا الصبي الذي نراه متى ما أخذنا في قراءة ديوانه، نبات شعبي خالص، نشأ في هذا الشعب الكوفي، الذي كان في أوائل القرن الرابع مضطرباً أشدّ الأضطراب. فدرس هذه البيئة الشعبية الكوفية التي أنبتت هذا النبات الشاذ، أقوم وأجدى من البحث عن أبيه أكان من جعفى، وعن أمه أكانت من همدان».

مرحى مرحى! ولاحظ أن العميد يصف الشاعر بانه «نبات شعبي خالص» بلهجة من يقول بالبلدي المصري «فلان صعلوك من أزقة حي السيدة زينب وحواريها». ويقول أنه «نبات شاذ». ولو انصف، رحمه الله لسمى هذا الشذوذ عبقريّة ■

للبحث صلة



بقلم الطيب صالح

لانّ الدكتور العميد رحمه الله، أحبّ أبا العلاء المعري، فانه أقبل على دراسته بمحبة، فانحاز الى صفة تماما، والتمس له الاعذار في مواطن الشك، واقبل على شعره حال من يفترض النبوغ والعبقرية. لاجل ذلك، والحق يقال، جاء كتابه عن أبي العلاء، كتابا بديعا، مترعا حكمة وفطنة. يقول في مقدمة الكتاب مبينا مذهبه في البحث:.

•ومن هنا لا نستبيح لانفسنا ان نحمد الاشخاص او نذمهم بحُسْن ما يُنسب اليهم من الاثار او قُبْحه، فانِ الذم والحمد مع قلّة غنائهما في التاريخ، ليسا من عمل المؤرخ، بل من عمل الرَجل الذي قصر حياته في صناعة المدح والهجاء، بل ان مذهبنا في التاريخ يمنعنا من ذلك، ويُحرِمه علينا، فانّا لا نؤمن بانفراد الاشخاص ولا استقلالهم بالاعمال. واذا لم ينفردوا بها ولم يستبدوا بالتاثير فيها، كان من الواضح انهم ليسوا أحرياء بما يسدى اليهم من حمد أو هجاء...»

كتب الدكتور هذا الكلام عام ١٩١٤، الاّ أنه حين جلس يكتب عن المتنبي عام ١٩٣٦، كانّه نسي ما قال بالأمس، او كانّه اغفله متعمداً، فقال في كتابه عن المتنبي، مقارنا بينه وبين أبي العلاء، في فقرة عجيبة، لعلّها تكشف لنا عن طويّة نفس العميد في تلك الايام، اكثر مما تخبرنا عن المتنبي:.

•وقد جاء بعد المتنبي رجل أخر، رفع نفسه عن الدنيا وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة، واحتقر الناس وازدراهم، وأنكر الملوك والامراء، وزهد في التقرب منهم، واراد لنفسه ان تكون نفس الرجل الحر الكريم، ولعقله ان يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف، فوفى لنفسه وعقله بكل ما اراد. ولم يكن أقل شاعرية من المتنبي، ولم تُسعده الايام كما أسعدت المتنبي، فقد حرمته بصره، ولم تُتح له من الغنى والثروة ما يكفل له لين الحياة وخفض العيش. ومع ذلك فقد عاش كريماً ومات كريما، ولم يتملّق احد عليه بذلّة، ولم يغتمز فيه احد هفوة. سخر من الزمان ولم يسخر منه الزمان، واستطال على السلطان وعجز السلطان ان يستطيل عليه، وعاد من بغداد يشترط على اهل قريته ان يخلّوا بينه وبين حريته، والا يشركوه فيما يعرض لهم من خير او شر، والا.. يخرجوه معهم ان خرجوا من المدينة فارين امام الروم، وان يقيموا في المدينة ان أمنوا ويظعنوا عنها ان خافوا، ويتركوه فيها على كل حال، لانه رفع نفسه فوق الامن والخوف جميعا. وما ارى الاّ انك قد عرفت هذا الرجل الذي اتحدث عنه، وهو ابو العلاء المعرّي».

بلى يا سيدي، لقد عرفناه. وقد أبدعتَ وانصفْت، فهذه تحفة فنية من التحف التي تعودناها منك، واكبرناك لاجلها. ونحن نشاركك الرأي في كل ما اثنيت به على أبي العلاء. ولكن العميد، غفر الله له، لا يشاركنا اعجابنا بأبي الطيب، فهو سرعان ما يخلص الى القول:.

•والذي أريد أن أصل اليه من هذا الحديث الطويل، هو ان المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه. وما أكثر ما يخدع الناس عن انفسهم، ولكن الغريب ان المتنبي لم يخدع نفسه وحدها، وانما خدع معها كثيراً جداً من الناس، فظنّوا به الفلسفة وليس هو من الفلسفة في شيء، وظنّوا به الحرية والكرامة واباء الضيم، وليس هو من هذا كله في شيء وانما هو رجل من أهل زمانه لم يمتز منهم باخلاقه، وانما امتاز منهم بلسانه، كما كان يمتاز غيره من الكتّاب والشعراء».

اللهم ان مراكب البغضاء قد أبحرت بك بعيدا عن سواحل الانصاف. هل أبو الطيب المتنبي «بكر الزمان وفلتة الدهور» لا يمتاز عن اهل زمانه من الكتاب والشعراء؟ وهل ابو العلاء المعرّي - وهو على الرأس والعين - لا يقل شاعرية عن ابي الطيب؟ ان اول من ينكر عليك هذا القول، هو أبو العلاء نفسه. كذلك بوسع الانسان ان يسال:. أي الامرين أجدر بالمفكر والاديب والشاعر؟ ان يلقي بنفسه في غمار الحياة بخيرها وشرها، وعسلها وصابها، وهديها واباطيلها، ونبلها وخستها، كما فعل ابو الطيب، وكما فعل الدكتور العميد نفسه، ثم يخرج من كل هذا بمعان سامية تضيء في دياجير العصور؟ هل هذا ام ان يجنح الى السلامة ويلوذ بصخرة تعصمه من الغرق كما فعل ابو العلاء؟ والمتنبي مات أخر الامر، كما يحب بعض الناس ان يموت الشاعر، قتيلاً على مذبح القوافي، اذ مات ابو العلاء على فراشه في المعرّة، لذلك نحن نعرف أين ثوى ابو العلاء، لكننا لا نعرف مثوىً لابي الطيب غير هذا الشعر الفريد. ويا له من شاعر تناثر اشلاء في حنايا القصائد، وحملته القوافي في حواصلها، كحواصل الطير، من زمان الى زمان، ومن مكان الى مكان.

ولو شاء العميد غفر الله له، لسال نفسه، كم من المفكرين والفنانين والشعراء، في تراث العرب وفي تراث غيرهم من الامم، ارتفعت حياة الواحد منهم، الى مستوى المثل العليا، التي عبرَ عنها في فكره او في فنه؟ وهذا ابو تمام، الذي قال العميد أنه يحبه ويؤثره، تقلبت به الاحوال ليس أقل مما تقلبت بابي الطيب. وهذا أبو نواس، حين نسمع حديث الرواة عن حياته نقول «تعسا وترحا وحين ننظر الى فنه نقول لله دره». وفي الادب الفرنسي، والعميد به عليم، أمة من هؤلاء، نذكر منهم الشاعر «بودلير» الذي نبت شعره الرائع من أوحال الحياة وأوضارها. والرسام النابغة «جاك لوي دافيد» الذي يصلح ان يضرب به المثل على محنة الفنان بين نوازع الفن وبين تباريح الحياة.

لا يا رحمك الله، أنك لعمري لم تُنْصف، وقد كان يجدر بك الانصاف، فما الذي دفعك الى ذلك، وماذا اردتَ من وراء ذلك، وانت ولا شك تعرف منزلة أبي الطيب عند صفيك أبي العلاء. قال ابو العلاء مدافعا عن المتنبي، في رسالة الغفران:.

•وما زال(١) (الناس) يقولون، ويقصرون عن المكْرمة فلا يطولون، وانهم عما اثّل(٢) متثاقلون، وطلاب الادب في جباله واقلون(٣). من انفرد بفضيلة اثيرة، فانه يتقدم بمناقب كثيرة. وان حسّاد البارع، لكما قال الفرزدق:-

فانْ تَهْجُ آل الزْبرَقانِ فانّما
هجوتَ الطوّال(٤) الشمَ من آل يَذْبُلِ

---

١) الكلمة في الاصل كلمة قاسية، ابدلتُها اجلالا لذكرى العميد، الذي نعدّه رغم اي شيء، من عظماء الرجال في هذا العصر.
٢) أثل، اي بنى وشيد.
٣) واقلون، أي صاعدون.
٤) الطوال الشم، أي الجبال العالية، ويذْبل اسم جبل.

للبحث صلة



بقلم الطيب صالح

لماذا أبغض الدكتور طه حسين أبا الطيب المتنبي؟

كتب العميد عن أبي العلاء بنحو ثلاثة عشر عاما قبل ان يكتب عن أبي الطيب، وكانت بينه وبين أبي العلاء وجوه شبه ووشائج لا تخفى، فاحبه لاجل ذلك كله، وأمعن في محبته. يقول، وهو يعني أبا العلاء:.

«أليس هذا الرجل خليقاً بالاشفاق عليه والاعجاب به؟ بلى. وهو خليق بان نحبه ونؤثره بالود، وبان نزوره في هذا السجن الذي اتخذه لنفسه، ونقيم معه يوماً أو أياما لنرى كيف كان يعيش فيه، لا عيشته المادية، بل عيشته العقلية الشاعرة المفكرة...»

(الاشفاق) كان عنصراً مهمًا في محبة الدكتور العميد لأبي العلاء، فقد كانا كلاهما كما قال أبو العلاء في اخر «رسالة الغفران» وكما قال العميد في نهاية كتابه عن أبي الطيب مردداً قول أبي العلاء «مستطيعاً بغيره». لكنه لم يجد عند أبي الطيب شيئا يدعو الى الاشفاق. ولو تمعن اكثر، لراى أن ابا الطيب ايضا كان جديراً بالشفقة والعطف والرثاء، ولكن بمعنى مختلف تماماً عن أبي العلاء.

كان أبو الطيب يحيك في صدر الدكتور العميد منذ ذلك العهد، وهو يكتب عن أبي العلاء، ولا جرم، فانت لا تستطيع ان تكتب عن المعري دون ان تتذكر المتنبي، قال العميد في كتابه عن أبي العلاء:.

«مع أن أبا العلاء كان مقلداً لأبي الطيب مفتوناً به حتى لنستطيع ان نعده تلميذاً من تلاميذه، مع هذا كله فما أعظم الفرق بين الرجلين لا في حياتهما العملية وحدها، بل في حياتهما العقلية ايضا. كان أبو الطيب عبداً لشهواته بشرط الاّ نفهم من هذه الشهوات شهوات اللذة والفسوق ونعيم الحياه، وإنما نفهم منها شهوات أخرى ممتازة بعض الشيء(!!) شهوات الثروة والغنى والاستعلاء على الناس. انفق حياته كلها في إرضاء هذه الشهوات، واحتمل في سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق. ذاق مرارة البؤس واحتمل ذل السؤال، وباع شعره في سوق الكساد، ومدح من كان يحتقرهم اشد الاحتقار، وتملق من كان يزدريهم اقبح الازدراء، ودفع الى المخاطرة والمغامرة، وانتهى الى السجن وتعرض للموت، وباع نفسه وحريته وكرامته للملوك والامراء. وتبدل رأيا برأي، ومذهبا بمذهب. وذل للفرس بعد ان كان لهم عدواً وبهم مغريا وعليهم محرضاً. وما زال يتقلب في هذا الفساد السياسي والخلقي حتى تلقاه الموت في بعض الصحراء فأراحه وأراح منه(!!).

الى هذا الحد بلغت كراهية الدكتور العميد لأبي الطيب. كرهه لأنه رأى فيه جوانب من نفسه. وكرهه لانه افتقد فيه جوانب ظن انها عنده. وكرهه لكل الاسباب التي أحب من أجلها أبا العلاء المعري.

كان أبو العلاء ضريراً، اذ كان أبو الطيب حديد البصر. وكان أبو العلاء قعيد داره اذ كان أبو الطيب جواب افاق مقتحماً لجج الحياة بخيرها وشرها. وكان أبو العلاء يعيش على العدس والتين، اذ كان أبو الطيب في بحبوحة، يملك ما يملك. وكان أبو العلاء هيناً متواضعاً اذ كان أبو الطيب شرساً أخا غضبات ونفرات. وكان صوت أبي العلاء في شعره هادئا رقيقا مثل «سجع الحمام» اذ كان صوت أبي الطيب صاخبا مجلجلاً مثل كتيبة مغيرة.

غفر الله للعميد لئن كان المتنبي، كما زعم «قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه» فان الأيام سوف تكشف له، انه هو ايضا تاه عن حقيقة نفسه، كما طوحت به أمواجها بعد ذلك التاريخ، عام ١٩١٤، حين كتب ما كتب. سوف يغرق وشيكا في بحر الدنيا بخيرها وشرها. سوف يتراجع عن ارائه التي أهاجت عليه الناس. سوف يمالىء الجمهور بكتابه «على هامش السيرة» وكتابه «الوعد الحق». سوف يدخل معترك السياسة فيمدح ويذم، ويجادل ويخاصم. سوف يصبح عميداً ورئيساً في الجامعة، وسوف يصير وزيراً في الحكومة. سوف يقبل رتبة الباشوية من الملك، ثم حين تقوم الثورة على الملك، سوف ينحاز اليها، ويكون هو الذي يسميها «ثورة».

وأبو العلاء يا رحمك الله. هل عوفي ابو العلاء حقًا من اشواق الحياة واغراءات المجد؟ ألم تلحظ حتى في «اللزوميات» وراء غشاء هجاء الحياة وذمها جراثيم المرض لم تزل تتفتق من حين الى حين؟ اما رايت حنين المعري الى عالم اللذة والحس حين قال: .

أين امرؤ القيس والعذارى
اذ مال من تحته الغبيطُ
له كُمَيتان، ذاتُ كأس
تُزبدُ والسابحُ الرَّبيطُ

ان المعري يومىء هنا، كما لم يغبْ عن فطنتك، الى أبيات لامرىء القيس، هي من اكثر الشعر العربي اقبالا على المتعة واحتفاء باللذة: .

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
عقرتَ بعيري يا امرأ القيْس فأنْزلِ

ثمّ قوله: .

كأني لم أركبْ جواداً بلذة
ولم اتبطّنْ كاعباً ذاتَ خلْخالِ
ولم أسْبأ الزِّقَّ الرويَّ ولم اقلْ
لخيلي كُرّي كرّةً بعد اجْفالِ

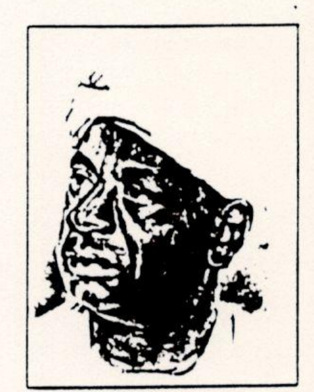
ولك ان تتخيل أبا العلاء الضرير، رحمه الله، ملازماً داره في المعرة، ينكر الدنيا ويهجوها، والدنيا له بمرصد.

وكيف هو والمجد؟ هل حقا انه عافه وداوى نفسه من اغراءاته؟ لماذا لم يصمت اذا؟ لماذا ألف الكتب ونظم الشعر؟ اليس ذلك من أجل ان يذيع صيته ويشتهر؟ وقصارى الزهد، كما قال العابدون، ان يدفن المرء نفسه في أرض الخمول والنسيان، حتى اذا غاب لم يفتقد، واذا حضر لم يحس بوجوده، واذا تكلم لم يلتفت الى قوله.

ما هكذا فعل ابو العلاء. لقد مكث يغالب الدنيا وتغالبه. وكذلك حال أبي الطيب، الاّ انه كان يكتفي بالبيت والبيتين، اذ كان يلزم أبا العلاء، العشرة والمائة. وكذلك كان العميد. ونحن نحمد الله ان الامر صار كما أراد الله له ان يصير. اذاً لافتقدنا هذا الارث الجليل. وهو الاهم، وهو الذي يعنينا أخر الليالي ■

للبحث صلة

نحو أفق بعيد ١١٨



بقلم الطيب صالح

فليتحامل الدكتور طه حسين على (شخص) أبي الطيب المتنبي ما شاء، وليبغضه كيف أراد. الناس أحرار آخر الامر في أن يحبوا ويكرهوا. سوف نقبل منه كل ذلك، وإن كنا نعجب، كيف يكره الانسان بهذه الحدة، رجلاً توفاه الله منذ اكثر من ألف عام، ولم يتفق الرواة على أحداث حياته، وكثير منها غامض يحتاج الى مزيد من البحث والتدقيق؟ كيف تكره، وتغلو في كراهية رجل كهذا، وكأنه يعيش اليوم بين ظهرانينا، ويؤذينا بسلوكه وأفعاله؟

أنما الذي يدعو الى العجب حقاً، هو تحامل الدكتور العميد على (شعر) أبي الطيب. هل نبوغ أبي الطيب وتفرده، واذا شئت قلت عبقريته، هل هذا في حاجة الى برهان؟ هذا شاعر كما قال القدماء «قد ملأ الدنيا وشغل الناس» لقد فعل الاعاجيب في لغة العرب، ودفع المعاني الى أقصى حدود تحملها، وجاء منذ اكثر من الف عام بأقوال لم تزل جديدة طريفة الى يومنا هذا، حتى لكأنه شاعر من زماننا وعصرنا شاعر له، كما قال الثعالبي «نوادر لم تأت في شعر غيره، وهي مما تخرق العقول».

وقال فيه ابن الاثير، الذي لم يكن مشغوفاً بحبه: .

«وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء..».

وما أجمل ما قال الشيخ عبد الرحمن البرقوقي رحمه الله، في مقدمة شرحه لديوان المتنبي:.

«وشأن المتنبي كالشأن في نوابغ الدنيا. فالشاعر النابغة لا يمهر بارادته، ولا ينبغ بأن يخلق في نفسه مادة ليست فيها، وأنما هو يولد مهيأ بقوى لا تكون الا فيه وفي أمثاله، وهو زائد بها على غيره ممن لم يرزق النبوغ، كما يزيد الجوهر على الحجر أو الفولاذ على الحديد أو الذهب على النحاس...

«... فكثيراً ما يقرأ النابغة كلاماً لغيره أو يتأمل خاطراً أو يشهد أمراً. فاذا كل ذلك قد أوحى اليه وانعكس على مرآة ذهنه بمعان مبتكرة طريفة لا تشبه ما كان بسبيله وجها من الشبه. لا قريباً ولا بعيداً، وليس فيها الا أنها جاءت من ذلك الطريق، وهو بعد لم يتعمل لها ولم يتكلف ولم يصنع شيئا، وانما هي تلقى من ذهنه وتلقى ذهنه من قوة لا يدري ما هي ولا أين هي...

«... ومن هنا ترى المتنبي يأتي أحياناً بالتعقيد المستكره واللفظ المتكلف وتراه يتعسف ويتخبط ويسف، ومع ذلك لا ينفي مثل هذا من شعره ولا يحذفه، وهو قادر على أن يغني عنه وليس في حاجة إليه، ولكنه بعض طريقته التي انطبع عليها، فلا يستطيع حين يجيئه الرديء ان يجعله جيدا، وليس الا أن يأخذه كما هو، لأنه هو الذي انبثق له عن الجيد، كما تضرم النار من مادة، فاذا هي شعل ودخان، ثم تضرمها من مادة أخرى فاذا هي لهب صاف يتألق. ولو أنك أردتها من المادة الاولى كما تجيء من الثانية لأطفأتها وذهب نارها ودخانها معاً...

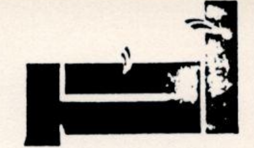
«... وهذا سر لم ينتبه اليه أحد ممن كتبوا عن المتنبي، فاشدد عليه، وادرس المتنبي على هذه الطريقة، فستجده نابغة في جيده ورديئه، وستجده لا يستطيع غير المستطاع، وستجد طريقته كأنما فرضت عليه فرضاً، لأنه كذلك ألهم، وعلى ذلك ركب طبعه، وكان ظلامه ظلاماً لتسطع فيه النجوم».

حقاً ما أجمل وأعمق هذا المعنى الذي وصل اليه شيخنا عبد الرحمن البرقوقي، وهو معنى ما كان ليتأتى له، لولا أنه نظر الى حياة الشاعر وفنه بعين المحب، ففتحت له المحبة، أبواب البصيرة، كما تفعل دائما، أما أستاذنا الدكتور طه حسين، غفر الله له، قد نظر نظرة أخرى. وذلك كما قلت أمر يدعو الى الدهشة. فالعميد لم يكن كأحد من الناس، يرسل الكلام على عواهنه، ويجعل عاطفته مطية لعقله، بل كان عالماً جليلاً يعتد برأيه ويحسب حسابه. فلماذا كتب هكذا، بقلة اكتراث تقرب من الاستهتار عن شاعر يحتل في تراث العرب مكانة مثل ما لشيكسبير عند الانجليز، وفكتور هوقو عند الفرنسيين؟ والكتاب قد يعده بعض الناس، هفوة من هفواته، ان لم نقل سقطة من سقطاته. ولا يشفع له، أنه جاء في نهاية الكتاب، فقال معتذراً، وكأنه يتنصل من كل ما كتب، وكأنه يعفي نفسه من مسؤولية ما كتب، امعاناً في البلبلة والسخرية :.

«واذاً فما أقل ما نظفر به حين نخصص لحظات من حياتنا للحظات من حياة شاعر او اديب. واذاً فما أعرضه عليك في هذا الكتاب ليس حياة المتنبي كما كانت، ولا هو حياة المتنبي كما اعتقد أنها كانت، وأنما هو حياة المتنبي. أستغفر الله. بل لحظات من حياة المتنبي كما تصورتها في اثناء شهر ونصف شهر من الصيف الماضي. ومن المحقق أني كنت أرى في المتنبي قبل املاء هذا الكتاب، آراء عدلت عنها اثناء الاملاء. ومن يدري لعلي أرى في المتنبي غداً أو بعد غد أو اليوم آراء غير ما أثبته في هذا الكتاب. انما نحن عبيد للحظات لا نملكها ولا نستطيع تصريفها ولا دعاءها ولا ردها حين تقبل علينا. وهي تقبل علينا بشيء كثير لا نحصيه، ولما تقبل علينا به آثار لا تحصى في تهيئة مزاجنا للفهم والحكم وللتأثر والتأثير».

هكذا أراد العميد، رحمه الله، أن يغلق المشارع كلها من حيث قد يجيئه الهجوم. ولك ان تبتسم أو تضحك أو تغتاظ. فذلكم العميد. وكل ذلك من قبيل «الدلال» الذي ألفناه منه. لكننا سوف نفترض أن الكتاب يعبر عن رأيه في حياة أبي الطيب وفي شعره. وسوف نحاوره ونناظره بناء على هذا الافتراض، فانه لم يكن ليقضي شهراً ونصف شهر من حياته، مشغولا بدراسة أبي الطيب كما قال «عن لذة الحياة في فرنسا بين هذه الربى الجميلة وفي هذا الجو الحلو» - لم يكن ليفعل ذلك عبثاً ولهواً. ونحن نجل العميد عن العبث، ونجل أبا الطيب أن يكون هدفاً لعبث العميد!■

للبحث صلة





بقلم الطيب صالح

يظنُّ أهل السودان أن عربيتهم الدارجة، هي من أفصح اللهجات العربية. ويمضي أبعد من ذلك العالم الحجة الدكتور عبد الله الطيب، صاحب كتاب «المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها» فيقول أن العربية الدارجة في السودان، هي أفصح اللهجات العربية اطلاقاً. الله أعلم. والحق انَّ من قلة بخت عرب السودان، اولا اسم دولتهم، وثانيا ان عروبتهم كما تجري على السنتهم، أفصح أحياناً مما ينبىء به سمتهم وسحنتهم.

وقد وجدت في الشعر الجاهلي، ثم في عامة الشعر العربي، خاصة عند المتنبي وأبي العلاء، كلمات كثيرة تستعمل في لغتنا الدارجة، وبعضها لا يوجد الأ في السودان، وكنت اظنها محرفة أو دخيلة على اللغة العربية، فاذا بها كلمات فصيحة. المتنبي مثلاً يستعمل كلمة (غلتّ) بمعنى (غلط)، واكثر اهل السودان يقولون (غلتْ) بالتاء. وفي لسان العرب ان (غلت) و(غلط) بمعنى واحد. ويستعمل (توراب)، واهل السودان يقولون (تيراب) للبذور التي تدفن في الارض، كالقمح والذرة وغيرها. وفي المعجم ان (توراب) او (تيراب) هي الارض أو ما يدفن فيها.

هذا، وقد ذكر الدكتور احسان عبّاس في كتابه «تاريخ النقد الادبي عند العرب» في الفصل عن أراء النقّاد القدماء في شعر المتنبي، وهو كتاب جم الفائدة، ان الصاحب بن عبّاد عاب على المتنبي استخدامه الكلمات الحوشية الغريبة مثل (توراب) غفر الله له. انه لم يزلْ يتتبع الماخذ على المتنبي، ولو انه عاش في السودان، لوجد ان الكلمة شائعة تجري على السنة عامة الناس. كذلك عاب عليه استعمال (جبرينْ) بالنون، بدل (جبريل) باللام، وقال «وقلبَ هذه اللام الى النون أبغض من وجه المنون». وعامة أهل السودان، يقولون (جبرين) و(اسماعين).

ذاك، وقد قال المتنبي يصف الخيل: .

العارفين بها كما عرفتهم

والراكبين جدودُهم أمّاتها.

ونحن نقول (أمّات) ولا نقول (أمّهات). وقد قال الشاعر السوداني: .

يا طير انْ مشيتْ سلِّم على الأمّات

وقولْ ليهنْ وليذكرْ في الحياه وما ماتْ

حتّى التصغير الذي كان المتنبي مولعاً به، وعابوه عليه، مأنور عندنا، نقول (وليد) و(زويل) و(بنيّه) و(مريه). ولقد كاد ابن القارح يصيبه الخبل من قول المتنبي : .

أذم الى هذا الزمان أهيله،

حتى صبّ أبو العلاء، رحمه الله، الماء على نيران غضبه، فقال له: .

«كان الرجل مولعاً بالتصغير لا يقنع من ذلك بخلسة المغير، ولا ملامة عليه، انما هي عادة صارت كالطبع، فما حسن بها، مالوف الربع..»

وكان شاعر السودان الفحل، محمد أحمد عوض الكريم أبو سن الملقب بالحردلو (١٨٣٠ - ١٩١٦) أيضاً مغرماً بالتصغير، في مثل قوله يصف انْ وعل الخلباء تركها في مكان وذهب يستكشف، ثم عاد اليها: .

جاهنْ منقلباً وقتاً عصير وشفافْ

وكاسبْ ليله بيهنْ من صديفْ ما نْخافْ

ديلْ الضُّبعهن دايم الأبدْ عيّافْ

وفي (نايط السروج) لقينْ بقيلْ حافْ

كل هذا، كلام عربي فصيح اذا تاملته، وانت ترى انّه صغّر (عصر) الى عصير، و(بقْل) الى بقيل. و(نايط السروج) اسم موضع، والصَّدف، بفتح الصاد والدال، هو ما يصادفك مما تكره، وخاصة بالليل. وانظر كيف صور الشاعر ذكر الخلباء (التيس) كأنه قائد عسكري مقدام لا يهاب المخاطر، سرى بالقطيع ليلاً، حتى أوصله الى حيث يريد. فذلك قوله «كاسب ليله بيهن». ونحن نستخدم «الكسب» بمعنى النصر الحربي أيضا، كما قال الآخر يصف فتية محاربين : .

ديلْ جابو الكسب بين (كاجا) و(أم سريحه)

ويا ساتر من اليوم العفونته فضيحه

أي انهم عادوا منتصرين من تلك البلاد في الجنوب والغرب حيث شبت حروب بين اهلها وبين القبائل العربية في الزمان القديم.

والحردلو يصف الظباء بانهن (عُيّاف) والكلمة تحمل في جوفها معنى الحذر والكبرياء والعفة. فما اجمل ذلك. كانه ذو الرمة، وهو حقا اشبه الشعراء به.

وعندنا «الزول» بمثابة «الزَلمه» عند اهل الشام و«الريّال» عند اهل جزيرة العرب، يجعلون الجيم ياء، وهو فصيح، ونحن جيمنا قريبة من ذلك. وكلمة «زول» في المعجم، من معانيها الشخص اللطيف المهذّب. وقد وجدتها بهذا المعنى عند ابي العلاء. وذكر لي الدكتور عبد الله عبد الدايم، وهو عالم ثبت، ان «زول» هي احسن مرادف للكلمة الانجليزية Gentleman. فهل كل اهل السودان «أزوال»؟

والكلمة تُستخدم للمراة ايضاً، وقد قال الحردلُو يذكر انسانة جميلة الهته عن حضور العيد مع اخيه عبد الله، وكان شاعراً ايضاً:.

الزول السمحْ فاتْ الكُبارْ والقدْرهْ

كانْ شافوه ناس عبد الله كانو يعذْرو

السبب الحماني العيدْ هناك ما أحضره

درديقْ الشبيكةْ النزلوه فوق صدره.

و«الشَبيكة» حلْي متشابكة تُعلق على صدر الفتاة، وقد وجدتها بصفتها وباسمها هذا في متحف قطر الوطني الذي يديره العالم الشاعر الدكتور درويش الفار في الدوحة الميمونة الطالع.

و«حمى» بمعنى «منع» اكثر جرْيا على الالسنة عندنا من «منع»، وقد قال ابو العلاء:.

ترى العودَ منها باكيا فكانّه

فصيلٌ حماهُ الشُرْبَ ربُّ عيال

هذا في وصف مبلغ حنين الابل الى اوطانها. ويا سبحانَ الله، كيف ان اشقاءنا المصريين، وهم منّا على بعد ما تطير اليمامة، لا يصفون الفتاة بانها «سمحه» كما نفعل، بل يقولون «جميله» كان الله قسم لهم الجمال وقسم لنا السماحة!

وفي ديار غرب السودان، يقولون (ينْطي) بمعنى (يعطي) وهي كذلك في المعجم، ولم اجدها عند غيرهم. وقد قال ابو العلاء رحمه الله:.

لمنْ جيرةٌ سيموا النَّوال فلم يُنطوا

يظلّلهم ما ظلّ يُنْبته الخطُ

رجوتُ لهم ان يقربوا فتباعدوا

والأ يشطُوا بالمزار فقد شطُوا.

اي والله، لقد شطُوا يا أم عمرو، وهل بعدهم يطيب العيش؟■

(الحديث بقية)



بقلم الطيب صالح

أغلب الظن أن نار الطَّلح التي رأيتها بين خيالي من وراء أربعين عاماً وأكثر، وأنا حيث أنا في لندن، هي النار عينُها التي أوقدتْها صاحبة الحارث بن حلزه اليشكري: «هيهات منك الصَّلاء». الفصل صيف، والمساء بارد ممطر، كأنه من أماسي الشتاء. حينئذ ينزل الهم على القلب، وتمطو قوافل الذكرى بلا حادٍ ولا دليل. ما الذي ذكّرني بهذا البيت؟

الدنيا بتْهينَكْ والزمانْ يُوريكْ(١)
وقلْ المالْ يفرقكْ من بناتْ واديكْ

وبدا لي، وانا على تلك الحال، ان البيت يصف أحسن وصف، ما وصل اليه السودان المسكين. لقد ذاق الهوان، وكشّر له وجه الزمان، وتشتّت أهله في البلاد. والعهود تقوم وتسقط والثورات تستعرُ وتخمد. آه. ما أجمل ما قال أخو بني حنيفة: -

الا هلْ الى شمِّ الخزامى ونظْرة
الى قرقرى قبلَ الممات سبيلُ؟

ثم ساقتْني كلمة «وادي» في بيت الشاعر السوداني الى تلك الارض عند منحنى النيل، وذلك لأن بلدنا من بعض اسمائه «الوادي»، اذ ان وادي «الملك» وفي رواية «الملح» يصب عندنا. وهو وادي عظيم يقصد النيل عبر مئات الاميال من سهول غرب السودان. وقد قال شاعرنا:-

(٢) «كَرْمَكُولْ» صيدكْ ماله فارْ ؟
يجري في «الوادي» بلا خبارْ
الصغار غالْباتْ الكبار

يقصد بـ«الصيد» الفتيات الحسان والنساء. وتلك عادة قديمة عند العرب، أن تُشبه المرأة بالظبي والبقر الوحشي. وهذه الأبيات تُغنّى على ايقاع آلة وترية عندنا تُسمى «الطنْبور»، وتُرقص لها رقصة «الدليب» التي فيها بعض سمات «الدبْكة» اللبنانية، وتكون في وسط حلقة الرقص فتاة تغطس مع اللحن وتطفو، وتروح وتجيء، وبين كلّ حين وحين، تلطم بشعرها المعطر، وجوه المصفقين.

وبعينيك أوقدتْ هندُ النارَ أصيلاً تلْوي بها العلْياءُ
فتنوّرتَ نارها من بعيد بخزازي هيهات منك الصِّلاءُ

هكذا جاءتني كلمات أغنية قديمة عن «نار الطلح» تذكرت بعضها ونسيت. وقلت اسأل عثمان عبد الله وقيع الله، الذي يقيم منّي غير بعيد، فهو بذلك عليم.

وعثمان هذا بعض الثروات المهملة في السودان الغني الفقير. انني لا أعرف كثيرين في مثل تعدّد مواهبه. فهو شاعر مجيد بالعامية والفصحى، وقد نقل رباعيات الخيام الى اللغة السودانية الدارجة، في ترجمة من أجمل ما رأيت. وكان من اوائل المبعوثين لدراسة الفنون الجميلة في لندن، جاءها عام ١٩٤٥، وعاد وعمل في كلية الفنون الجميلة في الخرطوم. ومن بين من درسوا على يديه الفنان الكبير العالمي الشهرة ابراهيم الصُلحي. الى جانب ذلك فهو بحق «أستاذ» في فن الخط العربي، وقد كتب بخط يده القرآن الكريم عدة مرات، في مخطوطات تعتبر تحفاً فنية. وكان من أوائل الفنانين العرب، ان لم يكن اولهم، الذي حول الحرف العربي الى مادة للرسم، ففجر ما فيه من طاقات جمالية كامنة، وصنع من ذلك فناً مدهشاً. ومن بعض فنه، اللوحات التي رسمها لديوان الشاعر السوداني الموهوب صلاح احمد ابراهيم، ديوانه «غابة الأبنوس» في طبعته الجديدة. تجد الرسوم والقصائد كأنها أنغام في سمفونية مكتملة،كلٌ منهما يُعطي الآخر ويأخذ منه.

ثم له صوت جميل في قراءة الشعر. وكان المرحوم محمد احمد محجوب رئيس وزراء السودان الاسبق، وهو أيضا من الشعراء الأفذاذ، كان ايام اقامته في لندن، بعد ان أسقطت حكومته «ثورة» مايو، يؤثره ولا يطيب له سماع شعره الا بصوت عثمان وقيع الله. كذلك له صوت عجيب في الغناء والدوبيت، يحفظ كمّاً هائلا منه. وكان قبل ان يوغل في طريق العبادة والزهد، ويقطع كل صلة له بحياته الماضية، يسخو علينا احيانا بغناء بعض الاغاني القديمة التي لا يعرفها كثيرون غيره.

إنه معتكف في لندن منذ سنوات، يعيش حياة التقشف والكفاف، يصوم ويصلي ويتعبّد ويرسم ويكتب. وانا اعجب انه اختار لكفاحه الروحي، هذا البلد دون سائر بلاد الله، حيث القابض على دينه كالقابض على الجمر. انما هو كذلك. ورغم ان له شهرة اكيدة بين متذوّقي الفن ونقاده في لندن وفي اوروبا، فان عمله لم يجد بعد ما يستحقه من ذيوع وانتشار في العالم العربي.

سألته عن نار الطّلح، وكيف قال المغنّي عن المراة التي قامت منها وعرقها يتصبّب، فكأنني اثرت كوامن أشجانه، وذكّرته باشياء يريد ان ينساها، فأجابني بعد لأي: -

الطّبَقْ البُوخه
قام نداه يهتّفْ
نام من الدّوخه ■

للحديث بقية

---

١) في المعجم «ورّيْته وأوْرأته اذا أعلمته.

٢) «كرْمكول» اسم حي من أحياء بلدنا، وفار من يفور أي يغلي وهي فصيحة.

نحو أفق بعيد

١٢١



بقلم الطيب صالح

أوقدتْ هندُ نار الطلح بالصندل واللبان، عند منحنى النيل بين «كرمكول» و«قنبابى» فتنورها الغريبُ النازح وراء تخوم بحر الروم. أوقدتها أيام «عدل الوقت» كما يقول الحردلو. كانت السواقي تدور، والضروع ملأى، والحقول مخضرة، والديار عامرة، والزمان يبتسم بوجه طفل.

الزمان عند الحردلو «أعوج» أو «عدل»: .

كم شُويَنْ لِهن وثِتاً عَدالْ أيامي
شيخ «الأتبراوي» وماشي فيهو كلامي،

ذلك لانه كان يسافر على جمله مسافات في طلب المحبوبة، وكان «شيخ عرب» على القبائل على طول نهر اتبرا - الأتبراوي، نافذ الكلمة. وكان في مقتبل العمر. وفي ظني ان كلمة «شَوْيَنْ» التي تعني الترحال في اثر المحبوبة مشتقة من «الشام». كان الواحد منهم اذا سافر الى الشام، كما كانوا يفعلون، يقولون انه «شَوْيَنْ». فكان السفر الى ديار الحبيبة عندهم، كالسفر الى بلاد الشام، غايته المن والسلوى. وقد قال ابو العلاء: .

يمانون احياناً شامون تارةً
يعالون عن غور العراق لينحطُوا

هذا، والزمان عند شكسبير اما «عليل» أو «معافى» وقد قال The time is out of joint، يعني ان الزمان عليل، أو مُختل. ولعل أدق ترجمة لعبارة out of joint هي كلمة «مملوخ» التي ستجيء في تلك الأغنية السودانية القديمة عن المرأة التي قامت من عند نار الطلح وعرقها يتصبب. وهي كلمة فصيحة كما سترى ان شاء الله.

ويقولون في أيامنا هذه أن الزمان «رديء»، وهي عبارة أظن أول من نطق بها الشاعر محمود درويش، ثم سار بها أبو عمار، وتلقفها الكتاب والشعراء والصحفيون، فاصبحوا يقولون كلهم ان الزمان «رديء». وهؤلاء ما يزالون يهيبون بالزمان أن يكون رديئاً حتى يصير رديئاً بالفعل. والكلمة من بعض معانيها «الردي» وذلك ألام مراحل مما أراد الحردلو او شيكسبير، اذ انك تقدر ان تعدل المعوج وتطلق الأسير وتشفي العليل ولكن ماذا بوسعك ان تصنع مع «الردي»؟ او كما قال ابو الطيب رحمه الله: .

هبيني أخذت الثار فيك من العدي
فكيف باخذ الثأر فيك من الحُمَّى؟

وقد رووا أن زياد بن أبي سفيان جلد رجلاً. وبعضهم ذهب الى انه ضرب عنقه لأنه سبَّ الزمان. وقال «لا تسبوا الزمان. الزمان هو السلطان». وهذا وجه لم ينتبه له حماة الدول في أيامنا هذه، فلم يعملوا قوانين لمحاسبة الناس على سب الزمان.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه معجباً بذكاء زياد، وكان يقول «لو كان هذا الفتى من قريش لساق العرب بعصاه».

جاء زياد - وكان شاباً في العشرين أو دون ذلك - الى عمر الأمين بانباء النصر في معركة القادسية، فقص عليه أخبار المعركة بحذافيرها بفصاحة وقوة عارضة. أذهلت عمر، وكان قلما يذهل، فقال له: .

«يا فتى. هل تصعد المنبر وتحدث الناس كما حدثتني، فان للمنابر رهبة؟».

فقال زياد «والله يا أمير المؤمنين ما على وجه الارض من هو اكثر رهبة عليَّ منك».

وصعد زياد المنبر في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصف المعركة وصفاً بليغاً هز مشاعر الناس. وكان أبو سفيان يجلس بجوار الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال له:

«هل أعجبك هذا الفتى؟»

فقال علي: «نعم»

فقال أبو سفيان «انه ابنُ عمك».

فقال علي «وكيف ذلك؟»

فقال أبو سفيان «أنا أبوه. قذفتُ به في رحم سُمية».

فقال علي «ولم لا تلحقه بنسبك؟».

فقال أبو سفيان «أخاف درة هذا الاعسر». يعني الخليفة عمر.

فيما بعد هو والحجاج حملا أوزاراً كثيرة في تأييد دولة بني أمية. ولا أعلم أن التاريخ سجل كلمات زياد عند موته، الا انهم رووا ان الحجاج كان يردد وهو يلفظ انفاسه الاخيرة: .

«اللهم اغفر لي وقد زعم أناسٌ أنك لن تفعل».

انما رحمة الله واسعة، ولعلها تشمل حتى زيادا والحجاج. وما أجمل هذا الدعاء الذي جاء في الأثر: .

«اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي».

ذلك وقد قال الشاعر الحكمي، اجاره الله من الموقف الصعب في ذلك المقام، ان صحت أقوال الرواة عنه: .

لا تحظرِ العفو ان كنت امرءاً حرجاً
فان حظركه في الدين إزراء

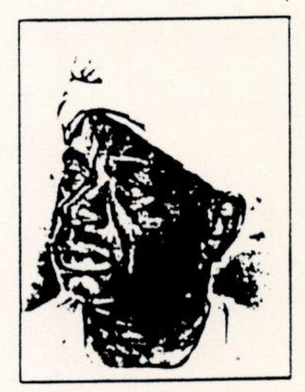
غفر الله له، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه، ما هطل السحاب، وما عنت للنازحين منازل الأحباب ■

«للحديث بقية»

أكثر ورقة

نحو أفق بعيد

١٢٢



بقلم الطيب صالح

ما أجمل ما تغني فيروز، فهي من بقايا خيرات الزمان المبارك، وصوتها كم بدد الظلمات لساري ليل:.

يوم جيت أنا لعندكم
قبل العشا بنتفه
ولقيتكم نايمين
وسيراجكم مطفي
مديت أيدي ع الهدى
لاقطف أنا قطفه
صاحيت بنت الكلم
«يمه يمه حرامية!»

هذه الطلاوة تجدها أيضا في كلمات الأغنية من ديارنا في شمال السودان، وما أبعد السودان، وما أقربه من لبنان:.

ود الأريل الضارب مقنه
جني الغزلان بكي وأماته جنه
الناس الكبار أصل أبيجنو
شوف العين علينا محجرنه
تقول لا كان صغار، لا الغي عارفنه

«ود الأريل»، كما يتضح في البيت الثاني في الأغنية السودانية، هو طفل الظبية، الطلى، يكنى به عن المحبوبة. والقن والمقن، فصيحة، تعني الخدر الذي يستر الظبية كما يستر الفتاة فلا يوصل اليها.

ذلك، وقد وجد زهير حين وقف على أطلال أم أوفى، أنها قد درست تماما، وأن الظباء قد استحوذت عليها:.

بها العينُ والآرامُ يمشين خلفةً
وأطلاؤها ينهضن من كل مجثمِ

ومثل ذلك وجد «الحردلو» في «قوز ود دياب»، مع الفارق:.

«قوز ود دياب» لسبع تراه بشياهه
بهما يطرد فرحان وعاجبه خلاه

وجد زهير الظباء بين «حومانة الدراج» و«المتثلم» هاجعة مطمئنة يطول ما تقادم بها العهد بالمكان، فاصبح ملكاً لها، فحركها مجيئه، فقمن من مراقدهن متثاقلات، كأنهن لا يعبأن به ولا بأحزانه. أما «قوز ود دياب»، فقد كان دائماً مرتعاً للظباء، فذلك قول الشاعر إنه ما يزال كما عهده عامراً بظبائه «بشياهه». ورماله قد تذكرك برمال الدهناء عند ذي الرمة:

ولا ميّ! إلاّ أن تـــزور بمشرفٍ
أو الزرق من أطلالهـا دمناً قـفر
تعـفت لتهتـال الشتـاء، وهوشت
بهـا نائجـاتُ الصيف شرقيةً كدْرا

مسكين. وما أروع قوله «لا مي». واخبروا أن «يهطل، ويهتل» بمعنى واحد، وذلك كما ترى مصدر قولنا «غلت» عوض «غلط».

وجد «الحردلو» الظباء في نشاط ومرح، تنط وتتسابق ويطرد بعضها بعضاً. فرحة دون سبب، او بسبب الفضاء الواسع حولها، واحساسها بالحرية الكاملة. وقوله «فرحان وعاجبه خلاه»، من شريف القول، فالظباء ايضا تعشق الحرية.

انما الظبي الحبيس في خدره في تلك الاغنية، بكى، فاسرعت امهاته اليه يسألنه، او يسألنها، عن سبب بكائها. والسبب لا يخفى، وهو نفسه السبب الذي جعل الفتى في الأغنية اللبنانية، يذهب متلصصا آخر الليل. لذلك تقول الاغنية السودانية، ان «الناس الكبار» - الآباء والامهات - لا توجد رحمة في قلوبهم، كأنهم لم يكونوا صغاراً في يوم من الايام، ولم يذوقوا عذاب الحب. والحب عندنا هو «الغي» من الغواية ولعله كذلك، ولكنها غواية قل ان يسلم منها أحد.

وعند أبي الطيب الخبر اليقين:.

وما شرقي بالماء إلاّ تذكراً
لماء به أهلُ الحبيب نزولُ
يحرّمُه لمعُ الأسنة فوقَه،
فليس لظمآن اليه وصولُ

وأين كل هذا من نار الطلح التي أوقدتها هند عند منحنى النيل؟

«للحديث بقية»

نحو أفق بعيد ١٢٣

بقلم الطيب صالح

حديثي عن نار الطلح التي أوقدتها هند عند منحنى النيل، اهتزت له مشاعر أخي العزيز الدكتور حسن أبشر الطيب وهو في مهجره في ديار عمان، فكتب الي من مسقط، حيث يعمل مستشاراً لوزير الخدمة المدنية، معالي الاخ احمد مكي، وعمان بلاد احفظ لاهلها مودة اكيدة، فقد كنت أزورها أيام عملي في الدوحة. والدوحة كانت لي وطناً كالوطن، وأهلوها اهلا كالاهل، والحديث عنها لم يحن ميعاده بعد. كنت كلما جئت عمان اجدها قد تغيرت الى الاحسن، وأخذت زينتها اكثر، وخطت الى الامام خطوات، وآخر عهدي بها كان منذ نحو ثلاث سنوات، حين زرتها بصحبة مدير عام منظمة اليونسكو. وأذكر تلك الأمسية التي قضيناها في ضيافة معالي الوزير أحمد مكي، في داره الجميلة المطلة على خليج رائق في البحر.

أما حسن أبشر الطيب فكيف أصفه؟ انسان نسيج وحده بحق وحقيق، يجمع الى الخلق الرفيع والتواضع الجم والطبع السمح، والعقل الراجح، علماً غزيراً وأدباً كثيراً. ورغم أنه ما يزال في مقتبل العمر - مد الله له في الأيام - فقد درج في عدد من المناصب الرفيعة في السودان، منها على سبيل المثال، انه كان وكيلاً لوزارة الخدمة المدنية والاصلاح الاداري، ومستشاراً ثقافياً في واشنجطن، ومديراً لاكاديمية العلوم الادارية في الخرطوم، ثم وزيراً. الى ذلك فهو أديب عميق الحس واسع الثقافة، صاحب أسلوب عذب ورشيق. وقد نهض من تلقاء ذاته باعباء يفترض ان تقوم بها الدولة في رعاية الأدباء والمبدعين، لا يدفعه الى ذلك شيء غير نبل طبعه وعمق احساسه بقيمة الثقافة في نهضة الأمم.

أسى حسن أبشر الطيب بصفة خاصة شاعر السودان الفذ، محمد المهدي المجذوب رحمه الله، وهون عليه صعوبات الحياة واغدق عليه من رعايته ومودته، واليه يرجع الفضل ان الشاعر أوى الى بيت يملكه، بعد ان قضى زهرة عمره في خدمة الدولة، يعيش عيشة الكفاف، يعالج الأرقام محاسباً ومراجعاً ومفتشاً ومراقباً للحسابات، وهو من هو. ولولا حسن أبشر الطيب لضاع اكثر شعر المجذوب، أو ظل مجهولاً لا يرى النور. هذا والثورات تهب وتهدأ، ثورة وراء ثورة، والعهود تعلو وتهبط عهد في اثر عهد.

جاء في رسالة الدكتور حسن:

«حديثك عن نار الطلح اثار كوامن اشجاني، وشدني الى أيام مترعات بالحسن، سابحات في بحار المحبة، معطرات بغمائم الطلح، وذكرت رائعة شيخنا الشاعر محمد المهدي مجذوب «غمائم الطلح»، التي تتجسد فيها مقدرته الفذة في توظيف الكلمات، وتفجير الدلالات الحسية والمعنوية فيها. فانت تراه يرسل نفسه على سجيتها، فيعكس ما في نفسه وما في نفسك، في نفس طويل، فيكسر بذلك كل الحواجز التي تجعلك تقف موقف المتلقي او القارىء. تجد نفسك في مركز الدائرة، تستنشق عطر غمائم الطلح التي لفت الحسناء.. حتى بدت كبدر الدجى.. المجذوب شاعر [illegible] باروع ما تحمل الكلمة من معان. فهو يصور لك ما راه وأحسه وما أجاله في خاطره حتى أصبح جزءا من نفسه. يغمرنا بهذه المشاعر والرؤى، فيزيد حظنا من الاحساس بالجمال ويضفي علينا بهجة ومرحاً. وأنت من قبل ومن بعد، تقرأ هذه القصيدة فتزداد خبرة بفوائد دخان الطلح.. فتأمل!».

نعم. ذلكم هو المجذوب. والدكتور حسن أعلم الناس به، فقد خبره طويلاً واستمع اليه ملياً، وعنده رسائله. وكان المجذوب محدثا بارع الحديث، ورسائله لا تقل جمالاً [illegible] شعره. ويا ليت الدكتور حسن يجد الوقت ليؤلف عنه [illegible] فيكون بذلك قد أسدى الينا من الجميل مثل ما أسدى [illegible] الشاعر في حياته.

هذا، وقصيدة «غمائم الطلح» من ديوان «نار المجاذيب» وقد نظمها الشاعر بتاريخ ١٩٤٤/٩/١، وهو حينئذ في أوائل العشرينات من عمره، لم تكن شاعريته قد اكتمل نضجها بعد، ورغم ذلك يجد القارىء في القصيدة، كل السمات التي تميز بها شعر المجذوب فيما بعد، كما يلمس ملامح مغامراته الجريئة مع اللغة والمعاني. وهي قصيدة طويلة سوف أجتزىء منها هذه الابيات، التي يصف فيها الشاعر «الشملة» التي تتغطى بها المرأة وهي تعبق جسد[illegible] بدخان الطلح:-

وشَمْلة غمرت ساقين وأنبَدرتْ
كالموج تلمس جيداً رفَّ مشهورا
يَرِقُّ تحت دُخان الطَّلح ساوره
كالدمع في الخدّ تَلْماحاً وتغويرا
ما شملةٌ لسواد اللّيل حلكتُها
وللهواجس تغشى الفكْرَ مخمورا
كالوحش جائمةٌ ثقلاً فهل حضنت
الاّ الجمالَ رقيقَ العطف منضورا
تُكتَم العطرَ حتّى يرتوي عرقاً
منها الجمالُ كروضٍ بات ممطورا
ترى الدُخانَ على أثنائها زبَداً
كالريش في نسمات الصبح مبهورا

الى أن يقول:-

تُزيّنُ الكونَ شَهْواناً وتُوسعهُ
في الروض والغيم إغراءً وتغريرا
يهتزُّ والأرضُ في أشجانِ دورتِها
لذائذ خلدت في الكون مقدورا
ورُبّ ذَرة رمْلٍ حين جَمّشَها
ريحٌ أهاج لديها الشوق مذرورا
وقد ذهلتْ ذهول الشرب ترمقهم
في الكأس جمرة كرم بات مسجورا
وبتُّ أجمعُها جَمْعاً وألزمها
فما تجمّعُ مثلَ الماء مفجورا

رحم الله المجذوب. كان كأنّ أبا العلاء قد لبس عباءة الحسن بن هانىء، أو كأنّ أبا الطيب قد غنّى بصوت بشار!

«للحديث بقية»

نحو أفق بعيد ١٢٤



بقلم الطيب صالح

في هذه المدينة الشهباء الجميلة (عمان) التي تسر العين ليلاً ونهاراً، اذ بعض المدن يعجبك بالليل، وبالنهار كأنها القذى في العين، فيها حي يسمى (عبدون). تراه عبدون الذي ذكره ابن المعتز في شعره؟ هل تعجب لبعد الشقة بين ضفاف دجلة وضفاف الأردن؟ لا عجب، فقد كانوا يذهبون بعيداً وراء قضاء الأوطار، وهذه الاماكن بين البحر والصحراء، وريح الشمال وريح الجنوب، كانت منتجعات محببة لخلفاء بني أمية، ثم ورثها الملوك من بني العباس. وابن المعتز كان ابن خليفة، بل صار خليفة ولو لفترة لا تكاد تعد في حساب الخلافة، فلعله ارتاد هذه المغاني، يلهو ويلعب:

سقى المطيرة ذات الظل والشجر
ودير عبدون هطّال من المطر
يا طالما نبهتنا للصبوح به
في هذاة الليل والعصفور لم يطر
أصوات رهبان دير في صلاتهم
سود المدارع نعارون بالسحر

غفر الله له. ما كان أحراه ان يقوم ويتوضأ ويستعد لصلاة الفجر! وقبله قال الشاعر الحكمي، وقد كان أطول باعاً في حلبة الشعر، وأبعد مهوى دلو في بئر الملذات:

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا
وأمله ديك الصباح صياحا
أوفى على شرف الجدار بسدفة
غرداً يصفق بالجناح جناحا
بادر صباحك بالصبوح ولا تكن
كمسوفين غدوا عليك شحاحا

ما أحسن الشعر، وما أقبح المعنى. ذاك هجع حتى نبهته أصوات الرهبان، أما هذا فقد ظل يقظان يترقب طلوع الفجر ليواصل الشرب.

افضل منهما الشاعر اليشكري البكري، فقد استعان على همه بالسفر:

غير اني قد أستعين على الهم اذا خف بالثوى النجاء
بزفوف كأنها هقلة أم رئال دوية سقفاء
الى ان يقول:
اتلهى بها الهواجر اذ كل ابن هم بلية عمياء

هذا في قصيدته المعلقة ذات المطلع البارع، إذ يبكي على اسماء التي يصف أنها أذنت بالفراق، وكانت قد فارقته بالفعل:

بعد عهد لها ببرقة شماء فأدنى ديارها الخلصاء
فالمحياة فالصفاح فأعناق فتاق فعاذب فالوفاء
فرياض القطا فأودية الشربب فالشعبتان فالأبلاء

لا أرى من عهدت فيها فأبكي اليوم دلهاً وما يرد البكاء؟

صدق. وهل تعرف نظيراً لهذه الـ «نستالجيا» التي تجدها في الشعر العربي؟ وما أجمل ترداد اسماء الاماكن هكذا كأنها ترانيم في طقوس قديمة. كذلك فعل الحردلو، الشاعر الشكري، وهو يصف مسيرة الظباء في رحلتها الموسمية من هضاب الحبشة واليها، وقد كان كلفاً بالظباء يشبههن بالنساء، وكلفاً بالنساء يمثلهن بالظباء:

مرقن من مطيبقات الخوي أب دنان
وهكعن فوق مطالق الوادي أبو ريحان
شافن في السمير زوله وحيامت أسبان
ونطحن ها القليع المسمي بالنسوان

انه كعادته - مثل المتنبي - مولع بالتصغير، صغر (مطابق) الى (مطيبقات). والمطابق واحدها (مطبق) وهو الشعب في الجبل. وصغر (السمر) الى (السمير). وهو نوع من الشجر مثل السيال والطلح. وصغر (قلع) الى (قليع) وهي هنا جبال تسمى جبال المرأة، فذلك قوله (المسمي بالنسوان). وكون الظباء (نطحنها) يعني أنهن اتجهن صوبها عدل، كما اتجهت نساء زهير الى وادي الرس. وقد وصف الموضع الذي سرن عنه بانه (الخوي اب دنان). وهذا يعني انه غزير المياه كثير الشجر والنبات، اية أنه مليء بالذباب والحشرات التي تزن وتطن، وذلك لا يتفق الا في موضع خصيب. ومثله الوادي ذو الريحان، الى حيث سرن منحدرات.

وكلمة (هكع) تعني هبط او انحدر، وقد يستخدمونها ايضا في وصف مشية المرأة الجميلة التي تتعاجب في مشيها. وهكذا تجد ان المرأة ليست بعيدة عن فكره وهو يتحدث عن الظباء.

هذا، وقد ذكرت لاستاذي الدكتور ناصر الدين الاسد، انني اظن ان وقوف الشعراء الأولين على الاطلال وبكاءهم عندها والتلذذ بترديد اسماء الاماكن في شعرهم، كأنه بقايا طقوس قديمة، وقد نبهني الى هذا المعنى ما قرأته عن الـ (ابوروجنيز) سكان أستراليا الاوائل. فما انكر مني ذلك والدكتور ناصر الدين من علماء العربية المعدودين، محب للشعر العربي، حافظ له، عميق الادراك لأبعاده ومراميه، هذا الى جانب جاذبية تميز بها. وكتابه (مصادر الشعر الجاهلي) كتاب فريد بحق. وهو انسان حين تجلس اليه، فكأنك في بستان وارف الظلال، كثير الثمار، عاطر الازهار.

ذاك، وطبعة المعلقات التي تيسرت لي ها هنا، لها جمهرة شراح، الزوزني والشنقيطي وابن النحاس والتبريزي، وهم جميعاً على الرأس والعين. وقد اخبروا في شرح تلك الابيات العجيبة للحارث بن حلزة:

«يقول وانما اوقدت هند هذه النار بمرآك ومنظر منك فكان البقعة العالية التي اوقدتها عليها كانت تشير الى بها. أوقدت هند تلك النار بين هذين الموضعين بعود فلاحت كما يلوح الضياء».

ربما، انما الامر يبدو لي بخلاف ما ذهبوا اليه، وحجتي على ذلك نار الطلح، التي شبت غربي النيل في ديار البديرية والشايقية والركابيين:

أوقدتها بين العقيق فشخصين بعود كما يلوح الضياء
فتنورت نارها من بعيد بخزازى هيهات منك الصلاء ■

•التحديث مقبه

نحو أفق بعيد ١٢٥



بقلم الطيب صالح

لا أرى الآ انّ النار التي اوقدتها صاحبة الحارث بن حلزه بين العقيق فشخصين، هي نار الطلح التي تنورتها من وراء تخوم بحر الروم. الفصل صيف، والمساء بارد ممطر، كأنه من اماسي الشتاء. وهي عينها النار التي وصفها المرحوم محمد المهدي المجذوب في قصيدته. وقد قال عثمان عبد الله وقيع الله:

النّيبانه دي، الريانه دي التريانه
صفرة وين دي؟ لا من ريفه لا لبنانا
تقول بس بت فلان القايمه من دخانا
زي دهبة بني شنقول جفت نيرانا

هذا هو غاية المرام، ان يَطرى جسدُ المراة ويلمعَ مثل الذهب. وجبال «شنقول» عندنا على حدود الحبشة كانوا يخرجون منها الذهب ايام دولة سنار. والريف عندنا هو مصر، نسمي المصريين «أولاد الريف»، وهو من أعجب العجب ان تكون مصر المحروسة ريفاً للسودان! وعند أحمد شوقي ان «مصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلجانها».

وهل ترتفع العينُ على الحاجب؟ والفتاة المغنيّة ليست من مصر ولا لبنان، ولكنها اقرب مزاراً، ربما من «رفاعه الربه» وطن عثمان، حيث خفق القلب اوائل الشباب، عنيتُ قلبي.

كان ذلك ايامَ «عدلْ الوقت» قبل ان يختلّ الزمان وتميل كفة الميزان، يوم كنا حقاً «ناكل مما نزرع ونلبس مما نصنع». الحال اليوم كما وصفه ابو العلاء رحمه الله، وكأنه رأى من وراء الغيب، ورأى السودان على وجه الخصوص، السودان الغني الفقير، القوي الضعيف، الخصيب المجدب، ذا الشعب العظيم والحظ السقيم:

يرتجي الناسُ أن يقوم إمام
ناطقٌ في الكتيبة الخرساء
كذب الظنُّ لا امام سوى العقل
مشيراً في صبْحه والمساء
فاذا ما تَبعْتَه جلب الرحمة
عند المسير والارْساء

انّما هذه المذاهبُ أسبابٌ لجذْب الدُنيا الى الرُوساء
كالذي قام يجمع الزّنج بالبصرة والقرمطي بالأحساء

شيمةُ القوم متعةٌ لا يرِقّون لدمع الشمّاء والخنساء

ما أعجبَ ما نظر ابو العلاء، فها نحن قد اظلّتنا في الجنوب ثورة للزّنج وفي الشمال ثورة للقرامطة. الله يستر مما هو آت. في اثناء ذلك صمت المجذوب، الشاعر العندليب، وحبست السواقي غناءها للنيل، وصوّح الزرع ويبس الضرع، وهاجرت تلك المراة الشيخة الجميلة الوجه بين السبعين والثمانين، ربّما من نواحي «رفاعه» او «الكاملين»، وكان قد حقّ لها ان تستريح. لهم الويل.

«ولا مَيْ!».
دِمَنٌ تجرم بعد عهد أنيسها
حججٌ خلونَ حَلالُها وحرامُها
فوقفتُ أسألُها وكيفَ سؤالُنا
صمّاً خوالدَ ما يبينُ كلامُها
عَرِيَتْ وكان بها الجميعُ فأبكروا
منها وغُودِرَ نُؤيُها وثُمامُها
شاقتك ظُعْنُ الحيّ يومَ تحملوا
فتكنّسوا قُطُناً تَصِرُّ خيامُها
بل ما تذكّرُ من نُوارَ وقد نأتْ؟
وتقطعتْ أسبابُها ورِمامُها؟
مُرّيّةٌ حلّتْ بفَيْدَ وجاورت
أهلَ الحجازِ فأينَ منكَ مرامُها؟

اه! كُنّ يوقدْن في حفرة في الارض تُسمّى «حفرة دُخان الطّلح»، ويوضع عندها حصير تجلس عليه المراة. وحطب الطلح زكي الرائحة حين يحترق. ويضِفن اليه الصّندل والبخور. وحين تبوخ النار وتهدأ جدتها، تجلس المراة عليها بقدر ما تحتمل، وتتغطى بشمْله فتعرق، ويتشرب جسدها شذى الطّلح والبخور. كل ما يطلبْنه هذه الايام من العطور المستوردة والدهون والاصباغ، كنّ يجدنه في «نار الطّلح» التي لمعت في خيال الشاعر اليشكري، ووصفها محمد المهدي المجذوب رحمه الله:

حتّى اذا ما اكْتفَتْ قامت بزايلها
نجد تساقطَ مثلَ الدرِّ منثورا
ونفضتْ حلْما غنّى بوحدتها
لحنَ الصّبابة غضُّ الصوتِ مسحورا
أضْحى لها الأمرُ لم تُحْوِجْ هواي الى
جهدٍ وألهمها الاحسانُ تدبيرا

«للحديث بقية»

نحوأفق بعيد



بقلم الطيب صالح

بلى، ذلكم هو الذي أبكى الشاعر اليشكري، فقد كان له من العمل كما أخبر الرواة، خمسة وثلاثون ومائه، حين انشد القصيدة بين يدي الملك عمرو بن هند، وكان بخزازي* وهند بين العقيق فشخصين. فأنى له ان يرى النار رؤية العيان؟ انما رآها بعين خياله من وراء اكثر من مائة عام. ولا هند. أغلب الظن أنها كانت قد رحلت الرحيل الأبدي. ولو كانت النار كما توقد في حطب الغضى، لجاز له أن يبكي. أمّا انها كانت كما وصفها المجذوب، فقد حق له ان يبكي «دلّها».

لا عجب. لقد دخل العرب بلاد السودان، الى غابة ارض شنقيط قبل الاسلام بمدّة، وأخذوا معهم من جزيرة العرب عادات بقيت عندهم وبعضها درس عند عرب الجزيرة. من ذلك ان النساء كنّ يتطيّبن بنار «دخان الطلح». ومن ذلك ايضا ان الفتيات قبل الزواج كنّ يلبسن سراويل من سيور الجلد تسمّى «الرهط». وقد ظلت هذه العادة موجودة في السودان الى عهد قريب. وعرب السودان الى يومنا هذا يسمون «الدخلة» في العرس «قطع الرهط»، وكان العريس الى عهد غير بعيد يقطع «رهطا» حقيقيا، ثم تحول ذلك الى عمل رمزي، ثم «استعجم العرب في البراري» واختلط الثغاء بالرغاء.

كنّ يتطيّبن لبعولتهنّ بنار «دخان الطّلح»، يضفن إليها الصندل والبخور. يفعلن ذلك في جماعة. يتناوبن الجلوس على النار. تجلس الواحدة وتغطّي جسدها العاري بشملة، فتعرق ويتشرب جسدها شذى الطلح والبخور، وهي رائحة تظل عالقة بها ما شاء الله. وكل جلسة تسمى «بوخة». وقد تجلس الواحدة منهن مرتين «تطبّق البوخة»، فذلك قول الأغنية:

الطبق البوخه
قام نداه يهتّف
نام من الدوخه
أيده عاقباه
جدّله مملوخة
لي معالق الجوف
موسه مجلوخه.

في «لسان العرب»، في معنى «باخت» النار، اذا فترت وهدأت حدتها، وهي تبوخ بوخا وبوخانا. ويقال «أبخ عنك من الظهيرة» أي أقم حتى يسكن حر النهار ويبرد. وهذا هو ما عنته الاغنية السودانية بالتحديد، فالمرأة لا تقوى على الجلوس الى نار الطلح وهي في شدة اشتعالها، بل تصبر عليها حتى «تبوخ» ويصبح حرها محتملاً.

وفي معنى «جدّله» يقول المعجم:

- الجدْل شدّة الفتل، وجارية مجدولة الخلْق أي حسنة الخلْق. وساق مجدولة وجدلاء، أي حسنة الطي. وساعد أجدل كذلك. هكذا قالت الأغنية. وحين وصف الشاعر «يد» المرأة، فانما عنى ساعدها، وهو أمر جائز في اللغة أن يشار الى «الكل» بالجزء.

ويقول «لسان العرب» في معنى «مملوخه»: الملخ قبضك على عضلة عضا وجذبا. وملخ الشيء يملخه ملخا وامتلخه، أي اجتذبه في استلال، وفي حديث ابي رافع «ناولني الذراع فامتلخت الذراع، أي استخرجتها». وهذا في ظني هو معنى قول شيكسبير Time is out of joint، يقصد أن الزمان «مملوخ»، خرجت ذراعه عن مفصلها، فمن يداوي ذراع الزمان؟

ويزيد المعجم، ان من معاني «الملخ» - التثنّي والتكسّر. وهذا ما هدفت اليه الاغنية السودانية، فقد قامت المرأة من على نار الطلح، ورأسها يدور، وعرقها يتصبب، وعضلات جسدها مسترخية، فتثنت في مشيتها، ورمت ذراعها بلا جهد، فصار ذراعها وراء باقي جسدها. «أيده عاقباه جدّله مملوخة».

وما «معالق الجوف»؟ يقول المعجم «المغلاق ما يعلق به الاناء، وكل شيء علق به شيء فهو معلاقة. ومعاليق العقود والشنوف ما يجعل فيها».

وما «الموس المجلوخه»؟ يقول المعجم «جلخ وأجلخ اذا فتح المرء عضديه في السجود. ومن معاني الجلخ الاخراج من مثل القراب وما أشبه».

هذا هو. كان المرأة كما راها الشاعر، استلت سكيناً من قرابها وقطعت بها «معالق الجوف» فتهاوى الجسد كله. لذلك قال محمد المهدي المجذوب رحمه الله:

وما ارتويتُ وما كفّتْ إخالُ بها
مسّا يعذّب منها الروح مأسورا.

لاجل ذلك أيضا بكى الحارث اليشكري. لم تكن النار التي تنورها علي بعد مائة عام واكثر، محض حطب يوقد، بل كان فيها الطلح والصندل والبخور، فذلك «العود» الذي أشار اليه. وكانت هند عند النار كما وصف المجذوب بعد نحو الف عام، فكأنه قال صراحة ما اشار اليه الحارث تلميحاً. بكى، وظلت دموعه تنهمر من ماقي القصيدة الى يومنا هذا.

لا أرى من عهدتُ فيها فأبكي
اليومَ دلْها وما يردُّ البكاء؟

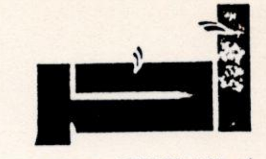
أجل لعمري، ما يرد البكاء؟

لا ميّ، ولا هند ولا أسماء.

ما يرد البكاء، انّ نيران «دخان الطّلح» في جزيرة العرب وعلى عدوتيّ النيل قد خمدت؟ وأنّ الزمان كما وصفوا، معوج ومختل ومملوخ؟

---

* خزازى ترد في طبعات القصيدة على عدة وجوه حزازى، بالحاء ثم الراء والزاي بعد الألف. وخزازى، بالخاء والزاي، ثم الراء. وخرازى بالخاء والراي، ثم الزاي، وذلك عندي أحسن جرسا. فلعل استاذنا العلامة حمد الجاسر يدلّنا على الوجه الصحيح





نحو أفق بعيد

١٢٧



بقلم الطيب صالح

يروي الجاحظ في كتابه «التاج، في اخلاق الملوك»، ان الحجاج اوفد جريراً الى الخليفة عبد الملك بن مروان، فلما دخل عليه قال محمد بن الحجاج:

«يا امير المؤمنين. هذا جرير بن الخطفى مادحك وشاعرك».

فأعرض عبد الملك وقال «بل مادح الحجاج وشاعره».

قال جرير، فقلت «ان رأى امير المؤمنين ان يأذن لي في انشاء مديحه».

قال عبد الملك «هات في الحجاج».

فقلت: «بل في مدحك يا امير المؤمنين».

قال: «هات في الحجاج».

قال جرير، فانشدته قولي:

صبرت النفس يا ابن أبي عقيل
محافظة فكيف ترى الثوابا
اذا سعر الخليفة نار حرب
رأى الحجاج أثقبها شهابا

فقال: «صدقت، هو كذلك». ثم قال للأخطل وهو خلفي وانا لا أراه «قم فهات مديحنا».

فقام فانشده فاجاد وابلغ، فقال عبد الملك:

«انت شاعرنا وانت مادحنا. قم فاركبه».

قال جرير «فالقى النصراني ثوبه وقال (جب يا ابن المراغة) فاغضب ذلك من حضر من المضرية وقالوا:

«يا امير المؤمنين، لا يركب الحنيف المسلم ولا يظهر عليه» فاستحيا عبد الملك وقال للأخطل «دعه».

قال جرير: «فانصرفت اسوأ خلق الله حالاً لما رأيت من اعراض امير المؤمنين عني واقباله على عدوي، حتى اذا كان يوم الرواح للوداع، دخلت لاودعه، فكنت آخر من دخل عليه. فقال له محمد بن الحجاج:

«يا امير المؤمنين. هذا جرير، وله مديح في امير المؤمنين».

قال: «لا. هذا شاعر الحجاج».

قلت: «وشاعرك يا امير المؤمنين».

قال: «لا. انت شاعر الحجاج».

قال جرير: «فلما رأيت سوء رأيه انشأت اقول:

أتصحو أم فؤادك غير صاحي

فقال عبد الملك «بل فؤادك».

حتى اذا بلغت الى قولي:

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح

استوى جالساً، وكان متكئاً، وقال:

«بلى، نحن كذلك. أعد».

فأعدت البيت، فاشرق وجهه، وذهب ما كان في قلبه، ثم التفت الى محمد بن الحجاج وقال:

«ترى أم حزرة (زوجة جرير) ترويها مائة من الابل؟».

قال جرير، فقلت: «نعم يا امير المؤمنين. ان كانت من فرائض كلب فلم ترو‌ها فلا أرواها الله».

قال «فامر لي بمائة فريضة. وكانت بين يديه اربعة صحاف من فضة أهديت اليه، فمددت يدي واخذت واحدة منها وقلت: «المحلب يا امير المؤمنين». يقصد لحلب اللبن.

قال عبد الملك: «خذها لا بارك الله لك فيها».

ويخلص الجاحظ الى القول:

«وهذه اخلاق لمن فهمها. وليس بعجب ان تتلون اخلاقهم، اذ كنا نرى اخلاق القرين المساوي، والشريك والالف تتلون ولا تستوي، ولعله يجد عن الفه وقرينه وشكله مندوحة، فكيف بمن ملك الشرق والغرب، والاسود والابيض، والحر والعبد، والشريف والوضيع، والعزيز والذليل». ■

«للحديث بقية»

نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

يقول الجاحظ في كتاب «التاج» في باب «إكرام الاوفياء»: «ومن اخلاق الملك اكرام أهل الوفاء وبرهم والاستنامة اليهم والثقة بهم والتقدمة لهم على الخاص والعام والحاضر والبادي. وذلك انه لا توجد في الانسان فضيلة اكبر ولا اعظم قدراً ولا انبل فعلاً من الوفاء. وليس الوفاء شكر اللسان فقط، لان شكر اللسان ليس على احد منه مؤونة.

واسم الوفاء مشتمل على خلال. فمنها ان يذكر الرجل من انعم عليه بحضرة الملك فمن دونه. فان كان الملك فيه سيء الرأي، فليس من الوفاء ان يعينه على سوء رأيه. فان خاف سوط الملك وسيفه، فاحسن صفاته ان يمسك عن ذكره بخير أو شر».

ويذكر الجاحظ في هذا السياق، ان سعيداً بن عمرو بن جعدة ابن هبيرة المخزومي، حين حمل رأس مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية الى أبي العباس السفاح بالكوفة، قام سعيد فاكب عليه، ثم قال:

«هذا رأس أبي عبد الملك خليفتنا بالأمس. رحمه الله». فغضب السفاح، وطعنه باصبعه في بطنه.

وانصرف سعيد بن عمرو الى بيته والناس يتوقعون ان ابا العباس السفاح لا بد قاتله. ولامه بنوه وأهله وقالوا «عرضتنا ونفسك للهلاك». فقال لهم «اسكتوا قبحكم الله. ألستم الذين اشاروا عليّ بالأمس بحران بالتخلف عن مروان، ففعلت في ذلك غير فعل أهل الوفاء والشكر؟ وما يغسل عني عار تلك الفعلة الا هذه. فانما انا شيخ هامة، إن نجوت يومي هذا من القتل مت غداً».

قال، فجعل بنوه يتوقعون رسل أبي العباس، ان تطرقه في جوف الليل. فأصبحوا ولم يأته احد. وغدا الشيخ فاذا هو بسليم بن مجالد. فلما بصر به قال «يا ابن جعدة. ألا ابشرك بجميل رأي أمير المؤمنين؟ انه ذكر في هذه الليلة ما كان منك فقال «والله ما أخرج ذلك الكلام من الشيخ الا الوفاء، ولهو أقرب منا قرابة، وأمس بنا رحماً منه بمروان، ان أحسنا اليه».

ويحكى عن شيرويه احد ملوك الفرس ان رجلاً اعترض طريقه وقال «الحمد لله الذي قتل ابرويز على يديك وأراح الناس من قهره وعتوه وبخله ونكده».

فقال له شيرويه:

«كم كانت أرزاقك في حياة أبرويز؟»

قال «كنت في كفاية من العيش».

- «فكم زيد في أرزاقك اليوم؟»

- «ما زيد في رزقي شيء».

- «فهل وترك أبرويز فانتصرت منه بما قلت؟»

- «لا».

- «فما دعاك الى الوقوع فيه، ولم يقطع عنك مادة رزقك، ولا وترك في نفسك؟ وما للعامة والوقوع في الملوك؟»

فامر ان ينزع لسانه وقال «انّ الخرس خيرٌ من الكلام فيما لا يجب».

ومن جميل ما روى الجاحظ في الوفاء ان الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور سأل شيخاً من أهل الشام، وكان مقرباً الى هشام بن عبد الملك في حياته، كيف كان هشام يفعل في حربه للخوارج، فكان الشيخ يقول في حديثه «فعل هشام رحمه الله كذا، وصنع هشام رحمه الله كذا».

فغضب المنصور وقال له «قم، عليك لعنة الله. تطا بساطي وتترحم على عدوي؟».

فقام الرجل، وقال وهو يهم بالذهاب «ان نعمة عدوك قلادة في عنقي، لا ينزعها الا غاسلي». فقال المنصور «اشهد أنك نهيض حرة وغراس شريف. اجلس وعد الى حديثك».

ولما فرغ الرجل، أمر المنصور له بمال، فقال:

«والله يا أمير المؤمنين، ما بي حاجة الى المال. ولقد مات عني من كنت في ذكره آنفاً، فما أحوجني الى الوقوف على باب احد بعده. ولولا جلالة عز أمير المؤمنين، وايثار طاعته، ما لبست لأحد بعده نعمة».

فقال المنصور «لله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً».

ويضيف الجاحظ «ويقال ان الرجل كان من شيبان»■



بقلم الطيب صالح

يذكر الجاحظ في كتابه البديع «التاج في أخلاق الملوك»، ان السخاء والحياء لازمان للملك السعيد. ويقول:.

«ومن اخلاق الملك الكرم والحياء، فهما قرينا كل ملك كان على وجه الارض. ولو قال قائل انهما رُكّبا في الملوك كتركيب الاعضاء والجوارح، كان له ان يقول، اذ كنا لم نشاهد، ولم يبلغنا عمن مضى من الملوك، ملوك العجم ومن كان قبلهم، وملوك الطوائف وغيرهم، القحة والبخل.

فاما السّخاء، فلو لم يكن أحد طبائع الملوك، كان يجب ان يكون باكتساب ان كان الملك من اهل التمييز، وذلك أن الملك يفيد اكثر مما يُنفق. فاذا كانت هذه صفة كل ملك، فما عليه من اتّخاذ الصنائع، وعمّ المنن، والاحسان الى مَن نأى عنه أو دنا منه من أوليائه، والرحمة للفقير والمسكين، والعائدة الى اهل الحاجة.

وأمّا الحياء فهو من اجناس الرّحمة، وحقيق للملك اذا كان الرّاعي، ان يرحم رعيته، واذ كان الامام ان يرقّ على المؤتم به، واذ كان المولى ان يرحم عبده».

وأقول، غفر الله لي، ان أكرم من اظلّته السماء، وأرحم من اقلّته الغبراء، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. كان ارحم بالناس من الام على وليدها، ومن الناقة على فصيلها، وكان في سخائه كالرّيح المرسلة. وقد مدحه بحق، أحمد شوقي، أمير شعراء هذا الزمان فقال:

يا من له الاخلاق ما تهوى العلا
منها وما يتعشّق الكبراءُ
لو لم تُقِمْ ديناً لقامتْ وحدها
ديناً تضيءُ بنوره الآلاءُ
فاذا رحمتَ فأنت أمٌ أو أبٌ
هذان في الدنيا هما الرّحماءُ

هذا، وقد خلع الرسول الكريم بُردته على كعب بن زهير حين جاءه لائذا ومدحه بقصيدته «بانت سعاد». وقد اخبروا ان معاوية بن ابي سفيان اشتراها منه بثلاثين الفاً، وفي رواية بثلاثمائة ألف، فكانت شعار دولتهم، الى ان ورثها الخلفاء من بني العباس. وفي ذلك يقول أحمد شوقي ايضا - رحمه الله وأجزل ثوابه، فما اجمل ما قال في مدح الرسول الأمين:

لبِستْ بُردَ النبيِّ النيِّراتُ
من بني العبّاس نوراً فوق نورْ

ثمّ آلت الى ملوك آل عثمان، ثم لا ندري.

ذلك، وقد انبرى الجاحظ للدفاع عن أبي جعفر المنصور، وقد عُرف عنه البخل. لا غرو، فقد ألف كتابه أصلاً للفتح ابن خاقان وزير المعتصم بن هرون الرّشيد، وقال في ذلك:

«... نخص بوضع كتابنا هذا، الامير الفتح بن خاقان مولى امير المؤمنين، اذ كان بالحكمة مشغوفا، وعلى طلبها مثابراً، وفيها وفي اهلها راغباً، ليبقى له ذكره، ويحيا به اسمه، ما بقي الضياء والظلام».

صدق ظنّ الجاحظ. فقد انطوى ظلّ الفتح بن خاقان، وعفّى الزمن على آثاره. عدا ان أبا عثمان العبقري وضع له كتابا اسمه «التاج في اخلاق الملوك». وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.

يقول أبو عثمان مدافعاً عن أبي جعفر المنصور:.

«وقد ذكر بعض من لا يعلم في كتاب ألفه في البخلاء من الملوك، أنّ هشام بن عبد الملك بن مروان، ومروان بن محمد، وأبا جعفر المنصور، منهم... وكيف يكون المنصور ممّن دخل في جملة هذا القول، ولا يعلم ان احداً من خلفاء الاسلام ولا ملوك الامم، وصل بألف ألف لرجل واحد غيره؟».

ثم يمضي الجاحظ فيورد قصة مؤثرة، يدلل بها على كرم المنصور، فيقول:

«وحدّثني بعض اصحابنا عن أبيه عن زيد مولى عيسى ابن نهيك، قال:.

دعاني المنصور بعد موت مولاي، فقال:.

«كم خلّف أبو يزيد من المال؟».

قلت «ألف دينار أو نحوها».

قال «فاين هي؟».

قلت «انفقتْها الحُرّة في مأتمه».. يعني زوجه.

فاستعظم ذلك، وقال «انفقتْ في مأتمه ألف دينار؟ ما أعجب هذا!».

ثم قال «كم خلّف من البنات؟».

قلت «ستّاً».

فاطرق مليًا، ثم رفع رأسه وقال «أغْدُ الى المهدي».

فغدوت فقيل لي «معك بغال؟».

فقلت «لم أومر باحضار بغل ولا غيره، ولا أدري لم دُعيت؟».

فأُعطيتُ ثمانين ومائة ألف، وأُمرتُ ان ادفع لكل واحدة من بنات عيسى ثلاثين ألف دينار. ففعلت. ثم دعاني المنصور فقال:.

«قبضتَ ما أمرنا به لبنات ابي يزيد؟».

قلت «نعم يا أمير المؤمنين».

قال «أغدُ عليّ بأكفائهن حتى ازوّجهنّ منهم».

فغدوت عليه بثلاثة من ولد العكي وثلاثة من آل نهيك من بني عمهن. فزوّج كل واحدة منهنّ على ثلاثين ألف درهم، وأمر أن يجعل صداقهنّ من ماله. وأمرني أن اشتري بما أمر لهنّ ضياعاً يكون معاشهنّ منها».

ويختم الجاحظ قصته البليغة بقوله:.

«وقلّما استعملت العامّة وكثير من الخاصّة التمييز، ايثاراً للتقليد، اذ كان أقلّ في الشغل، وأدلّ على الجهل، وأخفّ في المؤونة. وحسبك من جهل العامّة أنها تفضّل السمين على النحيف، وان كان السمين مأفونا، والنحيف ذا فضائل. وتفضّل الطويل على القصير، لا للطول ولكن لشيء آخر لا ندري ما هو. وتفضل راكب الحصان على راكب البغل، وراكب البغل على راكب الحمار، اقتصاراً على التقليد اذ كان اسهل في المأتى وأهون في الاختيار».

رحمه الله، فما أجمل ما كان يكتب، وما كان أحفاه بأهل المروءة والفضل. ورحم الله أبا جعفر المنصور فان حديث الجاحظ عنه يرفعه من الكرم المحض، الى سماء الشهامة والنُّبل■

نحوأفق بعيد



بقلم الطيب صالح

يلزم الملك السعيد في رأي الجاحظ الاّ يشغل نفسه بصغائر الامور، ويقول:

«ومن أخلاق الملك التغافلُ عمّا لا يقدح في المُلك، ولا يجرحُ المالَ، ولا يضع من العزِ، ويزيد في الأبَهة».

وفيما يُحكى عن بَهرام جورٍ، أنه خرج يوماً لطلب الصيد، فعار به فرسه حتّى وقع الى راعٍ تحت شجرة، وهو حاقن. فقال للراعي «احفظ عليّ عنانِ دابتي ريثما أقضي حاجتي».

فامسك الراعي عنان الفرس، وكان لجامه ملبَّسا ذهباً، فوجد الراعي غفلةً من بهرام، فاخرج من خُفّه سكيناً، فقطع بعض أطرافَ اللجام. فرفع بهرام رأسه فنظر اليه، فاستحيا، ورمى بطرفه الى الأرض، وأطال حتّى يأخذ الراعي حاجته من اللجام. حتّى اذا ظن انه اخذ حاجته قام، وقال للراعي «قدّمْ اليّ فرسي فانه قد دخل في عينيّ شيء من هذه الريح، فما أقدر على فتحهما».

وغمّض عينيه لئلا يوهمه انه يتفقّد حلية اللّجام. فقرّب الراعي فرسه فركبه. فلمّا ولّى، قال له الراعي «أيّها العظيم. كيف آخذ الى موضع كذا وكذا؟».

قال بهرام «وما سؤالك عن الموضع؟»

قال الراعي «هناك منزلي، وما وطئتُ هذه الناحية قطُّ غير يومي هذا، ولا اراني أعود اليه ثانية».

فضحك بهرام، وفطن لما اراد، فقال «انا رجلٌ مسافر، وانا أحقّ بالاّ أعود الى ههنا أبداً».

ثم مضى. ولمّا نزل عن فرسه، قال لصاحب دوابّه ومراكبه «انني وهبت معاليقَ اللجام لسائلٍ مرّ بي، فلا تتهمنّ بها أحداً».

ويحكى عن أنو شروان، انه قعد ذات يوم في نيروز، ووضعت الموائد ودخل وجوه الناس الايوان على طبقاتهم ومراتبهم. وقام الموكّلون بالموائد على رؤوس الناس، وكسرى بحيث يراهم.

فلمّا فرغ الناس من الطّعام، جاءوا بالشراب في آنية الفضة وجامات الذهب. فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في آنية الذهب. فلمّا انصرف الناس، ورُفعت الموائد، أخذ بعض القوم جامَ ذهب فاخفاه في ثوبه، وأنو شروان يلحظه، فصرف وجهه عنه. وافتقد صاحب الشراب الجام فصاح «لا يخرجنّ أحد من الدار حتّى يُفتّش».

فقال كسرى: «لا تتعرّضْ لإحد» وأذن للنّاس فانصرفوا. فقال صاحب الشراب «أيها الملك. انا فقدنا بعض آنية الذهب». فقال الملك «صدقت. فقد أخذها من لا يردّها عليك، وقد رآه من لا ينمّ عليه».

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان، اذ جلس للناس في يوم عيد، ووضعت الموائد وبدر الدراهم والدنانير للجوائز والصلات. وجاء رجل فقعد على كيس فيه دنانير. فصاح به الخدم «تنحّ فليس هذا موضعك». ولمّا سمع معاوية قال «دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس». فأخذ الرجل الكيس ودسّه في ثيابه وقام، فلم يجسر أحدٌ أن يتعرض له. فقال الخادم «أصلح الله أمير المؤمنين. انه قد نقص من المال كيس دنانير». فقال معاوية «أنا صاحبه وهو محسوبٌ لك».

ويُروى، انّ سليمان بن عبد الملك خرج في نُزهة، فبُسط له في صحراء فتغدّى مع أصحابه. فلمّا حانَ انصرافه وانشغل غلمانه بجمع المتاع، جاء أعرابي واختطف عباءة سليمان وطرحها على عاتقه، وسليمان ينظر إليه. فبصر به بعض الخدم فصاح به «ألقِ ما عليك». فقال الأعرابي «لا ألقيها والله. انها كسوة أمير المؤمنين وخلعته».

فضحك سليمان وقال «صدق، انا كسوتُه». فانطلق بها الاعرابيّ كأنه اعصار.

وجيء لجعفر بن سليمان بن علي برجل سرق منه دُرّة نادرة، وأراد أن يبيعها ببغداد. وكانت الدرة قد وصفت لتجار الجواهر، فأخذ الرجل وسيق الى جعفر. فلمّاَ رآه استحيا وأخذته الشفقة عليه. فقال له «ألم تكن طلبت هذه الدرّة مني فوهبتها لك؟» فباع الرّجل الدّرة بمائتيْ ألف درهم.

ويزيد الجاحظ قولَه:

«وأنت لا تجد أبداً أحداً يتغافل عن ماله اذا خرج، وعن مبايعته اذا غُبن، وعن التقصّي اذا بُخس، إلاّ وجدتَ له في قلبك فضيلة وجلالة ما تقدر على دفعها. وكذا أدّبنا نبيّنا صلى الله عليه وسلّم إذ قال «يرحم الله سهلَ الشراء سهل البيع سهل القضاء، سهل التقاضي».

هذا، وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقول «مَن خدعنا في الله انخدعنا له».

وأثر عن معاوية رحمه الله قوله «أنيَ لأجرُّ ذيْلي على الخدائع».

وقال أبو تمّام:

ليس الغبي بسيدٍ في قومه
لكنّ سيّدَ قومه المتُغابي.

ويعجبني قول الشاعر الّذي يُخفي وراءه كلاماً كثيراً:

بني عمّنا لا تذكروا الشّعرَ بعدما
دفنتُم بصحراء الغمير القوافيا
فانْ قلتموا أنّا ظَلَمْنا فلم نكنْ
ظلمنا ولكنّا أسأْنا التقاضيا

وبوسعك إن تتخيّلَ ما حدث، فمثلُ ذلك ليس منك ببعيد. وحسبك قوله (بني عمّنا). وأقول، عفا الله عنّي، أنّ مِن سوء التقاضي، ما هو الظّلم بحذافيره!■



ورقة



بقلم الطيب صالح

على الملك السعيد، كما يقول الجاحظ، ان يقسم يومه اقساماً. اوّله لذكر الله تعالى، وصدره لرعاياه وتدبير امورها وتصريف شؤون دولته، ووسطه لأكله ومنامه، وطرفه للهوه وشغله. وعليه الاّ يثابر على إدمان الشغل في كل يوم، وان طالت هذه الاقسام بمواضعها، فانه لن يجد للهو لذة، ولا للنعيم رونقا ويقول:

«ومن ادمن شيئا من ملاذ الدنيا، فانه لن يجد له من اللذة وجود القرم النهم المشتاق. وذلك ان ألذّ الطعام واطيبه ما كان علي جوع شديد، والذ المخالطة اذا اشتد الشبق وطالت العزبة وألذ النوم وأهناه ما كان يعقب التعب والسهر».

ويصف الجاحظ ان الخلفاء من بني اميّة وبني العبّاس كانت لهم اوقات يسرون فيها عن انفسهم بالسماع الى الغناء والطرب، ويقول:

«أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، فكان بينهم وبين الندماء ستارة. وكان لا يظهر احد من الندماء على ما يفعله الخليفة اذا طرب للمغني حتى ينقلب ويمشي ويحرك كتفيه.. فامّا بعض خلفاء بني اميّة فكان لا يتحرج ان يرقص ويتجرد بحضرة الندماء.

واما عمر بن عبد العزيز فانّه ما طنّ في اذنه حرف غناء منذ ان افضت اليه الخلافة الى ان فارق الدنيا. وكان قبل ذلك وهو امير للمدينة، يسمع الغناء ولا يظهر منه الاّ الامر الجميل.

وأما أبو العبّاس السفّاح، فانه كان يظهر للنّدماء في اول ايامه، ثم احتجب عنهم بعد سنة، اشار عليه بذلك أسيد بن عبد الله الخزاعي. وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة «احسنت والله. اعد هذا الصوت» فيعاد له مراراً.

ولم يكن ابو جعفر المنصور يظهر لنديم قط ولا راه احد يشرب غير الماء. وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعاً، وبين الستارة والندماء مثلها، فاذا غناه المغني فاطربه، حركت الستارة بعض الجواري، فاطلّع اليه الخادم صاحب الستارة، فيقول له المنصور «قل له احسنت بارك الله فيك». وربما استخفه الطرب واراد ان يصفق بيديه، فيقوم من مجلسه، ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك. وكان لا يثيب احداً من ندمائه وغيرهم درهما، فيكون له رسماً في ديوانه. ولم يقطع أحداً ممن كان يضاف الى ملهية او ضحك او هزل، موضع قدم من الارض. وكان يحفظ ما أعطى كل واحد منهم عشر سنين، ويحسبه ويذكره له.

وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء، متشبها بالمنصور، ثم ظهر لهم. فكلمه في ذلك أحد وزرائه، فقال له:

«إليك عني يا جاهل. انّما اللّذة في مشاهدة السرور، وفي الدنو ممن سرني. فاما من وراء وراء، فما خيرها ولذتها؟ ولو لم يكن في الظهور للنُدماء والاخوان الاّ أني اعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم، لجعلت لهم في ذلك حظاً موفراً».

وكان كثير العطايا وافرها، قلّ من حضر الاّ أغناه. وكان ليّن العريكة، سهل الشّريعة، لذيذ المنادمة، قصير المناومة، ما يمل نديما ولا يتركه الاّ عن ضرورة، قطيع الخنا، صبوراً على الجلوس، ضاحك السن، قليل الأذى والبذاء.

ويصف الجاحظ ان الهادي كان شكس الاخلاق، صعب المرام، قليل الاغضاء، لا يبذل الاّ لمن توقاه وعرف اخلاقه. ويحكى ان ابراهيم الموصلي غنّاه يوماً صوتاً اخرجه عن طوره من الطرب، فقال له:

«أنت صاحبي، فاحتكم».

فقال ابراهيم:

«يا أمير المؤمنين. تقطعني حائط عبد الملك بن مروان بالمدينة».

قال، فدارت عيناه في رأسه حتّى صارتا كانهما جمرتان، ثم قال:

«يا ابن اللّخناء! أردت ان تسمع العامّة أنك أطربتني، وأني حكمتك فاقطعتك. أما والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك، لضربت الذي فيه عيناك».

قال ابراهيم «ثم سكت فرأيت ملك الموت قائما بيني وبينه. ثم نادى ابراهيم الحرّاني فقال:

«خذ بيد هذا الجاهل، فادخله بيت المال، فلياخذ منه ما شاء».

هذا، ويمضي الجاحظ فيرسم صورة لهارون الرّشيد، تلفت الانتباه، لأنها بخلاف ما شاع عنه، فيقول:

«وكان الرّشيد في اخلاق أبي جعفر المنصور، يمتثلها كلّها الاّ في العطايا والصلات والخلع، فانه كان يقفو فعل ابي العبّاس والمهدي. ومن خبرك أنّه راه قط يشرب غير الماء فكذّبه. وربما طرب للغناء، فتحرك حركة بين القلة والكثرة».

ويخبر الجاحظ عن الامين نقلاً عن اسحق فيقول:

«ما كان أعجب أمره كلّه! فامّا تبذله، فما كان يبالي اين قعد، ومع من قعد. وكان، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب، خرقها كلّها، والقاها عن وجهه حتّى يقعد حيث قعدوا. وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة، وأنهبهم للأموال اذا طرب أولها».

ويختم الجاحظ حديثه عن الامين بلفتة من لفتاته العجيبة فيقول:

«ولقد حدّثني علّوية عنه قال: لمّا أحيط به، وبلغت حجارة المنجنيق بساطه، كنّا عنده، فغنّته جارية غناء لم تحسنه، فصاح:

«يا كذا. تغنيني الخطا؟ خذوها».

فحملت وكان أخر العهد بها».

كأنّ الجاحظ أراد ان يقول «وكان ذلك أخر العهد بالامين». فقد أخذ بعد ذلك وصلب. وكان أخر صوت سمعه صوتاً نشازاً. ومع ذلك فقد مدحه الحسن ابن هانيء، غفر الله له وللأمين، ببيت من أجمل شعر المديح:

واذا المطيّ بنا بلغن محمداً
فظهورهن على الرّجال حرامُ

(الحديث بقية)



بقلم الطيب صالح

يقرُّ الجاحظ مبدأ في الحرب، أصبح من ركائز سياسة الدول في هذا العصر، وكان فيلسوف الحرب الألماني «كلوزفتز» اخذه عنه بالحرف. يقول الجاحظ:

«ومن أخلاق الملوك المكايدة في حروبها، ولذلك كان يقال أنه ينبغي للملك السعيد ان يجعل المحاربة اخر حيله، فان النفقة في كل شيء أنما هي من الاموال، والنفقة في الحروب أنما هي من الانفس. فان كان للحيل محمود عاقبة، فذلك بسعادة الملك، اذا خسر ماله وحقن دماء جيوشه. وان أعيت الحيل والمكائد، كانت المحاربة من وراء ذلك».

ويقولون في هذه الأيام ان الحرب هي سياسة الملاذ الاخير، او سياسة الحد الاقصى. War is the policy of last resort. أليس هذا ما عناه الجاحظ نصاً حين قال «ينبغي للملك السعيد ان يجعل المحاربة اخر حيله»؟

كانْ الجاحظ كان يتوجه بحديثه الى الخليفة، عبر وزيره الفتح ابن خاقان، ويطريه بوصفه اياه بـ «الملك السعيد». وعندي أن كتابه ليس اقل اهمية من كتاب «الامير» لماكيافللي. ويزيد عليه ان الجاحظ سبق نظيره الايطالي بقرون، وانَ كتابه أفكه روحاً واخف وطاة.

يقول ابو عثمان رحمه الله، في عبارة لا تخلو من جراة:

«وايضا فان لنا اجرين. اما احدهما، فلما نبهنا عليه العامة من معرفة حق ملوكها. وأما الأخر، فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل مائل عنها، ورد كل نافر اليها».

هذا كما ترى، مذهب طريف، فهو ليس ضد الملوك من حيث انهم ملوك. ولكنه يقول انه صوتهم المدافع عنهم لدى العامة، كما أنه صوت العامة وصوت الحق لدى الملوك. او كما نقول بلغة هذه الايام، ان دوره دور «رجل (الفكر)»، الذي يكون جسراً بين «الشعب» وبين «السلطة».

وذاك لعمري أمر عسير. الاّ ان الجاحظ كان محظوظا انه وجد تاييدا وسنداً من وزير واسع الاطلاع، عميق الفكر مثل الفتح ابن خاقان، وقد اخبروا أن الفتح بن خاقان، لم يكن يفوقه الاّ الجاحظ في اقباله على الكتب وشغفه الى المعرفة، وأنه يكون في مجلس الخليفة، فاذا قام الخليفة عن المجلس ولو لفترة وجيزة، فان الفتح يخرج من ثيابه كتاباً يقرا فيه الى ان يعود الخليفة.

ولا بدّ أن الجاحظ قصد ايضا ان يمكن لصديقه الوزير لدى مولاه، وحق له ان يفعل، فقد كان الرجل جديراً. يقول الجاحظ:

«وبعد فان اكثر كلامنا في هذا الكتاب، أنما هو على من دون الملك الاعظم، اذ لم يكن في استطاعتنا ان نصف أخلاقه بل نعجز عن نهاية ما يجب له، لو رمنا شرحها... وليس لأخلاق الملك الاعظم نهاية تقوم في وهم، ولا يحيط بها فكر. وأنت تراها تتزيد منذ اول ملك ملك الدنيا الى هذه الغاية...».

هذا، كانه المتنبي يمالىء سيف الدولة. وكانّ ابا عثمان خجل من كثرة ما بالغ في أطراء الخليفة، فما لبث ان أضاف كالمعتذر:

«ولعلّ قائلا يقول اذ رانا قد حكينا في كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب: قد ناقض واضع هذا الكتاب، اذ زعم انه ليس لأخلاق الملك الاعظم نهاية - فيظلم في اللفظ ويعتدي في المقال. وأولئك الملوك هم عند ملوكنا، كالطبقة الوسطى عند النمط الأعلى. أنت تجد ذلك عياناً وتشهده بياناً...».

هذا، ويؤكد أبو تمام مبدأ مناقضاً لما ذهب اليه الجاحظ في قضية السياسة والحرب، وذلك في بيته الذائع في قصيدته المدوية في مدح المعتصم:

السيف أصدقُ أنباءً من الكتب
في حده الحدُ بين الجدّ واللعب

وقد ذهب بعضهم الى ان المقصود بـ (الكتب) هو (الفكر) كما تقول رجل الفعل ورجل الفكر ورب السيف ورب القلم. وأغلب الظن ان ابا تمام لم يرد الاّ الكتب التي يرسلها الملوك بعضهم الى بعض في امور السلم والحرب.

كان المعتصم حقاً ملكاً محاربا، يغزو اولا ثم يفكر فيما بعد. والجاحظ رغم أنه يؤثر النفع بالحسنى ان امكن، فانه لا يخفي أعجابه بالمعتصم وبصفه وصفاً يكاد ينط من بين السطور:

«وكان المعتصم قلما يمس الطيب. وكان يذهب في ذلك ا... تقوية بدنه واعانته على شدة البطش والايد. وأما في أيام حروبه، فكان من دنا منه، وجد رائحة صدا السلاح والحديد من جسمه».

كان خشنا جلفا الى حد ان اهل بغداد - وقد كانت في تلك الزمان مثل باريس اليوم - ضاقوا به وبفظاظة جنده، فهجرهم وبنى عاصمة جديدة هي (سر من رأى). لم تلبث طويلاً حتى اندثرت، وقد رثاها ابن المعتز بابيات بليغة:

قد اقفرت سرّ من را
فما لشيء دوامُ
فالنقض يحمل منها
كانه الأجـ[...]
ماتت كما مات فيلٌ
تسل منه العظام

وقد اصبحت قصة فتح المعتصم لعمورية اسطورة يضرب بها المثل في الاقدام والنجدة في تراث العرب، الاّ انهم اخبروا ان المراة التي صرخت «وامعتصماه!»، لم تكن في عمورية، بل كانت في «زبطرة»، على الحدود بين ملك الروم وملك العرب. وكان امبراطور الروم «تيوفيل»، قد غزاها عام ٨٣٨م فحرق وهدم وقتل وسبى. سمع المعتصم استغاثة المراة العربية فهتف «لبيك. لبيك». ويذكر بعض الرواة انه كان ممسكاً بكاس فوضعها وهب واقفا من فوره، وسال قواده، اي بلاد الروم امنع واحصن، فقالوا «عمورية»، وان المسلمين لم يجرؤوا على اقتحامها من قبل. فصبحها بجحافله ودكها دكاً واقتحم «أنقرة» في الطريق.

وكما قال الشاعر «ولو انّ قومي انطقتني رماحهم نطقتُ»، فان هذه الوقعة قد هزت وجدان الشاعر العملاق حبيب ابن أوس الطائي، فاتى بالعجب العجاب:

رمى بك الله بُرجيها فهدّمها
ولو رمى بك غيرُ الله لم يُصبِ
احسنته مُعْلناً بالسيف مُتصلتاً
ولو اجبت بغير السيف لم تُجبِ

الى ان يقول:

خليفة الله جازى الله سعيك عن
جرثومة الدين والاسلام والحـ[...]
بصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها
تنال الاّ على جسر من التعب

ثم جاء العبقريُ أبو الطيب، فنصب الميزان القسط بين مذهب الجاحظ ومذهب أبي تمام:

ووضعُ الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد ١٣٣



بقلم الطيب صالح

كانت مبادرة حميدة من الاخ محمد بن عيسى وزير الثقافة في المغرب، وهو صاحب أريحيات كثيرة، انه خصص امسية في موسم اصيلة هذا العام، لتذكر . ولا اقول تابين . الكاتب العملاق يوسف ادريس. وكان يوسف قد شارك في موسم من مواسم أصيلة منذ بضعة اعوام، وترك اثراً لا ينسى، كما كان يفعل دائما!

ارتجل محمد بن عيسى كلمة بليغة، تحدث فيها عن صداقته بيوسف ادريس، وعن المكانة السامية لادبه، الذي وصفه بانه اعظم بكثير حتى مما اعترف به الناس. وقال ان موسم اصيلة الثقافي سوف يصدر عنه كتابا. ولعل هذه هي اول مرة في العالم العربي، تكرم فيها ذكرى كاتب بهذه الطريقة، خارج وطنه الام. وتحدث لطفي الخولي، الكاتب المرموق، زميل يوسف في دار الاهرام العتيدة، وصديقه الحميم طيلة سنوات، فأعاد الى الاذهان صورة يوسف، انسانا حيا نابضاً بالحياة.

كذلك تحدث الدكتور احمد ابراهيم الفقيه، الكاتب الروائي الليبي الموهوب، فنوه بمكانة يوسف ادريس في الادب العربي المعاصر، واعترف بعمق تاثيره عليه. ويمكن القول ان احمد الفقيه، كان احد حواريي يوسف ادريس، وكان احد اصدقائه المقربين. وفي كلمة حزينة عبر الدكتور مبارك ربيع من المغرب، عن عمق احساسه واحساس جيله كله بالفجيعة لفقد يوسف ادريس. وقال الكاتب الروائي المبدع، جمال الغيطاني، ان الفراغ الذي احدثه موت يوسف ادريس، فراغ لن يمتلىء بعده، وان الخسارة بفقده خسارة لن تعوض. وكنت انا ايضا من المتحدثين.

كان يوسف ادريس، صاحب موهبة ضخمة، لا يبالغ الانسان اذا وصفها بالعبقرية. والموهبة عبء ثقيل فيه بعض معاني اللعنة. واذ حمل نجيب محفوظ هذا العبء بجلد ومصابرة، كما يفعل الزهاد العاكفون، كان يوسف ادريس يبدو احياناً وكانه ينوء بهذا العبء، وكانه يود لو استطاع ان يلقيه عن كاهله. كان يتارجح بين احوال من الاكتئاب والبهجة. وربما حاول امرأ عسيراً، ان يحيا الحياة الى اقصى مداها كما يشاء وان يصنع فناً عظيماً. ولعله نجح بعض النجاح. ولكنه دفع الثمن الذي لا مناص منه آخر الامر.

قلت له في بغداد اثناء الضجة التي افتعلها حين نال نجيب محفوظ جائزة نوبل «يا اخي انت عاوز تتمتع بالحياة، وتتفسح وتعمل ما تعمل، وكمان تاخد جائزة نوبل؟».

ضحك من اعماق قلبه، كما كان يفعل، فلم يكن يضمر حقداً لاحد، وقال لي «وليه لا؟».

كان يوسف في الحقيقة انساناً كريماً طيباً طيبة بالغة، اذا وجد منك وداً ومحبة، اعطاك وداً بلا حدود. وعلى مدى ربع قرن من الزمان، لم اجد منه، ولم يجد مني، غير الاخاء والود. ولن انسى ما حييت عبارة قالها لي ذات يوم «تعرف يا طيب. انا لما اقرأ لك بحس بالونس». كانت عبارة عميقة مؤثرة، ظللت اذكرها وانوه بها، فالكاتب على وجه الخصوص، يدرك مدى الوحشة التي تجلبها ممارسة هذا الفن الملعون. ان تعلم ان لك «اخوة» في البلاء، يعزيهم انك موجود، وانك تكتب، وانك تفرح بوجودهم وابداعهم، ذلكم الذي يبدد الوحشة، ويصبر على البلوى، ويجلب «الونس». اصوات تنشد في حلكة الوجود، يأخذ بعضها من بعض ويعطي، تتجاوب اصداؤها من بلد الى بلد، ومن قطر الى قطر، ومن قارة الى قارة، بل ومن زمان الى زمان، تصنع من تفاهات الواقع، وعذابات العمر القصير العابر، شيئا لعله يستمر. لعله يبقى. ذلك هو. ولا يمكن تحقيقه الا بالمحبة. وكان صوت يوسف ادريس صوتاً نادراً من هذه الاصوات. سوف يقوى وقعه وتاثيره على مدى الايام.

كان عامراً بالمحبة، رغم ما كان يبدو احياناً عكس ذلك، بسبب تناقضات سلوكه في الحياة والمعارك التي كان يفتعلها ويلقي بنفسه في غمارها دون مبرر في الغالب وبلا اسلحة، ثم يخرج منها، وينساها تماماً. لم يكن يعرف الحقد. لم يكن ذلك الا مظهراً من مظاهر احساسه بفداحة العبء. عبء الموهبة الكبيرة التي أبتلى بها.

وايضا كان شجاعاً شجاعة قل نظيرها. قام في فنه بمغامرة طريفة، حدق فيها بعيني طفل عبقري بنهم وجودي، في عوالم لم يجرؤ احد من الكتاب المعاصرين على التحديق فيها. وكان يعود من التجربة مملوءا بالنشوة . فقد كان يعرف ضخامة موهبته . ولكنه يعود ايضا مزعزعاً متناثر الاجزاء. لا يلبث ان يلقي بنفسه في غمرات الحياة، باندفاع وطيش احياناً، فيخاصم ويعارك ويثير العواصف بما يقوله، وما يكتبه في الصحف، وبعض ما يفعله. ولعل هذا صرف انظار بعض الناس عن ادراك مدى روعة فنه.

ها هو الانسان، الكائن البشري المحدود الاجل، الذي يقطع رحلة العمر كما ينبسط الظل ثم ينطوي، ها هو ذا قد مضى: يوسف ادريس لم يعد. سوف يبقى فنه العظيم. انما حتى هذا عندي، وعند الكثيرين امثالي الذين أحبوه واحسوا «بالونس» لمجرد انه موجود يرهف السمع لصوتك، وترهف السمع لصوته ذي الجاذبية الفريدة . اقول حتى هذا لا يعزي عن فقده ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد ١٣٤



بقلم الطيب صالح

تركت حامد الخواص رحمه الله، حيا ممتلئا حياة، ضاحكا أبداً كعادته. كنت امر عليه في مكتبه في الصباح، واشرب معه قهوة «الكاسنجر»، وهي قهوة تركية يضاف اليها اللبن المغلي. اول مرة قدمها لي، قلت له انها تذكرني بالقهوة التي كنا نشربها في محطة «الكاسنجر» ونحن في طريقنا بالقطار من الخرطوم الى كريمة. فاطلق حامد الاسم عليها، واصبح كل الموظفين في المكتب يطلبون من «عم شعبان» صاحب البوفيه قهوة «الكاسنجر».

«أبو طارق» كان يزورني كثيراً في مكتبي. يقبل مني سجارة، وأحيانا يشرب معي الشاي بالنعناع. وكان يذهب من عندي ضاحكا في اغلب الاحيان. أب لاثني عشر طفلا، ويسكن في مخيم من مخيمات اللاجئين. أستطيع ان اتصور العذاب الذي ذاقه. سائق ماهر حين يكون رائقا، ويعمل بهمة ونشاط حين يسخو. يثور احيانا ثورات عنيفة. يوصلني الى المطار، والسفارات للحصول على «الفيزات». كنت اعلم مما يقص علي انه يعاني من اضطرابات نفسية، وكابة تنتابه دون سبب واضح. الا انني ابداً لم اتصور انه سوف يكون قاتلا، وسوف يقتل، دون سائر الناس، حامد الخواص، الذي اكرمه وعامله بلطف لعله لم يجده في اي احد صادفه طيلة حياته.

وعجيب أن يحدث هذا ايضا في مكتب اليونسكو في عمان. هذا مكتب اقليمي يخدم الدول العربية جميعا. وكان اول مدير له في عمان، الدكتور محمد ابراهيم كاظم، وهو رجل من الاخيار الافذاذ. بعد تقاعده بقليل، اصيب فجأة بمرض خطير شفاه الله، وقد اخبرني «أبو طارق» ان ذلك حدث لان كاظم «ظلمه»، وانه لن يشفى الا اذا زاره هو في القاهرة وعفا عنه.

لم آخذ مثل هذا الكلام مأخذ الجد، فقد كنت اعلم ان «أبو طارق» يحس ان الحياة ظلمته، ومثل كثير من المظلومين، كان يوجه حقده ضد اناس لا صلة لهم بما حدث له. كان كاظم في الواقع كريما معه، وكذلك كان حامد الخواص.

مكتب عمان من افضل مكاتب اليونسكو، يضم نخبة من جنسيات مختلفة، رجالا ونساء، كلهم اكفاء ذوو خلق رفيع، يعملون كانهم اسرة واحدة. ويغلب على المكتب جو من التآلف والود والبعد عن المراسم والشكليات، يرجع الفضل فيه الى الدكتور محمد ابراهيم كاظم، ثم تعمق في عهد الدكتور حامد الخواص.

وفي الفترة القصيرة التي قضيتها معهم، حضرت اعراسا لمسلمين ونصارى، وحفلات استقبال ووداع، عزيت معهم، وسمرت معهم. ابداً لم يخطر لي ان هذا المجتمع الودود المسالم سوف يشهد حادثا مروعا، لم تشهد مثله منظمة اليونسكو طوال تاريخها من قبل. كانوا كل حين يجمعون التبرعات لمناسبة ما، واكثر ما جمعوا لـ «أبو طارق».

لا تقل انه الموت، يضفي على بعض الناس هالة لم تكن لهم في الحقيقة. ابدا. كان حامد الخواص انسانا نبيلا نادر المثال بحق. كان عذبا مثل الماء السلسبيل، فيه تواضع اهل السودان، ودماثة طبعهم وسماحتهم وزهدهم، حين يكونون في احسن حالاتهم. من آل الخواص الكرام، من كبوشيه في ديار الجعليين. كان محبا للناس ليس في قلبه ذرة من الحقد. كان مهندسا معماريا، وكان مشغولا ببناء مدارس قليلة التكلفة من مواد محلية بسيطة، فاشرف على تنفيذ مشاريع في اليمن وفي الصومال وفي السودان وفي اماكن اخرى. مسافر ابداً، لا يقر له قرار. اقول له «يا زول. السفر الكتير دا بيكتلك.» فيجيبني ضاحكا «الراعي واعي.» يقصد الله عز وجل. وفي الفترات القصيرة التي يقضيها بين الاسفار في عمان، يعمل صباح مساء، يظل الى الخامسة والسادسة مساء دون طعام، ويعمل ايام العطل. يعمل في صمت وفي زهد، لا يهتم بالدرجات والترقيات.

وكان مهتما بـ «أبو طارق»، اعطاه كثيرا من وقته واسبغ عليه كثيرا من رعايته. كان «أبو طارق» يعمل سائقا مؤقتا وكان يمرض ويتغيب كثيرا عن العمل. في كل مناسبة يجمعون له التبرعات. اذا ولد له طفل، اذا مات له قريب. اذا احتاج للعلاج. وقد رفضت ادارة المنظمة في باريس ان تضمه الى الخدمة المستديمة، فبذل حامد، رحمه الله، جهدا عظيما، بل ذهب الى باريس، واقنع الادارة ان يثبتوه ويمنحوه عدة علاوات استثنائية دفعة واحدة.

هذا حدث منذ اقل من ثلاثة اشهر. كان «أبو طارق» لا تكاد الدنيا تسعه من الفرح. طاف بالمكاتب يضحك ويوزع الحلوى. واكثر ما اسعده ان كتاب ترقيته جاء من باريس، وباللغة الانجليزية، وتحت اسمه خط باللون الاحمر.

«شايف يا سيد طيب. شايف اسمي، صقر سكر؟»

سعدت لسعادته، وقلت هذا انسان لعله قضى حياته يبحث عن «الاعتراف»، فها هو ذا قد وجده. قلت له:

«مش قلت لك اصبر؟ شايف نتيجة الصبر؟»

«اي والله. دكتور حامد طلع راجل. اوفى بوعده. قال لي يا بوطارق اعتمد على الله وعلي.»

قال لي يومذاك ان حامد الخواص «أبوه» وملاذه بعد الله.

لم انتبه حينئذ، ولكنني أدرك الآن انه حين جعله بمثابة أبيه، فقد اختاره لأمر جلل.

ثم قبيل سفري الى اصيلة بالمغرب جاء يدعوني للغداء. اخبرني انه سيعمل وليمة في داره على شرف حامد الخواص.

«لازم تحضروا كلكم. الدكتور عبد الواحد يوسف والدكتور هاشم وانت والباقين. تشوفوا بيت أخوكم الصغير.»

قلت له ان ذلك سوف يكون شرفا عظيما لنا، واتفقنا ان تكون الوليمة بعد عودتي، قبل عشرة ايام فقط. وكان حامد الخواص حيا مملوءا حياة.

كيف اذاً تحول الحب الى حقد، والسرور الى حزن، وحفل الغداء الى مأتم؟

هل اقول ان حامد الخواص شهيد آخر في هذه المأساة الرهيبة التي يقتل فيها الابرياء، دائما يقتل الابرياء، وتختلط الامور، فلا يميز الناس بين العدو والصديق؟

ومن أعزي في حامد الخواص؟ هل اعزي اسرته وعشيرته الاقربين؟ هل أعزي السودان الذي أحبه حامد وأسرف في حبه؟ هل أعزي منظمة اليونسكو التي لن تجد احدا مثله؟ هل اعزي عبد الواحد يوسف الوفي وهاشم ابو زيد اللذين عادا بجثمانه الى مسقط رأسه؟ هل أعزي زملاءه وزميلاته في مكتب اليونسكو الذين بادلهم وداً بود؟ هل اعزي اصدقاءه ومحبيه الكثيرين في عمان وفي غير عمان، في السودان وغير السودان؟

هل أعزي «أبو طارق» المسكين، القاتل المقتول الظالم المظلوم؟ لعله اذا افاق من الكابوس المرعب الذي يعيش فيه، لعله يدرك، انه قتل «اباه» وخسر سنده بعد الله ■

(الحديث بقية)

آخر ورقة



بقلم الطيب صالح

فكرة ملهمة، حولت بلدة مغمورة، على بعد نحو أربعين كيلومترا جنوب طنجة، على ساحل الأطلسي، الى اسم ذائع يتردد صداه في العالم، وملتقى سنوياً يفد اليه الكتاب والشعراء والرسامون والموسيقيون من الشرق والغرب.

ما كنت لأعرفها او أزورها، لولا أنني قابلت محمد بن عيسى في الدوحة أواخر السبعين، عام ثمانية وسبعين او تسعة وسبعين. رأيت شاباً واضح الذكاء، يقظ العينين، حسن السمت متدفق الحماس، تآلفنا بلا مشقة، فالأرواح جنود مجندة، وقد اكتشفت فيما بعد، أننا على بعد الدار والمزار، نشأنا في بيئتين متشابهتين، وأبحرنا في رحلتين في الحياة، متماثلتين رغم اختلاف النتائج.

عرفت منه أنه عمل لسنوات في منظمة الامم المتحدة، وفجأة قرر ان يستقيل ويعود الى بلدته أصيلة، ويبدأ حياة جديدة تماماً. انتخب عضواً في المجلس البلدي، ثم ما لبث ان صار رئيساً له، وعمدة لاصيلة. ثم اصبح نائباً في البرلمان. بهرني كل ذلك، وأحسست كما لو ان رواية «موسم الهجرة الى الشمال» قد انتهت نهاية سعيدة.

أول مرة زرت «أصيلة» منذ اكثر من عشر سنوات، وجدت بلدة أقرب الى القرى منها الى المدن، سوقها مثل أسواق القرى في شمال السودان، وطرقاتها مترِبة، وماؤها شحيح، والتيار الكهربائي ضعيف متقطع. فيها فندق واحد صغير لا يكاد يفي بالحد الأدنى من متطلبات النزيل. ومع ذلك، فقد كانت لها جاذبية واضحة، بموقعها على البحر، وقلعتها التي تقوم شاهداً على تاريخها العريق في مقاومة الأسبان والبرتغاليين.

غير بعيد من هنا في «وادي المخازن» هزم المغاربة ثلاثة ملوك من ملوك الفرنجة، وأوقفوا المد الاستعماري الاوروبي في عنفوانه. البيوت في الحي القديم، لها طابع الحصن، ككل المدن الاسلامية المرابطة يتكئ بعضها على بعض، أزقتها ضيقة بحيث انك تستطيع ان تمد يدك عبر الطريق فتصافح يد جارك. رأيت بلدة تطوي ضلوعها على ماض تليد وأشجان بعيدة، مثل امرأة جميلة جار عليها الزمان.

لم يكن أي من ذلك غريباً علي، وقد صادف أول زيارة لي، يوم آخر رمضان، فصليت معهم صلاة العيد، كأنني بين أهلي في شمال السودان.

الآن أصبح الماء دافقاً، والتيار الكهربائي متصلاً. الطرقات المتربة تغطت بالاسفلت، وباحات الحي القديم وأزقته، رصفت ببلاط جميل على هيئة الموج، من تصميم الفنان الكبير محمد المليحي، ابن أصيلة، ورفيق محمد بن عيسى منذ طفولته، وعونه في النضال لنهضة المدينة. كذلك الكاتب الشاعر أحمد البقالي.

في نحو عشر سنوات، خطت البلدة خطوات واسعة. أصبحت مدينة جميلة، تتميز على كثير من المدن بالذوق والحس الجمالي الذي تشاهده في اللوحات الجدارية التي يتركها فنانون عالميون، تعبيراً عن حبهم لاصيلة، وتقديراً للوقت الجميل الذي قضوه بين أهلها. كذلك تلمس هذا الذوق، في الكورنيش الواسع الذي يزدحم بعد الغروب بأهل البلد وزوارها. تمتلئ المطاعم والمقاهي وتعزف الفرق الموسيقية المغربية والوافدة في الباحة عند سفح القلعة.

يتقاطر الشباب المغربي، وبعضهم يفد من مراكش وفاس والدار البيضاء وتطوان والرباط لحضور الندوات والمحاضرات في المركز الثقافي.

هذا مركز به قاعة كبيرة للمحاضرات والعروض السينمائية، و«قالري» لعرض اللوحات الفنية وغير ذلك. وقد بني بدعم مالي من السلطان قابوس، سلطان عمان. وأيضا يوجد قصر للثقافة، كان بناء قديما متداعيا، فرمم وأعيدت عمارته بتمويل من الحسن الثاني، ملك المغرب. وقد أخبرني محمد بن عيسى ان هذا الملك المستنير، يواصل دعم النشاط الثقافي من ماله الخاص، كلما أحس أنهم في ضائقة، أمدهم بالعون دون اعلان، ودون أن يطلبوا منه.

في أصيلة اليوم عدة فنادق مريحة، يجد فيها الزائر كل ما يحتاج اليه. وفندق «الخيمة» حيث تنزل وفود موسم أصيلة، فندق رحب، به حمام للسباحة، وغرفه نظيفة مؤثثة ببساطة، يمتلئ أغلب العام بالسواح.

ليس من المبالغة القول، أن محمد بن عيسى، حقق في أصيلة شيئاً يشبه المعجزة. لقد حول الأحلام التي يكتبها الروائيون، والأفكار التي تلوكها الألسن في الندوات والمؤتمرات، عاما بعد عام، الى واقع محسوس. مزج بين الثقافة والتنمية، وضرب مثلاً بعيد الدلالة، كيف يستطيع مجتمع ان ينهض بجهد أبنائه وبناته، معتمداً على طاقاته الابداعية الكامنة. وهو مثل جدير أن يتأمله المفكرون والدارسون، ففي الوقت الذي يبدو فيه، أن الخطط الشمولية والأماني العقائدية في احداث ثورات اجتماعية كبرى في العالم العربي، لم تأت بكبير طائل، هاهنا تجربة اكثر تواضعاً وأعظم جدوى. لذلك يقول محمد بن عيسى «كل واحد يهتم بما حوله. يصلح ما يستطيع اصلاحه في حدود مقدرته. كل واحد ينظف أمام داره».

هذا هو السلوك الذي حضنا عليه ديننا الحنيف، فنسيناه فأنسانا الله أنفسنا، وأهملناه فحاقت بنا الذلة والمسكنة. «لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

واضح من الآية الكريمة ومن الحديث الشريف، ان الهدف لا يتحقق بالاكراه والقهر، ولكن بأن يتحرك الناس بملء حريتهم ومحض ارادتهم. كذلك كان الأمر في البدء، ولا مناص أن يكون كذلك اليوم.

في أثناء ذلك، قام محمد بن عيسى برحلة جريئة في اعادة اكتشاف ذاته والعودة الى جذوره، طالما حلم بمثلها الشعراء والروائيون وأنا واحد منهم. وعجيب ان عودته كانت الى بلدة تسمى «أصيلة». هاجر الى مصر أوائل الخمسينات طلباً للعلم. وكان المغرب في قبضة الاستعمار الفرنسي والاسباني. تعذب وعانى. كان يعود الى المغرب فيجمع بعض المال من العمل في اذاعة طنجة، ثم يرجع ليواصل دراسته. وبعد ذلك سافر الى الولايات المتحدة لمزيد من العلم. أيضا كان يدرس ويعمل. وتزوج من أمريكية. وحال تخرجه التحق بالعمل في منظمة الامم المتحدة، حيث صعد السلم الوظيفي قفزاً، واصبح مديراً في منظمة الغذاء والزراعة وهو في أوائل الثلاثينات من عمره. وقد عمل مدة في افريقيا وكون صلات واسعة مع زعمائها ومفكريها، وتعمقت اهتماماته بأحوال الشعوب السوداء، الأمر الذي ترك أثراً عظيماً في نفسه، وظهرت نتائجه في عمله الثقافي في أصيلة.

ثم فجأة، كما أخبرني، استقال من عمله، وكان في أوج نجاحه. قرر ان يعود أدراجه الى نقطة البدء. اشترى بثمانية آلاف دولار داراً خربة في الحي القديم، حيث ولد ونشأ. أعاد بناءها حسب تصميم صديقه الفنان محمد المليحي.

حدثني محمد بن عيسى، انه استيقظ ذات ليلة على طرق حاد وصوت ينادي باسم أمه. قال:

«أدركت فجأة أنني بنيت داراً بجوار قبر أمي».

طلق زوجته الامريكية، وتزوج من سيدة من أسرة عريقة في فاس. أنشأ أسرة جديدة وبدأ حياة جديدة وهو في الأربعينات من عمره. وقد ارتبطت رحلته الذاتية ارتباطا وثيقاً بعمله الدؤوب لنهضة مسقط رأسه، ثم بعطائه للمغرب بأسره، بوصفه وزيرا للثقافة ■

(أحدث مقية)

7345

نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

في كل موسم من مواسم اصيلة، يحدث شيء طريف يلفت الانتباه. في هذا الموسم الثقافي الرابع عشر، جدّت عدّة اشياء مهمة. عقدت ندوة عن جذور الفكر العربي المعاصر وأي دور له في المستقبل. واستضيف الكاتب البرازيلي (جورج امادو)، وهو في نظر الكثيرين واحد من عظماء كتّاب الرواية في هذا العصر، ويعتبره البعض - وأنا منهم - أعظم الكتّاب الأحياء في امريكا اللاتينية.

وقد تراس ندوة عميقة الاشارات والدلالات، عن التمازج الثقافي في البرازيل.

وايضاً تم في احتفال كبير تقديم جائزة (تشيكايا اوتامسي) في الشعر الافريقي، للشاعر (ريني دبستر). هذا بالاضافة الى ندوة عن المرحوم يوسف ادريس. فلابدأ بالحديث عن تشيكايا اوتامسي.

كنّا زملاء في منظمة اليونسكو في باريس طيلة خمس سنوات. تعرفت عليه في اول شهر، فلم يكن التعرف على تشيكايا صعباً. كان نوعاً من الناس، يجعلك تحس انه يعرفك، وانك تعرفه، منذ وقت طويل. لعلّني تعرفت عليه عن طريق المهدي المنجرة او محمد عزيزة او محمد بن عيسى. كان محمد بن عيسى أوّل ما يصل الى باريس، يتفقد اصدقاءه ويجمعهم حوله، ويكون بينهم دائما هذا الشاعر الذي يحمل قلبه على راحتيه، يضحك كثيراً ويطوي ضلوعه ولا شك، على حزن بعيد الغور.

اتذكره ضيق الصدر بالنظم البيروقراطية في اليونسكو، يحن الى التفرغ لكتابة الشعر. ولعله كان يحلم ان يبني داراً في أصيلة، في الحيّ القديم، بجوار صديقه محمد بن عيسى. وكان قد أخذ في تعلم اللغة العربية، يتحدثها بلكنة حلوة، ويضحك اثر كل عبارة ينطقها.

لم اكن قد قرات شيئا من شعره تلك الايام، فقد كان يكتب باللغة الفرنسية، التي كنت قد بدأت اتعلمها لتوي، لكنني كنت اعلم انه شاعر كبير، يحظى بتقدير واسع حتى في فرنسا.

يقول محمد بن عيسى في كلمة مؤثرة القاها في رثائه في اصيلة عام ١٩٨٨:

«كالطفل في مواسم اصيلة. كان من الروّاد الاوائل، قدم اليها في الموسم الاول راكبا حماراً، حيث لم يكن في اصيلة وقتئذ وسائل مواصلات من محطة القطار الى المدينة.

قدم اليها بانسانية جميلة ترعرعت مع المواسم. سكن في الفندق الوحيد في السوق. كان يخرج كل صباح ليحمل الماء من البئر حيث لم يكن في الفندق ماء (...).

عرفته عن طريق صديقنا المشترك المهدي المنجرة. عشنا معاً كل الافراح والاتراح. بعد ذلك احتلّ أصيلة. دخل ليسكن بيوتها كواحد من أهلها (...).

وبعد ان اختطفته يد المنيّة، كان لي ولصديقي المهدي المنجرة بتكليف كريم من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، الشرف في توديعه الى مثواه الاخير (...) وصاحبناه في «بوانت نوار» في رحلته الى المقبرة الجميلة، حيث يرقد جثمانه قرب المحيط. وقال لي صديقنا المهدي انها امتداد لشاعرية تشيكايا على المحيط الافريقي من أصيلة الى «بوانت نوار».

يا له من عمل متحضر حقّا، ان ترسل دولة وفداً رسمياً لتشييع جثمان رجل ليست له اي صفة رسمية - شاعر وحسب. ولا بد ان ذلك اسعد تشيكايا حيث هو في العالم الاخر. الاّ ان تكريم اصيلة للشاعر لم يقف عند ذلك الحد. فهذا العام افتتحت حديقة جميلة تحمل اسم تشيكايا اوتامسي في الباحة امام القلعة، في احتفال حضره ضيوف موسم أصيلة، وكان بينهم (جورج امادو). وفي وسط الحديقة شيّد نصب من الرخام، حفرت عليه أبيات من شعر تشيكايا. وقبل ذلك أنشئت جائزة للشعر الافريقي باسمه.

انني إذ اذكر كل ذلك، احس بتقدير عميق لدولة المغرب ووزير ثقافتها الموهوب، الاّ انني احس ايضا ببعض الاسى، حين افكر ان قليلين حتى في السودان، يعرفون اين ثوى جثمان الشاعر العبقري التجاني يوسف بشير، الذي يرقد في قبر مغمور في أم درمان، ولم يخطر لأحد ان يسمي شارعا باسمه او يفعل اي شيء يمجد ذكره. وقس على ذلك. والثورات تشب وتخمد. فهذا مثل جميل آخر يضربه المغرب الكريم، عسى اخواننا في السودان وفي غيره من ديار العروبة والاسلام، ينسجون على منواله.

هذا، وتقول نبذة عن حياة تشيكايا، في كتيب صدر عن المنتدى الثقافي العربي - الافريقي باصيلة، ان تشيكايا ولد عام ١٩٢١ في بلدة «مبيلي» في الكونغو - برازافيل. وكان والده فيلكس تشيكايا، من زعماء الكونغو البارزين، وكان عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية.

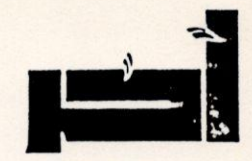
لم يلبث تشيكايا ان هجر الدراسة في فرنسا، حيث وصل عام ١٩٤٦، وانصرف الى كتابة الشعر. وكان يعيش من عمله في مهن صغيرة، فعمل حمالا وبوابا في مطعم وعاملاً في مخزن وعاملاً في مزرعة. وفي عام ١٩٥٥ صدر ديوانه الأول «الدم الفاسد» يحمل اسمه الكونغولي الخالص الذي عرف به، «تشيكايا اوتامسي» بدلاً من الاسم الاوروبي الهجين «جيرالد فيلكس تشيكايا» وهو عمل، على بساطته، يلخص روح الشاعر، في حياته وفي شعره - الحنين الى الجذور والتمرد على التزييف والوجه المستعار.

ظل يكتب الشعر، ويعيش كيفما اتفق، لا يبالي اي حرفة يحترف. وسرعان ما ظهر ديوانه الثاني «نار الادغال»، الذي احدث صدى كبيرا. وفي عام ١٩٦٦ نال جائزة الشعر الكبرى في المهرجان العالمي للفنون الزنجية بدكار، على ديوانه «موجز: مداخل فهرست العشق».

ترجم شعره الى لغات عدّة ورشح اكثر من مرة لجائزة نوبل. وحين فاز بها الشاعر النيجري وولي شوينكا عام ١٩٨٦، قال انه يعتبر تشيكايا أوتامسي شريكا له في الفوز ■

(للحديث بقية)

نحوأفق بعيد



ورقة



بقلم الطيب صالح

في قصيدة رائعة تهز الوجدان بحق، يقول الشاعر الكبير بلند الحيدري في رثاء تشيكايا أوتامسي:

«يا من أحييت بوهجك كلّ الارض
لا تمضِ
فاصيلة قد كبُرتْ... صارت اجمل من كل صبايا الدنيا
واصيلةُ اذْ تحيا... نحيا
صارت تفهم سر الدمعة والضحكة في عينيك
وصارت تعرف منْ قطع كل اصابعي العشر
ومن القى في النهر بعمري
ومن داس روايا
صارت تكتب شعراً... ترسمْ
تعرف كيف تغنّي ولمن ستغنّي
حفظت كل حكاياتِ الانسِ
وكلّ حكايات الجنّ
وصارت شيئاً منك وشيئاً منّي
وصارت تعرف ان العمّ تشيكايا من بعض صباها
تؤمن انّ تشيكايا لن ينساها
لكنّ تشيكايا
لوّح لي ولها ومضى في العتمةِ حتّى اقصى امداها».

ما أجمل قوله «صارت شيئاً منك وشيئاً منّي»، وذلك كما ينبغي ان يكون، وقد صدق الشاعر. بل انني لا اعرف مدينة عربية تعرضت لما تعرضت له «أصيلة»، من ثقافة وفكر وفن. وإذْ تجد عواصم عربية كبرى لا يميّز اهلوها هل انت من اليمن او عمان أو السعودية او السودان، ها هنا، الناس في الاسواق والمقاهي والفنادق، يعرفون الكتّاب والشعراء والفنانين باسمائهم. هؤلاء الشبان والشابات الذين يستقبلون الضيوف ببشاشة لا تكلف فيها، ويرتبون شؤون اقامتهم وتنقلاتهم، ويعملون بسعادة واضحة، ويسالون ويحاورون ويناقشون، كانوا أطفالا حين شرع محمد بن عيسى في تجربته الرائدة. كبروا الآن، وكبرت البلد معهم. بعضهم في الجامعات، وبعضهم تخرج وشق طريقه في الحياة، وبعضهم يواصل دراسات عليا في جامعات المغرب وخارج المغرب.

وكلّهم يذكر تشيكايا أوتامسي، الشاعر الكنغولي، ذا الوجه الأبنوسي الوسيم، الذي كانَ السنوات مسّته برفق، فلم تجرحه بمخالبها القاسية كما تفعل. الشعر واللحية وخطهما الشيب، والعينان العميقتان مغرورقتان بالاحزان.

وفيم الأحزان؟

يقول الكاتب الموهوب شربل داغر في كلمة جميلة مؤثرة عن تشيكايا:

«الاّ انه كان لا ينِي عن القول ان الشاعر مثل السلحفاة «بيته على ظهره». كان يقول، ويعني ما يقول، ان وطنه اينما ينتقل. أيْ صورة الوطن فيه، أي غربته».

هذا يذكرني بتعبير إمام المغتربين، جيمس جويس:

«يا حبي الأول والأخير، يا ارلندا.
القسيس بك والقيصر،
مثل اليد في القفاز،
انني لن أذعن».

لكن هذه الترجمة، لا تحيط بالمرامي الشاسعة في عبارة جيمس جويس: I shall not serve

يقصد، لن أذعن و لن ارضخ ولن اهدأ ولن اقبل ولن أعمل ولن أنسى ولن أسلو ولن أغفر ولن أهمل ولن أذهب ولن أحضر ولن أقطن ولن أسكن، وهلمّ جرا.

كذلك كلّ شاعر مع وطنه، وكذلك كان حال تشيكايا مع الكنغو.

نعود الى حديث شربل داغر الحصيف عن تشيكايا أوتامسي:

«حمل الكنغو معه «على ظهره» بضفتيه - الدم المنشطر، الدم الأسود! تصاحبه دقات طبل زنجي بعيد، مثل أصوات الليل نتفقدها دون جدوى، مثل صباحات الخيبة الدامية (...) الانسان ينسى، يتناسى؛ يتحايل أو ينضج. اما الشاعر فيتعذب ولا يغفر أبداً.

قد لا يكون الشاعر مشاء او أعمى، الاّ انه كائن حزين مؤكداً، حزين لما جرى وللانزياح الحاصل بين... وبين... كان حزينا دون هوادة مثل سهم منطلق».

ان شربل داغر يعرف ما يقول، واذا تحدث عن تشيكايا فعلينا ان نرهف السمع. هذا الشابّ اللبناني المتوهج هو نفسه من بركات «أصيلة». ثمة تعرفَ على تشيكايا، وأحبه وأحب شعره، وترجم عن الفرنسية ديوانه «دمٌ فاسد». كما ترجم مختارات من الشعر الزنجي سوف تصدر قريباً. وهو أمرٌ مُفْرِح طال انتظاره في عالم العربية الذي يصدق فيه قول شاعر النيل:

امّةٌ قد فتّ في ساعدها
بغضُها الاهلَ وحبُّ الغرباء،

والزّنجْ والافارقة، اهلكم وذووا أرحامكم اكثر ممّا تتصورون!

هذا وقد حاول تشيكايا ان يستقر في الكنغو، ولكنه لم يفلح، وهجره اثر الاحداث الماساوية على عهد باتريس لومومبا. ومنذ عام ١٩٦٠ عمل في منظمة اليونسكو الى ان أحيل الى التقاعد قبيل وفاته. وكان ذلك من ماثر احمد مختار أمبو، مدير عام اليونسكو السابق، الذي فتح أبواب المنظمة لمبدعين ومفكّرين من افريقيا وبقية اقطار العالم الثالث، كانت مغلقة في وجوههم قبله. وهو رجل يصدق فيه قول الشاعر القديم:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغرِ.

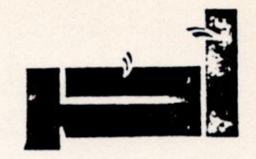
هكذا ترى يا أصلحك الله، ان مبعث حفاوة محمد بن عيسى بهذا الشاعر الكنغولي النابغة، بالاضافة الى التقدير والمحبة، ولكن ايضا لتحقيق غاية نبيلة ما اكثر ما تحدثوا عنها ولم يفعلوا شيئا، الا وهي شد العرى بين افريقيا السوداء والعالم العربي، عرى الروح والفكر والثقافة والفن. وهي بحق قارة شقيقة لعالم العرب، وتلقى منهم ما يلقى الأشقاء. في غمرة هذا الاهمال، لا يملك المرء الا ان يزجي الثناء لدولة المغرب ووزير ثقافتها الذي انشا في وقت مبكر ضمن موسم أصيلة الثقافي «المنتدى الثقافي العربي - الافريقي» ويشترك في رئاسته الرئيس الشاعر ليوبولد سيدار سنغور والأمير المفكّر الحسن بن طلال ولي عهد الأردن. وكان شيكايا من أعضائه الذين اسهموا فيه بحظ وافر.

اسمع يا صديقي ان استطعت، مناجاة خليلك الشاعر العربي، الذي هو ايضا «يحمل وطنه على ظهره»:

«مازالت في مقهانا الساهر حد البحر زوايا
تسالنا عن وعدٍ اخر
عن باقة شعر
عن قصص وحكايا
عن بيت في غابات الكنغو عن نهر يشدو لرباها
تسالنا ان لا ننسى موعدنا القادم في الصيف القادم
تسالنا عن غربتنا اليقظى في الزمن النائم
عن الم أسود نحياه
ونابي ان نزت في لُجّة مرماه».

أتخيلك طربت لقوله «تسالنا عن غربتنا اليقظى في الزمن النائم» بلى، لقد أحسن. وانه لامر عسير كما تعلم، ان تصحو والزمان معتل ومختل ومملوح.... ونائم ■

(للحديث بقية)





بقلم الطيب صالح

حين تقابل (ريني دبستر) لاول مرة، تدهش لسببين على الاقل. لا تجد شاعراً كما يتخيل الناس الشعراء، ولكنك تلقى انساناً وديعاً يحتضن احزانه بجلد كما تضن النباتات الصحراوية بالماء.

كنا في مبنى واحد في منظمة اليونسكو في باريس، في عمارة «ميوليس»، هو في الطابق العاشر وانا في الطابق السابع. رايت رجلاً مثل عرب موريتانيا او السودان او اليمن، أسود مجازاً، لانه هو ظل يؤكد في شعره انه زنجي، ولان الاوروبيين لا يرون من الالوان غير البياض والسواد. الله اعلم من اين جاءه هذا اللون، كما يتعادل الشاي مع الحليب مناصفة. خافت الصوت، وقور الحركات. ولكن انظر الى العينين. ثمة يكمن الشعر. الحزن، نعم، لا مفر من الحزن في عيني الشاعر الحق. وايضا اشياء اخرى. الكبرياء، والرقة والاقدام والاحجام والحكمة والجنون، وما شئت:.

«... الا انني، مصاباً بحالة الشعر، كنت ابني بيتي قرب عصفور من الفردوس، حتى ان منحدراتنا ونيراننا تتلامس. كنت استمع في المساء لصديقي يطلب من رفيقة عشه اعداد حمام من الهرمونات الطازجة له. كنت اتبادل مع هذا الثنائي برتقالا واجنحة وصوراً بذيئة وقصص الساحرات. كان يحدث لنا نحن الثلاثة بعد ظهر احد نهارات تشرين الاول، ان نرسم بالازرق احزان شجرة الليمون الحامض الصديقة».

هذه الشراسة المهذبة لا تراها في عيني الشاعر من اول نظرة. شيكايا اوتامسي كان شاعراً كما يتخيل الانسان الشعراء، متدفقاً حوله مثل عباءة فضفاضة. كان يضحك قهقهة، ويلعن منظمة اليونسكو علناً، ومع انني لم اره يبكي، فانني اتخيل انه كان يبكي بسهولة. اما هذا الشاعر الهاييتي، فهو بخلاف ذلك، من فصيلة محمد المهدي المجذوب:.

«لم ينبلج الفجر بعدُ في البيت
والحنين مستلق الى جانبي
ينام، يستعيد قواه،
ذلك ان مصاحبة زنجي
متمرد ورومانسي متعبة.

له خمس عشرة سنة او الف عام،
او وُلد للتو،
وما هو نومه الاول،
تحت السقف نفسه مع قلبي.

منذ خمس عشرة سنة او منذ قرون
أستيقظ من دون ان أحسن التحدث
بلغة شعبي،
من دون صباحات اربابها الوثنيين،
من دون طعم خبزها من شتلة (المانيهوت).

منذ خمس عشرة سنة او منذ عبور
دمي للبحر باكيا،
الحياة الاولى التي أحييها عند استيقاظي،
هي هذه المجهولة ذات الجبهة النقيّة
التي ستصير عمياء ذات يوم
من فرط استعمالها لعينيها الخضراوين
وتعدادها للكنوز التي اضعتُها».

هذا، وقد جاء في كلمة محمد بن عيسى وزير الثقافة المغربي، في حفل تقديم جائزة شيكايا اوتامسي الى ريني دبستر قوله:.

«الفائز علم في سماء هذا الشعر، بعد ان نشر ما يزيد على عشرة دواوين وعددا من القصص والروايات والبحوث النقدية، وقد حظيت في حينها وحتى ايامنا هذه باهتمام النقاد والقراء، حتى ان جائزة (رينودو) المرموقة كرسته في عام ١٩٨٨ (...).

الشاعر الفائز هو شاعر الحرية قبل اي شيء، وقد عانى من عذابات المنفى والسجن بعد ان طمع بغد افضل ومشرق لشعبه كما لشعوب القارة السمراء. بهذا الاحتفال نجمع بين شيكايا اوتامسي وريني دبستر، وبالتالي بين اطراف افريقيا حيثما كانت في العالم. كما اننا بتكريمه نسلط الضوء على رافد مهم في الشعر الزنجي - الافريقي، وهو القصيدة السوداء خارج افريقيا».

يدهشك ايضاً ان ريني دبستر من (هاييتي) ذلك البلد الذي حوّله الروائي الانجليزي (جراهام جرين) الى مهزلة في روايته (الكوميديون). حكمه الدكتاتور السفاح (بابا دك) بخليط من السحر البدائي والدهاء الشيطاني وسفك الدماء بلا ادنى رحمة بواسطة زبانيته ال (تون تون ماكوت). وسار ابنه (بيبي دك) على طريقه البشع. ولعلك تعجب كيف ان شاعراً كبيراً مثل ريني دبستر خرج من بلد مثل (هاييتي). وقد يخطر لك ان (هاييتي) قطر تافه. تكون مخطئا، وتذكره ان شعب (هاييتي) كان اول شعب اسود يثور ضد الاستعمار الاوروبي ويقيم جمهورية مستقلة عام ١٨٠٤. وحين نمعن النظر في شعر ريني دبستر، يتاكد لك انه لا يوجد شعب تافه. يوجد بعض الحكّام التافهين احيانا.

ثمة وُلد الشاعر عام ١٩٢٦، وقد اصدر ديوانه الاول (شرارات) وهو في التاسعة عشرة من عمره. وبعد ان لعب دوراً بارزاً في مقاومة النظام الديكتاتوري هرب الى كوبا، حيث اقام قرابة عشرين عاما. ومن ثم سافر الى باريس حيث التحق بعد فترة بمنظمة اليونسكو، وقد عينه المدير العام احمد مختار امبو بمكتبه الخاص اول الامر، ثم عمل الى ان تقاعد عام ١٩٨٦ في قسم الثقافة. كان مكتبه في الطابق العاشر في عمارة (ميوليس) حيث سعيت الى التعرف به.

بدا لي رقيقاً بل هشاً وانا احاوره في ذلك الصباح، وارهف السمع الى صوته الخافت، لكنني كنت اعلم ان مظهره الوديع مظهر خادع، وان وراء ذلك ارادة مثل الفولاذ المطروق. والا فمن اين يجيئه مثل هذا الشعر؟

«المسكين دبستر!
قال رجل ذو عينين زائغتين.
لماذا مسكين انا؟
ليس العيش بعيداً عن الوطن
مصيبة الا لمن فاتهم قطار الطفولة الازرق
قطار أيامي البهيجة
استقله دائماً كل صباح
على اصغر قشة.

أسافر باستمرار طوع جذوري
حدائقي رطبة من قبلاتي الاولى
عجلاتي ومراوحي وصواريخي
تعرف دروب الشعر السرية
انها نهاية الرحلة!
ليبق الجميع في القطار.
فيما بعد حدود حياتي
تبقى بطاقات السفر صالحة
الفجر والغروب يبسطان بفرح تحت قدميّ
جزراً اكثر استدارة من الحنين».

• ترجم هذه القطعة لريني دبستر وشعره المذكور في هذه المقالة، عن الفرنسية الكاتب اللبناني شربل داعر.

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

حين يقرأ العربي أدب امريكا اللاتينية، يدخل عالما غريبا ومألوفا لديه في الوقت نفسه. كأنه ينظر الى نفسه في مرآة. كأنه يكتشف أشياء في ذاته كان قد نسيها. هذا لا يحدث له حين يقرأ الآداب الاوروبية.

في أدب (أستورياس) و(بورخيس) و(فوينتس) و(أمادو) عوالم مثل عالمنا، تزخر بالحيوية وتعج بالتناقضات، الانسان الفرد لا ينقصه الذكاء ولا سعة الخيال، ولا الطاقة على العمل. ومع ذلك تجد المجتمعات على وجه العموم أقل من حصيلة قدرات الأفراد، في حالة غليان مستمر، لا تكاد تستقر على حال. ونحن نشترك واياهم في التجربة الاستعمارية، والتراث العربي الاسلامي الذي أخذه الى هناك، الاسبان والبرتغاليون.

أمريكا اللاتينية مثل افريقيا، تهمنا لعدة اسباب، ولا نعرف عنها الا القليل. لذلك كانت دعوة محمد بن عيسى للكاتب البرازيلي الكبير (جورج أمادو) الى أصيلة، مبادرة من مبادراته البارعة.

هذا عملاق من عمالقة فن الرواية في هذا العصر. ولد عام ١٩١٢ في مقاطعة (باهيا) في الشمال الشرقي من البرازيل، وهي المنطقة التي تجري فيها أحداث كل رواياته. وقد التحق عام ١٩٣١ بكلية الحقوق في (ريو دي جانيرو) لكنه لم يلبث فيها طويلاً، فقد قرر ان يتفرغ للأدب بعد نجاح روايته (أرض الكرنفال) التي صدرت في العام نفسه. وفي عام ١٩٥٨، تأكدت شهرته حين نشر روايته (قابريلا ـ القرنفل والقرفة)، وهي رواية ذاعت ذيوعاً واسعاً حين ترجمت الى اللغة الانجليزية. أنتج بغزارة، وزادت شهرته ذيوعاً، فقد حول كثير من أعماله الى أفلام ومسلسلات تلفزيونية، وربما يكون هذا هو السبب انه لم ينل جائزة نوبل الى اليوم، فقد ظل اسمه يتردد كمرشح لها منذ عام ١٩٦٢.

يلفت النظر في أدب (جورج أمادو) اهتمامه العميق بالتأثير الزنجي في البرازيل، حتى لتحسبه كاتبا افريقيا مثل (أشيبي) او (نقوقي). بل هو في الواقع اكثر زنجية من بعض الكتاب الأفارقة الذين يكتبون باللغة الفرنسية او اللغة الانجليزية. تجد ذلك واضحا في روايته (جوبيابا) ثم في روايته (خيمة المعجزات ١٩٦٩). وتعتبر روايته (الموت مرتين لكونكاس ووتريل ـ ١٩٦٥) من روائع الأدب المعاصر.

تجد في أدب (جورج أمادو) أنّ ارادة الانسان تنتصر على ظروفه، وأن بوسع الفرد ان يرتفع فوق عقبات الحياة التي تبدو مستحيلة احيانا. وكثيرا ما تحدث المعجزات. وعالمه عالم متسامح، يغفر للناس أخطاءهم، قد تتحول فيه المرأة الساقطة الى قديسة. وقد ابتدع الكاتب نماذج لا تنسى، كما في روايته (تيتادو أقرستي) لنساء تغلبن ببسالة على ظروفهن البالغة التعاسة، واصبحن ذوات هيبة ونفوذ في المجتمع.

يلفت النظر ايضا في أدب (جورج أمادو) ان العربيّ عنده ليس انسانا مخادعا جبانا غادرا جشعا الى آخر هذه الافتراءات التي تعودنا عليها في كثير من الأدب الاوروبي والامريكي. وهو في اسوأ الظروف انسان عادي كبقية خلق الله، عنده القدرة على فعل الخير والشر. بل انه يفتخر بانه ينتمي الى التراث العربي الاسلامي الذي نقله البرتغاليون الى البرازيل، وان ذلك جزء من تكوينه الروحي، ويقول ان تاريخ اسبانيا والبرتغال، لا يمكن ان يفهم على الوجه الصحيح الا بالرجوع الى تاريخ العرب في الأندلس.

قلّ ان يسمع العربي مثل هذا الكلام من كاتب اوروبي او امريكي. لذلك أقول انها كانت مبادرة موفقة من محمد بن عيسى انه دعا (جورج أمادو) الى اصيلة، وعقد ندوة عن التمازج الثقافي في البرازيل ضمن نشاط (جامعة المعتمد بن عباد الصيفية). الى ذلك، نظم له وزوجته ومرافقيه جولة زاروا فيها طنجة والدار البيضاء وفاس ومراكش. في مراكش خاصة وجد (أمادو) ملامح واضحة للعالم الجديد الذي يدعو اليه، ويجد فيه خلاص الانسان، مراكش تلك المدينة الحمراء الفريدة، بموقعها بين افريقيا الزنجية ودنيا العرب والبربر واوروبا الى الشمال. وذلك الخليط البشري الجذاب المتعدد السحن والألوان.

كان هذا الكاتب العظيم حقاً مخلصاً حين قال لنا في اصيلة، انه يعتبر امريكا اللاتينية امتداداً لافريقيا، وأن المحيط الاطلسي ليس حاجزاً بينهما، وأنّ بوسع الانسان ان يلغي وجوده في خياله. وذهب أبعد، فدعا ان يغير اسم امريكا اللاتينية الى (افريقيا اللاتينية).

وجد (أمادو) في المغرب أشياء كثيرة حركت وجدانه وأثارت خياله، وأكدت له صدق ما يدعو اليه. فهم اكثر أن الاختلاط والتمازج وتوالد السلالات وتلاقح الأفكار والأخذ والعطاء بجرأة نادرة المثال، كل تلك امور تميزت بها الحضارة العربية الاسلامية. بل هي أهم ما اعطته للتراث الانساني. وإنّ بدا اليوم اننا ننحو نحو التطرف بدل الاعتدال، والتزمت بدل التسامح، والجمود والصغار عوض الآفاق العقلية والروحية الشاسعة التي فتحها العرب والمسلمون في تاريخهم، فما ذلك الا لأننا تهنا عن المنابع الصافية، وشربنا من آبار موبوءة المياه.

بلى، وقد صادف وجود (جورج أمادو) في أصيلة، بلوغه التاسعة والسبعين من العمر، فنظم محمد بن عيسى احتفالا بالمناسبة كأنه عرس، انعكس ضوء الشموع على مياه النوافير في صحن قصر الثقافة الجميل. انشدت جوقة الموشحات الأندلسية كما كانت تغني ولا بد أيام مجد العرب في الأندلس. رقصت بنات أصيلة في ثيابهن المغربية الأخاذة. وجوه عربية وبربرية واوروبية وزنجية، ووجوه مزيج من كل ذلك.

رأيت عيني الكاتب الكبير تفيضان بالدمع، ولا أظن انه سوف ينسى أبدا ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٠



بقلم: الطيب صالح

في حوار أجري معه في باريس عام ١٩٨٧ قال «جورج أمادو»:

«أنا كاتب بسيط من (باهيا). لا أعرف كيف أرقص او أغني او أقود السيارة. فقط اكتب. وأنا اكتب عن الأشياء التي أعرفها. آخذ من تجارب حياتي. منذ بدأت اكتب وأنا صبي، كنت أحس بتعاطف تلقائي مع الطقوس الافريقية. ومازال. في البرازيل تعرض العنصر الزنجي والثقافة الزنجية الى اضطهاد عظيم من قبل الكنيسة الكاثوليكية. كانوا هدفاً لضروب وحشية من الاضطهاد. أضطهاد على اساس العرق والدين والطبقة. وأنا كواحد من الذين قاوموا الاضطهاد باستمرار، فانني اقف في صف عامة الناس. اقف في صف الثقافة الزنجية، في صف الجماهير الزاخرة التي يتكون منها الشعب البرازيلي».

في «أصيلة» في شهر أغسطس الماضي، قال أمادو أن البرازيل اصبحت اليوم مثلاً يحتذى في التعايش السلمي بين مختلف الاجناس، والتمازج الخلاق بين الثقافات. وقد سألته كيف حدث ذلك، ولماذا في البرازيل بالذات، فقال:

«انها معجزة».

وبعد ان فكر قليلاً أضاف:

«البرتغاليون رغم اي شيء، امتازوا عن الاسبان والانجلوسكسون باستعدادهم العظيم للاختلاط والتمازج. انجبوا اطفالا غير شرعيين من النساء الزنجيات ونساء الهنود سكان البرازيل الأصليين. كان هدفهم انتاج مزيد من الرقيق للعمل في حقول البن وقصب السكر. الا أن هذا العنصر الخلاسي المولد جاء اكثر حيوية من البرتغاليين واكثر ذكاء، بل واكثر جمالا ووسامة. فلم يستطيعوا أن يفرضوا سيطرتهم عليه مدة طويلة».

والحق، أن ما حدث في البرازيل وفي اماكن اخرى، نوع من المفارقة الحادة التي مايفتا يقدمها لدعاة التفوق العرقي والتفرد الحضاري. ظل البرتغاليون منذ عام ١٥٣٢ يجلبون الى البرازيل آلافاً من الزنوج الارقاء من غرب أفريقيا، من قامبيا وسيراليون ومالي وساحل العاج وساحل الذهب وخاصة من أنجولا التي أستعمروها ربما لهذا الغرض. وكان كثيرون من هؤلاء الارقاء، كما يقول كاتب أنجليزي «مسلمين يعرفون القراءة والكتابة. وكانوا اكثر رقياً وتحضراً من سادتهم البرتغاليين الذين كانوا أميين في الغالب».

وكما حدث للعنصر الاوروبي في أماكن كثيرة بدرجات متفاوتة، فقد عاشر البرتغاليون في البرازيل النساء الزنجيات وانجبوا منهن مزيداً من الارقاء. ولكن هذا العنصر الجديد كما قال «جورج أمادو» خرج يحمل «جينات» اكثر صلابة، ومصابرة على الحياة لا يملكها أسيادهم البيض. وكان حتماً إن يفقد البرتغاليون وضعهم المميز، ويذوبوا في هذا المحيط البشري الهجين. يقول «جورج أمادو»:

«في الموسيقى مثلا، حين تستمع الى «هيتور فلا لوبوس» او الى ملحنين أمثال «دورفال قايمي» و«كايتانو فلوسو» و«قلبرتو جل»، تجد الاثر الافريقي واضحاً. بلادنا فيها ثلاثة روافد ثقافية كبرى. البرتغالي الاوروبي الابيض - رغم ان البرتغاليين ليسوا بيضاً تماماً - والافريقي والمحلي. الثقافة البرازيلية هي جماع كل هذا.. ثقافتنا صنعت في الفراش».

بدأ البرتغاليون تحرير الرقيق، بتحرير أبنائهم من أمهات مسترقات. وقد اصدروا عام ١٨٧١ قانوناً اطلقوا عليه أسماً عجيباً هو «قانون الرحم الحر». ولم يكن ذلك بدافع انساني، ولكن لان اسعار السكر في العالم كانت قد هبطت الى مستوى جعل الاحتفاظ بالرقيق العاملين في مزارع القصب أمراً باهظ التكلفة. وفي عام ١٨٨٥ اصدروا قانونا بتحرير الرقيق فوق سن الستين. وفي عام ١٨٨٨ صدر قانون شامل بتحرير الرقيق.

في ظل هذه الظروف القاسية نشأ كتاب وشعراء عظام من أصل زنجي، منهم الشاعر «كروزو داسوزو» والكاتب الروائي «الفونسو هنريك دي ليما بارتو» الذي تعالج اعماله مشكلة الاضطهاد العنصري الذي تعرض له الزنوج والمولدون في مجتمع يعتبر نفسه اوروبيا - لاتينيا. وتعتبر روايته «المصير المحزن لبوليكاربو كوارسما» ١٩١١، علامة هامة في تاريخ الادب البرازيلي. وفي روايات «قلبرتو فريري» تاكيد على عمق التاثير الافريقي في الادب البرازيلي، كما في روايته «السادة والعبيد - ١٩٣٣». وهو مولد من الاقليم الشمالي الشرقي وهو الاقليم نفسه الذي جاء منه «جورج أمادو». وتجدر الاشارة الى شاعر مولد من أصل عربي هو «كارلوس نجار»، يحظى بشهرة واسعة، ومن مؤلفاته «قبعة للمواسم».

هذا، ويقول العالم الكبير الدكتور عبد الله الطيب في اشارة جميلة الى بيت عنترة العبسي:

بركت على جنب الرداع كأنما
بركت على قصب أجش مهضم

يقول ان عنترة كأنما كان يصف صوته، ذلك لان الناقة حين بركت على القصب أحدثت صوتاً كما تنفخ في مجموعة من النايات.

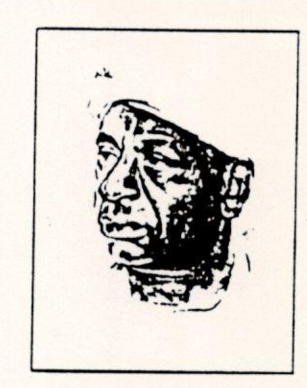
نعم، بوسعك ان تسمع في هذا البيت، وفي كل شعر عنترة الحافل بالنبل والشجن، صوتاً كصوت المغني الامريكي الزنجي العظيم «بول روبسن». هذه الاعماق والابعاد جاءت الى عنترة من أرثه العربي الزنجي.

ذلك ايضاً تجده في أدب «جورج أمادو» - هذا الانسان الاوروبي الذي يحمل روحاً زنجية. الكاثوليكي الذي يحتفي بتراث الاسلام. الابيض الذي يتمنى لو كان هجيناً. المواطن البرازيلي من «باهيا» الذي اكتشف اشياء يعرفها ويحبها في «أصيلة» في المغرب. يقول:

«سوف يمضي الادب البرازيلي في طريقه وفياً لخصائصه الاساسية ومحافظا على التزامه بقضايا عامة الناس. في أدبنا وحدة عريقة منذ عهد شاعرنا العظيم «قريقوريو دي ماتوس» - ذلك الرجل المولد من «باهيا». لقد قاوم الاستعمار البرتغالي، وحتى في تلك الظروف العصيبة، رفع لواء الحرية وحارب في سبيلها. هذا التراث الذي وصل الينا اليوم، يؤكد ان الادب البرازيلي كان دائما في خدمة عامة الناس» ■

نحو أفق بعيد

١٤١



بقلم الطيب صالح

ليتني كنت شاعراً مثل غازي القصيبي. اذاً لقلت شعراً في هذه المناسبة. ما أسرع ما تمر الاعوام. تغمض وتفتح فاذا عشرة أعوام، فاذا عشرون عاماً من عمرك قد ذهبت، لا تدري الى أين وكيف ذهبت.

ويخيل اليك أنك أنت أنت. ولكن هيهات. انني أذكر قصيدته الجميلة بمناسبة زواج ابنته. كان يتحدث بلسان الآباء جميعاً. كان سعيداً وكان حزيناً، وهو يكون في أحسن حالاته حين يتأرجح بين السعادة والحزن. الفرح لأن البنت قد كبرت وتزوجت، ولكن ماذا حدث لسنوات العمر؟ الطفلة شبت عن الطوق وذهبت الى كنف رجل آخر. ولعمري أن في مسرات الحياة المشوبة بالأحزان، كعهدها دائماً مشوبة بالأحزان، ما يغني الشعراء، خاصة الكبار منهم، عن مزالق الهجاء!

كنت وزوجتي نحضر حفل التخرج في كلية «قولد سمث» التابعة لجامعة لندن، لأن ابنتنا الكبرى (زينب) كانت بين المتخرجين. نادوا على اسمها فخرجت من بين صفوف الطلبة والطالبات في عباءتها الجامعية السوداء، والقبعة المسطحة ذات الذيل الذي يتدلى على الجانب. الفرح، نعم، كما أحس غازي القصيبي. مشت على المنصة واثقة الخطو، فيها طيبة السودانيين وعناد الاسكتلنديين، صافحها رئيس الجامعة وابتسم لها وابتسمت له. يا سبحان الله. هل هذه طفلة الأمس التي نعرفها؟

كان بين المتخرجين أيضاً ميسون ناصر، ابنة صديقنا نديم ناصر وزوجته مديحة المدفعي. كنا زملاء في هيئة الاذاعة البريطانية. منذ متى؟ ما أسرع ما تمر الأعوام.

إنما ليس هذا موضوع حديثي. كنت افكر طوال الاحتفال الذي استمر نحو ساعتين، افكر واقارن واسائل نفسي، لماذا هؤلاء القوم على ما هم عليه؟ ولماذا نحن على ما نحن عليه؟ ما هو الذي عندهم وليس عندنا؟ الذكاء؟ نحن ما شاء الله لا ينقصنا الذكاء. القدرة على العمل؟ في تاريخنا أدلة كافية على قدر استطاعتنا. الطموح؟ لعلنا اكثر طموحاً مما يجب. الحكمة؟ ربما يكون هذا. لعلهم اكثر منا حكمة.

بدأ الاحتفال بأن عزفت الأبواق من موسيقى «ماندل»، وسارت المواكب. موكباً في إثر موكب. موكب الرئيس. ثم مواكب العمد. عمدة «لويشام». عمدة «برملي». عمدة «كرويدن». عمدة «لامبث». عمدة «بكسلي». كل هذه مناطق في لندن لها صلة قديمة بهذه الكلية التي أنشئت أصلاً لخدمتها. مواكب تثير خيالك وتدهش سمعك وبصرك. الموسيقى تصدح، وكل عمدة في زيه المميز، أمامه ووراءه حاشية يحملون شارات سلطانه العريقة التي توارثوها منذ قرون. كل شارة لها مغزى في ذاكرة الشعب، وكل خطوة لها معنى، فكأن الزمان الذي ذهب لم يذهب سدى، وكأن الماضي، تعاد صياغته في الحاضر ويمتد الى المستقبل.

الحكمة؟ نعم، لعلهم اكثر حكمة منا.

ساروا بتؤدة محسوبة على أنغام موسيقى «ماندل» موكباً في اثر موكب. موكب الأساتذة وموكب الزملاء الفخريين. وارتقوا صفاً صفاً فوق المنصة.

تحدث اولاً عميد الكلية «برفسر أندرو رذرفورد» بلكنة اسكتلندية واضحة، وأنا من زمن أحمل اعجاباً خاصاً بالاسكتلنديين. ناظر مدرستنا في وادي سيدنا «مستر فاركسن لانج» كان اسكتلندياً. كان مربياً فاضلاً. يعجبني فيهم أنهم قبائل مثل العرب، وأن طبعهم فيه سماحة مثل العرب، وهم كرماء عكس ما يروج عنهم الانجليز، وموسيقى «القرب» عندهم مليئة بالشجن خلاف موسيقى بقية أوروبا. وقد أخذها عنهم، وأجاد فيها الجيش السوداني والجيش الأردني. وكانت فرقة الموسيقى في الجيش السوداني يضرب بها المثل، تعزف موسيقى القرب كما تعزف في اسكتلندا. لا بد أنهم بعثروها الآن، كما خربوا سكة الحديد وجامعة الخرطوم والخدمة المدنية. وكسروا محطة السكة الحديدية في الخرطوم، وسوق الخضار وسوق اللحوم، بحجة أنها من مخلفات الاستعمار متى يفهم هؤلاء القوم أن الأشياء الحسنة التي تركها الاستعمار هي ملك للشعب؟

سير «والتر سكوت» صاحب روايات «ويفرلي» اسكتلندي، والشاعر العبقري الصعلوك «روبرت بيرنز» اسكتلندي. أنه صاحب الأبيات الشهيرة التي اصبحت أغنية ذائعة:

اذا انسان
قابل انساناً
سائراً في حقل الشعير،
اذا انسان
كلم انساناً
فهل لا بد أن يبكي ذلك الانسان؟
كل البنات يغازلنني بعيونهن،
وأنا أسير في حقل الشعير

ولا يخفى، أن الانسان الذي كلمه الانسان، ليس انساناً بل انسانة. وقد اقتبس الكاتب الامريكي «أر. دي سالنجر» من هذه الأبيات، عنوان روايته الشهيرة «صياد في حقل الشعير». وقد ترجم بعض اخواننا كلمة Rye الى «شوفان». وأنا شخصياً لا أعرف «الشوفان» ولم أره، وما أظن الا أنه «الشعير» فكله عند العرب «شعير».

ذاك. و«روبرت لوي ستيفنسن» صاحب رواية «جزيرة الكنز» اسكتلندي، و«هارولد ماكملان» آخر دهاة حكام بريطانيا اسكتلندي. وفوق هذا وذاك «توماس كارلايل» الكاتب الشجاع الذي أنصف نبينا الكريم في زمن عز فيه الانصاف، اسكتلندي.

هكذا أحببت الاسكتلنديين الى حد ان صار لي عندهم صلة ورحم، فهل أنا في ذا يال همدان ظالم؟

بلادهم ذات طبيعة ساحرة، تتخللها البحيرات والخلجان التي يسمونها «لخز» واحدها «لخ» فهم ينطقون حرف «الخاء» مثل العرب. وقد كانوا فقراء مدقعين الى عهد قريب، حتى وجد عندهم البترول والغاز في بحر الشمال، لذلك هاجروا زمراً وتفرقوا في البلاد فشب لديهم حنين قوي الى موطنهم الأصلي يظهر في أغانيهم كما عند اللبنانيين. وفي طبعهم ميل عظيم الى العدل الاجتماعي ومناصرة المظلومين، وغالبيتهم العظمى تؤيد حزب العمال.

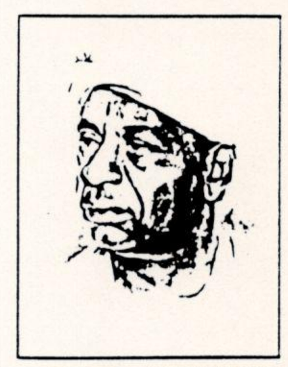
حاربوا الانجليز حقباً قبل أن يتحدوا معهم، وعاصمتهم «أدنبرا» بقلعتها الضخمة ومعمار مبانيها الذي يمت الى القارة الاوروبية اكثر مما يمت الى الجزيرة البريطانية، تشهد على صلابتهم وقوة مراسهم.

جامعتهم الأولى، في «سانت أندروز» لا تقل عراقة عن «اكسفورد» او «كيمبردج»، وصحيفتهم الـ «سكتسمان» أكثر صحف بريطانيا رصانة، وأكثرها عدلاً وانصافاً في النظر الى شؤون العرب ■

للحديث بقية

نحو أفق بعيد

١٤٢



بقلم الطيب صالح

مباني كلية «قولد سمث» في منطقة «نيو كروس» العمالية في جنوب شرقي لندن، مثل البنت الجميلة التي تستغني بشبابها عن الحلي والثياب الغالية. عُطل من الأبهة التي تفحمك في مباني الجامعات العريقة، مثل «اكسفورد» و«كيمبردج». تلك مؤسسات قامت في عهود الاقطاع وغلبة الطبقة الارستقراطية والكنيسة، ففي معمارها أصداء من ذلك، انما جامعة لندن فهي وليدة علو نجم الطبقات العاملة، وكلية «قولد سمث» خاصة، يرتبط تاريخ مولدها ونشاتها بالتحولات الاجتماعية الكبيرة التي تعرض لها المجتمع البريطاني منذ القرن التاسع عشر والى اليوم.

مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية، وهي اشهر كليات جامعة لندن، أنشأها «سدني وب». كان ارستقراطيا، ولكنه انحاز مثل كثيرين من تلك الطبقة الى صفوف غمار الناس. أنشاوا جمعية الفابيانيين التي كانت في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن بمثابة العقل الذي غذى حزب العمال بالفكر. انضم اليهم الكتاب امثال «بيرنارد شو»، والعلماء أمثال «برفسر توني» العتيد، وكان «سدني وب» وزوجته «بياترس وب»، من أقطاب الفابيانيين، وقادة الرأي في حزب العمال.

أيضا كان «سدني وب» أحد الذين رعوا كلية «قولد سمث» منذ بدايتها المتواضعة. في عام ١٨٩١ اشترت شركة «قولد سمث» التجارية بخمسة وعشرين الف جنيه، مباني كانت تستعملها البحرية البريطانية في اغراض التدريب وانشاوا معهدا حددوا هدفه:

«تنمية المعرفة والقدرات الابداعية ومنح الصحة والسعادة للشبان والشابات الذين ينتمون الى الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة».

كان ذلك بلا شك، بدافع انساني، ولكن أيضا بدافع غريزة البقاء والمحافظة على الذات، فقد بدأت الطبقات المحظوظة في بريطانيا تحس أنهم اما ان يعطوا الفقراء والمساكين من فضول أموالهم طواعية، وأما ان الطوفان الجارف للمطالبين بالعدالة الاجتماعية، سوف يغرقهم في وجهه.

ظلت الشركة تنفق على المعهد من مالها الخاص، وكانوا يؤملون ان يكون نواة لكلية جامعية تامة تستفيد منها مناطق جنوب شرقي لندن الفقيرة. وفي عام ١٩٠٤ قدموا المباني هدية لجامعة لندن مشترطين أن تظل تستعمل في الاغراض التعليمية.

هذا الحلم لم يتحقق الا في عام ١٩٨٨، فبعد مفاوضات طويلة مع سلطات جامعة لندن، وجهود رجال ونساء أفذاذ نوه بهم «برفسر رزرفورد» في كلمته الافتتاحية . أخيرا صدر «ميثاق ملكي» نص على ان تكون كلية «قولد سمث» (مدرسة)، أي كلية جامعية كاملة من كليات جامعة لندن.

فذلك الاحتفال كان مجموعة احتفالات كما قال العميد، ذلك الرجل الاسكتلندي الواضح، الذي تحس أنه يقول ما يعني ولا يبالي، وكان خطابه مزيجا من الجد والهزل، والثناء والنقد، ووراء كل ذلك الحكمة في توخي المصلحة العامة. ذكر ان الاحتفال يصادف ذكرى مرور مائة عام على انشاء الكلية، وانه اول احتفال بتخريج الطلبة، كما انه احتفال بان كلية «قولد سمث» قد أصبحت كلية جامعية كاملة. واشاد بالدعم الذي قدمه «لورد وايتلو» للكلية، اثناء مفاوضاتها الطويلة مع سلطات جامعة لندن. وقد كان «لورد وايتلو» الى وقت قريب نائبا لرئيسة الوزراء، وكان في نظر الكثيرن احق من تلك السيدة برئاسة الوزارة. كذلك اثنى على «لورد «فلورز» للمساعدة التي وجدوها منه، وقد كان رئيسا لجامعة لندن Vice Chancellor في الفترة التي كانوا يتفاوضون فيها مع الجامعة.

الاّ ان العميد لم يأل في نقد سياسة الحكومة ازاء الجامعات، وخاصة في عهد «مسز تاتشر»، وهي نغمة ظلت تتردد في ما تلى من كلمات. ومعروف ان «مسز تاتشر» ضيقت الخناق على الجامعات وقترت أشد التقتير في الدعم الذي تقدمه الحكومة لها. ذلك اثار حفيظة الاكاديميين، وهم أصلا بحكم تقليد قديم لديهم، لا يكونون على وفاق مع الحكومات خاصة حكومات المحافظين.

في هذا السياق، نوه «برفسر رزرفورد» بالخدمة الاكاديمية والاجتماعية المميزة التي تؤديها كلية «قولد سمث»، وقال ان بها اليوم ثلاثة الاف وخمسمائة طالب وطالبة يتلقون العلم في شتى فروع المعرفة، جاءوا من لندن ومن بريطانيا عامة، ومن أماكن كثيرة في العالم. هذا بالاضافة الى ارب الاف طالب وطالبة في فصول «الدراسة المستمرة». وقال ان الكلية حافظت على دورها القديم في تدريب المعلمين وفي تدريس الفنون، وقال ان بها اكبر قسم لتدريس الفنون في أي من جامعات بريطانيا.

فكرت وانا استمع الى الكلمات، وماتزال ترن في أذني أصداء موسيقى «هاندل» التي كانما تهيب بحشد ان يتقدم، قلت، هؤلاء اناس احرار في بلد حر، كل واحد واثق من نفسه وواثق من انتمائه لوطنه، مؤمن باهمية العمل الذي يقوم به، لا يحس انه اقل من الوزراء او رئيس الوزراء. كل واحد يقول بامانة، في حدود اللباقة والكياسة ما يرى انه الصواب. ان عاجلا وان أجلا تتلاقى الافكار وتتفاعل، وينتج فكر متجانس يرضى به الناس ويترجمونه الى عمل، الهدف هو المصلحة العامة، ولا هدف سواه.

وفكرت في السودان المسكين الذي اناخوا عليه بكلكلهم منذ أمد. كل يجيء بخيله وخيلائه ينادي بالاصلاح. ثم يذهب، فهم يذهبون ثلة ثلة طال الزمان أو قصر. وتتلفت حولك فلا تجد الا الخراب. هؤلاء قرروا الآن ضربة لازب ان يفتحوا جامعات جديدة، في كسلا وفي عطبره وفي شندي. الله أعلم أين. اسموا ذلك ثورة تعليمية. في اثناء ذلك خربوا الجامعات القائمة أصلا. خربوا جامعة الخرطوم العريقة فهجرها اساتذتها واصفر عشب ميادينها. وقرروا أيضا كما ينطلق السهم الطائش وخلاف ما نصح به العارفون، ان يعربوا التعليم في الكليات العلمية مثل الطب والهندسة والزراعة. علما بان هذه قضية معقدة لم يبت الخبراء في امرها بعد، في منظمة اليونسكو وفي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. عرب التعليم يا هداك الله، ولكن خذ الاهبة واستعد الاستعداد.

أنما هكذا، فانك سوف تملأ البلد حملة شهادات لن ينفعوك ولن ينفعوا البلد.

قارن يا أصلحك الله بين عجلة أصحابنا اولئك، وبين حكمة هؤلاء القوم. انتظروا اكثر من تسعين عاما حتى يجعلوا كلية «قولد سمث» كلية كاملة بنص عهد ملكي، في نطاق جامعة لندن. أما كان باستطاعتهم ان يفعلوا ذلك بين غمضة عين وانتباهتها حسب هذه الاساليب «الثورية»؟ وهم عندهم المال والعدة والعتاد؟

هل قلت الحكمة؟ بلى، لعلهم اكثر حكمة منا ■

نحو أفق بعيد

١٤٣



بقلم الطيب صالح

الله أعلم ماذا حدث لتلك السيدة الجميلة الوجه التي أوفت على الثمانين؟ لقد عرفتني وابتسمت لي ذات يوم في مطار الخرطوم الحزين؟

من نواحي رفاعة أو الكاملين. أو لعلها من جهة أبعد شمالاً أو جنوباً. من «الجنينة»، أو «سنار» من «المتمة»، أو «القدار». عرفتني لأنني أحببتها وأنا بعد طفل يقعد ويقوم، وحملت حبها وطوفت به في الآفاق. ثم ها أنذا وقد تداعى البنيان وتزعزعت الاركان.

لم تجدي قبراً يسترك في ذلك البلد الطويل العريض. أجبروك على النزوح وقد حق لك أن تستقري وتستريحي. لعلك تموتين وتدفنين في بلد بعيد، في أرض ليست أعطانك وجيرة ليسوا جيرانك. لك الله. والثورات تشب وتخمد، والعهود تجيء وتذهب.

* * *

نعم. قلتُ ان ذلك الاحتفال اثارني وحرك اشجاني، خصوصاً حين جاء وقت منح الزمالات الفخرية التي تعادل الدكتوراهات الفخرية في جامعات أخرى. خمسة رجال، كل واحد منهم بلغ شأواً في ميدانه، وكل واحد منهم قدم خدمة من نوع ما لكلية «قولد سمث».

ينادي الرئيس باسم الشخص الذي أختاروه للتكريم، فيقوم من مقعده ويقف متجها بوجهه الى الجمهور في القاعة. وينادي الرئيس على اسم رئيس القسم الذي رشحه، فيقوم ويأخذ في تقريظ الرجل وبيان الأسباب التى جعلت الكلية تمنحه زمالتها الفخرية.

الموسيقى البارز «جاك برايمر» حامل وسام الامبراطورية البريطانية OBE.. ومن أشهر عازفي آلة «الكلارنت» فى المملكة المتحدة. ترجع صلته بكلية «قولد سمث» الى عام ١٩٣٣ حين التحق بها ليتدرب ليصبح مدرساً للموسيقى. كان يعزف مع فرقة معهد الدراسات المسائية. وكان أيضاً يلعب الـ «رقبي» مع فريق الكلية، ومثل كلية «قولد سمث» فى مباريات جامعة لندن.

عمل مدرساً فترة، وحين شبت الحرب أنضم الى سلاح الطيران. وفي عام ١٩٤٧ أختاره «سير توماس بيتشام» عازفاً فى فرقة «الفلهارمونكا الملكية» التى كانت قد أنشئت لتوها. لمع أسمه كواحد من أبرز عازفي الكلارنت فى بريطانيا، وأصبح عازفاً أول في الفرقة السيمفونية لهيئة الاذاعة البريطانية، وأستاذاً في الأكاديمية الملكية للموسيقى.

الى جانب اهتمامه بالموسيقى الكلاسيكية، أهتم بموسيقى الجاز، وعزف مع فرق بريطانية وامريكية. وقد أدى دور «السولو» للكلارنت اوائل هذا العام في الحفل الموسيقي الذي قدمته فرقة كلية «قولد سمث» في ذكرى عيدها المئوي، وعزفت فيه كنشرتو موزار، التي صادف أن مضى عليها هي أيضا مائة عام منذ تاليفها.

فكرتِ في قومي رعاهم الله، غربي وشرقي السويس، والى الشمال منه والجنوب. حيث «الأسوأ مثل الأفضل» كما قال أحد شعراء هؤلاء القوم، (رديارد كبلنج). ذلك، والرجل المحتفى به يستمع الثناء عليه في أستحياء. رجل ربعة القامة في السبعين أو يزيد، ولكن كأنه في الخمسين، أقرب الى هيئة لاعبي كرة الـ (رقبي) منه الى الموسيقيين. ولما فرغ الخطيب من تزكيته، أتجه نحو الرئيس، وأنحنى كل منهما للآخر، انحناءة لم تأخذ غير ثواني، ولكنها كانت حافلة بالمعنى. صافحه الرئيس وسلمه براءة زمالته الفخرية.

ثم.. الرايت أنربل لورد فلورز، زميل في الجمعية الملكية، وعضو مجلس اللوردات. وقف رجل مديد القامة، فوق السبعين ولا بد ويبدو أصغر سناً. اخذ يصغي الى رئيس قسم العلوم يعدد مناقبه، بانتباه وسعادة كأن ذلك أعظم شرف يناله في حياته، رغم انه نال أمجاداً كثيرة من قبل.

عالم «فيزيائي» خدم في جامعتي «بيرمنجهام» و«مانشستر»، كما عمل في قسم الأبحاث الذرية في «هارول». وفي عام ١٩٧٣ أصبح رئيساً للكلية الامبراطورية للعلوم، وهي من أشهر معاهد تدريس العلوم في العالم. ثم صار رئيساً لمجلس البحوث العلمية، ورئيسا لمعهد الفيزياء. وتوج حياته الاكاديمية بأن صار رئيساً لجامعة لندن. في تلك الفترة، كان له دور كبير في نجاح المفاوضات بين كلية «قولد سمث» والمجلس الأعلى لجامعة لندن، وجعل الكلية «مدرسة» كاملة في نطاق الجامعة.

بعد تقاعده، أصبح له دور فاعل في مجلس اللوردات، الذي أختاره رئيسا للجنته المختارة لدراسة أوضاع العلوم والتكنولوجيا، كما ظل منذ عام ١٩٧٨، رئيساً لمؤسسة «نفيلد» الخيرية.

ولم ينس الخطيب أن ينوه بالدور الذي يلعبه «لورد فلورز» على نطاق القارة الاوروبية، مثل عضويته للأكاديمية الأوروبية، وأنه يحمل وسام الشرف من فرنسا.

كيف لم ينؤ كاهل هذا الرجل تحت ثقل الأمجاد التي يحملها والأعباء التي نهض بها؛ يحق له الآن ان يرتاح. يأوي الى مزرعته في الريف، يربي الأبقار ويلعب الـ «جولف» ويقرأ روايات «أقاثا كرستي». لكن هذا لن يحدث. هو الآن في قمة نضجه العقلي، وسوف يحملونه أعباء اكثر في خدمة المجتمع. أناس أحرار في بلد حر، وكل يعطي حسب قدرته على العطاء، لا يمنعه عن ذلك الاّ حدود موهبته.

كم من الرجال والنساء - قلتُ لنفسي - حيل بينهم وبين خدمة أوطانهم وهم في ذروة العمر؟ ضباط في الجيش قتلوا أو سجنوا أو أحيلوا للتقاعد؟ معلمين أرغموا على ترك وظائفهم؟ سفراء أستغني عن خدماتهم ظلماً فتحولوا الى تجار، موظفون أنفقوا زهرة أعمارهم في الخدمة المدنية فألقي بهم كما تلقى القمامة. أساتذة في الجامعات أضطروا على الهجرة اضطراراً فتشتتوا شرقاً وغرباً.

أكثر ما حدث في هذا السودان المسكين، ذلك البلد الغني الفقير، العظيم الصغير. وكل ذلك بسبب هؤلاء «الزعماء، النجباء، الأذكياء الأغبياء، الذين يتوهمون أن ارادة الله قد اختارتهم ليكتبوا الصيغة النهائية في سفر التاريخ.

من الذي يبني لك المستقبل يا هداك الله، وأنت تذبح الخيل وتبقي العربات، وتميت الأرض وتحيي الآفات؟

المستقبل لن يجيء على صورة محددة. أما علموك ذلك في جامعات لندن وهارفرد والسوربون؟

الأوطان لا يبنيها رجلٌ واحد ولا حفنة رجال، مهما بلغ منهم الالهام والعبقرية، ولكن يبنيها مئات الآلاف من الرجال والنساء. ناس أحرار في وطن حر. كل يعطي على طريقته وقدر أستطاعته. المستقبل بيد الله. المفتاح ليس بيدك، وأنت لا تدري ويمنعك الغرور والكبرياء أن تعترف أنك لا تدري ■

---

* أعطان الأبل: مرابضها

(الحديث متبع)

نحو أفق بعيد

١٤٥



بقلم الطيب صالح

اول مرّة زرت مدينة «نيويورك» كانت في عام ١٩٦٠، ارسلني القسم العربي بهيئة الاذاعة البريطانية لاصف وقائع جلسات الجمعية العموميّة للامم المتحدة، في تلك الدورة التاريخية التي حضرها اغلب زعماء العالم. اذكر وصولي من لندن قُبيل الغروب، واذكر احساسي بالغربة وانا انظر الى لون الشفق. لون بين البنفسجي والارجواني والاحمر، كانك تنظر الى رسم سوريالي. كانه لا ياتي من جهة بعينها، فلم استطع ان اميّز اين الشرق واين الغرب، وهل ثمة شروق أم غروب.

هل كان اسم المطار «ايدلوايلد» في تلك الايام؟ لم يكونوا قد أسموه مطار «جون اف كندي». لم يكن «كندي» قد صار رئيسا بعد. كل تلك الاحداث الماساوية لمّا تزل في طيّات الغيب. احس بغير قليل من التوجس بعد رحلة طويلة عبر المحيط الاطلسي، وفارق الوقت، والزمن كانه لا يتحرك، وصورة «امريكا» في ذهني فوضى، خليط من انطباعات غير مترابطة.

من الكتب. كنت قد قرات كثيراً بالطبع في الادب الامريكي. روايات «شتاينبك» و«همنجوي» و«سكت فتزجرالد» و«سالنجر» و«فولكنر». خاصة «فكلنر». والشعراء «والت ويتمان» و«روبرت لوول» و«روبرت فرست». كنت وما ازال شديد الاعجاب بـ «روبرت فرست». والمسرح. قرات وشاهدت على مسارح لندن اعمال «يوجين اونيل» و«آرثر ملر» و«تنسي وليمز». والنقاد، «ادموند ولسن» و«ليونيل ترلنج» و«ماري مكارثي». والكتاب السياسيين خاصة «والتر لبمان» و«برفسر كينان».

وراء ذلك كله، تلك الصورة الزّاهية التي انطبعت في ذهني وانا بعد صبي، من قراءة الطبعة العربية من الـ «ريدرز دايجست» التي كانت تصدر في الاربعينات باسم «المختار». كنت انتظر صدورها لا أكاد أقوى على الصبر، أدّخر من مصروفي القليل، لاشتريها كل شهر. كان يترجم المقالات عن الانجليزية كبار الكتاب في مصر، امثال ابراهيم عبد القادر المازني وأحمد زكي وفؤاد صروف، وربّما العقاد ايضا.

انني اذكر شكلها الجذّاب، بين الكتاب والمجلة، والرائحة الفضّة النافذة حين تأخذ في تقليب اوراقها، والمواضيع الطريفة المتنوعة. واللغة. انني ما أزال اذكر بعض العبارات التي انحفرت في ذاكرتي حفرا، مثل قول «الكس كارل»:

«ليس الشباب زمناً من أزمنة الحياة، بل هو شعور في النفس وارهاف في العزيمة وتوقد في الخيال، وغلبة شهوة المغامرة على حب الراحة...».

كنت انتفض طرباً وانا اقرا مثل هذا الكلام - وأنا بعد صبي، وكانت عبارات مثل عبارة «شهوة المغامرة» تحدث بلبلة في وجداني. انا الطفل المرهون بافاق وادي النيل.

كانوا يقدّمون عالماً مزيجا من الصدق والكذب - كما أدركت فيما بعد - عالماً مغريا يسوده العدل والحب والسعادة. يتحوّل فيه الفقراء بجهدهم ومثابرتهم الى اغنياء. يتغلّب الناس على الصّعاب، لا يحد شيء من طموحهم. عالم مرح متفائل. وكانوا يقدّمون في كل عدد ملخّصاً لكتاب يسمونه كتاب الشهر. اذكر كتاباً عن حياة «هلن كلر»، تلك السيدة البكماء الصمّاء التي لم تمنعها عاهاتها ان تتعلّم ويصبح لها شان. وكتاب اسمه «لوبو ملك الذئاب»، وكتاب اسمه «الملكات بمتن كريمات»، عن الاعمال (البطوليّة) لقاذفات القنابل الامريكية في المحيط الهادي في الحرب العالمية الثانية. وكتاب «اكسل منتي» الشهير «قصة سان مشيل». قرات الكتاب باللغة الانجليزية فيما بعد، وزرت «قلعة سان مشيل» في نورماندي، التي يقال انها أوحت لأكسل منتي بالكتاب، وعبثاً حاولت ان أسترجع المتعة التي وجدتها من قراءة الملخص في مجلة «المختار».

ثمّة سمعت لاول مرّة عن «مارك توين» صاحب القصص الرائعة عن مغامرات «توم سوير» و«هكلبري فن». وعن «امرسن» و«هو ثورن» و«جاك لندن». كانت «المختار» زوبعة ثقافية بحق. لقد عادت الآن الى الصدور، بعد ان كانت قد توقفت زمنا، ولا اعلم كيف هي الآن، وهل الاجيال الجديدة يقبلون عليها بشغف كما كنّا نفعل. ولعل الامريكيين لا يدركون أي رصيد من الاعجاب تجاه بلدهم صنعته تلك المجلّة لدى مئات الآلاف من العرب، وهو رصيد ظلّت امريكا تبدّده بقسوة منذ عام ١٩٤٧ والى اليوم.

ضع الى جانب هذه الصورة المشرقة، صورة اخرى بدات تتكوّن لدي بعد مجيئي الى لندن. الافلام عن العنف والمافيا والاجرام. والانباء في الصحف الانجليزية عن حوادث الخطف والنهب المسلح، وخاصّة في مدينة «نيويورك»، حيث لا يأمن الانسان ان يسير في وضح النهار، حسب تلك الروايات.

بكل تلك الاحاسيس المتضاربة اتّجهت الى جاري في الـ (بص). رأيت رجلاً ضخماً لا يكاد المقعد يتّسع لجسمه، صارم الوجه. تماماً مثل مجرم في فلم عن «ال كابون». صدمني المنظر وكدت أحجم عن السؤال، ولكنني تماسكت، كما أفعل، ومضيت قدماً:

«معذرة. هل تعلم كيف أصل الى هوتيل (بلتمور)؟».

أدخلني في ورطة حين قال على الفور:

«انني أنزل في هوتيل قريب منه. سوف أوصلك اليه».

عجبت لصوته. كانه لا ينتمي الى ذلك الجسم. صوت رقيق مهذّب فيه لكنة خفيفة، ربما تكون اسبانية.

كانت الشمس تؤذن بالغروب حين هبطنا من الـ (بص) في (مانهاتن). الغروب او الشروق او لعلها غربت بالفعل أو شرقت. لا تدري. انما ذلك الضوء العجيب ينعكس من الزجاج، مساحات شاسعة من الزجاج، من المباني العملاقة التي حشدت في ذلك الحيز الضيق. أيّ خيال مجنون فعل هذا؟ ولماذا؟ والضوضاء والزحام. كانك في كوكب آخر.

قلت للرجل:

«هل ناخذ تاكسي؟».

«لا داعي لذلك. هوتيل «بلتمور» على بعد خطوات من هنا».

شكرته على لطفه ولكنه لم ينصرف، بل انتظر حتى اتممت اجراءات تسجيل وصولي، وأعطوني مفتاح غرفتي. قلت له:

«انا حقّاً مدين لك. أشكرك على مساعدتي. اظن انني سوف انام مبكّراً لان امامي غداً مهمة شاقة».

«عندك وقت كاف للراحة. سوف اتركك الآن وسوف أمرّ عليك في الساعة التاسعة. يسعدني ان تقبل دعوتي للعشاء».

أي ورطة هذه؟ العشاء مع واحد من جماعة «ال كابون»؟ ولكن «شهوة المغامرة» لديّ، تغلّبت على ايثار السلامة، وقلت فليكن.

وصلنا مطعماً في شارع شديد الاتساع، أوسع حتى من «الشانزليزي» في باريس. عرفت من الرجل انه شارع الامريكتين. وعلى العشاء أخبرني أنه محام من قواتيمالا وله مكتب في نيويورك. كان مهذبا جداً، واسع الاطلاع، كثير الأسفار فيما يبدو. زار مصر وسوريا، وعنده فكرة عن السودان. يعرف على الأقل ان عاصمته تسمّى الخرطوم. لكنني رغم ذلك لم أستطع ان اتغلّب على احساس الشك الذي ساورني ازاءه من أول وهله. لعله تاجر سلاح. لعله مهرّب مخدرات. كل شيء جائز في هذا العالم الغريب.

أعطاني الكرت باسمه وعنوانه وأرقام تلفوناته.

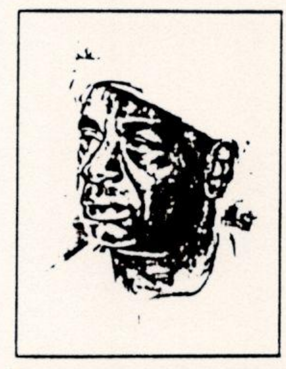
«أرجو الاّ تتردد في الاتصال بي اذا احتجت الى أي مساعدة».

الاّ انني لم أره بعد ذلك. لم اتصّل به، وحمدت الله انه لم يتصل بي. جذبتني فصول المسرحيّة المثيرة التي كانت تُمثل على مسرح الأمم المتحدة ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٦



بقلم الطيب صالح

قاعة الجمعية العمومية في مقر هيئة الامم المتحدة. حين دخلت وجدت شاباً اسيويا غض الوجه واقفا على المنصة، يخطب باللغة الفرنسية، صوته يرتعش بالغضب والعاطفة. يقول:

«صحيح انا امثل دولة صغيرة لا وزن لها بمقاييس القوة في العالم. لكن ذلك لن يمنعني من التعبير عن رأيي بصراحة..».

ثم مضى الشاب يهاجم بشراسة ما وصفه بالتدخل الاستعماري في شؤون كمبوديا.

كان في صوته عمق ورنة صدق تهز مشاعر السامع، مهما كان. الأمير سيهانوك المسكين. تستمع اليه اليوم بعد مضي ثلاثين عاما، فلا تشعر بشيء. هل هو تغير أم أنت تغيرت؟ ظل على خشبة المسرح، لا يريد ان يختفي، يقول الكلام نفسه، ويلعب الدور نفسه، والسنوات تمر، و جسمه يشيخ، وشعره يبيض، ووجهه يتجعد، ومشاكل كمبوديا لا تحل بل تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

القاعة رحبة مصممة بعناية. دائما يفلحون في بناء القاعات. اجلس في غرفة زجاجية تطل على القاعة، في المكان المخصص للصحفيين والمراسلين على يمين المنصة. الرئيس والى يمينه «داج همرشولد» الأمين العام. سوف اشهد فيما بعد، دراما احتمال استقالة «همرشولد». امامي مباشرة لوحة جدارية تجذب انتباهي. وصفتها في أول رسالة اذاعية بعثت بها بانها تشبه «قلباً أدمياً مفتوحا او دجاجة مشوية».

يا له من وصف غريب؟ لماذا قلت ذلك؟ ولكنني حين أفكر الآن أجد ان الصورة على غرابتها لم تخل من صدق. التناقض العبثي بين أحلام الانسانية المتعلقة بذلك المكان وواقع ما يحدث فيه بالفعل. الايماءات بالألم والمعاناة في صورة القلب الأدمي الذي شق أحد عنه الصدر وأخرجه منه. ثم كأنه شوى القلب وقدمه على طبق لأحد ما ليأكله.

لكن لعلني لم اكن أعي تماماً ما أقول. لعلني فقط كنت ثملاً براح الشباب، كالدائخ من جدة المكان، مزهواً بما حسبته قدرتي على التعبير، أهذي بكلام لا افهم معناه.

قلت أيضا في تلك الرسالة، ان صوت الأمير «سيهانوك» الغاضب هو صوت دول «العالم الثالث» - دول عدم الانحياز.

ان كان ذلك حقا، فان صوت الأمير «سيهانوك» اليوم، بعد ثلاثين عاماً، صوت ضعيف، متعب، يائس، مغلوب على أمره.

كان التعبير جديداً تلك الأيام - العالم الثالث. وكان مفهوم «عدم الانحياز» بغيضاً الى الدول الكبرى في الغرب، وخاصة الولايات المتحدة. وقد استمعت الى «جواهر لال نهرو» العظيم، استمعت اليه عدة مرات بعد ذلك، يشرح للأمريكان بصوته الهادئ المتحضر، ان «عدم الانحياز» لا يعني «الشيوعية» كما يظنون، وانه لا يمثل أي خطر عليهم.

ها هم جميعاً في القاعة. أبطال «حركة عدم الانحياز». نهرو ونكروما وسكتوري وسوكارنو وجمال عبد الناصر. كلهم ما عدا تيتو. راحوا عن بكرة أبيهم، بالحق او بالباطل. يوغوسلافيا التي كونها تيتو بعد جهد جهيد تتناثر أشلاء.

كانت روح عدم الانحياز، هي الروح الطاغية على ذلك الاجتماع. وكنت أعمل في اذاعة دولة من الدول الكبرى التي يهاجمها هؤلاء الزعماء في خطبهم. ووجدتني في التقارير التي أرسلها أتبنى موقف «عدم الانحياز»، ليس عن وعي او تدبير، ولكن بعفوية كاملة، كان ذلك هو الموقف الطبيعي. أليست هيئة الاذاعة البريطانية هيئة «مستقلة» «محايدة»؟

لم يعترض رؤسائي الانجليز في لندن على ما كنت أبعث به اليهم، فكانوا يذيعونه بلا حذف او تغيير. لم يفرضوا علي رقابة من أي نوع، فقد كانوا يفهمون، أنني تعلمت منهم «الأمانة المهنية». لم اكن ازيف شيئا، او اغير او ابدل شيئا. كنت انقل بأمانة ما أراه يحدث أمامي. وكان معظم ما يحدث في ذلك الاجتماع مخالفا لسياسات دولتهم. ومع ذلك تركوا لي الحبل على الغارب، وكانوا يقدرون بلا شك، ان ذلك لن يضيرهم في نهاية الأمر.

في جلسة بعد الظهر، سادت في المكان روح جديدة. اجتمعت كلمتهم، ونسوا خلافاتهم. احتفلوا بقبول نيجيريا التي استقلت لتوها، عضواً في الأمم المتحدة. كان احتفالا بهيجاً - شيئا مثل العرس. دخل وفد نيجريا القاعة في ثيابهم الجميلة الفضفاضة، يتقدمهم رئيس وزرائهم، أبو بكر تفاوا بليوا. هل تذكرونه؟ وكان أبو العروس، ان صح الوصف، ذلك السياسي الداهية، هارولد ماكملان. وقف بقامته المديدة، وشاربه وعينيه اللتين تعطيان وجهه طابعاً مغولياً - وقف مرحباً ومهنئاً.

رجل تعجب به، كما تعجب بممثل بارع، حتى وهو يؤدي دوراً بغيضاً اليك. أرستقراطي، ولكن ليس بالوراثة، فهو ينحدر من اسرة اسكتلندية، دفعها الفقر الى الهجرة الى انجلترا، فعملوا بجد، وكونوا ثروة، وانشاوا دار ماكملان، وهي من دور النشر الكبرى في لندن. تعلم تعليماً ارستقراطيا، وتزوج ابنة (دوق). دخل البرلمان بسهولة، كما يحدث لأبناء الاسرة العريقة، وكان حزب المحافظين يعتبره «ثائراً»، ثم تحول تدريجيا الى اليمين، واصبح مقبولاً لأقطاب الحزب، الذين وجدوه صالحاً لرئاسة الوزارة، بعد فشل فتاهم المدلل «أنتوني أيدن».

كان حزب المحافظين يسمي أيدن «الفتى الذهبي» فقد كانوا يجدون فيه كل الصفات التي يطلبونها في الزعيم. كان ارستقراطياً أبا عن جد، وسيما بمقاييس الانجليز، درس في جامعة اكسفورد، وخدم في الجيش، وأبلى بلاء حسناً. ولم يكن وقاد الذهن الى الحد الذي يخيفهم منه، فهم لا يطمئنون الى النوابغ، ولا يولونهم الا مضطرين. وكان يعرف الفرنسية والعربية والفارسية، واكتسب شهرة واسعة لمهارته الدبلوماسية. اصبح وزيرا للخارجية ولما يبلغ الأربعين من العمر، ثم استقال من ذلك المنصب في وزارة «تشيمبرلين» احتجاجاً على سياسة الحكومة في مهادنتها لهتلر ونظامه النازي. ذلك قوى من رصيده السياسي. ولما تولى «تشيرشل» رئاسة الحكومة، عاد «ايدن» الى وزارة الخارجية واصبح نائباً لتشيرشل في زعامة الحزب وفي رئاسة الحكومة. وظل سنوات ينتظر ان يحل محله، وبعد لأي قبل تشيرشل ان يذهب.

لم يكد يمضي عامان على تولي «ايدن» رئاسة الوزارة، حين دخل في صراع مع شاب من صعيد مصر يسمى جمال عبد الناصر. وكان كل خبرته في الدبلوماسية، ومعرفته بشؤون الشرق الاوسط قد فارقته، فتورط في مغامرة طائشة حين تآمر مع فرنسا واسرائيل على غزو مصر. حول القضية الى صراع شخصي بينه وبين عبد الناصر، وحاول ان يقنع الشعب البريطاني ان عبد الناصر «هتلر» جديد يجب القضاء عليه. لكنه لم يفلح، بل احدث انشقاقاً خطيراً في الرأي العام البريطاني، وفي البرلمان، وفي صفوف حزب المحافظين، واستقال «انتوني نتنج» وزير الدولة للشؤون الخارجية، وواحد من المقربين الى «ايدن». وتوترت علاقة بريطانيا مع امريكا. وانتهت المغامرة بالفشل.

حين اضطر «ايدن» الى ايقاف الحرب، أعلن في البرلمان ان «الحملة» قد حققت اهدافها، فتصدى له «أنايرن بيفان» نائب رئيس حزب العمال، من سلالة عمال المناجم في «ويلز». حاد الذكاء، سليط اللسان، قوي الحجة، من الخطباء المعدودين في تاريخ البرلمان البريطاني. قال بصوت مملوء بالاحتقار الذي عرف عنه لحزب المحافظين:

• ان رئيس الحكومة ينفخ أبواق النصر وهو يتجرع غصص الهزيمة».

البريطانيون، وحزب المحافظين خاصة، لا يغفرون لزعمائهم اذا قادوهم الى هزيمة. لذلك ضحوا بفتاهم «الذهبي». تخلصوا منه بهدوء، كعادتهم، وجاءوا بدلاً منه، بهذا الثعلب الماكر - هارولد ماكملان - ليخرجهم من الورطة ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٧



بقلم الطيب صالح

كان رجلاً عجيباً ذلك الرجل - هارولد ماكملان.

ها هو ذا يقف على المنصة الخضراء من الرخام. وراءه على مستوى اعلى حيث يجلس الرئيس - وزير خارجية ارلندا، اذا لم تخني الذاكرة - والأمين العام، داج همرشولد، الرجل السويدي الذي يتأرجح مصيره في الميزان.

حياهما بانحناءة خفيفة، ثم تمهل وهو ينظر في القاعة المحتشدة. رجل طويل القامة، غزير شعر الرأس، أشيب - ضيق العينين. في وجهه شيء من وجه السنجاب. هيئته، خليط من الاستعلاء والسخرية والملل. كأنه يمثل على المسرح دوراً لا يكرهه ولكنه ليس راضياً عنه تماماً. كان كذلك طوال الفترة التي حكم فيها.

جاء به حزب المحافظين بعد ورطة «حرب السويس» ليصلح ما افسده «أنتوني ايدن» فاتجه اولاً الى اصلاح الأمور مع الأمريكان، ثم ساق الحزب ناحية اليسار، وهو يحدثهم حديث اهل اليمين، وعمل على تفكيك الامبراطورية البريطانية، وهو يؤكد لهم ان بريطانيا ما تزال دولة عظمى. قال للشعب البريطاني على التلفزيون، والسخرية في عينيه، توحي بأنه لا يعني ما يقول:

«يجب ان تعترفوا بأنكم أبداً لم تتمتعوا بالحياة كما تتمتعون بها الآن».

حين ذهب حزب المحافظين وجاء حزب العمال، وجدوا الاقتصاد منهارا والخزينة خاوية.

في خطبة له في «جوهانسبرج» معقل النظام العنصري في جنوب افريقيا، قال قولته الشهيرة:

«ان رياح التغيير تهب على القارة الافريقية».

واليوم ونحن ننظر الى ذلك النظام الكريه يتقوض ونكاد نرى نهايته رؤية العين، لا نملك الا ان نتذكر بغير قليل من الاعجاب، هارولد ماكملان، الاستعماري القديم، الذي عرف ان زمان الاستعمار قد ولّى.

كان يحب قراءة روايات «ترلوب» التي يسخر فيها من الطبقة الارستقراطية وكانت فضيحة «برفيومو» التي حدثت في عهده، كأنها رواية من تلك الروايات. حين كشفت الصحافة عن علاقة وزير في الحكومة ببائعة هوى تسمى «كرستين كيلر» انكر الوزير العلاقة اول الامر، ثم اضطر الى الاستقالة تحت ضغط الرأي العام والبرلمان.

هاج الشعب واضطرب حزب المحافظين، واهتزت الحكومة وهذا الرجل العجيب هادئ الاعصاب، يراقب ما يجري مثل رجل كبير يراقب عبث أطفال.

اختفى «برفيومو» عن مسرح السياسة، وقد كان احد الذين يتنبأون لهم برئاسة الوزارة في يوم من الايام، وانقطع لأعمال الخير في احياء لندن الفقيرة.

اما «ماكملان» فقد جمع شتات الحزب كما فعل بعد «حرب السويس»، وحكم بمزيج من الدهاء والسخرية الى ان مل اللعبة فتنازل طواعية لـ «لورد هيوم». لكنه حتى وهو يفعل هذا، لم يستطع ان يقاوم رغبته في العبث، فرشح خلفاً له، ارستقراطياً من اسكتلندا، يشهد الناس له بالاستقامة وحسن الخلق، ولكن ليس بالكفاءة، وتجاوز «راب بتلر» الذي شهدوا له بالقدرة والكفاءة. كان بتلر هو الذي اقنع حزب المحافظين بقبول الخطوات التي اتخذتها حكومة العمال من قبلهم، لخلق مجتمع اكثر عدالة، ووضع اساس «الاجماع» الذي قبله الحزبان وحكما بمقتضاه، الى ان جاءت «مسز ثاتشر».

كان يؤمل ان يخلف «ايدن»، وظل ينتظر ان يخلف «ماكملان» فلم يسعفه هذا الثعلب المراوغ.

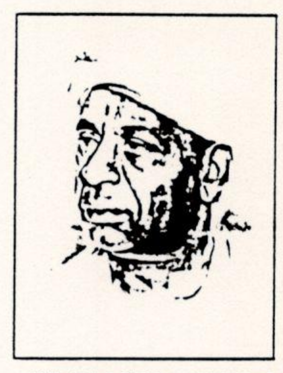
يقف الآن على منصة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، يواجه الشاب المصري من الصعيد الذي تطاول على هيبة الامبراطورية. وثمة زعماء عدم الانحياز الذين عاونوه على جرأته. بعضهم، مثل نهرو ونكروما، يمثلون دولاً كانت الى الامس القريب، تخضع للتاج البريطاني.

بعد ان فرغ «ماكملان» من القاء كلمته، وقف رئيس وزراء نيجريا، سير ابو بكر تفاوا بليوا، فالقى كلمة بلغة انجليزية رصينة، شكر فيها بريطانيا على حسن تصريفها لشؤون نيجريا واعدادها للاستقلال. وكان «ماكملان» يستمع راضيا، مثل اب يشهد حفل تخريج ابنه من الجامعة. ولعله احس ان ذلك يكفي لازالة المرارة التي احدثتها غزو بريطانيا لمصر.

(المجلة، العدد ...)

نحو أفق بعيد

١٤٨



بقلم الطيب صالح

بينما كان «هارولد ماكملان» يقف خطيباً على المنصة، بتلك النبرة المتعالية قليلاً، الساخرة قليلاً، التي يغلب عليها ذلك السأم الأرستقراطي، كان ينظر من حين لآخر الى رجل يجلس في أقصى يسار القاعة، وكأنه يتوجه بحديثه اليه شخصياً. رجل قصير القامة، ممتلىء الجسم، ليس حسن الهندام، هيئته مثل هيئة رئيس عمال بناء، او عمال شحن في ميناء. رجل لو خير «هارولد ماكملان» لما اختار ان يدعوه الى العشاء في داره في لندن، مع صهره «دوق دفنشاير». الا ان ذلك الرجل، الذي يجلس متحفزاً مثل ذئب رابض، هو نجم هذا المهرجان دون منازع. نكيتا سيرقيفتش خريتشوف، أمين عام الحزب الشيوعي ثمة، واقوى رجل في الاتحاد السوفييتي.

أراه بوضوح من حيث أجلس في غرفة من الغرف الزجاجية المخصصة للمراسلين، التي تشرف من عل على بئر القاعة. خيل الي انني رأيت شفتيه تتحركان بعصبية وكأنه يهمهم بعبارات بذيئة - فيما بعد قال شيئاً بذيئاً بالفعل - حين أطنب «هارولد ماكملان» في وصف خيرات الاستعمار على نيجيريا، وكأن الاستعمار نعمة كبرى منّ الله بها على تلك البلاد.

كان يصل دائما قبل بدء الجلسة بنحو ربع ساعة، يقود وفده الكثير العدد، تماما كما يأتي رئيس عمال مع عماله لاستقبال سفينة بضائع حلت بالميناء. ويجلس متحفزاً طوال الجلسة، السماعات على أذنيه، يكتب احياناً، ويرفع رأسه الى المتكلم احياناً، لا يكل ولا يمل، ولا يترك مقعده حتى نهاية الجلسة.

مرة لاحظ قلة الحضور في جلسة صباحية، فهب واقفاً، وصرخ غاضباً قبل أن يعطيه الرئيس الاذن:

«أين يذهب هؤلاء المندوبون؟ ماذا يفعلون؟ ان دولهم الفقيرة تدفع اموالاً طائلة لترسلهم الى نيويورك، ليس للفسحة والتسكع ولكن للعمل».

لم يلبث المندوبون الذين كانوا بالفعل يتسكعون في الردهات ويشربون القهوة في الصالة الفاخرة المخصصة لأعضاء الوفود، أن جاءوا يتسابقون الى قاعة الجمعية العمومية.

حول جلسات تلك الدورة بمهارة عظيمة الى فصول في مسرحية «تراجيكوميدية». البطل الذي يمثل قوى الخير والعدل والحرية، هو الاتحاد السوفييتي. الشرير الذي يمثل قوى الظلام والباطل والقهر، هو «الامريكاني»، ومعه حلفاؤه دول الغرب، وما اسماهم بالخدم والاذيال في بقية أنحاء العالم.

لم يكن يسمي الدول المتخاصم معها باسمائها، وكأنه لا يعترف بوجودها، فيقول «الامريكاني» و«الانجليزي» و«الفرنساوي» و«الطلياني» وهكذا. ولم يكن راضياً تماماً عن دول عدم الانحياز، شأنه في ذلك شأن الامريكان، فقد كان يريدهم ان يعلنوا صراحة انحيازهم الى معسكر الاتحاد السوفييتي، لكنه كان يكف عن شتمهم، ويكتفي بالسخرية منهم من وقت لآخر.

ثم اختار عمداً بعض المندوبين ليمثلوا ادواراً كوميدية، ويكونوا هدفاً لمزاحه وعبثه وسخريته. فعل ذلك خاصة مع مندوب الفلبين.

كان مندوب الفلبين رجلاً قصيراً نحيلاً يلبس نظارة ويتحدث اللغة الانجليزية بلكنة امريكية واضحة واسلوب متقعر. ومع ان الرفيق نكيتا سيرقيفتش نفسه، كان ابعد ما يكون عن وسامة «كلارك جيبل»، فقد وجد في ذلك الرجل الطيب ولا بد، هدفاً مستديماً لسلاطة لسانه. وكأن «الفلبيني» استساغ ذلك الدور، كما بين القط والفار، فكان يتصدى لخريتشوف، مدافعاً عن وجهات نظر يعلم انها سوف تثير ثائرته. وخيل الي انه نشأ بينهما شيء يشبه الألفة.

قال خريتشوف مرة، ان «الفلبيني يتبع «الامريكاني»، كما يتبع الكلب سيده. فاذا.. الامريكاني... الفلبيني - والكلمة بذيئة ترجمها المترجم الانجليزي بهدوء ورصانة. هب مندوب الفلبين واقفا، وقال بغضب، والناس يضحكون:

«انني احتج يا سيدي الرئيس على اللهجة البذيئة التي يستخدمها رئيس وفد الاتحاد السوفييتي. انه يتهجم على ممثل دولة مستقلة ذات سيادة».

فقال خريتشوف:

«الفلبيني يتحدث عن استقلال بلاده، اين هو هذا الاستقلال؟ الانسان يحتاج الى منظار مكبر كي يراه».

تحت ستار المزاح والعبث والبذاءة، كان واضحاً انه يلعب دورا ليس لعباً. كان يوجه ضربات موجعة الى «هيمنة» الولايات المتحدة، ويريد ان يزعزع العلاقات بينها وبين حلفائها خاصة في آسيا وافريقيا. وربما اراد ان يهيج الشعوب على حكامها في بعض البلاد. كان يخاطب الشعوب مباشرة فوق رؤوس حكامها من ذلك المنبر العالمي. وكان يعرف اوضاع الفلبين حق المعرفة، وان اجزاء ليست صغيرة من الرأي العام متبرمة من النفوذ الامريكي في الفلبين ووجود قواعد عسكرية هناك.

في آخر جلسة حضرها قبل سفره اعتذر لكل الذين قد يكون اساء اليهم، وطيب خاطر «الفلبيني» بصفة خاصة. قال:

«الفلبيني رجل لطيف في الحقيقة. ارجو الا يكون غاضباً مني وآسف اذا كنت قد آلمته احياناً».

ضحك الناس وضحك مندوب الفلبين، الذي لا بد انه تنفس الصعداء، وحمد الله ان ذلك العبء قد انزاح عن كاهله. الا ان الصحفيين، وخاصة الامريكان، احسوا بغير قليل من الحزن لسفر خرستشوف قبل نهاية الدورة، فقد نشأت بينهم وبينه علاقة لا تخلو من الود ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٩



بقلم الطيب صالح

الساعة قبيل منتصف نهار الجمعة الثاني والعشرين من نوفمبر عام واحد وتسعين وتسعمائة والف. هذه اول مرة ادخل قاعة الجمعية العمومية للامم المتحدة منذ ان دخلتها قبل ثلاثين عاما.

تغيرت اشياء كثيرة، ولكن هذه القاعة كما اذكرها. اجلس الآن في المكان المخصص للجمهور. امامي مباشرة منصة الرئيس، واسفلها منصة اصغر حيث يقف الخطباء، السجاد اكثر اخضرارا مما اذكر، ومنصة الخطباء ليست من الرخام الاخضر كما ظننت، ولكنها رمادية اللون مشربة بالزرقة، منصة الرئاسة اعلاها هي التي من الرخام الاخضر. اختلطت الالوان في ذاكرتي كما اختلطت اشياء كثيرة، فثلاثون عاما ليست بالامر السهل. هنالك في اقصى الركن الايسر من موضعي الآن، الغرفة الزجاجية حيث جلست طيلة شهر كامل، اراقب فصول مسرحية محزنة احيانا، مضحكة احيانا.

القاعة ما تزال كأنها بنيت لتوها، يعلق بها طابع الجدة، مستديرة، او كالمستديرة، ينزل فوقها السقف في شكل مخروط، يميل الى الامام، المناضد، حيث يجلس المندوبون خضراء ايضا. الجدران رمادية، يتخللها اللون البني، لون الخشب. اعلى منصة الرئاسة على الحائط المواجه لي، دائرة واسعة، تضم غصن الزيتون الشهير، الذي يحمل خرطة العالم، كما تحمل راحة اليد الكأس.

اللوحة الجدارية التي وصفتها قبل ثلاثين عاما بانها تشبه «قلبا ادميا مفتوحا» ما تزال في مكانها. اراها الآن على يميني. امعن فيها النظر. الله اعلم. ماذا تعني؟ اتخيل الآن انني ألمس في الخطوط الملساء المنحنية،

ارى على يساري لوحة لم انتبه لها يومئذ. تشبه اللوحة على اليمين، كأنها انعكاس لها في مرآة.

كنت برفقة زوجتي وشاب سوداني يعمل في سكرتارية الامم المتحدة اسمه خضر الطيب عبد الرزاق. سوداني كما يحب الانسان ان يكون السوداني. درس الهندسة في موسكو وحاول ان يستقر في السودان. يعمل هنا مترجما، يترجم من الروسية والانجليزية الى العربية. هو والدكتور علي عبد الله عباس والدكتورة كنستانس بيركلي، كانوا لنا خير عون في هذه الرحلة.

الدكتور علي عبد الله عباس، استاذ الادب الانجليزي في جامعة الخرطوم. انسان نابغة، له شهرة واسعة في ميدانه. كريم الخلق، جم التواضع، اصيل، اهله نزحوا من «ابو حراز» الى ام درمان. يحاضر الآن في جامعات امريكا وقلبه يخفق بحب السودان ويهفو الى جامعة الخرطوم.

اخواننا هؤلاء ادخلوه السجن مكث ستة اشهر دون ان توجه اليه اية تهمة. حمد الله انهم ادخلوه سجن «كوبر» فهو سجن قديم من ايام الانجليز، تراعى فيه اللوائح والاصول. ثم خرج دون ان يكلمه احد. جاء الى الولايات المتحدة بمنحة من مؤسسة «فلبرايت».

كانوا قد صنعوا ذلك بشيخنا ابراهيم الصلحي اواخر عهد النميري. كان وكيلا لوزارة الاعلام والثقافة. فنان موهوب، لوحاته تعرض في متاحف الشرق والغرب. رجل ثقافة وفن وسلام، لا صلة له بالثورات والانقلابات. وجدوه يعمل في مكتبه ذات صباح باكر، وكانت تلك عادته، وصادف حدوث محاولة انقلاب في ذلك الصباح، وان قائد الانقلاب كان من اقربائه. ادخلوه السجن حيث مكث ستة اشهر دون ان توجه اليه اية تهمة، ثم خرج وهو لا يعلم لماذا ادخلوه السجن ولماذا اخرجوه منه.

خرج فوجد منزله الحكومي لم ينزع منه، ومرتبه الشهري يدخل حسابه في البنك بانتظام، واكثر من ذلك انهم كانوا يحسبون له «بدل طبيعة عمل» وهو في السجن. ثم طلبوا منه ان يعود الى عمله، وكان شيئا لم يكن. يقول ابراهيم الصلحي: «قررت حينئذ ان اترك السودان. قلت هذا بلد مجانين».

السودان من اعقل بلاد الله، والسودانيون من احسن خلق الله، ولكن بعض حكام السودان هم المجانين، وعجيب ان امة كهذه، تنتج حكاما كهؤلاء.

نعم، لا بد ان هذا الرسم على الجدار هو «قلب ادمي مفتوح»، فهل كل ما يستطيع الفن ان يفعله في نهاية الامر، وسط هذا العالم الهمجي، ان يحول الام الانسانية الى لوحات على الجدران، وكلمات على الورق، وذلك لعمري، ليس بالامر السهل.

ما ان استقر بنا المقام، حتى نادى الرئيس على المتحدث. يا لها من صدفة حسنة. الموضوع قضية فلسطين، والرئيس سعودي، والمتحدث ممثل دولة قطر في الامم المتحدة صديقنا من قديم الدكتور حسن نعمة. تذكرونه؟ يوم زرناه، منسي وانا في دلهي، حين كان سفيرا بها.

رجل عالم شاعر اديب، ناصع البيان قوي الحجة، هذه لغة لا تسمع مثلها كثيرا في مثل هذا المكان، لغة العرب حين يرخى لها العنان، فيستخفها الطرب وتحلق بجناحين. تحدث عن مساعي السلام وتعنت الاسرائيليين واحزان الفلسطينيين في الشتات. كلمات تلمع مثل قطرات الدموع في عيون الاطفال في المخيمات. لا تقل ان الكلام الجميل لا يجدي. ان عاجلا وان آجلا تتحول الكلمات الصادقة الى افعال.

تحدث الدكتور حسن نعمة عن الحرب الباردة واللدادة التي استحرت بين المعسكرين، قال ان ذلك كله قد انتهى.

نعم. اليوم لا توجد حرب [illegible] ولا معسكران متقاتلان.

انما هذه القاعة هي هي، والعرب «هموا هموا» بعض العرب ما يزالون كما قال الشاعر القديم:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيا■

نحو أفق بعيد

١٥٠



بقلم الطيب صالح

أراد خرستشوف ان يشرب جرعة من الماء، وهو يخطب. رفع الكأس ونظر اليها برهة ثم قال:

«لو كنت في جورجيا لكانت هذه الكأس ملأى بالفودكا. فلنشرب نخب جورجيا».

هكذا كان، متقلّب الأحوال، يذهب فجأة من النقيض الى النقيض. وهذا مسرح ليس له نظير في العالم. تذكّرت الآن، انه يشبه «والاس بيري» ذلك الممثل الموهوب. كان يمثل أدوار الثوار في أفلام عن امريكا اللاتينية، واحيانا يمثل دور تاجر سلاح، يبيع السلاح للطرفين المتقاتلين.

يكون رقيقاً جداً أحياناً، معتدلاً في رأيه، ينادي بالتعاون مع الولايات المتحدة ودول الغرب عموما، يسعى الى «التعايش السلمي». واظن خرستشوف هو الذي ابتكر ذلك التعبير. ثم ما يلبث ان يتحول فجأة الى حيوان شرس حاد الأنياب. ولم يكن يفعل ذلك اعتباطاً، بل بحساب وتدبير. كان مسرح الأمم المتحدة في تلك الدورة حافلاً بممثلين لا يستهان بهم، اما هذا فقد كان شيئا مختلفاً، نمطاً لم يعرف الناس مثيله من قبل، ولعلهم لن يروا نظيره من بعد.

ظن كثيرون انه عزم على تحطيم الامم المتحدة، فقد اتهمها بانها تخضع لسيطرة الولايات المتحدة ودول الغرب، وحمل حملة ضارية على الأمين العام «داج همرشولد» واتهمه بانه يسخّر المنظمة لخدمة سياسات دول الغرب، وقال ان الاتحاد السوفييتي لم يعد يثق فيه.

بعد اكثر من عشرين عاماً، شهدتُ في باريس مسرحية مماثلة حين اتهمت الولايات المتحدة مدير عام منظمة اليونسكو، أحمد مختار أمبو، بانه يوجّه المنظمة لخدمة سياسات تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة. وذهبت أبعد، فانسحبت من المنظمة وجرت وراءها بريطانيا.

لم تكن الولايات المتحدة عادلة في اتهامها، ولا كان الاتحاد السوفييتي. ولكنه منطق القوة، اذا بدا ان كفة الميزان اخذت تميل. وكان خرستشوف في تلك الدورة، يطالب أحياناً بنقل مقر الامم المتحدة من نيويورك، وأحيانا يهدد بان الاتحاد السوفييتي سوف ينسحب ويقيم منظمة جديدة لا تخضع لسيطرة الغرب، وأحياناً يطالب ان يكون منصب الامين العام، «ترويكا» من ثلاثة اشخاص مثل العربات الروسية التي تجرها ثلاثة خيول.

كان صراعاً بيّناً، كما حدث طوال التاريخ، بين قوتين عظميين، كل منهما، تريد ان يستتب لها الأمر. وزعماء معسكر (عدم الانحياز) هؤلاء، صحيح ان كل زعيم منهم له مواهب لا تخفى، ويمثل جزء من العالم لا يستهان به. ولكنهم في نهاية الأمر، يحاولون أمراً مستحيلاً. ان يقيموا لأول مرّة في تاريخ البشرية، نظاماً عالمياً لا يخضع لمنطق القوة. استتب الامر طوال التاريخ، اما بتوازن القوى، واما بغلبة قوة واحدة. هكذا كان السلم الروماني، الـ (باكس رومانا) والسلم العربي، (باكس أرابكا). من يصدّق اليوم ان العرب فرضوا نظاماً عالمياً في يوم من الأيام؟. والسلم السوفييتي (باكس سوفيتكا) والسلم الامريكي (باكس أمريكانا).

لا غرابة، ان الامريكان والسوفييت، كانوا ينظرون الى زعماء (عدم الانحياز) باحتقار واضح احياناً، ومستور احيانا. وكان احتقار الرفيق نكيتا سيرقيفتش لأولئك الزعماء لا يكاد يخفى.

كتم غيظه بصعوبة ذات مرّة، وهو يستمع الى توبيخ الزعيم الغيني (سكتوري) له، كانت الصحافة الامريكية تصف (سكتوري) بانه شيوعي، وأنه يخضع لارادة الاتحاد السوفييتي، غير مكترثة بانه كان يخرج من جلسات الجمعية العمومية بانتظام لأداء فريضة الصلاة. كان رجلاً حسن السمت في زيّه الابيض، يجلس في اعتداد واضح بنفسه بين وفده من رجال ونساء، ألوانهم بين خضرة الزنج وسمرة العرب. أجل سفره، لان خرستشوف اخرجه الغضب عن طوره في جلسة مسائية، بسبب قضية الكونغو. كان سكتوري أول متحدث في جلسة الصباح، فألقى خطبة أدهشت الناس لجرأتها، قرّع فيها خرستشوف بعبارات حادة، وقال:

«ان الدول الافريقية ودول العالم الثالث ليست لعبا تلعب بها أي من الدول الكبرى كيف تشاء».

كتم خرستشوف غيظه لأنه كان يعلم ان (سكتوري) مهما كان، فهو ليس اكثر من رئيس لدولة افريقية فقيرة لا تقاس بجبروت الاتحاد السوفييتي في ميزان القوة. لم يرد على (سكتوري) وترك الامريكان ودول الغرب يهللون له على غير عادتهم، ويستمرئون مذاق الانتصار على الاتحاد السوفييتي.

قبل ذلك في جلسة المساء، حدثت تلك الحادثة الشهيرة، حين تجرأ خرستشوف جراة لا مثيل لها في تاريخ التعامل بين الدول، فخلع حذاءه وضرب به المنضدة أمامه وصرخ بعبارات روسية كان واضحاً انها شتائم. كان ذلك بسبب شيء قاله رئيس وزراء بريطانيا عن قضية الكونغو. توقّف (هارولد ماكملان) عن الكلام، ووضع السماعات على أذنيه، وقال ببراءة مصطنعة، وعلى وجهه تلك الابتسامة الغامضة:

«انني انتظر ترجمة ما تفضّل به رئيس وفد الاتحاد السوفييتي».

الذي قاله الرفيق نكيتا سيرقيفتش، بلغ حدا من السوقية والبذاءة جعل المترجمين بجميع اللغات يتحرجون عن ترجمته. وسألت زميلي «مستر غولد بيرج»، مراسل الاذاعة العالمية بهيئة الاذاعة البريطانية، وكان مهاجراً من أصل روسي، وكان شديد الكراهية للاتحاد السوفييتي، فشرح لي العبارة وقال:

«هذا رجل صعلوك لا يستحق ان يدخل هذا المكان».

كان خرستشوف بالفعل، شاذاً في ذلك المكان حيث تعوّد الناس على العبارات المرنة والشتائم المهذبة. هذا كان شيئا مختلفاً، كأنه طاقة فجّة من طاقات الطبيعة، لا تدري متى تعصف ومتى تهب.

ربما لأجل ذلك انجذب اليه الصحفيون، خاصة الامريكان، فكانوا يهرعون الى القاعة كلما تحدث، ويتبعونه حيثما ذهب.

قال لهم مرّة:

«بما اننا نعرف كلّ شيء عن جواسيسكم وأجهزة مخابراتكم، وأنتم كذلك تعرفون كل شيء عن جواسيسنا عندكم، فلماذا لا نوحد جهودنا بدلاً من تبديد الموارد واضاعة الجهد؟».

اتضح فيما بعد، انه كان يعني ما يقول باسلوبه العجيب، وانه لم يكن يمانع في الوصول الى تفاهم بين القوتين العظميين، يقتسمان بموجبه مناطق النفوذ في العالم، فلا تتعدى أي منهما على نفوذ الدولة الاخرى. ولكن الأحداث قد برهنت ان الامريكان كانوا يطلبون ما هو اعظم، ولعلهم حصلوا عليه، فالعالم يشهد الآن، ولو الى حين، زمان الـ (باكس أمريكانا).

سأل صحفي امريكي خرستشوف عن تقييمه لما انجزته تلك الدورة للجمعية العمومية فاجاب ضاحكاً:

«كنت في شبابي اعمل حطّاباً في جورجيا. كنت أعرف آخر اليوم ماذا أنجزت، من كمية الحطب الذي قطعته. اما هنا، فكيف تقيس الانجاز؟».■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥١



بقلم الطيب صالح

صعبٌ ان تجد رجلين اكثر اختلافاً من هذين الرجلين، اللذين رمتهما الأقدار، واحدهما ازاء الأخر، في ساحة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في شهر نوفمبر عام ١٩٦٠ . نكيتا خرستشوف، وداج همرشولد. الاول كأنه شخصية في رواية من روايات «دستويفسكي». الطبع الروسي المتاجج، والاحاسيس الحادة المتقلبة. الذكاء والصراحة والمكر، والطيبة والقسوة. والثاني كانه خرج من مسرحية من مسرحيات «أبسن». القتامة الاسكندنافية، وضبط النفس، وتقديس الجهد في حد ذاته، والصراع بين نوازع النفس البشرية ومتطلبات المثل العليا، والشعور بالذنب من جراء محاسبة الذات بلا هوادة.

كان همرشولد من خلاصة الصفوة الاسكندنافية، من عائلة سويدية عريقة، تعلم في جامعة «ابسالا»، حيث درس الادب والفلسفة والقانون والاقتصاد. اشتهر بثقافته الواسعة وطاقته الذهنية الهائلة وكفاءته في الادارة. تقلب في المناصب الى ان اصبح الرجل الثاني في وزارة الخارجية السويدية.

لكنه لم يكن معروفاً خارج السويد، وحتى اسمه الذي يعني «درع الحديد» كان ثقيلاً على اللسان أول مرة. ولما اقترحه الانجليز والفرنسيون عام ١٩٥٣ خلفاً لـ «ترجفي لي» النرويجي، تعجب كثير من الناس، ولم يكن حتى الأمريكان قد سمعوا به. لكنهم لم يمانعوا في ترشيحه أميناً عاماً للأمم المتحدة، ورضي به السوفييت في غمرة فترة الانفراج القصيرة التي أعقبت موت ستالين.

اتخذ مجلس الأمن قراراً بترشيحه دون علمه، ولما عرض المنصب على همرشولد تردد في قبوله ثم قبل على مضض.

قال له «ترجفي لي» يخوفه من صعوبة المهمة: .

«ان مهمة الامين العام للأمم المتحدة، هي أشق مهمة في العالم، ويكاد النجاح فيها يكون مستحيلاً. سرعان ما يكتشف أي أمين عام ذلك، إذا هو أراد ان يؤدي مهمته كما تصورها ميثاق سان فرانسسكو. وإذا كان فهمه للمنصب كما أفهمه أنا، فانه سوف يجد أن من المستحيل عليه ان يتجنب إغضاب دولة من الدول الكبرى أو الدول الصغرى. سوف يكون هدفاً للنقد من اليمين واليسار والوسط. وإذ أن الامين العام يخدم الإمم المتحدة ككل فلا سبيل أمامه إلاّ ان يضحي بنفسه في سبيل إيجاد حلول عادلة».

وجد همرشولد كل ما تكهن به «ترجفي لي». وهو الآن في شهر نوفمبر عام ١٩٦٠ يقف في الجمعية العمومية يواجه قاعة مكتظة ليعلن قراره، هل يبقى في منصبه أو يستقيل. ويتوقع كثير من الحاضرين ومنهم الرفيق نكيتا سيرقيفتش ان يقدم همرشولد استقالته.

قبل همرشولد المنصب عام ١٩٥٣ دون حماس، وقال في أول خطاب له أمام الجمعية العمومية بعد ان أدى القسم:

«المهمة التي أمامنا هي التصالح والواقعية والبناء».

وختم خطابه ببيت من الشعر لشاعر سويدي:

«أعظم صلاة يتوجه بها الإنسان، ليست التي تطلب النصر، ولكن التي تطلب السلام».

ولكن أحداث الكنغو، والصراع الشرس للدول الكبرى على السيطرة، سرعان ما كشف له، أن السلام مطلب عسير.

يستمد الأمين العام للأمم المتحدة سلطاته من المادة السابعة في الميثاق التي تجعل الأمانة العامة مساوية للجمعية العمومية ومجلس الأمن ومجلس الوصاية والمجلس الاقتصادي والاجتماعي. وينص البند ٩٧ بأن الأمين العام «هو المسؤول الإداري الأول في المنظمة». وينص البند ٨٦ بان الأمين العام، الى جانب صلاحياته المنصوص عليها «يقوم بأي مهمة تكلفه بها أيّ من تلك الهيئات».

فوق ذلك، فإن البند ٩٩ يعطي الأمين العام الحق في أن يلفت نظر مجلس الأمن الى أي وضع في العالم قد يهدد السلام والأمن، وأن مجلس الأمن لا يحق له أن يرفض النظر في أي موضوع يرفعه إليه الأمين العام حسب نص تلك المادة.

استغل همرشولد هذا النص استغلالاً واسعاً خلال سنوات عمله، مما أغضب عليه بعض الدول أحياناً، وخاصة الاتحاد السوفييتي. وقد وجد أنه يستطيع ان يحرك كل جهاز الأمم المتحدة بناء على تفسيره الخاص لما يمكن أن «يهدد السلام والأمن»، وأن يتخذ كل الخطوات التي يراها هو مناسبة للتاكد بان وضعاً ما «يحتمل ان يهدد الأمن». وقد أرسل مراقبين دوليين الى «لاوس» مثلاً دون تخويل من مجلس الأمن، مما أغضب عليه الاتحاد السوفييتي.

كان همرشولد في رأي المعجبين به «رمزاً أخلاقياً ونفوذاً ذا هيبة طاغية». وقد حول منصب الامين العام بالفعل الى دائرة نفوذ أوسع بكثير مما ارادته الدول الأعضاء، وخاصة الدول الكبرى. حدث ذلك بسبب تفوقه العقلي الواضح وطاقته الهائلة على العمل. وأيضاً بسبب توازن القوى السياسية في العالم، الذي أحدث شللاً في المنظمة وأصبح الامين العام في حالات كثيرة، الجهة الوحيدة القادرة على الحركة.

كانت مغامرة جريئة انتهت بالفشل في الكنغو.

كان همرشولد يصف دوره قائلاً:

«السياسة والدبلوماسية ليست قضية مهارة في اللعب لا صلة لها بمواقف اللاعبين. النتائج لا تحددها المقدرة السطحية، ولكن يحددها عمق الالتزام بالمبادئ. ان النجاح السهل يحققه المهرجون، أما النتائج التي تبقى وتصمد، فلا بد لها من شخص يبني بعزيمة وصبر».

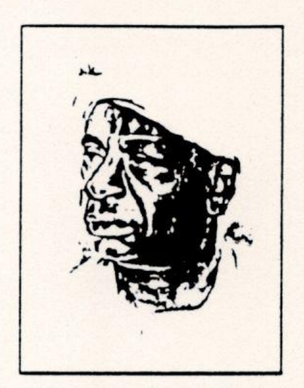
وكان يقول إن ولاءه للمجتمع الدولي ككل يحتم عليه أن ينزع كل ولاءاته الأخرى حتى ولاءه لوطنه ويضيف:

«كيف يستطيع شخصٌ ما أن يفعل هذا دون أن يفقد المقومات الروحية التي يكتسبها الإنسان من انتمائه لبلد بعينه؟ الإجابة هي، أنه إذا فعل هذا، واعتمد على إمكاناته الذاتية، فسوف يجد بديلاً... وطناً في كل مكان. سوف يجد الأبواب مفتوحة أينما ذهب» ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٢



بقلم الطيب صالح

ليس جديداً هذا الموقف الذي يقفه (داج همرشولد) اليوم في شهر نوفمبر عام ١٩٦٠، فقد كاد يستقبل من قبل، في شهر اكتوبر عام ١٩٥٦. المشكلة اليوم هي قضية الكنغو التي يتعرض بسببها الى هجوم مركز من الاتحاد السوفييتي الذي يجلس حاكمه الفعلي ازاءه في هذه اللحظة في قاعة الجمعية العمومية للامم المتحدة ينظر اليه شزراً. ومنذ أربع سنوات، قامت دولتان كبيرتان، وعضوان دائمان في مجلس الأمن، بعدوان صريح على دولة من الدول الاعضاء، اعتبره الامين العام بمثابة ضربة مخربة لكل المساعي التي بذلها لتحقيق السلام في منطقة الشرق الاوسط.

كان همرشولد بحكم تكوينه الفكري والثقافي اقرب ما يكون الى بريطانيا وفرنسا. كان يتقن اللغتين الانجليزية والفرنسية، متعمقاً في ادابهما، محباً للشاعر الفرنسي «سان جون بيرس»، وصديقاً حميماً للشاعر الانجليزي «دبليو أتش أودن». في لندن او باريس، يحيط نفسه بالشعراء والفنانين والكتاب والمفكرين، ويحس كانه في ستوكهولم.

أيضا كان يحمل بعض الاعجاب لرئيس وزراء اسرائيل «ديفيد بن غوريون» ويرى فيه مثلا للزعيم الفيلسوف الذي يجمع بين الفكر والعمل، وكان يحب ان يتحدث معه في التاريخ والفلسفة، ويحاوره في أفكار الفيلسوف اليهودي «مارتن بوبر» الذي كان همرشولد معجباً به.

أما في الجانب العربي، فقد كان بينه وبين الرئيس جمال عبد الناصر، احترام متبادل، ولكن علاقتهما كانت متحفظة من الجانبين، ينقصها الدفء، فقد كانت مشاربهما واتجاهاتهما الفكرية، مختلفة. كان أميل الى الدكتور محمود فوزي، وزير خارجية مصر يومئذ. كان يحب فيه صفاء ذهنه، وهدوء طبعه، ومهارته في فن الدبلوماسية. وكان ايضا يؤثر المنجي سليم، وزير خارجية تونس، وعمر عديل، مندوب السودان. وكان معروفا انه لم يكن يمانع ان يخلفه في منصب الامين العام، واحد من هؤلاء الثلاثة، وخاصة محمود فوزي.

كانت صدمة كبيرة لهمرشولد حين هاجمت اسرائيل مصر في ٢٩ اكتوبر عام ١٩٥٦، وفي الوقت نفسه بدأت بريطانيا وفرنسا هجوما جويا على المطارات المصرية والقواعد العسكرية المصرية، وبدأت قواتهما تتحرك نحو مصر. كانت حجة اسرائيل هي القضاء على معسكرات الفدائيين على الحدود بينها وبين مصر، وكانت ذريعة بريطانيا وفرنسا هي «الفصل بين القوتين المتحاربتين على ضفتي القناة».

كان واضحاً منذ البداية، وتأكد ذلك فيما بعد، انه كان ثمة تواطؤ بين اسرائيل وفرنسا وبريطانيا، فقد كان الهدف واحداً، عبر عنه رئيس وزراء بريطانيا، انتوني ايدن، صراحة في رسالة وجهها الى الرئيس الامريكي، أيزنهور، بتاريخ ٦ سبتمبر عام ١٩٥٦ جاء فيها: «اننا مقتنعون بان الاستيلاء على القناة، ما هو الا الرمية الاولى، في حملة مدبرة، خطط لها عبد الناصر للتخلص من النفوذ الغربي جملة، وطرد المصالح الغربية من البلاد العربية، وهو يؤمن بانه اذا نجح هذه المرة، متحديا ثماني عشرة دولة، فان نفوذه في البلاد العربية، سوف يبلغ حدا يمكنه من تأجيج ثورات يقودها ضباط شبان.. ونحن نعلم من مصادرنا المشتركة أنه يدبر بالفعل لثورة في العراق، الذي هو اكثر الدولة العربية استقرارا وتقدمية. سوف تكون الحكومات الجديدة في واقع الأمر، خاضعة لمصر، إن لم يكن لروسيا. سوف يكون لزاماً عليهم ان يضعوا مواردهم البترولية تحت سيطرة دولة عربية موحدة بزعامة مصر وخاضعة للنفوذ الروسي. وحين يجيء ذلك الوقت، فسوف يمنع عبد الناصر البترول عن اوروبا الغربية وسوف نكون جميعا تحت رحمته...»

كان العراق اقرب الدول العربية الى بريطانيا، واكثرها صداقة لها. ورغم ذلك، اضطر الامير عبد الاله، حين قامت الحرب، ان يكتب الى ايدن محذرا، وقال:

«ان (غزو بريطانيا لمصر) وضع اصدقاء بريطانيا - وانا اعد نفسي واحداً منهم - في وضع حرج ازاء الراي العام في العالم العربي وفي العراق».

وقد ابلغ الوصيّ، السفير البريطاني في بغداد، ان الحكومة العراقية لن تستطيع ان (تسكت) اكثر من اسبوع واحد، ولا بد ان موقف العراق قد ادهش ايدن، الذي كان يتوقع منه تاييداً مطلقا، غير مدرك، رغم دراسته للغة العربية، ان ثمة حدوداً لا يملك أي حاكم عربي ان يتجاوزها، مهما بلغ منه العداء لحاكم عربي آخر. فكتب الى عبد الاله، مستندا الى حجج أخرى غير التي قدمها للرئيس الامريكي:

«أؤكد لك تاكيداً قاطعاً بان الهدف الوحيد لتدخل القوات البريطانية، هو ايقاف الحرب بين اسرائيل ومصر وضمان القناة (حرية الملاحة). ونحن مقتنعون بان وجود قواتنا في مواقع هامة، هو وحده الكفيل بتحقيق هذا الهدف. وتدل كل المعلومات التي وصلت الينا، ان اسرائيل قد الحقت بمصر هزيمة ماحقة، وان العمل الذي قمنا به هو وحده الذي انقذ مصر من حدوث مزيد من الكوارث، وقد علمنا ان القوات الاسرائيلية، سوف تستجيب لطلبنا بالاّ تقترب من القناة الى مسافة اكثر من عشرة اميال، مع العلم بان أبواب مصر، حتى القاهرة نفسها، مفتوحة على مصاريعها أمامها. هذا على الاقل، يعتبر مكسباً، وأرجو ان يتضح قريباً للعالم، ان عملنا هو وحده الذي حقق هذه النتيجة، وبمجرد ان نحتل المواقع الهامة على القناة فسوف نطلب من الاسرائيليين الانسحاب من الاراضي المصرية..»

لكنّ الذي أقلق ايدن اكثر من تحذيرات العراق، كان عاصفة الاستنكار التي هبت في وجهه من أقرب الدول الى بريطانيا في الكمنولث، رابطة الشعوب البريطانية. فقد أرسل اليه رئيس وزراء سيلان معربا عن احساسه بـ«الصدمة والانزعاج» لتدخل بريطانيا ومطالبا بـ«الانسحاب الفوري». وكتب جواهرلال نهرو رسالة مهذبة ولكنها تتضمن سخطا واضحا، ختمها قائلا:

«إنني عبرت عن شعوري بوضوح وصراحة لانني اعتقد أن هذا هو الاسلوب الذي يجب ان يتخذه الصديق نحو صديقه. واذا لم يوضع حد لهذه الاعمال الخاطئة، فان المستقبل سوف يكون فيما يبدو لي، مظلما جداً».

كذلك عبرت كندا ونيوزيلندة عن سخطهما. وحتى روبرت منزيس رئيس وزراء استراليا، الذي كان قريباً جداً من السياسة البريطانية، لم يجد بداً من ان يكتب الى ايدن معربا عن حزنه لما وصفه بـ«الصراع الواضح في مجلس الامن بين بريطانيا وفرنسا من جانب والولايات المتحدة من جانب آخر» واضاف قائلا:

«يجب الا تشك لحظة في ولاء هذا البلد لبريطانيا. ورغم ذلك اجد لزاما علي ان أطلب منك ان تبذل كل جهدك، بشتى السبل، للوصول الى تفاهم مع الولايات المتحدة اخذا بعين الاعتبار أن اعداءنا سوف يعتبرون الانشقاق في صفوف المعسكر الديمقراطي، اعظم انتصار احرزوه في الحرب الباردة».

بيد ان الدول الثلاث، بريطانيا وفرنسا واسرائيل، كانت رغم ذلك، مصممة على بلوغ هدفها المشترك، تحطيم القوة العسكرية والمعنوية المتزايدة لمصر، ومنع قيام اي نوع من الوحدة العربية، لا سيما وحدة تتزعمها دولة «ثورية». لكن من سوء حظ إيدن بالذات، ان الولايات المتحدة لم تكن طرفا في اللعبة، ولم تكن موافقة عليها. وغريب ان ايدن لم يدرك ذلك باكرا فقد أوفد اليه الرئيس ايزنهور عددا من المبعوثين، منهم وزير الخارجية (جون فوستر دالس) وكتب له عدة مرات، يحذره مغبة العمل الذي ينوي القيام به. وقد كتب له في ٩ سبتمبر ١٩٥٦ يقول:

«استعمال القوة العسكرية ضد مصر في هذه الظروف، سوف تكون له نتائج اخطر من دفع العرب الى تاييد عبد الناصر. سوف يحدث ذلك خلافا عميقا بين بلدينا، ولا بد أن اخبرك بصراحة، انه الى الآن، لا يوجد أي اتجاه في الرأي العام الامريكي لتاييد عمل كهذا، بل ان الامر المحسوس في الراي العام، هو الاعتقاد ان الامم المتحدة قد أنشئت أصلا للحيلولة دون حدوث مثل هذا العمل.

لذلك، فاننا تابعنا بقلق تحركاتكم للقيام بعمل عسكري ضد مصر. ونحن نعتقد ان عبد الناصر قد يلجأ الى الامم المتحدة مطالبا اياها شجب هذه الاعمال واعتبارها عدوانا، وانها تنطوي على رفض للوسائل المتاحة لحل النزاع حلاً سلمياً..

إنه يبدو لنا - فوستر وأنا - ان الهدف الذي نسعى اليه، نحن وأنتم، يمكن الوصول اليه بوسائل أبطا واقل اثارة من استعمال القوة العسكرية. توجد مجالات واسعة للعمل، لم ندرسها دراسة كاملة، لأن ذلك سوف يأخذ وقتا.

ان عبد الناصر يتألق ويزداد حيوية بالاثارة. اذا صبرنا عليه حتى تخف عناصر الدراما، وركّزنا على تفريغه من الهواء بوسائل قد تكون بطيئة ولكنها مضمونة، كالتي ذكرتها، فانني واثق باننا سوف نصل الى النتائج المطلوبة». اما الامين العام للامم المتحدة، داج همرشولد، فقد وجد في اكتوبر عام ١٩٥٦، ان الهجوم الثلاثي على مصر، قد سدد ضربة كادت تقضي على كل آماله في ايجاد حلّ عادل لقضية الشرق الاوسط. أيْ قضية فلسطين ■

(للحديث بقية)

7 3 4 5

نحو أفق بعيد

١٥٣



بقلم الطيب صالح

كان (داج همرشولد) يشعر بغير قليل من الرضى في ربيع عام ١٩٥٦. كان قد نجح الى حد كبير في تهدئة الامور على امتداد خطوط الهدنة بين اسرائيل والدول العربية، وخاصة مع مصر. كان يحس أنه نجح في خلق «حالة نفسية» ايجابية يستطيع ان يستثمرها لتوجيه المنظمة لايجاد حل عادل لقضية الشرق الاوسط.

ظن همرشولد، وكثير من الناس حينئذ، ان منظمة الامم المتحدة، أخذت تتشكل كقوة جديدة، لا تخضع لطموحات الدول الاعضاء، وخاصة الدول القوية، قوة معنوية هائلة، يسندها الرأي العام في العالم، يمكن أن تنجح اذ فشلت عصبة الأمم، في اقامة نظام عالمي مستقر، لا يخضع لمنطق القوة، ولكن لمنطق العدل والمساواة. لذلك كان يقول بكثير من التفاؤل:

«تستطيع الدول، بقليل من التبصر، ان تستخدم المنظمة لمحاولة ايجاد حلول للقضايا الكبيرة في العالم، بدلا من محاولة حلها بطريقة فردية. هذا سوف يقوي المنظمة، ويجعلها بالتالي أقدر على معالجة قضايا السلام».

ثم، كأنما فجاة، بدا كما لو ان كل جهود الأمين العام، قد ذهبت سدى، ففي يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر، شنت اسرائيل هجوماً عسكرياً واسع النطاق على مصر، وأعلنت ان قواتها اكتسحت سيناء «للقضاء على قواعد الفدائيين».

لم يكن الحدث مستغرباً تماماً، فمنذ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة في ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦، كرد فعل مباشر لسحب أمريكا عرضها لتمويل السد العالي، أخذت بريطانيا وفرنسا تخططان لتدخل عسكري في مصر.

اتضح فيما بعد، ان بريطانيا وفرنسا، بينما كانتا تحاولان في الظاهر التوصل الى حل من خلال منظمة الامم المتحدة، كانتا تعملان سراً بالتواطؤ مع اسرائيل، على فرض أرادتهما بالقوة على مصر.

لم يكن همرشولد يعلم حينئذ، أن بريطانيا وفرنسا واسرائيل، وقعت في ٢٤ اكتوبر اتفاقا سرياً في Sevres في فرنسا ينص على ما يلي:

«في عصر يوم ٢٩ اكتوبر تشن القوات الاسرائيلية هجوماً واسعاً على القوات المصرية.

في يوم ٣٠ اكتوبر توجه الحكومتان البريطانية والفرنسية، نداء الى مصر لوقف اطلاق النار وقوفاً تاماً، وسحب قواتها الى مسافة عشرة اميال غربي القناة، وان تسمح للقوات البريطانية - الفرنسية المشتركة، ان تحتل بصفة مؤقتة، مواقع رئيسية على القناة.

في الوقت نفسه، يوجه نداء للحكومة الاسرائيلية لوقف اطلاق النار، وسحب قواتها الى مسافة عشرة اميال شرقي القناة.

اذا رفضت أي من الحكومتين، او لم تعط موافقتها خلال اربع وعشرين ساعة، في تلك الحالة، تتدخل القوات البريطانية - الفرنسية. واذا لم تستجب مصر للنداء، فان القوات البريطانية - الفرنسية، تبدا الهجوم في وقت مبكر من يوم ٣١ اكتوبر.

وعدت اسرائيل الا تهاجم الاردن، واذا هاجم الاردن اسرائيل فان بريطانيا لن تكون ملزمة بنص المعاهدة بينها وبين الاردن لمساعدته، لان المعاهدة تلزم بريطانيا فقط في حالة اعتداء اسرائيل على الاردن.

تحتل القوات الاسرائيلية الساحل الغربي لخليج العقبة وتحكم سيطرتها على خليج تيران».

في اليوم نفسه - أي يوم ٢٤ اكتوبر - عرض (انتوني ايدن) الخطوط العامة للخطة على مجلس الوزراء البريطاني، دون ان يكشف لهم ما اتفق عليه في Sevres مع فرنسا واسرائيل، واضاف:

«يمكن الافتراض انه في حالة حدوث هذه العملية، فان اسرائيل سوف تقوم بهجوم شامل على مصر. هذا سوف يساعد على اختصار فترة الهجوم الجوي (من القوات البريطانية - الفرنسية). الهدف الثاني من العملية هو ضمان سقوط نظام الكولونيل عبد الناصر في مصر».

لم يكن همرشولد على علم بكل هذا، لذلك حين بدأ الهجوم الاسرائيلي على مصر، اصيب بصدمة عنيفة، وكان غاضباً أشد الغضب حين اجتمع عشية ذلك اليوم مع (كابوت لدج) مساعد وزير الخارجية الامريكي الذي أبلغه غضب الرئيس ايزنهور لما حدث، وطلب منه أن يدعو مجلس الامن للانعقاد، فقال همرشولد انه كان ينوي ان يفعل ذلك على أي حال.

اجتمع مجلس الامن يوم ٣٠ اكتوبر، واستمر الاجتماع الى وقت متأخر من الليل، قوى اعتقاد الامين العام بتواطؤ بريطانيا وفرنسا مع اسرائيل، حين استعملت الدولتان حق الفيتو ضد قرار مجلس الامن الذي يطلب من اسرائيل وقف القتال فوراً.

قضى همرشولد الليل ساهراً يحاول ان يحدد موقفه. وفي بداية اجتماع المجلس في اليوم التالي - ٣١ اكتوبر - قرأ بياناً كتبه بيده، ينطوي على تهديد واضح بالاستقالة، قال فيه:

«الامين العام يخضع لنصوص الميثاق ومبادئه. وهو لا يستطيع ان يؤدي واجباته، الا اذا أوفت الدول الأعضاء بكل العهود التي قطعتها لاحترام الميثاق بكل نصوصه».

ثم اضاف:

«اذا كانت الدول الاعضاء تعتقد ان مصلحة المنظمة تقتضي ان تكون واجبات الامين العام بخلاف ما ذكرت، فعليها في هذه الحالة، ان تفعل ما تراه مناسبا على ضوء اعتقادها هذا».

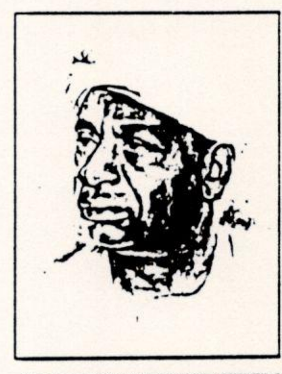
ادرك كل من يعنيهم الامر، خاصة بريطانيا وفرنسا، ان استقالة الامين العام في تلك الظروف، سوف تواجههم بوضع لا قبل لهم به، ويكون بمثابة احتجاج سوف يجد تاييدا واسعا من الرأي العام في العالم. لذلك سارعوا جميعا الى تأكيد ثقتهم به، والتمسك باستمراره في منصبه.

سوف تختلف المواقف ويختلف الممثلون في عام ١٩٦٠، ولكن جوهر القضية لن يتغير - الصراع الازلي بين ما تظن الدول، خاصة القوية منها - أنه يخدم مصلحتها، وبين متطلبات نظام عالمي يقوم على العدل والاخلاق والمثل العليا ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٤



بقلم الطيب صالح

خرجت منظمة الامم المتحدة من «ازمة السويس»، كما خرج أمينها العام «داج همرشولد» اكثر قوة ونفوذا. حدث ذلك لأن القوتين العظميين في العالم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، كانتا متفقتين. القضية واضحة بالقياس الى ازمة الكنغو فيما بعد. في جانب وقفت دولتان كبيرتان، أخذ نجمهما في الأفول، تتشبثان بتلابيب مجد غابر، تحاولان محاولة يائسة إثبات قوتهما باستعمال «ديبلوماسية البوارج». وفي الجانب الآخر وقفت القوتان الوليدتان ومعهما كافة القوى الحديثة في العالم، والرأي العام العالمي.

كانت محاولة يائسة بحق. والانسان اليوم يعجب حين يعيد قراءة تاريخ تلك الحقبة، كيف أن دولتين عريقتين في فن السياسة والحكم، لجأتا الى تلك الحيلة التي ما كان لها ان تنطلي على احد، فرنسا التي انجبت ريشليو وتاليراند وكلمنصو. وبريطانيا «العظمى» التي انجبت لورد قريي ولورد هلفاكس ولويد جورج. ولا بد ان أيدن وريث هؤلاء الدهاقنة، شعر بمرارة شديدة، وهو يتلقى الدروس في فن الدهاء السياسي، من ايزنهور، رئيس الدولة التي كانت مستعمرة بريطانية الى عهد ليس بالبعيد.

الامر في جوهره، كان ومايزال، كما قال ذلك الحبر البريطاني «لورد برايرلي»:.

«القانون الدولي ليس الا عباءة تستر أوضاعاً نشأت بالقوة».

كذلك قال الأثينيون لاهل «ميلوس» في القرن الخامس قبل الميلاد:.

«... أمّا فيما يتعلّق بالحق والباطل، فليس ثمة فارق بينهما في نظر الناس. الذين احتفظوا باستقلالهم الى الان، استطاعوا ذلك لأنهم أقوياء.. والذين لم نهاجمهم، لم نهاجمهم لاننا نهاب قوتهم. ان فرض سلطاننا عليكم، لن يضيف فقط الى مساحة امبراطوريتنا ولكنه أيضا سوف يزيد من احساسنا بالامن. نحن نسيطر على البحر، وأنتم أهل جزيرة ولكنكم ضعفاء، ليس لكم من القوة ما للجزر الاخرى، لاجل ذلك يعنينا عناية قصوى الا تفلتوا من قبضتنا».

لا توجد صراحة ولا صدق اكثر من هذا. اما ورثة أثينا . وروما . في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد حاولوا ستر سياساتهم بـ «عباءة» كما قال لورد برايرلي، ولكنها كانت عباءة ممزقة مهلهلة لا تكاد تستر عورة.

لماذا فعلت بريطانيا وفرنسا ذلك؟ لماذا لم تمضيا قدما كما فعل الاقوياء طوال التاريخ؟ لماذا البحث عن ذريعة؟

ربما لأن الدولتين لم تعودا قويتين بالفعل، أو لم تعد لهما القوة الكافية. تأكد ذلك حين شبت الحرب. السبب الثاني هو ظهور عنصر جديد في السياسة الدولية. ربما لا يكون واضحا تماماً، ولكنه محسوس الأثر . ذلكم هو «الرأي العام». فيما بعد في حرب فيتنام أصبح الرأي العام قوة هائلة.

يبدأ ميثاق الامم المتحدة بعبارة فيها أصداء واضحة من مقدمة دستور الولايات المتحدة «نحن شعوب الامم المتحدة».

من كتب ذلك؟ وهل كانت الدول الكبيرة التي خرجت ظافرة من الحرب العالمية الثانية، وأخذت المقاعد الدائمة في مجلس الامن، واعطت نفسها حق «الفيتو». هل كانت هذه الدول تعني ما تقول حقًا؟

الأمين العام للأمم المتحدة، أخذ العبارة مأخذ الجد. انه ابن السويد، الدولة التي لم تغرق في أوحال الاستعمار الاوروبي في أفريقيا وآسيا واستراليا والقارة الامريكية. وهي في النصف الثاني من القرن العشرين تقدم نموذجاً طريفا، يعتبره كثير من الناس مخرجاً من غلواء الرأسمالية او الشيوعية.

وهمرشولد الى ذلك من صفوة نتاج التراث الاوروبي «الانساني». ذلك الوجه الاخر، الوجه المضيء للحضارة الاوروبية فيه شيء من روح الشعراء والفلاسفة، وكان بالفعل يكتب الشعر. مثلا هذه الفقرة من خطاب له، يجد الانسان فيها اثراً واضحا من فكر الفيلسوف الفرنسي «تيلهارد دي شاردان»:.

«السعي على هامش تطور المجتمع الانساني، يعني السعي على حافة المجهول. سوف يظهر في المستقبل، ان كثيراً مما نبذله اليوم، عديم الجدوى. لكن ذلك لا يشفع لنا اذا نحن احجمنا عن الفعل، حسب ما يمليه علينا ادراكنا، غير متغاضين عن قصور هذا الادراك دون أن نفقد الايمان بالنتيجة الحتمية للتطور الخلاّق الذي أسعدنا الحظ بالمساهمة في تحقيقه».

«التطور الخلاّق»، واذا شئت قلت «تراكم الابداع». ذلك ما كان يدعو اليه «دي شاردان»، ذلك الفيلسوف الزاهد، وقد كان همرشولد، احد حوارييه. انما تاريخ الانسانية الى الان، لا يدل على ان «تراكم الابداع» له أي تأثير على سياسات الدول، بعضها ازاء بعض. بل ان منطق القوة يسير في خط مواز لمنطق «الابداع» ونادراً ما يلتقي معه. كان عبد الملك بن مروان رحمه الله، مع علمه وأدبه، يدرك ذلك تمام الادراك، فقد كان من أوائل أساطين الـ «ريال بولتيك».

الان، في عام ١٩٥٦، يبدو لهمرشولد على أي حال، ان الامم المتحدة هي القوة المعنوية الجديدة، التي سوف تحد من غطرسة الدول، وتحمل طموحات الشعوب نحو السلام. وقد أسعده ان الامريكان والسوفييت، بالتعاون الوثيق معه، استخدموا الجمعية العمومية، التي يصفها بعض الناس بأنها «مستودع ضمير الانسانية». اغلقت بريطانيا وفرنسا الطريق في مجلس الامن، فلجأوا الى وسيلة كانت الولايات المتحدة قد ابتدعتها للتدخل في كوريا باسم الامم المتحدة، واسمت ذلك «الاتحاد من أجل السلام». اصبح ممكناً بتلك الوسيلة تخطي مجلس الامن والعمل بتفويض من الجمعية العمومية، على اتخاذ الخطوات اللازمة لصيانة الامن والسلام في العالم.

هكذا خرج «همرشولد» منتصراً من ازمة السويس، إذ خرجت بريطانيا وفرنسا مضعضعتين. كانت مرحلة فاصلة بالنسبة لهما. أصبح واضحا انهما لم تعودا قوتين من الدرجة الاولى. لم تلبث فرنسا ان فقدت الجزائر، وكاد ينفرط عقدها لولا أن جاءها ديجول. وتنازلت بريطانيا عن دورها «شرقي السويس» للولايات المتحدة.

اما اسرائيل، «سبارطا» الشرق الاوسط فانها لم تخسر كثيراً. اذعنت للقوتين العظميين، وخاصة امريكا، وانسحبت من سيناء، ظلت تتربص عشر سنوات، ثم انقضت، بمفردها هذه المرة، بعد ان حصنت نفسها وضمنت الولايات المتحدة الى جانبها، والرأي العام في اوروبا وامريكا. وكانت مصر قد اعطتها المبرر الـ Casus Belli كما يقولون على طبق من ذهب.

ان سلوك اسرائيل، ينبىء بوضوح انها تعمل بوحي المبدأ القديم الذي حوله الفلاسفة الالمان الى مذهب محترم في السياسة . «الريال بولتيك». من هؤلاء «شبنجلر» الذي يبغضه اليهود بغضاً شديداً، فهو يقول:.

«الدولة، كي تصير قوية، لا بد لها من الدخول في صراعات مستمرة مع جيرانها».

انهم يقولون، بمثل الصراحة التي خاطب بها الاثينيون اهل «ميلوس»:.

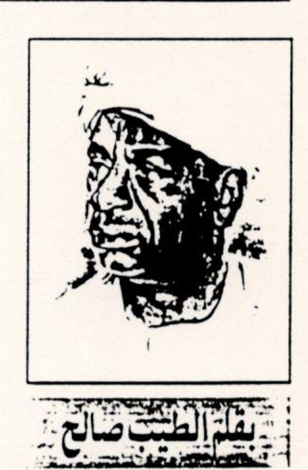
«حدود اسرائيل تكون حيث تنتهي قوة اسرائيل».

وحين يقيمون المستوطنات فوق ارض فلسطين فانهم يعلمون انهم لا يفعلون شيئا جديداً. لقد كانت المستوطنات طوال التاريخ طلائع وضع اليد على الارض باكملها. ولا يحسون أنهم يحتاجون الى أي مبرر «خلقي». كذلك فعل الغالبون من قبل. كذلك فعل الاثينيون منذ اكثر من ألفي عام ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٥



بقلم الطيب صالح

لم يتحمّس زعماء دول الغرب لدعوة خرستشوف لهم لحضور دورة الجمعية العمومية للامم المتحدة الخامسة عشر المزمع عقدها في ٢٠ سبتمبر عام ١٩٦٠. لم يكونوا قد نسوا بعد، كيف ان الزعيم السوفييتي «نسف» قمة باريس بينه وبين الرئيس ايزنهور، منذ ثلاثة أشهر فقط ولكن حين أبحر الرفيق نكيتا سيرقيفتش على السفينة السوفييتية «بولتكا» قاصداً نيويورك، حاملاً معه زعماء، بلغاريا والمجر ورومانيا، لم يجدوا بداً من إعلان نيتهم على الحضور. واضطر الأمين العام للامم المتحدة ان يصدر بياناً يرحّب فيه بمقدم أولئك الرؤساء، لأنه «يهيّيء الفرصة لتبادل الآراء على أرفع مستوى، بشان القضايا الكبرى التي تواجه العالم».

اليوم، بعد مضي اكثر من ثلاثين عاماً على تلك الاحداث، يرى عدد من المؤرخين، أن خرستشوف لم يذهب لتحطيم الامم المتحدة، ولا النظام العالمي القائم، ولكنه كان يريد الاعتراف بالوضع الجديد للاتحاد السوفييتي، كقوة كبرى موازية للولايات المتحدة وبقية دول الغرب. وربما جاز له يومئذ ان يحس بكل تلك الثقة. حقق الاتحاد السوفييتي انتصارات علمية واضحة، وأحرز مكاسب دبلوماسية في آسيا وأفريقيا، وفي امريكا أعطته الثورة الكوبية الاحساس بأنه يزاحم الولايات المتحدة في عقر دارها. وقد اختار ساحة الجمعية العمومية، ميداناً لـ «حرب العصابات» الكلاميّة، التي شنّها دون هوادة.

لم يكن سعيداً وهو يستمع الى خطاب الرئيس ايزنهور، وأربد وجهه بوضوح حين قال ايزنهور:

«إن الهجوم على الامين العام، هو في الواقع هجوم على منظمة الامم المتحدة نفسها».

ثم لمّا قال:

«ما سوف يحدث في الكنغو سيقرّر مدى قدرة الامم المتحدة على حماية الدول الحديثة العهد بالاستقلال في أفريقيا. ليس ذلك فحسب، ولكن قدرتها على حماية الدول الصغيرة اطلاقاً من العدوان».

كان ذلك ما يدعو اليه الامين العام. كانت تلك هي الفلسفة التي يستند اليها في عمله. ولكن لعلّه تمنّى لو أن أيزنهور لم يذهب الى ذلك الحد، في تاييده، خاصة أنه ربطه بقضية الكنغو، التي يعلم همرشولد انها تثير ثائرة الرفيق خرستشوف.

هذا، منذ وصل الى نيويورك، وهو لا يكلّ عن مهاجمة الامين العام. وفي خطابه في الجمعيّة العمومية في اليوم التالي لم يترك مجالاً للشك. قال ان الامين العام منحاز «الى معسكر الاستعماريين»، وان الامم المتحدة لم تعد تعكس حقيقة الوضع في العالم. لا يوجد معسكران ولكن ثلاثة معسكرات. المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، ومعسكر الدول غير المنحازة. لذلك يجب الغاء منصب الامين العام، واستبداله بثلاثة أمناء «ترويكا»، يمثل كل منهم قوة من القوى الثلاث.

قال همرشولد في ردّه «القضية لا تتعلق بشخص الامين العام، بل بالمؤسسة. صف منصب الامين العام باي كلمات تشاء - الاستقلال، الحياد، النزاهة. كلها صفات يجب ان يتصف بها الامين العام.. وهذه الصفات، ربما تقوم عقبات في وقت من الاوقات، في سبيل اولئك الذين يهمهم تحقيق اهداف سياسية يصعب عليهم تحقيقها ما لم يتخلَّ الامين العام عن مبادئه».

واضاف همرشولد ان كلام خرستشوف «يطرح موضوع الثقة في الامين العام».

لم يتردد خرستشوف عن إزالة أي غموض بهذا الصدد، فطلب حق الرد مباشرة، وقال:

«كي نتجنب أي لبْس او سوء فهم، اريد أن اؤكد أننا لا نثق في مستر همرشولد ولا نستطيع ان نثق به. واذا لم يجد هو الشجاعة الكافية للأستقالة بأسلوب الفرسان - اذا صح القول - فاننا سوف نستخلص النتائج التي يحتّمها مثل هذا الموقف».

بوسع الانسان ان يتخيّل وقع هذه الكلمات. هذا الرجل الذي قد تقتحمه العين، ليس رجلاً عادياً. انه زعيم ثاني اقوى دولتين في العالم، وتطالب ان يعترف بها نداً للولايات المتحدة، الدولة الاولى. هل كان خرستشوف يعني ما يقول، ام انه كان يمثل عمداً دوراً بغيضاً بمهارة عظيمة؟

في جلسة بعد الظهر، امتلات القاعة باعضاء الوفود والمراقبين والصحفيين. وازدحمت الاماكن المخصصة للجمهور. لم يبق موطىء لقدم، وكان كثيرون يتوقعون أن يعلن همرشولد عن استقالته.

تحدّث بصوت خفيض هادىء، يخفي توتّرا عظيما. قال:

«انني لو استقلت سوف القي بالمنظمة في مهب الرياح، في هذه الظروف الصعبة المملوءة بالمخاطر. انه لا يحق لي ان افعل ذلك (...) انني اتحمل مسؤوليّة ازاء الدول الاعضاء كلها، الدول التي تمثل المنظمة بالنسبة لها اهمية قصوى (...) الاتحاد السوفييتي ليس في حاجة الى حماية المنظمة، ولا اي من الدول الكبيرة. الدول التي تحتاج الى المنظمة هي الدول الاخرى. وبهذا المعنى فهي منظمة هذه الدول (الصغيرة) قبل كل شيء (...) سوف ابقى في منصبي الى نهاية فترتي، خادماً للمنظمة، وحاميا لمصالح تلك الدول، طالما ارادت لي البقاء (...) لقد تحدث مستر خرستشوف عن الشجاعة. سهل جداً على المرء أن يستقيل. سهل جداً ان ينحني المرء لرغبة دولة كبيرة. إنما أن تقاوم، فذلك شيء اخر، وهو أمر يعلم اعضاء هذه الجمعية، انني لم اتردد عن فعله مراراً..».

إنني اذكر جيّدا الاثر البالغ الذي احدثه هذا الخطاب، والتصفيق الذي قوطع به عدة مرّات. ثم في النهاية حين وقف الناس وظلوا يصفقون ويهتفون زمناً. إلاّ الرفيق نكيتا سيرقيفتش. ظل جالساً مع جماعته، يضرب على المائدة بكلتا قبضتيه. مثل دوره الى آخر مداه.

في مساء اليوم التالي دعا خرستشوف همرشولد الى حفل الاستقبال الذي اقامه في مقر الوفد السوفييتي في (بارك افنيو). استقبله بحفاوة عظيمة، وقبله وعانقه، وقال له ضاحكاً:

«لا تراهن على حصان الرأسماليّة. انه حصان خاسر. راهن على الحصان الرّابح، حصان الاشتراكية» ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٦



بقلم الطيب صالح

بلغ تكالب اوروبا على الاستعمار أوجهُ في القرن التاسع عشر. باستثناء دول سكندنافيا التي استعمر بعضها بعضا، لم تبق دولة اوروبية لم تحصل على مستعمرة او اكثر. حتى هولندا. حتى البرتغال. ماعدا بلجيكا. لاجل ذلك كان ليوبولد الثاني ملك البلجيك يحس بالغبن ويريد ان يحصل على مستعمرة باي ثمن.

وفي السابع من يناير عام ١٨٧٦، احس ان حلمه يمكن ان يتحقق. كانت صحيفة الـ (تايمز) اللندنية تصله بانتظام يوم صدورها بوسائل معقدة. وبينما كان يقرأ في عدد ذلك اليوم - بامعان كعادته - جذبت اهتمامه رسالة بعث بها مراسل الصحيفة من (لواندا) عاصمة أنجولا، المستعمرة البرتغالية، يدل تاريخها إن المراسل بعث بها قبل سبعة اسابيع. فحوى الرسالة ان الملازم (كامرون) الرحالة الانجليزي قد وصل الى ساحل أفريقيا الغربي، بعد رحلة عبر القارة استغرقت ثلاث سنوات، وانه لم يستطع العودة الى انجلترا بسبب مرضه، ولكنه أرسل تقريراً عن رحلته ليُعرض نيابة عنه في اجتماع الجمعية الملكية الجغرافية في لندن.

بعد أربعة ايام، نشرت صحيفة الـ (تايمز) في مكان بارز، وقائع اجتماع الجمعية الجغرافية، وذكرت ان رئيس الجمعية (سير هنري رولنسن) وصف رحلة (كامرون) بأنها «أصعب رحلة قام بها أيٌ من الرحالة المكتشفين في قلب القارة الافريقية واكثرها نجاحاً.

ثم توقف الملك ليوبولد طويلاً عند قول الملازم كامرون، كما جاء في الصحيفة:-

«وسط أفريقيا بلاد رائعة في الغالب، ذات مناخ صحي، تخفي ثروات خرافية. لقد حصلتُ على عينة من الفحم الحجري، وهو من النوع الممتاز، وتاكد لي وجود معادن أخرى بكميات كبيرة، مثل الذهب والنحاس والفضة. ولا شك عندي، أنه باستثمار رأس مال ليس كبيراً، يمكن خلق شبكة من أحسن طرق الملاحة الداخلية في العالم. في ثلاثين الى ستة وثلاثين شهراً، سوف تبدأ هذه الشبكة تدر أرباحا كبيرة، على اي شخص عنده الجراة على الاستثمار».

أحس ليوبولد ان تلك الارض البعيدة المجهولة، التي لا يعرف اسمها بعد، هي المستعمرة التي سوف يقدمها هدية الى شعبه. بعد يومين فقط كتب الى الجمعية الجغرافية يعرض عليهم المساهمة في عملية الاستكشاف نظير مائة الف فرنك (اربعين الف جنيه استرليني) تنفق على رحلات (كامرون).

ورث ليوبولد الثاني عرش البلجيك عام ١٨٦٥، خلفا لابيه، ليوبولد الاول. كانت أسرتهم، أسرة المانية فقيرة من صغار النبلاء، تربطها قرابة قريبة بالاسرة المالكة الانجليزية، واسرة «لوي فيليب» الفرنسية. وقد اراد الاب ان يدعم موقفه بان تزوج الاميرة شارلوت ابنة الملك جورج الرابع ملك انجلترا وولية عهده، على أمل ان ترث ذريته عرش الانجليز. ولكن الإميرة توفيت، واضطر ليوبولد الاول - كما عرف فيما بعد - ان يرضى بعرش البلجيك.

لم يكن وضعاً مغرياً، فقد كانت بلجيكا دولة لا يؤبه لها، محشورة بين دولتين قويتين في خصام مستمر، هما المانيا وفرنسا. وكان الشعب منقسما الى فريقين بينهما حزازات قديمة وعداوات لا تهدأ، الـ «فلمش» والـ «والون».

استقر رأي الملك، والحال كذلك، انه لا بد من الحصول على مستعمرة لبلجيكا، مستعمرة في اي مكان، وباي وسيلة. وقد قدر ان ذلك سوف يعطي شعبه متنفسا لطاقاته، ويصرفه عن الاحتراب الداخلي، كما يعطى بلجيكا وزنا واحتراما، ويدخلها «نادي» الدول الاوروبية المستعمرة.

الاّ ان وزراءه لم يكونوا متحمسين للفكرة، خاصة رئيس وزرائه المتحرر، الذي كان يمقت فكرة الاستعمار من حيث المبدأ. كانوا يقولون له ان شعب بلجيكا أهل تجارة، والاستعمار تجارة خاسرة، خاصة في المناطق الاستوائية، وان الدولة لا تملك المال الكافي الذي تتطلبه عمليات الاستيطان وفرض النفوذ والتنمية والاستثمار. يجيبهم بانه مستعد للانفاق من ماله الخاص، وكان قادراً بالفعل، فقد كان في طليعة أثرياء اوروبا، اذ ورث ثروة كبيرة من أبويه، نماها واضاف اليها بصفقات ذكية مثل شراء اسهم في قناة السويس.

أخذ الملك يتلفت يمينا وشمالاً يبحث عن مستعمرة. عرض على الاسبان ان يستاجر منهم مستعمرتهم الفلبين لقاء عشرة ملايين فرنك، ولكنهم رفضوا حتى مجرد النظر في عرضه، ذهب الى البرتغاليين عارضاً الشراء.

«هل تبيعونني انجولا؟ لا؟ إذاً موزمبيق. لا؟ إذاً جزيرة تيمور».

رفض البرتغاليون ان يبيعوه حتى جزيرة تيمور.

ماذا يفعل؟ الى منْ يتجه؟ منْ يا ترى عنده مستعمرة للبيع؟ آه! الانجليز. غينيا الجديدة.

هؤلاء لهم مستعمرات كثيرة، ولن ينقص من امبراطوريتهم كثيراً اذا باعوه غينيا الجديدة.

راقته الفكرة تماماً وتاكّد من النجاح، فالأسرة الانجليزية المالكة أقرباؤه، والانجليز اصدقاؤه، وغينيا الجديدة لا تهمهم كثيراً اذ انهم لم يهتموا بان يثبتوا وجودهم فيها بشكل محسوس. وفي شهر يوليو عام ١٨٧٥، استدعى السفير البريطاني في بركسل، وقال له باسلوب حاسم، مثل رجال الاعمال:-

«إسمع. دولتنا تحتاج الى متنفس لطاقاتها المكبوتة. ابي كان يؤمن ان الحل الامثل هو في الحصول على مستعمرة. ذلك سوف يمكننا من تنمية مصالحنا التجارية، ايضا نرفع الروح المعنوية للجيش، وننشيء اسطولاً تجارياً. ليس عندنا كما تعلم اسطول تجاري الان. جاء الوقت كي تؤدي بلجيكا واجبها في المساهمة في العمل النبيل - المهمة العظيمة التي تقوم بها اوروبا - نشر الحضارة والتمدن بين الشعوب البدائية، مقتدية بانجلترا بشكل متواضع طبعا. وانا يسعدني ان أهدى شعبي مستعمرة. اقدم له هدية في شكل مستعمرة. سوف اتكفل بجميع النفقات من جيبي. المشكلة هي اين تكون المستعمرة. قرار صعب. فكّرت طويلا في الامر، واعتقد ان غينيا الجديدة تفي بالغرض. نعم. غينيا الجديدة. انها على الطريق الواسع، طريق المستقبل، بين أستراليا واليابان».

استقبل وزير الخارجية، (لورد داربي)، عرض الملك لشراء غينيا الجديدة من بريطانيا بدهشة بالغة، وقال:-

«كيف بحق السماء يستطيع ليوبولد ان يوطن بلجيكيين مع أسرهم بين قوم متوحشين ياكلون لحوم البشر؟ نحن الى الان لم نجرؤ على ذلك».

بعد أيام جاء السفير البريطاني الى ليوبولد برد الحكومة البريطانية، بأنها لا توافق على عرضه، لان المستوطنين في أستراليا يعتبرون غينيا الجديدة تابعة لاستراليا.

لم يثبط ذلك من عزيمة الملك. قال لرئيس وزرائه:-

«حالة السوق ليست مشجعة. اظن من الحكمة الاّ ألح في هذه الظروف. لا احد يريد ان يبيع. لا الاسبان ولا البرتغاليون ولا الهولنديون ولا الانجليز. لا بأس. سوف اتحرى بهدوء. لعلنا نجد شيئا ما في افريقيا» ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٧



بقلم الطيب صالح

لماذا الجزع يا قلبي؟ أما ودعت الاحباب من قبل؟ أنسيت ان الموت اقرب اليك من حبل الوريد يجيئك من حيث لا تحتسب؟ كأنك تمنيت ان يبقى بعدك، يرثيك ويترحم عليك. كان أوثق صلة بربه، واصفى روحاً، وابلغ دعاء، فياليته ظل، وانت ذهبت - ولو كان الموت يقبل المفاداة، لكانت تلك قسمة عادلة.

انما الله قاهر فوق عباده، ومشيئته لا ترد، فالحمد لله.

جاءك الخبر الفادح على غفلة، فزعزع اركانك. واحسرتاه. من لي بعدك بتلك الابتسامة المضيئة، وذلك الوجه الرضي، كانه مرآة مجلوه تعكس دخيلة قلب يفيض بالخير والمحبة وتقوى الله؟

كان تاج السر محمد نور، اخي وصديقي، ابن عمتي وصهري من بقية النفر الابرار الذين مشوا على الارض هونا، ونادتهم الحياة ونادوها بلسان المحبة. الاصفياء الذين صابروا ورابطوا في الحمى، وظلت نيرانهم موقدة.ولد في السراء فلم تبطره السراء، وحين تحول الزمان لم ياس على تحول الزمان، مثل الجبل الاشم، يمر به السحاب وتهب الاعاصير.

ما أوسع الحزن وما اضيق الكلمات، وهذا عدل نفسي بحق. الا يعزيك أنْ تعلم أنهَ رحل عن الدنيا قرير العين راضي النفس؟ أما كان دائما كأنه على أهبة السفر؟ لم يتريث للوداع. لم يلوح بيده. لم يتلفت وراءه. كان ذاهباً الى لقاء ربه في صلاة الجمعة. مقبلاً اليه بكليته. على أهبة الاستعداد للسفر. في الطريق، ثمة، ناداه الصوت الذي تبعه منذ البدء. استجاب له ببساطة، بلا جلبة ولا ضوضاء، كان مقدرا ان يتم الامر على هذه الصورة، فقد عبد الله في خفية.

عبد الله بخشية وخفية، فلا تكاد تعرف طول عبادته. ولكن سره كانت تفضحه الأنوار التي تلمع على وجهه.

نشأنا معاً منذ طفولتنا، فقد كنا من سن واحدة، يصغرني بعام. كان الزمان جميلاً، فتقاسمنا حلاوة الزمان. وحين تغير الزمان، كان بعضنا يشد أزر بعض فلم نكترث لتغير الزمان. أولئك اخوتي في العهد الأول، هو وعلوب وسيد وأبراهيم عباس مد الله في أعمارهم.

وكان هو اسرعنا بذلا، واصدقنا قولا، وامضانا عزيمة، وارجحنا عقلاً، واكثرنا مرحا، واصبرنا على الشدائد.

كانت فيه غبطة وفرح داخلي، كأنه يتكتم نبأ سارا. وتلك السكينة لأنه أبدا لم يجرب الاحساس بالذنب. ومن أين يجيئه الاحساس بالذنب؟ نشأ في طاعة الله. اطاع الله ببساطة، وكأنه لا يبذل جهدا. وكان سبل الحياة المحيرة قد سدت كلها عليه، وانفتح أمامه طريق واحد، هو طريق الخير والصلاح، فسلكه. وظل يسير فيه الى لقائه الموعود بربه يوم الجمعة.

من اين يجيئه الاحساس بالذنب؟ لقد اوفى بالعهود كلها واكثر. بر بأبويه ووصل ارحامه، ورضي عن الناس ورضوا عنه. استقبل القادمين وودع المسافرين، وعاد المرضى ودفن الموتى. وفى بنصيبه ونصيبي ايضا. يسد كل ثغرة اغفلتها، وينهض بكل واجب تركته يقبلني على علاتي، ويغض الطرف عن هفواتي.

رجل ثابت في زمان متقلب. كنت أغيب العام والعامين، وحين أعود اجده كما عهدته دائما. داره تتسع قليلاً، واثاث بيته يتحسن قليلا، انما أبداً لا تجد عنده آثار نعمة طارئة او ثروة مفاجئة. والدار أبداً عامرة بالناس، عشيرته واصدقاؤه، لا يكادون يتغيرون على مرور السنين.

عمل في مصلحة الجمارك وهو دون العشرين من عمره، وظل يرقى الدرجات بفضل اخلاصه وجده وذكائه الخارق، وتلك العناية الالهية التي كانت تقود خطاه، حتى وصل إلى أرفع المناصب، واصبح من قلة يضرب بهم المثل في الكفاءة وعفة اليد. كان يقول انه قطع عهداً على نفسه الا يطعم عائلته من المال الحرام، وما كان اكثر المال الحرام.

ظل من الصابرين المرابطين في الحمى. مرة سافر الى بعثة دراسية في معهد الجمارك في الاسكندرية. ومرة ذهب معاراً من حكومة السودان الى اليمن. وخرج مرتين لأداء فريضة الحج. غير ذلك لم يبرح السودان ابدا. وانا وامثالي نضرب في البلاد ونجوب الافاق.

شجرة وارفة تتفيأ ظلالها وتاكل من ثمارها. تجلس اليه فتغرف من نبع لا ينضب. كان قوي الذاكرة بشكل عجيب، يحفظ القرآن والحديث والشعر الفصيح وشعر الدوبيت والتاريخ والأنساب والملح والطرائف. يغمرك بروحانيته، وينسيك عنت الحياة. يجعلك تحس انك افضل مما انت في الحقيقة. تحس ان مجرد وجوده في الدنيا يجعلها أكثر خيراً واقل عدوانا.

رجل مصباح، يكون قدوة ويضرب به المثل، جاد به الزمان في لحظة من لحظات أريحيته النادرة، فرف مثل طيف جميل، مثل الغيث في الربيع، ثم مضى على عجل ويا للحسرة، ولما استرد الخالق وديعته، فكان الزمان عاد بخيلاً كعهده. رحيله ورحيل الصالحين أمثاله، علامة كما جاء في الاثر.

مضى الى حياة افضل ان شاء الله، مع الصديقين والابرار. وأنا لي الله. لأنه اغنى حياتي بحياته، وافاض علي من بركاته، فانه برحيله قد افقرني جداً، وتركني أقل مما كنت. وانا قليل أصلاً في ميزان الحق.

أف للدنيا. تعطيك هباء يحسبه الناس هبات. والذي تحبه يذهب ولا يعود. ولا عزاء.

رحم الله تاج السر محمد نور.
وصبر جميل والله المستعان ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٨



بقلم الطيب صالح

منذ القرن الخامس عشر، والبرتغاليون يحوّمون حول أفريقيا، كما تحوم النسور فوق جسد وعل جريح، وقع من الاعياء، يحاول ان ينهض فلا يستطيع. الذهب بغيتهم، خاصة الذهب. لا عجب، فقد كانت كنوز افريقيا تسيل لعاب الأوروبيين منذ أمد بعيد، يسمّونها «الدورادو». أرض الكنوز الخرافيّة. وكان الذهب الافريقي الذي يتسرّب الى (جنوا) والبندقية، وبقية مدن البحر الأبيض المتوسط، يفتح شهيّتهم، ويلهب خيالهم. ولكنهم لم يكونوا يعرفون من أين يجيء، وكيف يصل إليهم. وكانوا قد تسامعوا من قبل، أن السلطان موسى، سلطان مالي، قد مرّ بمدينة القاهرة في طريقه لأداء فريضة الحج، ومعه حاشية من خمسمائة مرافق، كل واحد منهم يحمل قضيباً من الذهب الخالص، زنته أربعة أرطال، ليهديها الى بيت الله الحرام. جُنّ جنونهم، وتساءلوا، من اين يجيء كل ذلك الذهب؟

وفي نحو عام ١٤٨٠، نجح البرتغاليون في أن يجدوا لهم موطئ قدم على ساحل أفريقيا الغربي، وبدأت سفنهم تشحن الذهب في مصبّ نهر السنغال وفي خليج غينيا. يصلهم من أماكن غامضة في وسط القارّة، لا يعلمون أين. لم يستطيعوا النفاذ الى قلب القارّة، فأخذوا يضغطون جنوباً. وفي عام ١٤٩٧ وصل (فاسكو داغاما) الى طرف القارّة من ناحية الجنوب، فسمّوه (رأس الرجاء الصالح) The Cape of good Hope، وكان أحرى بهم أن يسمّوه (رأس الجشع الفادح) فلم يكن البرتغاليون يأملون في شيء غير الكنوز والثراء. والآن انفتح لهم طريق بحري الى الهند وبقية آسيا، بديل عن الطريق البرّي الشاق.

في أثناء ذلك، كان الفرنسيّون والانجليز في سباق محموم، أيهم يفوز بقلب القارّة. وكان الانجليز يحسبون ان الفوز سوف يكون من نصيبهم، بسبب جهود مكتشفيهم، أمثال (لفنجستون) و(سبيك) و(غرانت) و(بيرتن) وأخيراً الملازم (كامرون). وقد بدأ الرأي العام في بريطانيا يهتم بافريقيا، حين أنشئت أول بعثة تبشيريّة على سفينة على بحيرة (نياسا) ممّا أدخل عنصراً جديداً أسبغ ثوباً أخلاقياً على الجشع الاستعماري. اما الفرنسيون فقد ظلّوا يتلقطون أنباء الرحّالة الإنجليز ويحاولون أن يجدوا منفذاً الى قلب القارّة من مستعمرتهم في (غامبيا).

لعلّ السعار الاوروبي كان سيتجه الى الامريكتين، بعد أن وصلوا اليهما على اثر (كولمبس) في أواخر القرن الخامس عشر. ولكنّ التوسع في زراعة القطن وقصب السكّر هناك، أضاف الى سعارهم في أفريقيا، سبباً جديداً. كانت تلك المزارع تحتاج الى أيد عاملة، ملايين الأيدي العاملة. وكانت أفريقيا، الوعل البرّي الجريح، لا حول لها ولا قوة، لا تستطيع أن تدافع عن نفسها في مواجهة التكنولوجيا المتقدّمة - البوارج والمدافع والبارود.

هكذا نشأت تجارة الرقيق. كما كان الذهب يصل الى موانئ الساحل الغربي، أصبح الرقيق يتدفّقون من وسط القارّة، فيتمّ فرزهم وتصنيفهم مثل السلع التجارية، وشحنهم مكدّسين في السفن في ظروف مُخزية، الى البرازيل وأمريكا وجزر الهند الغربية.

رحّلت أوروبا نحو عشرة ملايين آدمي في هذه التجارة البشعة. كانت أكبر عمليّة تهجير قسري في التاريخ. سوف يجيء وقت يحس فيه الضمير الأوروبي بوطأة الاحساس بالذنب. فيبحثون عن شعب آخر يحمّلونه وزر خطاياهم. ومَن تظنّ الشعب الغافل الذي يحمل أوزار الآخرين عن طيب خاطر؟

كل ذلك وبلجيكا بمَعْزل. كان ليوبولد الثاني يرى الكلاب الأوروبية تنهش في لحم أفريقيا، ويتلمّظ يريد عظماً أو مزْقة من لحم. عنده رأس مال حاضر، يبلغ خمسة عشر مليون فرنك، يريد أن يحصل به على مستعمرة، ولا أحد يسخو بالبيع أو الايجار. لا بد من الحصول على مستعمرة. كيف يفعل؟

خطرت له فكرة ملهمة. يكسو الجشع رداء الحضارة والمثل العليا وخدمة العلم. فكّر أن يعقد مؤتمراً كبيراً في بركسل، يدعو اليه العلماء والرحّالة والمكتشفين. وفي الثاني عشر من سبتمبر عام ١٨٧٦، افتتح الملك المؤتمر في القاعة الكبرى في القصر الملكي، في جو ساحر من الأبّهة والفخامة، وأنغام الموسيقى وأضواء الشموع. كان ذلك بداية شر مستطير للكنغو البائس. مأساة لم تتم فصولها بعد. حقاً التاريخ لا ينسى ولا يغفر. البذور الشرّيرة التي غرسها ليوبولد في تلك الليلة، انبتت فيما بعد - كما كان حتماً أن يحدث - شجراً شوكه الندم، وثمره الحسرة.

خطب الملك في جمع العلماء والمكتشفين والرحّالة والمغامرين والافاقين الذين شمّوا رائحة الثراء، ولمع في خيالهم بريق الذهب من قلب أفريقيا المُتعَب. قال:

«... أنْ نفتح للحضارة الجزء الوحيد من كوكبنا الذي ظلّ مغلقاً دونها... أنْ نُضيء الظلام الكثيف الذي يخيّم على شعوب باكملها... تلكم هي، اذا جاز لي التعبير، المغامرة النبيلة... الجهاد المقدّس الذي يليق بهذا العصر. وأنه يبدو لي ان بلجيكا مؤهّلة لاجتماعنا هذا، بحكم موقعها المتوسط في أوروبا، وبحكم حيادها. هذا هو الذي شجعني أن ادعوكم الى داري المتواضعة في هذا الاجتماع الصغير الذي يشرفني ان افتتحه اليوم. ولا حاجة بي أنْ أؤكد لكم، ان دعوتي لكم الى هذا الاجتماع، لا تخفي وراءها أيّة اغراض انانيّة. أبداً أيها السادة. صحيح ان بلجيكا دولة صغيرة. ولكنها دولة سعيدة راضية بحظها. ان طموحي الوحيد هو أن أخدم شعبي وبلادي».

بين عشيّة وضحاها، تحوّل ليوبولد الثاني ملك البلجيك، من ملك مغمور لدولة لا يُؤْبه لها، الى نجم يتألق في سماء اوروبا كلّها ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٩



بقلم الطيب صالح

كان المؤتمر ناجحاً بكل المقاييس، ارضى توقّعات الملك كلّها. ووجد أولئك العلماء والرّحالة والمكتشفون انفسهم غرقى في محيط من العطف الملكي السامي، والبذخ والأضواء والسحر، الى درجة دوّخت رؤوسهم وأعشت ابصارهم، فكتب العالم الوقور «سير هنري رولنسن» مكتشف طلاسم اللغة الهيروغليفية، كتب الى زوجته في لندن بحماس صبيٍ يرى السيرك لأول مرّة:

«تصوري انهم خصّصوا لي جناحاً فاخراً، جناحاً كاملاً لي أنا وحدي كلّ ما فيه أرجواني ومذهّب. اللون الأحمر يطغى على كل شيء حتى ورق التواليت».

وقال البارون (فون رِخْتْهوفن) رئيس الوفد الالماني:

«أدار الملك جلساتنا بلطف وتهذيب يفوقان الوصف. انني لا أعرف نظيراً لكرم الضيافة والترف الذي عُوملنا به».

أجل، أحس ليوبولد بالرّضى. تحوّل بين يوم وليلة، من ملك عاطل الذكر لدولة لا وزن لها، الى نجم يشع في سماء اوروبا، من بحر البلطيق الى سواحل الاطلس وما وراءه، تهفو اليه قلوب سيدات الصالونات في «مِيْ فير» في لندن والـ «فوبور سانت أنري» في باريس. اصبح رمزاً لنور الحضارة الاوروبية، الذي سوف يجلو الغياهب في قلب «القارّة المظلمة». اصبح بمثابة الاستجابة للدعاء الذي وجهه «لفنجستون» في الخامس من ديسمبر عام ١٨٥٧:

«أتوسّل اليكم أن تهتموا بافريقيا. اعرف انني سوف اقضي عمّا قريب، وينقطع خبري، في تلك الارض التي انفتحت الآن. لا تدعوها تنغلق من جديد. سوف أعود الى افريقيا لأواصل الجهد كي افتح طريقا للتجارة وللدّين المسيحي. فهل تواصلون انتم العمل الذي بدأته؟».

وكأنّي بليوبولد قد هتف «لبّيك. لبّيك». فقد كانت التجارة والمسيحية تتفقان تماما مع مخطّطاته. تحت سحائب الكرم والبذخ والأبّهة التي دوّخت كل أولئك العلماء والمكتشفين في بركسل، كان الملك يعرف ما يريد. كتب الى سفيره في لندن يقول:

«يجب الاّ اضيّع الفرصة للحصول على قطعة من هذه الكعكة الافريقية المدهشة».

سارت الامور على ما يرام، وانتهى المؤتمر الى النتائج التي اراد له ليوبولد ان ينتهي اليها. وكان اهمها «انشاء هيئة تسمى (الجمعية الدولية الافريقية) تعمل على تنسيق اعمال الاستكشاف في افريقيا، وتحارب تجارة الرقيق، وتنشر الديانة المسيحية». وطبعا عُرضت رئاسة الجمعية على الملك، فتمنّع في القبول، ثم قبل بعد الحاح!

ماذا بقي اذاً؟ بقي ان يحصل ليوبولد على رجل عليم بدروب افريقيا يعينه على تحقيق هدفه. الحصول على مستعمرة. وكان الملك يظن ان «كامرون» هو ذلك الرجل، ولكنّه اكتشف في رحلة سريّة قام بها الى لندن متخفيا، ان (كامرون) كان يحاول ان يعرض خدماته على الحكومة البريطانية، واقناعها ببسط نفوذها على الجزء الذي اكتشفه في وسط افريقيا، يعني (الكنغو).

مَنْ هناك اذاً؟ ستانْلي، لمع الاسم في ذهن ليوبولد، واحس بالنشوة. كلّما تعمّق في التفكير، زادت قناعته ان «ستانلي» هو الرجل الذي يطلبه. ولكن اين هو؟ آخر ما سمع عنه انه في مكان ما وسط القارّة يحاول ان يتبع مجرى نهر (لُوَا لابا) - النهر العظيم، كما سماه «لفنجستون»، ليتحقق هل هو نهر النيل ام نهر الكنغو.

تاريخ الاستكشاف في افريقيا يموج بشخصيات كانها من قصص روائية، وكان «هنري مورتن ستانلي» من اكثرها غرابة. كان طفلاً لقيطا من ابوين من مقاطعة (ويلز)، فنشأ في ملجأ أيتام نشأة بائسة، كما روى هو نفسه فيما بعد. وفي سن السابعة عشر هرب الى امريكا، وفي مدينة (نيو اورلينز) في الجنوب صادف رجلاً كريماً من اصل انجليزي، يملك مزارع للقطن يسمّى (هنري هوب ستانلي) فآواه وأعطاه اسمه، وانفق على تعليمه.

عمل «ستانلي» مراسلاً لصحيفة (نيويورك هرالد) واستطاع ان يجد طريقه الى افريقيا مراسلاً للصحيفة الامريكية بالاضافة الى صحيفة الـ (ديلي تلغراف) الانجليزية.

حين التقى بـ (لفنجستون) عام ١٨٧١، والرحّالة الشيخ يجهد ان يكتشف (النوافير) التي ذكر المؤرخ اليوناني «هيرودتس»، ان نهر النيل ينبع منها، قال رجل لـ «لفنجستون»، «هذا الشاب الامريكي المتعجرف سوف يصنع مجده على حسابك».

فقال «لفنجستون»:

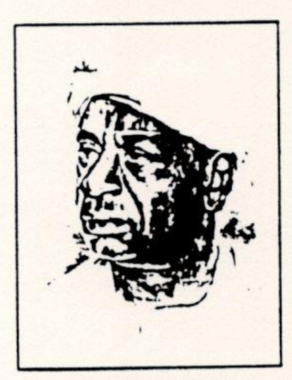
«اذا كان ذلك ما يريد فهنيئا له. انه اكثر مما استطيع صنعه لنفسي».

بعد ذلك اللقاء بقليل كان «ستانلي» واحداً من ثمانية رجال أعطوا شرف حمل نعش الرحّالة الشيخ الى مثواه في «وستمنستر ابي» على حافة القبر آلى على نفسه ان يُكمل العمل الذي بداه «لفنجستون»، ان يفتح قلب افريقيا لنور (التجارة والمسيحية). وذلك تحديدا ما كان يسعى اليه ليوبولد الثاني ملك البلجيك ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٦٠



بقلم الطيب صالح

في بلدة تُسمَى «أوجيجي» على نهر «لوالابا» عثر «ستانلي» على الرحالة القس «ديفيد لفنجستون» في اكتوبر عام ١٨٧١. كان لقاء دراميا طار ذكره في الآفاق. كان الرحالة الشيخ، رغم المرض والارهاق، يواصل السعي بتصميم رجل أسكتلندي ينتمي الى المذهب المسيحي الكالفيني، كي يجد منبع النيل. كان يظن أن نهر «لوالابا» هو نهر النيل، الذي سوف يصل بواسطته «نور» المسيحية والتجارة الى «قلب افريقيا المظلم». بعد أن يموت «لفنجستون»، سوف يكتشف الملازم «كامرون»، أن الرحالة العنيد، كان يلاحق سرابا، وان نهر «لوالابا» ليس هو نهر النيل، بل نهر الكنقو، وان طريق «الحضارة» الأوربية، ليس من ناحية الشمال، ولكن من ناحية الغرب. وكان الأمران سيين لدى الملك ليوبولد الثاني ملك البلجيك.

احس «ستانلي» لاول وهلة، بألفة طاغية نحو ذلك الرجل العجيب. كان بحكم طفولته التعيسة يبحث عن أب. وجده من قبل في «نيو أورلينز» في «مستر هنري هوب ستانلي»، وها هي الاقدار قد قيضت له الآن هذا الرجل المهذب الرحيم القلب. كان رحيما اكثر مما يجب، في نظر «ستانلي»، فقد كان يعامل خدمه الزنوج برقة شديدة، ولا يقوى على عقابهم اذا اخطأوا. بعد موته، كتب «ستانلي» في مذكراته يقول:

«أسال الله ان يختارني كي اتمم ما بداه في فتح أفريقيا لنور المسيحية الوهاج. لكن أساليبي سوف تختلف عن اساليبه. كانت طريقته مليئة بالاخطاء، مع ان الرجل الشيخ نفسه كان مثل القديسين في طيبته وصبره وتضحيته. هذا العالم القاسي يحتاج الى رجال أقوياء بوسعهم أن يتحكموا في أموره، اكثر من حاجته الى رجال محبين».

كانا مختلفين أشد الاختلاف، فقد ترك «ستانلي» وراءه، اثاراً من الجثث والدماء. واذ مات «لفنجستون» وحيداً، الا من أتباعه الزنوج الاوفياء، في خيمة في الأدغال، مضى «ستانلي» ليصبح نابه الذكر، يقابل الملكة فكتوريا* وينال لقب «سير» ويقضي أيامه الاخيرة سيداً على مزرعة واسعة في الريف الإنجليزي. ولعل الكاتب العبقري «جوزف كنراد» كان يفكر في «ستانلي» حين كتب روايته الشهيرة عن الكنقو «قلب الظلام».

ولد «ديفد لفنجستون» في ١٩ مارس عام ١٨١٣ في بلدة «بلانتير» في سكتلندة، أحد سبعة اطفال، في عائلة فقيرة متدينة، تنتمي الى المذهب الكالفيني المتزمت. وقد اضطره فقر أسرته أن يعمل وهو بعد صبي في محلج للقطن، فكان يعمل ويدرس. وفي عام ١٨٣٤ قرأ أعلانا في الصحف عن حاجة (جمعية الكنائس البريطانية) الى مبشرين اطباء للعمل في الصين، فالتحق بجامعة «قلاسقو» حيث درس، وهو مايزال يعمل، اللغة اليونانية واللاهوت والطب. وفي عام ١٨٣٨، قبل في جمعية لندن التبشيرية، ولكنه لم يستطع السفر الى الصين، واقنعه أحد المبشرين في افريقيا، رجل يسمى «موفات»، أن يذهب الى افريقيا. سوف يتزوج «لفنجستون» ابنة «موفات» هذا فيما بعد.

في ٢٠ نوفمبر عام ١٨٤٠ رسّم كاهناً في الكنيسة، وسافر الى مدينة «كيب تاون» في جنوب افريقيا. كانت تلك بداية حياته الاستكشافية الحافلة. اتجه شمالاً فقطع صحراء (كالاهاري) الى ان وصل في نوفمبر عام ١٨٥٥ الى نهر (الزامبيزي). وقد قدر له ان يكون اول من أسمى الشلالات «شلالات فكتوريا».

كانت أنباء رحلاته وجهوده التبشيرية تتسرب الى انجلترا، بطريقة أضفت عليه رونقاً من الجاذبية والسحر. ولما عاد اليها عام ١٨٥٦، استقبل استقبال الابطال، ووجد حفاوة عظيمة من المجتمع بمختلف طبقاته. وعزز شهرته حين نشر كتابه «رحلات مبشر وبحوثه في جنوب افريقيا». لقي الكتاب رواجا لم يحدث لكتاب من نوعه من قبل، وبيعت منه سبعون الف نسخة في فترة وجيزة.

وهكذا حين لقيه «ستانلي» في (أوجيجي) لم يكن «لفنجستون» في حاجة الى الشهرة. بل الثابت ان «ستانلي» هو الذي أقام شهرته على كتفي الرحالة الشيخ، وقد اتخذ لذلك أساليب خشنة أغضبت كثيرين من محبي «لفنجستون»، وبعضهم تشكك في ان يكون قد قابله أصلاً.

أعطاه المؤن والمعدات التي أرسلها له اصدقاؤه في انجلترا، وصحبه طيلة أربعة أشهر في رحلاته حول بحيرة (تانقانيكا). عاد «ستانلي» الى انجلترا ونشر كتابه (كيف وجدت لفنجستون) الذي أحدث دويا، وجلب للكاتب شهرة ومالاً.

اما «لفنجستون» فقد واصل بحثه عن منبع النيل، كانه يلاحق طيفاً سحرياً. في ٣٠ ابريل عام ١٨٧٣، حط رحاله في قرية صغيرة على نهر (موليلامو). كان قد بلغ منه الاعياء مبلغاً، وهده النزيف الداخلي الذي كان يعاني منه. ليس معه غير اتباعه الاوفياء من الافريقيين، (سوزي) و(شوما) و(جيكوب ويترايت).

في صباح أول ابريل، وجدوه راكعاً عند سريره في الخيمة كانما يصلي. تاكدوا انه قد مات. بعد ذلك قام هؤلاء الثلاثة بمغامرة الهبت خيال الشعب البريطاني، وكانت سبباً مهماً في أن تبسط الحكومة البريطانية نفوذها على منطقة البحيرات في افريقيا. قرروا ان يعيدوا الجثمان الى انجلترا.

شقوا الصدر، واخرجوا منه القلب، ودفنوه تحت شجرة، واقاموا شاهداً، عليه الاسم وتاريخ الوفاة. هذا العمل سوف يكون له مغزى رمزي عظيم فيما بعد. حنطوا الجثمان بطريقة بدائية وجففوه في الشمس، وحملوه في رحلة طويلة شاقة الى زنجبار. كانوا يسهرون على حراسته بالليل حتى لا تخطفه الضباع. من ثمة حمل على سفينة الى لندن، يصحبه الصبي الزنجي المخلص (جيكوب ويترايت). جاشت عواطف الانجليز من التاثر، واختاروا لأجل ذلك (جيكوب ويترايت)، ليكون واحداً من الثمانية الذين حملوا نعش الرحالة الى مثواه في (وستمنستر ابي)، حيث يدفنون عظماء رجالهم. فيما بعد، دعوا الخادمين الآخرين (سوزي) و(شوما) الى لندن، وغمروهما بالحفاوة والتكريم.

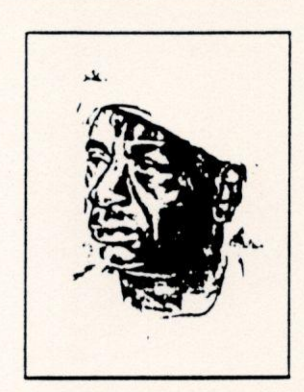
قبل ذلك، شاءت الصدف، ان يصل الجثمان في الطريق الى زنجبار، الى بلدة تسمى (تابورا). ثمة وجدوا الملازم (كامرون). عجب اشد العجب لما فعله أولئك الثلاثة، ونصحهم ان يدفنوا «لفنجستون» حيث هو، ولكنهم اصروا على المضي قدما. أخذ منهم بعض معدات «لفنجستون» وواصل رحلته غرباً. سوف يصل بعد نحو عامين الى ساحل (أنجولا) ويكون أول رحالة أوربي يعبر القارة من الشرق الى الغرب. لم يجد مصب نهر (لوالابا) ولكنه تاكد ان «لفنجستون» كان مخطئا، وان الـ (لوالابا) ما هو الا نهر الكنقو. سوف تنشر صحيفة-الـ (تايمز) أخبار هذه الرحالة، فيقرؤها ليوبولد الثاني ملك البلجيك في قصره في بركسل، فتخطر في ذهنه الثلجي افكار أبعد ما تكون عن المسيحية وخدمة العلم ■

* ويخدم مخططات ليوبولد، وينال لقب سير.. الخ

(الحديث مقبل)

نحو أفق بعيد

١٦١



بقلم الطيب صالح

سوف يصل (ستانلي) الى مصب نهر الكنغو، ويثبت بما لا يترك ادنى شك، ان (النهر العظيم) الذي ظنه (لفنجستون) نهر النيل، ليس غير نهر الكنغو. ولكنه لن يجد جلاوة الانتصار. حين مات (فرانك بوكُك) آخر مرافقيه من الاوربيين، كتب في مذكرته يقول:

«آه يا صديقي فرانك. انك رجل محظوظ. ارتحت من هذه الفوضى الفظيعة. نجوت من الوحل الذي غرقت انا فيه الى أذنيّ».

ان كان في هذه الكلمات، احساس بتوبيخ الضمير، فلا جرم، فقد ارتكب (ستانلي) كثيراً من الآثام للوصول الى غايته. وكأنه تنبأ بما سوف يحدث في المستقبل. سوف يغرق كثيرون بعده في «وحل» الكنغو. سوف يروح فيه (داج همرشولد) الرجل السويدي المتحضر الذي لم تكن له يد في كل ما حدث. سوف تشب حروب يقتل فيها الاف الناس، وتزهق روح (باتريس لوممبا) التعيس. وهي مأساة من مآسي جشع الانسان لم تكتمل فصولها بعد.

في الخامس من اغسطس عام ١٨٧٧، بعد نحو عام من انقطاع اخبار (ستانلي) أوصل اربعة سواحليين رسالة بالانجليزية، الى بلدة صغيرة عند مصب نهر الكنغو تدعى (بوما) جعلها الاوربيون قاعدة تجارية. كانوا خليطا من الانجليز والبرتغاليين والاسبان والهولنديين. كانت من (ستانلي). قرأها تاجر برتغالي اسمه «دامونا فيجا». تقول: «الى اي رجل كريم يتحدث اللغة الانجليزية في (أمبوما).

سيدي العزيز.

لقد وصلت الى هذا المكان قادما من زنجبار وفي صحبتي مائة وخمسة عشر انسانا، رجالا ونساء واطفالا. اننا لا نستطيع ان نشتري شيئا من الاهالي، الذين يرفضون ما نقدمه لهم من الثياب والخرز ويجدونه مدعاة للضحك والسخرية. لا يمكن شراء الطعام في هذه البلاد الا في ايام الاسواق، ونحن نكاد نهلك من الجوع ولا نقوى على الانتظار. لا اعرف من انت، وقد سمعت بوجود رجل انجليزي في (أمبوما). لكنك مسيحي وجنتلمان، لذلك فانني اتوسل اليك الا تصم اذنيك عن ندائي. ضروري ان يصلنا المدد في غضون يومين وإلا فاننا هالكون لا محالة».

أرسل له (فيجا) المدد المطلوب، وفي الثامن من اغسطس وصل (ستانلي) الى (بوما) - التي سماها في رسالته (أمبوما) - وصل مع من بقي من اتباعه في حالة لا توصف من الجهد والاعياء. كان قد مضى على بدء رحلته من زنجبار قرابة ثلاثة اعوام، وقطع اكثر من سبعة آلاف ميل. حين بدأ كان معه مئتان وخمسون، وحين وصل الى (بوما) كان قد بقي منهم اقل من النصف. بعضهم هرب منه في الطريق، وبعضهم اهلكه المرض، وبعضهم قتل في المعارك التي خاضها.

أجهش (ستانلي) بالبكاء، بينما اخذ اتباعه يغنون غناءهم الافريقي عند النصر في الحرب، بأصوات ضعيفة متعبة. سوف يحزن اكثر، فما يزال القدر يخبئ له مزيدا من الالم.

حين عاد الى زنجبار، وجد رسالة جرحت قلبه جرحا عميقاً، من خطيبته (آلسون بايك). كانت فتاة امريكية في السابعة عشر، ابنة ثري يهودي من (سنسناتي). تعاهدا على الزواج ووقعا ميثاقاً بذلك يقول:

«نقسم على ان نظل وفيّين احدنا للآخر، وان نتزوج حالما يعود هنري مورتن ستانلي من رحلاته في افريقيا».

كان يسميها «الحلم والملاذ والأمل»، ولكنها لم تستطع الانتظار، فتزوجت رجلا مليونيرا من (أوهايو).

سمى قاربه (ليدي اليسون) على اسمها. كان قاربا من عدة اجزاء، تفك ويعاد تركيبها، غرق في ما بعد في مياه نهر (لوالابا). وكان يحمل صورتها في جيب (جاكتته) الداخلي قريبا من قلبه.

التقى اثناء طوافه حول بحيرة فكتوريا بالكاباكا (متسا) ملك الـ (بوغاندا). وجده يميل الى اعتناق الاسلام، فأغراه بالدخول في المسيحية، ووجه نداء عبر صحيفتي الـ (ديلي تلغراف) والـ (نيويورك هرالد) بارسال مبشرين الى (بوغاندا). سوف يتدفقون وشيكا على شواطئ بحيرة فكتوريا، وفي اقل من عشرين عاما سوف تصبح يوغاندا باكملها مستعمرة بريطانية.

خرج (ستانلي) من بلاط ملك الـ (بوغاندا) سعيداً مرتاح الضمير، فقد احس انه حقق هدفا من اهداف (لفنجستون). ولكن يديه سرعان ما تلطختا بالدماء، وكانت وصمة لاحقته طول حياته.

وصل الى جزيرة في بحيرة فكتوريا، تسمى (بمبيري). طلب من اهلها ان يبيعوه الطعام والمؤونة، فرفضوا. شن عليهم الحرب فقتل منهم اربعة عشر. لم يكتف بذلك، بل عاد اليهم في اليوم التالي «كي يلقنهم درساً»، فأخذهم بغتة، وغمرهم بنيران بنادقه. كانت مذبحة قتل فيها اكثر من مائة انسان. كتب في مذكرته مزهواً بما حققه من (نصر):

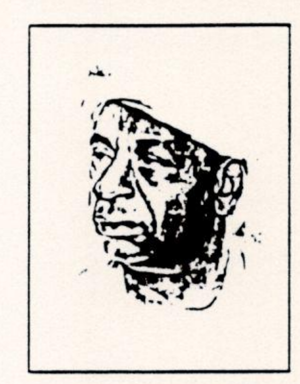
«يا له من نصر عظيم! سارت قواربنا جذلى بحذاء شاطئ البحيرة. سبعة وثلاثون قارباً. كانت المجاذيف تضرب الماء على دقات الطبول وانغام الابواق، والاعلام الانجليزية والامريكية والزنجبارية ترفرف في الهواء. كان منظرا منعشا بحق».

كانت رحلته بتمويل من مصادر انجليزية - امريكية، وقد حق للاعلام الانجليزية والامريكية ان ترفرف في الهواء. اما العلم الاحمر القاني، علم سلطان زنجبار، فكان كما تنثر الرماد للريح. لقد استعان (ستانلي) بالزنجباريين لانهم كانوا ادرى بتلك الدروب. سوف يلتقي عما قريب بالعربي الاسطورة، حامد بن محمد المعروف بـ (تيوتب)، الرجل الذي حملوه اوزاراً في تجارة الرقيق، بعضها صحيح وأغلبها محض افتراء. كذلك فعلوا مع العربي السوداني الزبير (باشا) ود رحمة، وولديه رابح وسليمان. وهي من الأوزار التي يحملها العرب الى اليوم - عن طيب خاطر - بدلاً من الجناة الأصليين ■

(التحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٦٢



بقلم الطيب صالح

حين عاد (ستانلي) الى لندن في يناير عام ١٨٧٨، أستقبل استقبالاً محيراً. اعتبر كثيرون اكتشافه لنهر الكنغو أعظم اكتشاف في افريقيا، ووجد ترحاباً على نطاق واسع. وفي المقابل استقبله كثيرون بفتور واضح. وقد حزّ في نفسه ان بعض المقاعد كانت شاغرة في قاعة (سانت جيمز)، حين ألقى محاضرة عن رحلاته لأعضاء الجمعية الجغرافية الملكية.

أسوأ من ذلك ان الحكومة لم تتحمّس لاقتراحه ان تستعمر بريطانيا حوض نهر الكنغو. وكتب في مفكرته:

«لقد عجزت عن فهم هؤلاء الانجليز، أمّا انهم يظنون انني أعمل لمصلحتي الخاصّة، او انهم يعتبرونني كاذباً.. كان جزائي انهم يصفونني بانني لست اكثر من مغامر يبحث عن الثراء... ونظير اغاثتي لـ (لفنجستون) اسموني محتالاً. وحين احاول تحريك عزائمهم للعمل يسخرون مني ويقولون انني غرّ لا افهم أمور المال والتجارة».

كان الانجليز بالفعل في شغل عن الكنغو في ذلك الوقت. كانت الحكومة منصرفة الى أمور اخرى، مثل أحداث البلقان وديون الخديوي في مصر. وكان عدد كبير من السياسيين ورجال المال غير متحمّسين للدخول في مغامرات استعمارية جديدة. كانوا مثل رئيس وزراء ليوبولد، يقدّرون ان اقامة مستعمرة في الكنغو، يحتاج الى رأسمال كبير. لن يدر ربحاً الا بعد زمن طويل. حتى رجال الكنيسة لم يكونوا متحمّسين. كانوا منصرفين الى فتح ارساليات في يوغندا ونياسالاند.

كل ذلك كان يثلج صدر ليوبولد. كان سفيره في لندن يرصد تحركات الرياح ويرسل اليه الأخبار اولاً بأول فتنزل على قلبه برداً وسلاماً. فلينتظره، ولكن يجب الا ينتظر طويلاً. صحيح ان الانجليز ليسوا متحمّسين لاستعمار الكنغو اليوم، ولكن من يضمن ان شهيتهم لن تنفتح غداً؟ هؤلاء القوم الماكرون، اذا أرادوا شيئاً حصلوا عليه! فلينصب الشراك لـ (ستانلي) وينتظر.

أمّا (ستانلي) فانه ازاء صدود الانجليز وسخريتهم، فقد ندم انه لم يستجب من قبل لدعوة الملك. اول ما أرست سفينته في ميناء (مرسيليا) في الطريق الى لندن، وجد في انتظاره دعوة من ليوبولد لزيارته في بركسل. كان (ستانلي) يعلم ان الملك لن يتحدث معه عن انوع النباتات والطيور في غابات الكنغو، فضرب عنها صفحاً. سوف ينيخ أماله وأحلامه عند قوم أجدر بها واقدر على تحقيقها.

وهكذا حين أعاد ليوبولد الكرّة في شهر يونيو عام ١٨٧٨، سارع (ستانلي) الى تلبية الدعوة. وصل الى بركسل في الحادي عشر من يونيو، فاستضافه الملك في قصره وأسبغ عليه ألوانا من بذخ الضيافة أدارت رأسه، كما حدث من قبل مع اولئك العلماء الأجلاء. لكنه لم يفاتحه في موضوع الكنغو. تركه أيّاما يتقلّب في ذلك الترف ولا يقول له شيئاً.

عرف (ستانلي) مقاصد الملك فيما بعد على مستوى أدنى من مستوى صاحب الجلالة. في باريس في شهر اغسطس افتتح عدد من اتباع الملك المفاوضات مع (ستانلي) في موضوع الكنغو. كانت مفاوضات دقيقة مفصلة عن الإسعار والتكاليف والوسائل والسبل.

الا ان (ستانلي) لم يكن اقلّ مراوغة من الملك. لم يلتزم لهم بشيء. عاد الى لندن وحاول من جديد ان يذكي حماسة الانجليز على استعمار الكنغو. ولا من مجيب. ولم يكن يعلم ان صورته عند الانجليز قد ساءت تماماً، فقد أرسل القنصل البريطاني في زنجبار تقريراً سرياً الى وزارة الخارجية وجه فيه اتهامات دامغة لـ (ستانلي).

كان رجلاً يدعى (دكتور جون كيرك)، وقد ثارت العداوة بينه وبين (ستانلي) لان هذا اتهمه على الملأ في لندن بأنه تقاعس عن نجدة (لفنجستون). كال له (دكتور جون كيرك) الصاع صاعين، فاتهمه في التقرير بانه اتّخذ لنفسه محظية زنجية. كان ذلك افظع ما يمكن ان يتّهم به رجل (أبيض) في ذلك الزمان. لم يكتف بذلك بل اتهمه بالقتل والنهب والاتجار في الرقيق.

كانت وزارة الخارجية بلا شك مثقلة بالعنجهية الطبقية الانجليزية، فسارعت الى تصديق (دكتور كيرك). او ليس انجليزيا جنتلمان؟ ومن هذا الـ (ستانلي)؟ أليس من ويلز؟ أليس امريكياً؟ ألم يكن لقيطاً نشأ في ملجأ ايتام؟

اذاً لا مفرّ من ليوبولد الثاني ملك البلجيك. في خريف عام ١٨٧٨ قرر (ستانلي) ان يضع نفسه تحت تصرف الملك، ويرتبط معه بعقد عمل لمدة خمس سنوات.

ماذا تطلب مني يا صاحب الجلالة؟ مشاريع بسيطة... مشاريع علمية وانسانية. ثلاث مستشفيات.. بعض محطّات للبحوث.. دراسة خطة للمواصلات النهرية تربط أعلى نهر الكنغو باسفله. هذا كل ما في الأمر... انما عليك بمراعاة السرية التامة... لا تقل شيئاً لدزرائيلي.. سوف يتم كل هذا باشراف الاتحاد الافريقي الدولي.

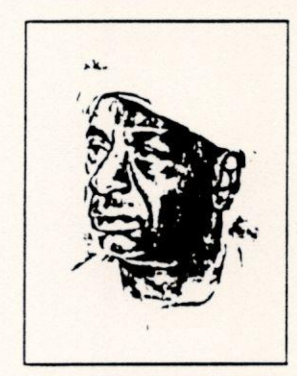
الا ان (ستانلي) لم يكن ساذجاً. كتب في مفكرته:

«هذا الملك سياسي داهية. انه ذكي جداً! ولكنني لم أجلس معه كل هذه الساعات دون ان أعرف حقيقة نواياه... انه يريد تحت غطاء (الاتحاد الافريقي) ان يجعل من حوض الكنغو مستعمرة بلجيكية» ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٦٣



بقلم الطيب صالح

ان تعجبْ فاعجبْ لرجال يقتحمون مسرح التاريخ - من اين لهم كل هذه الثقة بالنفس؟ - كان الاوطان صفحات بيضاء تخطّ فيها كيف تشاء. كانَ احداً لم يجئ قبلهم ولا احد سوف يجيء بعدهم. وقد زعموا انهم اهل تقوى وقران. أفلا يتدبرون معاني كتاب الله الكريم؟ ومن اين لهم ان يحيطوا بكلّ احتمالات المستقبل؟

بدات الأمور في الكنغو البائس مثل اللعب، وانتهت بمأساة. والتاريخ كذلك في الاغلب الاعم، الاّ من رحم ربي.

لكنني لن اتحدث اليوم عن الكنغو، ولا عن أصحابنا هؤلاء، النجباء الاذكياء الاغبياء، اصلحهم الله. فقد شاقني حديث الشعر، وكان من فوائد زيارتي الاخيرة للرياض انني لقيت شاباً يدعى عبد الله نور، من تلاميذ استاذنا حمد الجاسر، طويلاً نحيلاً أسمر متوهّج العينين، حسن الصوت حين ينشد الشعر، نجدياً كانه من عندنا من نواحي (بابنوسه). جلسنا في (قصر الرياض) مع جماعة نتناشد الاشعار الى ان طلع الفجر.

انشدنا من شعر الصِمّة بن عبد الله القُشيري، وانشدتهم من شعر ذي الرمة وابي العلاء. وما شعرٌ مثل شعر العرب يطرد بنات الكرى ويحرك بلابل الفؤاد.

والصِمّة هذا، هو صاحب الابيات الشهيرة التي أبكت عيون الزمان منذ الف عام:.

تحنُّ الى ريًا ونفسُك باعدتْ
مزارك من ريًا وشعْباكُما معا
وما حسنٌ أن تاتي الأمر طائعاً
وتجزع أنْ داعي الصَبابة أسمعا

الى ان يقول ذلك البيت الفريد، الذي تفديه دواوين من بعض شعر هذا الزمان:.

وليست عشيّاتُ الحمى برواجعٍ
أليك ولكنْ خلّ عينيك تدمعا

أوّاه يا أمَ عمرو! منْ لي بعشيّات الحمى لو تعود.

كذلك مثل هذا الشعر، يحرك أريحيات الانسان الكريم.، أوْ كما قال البحتري:.

أذا هجْن وسْواس الحُليّ تولّعتْ
بنا أريحيات الجوى والوساوس
ومنهنّ مشغولٌ به الطَرف هاربٌ
بعينيْه من لحظ المحبّ المُخالسِ

وقد ذاق (الحردلُو) مثل هذا العناء في نواحي (الرضيم):.

بتْ ألبارمان قبل (الرْضيم) تبْاقى
فيها خمس حرْوز بشورتين عقْب خنّاقه
تلْتْ وبكْتْ العاجْ النقرنه دقاقه
فوتْ (ها) على البناتْ تمرةْ لسانْ وحداقه

العاج، وفي رواية (الخوخ) النُقرته دُقاقه، هو «وسواس الحلي» عند نساء البحتري، فقد حركت الفتاة عند الحردلو يدها فاصطكَت الاساور بالعاج، وبعضها ببعض، فاهاجت الوسواس الذي بلبل فؤاد الشاعر. وهي بعد طويلة الرقبة، قاسها الشاعر كانما بالمسطرة، فيها خمس طيّات (حزوز) تحتها عِقْدان (شورتين) ثم عقد (خُنّاقه).

عثرتُ في الرياض ايضا، على ابيات من شعر الحردلو ضاعت مني ولبثت أبحث عنها زمناً. لسبب ما اسقطها حفيد الشاعر، الدكتور ابراهيم الحردلو من الديوان الذي جمعه من شعر جده. وذلك جهد عظيم يحمد له. لقيت الابيات عند شاب اسمه عوض الله يعمل في اذاعة الرياض، من سودانيي الـ «دياسبورا». لكثرة ما تجد من السودانيين في بلاد الله، تحسب انْ لم يبق عندهم أحد يتأمر عليه اخواننا هؤلاء.

قال الحردلو رحمه الله:.

البارحْ بشوف يشْلَعْ بريق النَوْ
وحس رعداً يكركر في الضمير كَوْ كَوْ
داكْ طير القطى دوّر مشارْع الهو
وفرقان البطانه اتماسكنْ بالضوْ

(بريق) تصغير (برق). و(يشْلع) يلمع، والنو، يعني النوء، يقصد الرياح التي تسوق المطر، ولعله عنى المطر بعينها. و(الهو) ترخيم لـ (الهوج) وهي ناحية الجنوب من أرض البطانة.

هذا وقد فعل البرق الاعاجيب في شعر الاقدمين، ولكنَ اثره انقطع في شعر هذا الزمان، اللهم الاّ في الشعر النبطي وشعر الدوبيت والزجل، فشعراء هذه الايام في الغالب، مشغولون بصخرة سيزيف ودموع عشتار وهموم يوليسيس وما شابه. ولن تجد شعراً عربيًا غُفْلا من لمع البروق وسجع اليمام وهبوب الصبا وريح الخزامى، وقعقعة سنابك الخيل وحنين الابل واصطخاب الدلاء في الابار، الاّ وجدته شعراً كانما تمزج اللبن الحليب بالماء.

كان الشعراء يقْعُدون أنّا لمع البرق، من شدة التباريح، ويقول الواحد منهم (أعني على برق أريك وميضه). وأنت تعلم ما فعل البرق بابل أبى العلاء، بل بأبي العلاء نفسه حين:.

أذا لاح أيماض سترتُ وجوهها
كأنّي عمرو والمطيُ سعالي

ثم حين وصف لمعان البرق في ليلة ظلماء كأنه «زنجية فصدت عرقا».

هل المسكينة «فصدت عرقا» أم ان احداً ما أدمى ظهرها بسوطه كما فعل (ستانلي) واضرابه في الكنغو البائس؟ وكان الشيخ الضرير المبصر يشير من وراء الحجب الى (المأساة الكونية) والدماء التي لم تزل تسيل من ظهور المستعبدين على أيدي المستأسدين.

كيف قال الحردلو غفر الله له؟
وحس رعداً يكركر في الضمير كوْ كوْ.

يا له من شعر! وفي رواية:.
وحس رعاده يجرح في الضمير كوْ كوْ.

وهذا عندي ابلغ، فكون الرعد يمزّق نياط الضمير، اشد ايلاما من ان (يكركر) فيه كما تطرق على باب مغلق.

هذا وقد اختلف الشراح في معنى قوله:.
وفُرقان البُطانه اتماسكنْ بالضوْ

وقد ذهب بعضهم الى ان اضواء مضارب قبائل البطانة الذين تجمعوا في موسم المطر، قد تماسكت واقترنت وربطت بين كل حي وآخر. لكثافة القُطّان. وهو معنى جميل يذكّر بقول شوقي يصف التماثيل الغرقى في النيل «ممسك بعضها من الذعر بعضا».

لكنني لا ارى ان الشاعر ذهب اليه، ففي ديارنا في شمال السودان، نقول (نتَماسك بالضَوْ) اي ندخل بيوتنا قبل ان يخيّم الظلام، يكون ذلك أيام العواصف والامطار. وعندي ان الحردلو اراد ان الناس أووا الى بيوتهم او خيامهم قبل مغيب الشمس وحلول الظلام. والمعنى هكذا أقرب منالا وأصدق بواقع الحال.

وبعد، فهذا بعض ما استفدته من رحلتي للرياض. وقديما قال الامام الشافعي رحمه الله:.

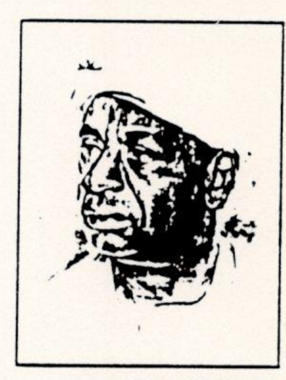
سافر ففي الاسفار عشر فوائد.

أم تراه قال (سبع فوائد)؟ اما بقية الفوائد فلها حديث آخر ان شاء الله■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٦٤



بقلم الطيب صالح

واضح «انّ تلك الابيات، صدرت عن قلب مكلوم بحق. عاش الشاعر التجربة، كما يُقال بلغة هذه الأيام، واحتمل من الألم ما احتمل. ثم حوّل التجربة الى فن. ذهب، وعفّى الزمان على ملابسات حياته، وظلّت الأبيات مثل نجم في السماء يضيء من زمانٍ الى زمان. ولعلّ الشاعر كان يفضّل لو انه سعد في حياته ولم يقل الأبيات، فأيّ عزاء له ان الناس بعده يطربون للشعر؟

حدّث صاحب الاغاني ان الصمّة بن عبد الله القشيري، أحب ابنة عم له تُسمّى العامريّة، فخطبها الى ابيها فابى ان يزوّجه أيّاها وفضّل عليه رجلاً من بني مالك بن ملاعب الاسنّة، لكثرة ماله ولا بد، فقد كان دميماً فيما رووا، فلم يطق الشاعر صبراً وانطلق الى الشام.

وفي رواية أن عمّه اشتطّ عليه في المهر، فطلب من أبيه ان يُعينه، وكان ذا مال، فابى عليه. فسأل عشيرته فاعطوه، فجاء بالابل الى عمّه فلم تعجبه وقال له لا اقبل هذه في مهر ابنتي، فاسأل اباك ان يُبدلها لك. فامتنع أبوه ان يُبدلها. فلمّا رأى الصمّة ذلك من ابيه ومن عمه سرّح الابل وهام على وجهه. ورأت ابنة عمه ما صار فقالت «تالله ما رأيت كاليوم رجلاً باعته عشيرته بابعرة».

ولحق الصمّة باحد ثغور الشام. ولمّا طال مقامه، تشوّق الى ابنة عمه ففاضت قريحته بتلك الأبيات، التي لم تزل تهيج لواعج المحبّين منذ ذلك العهد:

حننتَ الى ريّا ونفسك باعدتْ
مزارك من ريّا وشعباكما معا

وفي رواية «تحنّ الى ريّا»، وفي رواية «اتبكي على ريّا»، وكله محزن.

والقصيدة تروى على أوجه عدة، فهي من الشعر الذي يصل غوراً بعيداً، فاصبح اهل كل زمان يضيفون اليها شيئاً ويحذفون منها شيئاً حتى لكأنها ليست لشاعر بعينه.

قالوا وذكر ابن دُريد أن أبا حاتم اكّد نسبتها للقشيري وكان يستجيدها وكذلك ابراهيم بن محمد بن سليمان الازدي الذي قال:

«لو حلف حالف ان احسن أبيات قيلت في الغزل في الجاهلية والاسلام هي أبيات الصمّة القشيري، ما حنث».

هذا يا عمرك الله، من قبيل المبالغة المستحبّة التي يدفع اليها التحيّز للشاعر. ولم لا ؟ أمّا أنها حقيقة أجمل ما قيل من شعر الغزل في الجاهليّة والاسلام، فاللهم لا. اذاً اين يروح غزل امرىء القيس كمثل قوله:

ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذي خالٍ
ألحّ عليها كلّ أسحم هطّال

وابن يذهب اكثر شعر ابي الخطّاب الذي شغل ابن عبّاس عن وفده في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ضربوا إليه اكباد الأبل؟:

أمِنْ آل نُعمٍ انت غادٍ فمُبكرُ؟
غداة غدٍ أم رائحٌ فمهجّرُ؟

وماذا تقول في غزل جرير، عفا الله عن جرير:

يا أمّ عثمان ما تلقى رواحلنا
لو قست مصبحنا من حيث ممسانا
ترى بأعينها نجداً وقد قطعت
بين السُلّوطح والروحان صوّانا
يا حبّذا جبل الريّان من جبلٍ
وحبّذا ساكن الريّان إنسانا

وهي القصيدة التي قال فيها بيته الشهير:

يا أمّ عمرو جزاك الله صالحةً
ردّي عليّ فؤادي مثل ما كانا

إنما هيهات يا أمّ عمرو!

واين تذهب بشعر غيلان في صاحبته (خرقاء) الذي أطرب الرجل الكريم عبد الله أولد اربيه رحمه الله، والكريم يطرب لمثل شعر غيلان:

وقفنا فسلّمنا فردّت تحيّةً
علينا ولم ترجع جواب المخاطب
عصتني بها نفس تريع الى الهوى
إذا ما دعاها دعوةٌ لم تُغالب

وعينَ أرشتْها باكناف (مُشرف)
من (الزرق) في سفك ديار الحبائب

ثمّ غزليات أبي عُبادة البحتري الذي انبرى البرق له ولاصحابه وهم «هجود على بطن مر» وقوله العجيب:

ظباءٌ ثناها النيبُ وحشاً وقد ترى
لربع الشباب وهي جدّ أوانس
صددن بصحراء (الأريك) وربما
وصلن بأحناء (الدخول) فـ (راكس)

دعْ ذا، وخذْ أبيات (الرمّاح بن ميّادة) وهو شاعر لا يُعدّ بين الفحول:

وحرائر قد قُلن يوم تواعدٍ
قول المجد وهن كالمزّاح
يا ليتنا في غير أمر فادحٍ
طلعت علينا الخيل بالرماح
بينا كذاك رأينني متسربلاً
بالخزّ فوق جُلالة سُرداح
فيهن صفراء المعاصم طفلةٌ
بيضاء مثل غريضة التفّاح

فسرّوا (الجُلالة السُرداح) بأنها الناقة العبلة العظيمة، والشاعر عليها (متسربلاً بالخز) في تلك القفار، فأيّ نعمة هو فيها! والفتاة التي يطلبها (صفراء المعاصم) لأنها تلبس أساور الذهب، وهي بعد غضّة كتفّاح لبنان، فما أجمل الحال وما أحسن المقال.

ذكر أستاذنا الدكتور عبد الله الطيّب، ان أستاذه الشاعر الكبير المرحوم عبد الله عمر البنّا كان يحب هذه الأبيات. وانا ايضاً.

هذا، والرواية الثالثة لقصة الصمّة القشيري، أمرّ وأشدّ ايلاماً. قالوا إن الصمّة أخبر أباه بطلب عمّه، فساق الأب الابل الى العم، فعدّها فوجدها تنقص بعيراً، فحلف لا يقبلها الا كاملة، وأقسم الأب الا يزيده عليها. غضب الشاعر لذلك، وحقّ له أن يغضب، وقال «والله ما رأيت قطّ ألأم منكما».

ثم ركب ناقته وضرب على وجهه حتى اتى ثغراً من الثغور. قال بعضهم الشام وقال آخرون طبرستان.

هكذا ولدت هذه الابيات الجميلة، التي ان لم تكن أجمل ما قاله العرب في الغزل، فهي من اكثر الشعر رقّة واثارة للشجى:

ألا يا خليليّ اللذيْن تواصيا
بلومي الاّ أن أطيع وأسمعا
قفا إنه لا بد من رجع نظرةٍ
يمانيةٍ شتّى بها القوم أو معا
لمغتصبٍ قد عزّه القوم أمره
حياءً يكفّ الدمع أن يتطلّعا
فليست عشيّات الحمى برواجعٍ
إليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

(التتمة بغية)

نحو أفق بعيد

١٦٥



بقلم الطيب صالح

غفلتُ زماناً عن هذا الشعر الجميل، شعر ذي الرمة، حتى نبّهني اليه عبد الله أولد أربيه. كانوا في موريتانيا يعدونه من الحفاظ، واذا علمت أن اهل موريتانيا من أحفظ خلق الله لشعر العرب، أدركت كم كان يحفظ عبد الله أولد أربيه. تزاملنا في غفلة من صروف الدهر في الدوحة الميمونة الطالع. رحمه الله. كان انساناً كريم الشمائل بشكل عجيب. من بادية بتلميت من أرض شنقيط، وهي بلاد تذكر ببادية كردفان في غرب السودان، وفي كليهما أوجه شبه بأرض نجد، حيث غنى غيلان ما شاء له الغناء، شعراً يجري تحت مظهره الخشن، كأنه نهر سلسبيل. وبين غيلان والحردلو شاعر البطانة، وشائج من قربى لا تخفى.

كانت عيناه تذرفان حين ينشد شعر ذي الرمة. وكنت أعجب لذلك أول الامر. ثم لما أطلت صحبة عبد الله وصحبة الشاعر، وصبرت على شوارد عباراته، وغريب استعاراته، تكشفت لي أعاجيب مذاهب هذا الشاعر العجيب. أليس جميلاً هذا ؟

ونشوانَ من طول النُّعاس كأنّه
بحبلين من مشطونة يترجحُ
أطرتُ الكرى عنه وقد مال رأسه
كما مال رشافُ الفضال المرنّحُ
إذا مات فوق الرحْل أحييتُ روحه
بذكراكِ والعيسُ المراسيلُ جُنّحُ

اذا ارفضّ أطرافُ السِّباط وهلّلت
جرومُ المطايا عدّبتهن صيدحُ

جعل صاحبه دلوا معلقا بحبل النعاس في بئر الكرى، وهي بئر لا بد أن الشريف الرضي رحمه الله متح منها حين قال:

ثم انثنينا اذا ما هزّنا طرب
على الرّحال تعلّلنا بذكراك

وذكروا أن «رشاف الفضال المرنح» هو الذي يشرب ثمالة الكاس، فانظر أي سكر حلال هو فيه، لأن المشروب نعاس وليس خمراً. و«هللت جروم المطايا» يعني أن أجساد الإبل صارت مثل الأهلة من شدة الهزال بفعل ما جشموها من أسفار. و«صيدح» هي ناقته التي تكبدت منه مثل ما تكبد «العاتي» جمل الحردلو في طلاب المحبوبة. قال الحردلو:

يا (عتيّتْ) كبرْنا وحالنا قطْ ما زل
وفي كلّ يوم تراني ينضك منزلْ
كلْ ما طريتْ الزول أل دمعه جا منهل
حلْق الريف بفحْ ناري وغضك قلْ

صغّر اسم جمله (العاتي) الى (عتيّت) فكأنه عاد وإياه الى عهد الصبى، وفجاة قال لك (كبرنا)، فادخلك في حيرة. وحال الغواية مع الشيب، كما كان في عهد شباب الجمل وشباب الجمال. وهو كل يوم يقول له «خذْ هذا المكان وخذ هذا المكان!». فمن الذي يأخذ ومن الذي يعطي؟ كان أبو الطيب أدرى حين خيرته خيله عند تقاطع الدروب:

وباتتْ تخيّرنا بالنّقاب
وادي المياه ووادي القُرى
فقلنا لها «أين أرض العراق؟»
فقالت ونحن بتربان «ها!»
يعني «هاك!» أو «ها هي ذي!»

وفي لهجتنا «بطرى» تعني «يتذكر» و«حلق الريف» حلْقان من الفضة أو الذهب تجيء من مصر «الريف».

هذا ولا بدّ أن الذكرى أبكت الشاعر أيضا، رغم إنه لم يصرح وجعل ان المحبوبة «الزول» هي التي بكت. وعليك أنت ان تتخيل أيهما بكى وأيهما بكى أكثر. لم يكونوا يتحرجون من البكاء في مثل هذا الموقف، ودموعهم لم تزل تذرف منذ ان قال طرفة

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم
يقولون لا تهلك أسى وتجلّدِ

فما ضرُّ الحردلو لو بكى وما ضرّ غيلان؟..

كأنّ ديار الحيّ بـ (الزُّرْق) خلْقةً
من الأرض أم مكتوبةٌ بمداد
اذا قلتُ تعفو لاح منها مُبيّحٌ
على الهوى من طارف وتلاد
وما أنا في دارٍ لميّ عرفتُها
بجلْدٍ ولا عيني بها بجماد

لك الله! هذا وقال أناس أن (خرقاء) و(مي) إمراة واحدة، وأن (خرقاء) لقب لـ (مي). وقال آخرون أنهما مختلفتان. وأنا أميل الى رأي ابن سلام أنهما امراة واحدة، إذ ان هؤلاء الشعراء في نهاية الامر، كل واحد له معشوقة واحدة، وان اختلفت الصور والأسماء.

رووا ان ذا الرمة واسمه غيلان بن عقبة بن مسعود من بنى عدي بن عبد مناة، مر بخباء مي وهي بجوار أمها، وكان معه أخوه وأبن عمه، ولما راها صعق لجمالها وخرق أداته، وقال لها «أخرزي لي هذه». قالت «والله لا أحسن ذلك وإني لخرقاء». فقال لامها «مريها ان تسقيني ماء». فقالت لها «قومي يا خرقاء فاسقه ماء». فجاءت له بالماء، وكان على كتفه رمّة، اي قطعة من حبل، فقالت له «اشرب يا ذا الرمّة».

هكذا صار. تقول ان القصة من تلفيق الرواة؟ ربما. ولكنني أرى ان الامر قد صار على هذا النحو. أسماها (خرقاء) وأسمته (ذا الرمة). أي أنها جعلت منه رجلا أخر، وجعل منها امراة أخرى. هذا ما يصنعه الفن ويصنعه الجمال ويصنعه الحب.

بعد قرون وقف شاعر السودان الفحل، محمد سعيد العباسي الموقف نفسه ببادية كردفان، واستسقى وجيء له بالماء، فقال:

جاءت بماء. قلتُ هلْ
حاجةٌ مثلي منكِ ماء؟

أمْ ماذا تريد يا عمرك الله؟ هذا وقد ذكروا ان ذا الرمة قال في ذلك الموقف أول شعر له:

قد سخرتْ أختُ بني لبيد
مني ومن سلْم ومن مسعود
رأت غلامي سفرٍ بعيد
يدرعان الليل ذا السدود
مثل ادّراع اليلْمق الجديد

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

مرّت سنوات قبل ان يحوّل الشاعر ملابسات لقائه الاول مع محبوبته الى شعر فيه «فن» وصنعة، فكانت قصيدته الشهيرة(هل تعرف المنزل بالوحيد)، التي يقول فيها:-

يا ميّ ذاتَ المبْسم البَرود
بعد الرقاد والحشا المخضود
والمقْلتين وبياض الجيد
والكشح من أدْمانة عنود
عن الظباء. متبع فرود
أملكتني باللّوم والتفنيد

تزوّج من أخرى، واصبح ابا كما توضّح الارجوزة، فزادت القصّة تعقيدا. وحين تتذكر ان الشاعر يسترجع شيئا عزيزا ضيعه، تتحوّل لديك أوصاف الفتاة التي تبدو عاديّة، الى أمر غير عادي. وقد غيّر تلك الأبيات التي عنّت له عفو الخاطر أول ما صعقه حب (ميّ) فقال: .

قد عجبتْ أخت بني لبيد
وهزئت منّي ومن مسعود.

وكانت (اخت بني لبيد) . قد (سخرت) منه ومن سلْم ومن مسعود. لكنّ سخرية الفتاة بقيت تمشي في اكناف القصيدة وتعطيها جاذبيّة لا تخفى.

قالوا ان الكشح في الجسم ما بين الخاصرة الى الضلع، ولا تنْس انه يصف امراة، والأدمانة في الظباء البيضاء أو هي البيضاء المشربة، والعنود التي ترعى وحدها بعيدة عن القطيع. والمتبعة الظبية التي يتبعها صغارها.

وكما ترى فان الشاعر ينظر الى المراة فيرى ظبية وينظر الى الظبية فيرى محبوبته. يراها حقيقة وليس مجازا. كذلك كان الحردلو، كمثل قوله :.

تْ البارمانْ حتلْ على (بانْنونة)
دقنوا الشاي صرفْ موزْ عتْلْ(ها) المشْنونة

في بيت واحد تتحوّل الظبية أمام عينيك الى امراة. ليست المراة (كأنّها ظبية) بل هي الظبية بعينها. واذا تخيّلت، كما يحدث في بعض الحيل السينمائيّة، سوف تجد الغزال الذي شرد نحو (بانْقوقة) في أول البيت، قد عاد اليك امراة تغسل شعرها بالشاي الصرف في نهايته. ولا بدّ ان غسل الشعر بالشاي في ذلك الزمان كان من مظاهر الترف. وقوله (الْ يا زمان) فيه طلاوة، اذْ أدخل أداة التعريف على المنادى، كمن يتشبّث باعنّة الرّياح!

يضرب الشاعر في تلك الفلوات، فتعنّ له سوانح الظباء مثل أطياف الذكرى التي تزحم خياله:.

أقول لدهْناويّة عوْهج جرتْ
لنا بين أعلى بُرْقة بالصّرائم
أيا ظبية الوعساء بين جلاجل
وبين النّقا ا أنت أمْ أمُّ سالم؟

لا فكاك له منها، يراها حيثما اتّجه، وقد عاب عليه أخوه مسعود. وكان شاعرا أيضا . تشبيهه محبوبته بالظبية، فقال: .

فلو تُحسن التشبيه والنّعتَ لم تقل
لشاة النّقا ا أنت أمْ أمُّ سالم
جعلتَ لها قرنين فوق قصاصها
وظِلْفين مسودّين تحت القوائم

مسعود كان يمزح ولا شك، والاّ فهو مثل النّقاد الذين ابتُلي بهم أبو الطيب المتنبي. واضح ان الشاعر لم يقصد بالتشبيه (كل) الظّبية، حتّى أظلافها وقرونها، ولكنه أراد روحها، وتلك (الأنثوية) التي تحيط بالظّبية، وتجعلها اقرب مخلوقات الله الى (الأنثى الادمية). بل أن كثبان الرمل ونعومتها وانحناءاتها واستداراتها، كانت تذكّر الشعراء الاوائل بجسد المراة. وقد قال ذو الرمّة :.

أناةٌ تلوث المِرط منها بدعْصة
رُكام وتجتابُ الوشاح فيقلَقُ

يعني انّها تلفّ إزارها على مثل كثيب الرمل (دعْصة) وتضع وشاحها فلا يستقرّ عليها لضمور بطنها ثم تجرّأ اكثر فقال: .

ورمل كأوْراك العذاري قطعتُهُ
اذا جلّلتْه المُظلماتُ الحنادسُ

اذاً كيف المفر ؟ فهي إمّا ظباءٌ تسنح على كثبان الرّمل، او هي الكثبان بعينها؟

وأنا أجد حلاوة لقوله (أ أنت أمْ أمُّ سالم؟) فكأنه يسأل الظبية «هل أنت ظبية حقًا أم أنت أمّ سالم؟» لشدّة ما اختلط عليه الامر، وكأنه يقول لها «بربّك أليست أم سالم أجمل منك؟» وفي ذلك أي خلط!

كان جرير والفرزدق، أبَوا الشعر في ذلك الزمان، يحسدان ذا الرمّة لفصاحته وعذوبة شعره وأنه ذاع حتّى كاد يطمس شعرهما أحيانا. وقالا إنه لم يكن يحسن المديح والهجاء. وقال آخرون مثل ذلك. حتّى الشيخ الجليل عمرو بن العلاء عاب عليه ذلك فقال:.

«انما شعر ذي الرمّة بعْر ظباء، لها شمّ في أول شمّة ثم تعود الى أرواح البعر».

ولعمري ما أنصف الشيخ، وكأنّه من بعض (دكاترة) هذا الزمان.

حدثوا ان الفرزدق وقف على غيْلان وهو ينشد قصيدته التي مطلعها:.

أمنْزلتيْ (ميّ) سلامٌ عليكما
على النّأي والنائي يودُّ وينصحُ

فقال ذو الرمّة «كيف تسمع يا أبا فراس؟»

قال الفرزدق «أسمع حسناً»

قال ذو الرمّة «اذا ما لي لا أعَدُّ في الفحول من الشعراء؟»

فقال الفرزدق «يمنعك من ذلك اكثارك من ذكر الأبعار وبكاؤك على الديار»

سبحان الله ! حتّى في تلك الايّام كانت عندهم هذه «سنوبزم»، أم كيف تقولون يا أمْ عمرو؟

سرق الفرزدق في وقفته تلك، عيانا بيانا قول ذي الرمّة:

اذا ارفضّ أطراف السّياط وهلّلت
جروم المطايا عذّبتهنّ صيدح

سطا على البيت ، وقلبه الى هجاء للشاعر، فقال: .

ودويّة لو(ذو الرُمَيْمة) أمّها
لقصّر عنها (ذو الرّمام) وصيدح
قطعت الى معروفها منكراتها
اذا اشتدّ الْ الأمعز المتوضّحُ

جعل (ذا الرمّة)، (ذا الرميّة) و(ذا الرّمام) ولعلّه قال (ذو الرميمة) تصغير (رمّة).

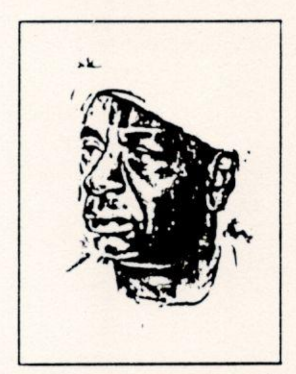
هذا، وقول الفرزدق (قطعت الى معروفها منُكراتها) قول عميق بليغ لشاعر طويل الباع في حلبة الشعر. ولكنّ ابا فراس لم ينصف، اذ انك قلّ ان تجد في ديوانه كلّه شيئا يقارب قول غيْلان عذوبة ودقّة وصف:.

ذكرتك اذْ مرّتْ بنا أمُّ شادن
أمام المطايا تشْرئبُّ وتسنحُ
من المؤْلفات الرّمل أدماء حرّةٌ
شعاع الضحى في متْنها يتوضّحُ
تُغادر بالوعساء . وعساء (مشرف)
طلاً طرفُ عينيها حواليْه يلمحُ
راتْنا كأنّا قاصدون لعهدها
به، فهي تدنو تارة وتزحزحُ
هي الشبه أعطافاً وجيداً ومقلةً
وميّةُ أبهى بعد منها وأملحُ

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٦٧



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرُمّة، تحيّة لذكرى الصّديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله.)

سرّني اذ علمت ان بن المعتز، كان يُعجب بذي الرمة ويقدمه، وكان يجم براعة في التصوير عند الشاعر كقول ذي الرمه:.

فلمّا رأين الليل والشمس حيّة
حياة الذي يقضي حشاشة نازع

فنان بارع، لم يتحفظ عن ابداء اعجابه ببراعة فنان اخر، مثل هذه «التحيات» عند الشعراء الكبار، بعضهم لبعض، تلفت النظر، تجدها عند أبي نواس وأبي العلاء، والحردلو. والصورة بديعة حقا، اذ ان الحمر الوحشية رأت انها بالليل، ولما يحل الليل، فلم تكن الشمس قد غربت بعد. كانت بين الحياة والموت. وهو بيت يكاد يعدل قول أبي العلاء:.

لعلّ كراها قد أراها جذابها
ذوائب طلحٍ بالعقيق وضال
ومرتعها في ظلّ أحوى كأنها
اذا أظهرت فيه ذوات حجال

يعني ان الابل لما نعست في سيرها، تخيلت الحبال التي تقاد بها، كأنها أغصان طلح غضة تاكلها، وأنها ترعى بين شجر وارف في مرابعها. وقوله (اذا أظهرت فيه ذوات حجال) يعني ان الابل وقفت تستعرض جمالها وزينتها كما تفعل النساء. وقد وقع الحردلو على المعنى نفسه، فقال يصف الظباء:.

تعرف لي مشاهيد الرُقاد والعزّه
ملاخ المصب بيهن تبين تتورى

قصد أنها تقف على شعاب الجبال ومساقط المياه، مختالة بجمالها. ذلك قوله (تبين تتورى). ولا يخفى ان كلمة (يوري) فصيحة، تعني (يظهر).

كان ابن المعتز شاعرا مترفا ليس في حياته وحسب، بل في شعره ايضا، وقد احتفى القدماء بقوله يصف الهلال:.

أنظر اليه كزورق من فضة
قد أثقلته حمولة من عنبر

قالوا لابن الرومي، وهو من الشعراء (المحسورين):. ما لك لا تقول مثل هذا فأجابهم «هذا أمير يصف ما يراه في القصور. أما أنا فمن أين لي بمثله».

الا ان المحدثين، قد لا يكترثون لهذا التشبيه، ويجدون فيه (سطحية) و(افتعالا). ولو تمهلوا قليلا لوجدوا ان الصورة لا تخلو من (ثراء) (وترف) كما في الوان (ماتيس). وفيها (فن صرف) كما تجد في رسوم (الحياة الساكنة Still life) هذه الايام. الفنان يستعرض أدوات فنه، لا اكثر ولا أقل. أليس هذا ما تقر له عيون بعض اصحابنا من الـ(البنغوستيين) والـ(السيميائيين) في زماننا هذا؟

ربما هذا (الفن الصرف) في شعر ذي الرمة، هو الذي أعجب ابن المعتز، فانت اذا استثنيت (طرديات) أبي نواس، لعلك لا تجد في العربية، شعرا أنصب على الوصف وتفنن فيه، وذهب فيه كل مذهب، حتى أصبح الوصف هدفا في حد ذاته. لا تجد ذلك كما في شعر ذي الرمه.

والقصيدة التي ورد فيها البيت الذي أعجب ابن المعتز، هي التي مطلعها:.

خليليّ عوجا عوجة ناقتيكما
على طلل بين (القلات) و(شارع)

وهي تبدأ بالنسيب، كعادة الشعراء، وهو عند غيلان اكثر رقة منه عند كثيرين. يقول: .

ولما تلاقينا جرت من عيوننا
دموع كففنا ماءها بالأصابع
ونلنا سقاطا من حديث كأنه
جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع

تقول، وهل ماء العيون الا الدموع؟ ولكن صبرا. حين يقول لك الشاعر «ممزوجا بماء الوقائع» الا تحس ان «ماء» الاولى هي «ماء» الثانية وكان الشاعر قد شرب العسل ممزوجا بـ«ماء» دموعه؟ والوقائع جمع وقيعه، وهي نقرة في الصخر يجتمع فيها ماء المطر. كانوا يطلبون طلاوة الحديث لا اكثر.

ينفلت الشاعر من النسيب، كما يفعلون. ويوغل في (الرحلة) كخروج من (المأزق). والمأزق هو الحب. أو كما قال عبدة بن الطبيب:.

فعدّ عنها ولا تشغلك عن عمل
ان الصبابة بعد الشيب تضليل

و(العمل) هنا هو السفر، لذلك أسموا المطايا «اليعملات». وقد قال (الاستاذ):.

وأصدى فلا أبدي الى الماء حاجة
وللشمس فوق اليعملات لعاب

يدخل ذو الرمه في الرحلة، فيعكف على وصفها بدقة مذهلة قل نظيرها في الشعر العربي، بل في كل ما نعرف من شعر الانسانية، تطاوعه لغة شاسعة وقريحة دفاقة:.

فدع ذا، ولكن ربّ وجناء عرمس
دواء لعول النازح المتواضع

ناقته (الوجناء العرمس) هي وسيلته الى الهروب، ومحاولة الخلاص من الذكرى التي تشغل باله، ولا خلاص ولا مهرب في الغالب. كذلك فعل محمد سعيد العباسي اذ قال:.

لم يبق غير السُري مما نُسرّ له
نفسي وغير بنات العيد من عيد

ثم أذكر بعد لأي وعاوده داؤه القديم:.

استغفر الله لي شوق يجدده
ذكر الصبا والمغاني أي تجديد

وهذا غيلان، شوق وراءه وشوق امامه. يخبط في الفلوات على ناقته التي تشبه الحمر الوحشية في سرعة عدوها:.

كأني ورحلي فوق أحقب لاحه
من الصيف شل المخلفات النوازع

ذلك حمار الوحش الذي أضمر جسمه كثرة ملاحقته للاناث من الحمير الوحشية.

وحين ترد الحمر الوحشية الماء، يتأملها الشاعر بعيني «رسام» عبقري، لا تفلت منهما صغيرة ولا كبيرة:.

صياما تذب البق عن نخراتها
بنهز كإيماء الرؤوس الموانع
يذبين عن أقرابهن بأرجل
وأذناب زعر الهلب زرق المقامع

الحمر واقفة (صياما) تذب الحشرات عن انوفها، بتحريك رؤوسها كمن يومىء بـ(لا). والنخرات هي الانوف، واحدتها نخرة. وعندنا في السودان، الانف هو (النخرة) وليس (الخشم) الذي يعني (الفم) بلهجتنا. وهن يطردن الذباب الأزرق - أو الأسود - بأذنابهن القليلة الشعر (زعر الهلب) فالأزعر هو القليل الشعر. وكم من أزعر كثيف الشعر في هذا الزمان!

ثم لما شربت الحمر الماء، وصف الشاعر شربها وصفا لا أعرف ان احدا سبقه اليه:.

يداوين من أجوافهن حرارة
بجرع كأثباج القطا المتتابع

وهي صورة في غاية العجب، اذ جعل سرعة شرب الحمر الوحشية وتتابعه كأنه أفواج متتابعة من طير القطا. واذا تخيلت الريح تحرك صفحة الماء، وتجعل منه (أثباجا) متدافعة نحو حمر الوحش، سوف ترى أمواجا في السماء وأمواجا في الارض.

لم يكتف الشاعر بأنه أعطاك (سرعة الشرب و(صوته) و(لونه) ولكن كأنه نفذ الى (عقول) الحمر الوحشية، وجعلك ترى، كيف ربطت هذه الحمر، بين أثباج (الماء) وأثباج (الطير) وكيف أحست بالشرب نفسه، بطريقة (بحته - Abstract).

ثم أخذ كل هذه الالوان، وطلى بها سرعة عدو الابل: .

أولئك أشباه القلاص التي طوت
بنا البعد من نعفي (نبيّا) فـ(المصانع)
لأحقابها بالليل وقع كأنه
على البيد ترشاف الظماء السوابع

الله اكبر! شرب الحمر الوحشية يشبه تتابع أفواج القطا، وسير الابل يشبه شرب الخلصاء اللاتي لم يشربن لسبع، فانظر كم صورة ولد الشاعر، وهي صور تتكاثر وتزداد عجبا كلما تمعنت.

ولا تنتهي القصيدة قبل ان يفجأك الشاعر بصورة ترج خيالك رجا. يقول لك ان الابل:.

اذا أغتبقت نجما فغار تسحّرت
علالة نجم آخر الليل طالع

تخيل النجوم التي ابتلعتها هذه الابل. وكلما أفل نجم، تسحرت ببقايا نجم طلع لها قبيل الفجر! ولم أجد في شعر المحدثين على غرابة طرائقهم، شاعرا (أغتبق) بنجم و(تسحر) بنجم.

كان الشعراء، الواحد منهم يخبط رأسه بالحائط لجمال مثل هذا البيت.

(الحديث بقية)

نحو أفــق بعيد

١٧٢



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذى الرُمة، تحيةً لذكرى الصّديق عبدالله ولد أوربيه رحمه الله)

بلغ بهنّ القصد، ولم يكد ينصدع عمود الفجر، وسمعن نقيق الضفادع وبلبطة الحيتان في البحيرة. ثم رأين في الضوء الشاحب ماء (أثال)، الحلم الذي احتملن في سبيله وعناء الطريق، يحدوهن قائد همام شجاع رابط الجاش، كما وصف ابن المعتز:.

شاحجٌ يرفع النّهيق كما غرّد
حادٍ بأينقٍ نجدي

بطل ملحميّ في الحقيقة، يصفه كل واحد من هؤلاء الشعراء الثلاثة الفحول، كلٌ على طريقته، وكأنه يصف جانبا في شخصية واحدة متعددة الجوانب.

اهاج خيالُ ذي الرمة رياح الصّيف، فاذهبت الماء وجففت العشب، وهضمت الحمر اخر ما تبقّى من الطعام المخزون في بطونها. تجمّعن حوله وأخذن ينظرن اليه بتلك الطريقة التي تثير بها الأنثى هموم البعل. «لم يبق ماء ولا طعام يا أبا العيال، فماذا انت فاعل؟».

الأ ان صاحبهن ليس بالمتواني ولا التُكلة . فهم لفوره ما يجب عمله، واستقر عزمه أن يسري بهنّ بليل، ويبلغهن الماء بالغداة.

والهمُّ (عينَ أثال) ما ينازعه
من نفسه لسواها مورداً أرب

كذلك هو عند ابن المعتز، الى جانب ان فيه حميّة وغيرة على حريمه:.

شغلته لواقحٌ سلاته
غيرةٌ فهو خلفهنّ كمي
قابضٌ جمعها إليه كما
جمّع أبنامه إليه الوصي
فدعاها لتشرب الما.
عطشان فكرت لو فعبن لعي

هذا، والطريق عند الحردلو أطول، والهدف أبعد، ولا بد من الاقامة والرحيل. وعلى (البعل) أعباء أثقل، فنساؤه يطلبن مكانا أمنا يضعن فيه أحمالهن. لذلك هو شديد الحذر يخطو كلّ خطوة بحساب:.

خلاهن رُتوع في بقيل وخرجت نالْ
لا من دور الوادي السرى سيالْ
فوق (قمرزز) طلع شاف في ملبنته زوالْ
وقلعةْ (كو) حفيرها لقى له فيها نعال

ترك حلائله رُتّعا في مرعى من البقل والنال، وراح يرتاد سراة الوادي، أي اعلاه، والوادي سائلٌ بمائه. رأى من هضبة (قمزوز) أطيافاً فاحس الخطر، ثم وجد قليلاً من الماء، بمقدار ما يغطي النعل (نعال) في الحفرة أسفل قلعة (كو). عاد اليهن عند العصر، وقد استقر عزمه ان يسري بهن بليل:.

جاهن منْقلب وقتاً عصيرْ وشفافْ
وكاسب ليله بيهنْ من صديفْ ما بخافْ
ديلْ الطّبعهنْ دايم الأبدْ عيّافْ
وفي (نايط السّروج) لقين بقيلنْ جافْ

فلتقرّ اعينُهن، هؤلاء الظباء المضيفات. انهن في حمى بعل باسل لا يهاب فجاءات السرى، ولا مخاطر الطريق. سوف يوصلهن سالمات الى الهدف ان شاء الله. لندعهن يرتحن قليلاً في (نايط السروج)، ولنذهب الى ابن المعتز لنرى كيف فعل صاحبه ونساؤه:.

فتبدّى لهنّ بالنّجف المُقفر
ماءٌ صافي الجمام غدي
يتمشّى على حصى يسلب
الريح قذاه فتنه مجلي
فاذا ضاحكتبه ذرةُ شمس
خلته كُسرت عليه الحلي
وسط غاب وأيكة يتغنّى
فوق اغصان أيكها القُمري

هذا الفردوس العجيب، فردوس ملعون! وصلته الحمر، يسوقها الفحل الكريم، وقد أذاب أجسادها الجوع والظما. لكنها لن تنعم بالورود. ثمة يكمن شيطان على هيئة انسان، يذكره لك الشاعر، وكأنه لا يبالي:.

عندها ملْحمٌ بسهم خضيب
كلّ يوم له شواءٌ طري

يا له من جزّار، أقام عند ذلك النبع الصافي، ليكدر على مخلوقات الله الجميلة عيشها، ويعكر صفو أحلامها. وهذا الشاعر المجيد المرْهف كأنه لا يبالي. علينا أن نلجا الى الشاعر الكبير حقا، كبير القلب والخيال، لنعرف حقيقة هذا الشيطان الجالس عند باب الفردوس:.

وبالسمائل من (جلاّن) مقتنصٌ
رذلُ الثياب خفي الشخص منزربُ
معدُ زرقٍ هدت قضباً مصدرة
مُلس البطون حداها الريش والعقبُ
كانت اذا ودقت أمثالهن له
فبعضهن عن الألاف منشعبُ

جالبُ أوصاب، ومفرّق أحباب، هذا (البلاء) الآدمي. رثّ الثياب، بشعُ قميء الهيئة، كأنه شبح، منزرب في جلبابه، أعد سهاماً ملس البطون مثل الافاعي. (الرجل) الكريم، بعلهن قد بلغ بهنّ القصد، أو ظن أنه، وقد ظهر لهنّ ماء النبع كأنه حلم قريب المنال. وهن فاتنات سرابيلهن ناعمة الوبر تضرب الى السواد، وفي أحقابهن بياض. دخلن الماء، فاحسسن شيئا وتوجسن خيفة. أخذت اكبادهن ترتجف في أحشائهن من الهلع.

تجاذبتهن الرغبة في النجاة، وشهوة العبّ من ذلك الشراب السحري الذي قطعن اليه كل تلك الأبعاد. ثم طغى خرير الماء على الخوف:.

فاقبل الحُقْبُ والاكباد ناشزة
فوق الشراسيف من أحشائها تجبُ
حتّى اذا زلجت عن كلّ حنجرة
الى الغليل، ولم يقصعنه، نُغبُ

تخيل! بعد كل ذلك العناء، لم تكد تبلّ ريقها من الماء. هنا يخبرنا ابن المعتز دون اكتراث:.

فتمطّى له باهزع ماض
موقذ النّصل متنه مبري

هكذا تنتهي قصته. لم يقل لنا هل الرامي أصاب أم أخطا. ولكنّ قوله (ماض) يرجح أنه قد أصاب، فلا بارك الله له.

أما ذو الرمّة، الشاعر الفنّان حقا، الانسان حقّا، فانه لم يترك مجالاً للشك. عاطفته مع الوحش:.

رمى فاخطأ والاقدار غالبةٌ
فانصعْن، والويلُ هجّيراهُ والحربُ
يقعْن بالسّفح مما قد رأين به
وقعا يكاد حصى المعزاء يلتهبُ

تتنفّسُ الصُعداء، وتقول «الحمد لله». تترك الانسان المعتدي، يولول ويندب، ويعزّيك أنك تعلم انّ ذلك البعل الكريم، سوف يجد لنسائه مورداً أخر، لعلّه اقلّ عذوبة من (عين أثال)، ولعلّه لا يعود ابداً الى ذلك النبع المحبوب الملعون ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٧٣



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذى الرمة، تحيّة لذكرى الصّديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

كما يطرف جفن العين، او كما تُقلب الصفحة في (البوم) صور، او كما يتبع مشهدٌ مشهداً على شاشة السنما. او قل، كما يتلاعب رسّام عبقري مجنون مثل (فان غوخ) بالالوان. يصرف هذا الشاعر العجيب المشهد الاول، وينادي مشهداً اخر.. يفعل ذلك بشجاعة وجرأة تتركانك تلهث:.

اذاك؟ ام نمشٌ بالوشي اكرُعُه
مسفّعُ الخد غاد ناشطٌ شَبَبُ؟

بين قوله (اذاك؟ وقوله أمْ)، يختفي عالم كامل، ويولد عالمٌ جديد. أساحرٌ هو؟

روي عن جرير، انه خرج حاجاً مع المهاجر بن عبد الله، فلقيا ذا الرمة، فاستنشداه، فقال:.

ومنْ حاجتي لولا التّنائي وربّما
منحتِ الهوى من ليس بالمتقاربِ
عطابيل (١) بيضٌ من ربيعة عامرٍ
عذاب الثّنايا مشرفات الحقائبِ (٢)
يقظن (٣) (الحمى) و(الرّمل) منهنّ مَرْبعٌ
يشربن البان الهجانِ النّجائبِ

فقال المهاجر لجرير «امجنونٌ هو؟».

لا بل هو شاعر موهوب حتّى الجنون. ساحرٌ، مثل (برسبرو) عند شيكسبير، يشير بعصاه، فيختفي عالم في الخيال، ثم يشير، فيظهر عالم.

انظرْ! يقتحم الشاشة مخلوقٌ يضجُّ بالحياة من مخلوقات الله متفرد وحده في الأفق. لم ذلك؟ حوله الثرى والنّبات والجماد والاشياء. وفوقه قبّة السماء. تلتئم عليه الآفاق، كأنه (أمير) من أمراء الحياة. انظر اليه يتشكّل في الخيال، ويتوضّح. موشّى مثل نسيج نادر، أبيض، على سيقانه نقط سود، خده مسفّع داكن يغلي بالنشاط ويتفجّر بحيوية الشباب، كما وصف ابن المعتز:.

قاعداً في الثّرى يغيّر ساقاً
يتمشّى فيها شبابٌ وريّ

لبث يقتات مما تتفطر عنه الارض اخر الصيف بلا ماء، الاّ من النّدى في برودة الليل. يُظلّه ظل شجر الارض. ثم حملت اليه الرياح عبق نبات الربه، فتبعها الى (ذي الفوارس):.

أمسى بـ (وهبين) مجتازاً طريق
من (ذي الفوارس) تدعو أنفه الرِّبَبُ (٤)
حتّى اذا جعلتْه بين أظهرها
من عجمة (٥) الرّمل أنباجٌ لها حببُ (٦)
ضمّ الظلام على الوحشي شملته
ورائح من نشاص الدّلو منسكبُ

كم لُجّة غاب في غمراتها هذا الثور الوحشيّ! أنباج الرّمل، وأمواج الليل، ثم هطل عليه طوفان من السماء، فهو في ظلمات بعضها في بعض. وقوله (ورائح من نشاص الدّلو منسكب) يقصد السحاب الكثيف الممطر الذي ياتي في نوء الدّلو، ولكن الشاعر كانما جعل في السماء دلاء تصب الماء على ظهر الثور.

فبات ضيْفاً الى أرطاة مرتكمٍ
من الكثيب بها دفءٌ ومحتجبُ
ميلاء من معدن الصّيران (٧) قاصية
أبعارهن على أهدافها كثبُ

لا اظنُّك لم تلتفت لقوله (فبات ضيفاً الى ارطاة مرتكم)، فهذا الشاعر السابق لزمانه، لا يرمي الكلام جزافا. الطبيعة، او (البيئة) كما نقول اليوم، حي لديه في اخاء تام. ما خلا الانسان. هذه السيّدة الكريمة، شجرة الارطي - والارطي مثل الطرفاء - النامية في كثيب متراكم، أغصانها متهدلة على الرمل حواليها، فيها وقاية ودفء. وقد استضافت من قبل قطعانا من بقر الخلاء، تركن عندها ذكريات اقامتهنّ، أبعاراً حال لونها ويبست فكأنها التوت والعنب.

مر بساحتها عابر سبيل، طارق ليل من مخلوقات الله، والرّيح تنفخ بالبرد، والمطر يهطل، فهشّت له وقالت «يا هلا ويا حبا»:.

اذا استهلّت عليه غبيةٌ أرجتْ
مرابضُ العين حتّى يأرج الخشبُ
كأنّه بيت عطّار يضمّنه
لطائم المسك يحويها وتُنتهبُ

يا لها من ضيافة: أعدّت له مخدعاً امنا دافئا يفوح بروائح الصندل والمسك.

هطل المطر غزيراً زخّة بعد زخّة، فابتل الحطب في مرابض البقر الوحشيّ، ففاحت المرابض بروائح شذيّة، خليط من رائحة الارض والحطب المبتل، والروائح التي تركتها الوحوش وراءها، روائح أجسادها وأبعادها وأحلامها وذكرياتها. كتابات غامضة في سجل الطبيعة، أذاع أسرارها هطول المطر.

اندلق المطر وأصبح الكون بأسره (بيت عطّار)، فسبحان الله الخالق المصوّر القهّار.

هل يوجد نزلاء غير صديقنا الثور الوحشي في تلك (المضائف)؟ انني أوثر ان أتخيل انه وحده في تلك الفلاة، في ضيافة شجرة الأرطي:.

تجلو البوارقُ عن مُجْرَمّزٍ لهقٍ
كأنه متقبّي يلمقٍ (٨) عزبُ
والودْق يستنّ عن أعلى طريقته
جول الجمان جرى في سلكه الثّقبُ

قول الشاعر (عزب) يقوّي ظنّي ان صاحبنا وحده، ليس معه أحد. هل تزوج وطلّق؟ هل هجرته حلائله؟ هل أحبّ ولم ينل من يحب؟

انه هنا وحْده، يحلّ وحْده، ويرحل وحْده، ويحارب وحده، كما سوف نرى. يلمع البرق كما تفتح العين وتُغمض، فنرى (رجلا) أعزب مشتملاً بعباءته، متجمعاً على ذاته في جوف الكهف وجوف الظلام. ثم يومض البرق، فنرى قطرات المطر تتدحرج على ظهره كما تتتثر حبات جمانٍ انفرط عقدها. تفاصيل دقيقة بريشة فنّان فارح، هي عناصر في (دراما) بالغة البساطة وبالغة التعقيد. وحسبك هو من بطل (ملحمي) واذا شئت، من بطل (وجودي)!

يغشى الكناسَ بروقيْه ويهدمُه
من هائلِ الرّمل منقاضٌ (٩) ومنكثبُ
اذا أراد انكراساً فيه عنّ له
دون الأرومة من أطنابها طنبُ

لا يكاد المكان يتسع له، كلّما تحرّك اصطدم قرناه العظيمان (روقاه) بجوانب الكناس، فيهدمها ويهيل عليه الرمل، واذا انضم او تمطّى في مرقده، ضرب قرناه بعروق الشجرة وعاقاه عن الحركة.

وقد توجّس ركْزاً مقفرٌ نُدُسٌ (١٠)
بنبأة الصوت، ما في سمعه كذبُ
فبات يشئزه ثأدٌ ويسهره
تذوّب الرّيح والوسواس والهضبُ

لله انت من عابرِ سبيل. ساهراً تتقلّب، تُصغي الى عواء الرّيح والوساوس، وانت في ضيافة شجرة الارطي تنتظر الصباح. يجلو عنك البرق في ظلمات كهفك، مرّة بعد مرة، كما يضيء الفنّ العظيم ظلام الحياة. اتركك في رعاية الله، فامامك منذ الغداة موقفٌ عسير ■

(١) العطابيل النساء الحسان الفارعات الطول
(٢) الحقائب، الاكفال
(٣) يقظْن، اي يقمن أيام الحر
(٤) الربب جمع ربة، نبات طيب له شذى
(٥) عجمة الرمل معظمه
(٦) حبب الرمل طرائقه
(٧) الصيران جمع صوار، وهو القطيع من بقر الوحش
(٨) اليلمق القباء أو هو ما يشتمل به كالعباء.
(٩) المنقاض من الرمل من الانتقاض، الذي ينهار، والمنكثب الثابت المستقر
(١٠) النُدُس الذكي الفطن و(يشئزه) اي يقلقه والـ (ثأد) البلل والرطوبة مع برودة

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٧٤

بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمّة، تحيّة لذكرى الصّديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

تدرك الان، لماذا ركّز الشاعر انتباهك على قرنيْ الثور. لشدة ما فعل ذلك، فكأنّ الثور كله قرون. تذكره يتلمظ في الكهف، يتقلب على جانبيه، يضرب قرناه الجدران، فينهدم عليه الرمل، ويصطدمان بالأرض وبعروق شجرة الأرطي. القرنان سلاحه، فهو مدجج بالسلاح، يحارب في ظلمات الكهف، معركة لم تحدث بعد.

ثم كما يفعل مخرج سينمائي ملهم، يسلط الشاعر الضوء، درجة درجة، على وجه (البطل):

حتّى اذا ما جلا عن وجهه فلقٌ
هاديه في أخريات الليل منتصبُ
أغباش ليل تمام كان طارقه
تطخطخ الغيم حتّى ماله جوبُ

تطخطخ الغيم، أيْ تراكمت ظلماته على ظلمات الليل، فكان كطراق النعل، طبقة على طبقة. وكل ذلك تلطخ به وجه الثور الوحشي. ثم جلا عنه ضوء الصباح، قليلاً قليلا، كما تغسل الخضاب الاسود الكثيف. وفجاة ينطلق الجنّ من الحبس:

غدا كأنّ به جنًا تذاءبُهُ
من كلّ أقطاره يخشى ويرتقبُ

عجيب! أمجنون هو؟ المثل هذا قال المهاجر لجرير حين أنشدهما «أمجنون هو؟».

الان سوف تقع الحرب. في جانب، هذا (القرن). وحده ازاء جيش. عابر سبيل، لا تعلم من أين جاء، والى أين يقصد، وما هي قصته. لا يضمر شرا ولا عدوانا. مسافر وحده في سبحات ملكوت الله. فوقه السماء، وتحت حوافره الثرى، وحوله الافاق. حر طليق، نبيل أرستقراطي في مملكة الحياة، ليس أقل.

وفي الجانب الاخر، في المعسكر الأخر، من يا ترى؟

هاجت له جُوَّعٌ زُرقٌ مُخَصّرَةٌ
شوازب لاحها التغريث والجنبُ
غُضْفٌ مُهرّتة الأشداق ضاربةٌ
مثل السراحين في أعناقها العذبُ

هذا هو الجيش، ويا له من جيش: كلاب سود ضامرة البطون من الجوع، اذانها مائلة الى الوراء كأنها الريش في السهام، وفي أعناقها سيور الجلد، رمز عبوديتها، وهي في شراستها مثل الذئاب.

أنما اين سيّدُ هذا الجيش الكئيب، الذي يحرك الحرب من وراء ستار؟

ومطعمُ الصيد هبّالٌ لبُغْيَتِهِ
ألفى أباه بذاك الكسب يكتسبُ
مقزّعٌ أطلس الأطمار ليس له
الاّ الضّراء والاّ صيدها نشبُ

دونك هو. ادميٌّ كريهُ الهيئة، عليه أطمار ثياب بالية متسخة، وشعره في رأسه نُقَرٌ مثل كُتل متفرقة من الغيم. العدوان تجارته، أخذها أباً عن جد. ذلك ديدنه وميراثه.

هنا، يفعل الشاعر شيئا عجيبا حقا. لا يزج بـ (البطل) في المعركة فورا كما يفعل الحمقى، وقد أخبرك من قبل أنه (مُقْفِرٌ ندسٌ) أي أنه ذكي فطن مراوغ عليم بتلك القفار. ولا بد أنه خاض حروباً من قبل. ولا بد أنه قدّر أنه قد ينجو بنفسه دون قتال، والفر، ولا أقول الفرار، ليس عارا، حين تكون القوى غير متكافئة:

فانصاع جانبه الوحشيُّ وانكدرتْ
يلحبْنَ لا يأتلي المطلوبُ والطلبُ

الجانب (الوحشيّ) هو الجانب الأيمن، أمّا الأيسر فهو الجانب (الانسي). وتلك في نظر الشاعر قسمة عادلة، فالانسان في رأيه (أعسر) على مذاهب الحياة.

المطلوب هو الثور الوحشيّ، فمن الطالب؟ ليس الكلاب بالتأكيد، فهي ليست الاّ أدوات يحركها مكر الانسان.

الان، يفعل الشاعر ما هو أعجب. كان بوسع الثور ان ينجو بنفسه، ولكن فجاة يكفّ عن الجري:

حتّى اذا دوّمت في الأرض راجعه
كِبْرٌ، ولو شاء نجّى نفسه الهربُ
خزاية أدركَتْهُ بعد جولته
من جانب الحبل مخلوطا بها الغضبُ

توقف، وتركها تلحق به، مدفوعا بأحاسيس الكبرياء، ومخافة العار والغضب. وقد غضب، ربما، لأنه أحس ان الحرب قد فرضت عليه فرضا دون ذنب، وهو سائر في طريقه، لا يضمر شرا لأحد. أمّا الان، وقد وطّن نفسه على القتال، دفاعا عن النفس، فسوف نرى منه العجب، وسوف نفهم لماذا ركّز الشاعر انتباهنا منذ البداية، على قرني الثور. فهما سلاحه الوحيد في مواجهة هذا الجيش الكئيب:

فكرّ يمشق طعناً في جواشنها
كأنّه الأجر في الإقبال يحتسبُ
فتارة يخض الأعناق عن عرض
وخضاً وتنتظم الأسحارُ والحُجُبُ
ينحي لها حدّ مدري يجوف به
حالاً ويصرد حالاً لهذمٌ سلبُ

ها أنت ترى (الرّجل) المسالم قد تحوّل الى مقاتل شرس، يطعن صدور الكلاب، طعناً سريعاً متتابعا، ويضرب بقرنيه ذات اليمين وذات الشمال، فيبقر البطون ويمزّق الجلود. كأنه رمزٌ للحق ازاء الباطل، يطلب الثواب بقضائه على الشر والعدوان:

حتّى اذا كُنّ محجوزاً بنافذة
وزاهقاً وكلا روقيه مختضبُ
ولّى يهذّ انهزاماً وسطها زعلاً
جذلان قد أفرخت عن روعه الكُرَبُ

ترك جثث الكلاب منثورة على أرض المعركة، ومر بينها فرحاً نشطاً غاضباً، قرناه يقطران دماً يلمع ولا بد في ضوء الصباح.

كأنّه كوكبٌ في اثر عفرية
مسوّم في سواد الليل منقضبِ

كأنه شهابٌ ثاقب انقضّ على شيطان من مردة الجن في ظلام الليل. أنظر اليه سهوما في الفضاء الرحب، مزهوا بانتصاره، فرحا بحريته، وقد التأمت حوله الآفاق. وهل كثير على هذا الشاعر العبقري ان نقول، انه اقام هذا الثور الوحشي رمزا لنوازع الخير في الوجود، في مجابهة قوى الشر والعدوان؟

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٧٥



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرُمة، تحيّة لذكرى الصّديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

ان كنّا قد رأينا في مشهد الحمار الوحشي مثلاً حيّا على غيرة (البغل) على حريمه، ورأينا في مشهد الثور صورة ناصعة للكبرياء والاعتداد بالنفس، وأباء الضّيْم، فسوف يقدّم لنا الشاعر في قصّة الظّليم، فحل النّعام، صورة عجباً من معاني الأبوّة والامومة.

لشدّة ما تستهوينا هذه المشاهد، لعلّنا ننسى ان الشاعر انّما يصف ناقته. ليس انها تشبه حمار الوحش والثور البري والظّليم، بل هي (تصير) حمار وحش، ثم (تصير) ثوراً بريّاً، ثم (تصير) ظليما. وكل واحد من هذه الوحوش، له صيرورات عدّة، فكانّ الشاعر يمتطي ظهر حيوان أسطوري، يتناثر شظايا في الخيال لا حصر لها.

يصرف المشهد، كما يفعل الساحر، ويدعو مشهداً آخر. يقول (اذاك؟) فيختفي عالم، ويقول (أمْ؟) فيظهر عالم جديد.

أذاك؟ أم خاضبٌ بـ (السّيّ) مرتعُه؟
أبو ثلاثين أمسى وهو مُنْقلبُ؟

تعرف حالاً، حقيقة مهمّة عن هذا (البطل) - انّه أبٌ وأن له عيالاً ثلاثين. وسوف تدرك فيما بعد، أنّ الأبوّة هي جوهر هذه القصّة. وتعرف أيضا أن هذا الشخص الغريب مخضر الساقين والركبتين لكثرة ما أكل من العشب (خاضب) وسوف ترى وشيكاً ان الشاعر لم يلفت انتباهك الينا اعتباطا. و(السي) او (الحسي) تعني الفلاة، وقد قال فتانا في معرض الفخر:

من قَوْمةِ الجهلْ ماني المِسْنى النَيْ .
ما يجيد مقنبهي وما برقص (الحجبي)
وكمْ حملْ جمالْ بركْتهن في (الحسي)

يقول انه منذ صغره، لم يُعرف عنه انه رخو فاتر الهمّة يبدد وقته في اللّهو، يخلع قناعه ويرقص (الحجبى)، وهي رقصة فيها ضرب بالأيدي والأرجل مع حمحمة. ولكنّه يوسق الجمال، ويسافر بها بعيداً.كأنه من أبطال ذي الرمّة!

شخْتُ الجُزارة مثِلُ البيتِ سائرُه
من المسوح خدبٌ شوقبٌ خشبُ
كأنَّ رجليْه مسما كانَ من عُشر
صقْبانِ لم يتقشّر عنهُما النُجبُ

أسود، ضخم كانّه خباءُ شَعْر، غليظٌ خشن، ساقاه كانهما أعواد لم يتقشّر عنها اللّحاء من حطب العشر.

يظلُّ مُخْتضماً يبدو فتنكرُه
حالاً ويسطع أحياناً فينْتسب

يتمارى للعين، يختفي ويبين. اذا هبط برأسه للرّعي، لا تميزه، واذا رفع رأسه (سطع) فعرفته. وقوله (ينْتسب) كانما أراد ان يقول (من أي قبيلة هو).

كأنه حبشيٌ يبتغي اثراً
أو من معاشر في آذانها الخَرَبُ

مثل حبشي اسود مطاطىء برأسه كمن يقتفي أثراً، او زنجي مثقوب الأذن.

هَجنّعَ راح في سوداءَ مُخْملَة
من القطائف أعلى ثوبه الهُدُبُ

يُهيلُ عليه سواداً فوق سواد، فهو على سواده، يشتمل عباءة من الخمل الأسود، ذات أهداب

أو مُقْحَمٌ أضعف الأبطانَ حادجُه
بالأمس فاستأخر العِدْلان والقتبُ
اضلّه راعيا كلبيّة صدرا
عن مطلب وطُلى الأعناق تضطربُ
فأصبح البكر فرداً من حلائله
يرتاد أحْليةً أعجازها شذبُ
عليه زادٌ وأهدامٌ وأخْفية
قد كاد يستلّها عن ظهره الحقَبُ

صورٌ تُعيد إلى صور، وصور تدفع إلى صور، كأنك أزاء مرايا متحركة، تعكس اضواء من زوايا عدّة. الناقة مثل الظليم، والظليم مثل جمل أسود من ابل كلبيّه خرج عن جماعة الابل وراح يرتاد نبات الحلى اليابس، الذي شذبه الرعْي. ولعل الشاعر جمع (حلائل) الى (أحليه) فيكون البكر قد ذهب لشأن آخر.

والجمل أما مُقْحَم، وهو البعير الذي يقحم سنّين في سن، عليه هودج انزلق الى مؤخرته لاسترخاء رباط البطن، واما عليه حمول ثياب خلقه كادت تسقط عن ظهره. يشبّه بذلك جناحي الظليم.

كلٌ من المنظر الاعلى له شبهٌ
هذا وهذان قدُ الجسم والنُقبُ

ها هو الشاعر قد استخدم الكلمة التي راودت خيالك منذ البداية - (النُقَب) أي (الالوان)، فانت معه في فيض من الالوان والأضواء والظلال. ولكن ماذا أراد بقوله (كل من المنظر الأعلى له شبه)؟ وما هو المنظر الأعلى؟

يقول الشارح «أي، كل واحد من هؤلاء، أعني الثور الوحشي والظليم والجمل المقحم، سواء في قدّ الجسم».

انما الشاعر لا يتحدّث هنا عن الثور الوحشي. لقد أنتهت قصة الثور الوحشي، كما انتهت قصّة الحمار الوحشي. انه يتحدث عن ظليم أسود وحبشي أسود، ومعاشر سود من الزّنج، وبعير أسود. فلم كل هذا السواد؟ ومَنْ هذا؟ ومَنْ هذان؟

لعلّه لم يرد شيئاً محددا. لعلّه اراد ان يقول «كل هذا العالم الذي أصفه لك بما فيه من حيويّة وتنوع، ونبات وحيوان وجماد، وسواد وبياض، وأرض وسماء، انّما هو انعكاس لحقيقة كبرى، لمثل أعلى».

هل تستكثر على ذي الرمّة ان يكون قصد الى هذا؟ تكون مخطئا، فهذا شاعر كبير حقا، يمكن ان يقارن ايضا، بكبار الشعراء (الميتافيزيقيين) في تراث الانسانية ■

(للحديث صلة)

نحو أفق بعيد

١٧٦



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

ترى رجلاً راجعاً الى داره أول المساء، والظلام لم يستتب له الأمر بعد. منقلباً من مكان ما، الى مكان ما. معه زوجته وعياله. وهو (هجنع)، طويل، في كتفيه انحناء، رأسه يميل الى أمام. وهو أسود. كأنك لم تر سواداً من قبل. جن جنون الشاعر وهو يصف سواده. مثل عاشق متيم، او اكل نهم. اسود مثل بعير من أبل كلبية، وهي إبل كريمة مشهورة بسوادها. والبعير أصله راعيان، اسودان ولا بد. أسود مثل حبشي يقتفي اثراً، فهو مطرق برأسه الى الأرض. أسود مثل زنجي من معاشر متقبي الآذان. هل الحبشي والزنجي هما الراعيان اللذان أصلا البعير الكلبي؟

لم يكد يقوى على مفارقة السواد، فكسا كل ذلك بعباءة سوداء من المخمل لها هدب. وتخيل ما طاب لك عن الهدب. مثل أهداب العيون؟ مثل الطحالب الطافية على وجه البحيرة؟ مثل وذيب شجر الطلح؟ مثل أبيات القصيدة تتخلق في خيال الشاعر؟

صور لا حصر لها. صور تردك الى صور، وصور تدفعك الى صور. كان بوسع الشاعر ان يعكف عليها الى الأبد. كان يقدر ان يقضي حياته كلها يصف هذا الظليم.

ولم كل ذلك السواد؟ كان ذو الرمة، وهو عربي من عدي، اسود وضاح السواد، فهل نثر نفسه شظايا فرقها على شخوص قصته؟

حتى إذا الهيق أمسى شام أفرخه
وهن لا مؤيس نأيا ولا كثب

كأنه أحس بتغير الضوء واقتراب الليل، او هو شعور الأب. انتبه فجأة، وكان قد انشغل بالرعي. تلفت حوله فاذا صغاره لا هي بعيدة عنه بعدا يدعو الى اليأس، ولا هي قريبة قربا يجلب الاطمئنان. انطلق من لحظته لا يلوي، وانطلقت معه الآفاق والأرض والسماء، وأحوال ترى وأحوال لا ترى:

يرقد (١) في ظل عراص ويطرده
حفيف نافجة عثنونها حصب

عدا (الرجل)، فعدت فيه ومعه كل تلك الشخوص التي ركبه الشاعر منها. معه وحوله وفوقه وتحته وأمامه ووراءه. جرى البعير الكلبي والراعيان. جرى الرجل الحبشي والرجل الزنجي. هاجت أحوال الطبيعة دفقة واحدة، فعصفت الريح وحملت في وجهها الرمل والحصى وورق الشجر، ودفعت (الرجل) تلزه لزاً ولمع البرق، وقام الرعد خطيباً مرتجزا في الآفاق، واسودت الدنيا بالسحاب الكثيف والظلام، وانتشرت عباءة المخمل السوداء على كل ذلك، فأهالت ظلاماً على الظلام.

هذا حال الأب، فكيف حال الأم؟

تبرى له صعلة خرجاء خاضعة
فالخرق دون بنات البيض منتهب
كأنها دلو بئر جد ماتحها
حتى إذا ما رآها خانه الكرب

دونك هي، تقتحم المشهد اقتحاماً مفاجئاً عنيفاً من حيث لا تدري. وتخيل شاعراً يوقف دلواً مملوء ماء هاوياً في بئر، يوقفه في منتصف سقوطه. يوقف النعامة في سرعة عدوها لحظة، فيحدق فيها بتلك العين الفاحصة التي لا يفلت منها شيء. هي (صعلة) اي صغيرة الرأس، وهي (خرجاء) أي أنها ذات ألوان يغلب عليها اللون الأسود. وهي (خاضعة) فسر ذلك بعضهم بأنها ذليلة منكسرة، وقال آخرون منكسة الرأس في عدوها. وقوله (تبرى) أي أنها تباري الأب في عدوه، وقد تلحق به وتفوته.

ويلمها روحة (٢) والريح معصفة
والغيث مرتجز والليل مقترب
لا يذخران من الايغال باقية
حتى تكاد تفرى (٣) عنهما الأهب

هل تسمع صوت هذه الأم المذعورة على صغارها تصرخ وتولول (يا ويلي! يا ويلي!)؟ تقول فيختلط عويلها بصراخ الريح، والرعد يرزم في الآفاق. والظلام غير بعيد قد حل او كاد.

قال الشاعر (ويلمها) وهو تعبير يأتي على عهناته فلا تلتفت إليه. إنما هنا، فإن كلمة (ويل) ترن في أذنك، وكلمة (أم)، فكأنك تسمع هذه العبارة القديمة لأول مرة. كذلك صنع (الأستاذ) في قوله:

ألا يا ليت شعر يدي أتمسي
تقلب في قناة أو حسام

وبعيد ما بين قولي (يا ليت شعري) وقول أبي الطيب، (يا ليت شعر يدي)، هذا كما وصفوا، هو ما يفعله الفن العظيم. إنه يجعلك تنظر الى الشيء الذي ألفته، فكأنك تراه لأول مرة.

بتلك الحساسية النادرة المثال، حدق الشاعر وهلة في (الأم) وأسبغ عليها من مؤثرات الشفقة والرحمة. رآها (صعلة) يبدو رأسها الصغير محزنا وهي تعدو عدوها المرتاع، (خرجاء) فكان ثوبها قد انحسر عن رأسها، وقد يسقط عن جسدها لشدة ما أخذها من الروع على صغارها. وهي (خاضعة)، وفي الكلمة ما فيها من ايحاءات الذلة والانكسار - مهما كان مدلولها في سياق البيت. ووصف الفراخ بـ (بنات البيض) وهي اناث وذكور، فجعلها كلها أناثاً، أمعاناً منه في تأكيد الجانب (الأنثوي). وهو الجانب الذي لم يزل يقع عليه العنف والعدوان.

أنت اذاً، ازاء (أم) - مطلق أم - ككل الأمهات اللائي تراهن صباح مساء على شاشات التلفزيون، يحملن في اذرعهن جثث اطفالهن الذين ماتوا او قتلوا في المجاعات والحروب. مثل نعامة ذي الرمة، يبكين ويندبن (يا ويلي! يا ويلي!). والناس عنهن في شغل، كما قال أبو العلاء:

شيمة القوم منية
لا يرقون لدمع الشيماء والخنساء

---

(١) يرقد يعدو عدواً سريعاً. عراص. سحاب كثير البروق. النافجة. أول الريح. عثنونها. أي مقدمتها. وأصل العثنون. اللحية

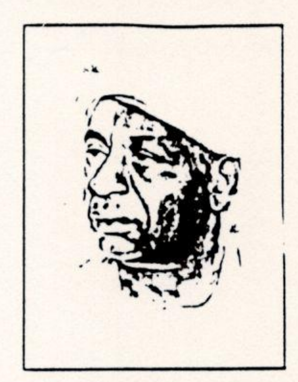
(٢) الروحة الجذبة او العودة في المساء. الغيث مرتجز يقصد الرعد، وكانوا يشبهون الرعد بالراجز او بخطيب

(٣) تفرى الأهب. أي تتمزق

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٧٧



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصّديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

رجلٌ وامراة. أمٌ واب. وحدهما في كونٍ بكر كأنه خلق لساعته يعدوان حتى تتقطع أنفاسهما وتتمزق جلودهما. ينضم اليهما بعير أسود. ينضم اليهما راعيان أسودان. ينضم اليهما حبشي أسود. ينضم اليهما زنجي أسود. يطاردهما غيم كثيف متشعب البروق. تطاردهما ريحٌ نافحة تحمل في وجهها الحصى. يطاردهما ليلٌ يضمر شراً، نبا للطالب والمطلوب. مثل الملك (لير) ورفيقه في العاصفة والثلج. كان (لير) المسكين يطلب ابنته، وهذان يطلبان أطفالهما، فما أعجب اتفاق الأفكار الجليلة عند العبقريين.

لا يأمنان ســــــــاع الّليل او بَرداً
ان اظلمــــا دون أطفـــال لهـــا لَجَبُ

قصد بـ (سباع اللّيل) مطلق الوحوش والآفات التي تفتك ليلاً، ولم يرد السباع تحديداً. والأطفال لها (لجب) أي ضجيج وصوصوة وشغب. ذلك ما تخيله الابوان وهما يجريان. وكان الام تسمع بخيالها صراخ اطفالها، فتجيبهم مولولة (يا ويلي! يا ويلي). وهكذا تجد ان الشاعر أقام لك محطتين من القلق الدرامي. أب يجد وأم تولول في مكان، وأطفال يصرخون في مكان. وبينهما أحوال الطبيعة تعلو وتهبط وتزيد وتنقص.

هذا البيت الجميل، يرى العالم الحبر الدكتور عبد الله الطيب، انه منحول على ذي الرمة. يورد ذلك في كتابه القيم (شرح أربع قصائد لذي الرمة) الذي صدر عن جامعة الخرطوم عام ١٩٥٨. وقد أسعدني أنني حصلت عليه أخيراً. يقول:

«ويبدو لي أن صانع هذا البيت نظر الى القصائد التي وصفت فيها القطاة، لأن الشعراء هناك يصفون أفرخ القطا بأن لـ[illegible] (لجبا)، ولم أجد شاعراً وصف افرخ النـ[illegible] بذلك».

اذا قالت حَذامِ فصدقوها، اذ لا يخفى أن الدكتور عبد الله من علماء العربية المعدودين في هذا الزمان. وهو الى سجله الأكاديمي الحافل، ناقد بعيد النظر، وشاعر عميق غور العاطفة مالك لأعنة لغة العرب عليم بدقائق أسرارها. ومثله قليلون في حفظه للشعر العربي، وذوقه وفهمه. وكتابه (المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها) من الكتب المصابيح. وهو بعد استاذي، وأكن له محبة وتقديرا.

وجد الدكتور عبد الله، ان البيت لا يناسب تفسيره لجملة تلك الأبيات. فهو يرى منذ البداية ان الظليم كان قد ترك صغاره (بيضا) لم يفقس بعد. ويقول في شرح البيت:

حتّى اذا الهيقُ أمسى شام أفرخه
ومن لا مـــــونس نأيا ولا كـــــثبُ

«شام أفرخه، من باب الايجاز الشديد. لان ما سبق من الكلام، يدلنا ان هذه الافر- . بحسب علم الظليم . لم تكن الا بيضـ[illegible] وكان وجه القول للشاعر ان يقول (شام بيضه). ولكن أراد ليدلنا ان البيض صار أفرخاً اثناء غيبة الظليم...».

ويقول في تفسير البيت:

جـاءت من البيض زُعراً لا لباسَ لها
الاّ الـــــدهـــــاس وأم بـــــرّةٌ وأب

«جاءت، أراد (جاءتا) أو (جاءا)، فعامل المثنى هنا معاملة الجمع. ومعنى (جاء) هنا (وجد) ... (الدهاس) بالرفع والنصب، الرمل الناعم. وأم برة الخ عطف على (لا لباس لها)، كأنه قال (لا لباس لها ولا أم برة ولا أب الا الدهاس). هذا وقوله (من البيض) أي بدل البيض، واستعمال (من) بمعنى (بدل) كثير، ومنه قوله تعالى (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) أي بدل الآخرة.. وقصد ذو الرمة هنا أن يبين انها وجدتها أفرخا وقد كانت تركتها بيضاء».

ويختم تفسيره للبيت بقوله:

«يقول، وجد هذا الظليم ونعامته مكان البيت الذي تركاه، أفرخا ضعافا قليلة الريش، ليس عليها لباس من أجنحتها يقيها المطر وليس لها من معين ولا أب ولا أم . اللهم الا هذا الرمل الناعم المنتشر».

هذا كما ترى تفسير غاية في الطرافة، جدير بالتقدير. واذ الدكتور عبد الله بحر، فلأغامر بالسباحة في بحره. واذ هو استاذي، فلا بأس ان أصنع معه ما يصنع التلميذ مع الأستاذ، فأقول، عفا الله عني، ان الاستاذ الجليل، قد أرهق نفسه أي ارهاق كي يستقيم له ان الفراخ ليست فراخا وانما هي بيض، جعل البيت الذي يصف الفراخ بانها (أطفال لها لجب) انه منحول على ذي الرمة، فلم هذا البيت وحده المنتحل. وجعل الجمع مثنى في قول الشاعر (جاءت). وفسر (جاء) بانها تعني (وجد). وبدل أن (تجيء) الفراخ من البيض. صار المعنى ان الظليم والنعامة وجدا البيض قد صار فراخا. فمتى وجداه؟ وفسر حرف الجر (من) بأن معناها (بدل)، وهكذا بعدت الشقة.

وعندي، ان المعنى الظاهر والأقرب منالا، والاوفق بالسياق (الدرامي) للقصة، هو أننا حيال (عائلة)، أب وأم وأطفال. وقد كانت العائلة اول ما تعرفنا عليها ملتئمة الشمل. الأب بكل ما حمله الشاعر من أثقال. سبحان الله، بينها (زاد وأهدام وأخفية). والأم المسكينة صغيرة الرأس، خاضعة كالمنكسرة. والعيال يتشبثون بأبويهم يسيرون في بلاد الله، كما ينزح السودانيون من الجنوب الى الشمال، يحملون زادا قليلا، وأهداما بالية ممزقة، وأخفية أشياء تافهة لا تغني.

هذا وقد أسماها الشاعر (أفرخ) وأسماها (أطفال) وعدها منذ البداية، فهل عد بيضاً أم عد فراخاً؟ ونعت الظليم بـ (أبي ثلاثين) كما تقول (أبو سعد) أو (أبو زينب). وأغلب الظن ان عود الفراخ قد أشتد الى حد أنها تستطيع ان تخرج مع أبويها، ولكن ليس الى حد أنها تستطيع ان تسرح وحدها.

انشغل الأب برهة بالرعي، وانشغلت الأم. انتهز الأطفال الفرصة، كعادة الأطفال، فراحوا يلعبون ويمرحون، فابتعدوا عن أبويهم بعداً مقلقا. انتبه الأب وانتبهت الأم، فكان ما علمت من هلع وولوال وأحوال.

في اخر القصيدة، أن كان لها اخر، صور الشاعر الفراخ، ليس كما هي الآن، بل كما كانت أول ما تكسر عنها البيض. وذلك شيء معروف عند ذي الرمة، ان الأمر يقوده الى أمور، والصورة الى صور. عاد بالذاكرة الى الوراء، وتصور الفراخ في هشاشتها وغضاضتها اول ما خرجت من البيض، وكأنه أراد ان يستدر عطفك، ويعطي مبررا مضاعفاً لهلع الأبوين. هكذا يتخيلان صغارهما، كما يتخيل كل ابوين اطفالهما صغاراً حتى حين يكبرون.

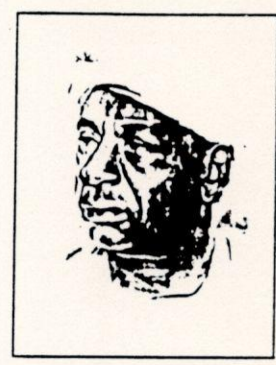
هذا، واذا أخذنا برأي الدكتور عبد الله ان الظليم والنعامة وجدا بدل البيض فراخاً، فهذا يعني ان القصة قد انتهت نهاية سعيدة. وفي ظني ان الشاعر لم يفرغ من القصيدة، بل تركها مفتوحة مثل سمفونية ناقصة. ترك لك احتمالات لا حصر لها، وترك لك صورة رمزية لا تنسى، لا تقل روعة، لو أنصفنا، عن الصورة التي صنعها شيكسبير في الملك (لير).

وبعد، فانه يجمعني بالدكتور عبد الله أيضا حب العربية والعروبة، والسودانيين والسودان، وحب ذي الرمة وأبي الطيب. فليت أنا بقدر الحب نقتسم ■

(التحديث مقبة)

نحو أفق بعيد

١٧٨



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذى الرُمة، تحيةً لذكرى الصّديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

قضى ذو الرُمة هذا الشاعر (الجسيم)، كما ينعته الدكتور عبد الله الطيب، ولمّا يبلغ الاربعين. ويقول الدكتور عبد الله في المقدمة البديعة لشرحه لقصائد اربع من شعر ذي الرّمة:-

«وانّ القلب ليتفطّر اذ يجد قلبا كبيرا كغيلان، عاجله الموت في عنفوان الأمل، وفي السنّ التي يكتمل فيها النضج. ولعلّه لو عاش لكان عفّى على اثار من تقدموه من فحولة الشعراء».

وصفوا موته، كما كان يصف شخوص عالمه المتخيّل. أذاكَ؟ أمْ؟ الحقيقة ليس لها وجهٌ واحد، ولكن عدة وجود.

قال هارون بن محمد بن عبد الملك، حدثني القاسم بن محمد الاسدي قال، حدثني جبر بن رباط قال «انشد ذو الرمّة الناس بالثعلبيّة شعرا وصف فيه الفلاة، فقال له حابس الاسدي «انك لتنعت الفلاة نعتا لا تكون منيتك الا بها».

قال وصدر ذو الرمّة على احد جفري بني تميم وهما على طريق الحاج من البصرة. فلما اشرف على البصرة قال:-

إنّي لعاليها وإنّي لخائفٌ
لما قال يوم الثعلبيّةُ حابسُ

فلما توسّط الفلاة نزل عن راحلته، فنفرت منه، ولم تكن تنفر منه، وعليها زاده، فظلّ يطلبها وهي تنفر منه حتى مات».

إن قبلنا هذه الرواية فلنقبلْ إن صوتا غامضا هتف بـ (صيدح) فتبعتْه، حتى تاخذ المقادير مجراها. كانت وصاحبها من قبل كأنهما شيء واحد. مات ظمآنا، وهل ارتوى ابدا؟ وهل زارته (مي) في موقفه ذلك، وهل اعانته على الرحيل؟

الا خيّلتْ خرقاءُ وسْنا لفتْيةٍ
هجودٍ وأبصارُ المطيِّ وسائدُ
أناخوا لتُطوى تحتَ أعجاز (١) سدفةٍ
ايادي المهارى والجفونُ سواهدُ

روى احمد بن عبد العزيز، عن الرياش عن الاصمعي عن ابي الوجيه قال«دخلت على ذي الرمة وهو يجود بنفسه. فقلت له (كيف تجدك؟) قال (اجدُني والله، اجدُ ما لا اجدُ ايّام أزعم أنّي اجد ما لم اجدْ، حيث اقول:-

كأنّي غداةَ (الزُرق) يا ميُّ مُدْنَفٌ
يجود بنفسٍ قد أحمّ حِمامُها

قال أبو الوجيه (وكانت منيّته هذه في الجدري.»

غفر الله لابي الوجيه، فما اظنّ الا ان الشاعر قد وجد ما وصف انه وجد غداة (الزُرق).والمنايا شكول.

الا خيلَت ميٌّ وقد نام صحبتي
فما نفّر التهويمَ الاّ سلامُها
طروقاً وجلْبُ (٢) الرّحل مشدودةٌ به
سفينةُ برٍ تحت خدّي زمامُها
أنيخت فألقت بلْدةً (٣)
قليلٌ بها الاصواتُ الاّ بُغامُها

أذاكَ؟ ام؟

عن هارون بن الزيّات عن موسى بن عيسى الجعفري عن ابيه قال «اخبرني رجلٌ من بني تميم ان ذا الرمّة وكان قد اعتل، قال لأخيه مسعود (يا مسعود. قد اجدني تماثلت وخفّت الاشياء عندنا واحتجنا الى زيارة بني مروان، فهل لك في ذلك؟) قال نعم. فارسله الى ابله يأتيه بلبن يتزوّده وواعده ان يلتقيا في مكان. وركب ذو الرمة ناقته فقمصت به وكانت قد اعفيت من الركوب زمنا، وانفجرت العلة التي به. وبلغ الموعد وجهد، وقال (اردنا شيئا وأراد الله شيئا). ودفن برأس (حزوي) وهي الرملة التي كان يذكرها في شعره».

ألم تسألِ اليومَ الرُسومُ الدوارسُ
بحزوى وهل تدري القفارُ البسابسُ
متى العهدُ ممن حلّها ام كم انقضى
منِ الدهر اذ جرت عليها الرّوامسُ
ديارٌ لميّ ظلّ من دون صحبتي
لنفسي بما هاجت عليها وساوسُ
فكيف بميّ لا تواتيك دارها
ولا انت طاوي الكشح (٤) عنها فيائسُ

قالوا انه مات وهو قاصدٌ هشام بن عبد الملك، وكان ذلك عام ١١٧ هـ عند ابن خلكان. وللدكتور عبد الله الطيّب قول جميل في هذا يقول:-

«وهذا خبرٌ تشتمّ منه رائحة المأساة. وكانَ شيطاني الحب والشعر قد غارا من غيلان ونقما عليه خروجه عن مذهبه (....) الا ترى أنّ وفاته قد حدثت اثناء مهاجاته للمرئي وقد كاد يعلو عليه، وقبيل رحيله الى الخليفة، وبعيد مصارمته لميّة».

لعلّ الشاعر، عزم اخيرا، تحت وطأة الحاجة، ان يمدح الخليفة كما ينبغي، وكان قد مدحه في سالف الايام، ببيت واحد في قصيدة من كذا وستين بيتا، ثم بحفنة ابيات في قصيدة من ثمانية واربعين بيتا، يقول فيها:-

جشّمْتُ اليك البُعدَ لا في خصومةٍ
ولا مُستجيرا من جريرةِ مُجرمِ
ولو شئت قصّرتَ النهارَ بطَفْلةٍ
هضيمِ الحشا براقةِ المُتبسّمِ

وأيّ جراة، ان يقول الشاعر لصاحب التاج، «كان بوسعي ان اقضي وقتي فيما هو اكثر متعة من المجيء اليك».

لا غرو ان هشاماً قال له «انك لم تمدح الا ناقتك فخذ منها الثواب».

ليس انه لم يكن يحسن المديح، بل كان معرضا عنه اعراضا متعمدا. ولو كان الخليفة يحتفي بالموهبة من حيث هي ويقدر الفنّ في حدّ ذاته، لوجد جمالاً كثيراً في تلك القصيدة، كمثل قول الشاعر في «مي»:-

أحبُّ المكانَ القفرَ منْ أجْل أنني
به أتغنّى باسمها غيرَ مُعْجمِ
ولم يبْقَ الاّ انْ مرجوعُ ذكرها
نهوضٌ بأحشاءِ الفؤادِ المتيّمِ

١ـ اعجاز سدفة. يقصد اخره الليل
٢ـ جلب. بكسر الجيم المعجمة وسكون اللام. عيدان الرّحل
٣ـ بلده الاولى. صدر البعير
٤ـ طوى كشحه عن الامر. تركه وانصرف عنه

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٦٨



بقلم الطيب صالح

روى صاحب الاغاني عن الضحّاك بن بهلول الفقيمي قال:.

«بينما أنا بكاظمة وذو الرُمّة ينشد قصيدته (الا حي أطلالاً كحاشية البُرد) اذا راكبان مُلثمان قد تدليا من نعْف كاظمة فوقفا يسمعان. فلمّا وصل الى الابيات التي يقول فيها (أحين اعاذت بي تميمُ نساءها) حسر الفرزدق عن وجهه وقال لراويته «يا عبيد، أضممها اليك». فقال ذو الرمة «نشدتك الله يا أبا فراس». قال «دع عنك ذا. أنا أحق بها منك». والابيات هي:.

أحين أعـــاذتْ بي تميمُ نســـاءها
وجردتِ تجـــريد الحســـام من الغمْد
ومدّت بضـبعي (١) الرباب ومالكٌ
وعمرو وسالت من ورائي بنو سعد
ومن آل يربوع زهاءٌ (٢) كـــأنه
دجى الليل محمود النكاية والرفْد
تمنّى ابنُ راعي الابل شتمي ودونه
معاقل صعبات طوالٌ على العبْد

عنى براعي الابل، الرّاعي النّميري الذي محقه جرير ببيته الذائع:.

فغضّ الطرف انّك من نُميْر
فلا كعبـــاً بلغت ولا كلابا

في تلك القصيـــدة، أحرق جرير بصواعقه جمهرة شعراء في آن واحد، منهم خصمه الألد الفرزدق الذي قال فيه:.

لقـــد خـــزي الفـــرزدق في مـــعدٍّ
فـأمسى جهد نصرته اغتيـابا

كان فحلاً كاسراً في الهجاء. لا يقاربه ذو الرمة ولا حتّى الفرزدق الذي وصفه بقوله «قاتله الله. فما أخشن ناحيته وأشرد قافيته. والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها والشابة على أحبابها. ولكنّهم هزوه فوجدوه عند الهراش نابحاً، وعند الجراء قارحاً».

كذلك هو. وفي تلك القصيدة أبياتٌ عذبةٌ في المطلع، كأنها قصيدة قائمة بذاتها، يقول فيها:.

وهاج البـــرقُ ليلة أذرعـــات
هوى مـــا تستطيع له طلابا
فقلتُ بحاجةٍ وطويتُ أخرى
فهاجَ عليّ بينهما اكتئابا
سألناها الشفاء فما شفتنا
ومنّتنا المواعد والخلابا

هذا، وقد هيّجت (أذرعات) أشجاناً كثيرة، من ذلك قول امرئ القيس العجيب:.

تنوّرتُها من أذرعـات وأهلُها
بيثرب أدنى دارها نظرٌ عالي
نظرتُ اليها والنجوم كأنها
مصابيح رهبان تُشبُّ لقفّال

عجيب، لانه استشرف من وراء الحُجب النّور الذي تفجّر من يثرب وشيكاً وغمر الدنيا. وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وأصحابه ما وضعت مثقلةٌ أحمالها، وما استقبلت يثرب زوّارها.

هذا، ولا يضير ذا الرُمة، انه لم يكن مثل جرير في الهجاء ولا الفرزدق في الفخر، فقد شيد بناء شامخاً لم يعترفوا له به. وأحسب أنه لو خُيّر لما قال مديحاً ولا فخراً ولا هجاء، ولانصرف الى الغزل والوصف. لكنّ الشاعر في تلك الأيام كان يضطر الى الخوض فيما يخوض فيه الشعراء.

حدثوا ان جريراً غضب على ذي الرمّة لانه ظن أنه يتحيّز للفرزدق، فكان يعدّ خصومه بالشعر لهجائه. فجاءه ذو الرمّة وأعتذر له وأرضاه. وكانت بجرير قرابة برهط ذي الرمة من ناحية أمّه. فأعانه بأبيات في هجاء هشام المرّي. قالوا، ولمّا سمع هشام الابيات جعل يلطم ويولول ويقول «قتلني جرير قتله الله. هذا والله شعره الذي لو نقطت منه نقطة في البحر لكدرته».

الشعر في ذلك الزمان، كان (بضاعة) عزيزة، تُباع وتُهدى وتُدان وتُنتهب. وكان الفرزدق من اكثرهم انتهاباً لشعر الشعراء الأقصر منه قامة. وكما فعل مع ذي الرمّة فعل مع جميل فاغتصبه بيته الشهير:.

ترى النّاس ما سرنا يسيرون خلفنا
وان نحن أومأنا الى النّاس وقّفوا

كذلك فعل مع الرمّاح بن ميّادة. حدّثوا انه وقف على الرمّاح وهو ينشد حتى أتى الى قوله:.

لو أنّ جميع الناس كانوا بتلْعة
وجئت بجدّي ظالم وابن ظالم
لظلّتْ رقاب الناس ساجدة لنا
سجوداً على أقدامنا بالجماجم

فخلع لثامه وأقبل عليه وقال «أنت يا ابن أبرد صاحب هذه الصفة؟ كذبت والله وكذب من سمع ذلك منك فلم يكذّبك. أنا أولى بهما منك».

فذلك قوله:.

لو أن جميع الناس كانوا بتلعة
وجئت بجدّي دارم وابن دارم

ولا يُنكر أن اباء الفرزدق كانوا أنبه ذكراً من اباء الرمّاح الذي أسود ابن ميادة، لأنهم كانوا يعيرونه بأمه التي قالوا أنها من صقلية او اسبانيا. والأبيات ليست بشيء، وما كان الفرزدق يعجز ان يأتي بمثلها، ولكنه طغيان هؤلاء الشعراء العمالقة. وكان أبو نواس يقول «والله لا يقول شاعر في الخمر وأنا حي».

حتّى (الأستاذ) لم يترفع عن الغارة على شعر غيره. وقد ضجّ النقاد في ذلك فألفوا الكتب عن «سرقات المتنبي». والامر اهون من ذلك. كان متّبعاً عندهم لا يرون فيه أي عيب.

ذلك، وقد رووا ان جريراً قبل ان يصطلح مع ذي الرمّة، جاءه هشام المري فأنشده في هجاء ذي الرمّة فقال له جرير «لم تصنع شيئاً». قال «فماذا افعل يا أبا حزرة، وأنا راجز وهو يقصد، والرجز لا يقوم للقصيد في الهجاء؟ فلو رفدتني». فأعانه جرير بالأبيات التي يقول فيها:.

فقلْ لعديّ تستعنْ بنسائها
عليّ فقد أعيا عديّا رجالُها
أذا الرمّ قد قلّدت قومك رمّةً
بطيئاً بأمر المطلقين انحلالُها

فلمّا بلغت الابيات ذا الرمّة قال «والله ما هذا بكلام هشام، ولكنّه كلام ابن الاتان».

كان جرير، كما وصفه الفرزدق، خشن الناحية شرود القافية. وكان في الهجاء صاعقة لا راد لها. وما أبعد الشاعر - وأظنه الرّاعي - حين قال:.

ذهب الفرزدق بالفخار وانّما
حلو القريض ومرّه لجرير

وفي مذهبي، انّ «حلو القريض» لذي الرمّة.

---

١. مدّتْ بضبْعيَ، يعني نصرتني وشدّت إزري
٢. زهاء، أي جيش ضخم

(الحديث مقبل)

نحو أفــــق بعيد

١٦٩



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرُّمة، تحيةٌ لذكرى الصّديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

اختلف الرُّواة في صفة ذي الرمّة. بعضهم قال جميل وبعضهم قال دميم. نُسب الى زرعة بن أذبول، وهو من عديّ قوم ذي الرمة أنه قال:

«كان ذو الرمّة مدوّر الوجه، حسن الشعر أجعده اقنى انزع خفيف العارضين أكحل حسن الضحك مفوّها اذا كلمك كان أبلغ الناس. يضع لسانه حيث يشاء».

ومن الروايات التي تناقض هذه الصورة ما حدث به ربيع النميري قال «اجتمع الناس مرّة وتحلقوا على ذي الرمّة، وكان دميماً شختاً أجنا. فقالت أمه: اسمعوا الى شعره ولا تنظروا الى وجهه».

يشكّك في هذه الرواية ان المنسوب اليه من نُمير قوم الراعي، الذين جرّحهم ذو الرمة بهجائه. وقد يلصقونها بجرير، فقد كان اكثر لهم أساءة. والافتعال فيها واضح.

وروى نفر عن رجل يُسمّى أبا حفصة عن عمّته عافية وغيرها من أهله انهم رأوا ذا الرمّة باليمامة عند المهاجر بن عبد الله «شيخاً أجنا سقّاطاً متساقطاً».

وهذه الرواية يسقطها أن ذا الرمّة بما يشبه الأجماع، مات وهو بعد في أوج الشباب، لم يدرك الشيخوخة. وقد ذكروا أن الصُّنَيْقل لما سمع شعر ذي الرمّة استحسنه وقال «ما له قاتله الله؛ ما كان الأ ربيقة. هلاّ عاش قليلاً!».

ولا خلاف بين القدماء، أن ذا الرمّة كان احسن شعراء الاسلام تشبيهاً، ولكنهم نزلوا به عن طبقة الفحول. وكان رأي الشعراء فيه، بوجه العموم، خيراً من رأي النّقاد. روي عن الكُميت الشاعر أنه حين سمع قول ذي الرمة:.

أعاذل قد أكثرتِ من لوم قائلٍ
وعيبٌ على ذي الود لومُ العواذل

قال «هذا والله مُلْهَم، وما علْمُ بدويِّ بدقائق الفطنة وذخائر العقل المعد لذوي الألباب؛ آحسن ثم أحسن». ثم لمّا سمع البيت:.

دعاني وما داعي الهوى من بلادها
أذا ما نأت خرقاءُ عنّي بغافل

قال «لله بلادُ هذا الغلام! ما أحسن قوله وما أجود وصفه.

لقد شفع البيت الاول بمثله في جودة الفهم والفطنة».

نبغ اذاً وهو غلام. ومات في عزّ الشباب. وكان جميل الصورة فيما يبدو لي، فشعره شعر (وسيم) فيه روح «ارستقراطي» كما عند ابن المعتز وكان يترفع عن بذاء الهجاء واستخذاء المديح. وفي لاميّته التي مدح بها بلال بن أبي بردة بن موسى الاشعري يقول:.

فلم أقْذِفْ لمؤمنة حَصانٍ
بحمدِ الله مرجِبَةٍ عُضالا
ولستُ بمادح أبداً لئيماً
بشعري أن يكون أفاد مالا

وهي قصيدة من مائة بيت اكثرها في الوصف، واقلّها في المديح، تذكّرني في رصانتها بقصيدة الحسن بن هانيء في مدح الخصيب، حيث يقول بيته الشامخ النّبيل:.

وما أنا بالمشْغوفِ ضَرْبَةَ لازبٍ
ولا كل سلطانٍ عليّ أميرُ

هذا، وقد ذكروا ان ذا الرّمّة كان حين يفرغ من الانشاد يقول «سبحان الله والحمد لله والله اكبر».

نُسب الى حمّاد الراوية أنه قال «ما أخّر القومُ ذكره الاّ لحداثة سنّه وأنهم حسدوه».

وقال الاصمعي «ما أعلم أحداً من العشاق الحضريين وغيرهم شكا حباً أحسن من شكوى ذي الرمّة مع عفّة وعقل رصين».

وقال أبو عبيدة «ذو الرمّة يخبر فيحسن الخبر، ثم يردّ على نفسه الحجّة من صاحبه فيحسن الرد، ثم يعتذر فيحسن التخلص، مع حسن أنصاف وعفاف في الحكم».

ورووا عن محمد بن سلام انه قال «كان لذي الرّمة حظ في حسن التشبيه لم يكن لأحد من الاسلاميين كان علماؤنا يقولون:.

أحسنُ الجاهلية تشبيها امرؤ القيس، وأحسن أهل الاسلام تشبيها ذو الرمّة».

ولعلّ الاصمعي قد أجمل احساس القدماء تجاه شعر ذي الرمة بقوله «كان ذو الرمّة أشعر الناس اذا شبّه ولم يكن بالمفلق».

الاّ أننا في هذا العصر أقدر على فهم مرامي قول أبي عبيدة «مع حسن انصاف وعفاف في الحكم». هذا ما قصد اليه الشاعر الانجليزي الكبير «وليم ويردزويرث» بقوله «التأمّل بسكينة». وما اوصى به الكاتب «جريهام قرين» حين قال «لا بد ان تقطع الحبل السري الذي يربطك بالتجربة» يعني تنظر اليها بحياد وتجرد كأنها حدثت لشخص آخر.

ذاك، وقد وصف ذو الرمّة صلته بفنّه أحسن وصف حين قال «من شعْري ما طاوعني فيه القول وساعدني. ومنه ما أجهدت نفسي فيه. ومنه ما جننت به جنونا. فأما ما طاوعني القول فيه فقولي (خليليّ عوجا من صدور الرواحل). وأما ما أجهدت نفسي فيه فقولي (أأنْ توسّمت من خرقاء منْزلة). وأما ما جننت به جنونا فقولي (ما بال عينك منها الماء ينسكب)».

لا عجب أن جريراً وهو من هو، غبطه على تلك القصيدة، وقال «ما أحببت أن ينسب اليّ من شعر ذي الرمة الاّ قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) فقد كان شيطانه له فيها ناصحاً».

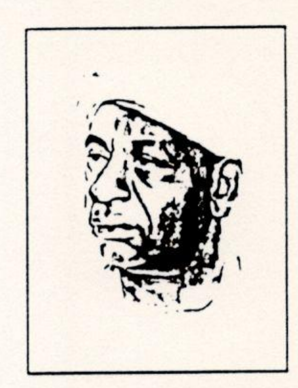
وروي عن حمّاد انه قال «ما تمّم ذو الرمّة قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) حتّى مات. كان يزيد فيها منذ قالها حتّى توفي».

كانت القصيدة لوحة فنيّة لا تنتهي. وكأنّه أراد أن يصل الى نهاية (القول) وفصل (الخطاب) بطريقة نهائيّة ومطلقة، ولكن هيهات. كان (فنّاناً) بالمعنى الدقيق لكلمة (فن) كما نفهم ذلك اليوم ■

(المجلة: ...)

نحو أفق بعيد

١٧٠



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحيةٌ لذكرى الصّديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

القصيدة مفتوحة، لا اول لها ولا اخر، مثل بحر محيط، تبدأ بداية معتادة، كما يخيل اليك. تظن انك تقف على الساحل تنظر الى عرض البحر، والامواج تذهب بعيدا عنك في اتّجاه الافق. وفجاة حين تصل الى البيت الثلاثين، اذا انت في قلب اللجة، واذا الابيات السابقة مثل امواج تجيء من ناحية الافق في اتّجاه الشاطيء. تصبح البداية لا نهاية، واللاّ نهاية مثل المبتدا. لا عجب ان الشاعر (جنّ جنونا). وقد كان بوسعه ان ينطلق من هذا الموضع:.

زار الخيال لميَّ هاجماً لعبتْ
به التنائف والمهرية النُجبُ
ممرّسا في بياض الصبح وقعته
وسائر السير الا ذاك منجذبُ
أخا تنائف أغفى عند ساهمة
بأخلق الدف من تصديرها جُلَب

الوقت بين الليل والصبح، اللّون بين السواد والبياض. المكان متحرك، ليس ثابتا، كأنه (لا مكان). الشاعر، واذا شئت (بطل القصّة) هو وراحلته شيء واحد، ولكنهما ليسا جسما صلبا ذا حدود وابعاد. محض (صوت) او (طيف) او (هاجس) مما تهجس به تلك الفلوات، ولا يقلل من هذا ان الشاعر لا يني يعطيك اوصافا بالغة الدقة توهمك ان كل ذلك واقع ملموس.

تخيل : الشاعر قد أغفى في ذلك الوضع المتأرجح، كأنه على ذروة موجة في البحر، وأسند رأسه الى جنب راحلته. جنبها أملس، عليه اثار جروح بفعل حزام الرّحل. وقد كان سيره مثل حبل متصل، لم ينقطع الا الآن، في هذه الاغفاءة القصيرة، من هذه النقطة، كما يبدو لي، تتناثر أطياف القصيدة، وتذهب كل مذهب.

الآن انظر في اتجاه المطلع. سوف تبدو لك الابيات مختلفة كليّة. من قبل تخيلتها (أعضاء) في جسم متماسك، له رأس وله ذيل، او ربما اجزاء في بناء هندسي له جدران وغرف ونوافذ وأبواب. الآن لعلك تراها كثبان رمال متحركة كما وصف الشاعر:.

من دمنة نسفتْ عنها الصَّبا سُفعاً
كما تنشر بعد الطيّة الكتُبُ
سيلاً من الدعص أغشته معارفها
نكباء تسحب أعلاه فينسحبُ

بلى. لعلك ترى القصيدة الآن، رمالا تتفرق وتتجمع او موجات في بحر متلاطم، كل بيت موجة، وكل موجة هي البحر. من قال ان القصيدة العربية تكون لها (وحدة عضوية)؟ ولماذا تكون لها وحدة (عضويّة)؟

ما بالُ عينك منها الماء ينسكبُ؟
كأنها من كُلى مفرية سربُ

قلْ ان دمعه كالماء يتبزّل من قربة مخرّقة! تبكي لماذا يا مسكين؟ حب «مي»؟ تذكر الديار التي عفت؟ ثم ماذا؟

حدثوا انهم رأوا ذا الرمّة واقفا في مربد البصرة، ينشد قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) ودموعه تسيل على لحيته.

لعلك بكيت لجمال (الفن) الذي صنعته، كما بكى (اوسكار وايلد). او لعلك بكيت من الغيظ لانك أحسست ان الذي بقي في صدرك، اكثر بكثير مما أسعفت به الكلمات. تعرف ما تريد ان تقول، ولا تطاوعك الكلمات. تريد ان تصل إلى نهاية (القول) بشكل (مطلق). لذلك جننت جنونا، وتركت القصيدة مفتوحة بلا نهاية. وبعدك أحس الحسن بن هانيء الاحساس نفسه، فالتمس الخلاص حيث لا خلاص:

أديرا علىَّ الكأس تنكشف (البلوى).
ما هي (البلوى) يا غفر الله لك؟

It is the cause my soul

(انها البلوى يا روحي)

هكذا قال شيكسبير على لسان عطيل.

هذا، وحين زاره طيف (ميّ)، أم هل زاره طيف (مي) فهي معه أنى توجه وحيثما ذهب. جاءته متجردة من ثيابها كما عند (روبنز)، فارعة الطول، عظيمة العجز، ضامرة البطن، كحلاء شديدة بياض العينين، في غمائم من العطر حملها في خياله كل تلك الاعوام، لا بيضاء ولا صفراء، لونها بين الفضة والذهب:

اذا أخو لذّة الدّنيا تبطّنها
والبيت فوقهما بالليل محتجبُ
سافت بطيّبة العرنين، مارنها
بالمسك والعنبر الهندي مختضبُ
تزداد للعين أبهاجا اذا سفرت
وتحرج العين فيها حين تنتقبُ
لمياء في شفتيها حوّة لعس
وفي اللثات وفي انيابها شنب
كحلاء في برج صفراء في نعج
كأنها فضة قد مسها ذهب

لا يغرنك دقّة الوصف، فما هي الا طيف، محض طيف يجيء ويذهب. او كما قال ابن المعتز يصف ليلة ممطرة:

جاءت بجفنٍ أكحلٍ وانصرفت
مرهاء من أسبال دمع منسكبْ
اذا تعرّى البرق فيها خلته
بطن شجاع في كثيب يضطربْ
وتارة تبصره كأنه
أبلقُ مال جله اذا وثبْ
وتارةً تخاله اذا بدا
سلاسلا مصقولة من الذّهبْ

تقول هل أخذ ابن المعتز ذهبه من خزائن ذي الرمّة؟ لا بد.

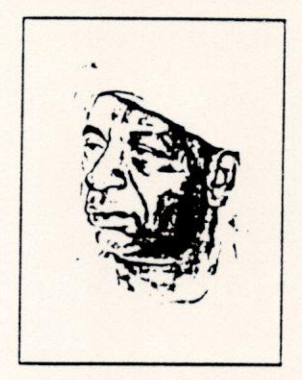
هذا وقد فسّروا ان اللمياء هي التي في شفتيها سمرة تضرب الى السواد، وكانوا يرون ذلك من آيات الجمال، وهو كذلك في ديارنا الى اليوم، يصنعنه صناعة اذا لم يكن خلقة. والشنب عذوبة في الفم مع حسن في الاسنان. والبرج اتساع في بياض العين. والنعج البياض في لون الجسم.

كلّ ذلك يتشكّل ويذوب في خيال الشاعر، وهو مسند رأسه الى جنب راحلته، بين الظلام والضياء، بين السواد والبياض.

عنده (ميّ) و(لا ميّ)!■

نحو أفق بعيد

١٧١



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذى الرُمة، تحيةً لذكرى الصَديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

أسند الشاعر راسه الى جنب راحلته، كانه واياها على ذروة موجة في بحر. بين الليل والصباح. بين الظلام والضياء. رفيقة الدرب والوسيلة، وشريكة (الانسان) في المغامرة. يعرفها ولا يعرفها، كما يعرف نفسه ولا يعرفها.

كأنها جملٌ وهمٌ وما بقيت
الاّ النحيزة والالواح والعصبُ

مثل الجمل لعظمها، أنثى كالذكر، لكنَها نخلتْ وذابت. أذابها طول السَير، فاصبحت كلا شيء. محض طيف يختفي ويتشكَل في صور عدّة. تارة حمار وحش وتارة ثوراً برياً، وتارة ظليما. (الإنسان) وهم، يمتطي وهماً، يروح ويجيء وهما بعد وهم.

تصغي اذا شدَها بالكُور راكبُها
حتّى اذا ما استوى في غَرْزها تثبُ
وثْبَ المسحّج من عانات (معْقلةٍ)
كأنّه مستبانُ الشكِّ أو جَنِبُ

عجيب. كانت في البيت الأول (ناقةً) ذكيةً تعرف صاحبها. أصغت اليه، وأمهلته حتَى استوى على (غرزها)، وهو السير، الذي توضع فيه القدم. لم تنتظره حتى يجلس على الرَحْل. ثم وثبت. وفجاة اصبحت في البيت التالي شيئاً آخر. أصبحت حماراً وحشياً معضَضاً لكثرة ما هاوش الحمر، من قطيع من مكان بعينه هو (معقلة) يظلع كأنه يشكو شيئا في جنبه. الطَيف تشكَل صورة محسوسة واضحة كلّ الوضوح.

يحدو نحائص أشباهاً مُحَمْلجةً
وُرْقَ السرابيل في ألوانها خطبُ
له عليْهنّ بـ (الخلْصاء) مرتعه
فـ (الفودجات) فجنبي (وحف) صخبُ

مع وثوب الناقة، انهض الشاعر هواجع الخيال، كما تهيج العاصفة فى البحر. فجاة ترى (رجلا) كالمجنون، دائم الحركة والصراخ والصخب، يسوق (نسوة) بين (الخلصاء) و(الفودجات) و(واحف). يسوقهن سوقا عنيفاً، لانه يعرف الهدف، وقد قر عزمه على ان يوصلهن اليه طوعا أو كرها. وهن متشابهات نحائص لم يحملن بعد، متسربلات بسرابيل ورق، ناعمة الوبر، وألوانهن تضرب الى السواد.

فراح منصلتاً يحدو حلائله
أدنى تقاذفه التقريب والخببُ
كأنّه مَعْولٌ يشكو بلابله
اذا تنكّب عن أجوازها نكبُ

هنّ زوجاته حلالاً، حسب أعراف الوجود الأزليّة، مشغول بهنّ، يحمل همهن، يعدو بهنّ، أدنى سيره الركض، لانه يعلم انه اذا لم يصل بهنّ الى الهدف، فسوف يهلكن ويهلك. وكلما تنكبت منهن واحدة عن القصد، أعادها بصراخ وعويل. انه (البعْل) المسؤول، وتذكر ان من معاني (معْول)، كثير العيال. وسوف ترى وشيكاً انه يسوقهن الى حيث يكمن الهلاك، اذْ ظنّ انه يجد النجاة.

كأنّه، كلّما أرفضت حزيقتُها
بالصلب من نهشه أكفالها، كلبُ
كأنّها ابلٌ ينجو بها نفرٌ
من آخرين أغاروا غارة، جلَبُ

هذا الجن الذي عنّ للشاعر في غفوته، وهو مسند رأسه الى جنب راحلته، هذا السائق الشرس المجنون (العصلبيّ)، يصرخ وينوح وينهش اكفالهن كأنه مصاب بداء الكلب، الى أين يقصد؟

والهمّ (عين أثال) ما ينازعه
من نفسه لسواها مورداً أربُ.

لا عجب. جربَ موارد كثيرة، لكنه لم يجد مثيلاً لعذوبة (عين اثال). ثمّة الريّ والامان. ذكرى الورود في ذلك النَبع، ذكرى لا تنسى. وهي ذكرى أفسدت على ابل أبي العلاء شربها عند ملتقى الانهار بالبصرة، فقال يعزيها:

فابك هذا أخضر الحال مُعرِضاً
وأنِقْ فاشرب وأرعَ ناعمَ بالْ
ستنسى مياهاً بالفلاة نميرةً
كنسيانها ورداً بـ (عين أثال)

وحين تعرف ما سوف يحدث، تعجب هل كان أبو العلاء يشير الى ورود حمر ذي الرمة، وهل الضمير في (كنسيانها) يعود الى تلك الحمر، فما أظنَها عادت الى تلك العين بعد الذي حدث لها ثمّة.

● وصل (البعْل) بحلائله عند الغلس، وقد انصدع عمود الفجر، وصل بين الظلام والضياء، بين السواد والبياض، كما تتخلَق أمشاج القصيدة.

فعلّستْ وعمود الصبح منصدعٌ
عنها وسائره بالليل محتجبُ
عيناً مُطحْلبة الأرجاء طامية
فيها الضفادع والحيتان تصطخبُ

لنترك صاحبنا ونساءه عند (عين أثال) فلن يهنأوا بالورود ولنعرج على محمد أحمد عوض الكريم الملقب بالحردلّو، ولننظر كيف فعل (البطل) عنده، التيس، فحل الظّلباء. ذاك أيضا مشغول بهم حلائله، يسوقهن الى هدف بعينه. حذر كثير الشكوك لا يسير على غير هدى، لذلك تركهن وذهب يرتاد ويحقق من مخاطر الطريق. عاد اليهن مع الفجر، وصرخ بهن مؤذنا بالرحيل:.

من (أمات رميله) متركنات لإشمال
سمعن هدرى لاقدام كرير واضلال
أشرحط بريقن راح بشيل ولوال
وتيسن راغلن ماكر مع الشهلال

ملن يساراً من (أمات رميله) فلم يلبثن ان سمعن هدير الرعد واظلّتهن ظلل غيم كثيف، وتلامعت البروق في السماء كانها تولول، وهن بلا (بعل). لبثن ينتظرن عودته، على قلق وخوف، حتّى جاءهن مع الفجر واغضبنه واغضبهنّ على المسير.

عند الفجر أيضا تبدأ قصة ابن المعتز، لكن ما أبعد الفجر عنده، عن فجر الحردلّو وفجر ذي الرمّة:.

لّما تفرّى الأفْق بالضّياء
مثل ابتسام الشفَة اللّمْياء
وشمطت ذوائبُ الظّلماء
وهمّ نجم الليل بالاغفاء
قُدْنا لعين الوحش والظّباء
داهيةً محذورةَ اللّقاء

لماذا يا رحمك الله؟ ما كان غيلان ولا أبو العلاء ولا الحردلّو، يرضى بهذا. وقد قال الحردلّو:

خلَقن كيف برمُولهن دمير حبُال؟

يعني ان الظباء، هذه المخلوقات الجميلة، كيف ينصبون لهنّ الشراك؟

أيّ شر مستطير يحمل في جوفه، هذا الفجر الجميل الذي افتر كافترار الشفة اللّمياء، بينما هم النجم المنعم بالاغفاء، بعد ان قضى الليل في السَمر والقصف. وشتّان بين ماء ذي الرمة الذي تطفو عليه الطّحالب وتصطخب فيه الحيتان والضفادع، وماء ابن المعتز:.

وترى الرياح اذا مسحن غديره
صقّلنه ونفين كل قذاة
ما أن يزال عليه ظبيٌ كارعٌ
كتطلّع الحسناء في المرآة.

سوف تتحطّم المرآة وتتناثر الدماء ويعكّر (الانسان) السادر في غيّه سكينة الأشياء. وهو شعر جميل، لا شك، ولكنّ الفارق بين هذا وذاك، كالفارق بين الموهبة والعبقرية ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٧٩



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

كانت نهايته، ان صحت أقوال الرواة. ولم لا؟ مثل نهايات قصائده، نهاية مفتوحة، غيبوه في رمال الدهناء، عند رأس (حزوى)، كأنه معنى شرود مغيب في تلافيف القصيدة، عاش كالحلم، وكل شيء مسه أسبغ عليه رواء الحلم.

عن محمد بن الحجاج الأسدي التميمي قال:

«حججت فلما صرت بمران منصرفا، إذا أنا بغلام أشعث الذؤابة قد أورد غنيمات له، فجئته فاستنشدته، فقال لي (اليك عني فاني مشغول عنك.) ولما ألححت عليه قال (ارشدك الى بعض ما تحب، انظر الى ذلك البيت الذي يلقاك فان فيه حاجتك. هذا بيت «خرقاء» صاحبة ذي الرمة) فمضيت نحوه فطرحت السلام من بعيد، فقالت (أدن). فدنوت، فقالت (إنك لحضري فمن أنت؟) قلت، من بني تميم، وأنا أحسب انها لا معرفة لها بالناس. قالت (من أي تميم؟) فاعلمتها، فلم تزل تنزلني حتى انتسبت الى أبي.. قالت (حياك الله يا بني وقربك. من أين أقبلت؟) قلت من الحج، قالت (فمالك لم تمر بي) قلت، وكيف ذلك؟ قالت «أما سمعت قول عمك غيلان:

تمام الحج ان تقف المطايا
على خرقاء واضعة اللثام»

قال «وكانت هي قاعدة بفناء البيت، كأنها قائمة من طولها، بيضاء، شهلاء فخمة الوجه.»

يا له من بيت! كأنه أسكنها كوكبا سيارا، أعطاها أبعادا مترامية في الخيال، فودت لو يراها الناس، لا كما هي في الحقيقة، ولكن كما مثلها لهم في مرآة الفن.

وعينان مبهاج كأن إزارها
على واضح الأعطاف من رمل عاجف
تبسم عن أحوى اللثات كأنه
ذرا أقحوان من أقاحي السوائف
دعتني بأسباب الهوى ودعوتها
به من مكان الألف غير المساعف

عن ابن دريد، عن أبي حاتم عن الاصمعي عن محمد بن بكر المخزومي قال:

«قال رؤبه (كلما قلت شعرا سرقه ذو الرمة) فقيل له (وماذاك؟) قال (قلت:
- حي الشهيق ميت الانفاس، فقال هو:
- تطرحني بالمهمة الأغفال١)

كل حصين لصق السربال
حي الشهيق ميت الاوصال

فقيل له (فقوله أجود من قولك، وان كان اخذه منك)
قال (ذلك أغم لي).

ما هاج عينيك من الاطلال؟
المزمنات بعدك البوالي
كالوحي في سواعد الحوالي٢)
بين النقا والأجرع المحلال

حدث ابن عبد العزيز قال «قيل لذي الرمة، إنما أنت راوية الراعي. فقال (أما والله لئن قيل ذلك ما مثلي ومثله الا شاب صحب شيخا فسلك به طرقا، ثم فارقه فسلك الشاب بعده شعابا واودية لم يسلكها الشيخ قط».

وشعر قد أرقت له غريب
أجنبه المساند ٣) والمحالا
فبت أقيمه وأقد منه
قوافي لا أعد لها مثالا
غرائب قد عرفن بكل أفق
من الافاق تفتعل افتعالا

رووا ان ذا الرمة حين حضرته الوفاة، قال:

«اني لست ممن يدفن في الغموض والوهاد».

قالوا «فكيف نصنع بك ونحن في رمال الدهناء؟»

قال «فاين انتم من كثبان حزوى؟»

قالوا: فكيف نحفر لك في الرمل وهو هائل؟»

قال «فاين الشجر والمدر والاعواد؟»

قالوا، وصلوا عليه في بطن الوادي، وحملوه وحملوا له الشجر والمدر على الكباش وهي أقوى على الصعود في الرمل من الابل، فجعلوا قبره هناك ودثروه بالشجر والمدر. وقالوا إن قبره باطراف (عناق) من وسط الدهناء قبالة (الاواعس) وهي جبال شوارع يقابلن (الصريمة) النعام».

بلى. كانت نهايته كما وصفوا، لا بد. سارت في جنازته الكباش الوديعة المسالمة، كأنها حرس شرف. صنعت له الطبيعة لحافا من أوراق شجر الارطي، وفروع شجر السيال والطرفاء، وعطرته بازهار الطلح، خبأته رمال (حزوى) في طياتها، كما خبأ المعاني في تلافيف القصائد.

رحمه الله، حياه شاعران عظيمان، ابو العلاء بقوله:

وإني تيممت العراق لغير ما
تيممه غيلان عند بلال

وحياه أبو تمام:

ما ربع مية معمورا يطيف به
غيلان أبهى ربى من ربعها الخرب

رحمه الله. ما أجمل ما غنى الحب والحياة والاشياء، لن يلبث ان ينطلق على كور ناقته الاسطورية، كأنه وإياها سفينة فضاء، تحل وترحل من زمان الى زمان. أو كما قال:

فقلت أجعلي ضوء الفراقد كلها
يمينا ومهوى النسر من عن شمالك

---

١) الابيات في الديوان، طبعة مكارتني، تصحيح مطبع ببيلي الصادر عن المكتب الاسلامي للطباعة والنشر، بيروت
يطرحن بالمهارق الاعمال كل جهيض لثق السربال
حي الشهيق ميت الاوصال
٢) الحوالي، أي اللابسات الحلي
٣) السناد في الشعر، اختلاف الحركة في القافية، كأن يأتي الحرف الذي قبل القافية مكسورا، والحرف قبل القافية في البيت الذي يليه مفتوحا

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٨٠

بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرُمة، تحيّة لذكرى الصّديق عبدالله أولد أورُبيه رحمه الله)

أيّام عملي في باريس مع منظمة اليونسكو، انفقت جهداً كبيراً على الصومال، وهذه القصّة هي في الاصل، قصّة بعض ما جرى لي مع الصومال، وإن كان الحديث، كما قال الأولون، أودية، واد يؤدي الى واد، وشعاب شعب يوصل الى شعب.

يقولون لك ان منظمة اليونسكو - اكرمْ وانعمْ بها من منظمة - ليست منظمة عون ودعم مالي، مثل صندوق النقد والبرنامج الانمائي والفاو واليونيدو واليونب وهلمّ جرّا، لاي شيء هي اذا؟ انها تعطي ما هو اغلى من المال. تعطي النصح والخبرة والافكار وايضا قليلاً من المال.

كان المال قليلاً، وهو اليوم اقلّ بمراحل، كان المبلغ المخصص لمساعدة الدول العربيّة لتطوير وسائل اتصالها، من اذاعة وتلفزيون ووكالات انباء وغيرها، يوزّع على ست دول تعتبر اكثر حاجة من غيرها. بهذه الوسيلة، كان ما تحصل عليه أيّ من هذه الدول لا يجدي الاّ كما تَنقط قطرات الماء للظمآن.

بذلت جهداً عظيما حقّا لاقناع مساعد المدير العام انّ ذلك الاسلوب لا يُجدي، وأنّه من الافضل ان تركّز المنظمة كل كذا عام على دولة واحدة، بحيث يكون للمساعدة أثر واضح.

وحين تعلم من هو مساعد المدير العام هذا، تقدّر كم من الجهد بذلت في اقناعه. كان رجلاً اوروبيا كيف اقول؟ لئيما - او هكذا خُيِّل اليّ. ولؤمه لم يكن ينبع من كونه اوروبيا فقد عرفت اوروبيين ارقّ من بني عُذرة وأسلس قياداً مما كان الحسن بن هانىء رحمه الله لجهالات الشباب. كان هذا لئيما في نفسه وفي حدّ ذاته، تماماً بخلاف ممدوح ابي تمّام حين قال:-

هُذِّبَ في نفسه وشذّ عن جنْسه فهو وحده جنْس.

بدأ صاحبي هذا، ولنسمّه مستر (سين) - بدأ حياته موظفا اداريا صغيراً في المنظمة اوائل انشائها، وظل يصعد السلّم درجة درجة، بمزيج من الجهد والكفاءة وغير ذلك، الى ان اصبح قاب قوسين من منصب المدير العام. ولعلّه ظنّ ان ترقيته جاءت متأخرة، وامرّ من ذلك ان (السيد) الآمر الناهي، الجالس في الطابق السادس في عمارة (فونتنوا) المجنحة، رجل من العالم الثالث. واضح جداً انه من العالم الثالث، وهو نفسه يزهو بكونه من العالم الثالث. وكان صاحبي هذا، (مستر سين) لا يكاد يُخفي احتقاره للعالم الثالث.

أمرٌ محيّر، لِمَ الاحتقار؟ فكّرت مليّا في سبب هذا الاحساس الذي تلمسه عند بعض الأوروبيين، والامريكيين بطبيعة الحال. ومن يدري، لعلّ اليابانيين ايضا بدأوا يحسّون مثلهم.

هل هو احتقار القوي للضعيف؟ لقد تعلّمنا من تراثنا ان «الضعيف أمير الركب». وهؤلاء لعلّهم يحمّلون الضعيف مسؤوليّة ضعفه، واذا سقط في الطريق من الأعياء، لا يبالون ان يواصلوا السير، فلا تتوقف القافلة لأجله. وجاء حكيمهم فقال لهم (البقاء للأصلح)، وهو في واقع الأمر لم يقل ذلك، بل قال بالانجليزية Survival of the Fittest والـ Fittest في مذهبي ليس (الاصلح) بل (الأقوى).

هل يعقل ان يخرج من اظهُرنا حكيم مثل (تشارلز دارون)هذا؟

كنتُ أبادله احتقاراً باحتقار، كما قال (الأستاذ) (جزيتُ على ابتسام بابتسام) وكان صديقي حمدي قنديل الذي كان يومئذ مديراً لقسم تدفق المعلومات، وقد اعانني وشدّ أزري، كان يعجب من أمري وأمر (مستر سين) ويقول لي:-

«هو صحيح ابن... بس طوّل بالك عليه».

كان محقّا، فقد كان مساعدو المدير العام، وما يزالون، أباطرة، يخفضون ويرفعون ويشيلون ويحطّون. لكنني رغم ما اظنه لديّ من لين العريكة، اخو جهالة حين أرى أنه تحسن الجهالة بالرجل. ورثت ذلك عن قومي، ولنا في عمرو بن كلثوم أسوةٌ حسنة. ثم انا لم اجئ الى هذا المكان لأصبح أيّ شيء، وقد كنت مع اهلي القطريين حيّاهم الله وزادهم من فضله كما قال الشاعر:-

حللتُ على آل المهلّب شاتيــاً
غريباً عن الأوطان في زمنٍ مَحْلِ
فما زال بي إكرامهم وإحتفاؤهم
وإلطافهم حتّى كأنهمو أهلي

بل كانوا لي اهلاً بالفعل. كنتُ عندهم حيث أسمع نداء الأذان في الفجر، حيث تتنزّل الملائكة عياناً بياناً على حلقات القرآن في المساجد في شهر رمضان. حيث الناس على علاّتهم أهلي، والزمان على غبراته زماني. وأمّ القرى على مرمى حجر، ويثرب بمقدار ما ينطلق السهم. والنيل قريب.... النيل قريب.

لك الخير، انّني لم أجئ لشيء من هذا، وانما جئتُ لأكون قريباً من (بُنيّاتي) في مدارسهن في لندن. واذا كان القرب يقتضيني ثمناً باهظاً كان امالئ هذا (العلج) اذا لعمري انّ في الأرض متسعاً للرجل الكريم ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٨١



بقلم الطيب صالح

طغى حبّ المعرفة لديّ على الكُره، واستيقظ عندي الحس الروائي، فاصبحت انظر الى «مستر سين» كأنه شخص في رواية. اراقبه يصول ويجول، ويحر ويبرد، ويرغي ويزبد. كان حقيقة يرغي ويزبد. واتعجب، واقول لنفسي «ما الذي جعل هذا الرجل هكذا؟ ما الذي حدث له في حياته جعله بهذه التعاسة؟» ويا للغرابة، اصبحت أحس تجاهه احساسا لا يبعد عن الرثاء.

مرّة طلب منه المدير العام، دون سابق انذار، ان يحضر فوراً ليعرض قضية في المجلس التنفيذي. هكذا كان احمد مختار امبو، يعامل مساعديه الاوروبيين والامريكان خاصة، بشدة تقرب من الشراسة. من قبيل الدفاع عن النفس، فقد لاقى منهم ما لاقى.

طلب مني (مستر سين) ان اصحبه. فقد كانت القضية تتصل بعملي. دخلت معه المصعد، وكان بادي الاضطراب، محمر الوجه، صدره يعلو ويهبط، يحمل حقيبتين منتفختين بالاوراق، واحدة باليمين وواحدة باليسار. وكان علينا ان نسير على الاقدام مسافة، من حيث نحن الى مكان الاجتماع في المبنى الرئيسي.

عطفت لحاله، وقلت له:

«تسمح أحمل عنك أحدى الحقيبتين؟».

نظر الي متعجبا، وتردد قليلا، ثم اعطاني الحقيبة.

مشى يهرول، وانا أسارع الخطى لألحق به، واسمع صوت شهيقه وزفيره. كان قد جاوز الستين. دخلنا مبنى «فونتنوا»، وعدّينا فناءه الواسع وقاعاته المتعددة ودهاليزه الطويلة، حتى وصلنا الى قاعة المجلس التنفيذي. أعشت الأضواء عينيّ وهلة، ثم جولت نظري في الحاضرين. رأيت وجوها اعرفها. منهم الرجل الكريم عبد العزيز حسين عضو المجلس عن دولة الكويت. ابتسمت له وابتسم لي بطريقته الودودة دائما.

كان المدير العام، احمد مختار امبو متصدراً المائدة المستديرة، متحفزاً مستاسداً، ممسكاً بمجامع المكان. نظر الينا ونحن ندخل. كنت اقابله لماما في المناسبات، لا يكاد يعرفني. فيما بعد سافرنا معا وحججنا معاً، واعجبت به وصرنا صديقين، واصبحت ادعو صراحة لاعادة انتخابه، وهو أمر لم يحببني الى قلوب المعسكر المناوىء وهو معسكر الغالبين.

رشق المدير العام «مستر سين» بنظرة تخلو من أي ود، ولم يمهله حتى يستقر في مقعده، بل قال له فوراً «هيّا».

أحسست بعطف شديد على صاحبي. هذا موقف ليس سهلاً. المجلس التنفيذي هو أعلى سلطة في المنظمة. يصنع القرارات ويرسم السياسات ويأتمر المدير العام والسكرتارية بأمره. ماذا يفعل «مستر سين» المسكين، وقد جاء يهرول حتى انقطع نفسه؟

تعلّقت به الأبصار وساد الصمت. وضع الحقائب على الأرض بجواره. لم يفتحها ولم يأخذ منها أي ورقة يستعين بها. أخذ يتحدث ارتجالا. كان صوته هادئاً محايداً. تحدث نحو ربع الساعة، فعرض الموضوع عرضاً بيّناً مقنعاً. وحين فرغ من حديثه أقرّ المجلس التوصية المقدمة دون أي اعتراض.

عدنا أدراجنا نمشي على مهل، وان كان «مستر سين» حتى في الظروف العادية، يمشي على عجل، كأنه يطلب شيئا او يهرب من شيء. نظرت اليه برهة. ربعة القامة اقرب الى القصر. متجمعاً على ذاته آخذا نفسه بالشدة. يرى الامر جللاً، ولا يميّز انه ما من امر يستحق كل هذا العناء. يخاف الشيخوخة، واضح ذلك من مبالغته بالعناية بثيابه ومظهره. يُرعبه الموت، لا بد. حين يجيئه الموت، فلن يكون مستعداً له. أستبقاه «امبو» بعد سن الستين لحاجة في نفس يعقوب.

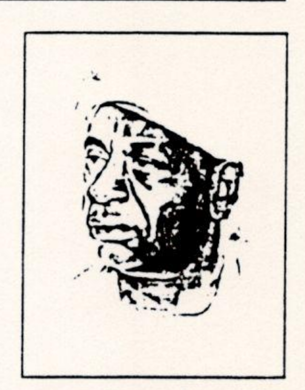
عرضت ان احمل عنه أحدى الحقيبتين، كما فعلت من قبل. رفض والححت فرفض باصرار أدهشني. سبحان الله. كأنه لا يأمنني على اوراقه، فكيف أستأمنني عليها ونحن رائحان؟ قلتُ لعلّ تلك التجربة الانسانية الفريدة التي ربطت بيننا وهلة ـ رجلان يهرولان، كلٌ منهما يحمل حقيبة مملوءة بأوراق لا قيمة لها في موازين الحياة والموت ـ قلت لعلّها تمتد، فانظر الى (مستر سين) نظرة جديدة.

أبداً. عاد صاحبي سيرته الاولى. أول ما دخلنا مبنى «ميوليس» حيث هو مساعد للمدير العام، أهتز وربا، وسرى في عينيه البريق، وفي وجهه الدماء. لم يتركني أستمرىء أحساس العطف الذي أحسست به تجاهه، وهو يركض كأنه تلميذ تأخر عن المدرسة. متى اتعلم الا أشفق على أناس هم في واقع الأمر، اقدر مني واكثر حيلة على تقلبات العيش؟ وكنت أريد ان اسأله: لماذا حمل كل تلك الاوراق وهو لم يستفد منها شيئا؟ ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٨٢



بقلم الطيب صالح

قد لا يصدّق الانسان، ان اهم موظف في منظمات الامم المتحدة، بعد الامين العام، كان الى عهد قريب صومالياً، هو السيد عبد الرحمن فرح. رجل مؤهل كفء بجميع المقاييس، يصلح ان يكون رئيساً للوزارة او رئيساً للدولة.

جلسنا نتحدث في الاستراحة، اثناء انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية في الرياض. قلت له:.

«اليس عجيباً ان يوجد صوماليون امثالك، ويكون الصومال بهذه التعاسة؟».

نظر اليّ مبتسماً، وكنت اعرف الاجابة عن سؤالي، فالصومال مثل بلاد كثيرة في العالم الثالث، وهو اسوأ من السودان مثلا، فقط من حيث درجة السوء. سألني اسئلة فاحصة واستمع اليّ بدهشة احيانا وبحزن احيانا. كان بحكم منصبه في سكرتارية الامم المتحدة في نيويورك، يعرف حقيقة الوضع في الصومال، ورغم ذلك فقد كان يبدو على وجهه احيانا انه لم يكن يتصور ان الحال قد وصل الى ما وصل اليه.

كنت احس بالحزن كلّما زرت الصومال، ولكنني ايضا كنت احس ببعض الارتياح - انني اجد بلدا اسوأ حالاً من السودان. كنّا تلك الايّام اواخر عهد النميري، وكان قد ضلّ الطريق وافلس تماما من ايّة افكار نافعة. ولم يعدم من زيّنوا له، وحسّنوا له سبل الخراب، ثم تنكّروا له، وبعضهم ما يزال يخرّب الى اليوم.

لكنّ النميري على الاقل بدأ بداية طيّبة، واخذ براحاً من الوقت، فقد كان في السودان اشياء كثيرة صالحة حصلت على مدى سنوات، اشياء كثيرة تحتاج الى جهد ووقت لافسادها. اما في الصومال المسكين، فقد بدأ زياد بري عهده (الثوري) وهو خالي الوفاض كليّة، مثل رجل يفتح شركة وليس في يديه رأس مال.

تزور مقديشو، وما كان اصعب الوصول الى مقديشو، فلا تجد شيئا. لا تجد دولة ولا حكومة. ولا توجد حتّى ادنى مظاهر العهود الثورية. على الاقل في الخرطوم، عملوا بعض الاشياء، وغيّروا بعض الاسماء، وبنوا التذكارات والانصاب، وهدّموا كثيراً، واصلحوا قليلا. الشعارات في الشوارع والصحف والاذاعة والتلفزيون تخبرك بان هذه (ثورة) ولك ان تصدق او تكذّب.

امّا هنا في مقديشو، فلا شيء. صور (الزعيم القائد) قديمة باهتة ولا تكاد تراها لقلّتها. الشعارات بائسة مثل صرخات مكتومة، مثل محاولات انسان ابكم ان يفصح عن نفسه. لا توجد نُصب ولا تماثيل ولا أيّ من مظاهر الأبّهة التي تجيء عادة مع هذه النظم (الثورية). هذه ثورة نسيج وحدها بحق، فلا اظن ان التاريخ على طول امتداده، قد شهد ثورة قامت وعاشت بمثل تلك اللامبالاة.

كانت مدينة مقديشو كما رأيتها تلك الايّام، شاهداً بليغاً على سخرية افريقيا بالحلم الاستعماري الاوروبي. اخذت (موسوليني) بكبريائه وصلفه، وجردته من ثيابه العسكرية ونياشينه، وحولته الى متسوّل يقف على باب الكاتدرائية الضخمة التي اقامها الايطاليون وسط المدينة. وياله من حلم مجنون. كانهم ارادوا ان يجعلوها رمزاً ابديا لاشعاع (الحضارة) الاوروبية.

وقفت انظر اليها في صباح يوم احد، استمع الى اجراسها تدق دقات متعبة، تاتي كانّما من بعيد، وكانّها صرخات (حضارة) تغرق. بناء ينهار، بهتت الوانه وتساقطت حجارته، وتشقّقت نوافذه الملوّنة، ودخلت يحدوني حب الاستطلاع فوجدت رجالا ونساء طاعنين في السن، لا يزيدون عن العشرة، يتلون صلوات باللغة اللاتينية! لا تميّز من وجوههم هل هم ايطاليون ام اثيوبيون ام صوماليون، ام مزيج من كل هؤلاء. هذه الوجوه مثل الابنية، مثل الشوارع، مثل شعارات الثورة، ذاب بعضها في بعض فكوّنت خليطاً لا يفصح عن شيء.

مطار مقديشو، كانهم غيّروا رأيهم فجاة ونفضوا ايديهم. تركوه، لا هو ناقص فيتم، ولا تام فينقص. الشوارع كانها اطلال شوارع لمدينة مهجورة من عهد غابر. الاشجار قليلة. لعلهم زرعوا اشجاراً ذات يوم، ثم اهملوا ان يسقوها فذبلت وماتت.

وهذا النُزُل حيث اقيم، لا بدّ انه اخذ يتداعى اول ما فرغوا من بنائه. جديد وقديم في الوقت نفسه. رائحة الطلاء جديدة، ولكنّ الحيطان مشقّقة مخدّشة. قماش الستائر ليس قديما ولكنه ممزّق مهلهل. مكيفات الهواء كالجديدة ولكنها لا تعمل.

كان الانهيار مكتملاً وفظيعا - وهل اقول رائعا؟ - كانك تشاهد لوحة للفنان الامريكي المعتوه. (أندي وورهول).

وهي جميلة بالفعل، احببتها رغم كل ما ذكرت. موقعها جميل، وبحرها جذّاب، وتربتها تتوهّج مثل التبر. فيها مساكن ودور لا تخلو من الفخامة على الشاطىء، وفي الحي الذي يقطنه الرئيس. وسط ذلك الموات، تجيش الحياة احيانا في دفقات مدهشة. تمتلىء المساجد بالمصلّين، وتعج الطرق بالنّاس رجالاً ونساء.

في غمرة ذلك الموات، تخطر نساء الصومال بقاماتهن الشوامخ كانهن اميرات وافدات من زمان آخر.

والرجال يسيرون لا يعبأون باحد ولا بشيء. كانّ الثورة لم تحدث، وكانّ زياد بري لم يكن. ترى لبرهة قصيرة ذلك الاحتمال الرائع - لو انّ هؤلاء البشر أتيح لهم ان يمتدوا في المساحات التي يستحقونها من آفاق الحياة ■

نحو أفق بعيد

١٨٣



بقلم الطيب صالح

أعْظِمْ بها من وزارة! تشمل الاعلام والثقافة والسياحة. لها وزير ومساعد وزير ووكيل وزارة ومدير عام، وعدة مدراء، بينهم مدير للتلفزيون، ولم يكونوا قد أنشأوا التلفزيون بعد، ولا أحد منهم يهمه الامر.

لا أحد يرد على التلكسات ولا الرسائل ولا البرقيات ولا التلفونات. وكنت حين تعييني الحيلة ألجأ الى الملحق الثقافي للصومال في باريس، وهو رجل فاضل أسمه أحمد قورو، فيبذل هو ايضا قصارى جهده، مستنفراً وزارة الخارجية في مقديشو. ولكن لقد اسمعت لو ناديت حيا. لم أدهش حين علمت ذات يوم أنه ترك العمل مع حكومة الصومال، وأصبح لاجئا سياسياً في لندن. كذلك استقال السفير ونجا بجلده.

كان الصومال ينهار ويتساقط في الداخل والخارج، و«الثورة» ماضية قدما و«الزعيم القائد» يحتفل احتفالاته البائسة،بانتصاراته الموهومة، عاما بعد عام. اكثر من عشرين عاما.

لو كنتُ حكيما لنفضت يديّ حينئذ، ورضيت من الغنيمة كما فعل احمد قورو، ولكنني قلت اسافر الى مقديشو على اي حال، وقد استبد بي ان اعرف اي دولة هي هذه الدولة العجيبة التي اقحمت نفسي في أمورها طواعية واختياراً. وكان صاحبي «مستر سين» يتابع مصاعب علاقتي بالصومال. لا يكاد يخفي سعادته انني دخلت في ورطة. سوف يقعد مني فيما بعد مقعد القاضي من المتهم، انني بددت مال المنظمة على قلته، في السفر والدراسات وارسال الخبراء الى الصومال، دون أي أثر يذكر، ولم اكن وحدي في ذلك، لو يعلم، فقد وجدت في مقديشو عشرات امثالي، من موظفي منظمات الأمم المتحدة وخبرائها، ومنظمات الجامعة العربية وغيرها يلاحقون سراب الصومال الخادع.

لم اجد احداً ينتظرني حين وصلت، كنت قد تنقلت من طائرات الى طائرات، وغفوت وصحوت في مطارات بعد مطارات. حتى مكتب الامم المتحدة للتنمية لم يحرك ساكنا. وجدت فيما بعد ان مديره الهولندي قد يئس تماماً من عمل اي تنمية في الصومال، فاستسلم لتيار الخمول السائد، وانصرف الى لعب «الجولف» وصيد السمك وعمل رحلات في البر. والصومال بلاد متنوعة الجمال، مليئة بالمسرات لمن يطلبها.

ولم اجد احداً من «المسؤولين» في وزارة الاعلام والثقافة والسياحة. لا الوزير ولا نائب الوزير ولا وكيل الوزراة ولا مدير عام الوزارة. وكنت اجد دائما مدير المطبوعات، وهو ايضا مسؤول عن شؤون الرقابة. واذ انني لم إتبين صحفا ولا كتباً، فقد عجبت من أمره. أصبحت الاحق «المسؤولين» كمن يطلب ديناً. ثم ذات يوم، وبمحض الصدفة، وجدتهم جميعاً مرة واحدة، وقابلتهم جميعاً، الواحد تلو الآخر، ببساطة، كأنهم كانوا موجودين دائما، ينتظرونني، وانني لم اجدهم لانني أعمى، لا ارى الشيء وهو واضح امامي.

استقبلوني بحرارة بالغة ولطف عجيب. وذلك في طبع الصوماليين عموماً، ثم لانني سوداني، فبين الصومال والسودان صلات وعلائق من نوع خاص، يرون في السودان القدوة والمثل. مثلهم من (عرب الاطراف)، عروبتهم قد يطلب لها البرهان. وأيام الاستعمار الانجليزي، كانوا يرسلون الصوماليين في بعثات الى مدارس السودان، والى كلية غوردون، ثم جامعة الخرطوم.

بعد الاستقلال، اعتنى السودان بالصومال، فأعانهم بالأطباء والمدرسين والمهندسين والقضاة وخبراء الزراعة وغير ذلك. شعب الصومال الوفي لم ينس ذلك للسودان. هذا الى جانب وشائج اخرى. فوجوه الصوماليين وسحنهم، لا تكاد تميزها عن السودانيين. وموسيقاهم واغانيهم، يحبون احمد المصطفى وحسن عطية والكابلي والبلابل مثل السودانيين.

قلت لمدير عام الوزارة ذات يوم، وكنت قد انست له بصفة خاصة:.

«لماذا لا تجلسون في مكاتبكم؟ اين تذهبون كل صباح؟»، اجابني بتلك الطريقة الصومالية الجذابة:

«يا اخي انت ما تعرف اننا في حالة حرب؟ نحن مشغولين في حرب الاوغادين».

«وانتو في وزارة الاعلام مالكم ومال حرب الأوغادين؟».

«كيف ما لنا ومال حرب الاوغادين؟ يا اخي الدولة كلها في حالة استنفار».

«طيب يا اخي فهمنا الجيش يحارب في الميدان. مش مفروض الاعلام يساند المجهود الحربي؟».

«نعم. لهذا السبب القيادات في الدولة في حالة اجتماعات مستمرة».

لا عجب ان الدولة انهزمت في حرب الاوغادين. وثمة أمر آخر حيرني في الصومال. النظم الدكتاتورية، كما هو معروف، تفتعل صراعات خارجية، تكون حروباً في الغالب، تقدم للشعب على انها دفاع عن تراب الوطن وذود عن كرامته. تعبأ الجماهير، وتؤجج نيران العواطف الوطنية، وتقوم المظاهرات. تحرق اعلام بعض الدول، ويعتدى على سفاراتها، وتقدم العرائض وترسل الاحتجاجات. اصبح هذا اجراء روتينيا تفعله اي ثورة تحترم نفسها، تلهي به الناس عن فساد الادارة، وسوء الحال، وبؤس الحياة في داخل البلد.

الا هذه «الثورة» العجيبة التي لم يشهد العالم مثيلاً لها من قبل، اشتعلت نيران الحرب وخمدت، وقتل من قتل وجرح من ابناء الصومال، وضاعت الاوغادين، ومدينة مقديشو تتقلب في بؤسها العادي، كأن لا علم لها ولا خبر، و(الزعيم القائد) لا يسمع ولا يرى، ووزارة الاعلام والثقافة والسياحة تسير او لا تسير، بلا وزير ولا وكيل ولا مدير ■

نحو أفق بعيد

١٨٤



بقلم الطيب صالح

لا أدري من قال «القرن الافريقي»، والقرن يكون في الرأس، فكأنهم قلبوها رأساً على عقب، وجعلوا عاليها سافلها، وهو أمر لا يبعد عن الصواب. ولو كان استعماراً واحداً لخف البلاء، ولكنهم مزقوه ثلاث مزق. مزقة أخذها الانجليز، فذلك حيث «هرقيسا» في الشمال، ومزقة أخذها الطليان، فذلك حيث مدينة «مقديشو»، ومزقة أخذها الفرنساوية، حيث جيبوتي اليوم.

كان الصومال مثل لحم لم يسغ لطماعه، فتصدقوا بقطع كبيرة منه على الجيران وابناء السبيل. اعطوا كينيا قطعة، واعطى الانجليز قطعة لـ «منليك» امبراطور اثيوبيا لقاء وعده أياهم بمساعدتهم على أخماد الثورة المهدية في السودان. كان داهية لا يشق له غبار، أجاد لعبة الـ (ريال بولتيك) وكان صلاً افريقيا مع افاعي اوروبا. ففي ذات الوقت اذ تعاهد مع الانجليز لأسقاط نظام الحكم في السودان، ابرم معاهدة مع حكومة السودان للتبادل التجاري.

كذلك اخذ قطعة كبيرة من الفرنسيين، منحوه أياها من حصتهم في الصومال، اذ وعدهم سراً ان يساعدهم ضد الانجليز لبسط نفوذهم في جنوب السودان. ولو ان ذلك حدث بالفعل، وقد كاد يحدث، اذاً لتغير الوضع كلية في السودان، ولرأينا اليوم في جنوب السودان دولة (فرانكوفونية) ناطقة باللغة الفرنسية. ومن يدري. لعل السودان كان سوف ينجو من كثير من التعاسة ووجع القلب.

الاّ ان القوتين الاوربيتين وقفتا وجها لوجه في (فشوده) في اعالي النيل، وحملقت العيون الزرق في العيون الزرق بغضب وأشرعت المدافع الاوروبية قبالة المدافع الاوروبية، وكادت تنشب الحرب. ثم رأوا رأياً وأبرموا اموراً، ورضي الفرنسيون بالانسحاب، وترك ذلك الجزء من افريقيا للانجليز.

ماذا رأوا في الصومال؟ كان بفي بحاجة اهله، وكانوا في الغالب من البدو رعاة الأبل، وقليل من الزراعة وقليل من التجارة. لكنه لم يكن مثل الكنغو حلما يسيل اللعاب. لم يكن فيه ذهب ولا فضة ولا ماس ولا بترول ولا رقيق ولا اراض واسعة خصبة للاستيطان. وكان أهله مسلمين كلهم لا سبيل الى اي نشاط تبشيري بينهم. لماذا لم يتركوه وشأنه؟ لماذا قطعوا أوصاله بكل ذلك الاستهتار؟

يقول مؤرخ انجليزي بسخرية واضحة:

«... اثناء ذلك انتهى الصراع الفاتر (بين بريطانيا وفرنسا) على البلاد الفقيرة على ساحل البحر الأحمر، وصحارى الصومال، دون ان يخلف وراءه مرارة كبيرة».

كان الصومال في واقع الامر، شيئا ثانويا، بلداً لا يؤبه له، مجرد محطة في الطريق، تلهت به القوى الاوروبية بعض الوقت في لعبة الشطرنج المدمرة، بعضها مع بعض. كان مساحة فارغة على الخريطة، يجب ان تملأ. كان الاستعمار الاوروبي في أوجه، مثل كلب أصيب بالسعار، يعض وينهش دون سبب.

فهم (منليك) الداهية أصول اللعب، ولم تكن يده غفلاً من أسباب القوة، فقد كبد الجيش الايطالي في موقعة (عدوه) هزيمة نكراء جللتهم بعار حاولوا ان يغسلوه بأحتلال اثيوبيا بعد ذلك، في عهد موسوليني. رمى (منليك) بسهم، وخرج بنصيب الأسد - أسد يهوذا.

هكذا حكموا على الصومال البائس بالشقاء زمناً لا يعلم مداه الا الله. شعب ذو انفة وكبرياء وملاحم بطولية وذاكرة ترجع الى الوراء بعيدا. تركوه ممزق الاوصال، مهزوز الهوية اجزاؤه يحن بعضها الى التوحد مع بعض. ولا حول له ولا قوة.

كان الصومال، غداة استقلاله عام ١٩٦٠، يحتاج الى معجزة. يحتاج الى زعماء ذوي حنكة ودراية وبصيرة، يلملمون أجزاءه المبعثرة، ويعيدون له أحساسه بذاته. وبدا اول الأمر ان ذلك قد يحدث. ثم حلت الكارثة مع (ثورة) زياد بري ■

(التحديث مقبة)

نحو أفق بعيد

١٨٥



بقلم الطيب صالح

في زيارتي التالية دلّني ابن حلال على (بنسيون) صغير تملكه سيدة ايطالية طاعنة في السن، من بقايا الوجود الايطالي في الصومال. علمت منها فيما بعد، انها ولدت في الصومال، ونشأت وتزوجت وانجبت في الصومال. استقل القطر، وجلا الايطاليون، ومات عنها زوجها، ولكنها آثرت ان تبقى في المدينة التي ألفتها وأحبتها، مع من فضّل البقاء من أبنائها وبناتها.

لو كان لي من الامر شيء، لفتحت أبواب العالم العربي على مصاريعها لـ (التليان) و(الأقريق) اليونانيين - خاصة اليونانيين - فهؤلاء اوربيون ليس فيهم عنطزة المستعمرين، تجدهم في الحارات والاسواق، يكدحون لكسب عيشهم كسائر الناس، يصلحون السيارات، ويبنون العمارات، ويبيعون الجبنة والزيتون.

الأقريق أفل نجمهم ودالت دولتهم قبل ظهور المسيح عليه السلام، فلم يستعمروا بعد ذلك أحداً ولم يتسلطوا على أحد. والتليان كذلك، انتهى أمرهم مع نهاية الـ (باكس رومانا)، اللهم الا من بضع سنين على عهد زعيمهم المخبول (موسوليني)، الذي ظن انه يرجع زمان القياصرة ويوقف الفلك عن الدوران. الا أن التليان، مثل الاقريق، مثل العرب، كانوا قد شبعوا من المجد، وأخذوا حظهم من الفتوحات والغزوات، فأصبحوا كما قال الحطيئة للزبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي.

حيثما وجدت الاقريق والتليان في بلاد العرب، وجدت خيراً وبركة. وقد يكون ان كل ما حدث للسودان من مصاعب بعد الاستقلال، هو بسبب جلاء هذين العنصرين الطيبين منه. ولعل هذه تكون (ايدولوجية) لنظام جديد، فيقوم ضابط في الجيش يحب هذين، ويعمل (ثورة) يكون شعارها (اعادة الاقريق والتليان الى بلاد السودان).

حمدت الله أن التاريخ قد دار دورته، فقبلت هذه السنيورة الايطالية ان تكون صاحبة (بنسيون) في مقديشو، بدل ان تكون زوجة لحاكم روماني في سوريا او بلاد افريقية. قبلتني نزيلاً عندها في الـ (كروشي دي سود)، وكنت قد تعبت من صراصير هوتيل (جوبا) وفئران نزل (العروبة).

وجدت نزلاً صغيراً من نحو عشرين غرفة، أغلبها محجوز على طول العام لموظفي وكالات الامم المتحدة وهيئاتها، والهيئات والصناديق العربية. كانوا مثلي يذهبون ويجيئون، يحدوهم الأمل ان تحدث معجزة ويلمع فجأة بريق ضوء في غياهب الصومال. تتحرك المشاريع، وتجيش الطاقات، وتعتمل الحماسة في الصدور، ويتحسن الأداء الحكومي. يكتبون في تقاريرهم الى منظماتهم، ان النظريات التنموية التي سهروا على دراستها وتمحيصها في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم، في نيويورك وباريس وروما وفيينا وجنيف، أنها برهنت على صلاحها وقابليتها للتطبيق. ان تلك الحالة المستعصية في الصومال، بدأت تستجيب للعلاج، انتظمت دقات القلب، وهبطت درجة الحرارة. فتح المريض عينيه، وانفتحت شهيته للطعام والشراب. كان الصومال بالفعل، مثل حالة مرضية نادرة، من الحالات العسيرة التي ينكب عليها الأطباء يجربون فيها فنهم ومهارتهم، واذا نجحوا، يجدون تلك المتعة المهنية النادرة التي تهون عليهم مصاعب عملهم. ربما لأجل ذلك أغدقت منظمات الأمم المتحدة من الخبراء على الصومال، ما لم تغدق الا على قليل من بلدان العالم الثالث. كنت مثلهم في ذلك، وأيضا، كما أدركت فيما بعد، انه كان يحدوني حافز آخر، هو الشعور بالذنب.

قلت ان ابن حلال قد توسط لي لدى السيدة الايطالية فقبلتني نزيلاً عندها، فدخول الـ (كروشي دي سود) في مقديشو لم يكن أقل صعوبة من دخول نادي (الأثينيم) الارستقراطي في لندن. وقد كان سودانيا - بمحض الصدفة. أقول بمحض الصدفة، لأن ابناء الحلال وبنات الحلال، لم ينعموا في الدنيا من سائر الملل والنحل، وان بدا الأمر بخلاف ذلك احياناً. وتصور ان استطعت، مدى سعادتي بتلك النعمة السابغة. ذلك من بعض بركات السفر والترحال في آفاق الأرض، ان الانسان قد ينسى لطائف هبات المولى سبحانه وتعالى عليه، لكثرة ما ألفها واعتاد عليها.

فجأة تستعيد طعم (الجدة) ومذاق (الدهشة)، كما يحلو لبعض اخواننا النقاد ان يقولوا. وهم على حق. وهل الشباب الا هذا؟ وهل الشيخوخة الا فقدان هذا؟ أنظر الى لبيد:

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيد.

لأنك لم تسافر الى مقديشو يا عمرك الله. كان الكاتب الانجليزي (أولدس هكسلي) يقول:

«اذا لم تكن قد قطعت تذكرتك الى اثينا فانك لم تجرب شيئاً». يقصد اثينا حين كانت أثينا. وأنا أقول (اذا لم تزر مقديشو فانك لم تر شيئاً).

أذهب الى مقديشو، اذا مللت الحياة لكثرة ما اغدقت عليك من هبات لم تعد تحسها او تراها لكثرتها، فاذهب الى مقديشو. اذا مللت الدار الواسعة والسيارة الفارهة والمائدة العامرة، والثياب الزاهية، فاذهب الى مقديشو، خاصة في هذه الأيام. سوف ترى وتسمع عجباً. سوف يفارقك الملل، وتستعيد طعم (الجدة) ومذاق (الدهشة). ويقيني انك سوف تجد وسط كل الخراب الذي تقرأ عنه وتسمع، تلك السيدة الايطالية الباسلة، ان كانت ما تزال على قيد الحياة. تجدها تدير (بنسيون الكروشي دي سود) بكفاءة ومقدرة، وسط كل ذلك الدمار.

سوف تعطيك غرفة نظيفة، وسريراً مريحاً، وطعاماً بسيطاً، لا يسبب لك التخمة. ولعلي لا أكون مخطئاً ان قلت لك، انك سوف تلقى في العشيات، في فترات الهدنة بين المعارك، كل القادة المتحاربين، يسمرون في مقهى البنسيون، يشربون قهوة الـ (كابوشينو) او ما هو أقوى، يتمازحون ويتضاحكون، ثم يعودون الى حروبهم التي لا يموتون هم فيها، ولكن يموت الرجال والنساء والأطفال، من شعب الصومال الكريم المسالم ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٨٦



بقلم الطيب صالح

كنت اذهب وأجيء كمن يحلّ ديناً، كمن يقضي نذراً، كمن يكفّر عن خطيئة، وكان في الصومال عوضاً عن السودان.

لانني كنت اعيش في باريس، وباريس (مدينة النور) كما اخبرنا اساتذتنا من الروّاد، من مصر ولبنان، وعرب البحر الابيض المتوسط، المنجذبين ابداً الى حواضر اوروبا. ومَن يلومهم؟ انه عالم جذاب، وباريس مدينة مضيئة فعلاً، ربما اكثر مما زعموا لنا، وبطرق مغايرة عمّا زعموا لنا.

زرتها اول مرة عام ١٩٥٤، جئتها من لندن. وما هي الا ساعة بالطائرة، او بعض يوم بالقطار والسفينة والقطار. لكنها دنيا اخرى. كنت متلفعاً بعباءة الحضارة الانجلو - سكسونية، شغوفاً بآدابها، مقبلاً على تاريخها، معجباً بنظمها واساليبها في العيش. اعلم بالطبع ان الانجليز قد فتحوا السودان واستعمروه دون وجه حق، وانهم فعلوا الافاعيل بمصر منذ عهد محمد علي واسماعيل، وانهم اعطوا اليهود وعد بلفور، مما نتج عنه ضياع ارض فلسطين الغالية اخرى الليالي، وانهم عاثوا ما شاءوا بأرض الرافدين، وتركوا جزيرة العرب (مثل الخباء المبوق).

نعم. كل ذلك لم يكن خافيا عني. انما سبحان الله. الشباب يفعل كما وصف الحسن بن هانىء إن الخمر تفعل بالمرء. تريك القبيح جميلاً، او على الاقل تُلهيك عن أنه قبيح. الحكمة تجيء ضحى الغد، وقد لا تجيء ابدا. وإذا كان في الشباب عذرٌ عن الضلال، فأي عذر للمرء اذا ضلّ بعد ضياع الشباب؟

في تلك المرحلة الهوجاء من العمر، من يلتفت الى هذه القضايا المعقدة؟ الذي تعرفه وتحسه وتلمسه انك في عالم جديد، يضغط على سمعك وبصرك وعقلك في كلّ لحظة. وانت مستنفر الحواس، يقظ العقل، مليء بحب المعرفة، شهيتك متفتحة للحياة. هل تجلس وتفكر في الآثار المترتبة على معركة أم درمان وصندوق الدين في مصر، وكيف سرق دزرائيلي قناة السويس، وكيف تآمر الانجليز والفرنسيون على تقطيع اوصال بلاد الشام، وماذا فعل سايكس وبيكو، وماذا فعل لورنس، وماذا فعلت قير ترود بل؟

مستبعد هذا. اغلب الظن أنك تلقي بنفسك في اللجة، تغطس وتطفو وتضيع وترجع. عندك متسعٌ من الوقت. ما افسح ما يبدو لك العمر حينئذ. غدا.. وغدا.. وغدا. سوف تجد براحاً من الوقت للتأمل، والتحسر على الزمن الضائع. فسحة من الوقت للندم.

حينئذ فقط تفهم معنى قول الحسن بن هانىء:

كانَ الشبابُ مطيةَ الجهل
ومحسنَ الصبوات والعذل

لا عليك الآن، فأنتَ في عشرينات العمر، وهذه مدينة الضوء. الضوء في باريس ليس كما عهدت في لندن. هذا جزء من جسد القارة الاوروبية الممتد، وبلاد الانجليز تنتمي الى العالم الجرماني - الاسكندنافي الداكن. كانت لندن تلك الايام، سماؤها ابدا كالحة بسبب السحاب الذي يغطيها اكثر العام، والضباب الكثيف المخلوط بدخان الفحم الحجري من مداخن البيوت. اليوم تغيّر الطقس، وتوقف استعمال الفحم، وقلّ الضباب. كانَ الظلام، يومئذ هو الأصل، والضوء هو الاستثناء.

رائحة لندن رائحة مبتلة. رائحة الشوارع المبتلة، رائحة الثياب المبتلة، رائحة القطارات المبتلة، رائحة البيوت المبتلة. اضف الى ذلك روائح الطعام. القرنبيط المغلي والكرنب المغلي، والبقل المغلي، والبيض المقلي ولحم الخنزير المقلي، والبطاطس المقلي. اضف الى ذلك رائحة البحر الذي يحيط بالجزيرة ويعترض مشارع الرياح.

رائحة باريس خليط من روائح القهوة والثوم والنبيذ والعطور والخبز الساخن الذي خرج لتوه من الفرن. لم يكن الانجليز يشربون القهوة تلك الايام ولا يستعملون الثوم في طهيهم، وما يزالون الى اليوم يعتبرون الاسراف في استعمال العطور من فساد الذوق. وكان خبزهم بلا رائحة.

اليوم تغيّر الحال قليلاً بدأ الانجليز يقتربون مترددين من القارة الاوروبية ورغم معارضة جزء كبير من الرأي العام، كاد النفق الذي يربط بينهم وبين فرنسا ان يتم. لا عاصم لهم بعد اليوم. سوف يدخلون في غمار العالم الاوروبي العريض، شاءوا او أبوا. تجد الآن في بعض الاماكن القهوة الفرنسية والثوم في الطعام، وفي بعض المخابز تجد الـ (Bagette)الخبز الفرنسي المستطيل مثل العصا.

كانَ الضوء في باريس هو الاصل والظلام طارىء عليه. وليس ذلك فقط لأن الشمس تسطع اكثر والسماء اقلّ كُدرة مما هي في لندن، انما ايضا اتساع الشوارع والميادين، وطراز العمارة، وألوان أسقف البيوت. ينعكس الضوء عليها بطرائق وألوان تُعطي المدينة بهاءً لا يوجد في لندن.

ميدان الطرف الأغر، رغم ما بذله الانجليز من جهد، لا يقاس بميدان الـ (بلاس كونكورد) وشارع الـ (Mall) الذي يؤدي الى قصر بكنجهام، لعله اعرض في الواقع، ولكن لماذا يخيل اليك ان الـ (شانز اليزيه) اكثر اتساعاً؟ حتى نهر التمز العتيد يبدو متواضعاً بالقياس الى نهر السين.

هذه مدينة تجعلك تتذكّر باستمرار، اذ لندن تجعلك تنسى، اشياء تجيئك كأنما من ماض سحيق ومن عصور غابرة. لعلها الأشياء التي اخذوها عن العرب زمان تألق مجدهم في الاندلس - ايام كانت غرناطة واشبيلية وقرطبة. اشياء اخذوها ثم اغفلوا أن يذكروها، عن قصد او عن غير قصد. بل أن العرب انفسهم نسوا انهم اعطوها ذات يوم.

لعلنا حين نقع في غرام حضارات الاخرين، انما نحبّ أجزاء ضائعة من انفسنا، لا نعلم انها جاءت من عندنا، ونظنّ انهم اجترحوها من العدم.

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٨٧

بقلم الطيب صالح

اعترض طريقي منذ أول يوم، رجل معتدل القامة، متوسط العمر، دقيق تقاطيع الوجه، كأنه من قبيلة الـ (بني عامر) في شرق السودان، الدم الحامي والسامي فيه بكميات متساوية. ليس به عاهة ولا توجد في عينيه ذلة او انكسار. تقدم نحوي كأنه كان ينتظرني، ونظر الي بجراة تقرب من الوقاحة:.

«يا سوداني، هات (.....) شلن».

اعطيته ما سال، عددتها عداً، لا اقل ولا اكثر، كأنني اقضي ديناً، كأنني اوفي نذراً، كأنني اكفر عن خطيئة.

صار هذا شأني معه، مدة اقامتي، وحين انتقلت الى هوتيل الـ (كروشي دي سود) لحق بي. لم يكن عسيراً عليه ان يعرف اين ذهبت. لم يكن متسولاً. كان طالب حق. يدخل يمشي على مهل، وقد يحيي احداً، وقد يجلس في المقهى، وقد يطلب قهوة.

لا يتحدث معي ولا يشكرني. ياخذ (حقه) دون اي احساس بالجميل. لا يعرف اسمي ولا عملي، وانا لم اساله عن اسمه ولا عمله. كان عاطلا بلا عمل، لا شك.

انا (سوداني) وكفى... لست انجليزياً ولا فرنسياً ولا ايطاليا... الناس الذين تسببوا في البداية فيما حدث له.. لا، ولست زياد بري، الرجل المسؤول مسؤولية مباشرة انه الآن عاطل عن العمل.

ماذا اعطيته؟ بضع شلنات. لا اظنه اخذ مني طول مدة اقامتي اكثر مما قيمته عشرة دولارات. يذهب في سبيله واذهب في سبيلي. احيانا اراه في المسجد القريب من الهوتيل في صلاة العشاء. كان يحلو لي ان اصلي العشاء في ذلك المسجد. صوت الامام حنون حزين، يرتل القرآن بقراءة ورش. أراه، نظيف الثياب، حسن الهندام، مؤتزراً ازاراً يمانياً، وعلى رأسه الطاقية الصومالية المزركشة، يتجاهلني كلية كأنه لا يعرفني. انه هنا شخص آخر.

ليس بيد الامريكان ولا الانجليز ولا الفرنساويين. ليس بيد زياد بري. انه هنا، في هذا المكان، يعلم في حقيقة نفسه ان الامر بيد الذي لا مانع لما اعطى، ولا معطي لما منع. سوداني، او صومالي، مثله. وايضا عبد من عباد الله سخره لما جعله مستخلفاً فيه، على قلته. مثله، عابر سبيل، ضيف على مائدة الحياة. وكون الحياة أعطتني اكثر مما اعطته، وجعلتني اعيش في باريس وهو في مقديشو، واعمل في منظمة اليونسكو وهو عاطل بلا عمل... آه. تلك أيام يداولها الله بين الناس وهو العليم الخبير.

باريس. شوارع باريس في شهر اغسطس جحيم مقيم لأولي النهى. مدينة تعرض مفاتنها على قارعة الطريق ولا تترك للخيال بقية. عالم جذاب، اي نعم، لكن ما ابعد كل هذا عن منحنى النيل وعن مقديشو. خيرات الارض الفرنسية مكدسة، تلالا تلالاً، في الـ (منوبري). الـ (باقت) حار يقرقش، خرج لتوه من الفرن في المخبز على ركن شارع (قوتنبيرج). الـ (كرواسان) التي تغنى بها محمد الصاوي محمد رحمه الله. قرأنا له ونحن صبية في المدارس الثانوية ، انه كان يتمتع بها مع القهوة الفرنسية بالحليب، الـ (كافي اوليه) وهو جالس في الصباح في الـ (تراس) الزجاجي في مقهى الـ (دوم). يقرأ صحيفة الـ (فيقارو) ولا بد.

اي سحر في تلك الاسماء؟ كان (جان بول سارتر) يلم احيانا بمقهى الـ (دوم)، يجيء من مرابعه المعتادة في (سان جرمان دي بري) ومقاهي الحي اللاتيني حول الـ (بولفار سان مشيل). معه رفيقته (سيمون دي بو فوار) وحوله المعجبون والحواريون. يجادلون في هيقل وماركس وكيركقارد والوجودية. يلعبون بالافكار كما تلعب بكرة الـ (بنج بنج). لا توجد حدود ولا قيود في ذلك العالم المفتوح.

الأستاذ العميد عشق كل ذلك، وبقية الاساتذة الرواد، من مصر وبلاد الشام. ومن يلومهم؟ نقلوا لنا نتفا من تلك الافكار، وربما اخذوها مأخذ الجد اكثر مما اراد اصحابها. ونقلوا لنا الاسماء. نقرأ، ونحس النشوة ونصاب بالذعر. يا لها من أسماء! يا لها من افكار! يا له من عالم جذاب!

صدقوا. ولكنه (عالم ليس لنا)، كما قال غسان كنفاني رحمه الله. لم نشارك في مخاضاته السياسية، ولا ثوراته الصناعية، ولا قفزاته الفكرية. تقول، أبن رشد وابن سينا وابن الهيثم وابن خلدون؟ من يذكر لك هؤلاء الآن؟

تمتع بها ما اسعفتك، ولكن تذكر أن تحت هذا المظهر اللاهي، تحت معرض الازياء المتصل الذي يتدفق امامك في شارع الـ (شانزاليزيه)، تحت العبث الفكري والجدل الفلسفي والسياسي في مقاهي الحي اللاتيني، تحت بذاءات حي (مونبارناس) والـ (بيقال) وخلاعة الـ (فولي بيرجير) والـ (مولان روج) تحت كل هذا قاعدة صلبة من الصناعة والبنوك والشركات العملاقة، والعتاد الحربي، وقطارات الـ T.G.V الكهربائية السريعة، وخريجي الـ (ايكول نورمال سوبيرير) والـ (ايكول ناشيونال د أدمنستراسيون) - المعهد القومي للادارة - العقول التي تحكم فرنسا في كل العهود، ومهما تغيرت النظم والحكومات. ثم بعد كل كذا عام، يجيئهم رجل عظيم حقا مثل ديجول.

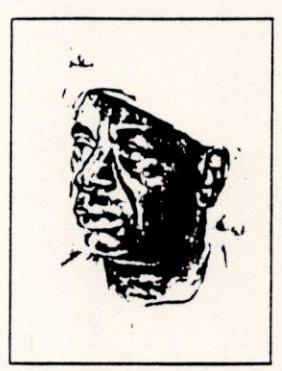
يا لها من أسماء لها في اللسان طعم الشهد. وقد أعطانا الدكتور العميد رحمه الله عدداً منها. حدثنا عن (كورنيي) و(موليير) و(راسين) و(بلزاك) و(فكتور هوقو) و(أميل زولا). اسماء.. اسماء.. اسماء. أمن مخلصاً ان يربط مصر بالعالم (الهليني) عبر البحر، ومن ثم بفرنسا، فقد كانت (لا فرانس) في رأيه، هي وريثة (اثينا) وحاملة مشعل الحضارة بعدها.

لا تثريب عليه، فهو عالمٌ أسرٌ بحق. ولعلني لو كنت مكانه، لفعلت فعله، ورأيت رأيه. ولكن ما بال الدكتور العميد، رحمه الله وغفر له، لم يشك (حسب علمي) ان هومير هو مؤلف (الالياذه) والـ (أوديسه)، وقد زعموا انه عاش منذ الف ومائتي عام قبل ميلاد المسيح، ولكنه شك في ان يكون امرؤ القيس هو امرؤ القيس؟ وما امرؤ القيس منا ببعيد.

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٩٤



بقلم الطيب صالح

يُعدّ المؤرخ الفرنسي (فيرناند برودل - Fernand Braudel) بين عظماء المؤرخين في هذا العصر. ولد عام ١٩٠٢ في قرية من قرى منطقة الـ (لورين) - المنطقة التي انجبت (جان دارك)، وتوفي عام ١٩٨٥. كان (خلدوني) النزعة، مثل (أرنولد توينبي) في بريطانيا، يمزج بين التاريخ وعلم الاجتماع في دراسته لماضي الانسانية.

اشتهر أول الأمر بكتابه (عالم البحر الأبيض المتوسط في عهد الملك فيليب الثاني)، ثم شغل كرسي الأستاذية في معهد الـ (الكوليج دي فرانس) المرموق. وقد كان ايضا استاذا في معهد الدراسات العليا، الذي انشئ في باريس لتشجيع الدراسات التي تزاوج بين التاريخ وعلم الاجتماع.

كتابه (هوية فرنسا)، هو آخر كتاب له، وقد نشر بعد وفاته، يحاول فيه ان يتعرف على العناصر التي تكونت منها شخصية فرنسا. يقول فيه:

ليسمح لي القارئ أن أقول بوضوح منذ البداية، أنني أحب فرنسا حبا قويا عميقا لا يقل بأي حال عن حب (جول ميشليه - Jules Michelet) (١). لا أميز في هذا الحب بين ما هو حسن وما هو قبيح، بين ما يعجبني في فرنسا، وما أجد من العسير على تقبله. انما هذا الحب لن يمنعني أن أقول الحقيقة كما أراها. سوف أحرص أن أضع حبي لفرنسا جانبا. سوف أراقب نفسي مراقبة صارمة. ولعل الحب يغلب عليّ أحيانا، متخذا شتى الحيل. حين يحدث هذا فسوف أنبه القارئ.

انني عقدت العزم أن اكتب عن فرنسا، وكأنها بلد آخر، وطن آخر، أمة اخرى. ومهما يكن فإن صناعة كتابة التاريخ اليوم، أصبحت تقتضي منّا مزيدا من ضبط النفس والسيطرة على العواطف.

على المؤرخ بصفته (مراقبا محايدا) أن يأخذ على نفسه (عهدا بالصمت) - اذا صح القول، ولعل العمل الذي انجزته من قبل، يسهل مهمتي هذه، اذ انني في كتابي عن البحر الأبيض المتوسط والرأسمالية، نظرت الى فرنسا من بعيد، وأحيانا من بعيد جدا. وهكذا أعود الآن الى أرض الوطن، ربما في وقت متأخر. الا أنني لا أنكر أنني أجد سعادة عظيمة في هذه العودة، اذ لا مراء في أن المؤرخ لا يقف على ارض صلبة الا حين يكتب عن وطنه. انه يعرف دون جهد، تموجات ذلك التاريخ، وصعوده وانحداره، وعناصر القوة والضعف فيه. أبدا، لن يكون بمثل هذه الثقة، مهما بلغ من العلم، اذا هو نصب خيمته في بلاد غير بلاده. لذلك يصح القول أنني أدخرت (خبزي الأبيض) الى النهاية. أبقيت تلك الفضلة زادا لشيخوختي.

هدفنا اذا أن نتحرر من العاطفة مهما كانت دوافعها، سواء كانت في طبيعتنا، او وضعنا الاجتماعي، أو بسبب (معادلاتنا) الشخصية، او أي من هذه الدوافع التي ترى بها الحياة في وجوهنا. هذا بالتأكيد لم يفعله (هبولايت تين) (٢) في كتابه (مقومات تكوين فرنسا الحديثة)، مهما خيل له عكس ذلك. لقد زعم انه أراد ان ينظر الى فرنسا (كأنها حشرة في مراحل نموها). كان (الكسي دي توكفيل) (٣) اكثر توفيقا منه في كتابه الجميل (المعهد الملكي والثورة الفرنسية). (...)

واضح أن الأمة في أطوار نشوئها، لا تكون مخلوقا بسيطا. لا تكون (شخصا) محددا، كما قال (ميشليه) مختزلا. بل هي انقاض تراكمات، واشباح تصورات، ومجموعات كائنات حية، لا يستطيع ان يفيها حقها، المؤرخ (السردي) الذي ينظر الى الاحداث في تسلسلها، يوما بعد يوم، واسبوعا بعد اسبوع، وعاما بعد عام.

يوجد في نظرنا نوع آخر من التاريخ. تاريخ يعنى بالآماد المتطاولة، ويميز بين العناصر المكونة للتراكمات العجيبة، ويتبين دورات الحياة البشرية في اقبالها وادبارها. هكذا نصل الى اسلوب في كتابة التاريخ، فاحص غواص في الاعماق، بالطريقة نفسها التي كشف بها التحليل النفسي في مطلع القرن العشرين، مجاهل العقل الباطن. ولعل (أرنولد توينبي قد بالغ قليلا حين قال (أن الأربعة أو الخمسة قرون التي تصرمت منذ كولمبس وفاسكو داغاما، ليست اطول من اغماضة العين بالقياس الى عمر الارض كما حدثنا علماء الجيولوجيا). ومع ذلك فان في عبارته تحذيرا لأولئك الذين يقيسون التاريخ بمقاييس قصيرة. (...)

انما الذي يغيظني اكثر من اي شيء، هو ضيق الأفق الذي تفرضه هذه النظرة. النظام الملكي والثورة الفرنسية، قريبان لنا في الزمان، اذا مددنا أيدينا نكاد نلمسهما، وكأنهما معاصرين لنا. ما يجب علينا عمله هو ان ننظر الى تاريخ فرنسا في تدفقه المتصل منذ احتلال الرومان لبلاد الـ (غال). حين وصل الملك لويس الرابع عشر، كان تاريخ فرنسا قد اصبح رجلا طعن في السن جداً لأجل ذلك فانه يحزنني أن الجهد الضخم الذي بذله (ثيودور زلدن) (٤) في كتابه (تاريخ الاحاسيس الفرنسية)، يفضّ منه ان التاريخ لديه يبدأ عام ١٨٤٨.

كأنما التاريخ لا يعود الى تلك العهود السحيقة التي يحجبها الضباب! كأنما التاريخ القديم والحديث ليسا نهرا واحدا! كان قرى بلادنا لم تكن قد قامت وضربت جذورها في الارض في الألف الثالث قبل الميلاد! كان ارض الغال لم تكن قد اتضحت معالمها، التي سوف تتشكل في اطارها شخصية فرنسا! كان تدفق القبائل الجرمانية عبر نهر الرين، لم يصبح سمة مهمة من سمات العالم الحديث! كان الدماء التي تجري في عروقنا لا تحمل خصائص واضحة موروثة من تلك القبائل (البربرية) الغازية في ذلك الزمان البعيد! كان معتقداتنا ولغاتنا لم تنحدر الينا من عصور الظلام تلك!

هذا ما يعنيني تحديدا في كتابة التاريخ. التاريخ الغامض، الذي يجري تحت السطح مثل نهر جوفي. التاريخ الذي يرفض أن يموت ■

---

١ - جول ميشليه - (١٧٩٨ - ١٨٧٤) اكبر مؤرخ فرنسي في القرن التاسع عشر. كتابه (تاريخ فرنسا) في أربعين مجلدا

٢ - (هبولايت - تين) - ورد ذكره ضمن اصدقاء الاميرة (متلدا بونابارت)

٣ - (الكسي دي توكفيل) - (١٨٠٥ - ١٨٥٩) - سياسي ومؤرخ

٤ - (ثيودور زلدن Zeldin) - مؤرخ معروف. نشر الكتاب المشار اليه باللغة الانجليزية اولا، عام ١٩٧٣، ونشر بالفرنسية عام ١٩٧٨

نحو أفق بعيد

١٨٨



بقلم الطيب صالح

ليس هذا قلب باريس. باريس لها اكثر من قلب. ولكنه أوضح علامة في المدينة. تراه حيثما كنت، مضيئا بالليل، وبالنهار يلمع في شمس الصيف، واذا كان الفصل شتاء، ياخذ لونا رماديا داكنا.

تخرج من مبنى منظمة اليونسكو في (بلاس فنتنوا). تتجه يسارا حتى تصل الى شارع (سوفرن) الواسع، تتجه فيه يمينا وتسير ناحية النهر، لن تسير طويلا. عند ضفة النهر على يمينك تجد البرج، (برج أيفل).

يخبرك الدليل السياحي، انه اقيم في عامين، من عام ١٨٨٧، حتى عام ١٨٨٩، وان ارتفاعه ٩٨٤ قدماً، ويزن سبعة الاف طن، وكلف سبعة ملايين ونصف مليون فرنك، رغم حجمه الهائل، فانك لا تحس به جسماً صلباً، لانه مفتوح على الافق من النواحي جميعها. يرتفع في شكل هرمي، وينتهي بمسلة طويلة من الحديد. احد أعاجيب الدنيا، وواحد من أهم رموز باريس. يصفه المفكر الفرنسي الكبير (رولان بارت) قائلا:.

«... في أي فصل من فصول السنة، في الضباب والغيم، في الايام التي لا تشرق فيها الشمس، وفي أيام الصحو، في المطر، اينما كنت... ثمة البرج. يتغلغل في نسيج الحياة اليومية حتى لا تستطيع ان تتصور له صفات محددة. مثل ظاهرة من ظواهر الطبيعة. يتساءل الانسان عن معناها الى ما لا نهاية. ولكن وجودها ثابت بما لا يدع مجالا للشك...».

«... بالاضافة الى ما يعنيه البرج لاهل باريس، فانه ينفذ. عند الناس قاطبة، الى مستودع التداعيات الدفينة في مخيلاتهم. هيئته البدائية البسيطة. تسبغ عليه صفة لغز لا قرار له. انه. حسب ما يشطّ بنا الخيال. رمز باريس، رمز الحداثة، الاتصالات، العلم، القرن التاسع عشر، صاروخ، جذع، وثن، Phallus (رمز الذكورة)... برق، قضيب حديد، حشرة. يشتمل على انواع احلامنا كلها. انه (العلامة) التي لا مهرب منها... وظيفته المثلوجية الوحيدة، كما يبدو في شكله البسيط ان يجمع القاعدة الى القمة، او الارض الى السماء، كما عبر الشاعر...».

«... يجذب البرج المعنى اليه، كما تجذب الاسلاك الصواعق. انه يلعب بالنسبة لعشاق اصطياد المعاني، دوراً مدهشا.. انه المعنى الذي يأخذونه من تجاربهم واحلامهم وتاريخهم، دون ان يكتسب هذا المعنى بعداً نهائياً ومحدداً».

كتب (رولان بارت) هذا، في مقالة نشرت باللغة الفرنسية، عام ١٩٧٠ او نحوها، ونشرت باللغة الانجليزية عام ١٩٧٩ مع مجموعة مقالات. وهو كما لا يخفى، من كبار علماء (السيميو لوجية) ومن أحبار المذاهب الحديثة في النقد. ولد عام ١٩١٥ وتوفي عام ١٩٨٠. وكان الى حين وفاته أستاذاً في الـ (كوليج دي فرانس). يصفه البعض بانه (البنيوي الذي وضع علماً للأدب). وقد ناصر (الرواية الجديدة) ونادى بما سماه (موت المؤلف)، يقصد أنّ النص هو المعول، وان المؤلف لا أهمية له. ذلك لم يمنعه هو نفسه ان يكتب عن (راسين) و (بلزاك). وقد كان مثار اهتمام عظيم، بشخصه وبفكره، لا يقل عن الاهتمام الذي اثاره (جان بول سارتر) في الخمسينات والستينات. مساهماته الفكرية لا تنكر، واثره واضح في كثير مما يكتب من نقد ادبي هذه الايام، حتى في العالم العربي.

قارن بين وصفه لـ (برج ايفل) وبين هذا الوصف في قصة تسمى (دومة ود حامد) لشجرة دوم، في قرية في شمال السودان. والدوم كما تعلم مثل النخل، الاّ انه اكبر وأطول. وقد نشرت القصة باللغة العربية عام ١٩٦٠، ونشرت مترجمة باللغة الانجليزية عام ١٩٦١، او نحوها:.

«... ها هي ذي.. دومة ودْ حامد. انظر اليها شامخة برأسها الى السماء، انظر اليها ضاربة بعروقها في الارض، انظر الى جذعها المكتنز الممتلىء كقامة المرأة البدينة، والى الجريد في اعلاها كأنه عُرف المهر الجامحة. حين تميل الشمس وقت العصر، ترسل الدومة ظلها من هذه الربوة العالية عبر النهر، فيستظل به الجالس على الضفة الاخرى. وحين تصعد الشمس وقت الضحى، يمتد ظل الدومة فوق الارض المزروعة والبيوت حتى يصل الى المقبرة.

اتراها عقاباً اسطورياً باسطاً جناحيه على البلد بكل ما فيها...».

«... اغلب الظن انها نمت وحدها.. ولكن ما من احد يذكر انه راها على غير حالتها التي رأيتها عليها الآن. ابناؤنا فتحوا اعينهم فوجدوها تشرف على البلد. ونحن حين ترتد بنا ذكريات الطفولة الى الوراء، الى ذلك الحد الفاصل الذي لا نذكر بعده شيئا، نجد دومة عملاقة تقف على شط في عقولنا، كل ما بعده طلاسم، فكأنها الحد بين الليل والنهار. كأنها ذلك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر، ولكنه يسبق طلوع الفجر (...) كل جيل يجيء، يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده ونمت معه (...) وهكذا يا بني. ما من رجل او امرأة، طفل او شيخ، يحلم في ليله، الاّ ويرى دومة ود حامد، في موضع ما من حلمه...».

الفرق شاسع بالطبع، كالفارق بين قرية في شمال السودان وبين باريس، كالفارق بين شجرة دوم تطل على نهر النيل، وبرج من الحديد زنته سبعة الاف طن، يطل على نهر السين.

انما احسن من هذا وذاك، ما صنعه ابو عبادة البحتري منذ اكثر من الف عام. لا يغرنّك تذاكي (الحبر) الفرنسي، وتلاعبه بالكلمات والافكار كمثل قوله «البرج جماد يرى (بفتح الياء) ونظرة ترى (بضم التاء). انه فعل تام، لازم ومتعدي». تحت هذا اللعب الذكي فكرة بسيطة، هي ان برج ايفل (رمز).

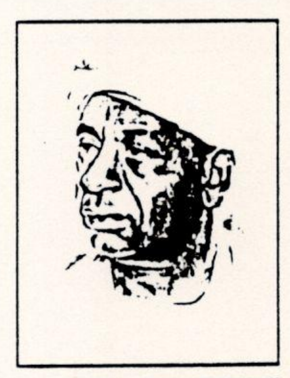
كذلك فعل البحتري في قصيدته السينية العصيمة عن (الايوان). الرمز عند العلاّمة الفرنسي (فارغ) يملؤه الرائي بالصور والاحاسيس والمعاني، كيف يشاء - وهذه فكرة اساس في مذهب الاستاذ (بارت). إما البحتري قد صنع رمزاً داخله مجموعة رموز، مثل كهف مسحور مليء بالفجاءات. لغز وراءه لغز. المتلقي لا يملأ بتخيلاته فراغا كاملاً، ولكنه يملأ فراغات بين دروب المعاني التي اختطها الشاعر سلفا وعن عمد.

انها قصة طويلة ليس هذا محلها، ولكن من يوازن لك في زحمة هذه السوق، بين ابي عبادة البحتري و(رولان بارت)؟ وهل كانت بغداد زمان البحتري الاّ كمثل باريس على عهد بارت؟ وهل (دومة ود حامد) الاّ (برج ود حامد)؟ وهل (برج ايفل) الاّ (دومة باريس)؟ ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٨٩



بقلم الطيب صالح

لن تجد مدينة تمشي في شوارعها ليلاً او نهاراً خيراً من باريس. مدينة كانها متحف مفتوح. طبقات من التاريخ تمتد اكثر من الفي عام، متراكمة بعضها فوق بعض. الوثنية والمسيحية. الملكية والثورة، عالم البحر الابيض الجنوبي والعالم الجرماني الشمالي. العالم الكلاسيكي القديم وعالم التكنولوجيا المفرط في الحداثة. المحافظة الصارمة والتحرر المنفلت من كل القيود. تخطر لك افكار متناقضة وانت تسير. ترى شيئا فتقول، باريس هي هذا، ثم تسير بضع خطوات، فاذا المدينة، وكانها تعبث بك، تقدم لك دليلاً أخر، مناقضا تماما لما رأيته من قبل.

هذه مدينة لم تُخلق لتنطوي على نفسها، ولكن لتنظر الى المفتونين بها وهم يمعنون النظر في مفاتنها. وكانما البارون (هوسمان) وضع ذلك في اعتباره. الشوارع واسعة، على جوانبها دائما طرقات للمشاة. وحتى الشوارع الضيقة، بها طرقات للمشاة. نادراً ما تمتد في خطوط مستقيمة من بدايتها الى نهايتها، ولكن فجاة تجد ميدانا اذ لم تتوقع ان تجد ميداناً، واذا شوارع اخرى تخرج في زوايا حادة ذات اليمين وذات اليسار.

روح (الامبراطور)، القائد العبقري، نابليون بونابارت، قد ترفرف على باريس. لكنك لا تحس بوجوده الاّ اذا زرت ضريحه في الـ (انفاليد). نابليون الذي ترك اثراً اوضح، واعطى المدينة هيئتها التي هي عليها الآن، هو ابن اخيه، نابليون الثالث. وهذا ايضا من بعض سخريات التاريخ الفرنسي، مثل شوارع باريس. ملوك آل بوربون ذهبوا ثم عادوا ثم ذهبوا. والثورة الفرنسية بقيت حين بدا انها لن تستطيع البقاء، وحين استتب لها الامر، وظن اهلها انهم قادرون عليها، فجاة رحلت. وكان في موتها حياتها، فان روحها تغلغلت في باريس وفي فرنسا وما وراءهما. وآل بونابارت اقاموا ثم رحلوا، ثم عادوا ثم ذهبوا.

اخيراً استقرت باريس، وفرنسا بطبيعة الحال، على وضع لا يحسنه الاّ الفرنسيون. جمهورية ثورية كانها ملكية. انظر الى متران ومن قبله الجنرال ديغول. ودولة كاثوليكية وعلمانية في الوقت نفسه. ومجتمع لعله اكثر مجتمع في اوروبا اشتراكية، وفي الوقت نفسه أكثر مجتمعات اوروبا رأسمالية.

لا يسعك الاّ ان تعجب بهذه المهارة في عمل توازن بين نقائض يصعب التوازن بينها. انه دليل على مرونة فكرية وصلابة، وثقة بالنفس نادرة المثال. ولعلّ في تاريخهم ما يعين على قدر من فهم ذلك. يقول المؤرخ الانجليزي الكبير (اتش. ايه.إل. فشر (H.A.L. Fisher ::

«عَهْدُ (كلوفيس) مؤسس الأسرة الميروفنجية، واول من انشا دولة فرنسا (٤٨١ - ٥١١)، تميز بثلاث انتصارات. الاول انتصاره على (سيافريس) ملك الرومان في (سواسون) عام ٤٨٦، والثاني على الالمان في الالزاس بعد عشر سنوات، والثالث على (الايك) ملك الـ (فزيقوث) بالقرب من (بواتيه) عام ٥٠٧. بعد انتصاره الاول، انتقل (كلوفيس) من (سواسون) الى باريس فجعلها عاصمته. وبعد انتصاره الثاني تحوّل من الوثنية الى الكاثوليكية. وبعد انتصاره الثالث، طرد اعداءه الـ (فزيقوث) الى اسبانيا، ودفع بحدود مملكته الى جبال البرنيس. وسواء كان تحوُل (كلوفيس) الى المسيحية بسبب تاثير زوجته (كلوتلدا) الاميرة البيرقندية او لانه آمن ان المسيح هو الذي نصره على اعدائه الالمان، او بسبب حسابات سياسية ذكية، فان الأمر البالغ الاهمية هو ان قائد الفرنجه السالانيين، اكبر القبائل الجرمانية، اصبح في عام ٤٩٦م حامي العقيدة الكاثوليكية...».

«التحالف الطويل بين الملكية الفرنسية وكنيسة روما، الذي انتهى عام ١٨٣٠، بفرار آخر ملوك البوربون من باريس امام غضب الجماهير والدهماء، تعمّد بالدم في ساحة القتال في الالزاس، قبل الف وثلاثمائة عام. كانت نقطة تحول في تاريخ الـ (غال) بل وتاريخ اوروبا، حين اصبحت الكنيسة الكاثوليكية، سيدة بلا منازع، من سواحل الاطلسي حتى نهر الراين، بعد ان اذعن ملك (همجي) لسلطان الكنيسة ورضي ان يحكم بواسطة الاساقفة حسب النظم الادارية التي اعطتها روما في عهودها الاخيرة الى فرنسا في القرون الوسطى. قائد محارب، وضع نفسه على رأس كنيسة مقاتلة».

جاءت الثورة الفرنسية، متاثرة بافكار (روسو) و(فولتير) والافكار العقلانية من الـ (رنيسانس) وارادت ان تقضي على العلاقة بين الكنيسة والدولة قضاء مُبرماً، وذهبت في ذلك مذاهب بعيدة في التطرف. لكنها لم تفلح، وبقيت فرنسا الى اليوم، دولة كاثوليكية وثورية في الوقت نفسه.

وها هو ذا الدليل، ماثل امامك، قف على جسر (بونت نف . Pont Neuf) عند رأس اصغر الجزيرتين. انه أقدم جسر في باريس. افتتح عام ١٦٠٤ في عهد الملك هنري الرابع. انظر ناحية الشرق. بل انظر في اي اتجاه تشاء، فسوف يرتد بصرك مكرها الى هذا الهيكل الضخم الذي يجثم كالجبل على وجه الارض، كاتدرائية (نوتردام دي باري). بنوها على الطراز القوطي الصرف، متعمدين ان يملأ البناء اكبر حيز من الفراغ، مهيمناً على الافق، ساداً منافذ الخيال.

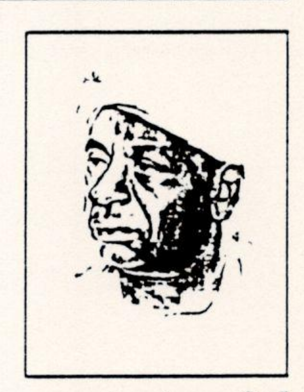
بعد ذلك تعلّموا من المعمار الاسلامي في الاندلس ان يوسعوا القوس القوطي، ويبسطوا الاعمدة، ويحاكوا رشاقة المآذن في الابراج، ويقتصدوا في الزخرفة، ويخففوا من كتل الصخر التي تجعل العمارة عبئاً ثقيلاً على جسم الارض.

كان المستشرق الفرنسي (ماسينيون) رجلا منصفاً. قال ان المسلمين صنعوا في الاندلس، عمارة متينة راسخة في الارض، وفي الوقت نفسه تكاد تطير في الهواء لخفتها ورشاقتها ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٩٠



بقلم الطيب صالح

يُعدّ مارسيل بروست بحق (١٨٧١ . ١٩٢٢) واحدا من عظماء كُتاب الرواية في القرن العشرين، وروايته الضخمة (البحث عن الزمن الضائع) من العلامات المهمة في تاريخ الادب. كان يعشق مدينة باريس، لا يفارقها الا مضطرا ولفترات قصيرة، يتحرك بين دور اصدقائه من الطبقة الارستقراطية التي كان ماخوذا بها. وقد كتب مجموعة من المقالات، نشرها باسم مستعار في صحيفة الـ Figaro. وهو هنا، في احدى هذه المقالات يصف (صالون) الاميرة (متلدا) ابنة اخي نابليون بونابارت:.

«كان الامير لوي نابليون يقول ذات يوم لبعض اصدقائه في صالون الاميرة (متلدا) انه يحب ان يكون ضابطا في الجيش. صاحت عمته الاميرة، وقد ازعجها ان ابن اخيها المفضل قد يبعد عنها:.

«يا لك من ولد احمق. كون عائلتك انجبت بمحض الصدفة رجلا عسكريا، هل هذا مبرر لك ان تدخل الجيش؟».

لا يمكن ان يتصور الانسان استخفافا بالمظاهر والرتب، اكثر من قولها (رجلا عسكريا) وهي تشير الى نابليون بونابارت.

والحق، ان البساطة، كانت ابرز صفة في الاميرة (متلدا). كانت تتحدث عن اي شيء يتعلق بالنسب والحسب والمنصب باستخفاف واضح. سمعتها تقول مرة لسيدة من برجوازيي الـ (فوبور سان جرمان):.

«الثورة الفرنسية! لولا الثورة الفرنسية لكنت انا اليوم لا اكثر من بائعة برتقال في شوارع اجاكيو».

هذا التواضع مع الكبرياء، هذه الصراحة التي تصل احيانا الى درجة السوقية، يعطي حديث الاميرة طعما حارقا مميزا. انني لن انسى ابدا تلك الحدة التي اجابت بها ذات يوم على سيدة سألتها باحترام مبالغ فيه «هل تتفضلين يا صاحبة السمو ان توضحي لي ان كانت الاميرات امثال سموك، عندهن الاحاسيس نفسها التي نحس بها نحن المسكينات بنات الطبقة البرجوازية»، اجابتها الاميرة باحتقار «هذا السؤال لا يوجه لي انا. انني لست من سلالة (الحق الالهي) (١)».

هذه الخشونة الرجالية لدى الاميرة، يخفف من حدتها، رقة عظيمة في العينين وعذوبة في الابتسامة، وحفاوة لا مثيل لدفئها.

لكن لماذا احاول ان اصف لك سحر تلك الحفاوة. دعني اجعلك تذوقها بان اصف لك كيف تستقبل الاميرة ضيوفها. تعال معي الى (رو دي بري)، واسرع، فهنالك تبدأ السهرة في وقت مبكر.

انتهى العشاء باكرا ربما ليس بمثل بكور تلك لايام، حين جاء (الفرد دي موسيه) (٢) للعشاء للمرة الاولى والاخيرة. وصل متاخرا جدا، فوجد ان العشاء قد انتهى. وكان لا يستطيع الكلام من شدة السكر. جلس صامتا لم يفتح فمه بكلمة. وحين قاموا من المائدة، خرج...

بعد العشاء، تدخل الاميرة غرفة الجلوس الصغيرة، وتجلس في كرسي كبير، يكون على يمينك حين تدخل من الباب الرئيسي، ويكون على يسارك اذا دخلت من القاعة الكبيرة.

لم يصل كل الضيوف بعد، فقط النخبة الذين دعتهم الاميرة للعشاء.. بجانبها بعض الذين تجدهم غالبا على مائدتها. الكونتيسة (بندتي). جميلة جدا ولطيفة جدا. مدام (راسبوني)، مدام (اسبناس) وصيفة الاميرة. ثم السيدة التي يحبها الجميع، مدام (ڤاندراكس)، زوجة محرر الـ (رفيو دي باري).

تجد ايضا على مائدة الاميرة اغلب الايام رجلا صغير الحجم، ورغم انه طاعن في السن فهو في مثل حيوية الشباب. خداه متوردان وناعمان كخدي طفل.. شعره قصير، حسن الهندام، شديد التهذيب والذكاء، هذا هو الكونت (بندتي) والد الكونت الحالي، وقد كان سفيرا لفرنسا في برلين..

يفتح باب الصالون. تدخل الاميرة (جان بونابارت) يتبعها زوجها الماركيس (دي فيلنوفا). يقف الجميع. حين تصل الى نصف المسافة بينها وبين الاميرة (متلدا) تقف الاميرة وترحب بها وبدوقة (دي تريفيس) التي دخلت لتوها مع دوقة (دالبوفيرا).

يفتح الباب، انه دوق (ڤرامون) وزوجته. ثم تدخل الاسرة البونابارتية رقم واحد، العائلة المثقلة بالالقاب الضخمة، عائلة شارع (ريفولي)...

الاميرة (متلدا) لم تعد جالسة. انها تتحرك بين الضيوف، ترحب بكل قادم جديد، تتبسط معهم في الحديث، تسحر كل واحد منهم بكلام يجعله يظن انه اهم شخص بين الحاضرين.

انني استعمل كلمة (صالون) بالمعنى المجرد، اذ ان الصالون الفعلي كان في شارع (رو دي كورسيل) قبل ان ينتقل الى (رو دي برى). حين يفكر الانسان ان ذلك (الصالون) كان ملتقى للحياة الادبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ان (مرمي . Merimee (٣)) و (فلوبير Flaubert) (٤) و (ڤنكور Goncourt) (٥) و(سانت . بوف Sainte - boeuve) . ان هؤلاء كانوا يجيئون كل يوم بحرية مطلقة دون اية قيود، وانهم كانوا يجدون الاميرة دائما مستعدة لاستقبالهم، ومائدتها دائما عامرة بالطعام.

كانت تعاملهم بصراحة وعفوية، وهم ايضا، لا يخفون عنها شيئا من اسرارهم. وكانت تسعى دون توقف الى مساعدتهم واسداء خدمات اليهم ـ ليس فقط المساعدات اليومية الصغيرة، ولكن ايضا الخدمات الجليلة المدهشة. كانت تحميهم من القهر والاضطهاد وتزيل الكراهية ضدهم. تسهل اعمالهم. تعمل على نجاحهم وذيوع شهرتهم. تساعدهم ماديا وتصلح احوال معيشتهم. تغير مصائرهم.

كان (سانت . بوف) يقول ان دار الاميرة (متلدا) هي بمثابة (وزارة للعطف).

حين يفكر المرء في هذا، لا يسعه الا ان يؤمن ان بعض اصحاب النفوذ الدنيوي، قادرون فعلا، ورغم كل شيء، على التاثير في مجرى تاريخ الادب. وقليل هم الذين استعملوا نفوذهم وسلطانهم في خدمة الادب، كما فعلت الاميرة (متلدا بونابارت).

قال (سانت . بوف) ان ذوق الاميرة (كلاسيكي) مثل كل الامراء، انما المرء يتساءل، هل كان (سانت . بوف) محقا؟ هل كان عملا (كلاسيكيا) ان تصطفي الاميرة (فلوبير) وان تتحمس لـ (ڤنكور) في ذلك الوقت، حين كانت متقدمة على ذوق عصرها، بل على ذوق (سانت . بوف) نفسه؟ لكن لعل الافضل ان ننظر الى حماستها لهما، على انه وفاء صديق يحسن اختيار الاصدقاء، اكثر من كونه بعد نظر ناقد، عرف عبقرية الاول وموهبة الثاني ■

---

(١) تشير الى اسرة (آل بوربون) الذين كانوا يزعمون، ككل ملوك اوروبا، انهم يحكمون بمقتضى (حق الهي)

(٢) الفرد دي موسيه (١٨١٠ . ١٨٥٧) شاعر وكاتب مسرحي، احد عشاق الكاتبة (جورج صاند)

(٣) (مرمي) (١٨٠٣ . ١٨٧٠) . كاتب رومنسي اشهر قصصه (كارمن) التي اصبحت اوبرا مشهورة

(٤) فلوبير . (١٨٢١ . ١٨٨٠) روائي وكاتب مسرحي صاحب رواية (مدام بوفاري) احدى العلامات في تاريخ الرواية

(٥) ڤنكور، ادموند . (١٨٣٢ . ١٨٩٦) الاخ الاكبر من الاخوين ڤنكور . اشتهرا بالمذكرات وبالجائزة الادبية المعروفة التي تحمل اسمهما

(التحديث مقبة)

نحو أفق بعيد

١٩١



بقلم الطيب صالح

يواصل الكاتب الفرنسي الكبير (مارسيل بروست) حديثه عن الاميرة (متلدا بونابارت) فيقول:

«مهما يكن، فلا شك ان اسم الاميرة (متلدا) سوف يبقى محفورا على الألواح الذهبية للأدب الفرنسي. لقد خلد ذكرها مريمي -Mer imee) في مجلد كامل من رسائله . (رسائل الى الاميرة). كذلك فعل (فلوبير . Flaubert) في عدد من رسائله، واشاد بها (سانت . بوف Sainte - Boeuve) في (اثنينياته) (١). وجاء ذكرها في صفحات بعد صفحات من (يوميات) الاخوين (قونكور . Goncourt). كل هؤلاء الادباء الأفذاذ، اشادوا بالاميرة، ورسموا لها صورة جذابة تبعث على الاعجاب.

كان من اصدقائها المعجبين بها ايضا (تين . Taine) (٢) و(رينان . Renan) (٣) وقد ساءت علاقتها بـ (تين) في سنواته الاخيرة، بسبب نشر كتابه (نابليون بونابارت). ارسل لها الكتاب وطلب رأيها فيه. قرأت تلك الصفحات الفظيعة التي يظهر فيها نابليون كانه قاطع طريق. في اليوم التالي ارسلت بطاقتها الى (تين) أو بالاحرى تركت بطاقتها عند زوجته وعليها الاحرف (P.P.C . سوف اكون في اجازة). وهذا معناه حسب العرف (مع السلامة. لا اريد ان اراك بعد اليوم).

قطعت الاميرة صلتها بـ (تين) و(سانت . بوف) ولكنها اصطلحت مع اكاديمي أخر هو الدوق (د أومال . D'Aumale) (٤) حين عادت الى فرنسا عام ١٨٤١، وجدت ترحيبا ومعاملة كريمة من العائلة المالكة. تركت في نفسها شعورا بالجميل لم تنسه لهم ابدا، حتى انها لم تكن تسمح لأحد ان يذكر في مجلسها اسرة (اورليان . Orleans) باي سوء. وقد بذلت جهدا كبيرا في حمايتهم، ولكن حكومة (الامبراطورية) لم تكن كريمة معهم. فصادرت ممتلكاتهم رغم جهود الاميرة. وبعد الخطاب الذي القاه الامير نابليون، وأساء فيه للاسرة الملكية، بعث اليها دوق (اومال)، تلك الرسالة الشهيرة، الرسالة العجيبة الرائعة.

بدا كما لو انهما لن يلتقيا ابدا بعد ذلك وبالفعل عاشا بعيدا احدهما عن الاخر سنوات طويلة. ولكن الزمن محا المرارة، ولم يبق الا عرفان الجميل والاعجاب المتبادل. كانا في الواقع متشابهين في خلقهما. هذان الاميران (غير الرسميين). لم يكن الدوق متعصبا لعائلته الملكية، ولم تكن الاميرة متعصبة لاسرتها البونابارتية. كان اهم من ذلك عندهما، ان لهما اصدقاء مشتركين، هم قادة الفكر في عصرهم.

ظل هؤلاء الاصدقاء لسنوات يسعون لاصلاح ذات بينهما، ينقلون للاميرة الاشياء الجميلة التي يقولها الدوق عنها، وكذلك يفعلون مع الدوق. واخيرا، تم اللقاء ذات يوم في مرسم الفنان (بونا . Bonnant) (٥). تم ذلك بتدبير من (الكساندر دوما الابن). لم يكونا قد التقيا منذ اربعين عاما. كانا يومئذ شابين، وجميلين. مايزالان جميلين الان، ولكن الشباب قد مضى. وقفا بعيدا عن الضوء في البداية، في الظل، كل منهما يخشى ان يرى الأخر ماذا فعلت به الايام. ثم زال الخجل، وعاد بينهما الود القديم الذي لم ينقطع الى ان مات الدوق.

كان باستطاعة الاميرة (متلدا) لو أرادات، ان تتزوج ابن عمها الامبراطور نابليون، او قريبها ابن قيصر روسيا، ولكن قدر لها ان تتزوج وهي في العشرين من عمرها الامير الروسي (دفدوف). وحين ذهبت الى روسيا، قال لها القيصر الذي كان يتمنى لو تزوجت ابنه (لن اغفر لك ابدا زواجك من دفدوف). كان يمقت دفدوف. وحين احس انها ليست سعيدة في زواجها قال لها (اذا احتجت الي فانا رهن اشارتك في اي وقت). وكان كما وعد. لم تنس له ذلك ابدا.

حين عادت الى فرنسا بصفتها ابنة عم الامبراطور، كان أول شيء فعلته انها سارعت بالكتابة الى القيصر نكولاس. ارسل لها ردا بتاريخ ١٠ يناير ١٨٥٣ قال فيه (سعدت سعادة بالغة يا عزيزتي برسالتك التي تضمنت مشاعر نبيلة ادخلت الغبطة على قلبي. ان فرنسا قد استردتك اليها كما تقولين. اذا تمتعي بكل ما تقدمه اليك من مسرات، وليس احد أحق منك بالسرور. لقد اسعدني انني استطعت ان اقدم لك بعض العون خلال اقامتك معنا).

ثم شبت حرب القرم، ووجدت الاميرة نفسها ممزقة بين ولائها لفرنسا وحبها واحساسها بالجميل لقيصر روسيا، فكتبت له رسالة مؤثرة، ولكنها رسالة ليس فيها شيء يمكن ان يعترض عليه أشد الفرنسيين تطرفا. وقد رد عليها القيصر بتاريخ ٩ فبراير عام ١٨٥٤:

«اشكرك من اعماق قلبي يا عزيزتي، على ما ورد في رسالتك من عواطف جميلة لشخصي. ان قلبا مثل قلبك، لن يتحول ابدا مع تقلبات السياسة. كنت متاكدا من ذلك. لقد احسست بسعادة خاصة اذ تصلني هذه الكلمات، من قطر اصبح فيه اسم روسيا وقيصرها يثيران اشد الكراهية. وانا حزين مثلك لقطع العلاقات بين روسيا وفرنسا، رغم كل جهودي لايجاد طريق يؤدي الى اتفاق ودي. حين عادت الامبراطورية الى فرنسا، راودني الامل الا تؤدي عودة ذلك النظام الى قيام تنافس ينتهي بصراع مسلح بين الدولتين.

أسال الله الا تهب العاصفة التي تبدو نذرها في الافق. هل كتب على اوروبا، بعد فترة أربعين عاما من الهدوء، ان تصبح مرة اخرى مسرحا لماس دموية؟ ماذا تكون النهاية اذا حدث هذا؟ لا يستطيع احد ان يتنبأ. ولكن مهما حدث يا عزيزتي، فانني أؤكد لك، أن الصداقة التي عاهدتك عليها، لن تتزعزع ابدا».

هاتان الرسالتان قد نشرتا من قبل. اما الشيء الجديد، الشيء الذي ليس معروفا، هو ما سوف أذكره الان. ان الصداقة التي تعاهد عليها القيصر نكولاس مع الاميرة (متلدا) بقيت تقليدا راسخا لم ينقطع حتى بعد ان اصبح نكولاس الثاني قيصرا لروسيا. (٧)

وكما هو معروف، فأن من المراسم التي تضمنها برنامج الاحتفالات بزيارة القيصر الشاب الى باريس - وكانت تلك أول مرة يزور فيها باريس - زيارة لضريح الامبراطور نابليون في الـ (انفاليد). أرسلت الحكومة الفرنسية دعوة الى الاميرة (متلدا) وخصصت لها مكانا بارزا بين كبار المدعوين على المنصة. وبقدر ما كانت الاميرة تستخف بالمظاهر والمناصب كما رأينا، إلا ان الامر كان يختلف، حين تحس باي استخفاف بشرف العائلة البونابارتية نفسها. ردت قائلة انها لا تحتاج الى بطاقة دعوة لتزور ضريح عمها في الـ (انفاليد) واذ انها تملك مفاتيح خاصة، فبوسعها ان تذهب في أي وقت تشاء. وقالت ان الحكومة اذا وافقت على ذهابها بتلك الطريقة، فسوف تذهب، والا فانها ترفض الدعوة.

كان وضعا محرجا للحكومة، لأن معنى ذلك ان تدخل الاميرة الى مرقد الامبراطور، في الحجرة الداخلية من الضريح، قبل ان يدخله القيصر. وفي صباح يوم الزيارة اسرع مندوب عن الحكومة الى دارها واخبرها انها تستطيع ان تدخل ضريح عمها الامبراطور مستعملة مفاتيحها الخاصة.

أستقبلت بكل مراسم الحفاوه التي تليق بمقامها، ثم دخلت هي ووصيفتها وحدهما الى مرقد الامبراطور، حيث لا يسمح لاحد بالدخول. بعد قليل وصل القيصر، فحياها وتحدث معها بكل لطف واحترام. وكان يرافقه مسيو (فيلكس فور) (٨) رئيس الجمهورية، فقدم نفسه اليها باسلوبه المهذب الذي عرف عنه طول حياته؛ وقبل يدها بتلك الطريقة الفريدة التي تجمع بين اعمق المشاعر الجمهورية، والولاء لأمجاد التاريخ الفرنسي ■

---

١ - سانت - بوف (١٨٠٤ - ١٨٦٩). كان اهم ناقد في عصره. كان ينشر مقالات، تصدر ايام الاثنين، سميت (الاثنينيات)

٢ - تين - (١٨٢٨ - ١٨٩٢) ناقد وفيلسوف ومؤرخ ادبي. كان له تاثير كبير على الاتجاهات الفكرية في القرن التاسع عشر

٣ - رينان - (١٨٢٣ - ١١٨٩٢)، مؤرخ وناقد، تخصص في اللغة العبرية والدراسات اللاهوتية. عمل استاذا للغة العبرية في الـ (كوليج دا فرانس) كتابه (حياة المسيح) الذي انكر فيه الوهية المسيح أحدث روبعة في زمانه

٤ - هنري يوجين فيليب د أورليان، دوق اومال، الابن الرابع للوي فيليب. عسكري ومؤرخ ومهتم بالفنون والثقافة. كان حاكما للجزائر عام ١٨٤٧ وعلى يديه استسلم الثائر الجزائري الأمير عبد القادر. ويذكر ان عائلة الامير عبد القادر لقيت منه معاملة كريمة

٥ - بونا - (Bonnant) (١٨٣٣ - ١٩٢٢) الرسام المفضل للطبقات العليا في الجمهورية الثالثة، واشتهر خاصة بلوحات نساء تلك الطبقة

٦ - نكولاس الاول - حكم روسيا من ١٨٢٥ الى ١٨٥٥

٧ - نكولاس الثاني، اخر قياصرة روسيا. حكم من ١٨٩٤ الى ١٩١٧ حين قامت الثورة

٨ - فيلكس فور انتخب رئيسا في عهد الجمهورية الثالثة في يناير عام ١٨٩٥ بتأييد من انصار الملكية والجمهوريين المعتدلين في عهده حدثت المواجهة بين بريطانيا وفرنسا في «فشودة» في جنوب السودان

(التحديث مقبلة)

نحو أفق بعيد

١٩٢



بقلم الطيب صالح

يوميات الاخوين (قنكور)، من اشهر المذكرات في تاريخ الادب، ليس في فرنسا فقط ولكن في العالم. كانا يكتبانها معا، كما كتبا كل اعمالهما الادبية. تبدأ يوم ٢ ديسمبر عام ١٨٥١، وهو اليوم الذي قام فيه (لوي نابليون بونابارت) - الذي عرف فيما بعد بنابليون الثالث، وكان الى ذلك الوقت، رئيسا منتخبا، بانقلاب، حل بموجبه البرلمان، وحظر الاحزاب، واعتقل زعماءها، واعلن نفسه امبراطورا لفرنسا. وكما تقدم، فقد كان الاخوان (قنكور) وخاصة اكبرهما (ادموند)، من اصدقاء الاميرة (متلدا) ابنة اخي نابليون الاول، وابنة عم نابليون الثالث.

وفيما يلي مقتطفات من اليوميات، يصف فيها الاخوان (قنكور) بعض الامسيات التي قضياها في دار الاميرة (متلدا):.

الاربعاء ١٩ اغسطس ١٨٦٣.

انتقل الحديث في دار الاميرة الى (مدام صاند) (١). تحدثنا عن علاقاتها الغرامية، واجمع رأينا على انها مسترجلة، ليس فيها رقة انثوية. وفي طبعها قسوة وبرود، يجعلانها تكتب عن عشاقها، اثناء علاقتها بهم. وروى أحد، ان (مرمي - Mérimée) كان معها ذات يوم، فرأى ورقة على المنضدة وحين اخذ يقرؤها، اختطفتها من يده بعنف. كانت تتحدث عنه في الورقة.

كانت احيانا ترتدي زي الرجال، خاصة خلال علاقتها بـ (صاندو - San-deau). كانا يترددان على مطعم صغير يملكه رجل يسمى (بنسون). كان يقول:.

«العجيب انني حين اراها في ثياب رجل اقول لها (مدام)، وحين تكون في ثياب امرأة، اقول لها (مسيو)».

حكى لنا (سانت - بوف)، انه رآها في زي رجل، مرة واحدة. ذهب يزور (بولوز) ايام عزوبيته. اول ما دخل، قفز شاب من (الكنبه) وحياه قائلا (هلو. هل تأخذني الى الاب (لامني)(٢) لم يكن ذلك الشاب غير مدام صاند، وكانت علاقتها قد ساءت بـ (موسيه)، اثر عودتها من (فنيسيا). قال (سانت - بوف): تصوروا. كان (لامني) ما يزال قسيسا، وكان الفصل شتاء، وكان (لامني) يعيش في اخر الدنيا، في (برتاني).

انتهى الامر بـ (سانت - بوف) انه بدل ان يأخذها الى (لامني) اخذها الى (موسيه). عند الباب قال لها (هل ادخل معك؟) فسلت سيفها في وجهه - كانت تحمل سيفا - وقالت له (لا. مع السلامة).

يرى المرء، في كل هذه القصص التي يحكيها (سانت - بوف) نوع الدور الذي كان يقوم به تلك الايام. دور المتسقط لاخبار الفضائح، المصلح بين العشاق، الذي تفضي اليه النساء باسرارهن. ولا شك عندي، ان حب الاستطلاع، كان يبلغ به ان يختبيء في غرف النوم، يسجل ما يجري، ليضمنه مذكراته.

٦ يناير ١٨٦٤.

حملتنا الى الاميرة الالبوم الياباني الذي طلبته. حدثتنا عن لقاء (سانت - بوف) للامبراطور في (كمبيني) حيث لم يحسن التصرف.

«تصوروا! تركنا وخرج لامور غرامية. كل الحاشية الامبراطورية لاحظت ذلك».

«هل ترك اثرا حسنا لدى الامبراطور؟»

«ابدا. لم يستطع احد ان يفهم ما يقول. الامبراطور يفهم فقط الاشياء العملية. لو أن (سانت - بوف) طلب منه شيئا محددا. منصبا مثلا. ولكن يبدو انه لا يحب ان يتحمل اية مسؤولية. يريد ان يكون طليقا لينتقد من يشاء وما يشاء بحرية».

ثم اخذت تستدرجنا لنحدثها عن ذوقه في النساء، وكانت تتظاهر انها لا تصدق ما نقصه لها، لنعطيها المزيد. تقول ضاحكة:.

«لو كان شابا! مثل هذه الاعمال، تكون مسلية في الشباب. ولكن هو، وكرشه تلك؟»

الاربعاء ١ فبراير ١٨٦٥.

في دار الاميرة، ضمت المائدة هذا المساء عددا من رجال الادب، منهم (دوما) (٣) الأب. ضخم الجسم، عملاق، شعره أكرت مثل شعر الزنوج، وعيناه صغيرتان كعيني فرس البحر، يقظ ماكر. يرى كل شيء حتى وهو مغمض العينين. هيئته تذكر بعامل في سرك، او حمال في قصص الف ليلة. انه الصنايعي المصحصح، عداء المسافات الطويلة، رياضي القصة المسلسلة. لا يشرب. لا النبيذ، ولا حتى القهوة. ولا يدخن.

يتحدث بطلاقة، ولكن دون اي بريق او جاذبية. كل ما يفعله انه ينتشل المعلومات من اعماق ذاكرته الواسعة ويلقيها بصوت اجش. يتحدث عن نفسه اغلب الوقت، بغرور صبياني لا يخلو من ظرف.

ايضا (لسبس) (٤) شاق القنوات، وسيم، عيناه داكنتان تحت شعر مبيض. كان على مائدة الاميرة هذا المساء، على اثر عودته من مصر. هذا الرجل الحديدي اعترف لنا، انه احجم عن القيام بعدة اعمال مهمة في حياته، بسبب تنبؤات عرافة في شارع (تورنون).

الأربعاء ٢٦ ابريل ١٨٦٥.

استقبلتنا الاميرة هذا المساء ببرود شديد لا يتقنه احد مثلها. تجاهلتنا تماما ولم تتفضل علينا باي نظرة. وكانت تخالفنا في كل ما نقول. ركزت اهتمامها فقط على (فلوبير) الذي اجلسته بجوارها. اخبرني (فلوبير) فيما بعد ونحن خارجان، انها جعلته يتمشى معها في الحديقة مرتين.

من حسن الحظ ان الامراء، والاميرات خاصة، تنتابهم هذه الحالات الغريبة من النفور وتقلبات المزاج، والا لاصبح الانسان اسيرا لحبهم بشكل مطلق ■

---

١ - جورج صاند، الاسم الادبي المستعار للكاتبة (اورور دوبان. البارونة دو دفان - ١٨٠٤ - ١٨٧٦) من عائلة إرستقراطية. تربت في دير، ثم تأثرت بافكار روسو وبايرون وشاتو بريان، وتركت زوجها البارون دودفان، بعد ان ولدت له طفلين. وعاشت حياة بوهيمية في باريس متفرغة للادب. اتصلت اولا بالكاتب (جول صاندو) وبدأت تكتب باسم (جول صاند) ثم اخذت اسم (جورج صاند) الذي عرفت به. كانت كاتبة ناجحة في زمانها. عشقها كثيرون. منهم (الفرد دي موسيه) والموسيقي (شوبان). نشرت رسائلها الكاملة عام ١٩٦٤، وهي ذات اهمية ادبية عظيمة.

٢ - الاب روبير دي لامني De Lamennais - ١٧٨٢ - ١٨٥٤. كاتب ديني خرج على افكار الكنيسة، ووجدت افكاره ترحيبا كبيرا من ادباء امثال (هوقو) و(الامارتين) و(سانت - بوف)، وأحدث اثرا عميقا لدى (جورج صاند).

٣ - الكساندر دوما الاب - (الاسكندر دوماس) - ١٨٠٢ - ١٨٧٠. من عائلة نبيلة وكانت جدته زنجية - كان كاتبا ناجحا غزير الانتاج، بلغت اعماله ١٠٣ مجلدات. من رواياته المعروفة (الكونت دي مونت كرستو) و(الفرسان الثلاثة).

٤ - فيردناند دي لسبس (١٨٠٥ - ١٨٩٤) دبلوماسي واداري ومغامر ارتبط اسمه بقناة السويس وقناة بنما.

(الحديث بقية)

مقالات الأستاذ الراحل (الطيب صالح) ..

والتي نشرت بمجلة (المجلة .. السعودية) ..

تحت عنوان (نحو أفق بعيد) ..

نحو أفق بعيد

-١-

يعجبني من المؤرخين الانجليز المعاصرين ، اي. جي. تيلور ، او الن تيلور ، كما يسميه انصاره ، فهو رجل له معجبون كثيرون وخصوم كثيرون . ذلك ، لانه ينظر الى التاريخ بجراة وطرافة وغير قليل من السخرية التي تقترب من روح شكسبير التي ترثي لتفاهة مسعى الانسان . وهو يشن الحروب ويديل الدول ويرتكب الحماقات . في سمت هذا المؤرخ العتيد ، تبرم كائنا بنفسه وبالناس، وضيق صدر . ربما لكثرة ما يعلم من قصور طموحات البشر عبر التاريخ . هذه المعرفة تعطي بعض المؤرخين سماحة ورحابة صدر . لكن ليس الن تيلور . تقرا كتابه . فاذا فرغت منه فكانما قرات رواية عظيمة لروائي عظيم . حياته قلقة . فقد تزوج وطلق . وتزوج وطلق ، وتغير موقفه في السياسة من اقصى اليسار الى لا قرار . كان متحمسا لحزب العمال ، ثم فتر حماسه . انه الان في نحو الثمانين ، عليل ، يقف على حافة القبر. اسال الله ان يشفيه ، فهو من هؤلاء الانجليز الذين يجعلونك تغفر لقومهم كثيرا من سيئاتهم .

قرات كتابه «جذور نشوب الحرب العالمية الثانية» ، وانا اصارع الموت في مستشفى الدكتور بدر في بيروت . عام ستين ، او تراه واحدا وستين ؟ في ذلك العام قتل داج همرشلد في الكنجو ، ووقعت اتفاقية ايفيان التي ادت الى استقلال الجزائر . قضيت ليالي وانا اقاوم مع الجزائريين ، ولو مت حينئذ ، لعلني كنت اموت شهيدا بمعنى من المعاني . ثم بدا كما لو ان حبل العمر لم ينقطع بعد . فاخذت اطفو قليلا قليلا ، يساعدني على التشبث بالحياة هذا الكتاب الجميل .

قامت زوبعة اول ما صدر الكتاب ، أخريات الخمسينات . لان الن تيلور قال، ان ادولف هتلر لم يكن «عبقريا شيطانا» كما يزعم ، ولكنه كان رجلا عاديا ، لا يملك اية مؤهلات خارقة ، وانه لم يكن يعمل وفق «خطة جهنمية» ولكنه كان «يتخبط» كبقية الزعماء والسياسيين وانه نجح لان الانجليز والفرنسيين كانوا اكثر تخبطا منه . هذا الرأي اغضب اليهود وكثيرا من الاوروبيين . اما الاوروبيون فلانهم لم يجدوا سببا منطقيا لما حدث ، فخلقوا اسطورة «ادولف هتلر العبقري الشيطان» . كانت المانيا اكثر الدول الاوروبية تحضرا ، وكان اليهود في المانيا ، من اكثر الجاليات اليهودية في اوروبا رخاء واستقرارا . لماذا اذا حدث ما حدث ؟ لماذا اقام هذا الشعب المتحضر معسكرات الاعتقال ، التي زج فيها بالآدميين كما تزج البهائم ؟ لماذا اقيمت افران الغاز التي مات فيها فيما يقدر ستة ملايين انسان ؟ واذا كانت المانيا قد فعلت هذا ، فهل كان محتملا ان تفعله فرنسا او بريطانيا ؟ هل السبب الحقيقي نزعة همجية قابعة في اعماق اللاوعي الاوروبي عموما ؟ ابدا . السبب هو رجل مجنون يدعى ادولف هتلر !



يكتبها : الطيب صالح

واما اليهود، فانهم بطريقتهم «المثلوجية» في النظر الى تاريخهم ، اعطوا مأساتهم ، وهي مأساة لا شك فيها ، ابعادا ملحمية كما في الاساطير القديمة ، فجاء الن تيلور ، ونظر اليها كما ينظر الى مصائر البشر كافة عبر التاريخ . هذا، ولان اليهود لم يكونوا بمعزل تماما عما حدث لهم . في تلك الاونة ايضا ، صدر كتاب للفيلسوفة اليهودية الشهيرة حنة ارندت اسمه «ايخمان في القدس» قالت فيه ان اليهود في المانيا كانوا يحفرون قبورهم بايديهم ، ثم يدخلون فيها فيقتلون رميا بالرصاص . وكانت الكاتبة تتساءل «ماداموا قد ايقنوا بالموت ، فلماذا لم يفعلوا شيئا ؟ لماذا لم يثوروا ؟ لماذا لم يقاوموا ؟» والكتاب كله دراسة رائعة في ظاهرة الشر ، وانه ليس امرا خارقا ، ولكنه امر عادي، يقوم به اناس عاديون . لقد اختطف الاسرائيليون ايخمان ، وكان من كبار النازيين الذين تسببوا في مصرع الاف الناس، وجاءوا به في ضوضاء اعلامية لمحاكمته . على انه وحش مصاص دماء مثل دراكيولا . ولما اظهروه للناس في قفصه الزجاجي في المحكمة ، اسقط في ايديهم . ظهر للناس رجلا عاديا ، كانه موظف في بنك او مسؤول صغير في دائرة حكومية . وكان دفاعه انه كان ينفذ اوامر رؤسائه ، تماما كما يقول الموظفون في دوائر الحكومة . واتضح في المحاكمة انه كان منظما جدا ، دقيقا في حساباته ، مثل موظفي البنوك . كذا الف انسان احرقوا في داكاو ، وكذا الف انسان احرقوا في اوشفتز . كشوفات مفصلة بوسائل النقل ، وارقامها واوقات مغادرتها ووصولها . ووسائل القتل وانواعها واسماء القائمين عليها . رجل عادي، يؤدي وظيفة عادية ياخذ عليها مرتبا . له بيت وزوجة واطفال . يحنو على القطة ، ويزرع الورود في الحديقة . هذا ايضا كتاب عظيم يعلق بالذاكرة ، يقترب فيه التاريخ من الادب ، في ملاحقته لنوازع الخير والشر الكامنة في تلافيف روح الانسان . وما اصدق قول ابي العتاهية :

لدواعي الخير والشر دنو ونزوح

•••

اذكر ندوة تلفزيونية تلك الايام ، كان الن تيلور يرد فيها عن اسئلة حول كتابه . قال له أحد المشاركين ، وكان واضحا انه يهودي «انك بافتراضك هذا تغض من عظمة الكفاح البطولي للشعب اليهودي في اقامة دولة اسرائيل» . فرد عليه تيلور بتبرم واضح «اسمع . لا تحدثني عن اسرائيل والكفاح البطولي وهذا الكلام الفارغ. اسرائيل لا شيء . بريطانيا لا شيء . فرنسا لا شيء . امريكا لا شيء . روسيا لا شيء» ■

نحو أفق بعيد

-٢-



يكتبها : الطيب صالح

العداء القديم بين الانجليز والفرنسيين . تحول على مر السنين الى مرارة خافتة يشوبها اعجاب متبادل . يظهره كانما قسراً الجانبان من وقت الى اخر . احدهما نحو الاخر . لم يغفر الانجليز الانغلوسكسون للفرنسيين انهم غزوا بلادهم مع وليم الفاتح عام ١٠٦٦ . واحتلوها ردحا من الزمن . وغيروها الى الابد . والفرنسيون لم يغفروا للانجليز . بصفة خاصة . انهم هزموا امبراطورهم المحبوب . نابليون . عام ١٨١٥ في موقعة واترلو . وغيروا بذلك مجرى التاريخ . وظل الشعبان ينظر بعضهما الى البعض الاخر . عبر المضيق . الذي يسميه الفرنسيون «المانش» ويسميه الانجليز . «مضيق دوفر» بمزيج من الحذر والاعجاب والغيظ . ولكن ربما يكون الانجليز اكثر غيظا . فانهم يجدون في الفرنسيين صفة غامضة لا يفهمون سرها . تجعل كل عمل ياتونه يبدو اكثر جاذبية: من طعامهم الى ازيائهم . وعطورهم . ومدنهم وثقافتهم . حتى «الستربتيز» تؤديه الانجليزية فيبدو مبتذلا . وتؤديه الفرنسية . فيبدو جذابا . وقد تكون الفرنسية اقل جمالا من الانجليزية . ولكنها لسبب ما . تبدو اكثر منها حيوية وجاذبية ووقعا على السمع والبصر. نشيد «المارسييز» الذي نبع ارتجالا . وتغنى به ثوار مارسيليا وهم يسيرون للانضمام الى الثورة في باريس . وتحول بعد ذلك الى نشيد وطني لفرنسا . لسبب ما . يبدو اصدق واكثر اثارة للحماس . من النشيد الوطني «يا بريطانيا تحكمي في امواج البحر» الذي يؤديه الانجليز على استحياء وكانهم لا يؤمنون تماما بما يقولون . وحين كان شارل ديجول لاجئا في لندن يطلب النجدة من الانجليز . يوم احتل النازيون فرنسا . كان يعامل الزعيم البريطاني ونستن تشيرشل بتعال واضح . كما يقول المثل العربي «حسنة وانا سيدك» . وتقرا الفيلسوف الانجليزي «برتراند راسل» فاذا فكر ثاقب واسلوب ناصع وقول ليس عسيرا على الفهم . وتقرا الفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر» وهو اقل عظمة من راسل في راي الكثيرين . فاذا اراء متضاربة . واسلوب مفتعل واحابيل عقلية لا تنطلي على ذي فطنة . ومع ذلك فان شهرة «راسل» تقتصر على الخاصة . بينما شهرة «سارتر» قد طبقت الافاق . ومذهبه الوجودي مايزال له اتباع وانصار. ورغم ذلك فقد وجد في فرنسا دائما . فرنسيون يحبون الانجليز او على الاقل يحترمونهم . ربما يكون منهم «الامبراطور» نفسه الذي اثر. حين مالت به اقداره . ان يلجا الى رحمة الانجليز . مؤثرا اياهم على الالمان والروس . ومنهم «شاتوبريان» العتيد . صاحب «مذكرات من القبر» . ومنهم في الاونة الاخيرة «اندريه موروا». والانجليز كذلك . كان منهم دائما محبون للفرنسيين او معجبون بهم . منهم الشاعر الانجليزي العظيم «ويردزورث» الذي تغنى في شعره بالثورة الفرنسية . ومنهم الناقد الكبير «وليم هازلت» الذي سبح ضد الشعور الوطني الطاغي في انجلترا . بتاييده لنابليون .

سقت لكم كل هذا . لانني قرات مؤخرا مقالة للمؤرخ البريطاني المعروف «ريتشارد كمب» ينقد فيها كتابا لشيخ المؤرخين الفرنسيين «فيرناند برودل». وقد توفي قبل ان يخرج كتابه باللغة الانجليزية . كان «ريتشارد كمب» استاذا للتاريخ الحديث، في جامعة اوكسفورد حتى عام ١٩٨٤ . وقد عاش في فرنسا تسع سنوات . واشتهر بدراسته عن تاريخ فرنسا . وتاريخ الثورة الفرنسية خاصة . من ذلك كتابه «الجيش الثوري في ليون» وكتابه «الموت في باريس» عن الفترة من عام ١٧٩٥ الى عام ١٨٠١ . لا عجب اذا انه اغتاظ ان المؤرخ الفرنسي قال في مطلع كتابه المسمى «هوية فرنسا» . «لا يستطيع المؤرخ ان يكتب بفهم تام الا عن تاريخ وطنه .. مثل هذا الفهم لا يتاتى له ابدا . مهما بلغ علمه . اذا نصب خيامه في ارض قوم اخرين» . ويعلق المؤرخ الانجليزي بغيظ واضح «هذا الراي الاحتكاري يناقض عمل «برودل» نفسه الذي اكتسب احتراما كبيرا لمؤلفاته عن تاريخ اسبانيا والامبراطورية الاسبانية وعالم البحر الابيض المتوسط في عصر فيليب الثاني . وانا اعجب . ماذا كنت افعل اذا طيلة الخمسين عاما الماضية ؟» .

وفي فقرة قاسية تنم عن راي الانجليز في الثقافة الفرنسية . عموما يقول المؤرخ الانجليزي «يشتمل اغلب هذا الكتاب على بديهيات ترتدي اثوابا براقة . لا تثبت لضوء اللغة الانجليزية النافذ. وفي اغلب الاحيان يقدم المؤلف اشياء واضحة كانه اكتشف امورا عظيمة . والهدف هو ـ كما يقول برودل ـ (ان نخرج تاريخنا من وراء الحيطان التي اقامها حوله الاخرون) اي المؤرخون الذين لا ينتمون الى النادي» . يعني المؤرخين الانجليز .

ويتضح غيظ المؤرخ الانجليزي «ريتشارد كمب» من احتقار المؤرخ الفرنسي «برودل» لجهد المؤرخين الانجليز. وضوحا لا مراء فيه . في هذه الفقرة «يخصص برودل صفحات عدة لميناء «روان» الصغير متجاهلا ذلك التحليل المفصل لسكان البلدة الذي عمله «كلن روكاس» (الانجليزي) في كتابه الرائع (مقومات الرعب) . ويتحدث عن موجات الهجرة دون اشارة واحدة لاعمال «الون هفتن» (الانجليزي) . ويسرد باسهاب اصناف الطرق عبر القرون . غير مدرك فيما يبدو . ان مؤرخا انجليزيا (يعني نفسه) قد كتب عن الناس الذين قطعوا الطرقات مشيا او على ظهور الدواب متجهين صوب باريس . وفي كتابه فصول طوال عن حروب وراثة العرش الاسبانية دون ان يشير ولو مرة واحدة الى تاريخ كيمبردج الحديث الذي اشرف عليه المؤرخ النابغة «جون برملي» .

ويكاد هذا المؤرخ الوقور يفقد اتزانه حين يصل الى هذه الفقرة «حقا انه ليس اكتشافا عظيما ان تقول ان روان ولي هافر ميناءان وان مرسيليا تطل على البحر. ثم ان مؤرخين اخرين قد اشاروا الى السخط الذي احسه سكان البلدان الصغيرة على الضفة الشرقية لنهر الرون . تجاه مدينة ليون . حتى المؤرخون الانجليز يستطيعون ان يفهموا شيئا من خرائط ترودين عن احوال الطرق والانهار في الستينات والسبعينات من القرن الثامن عشر» .

ويختتم الاستاذ الانجليزي «ريتشارد كمب» عرضه لكتاب الاستاذ الفرنسي «فيرناند برودل» قائلا «هل اوصي بقراءة هذا الكتاب ؟ ربما» .

كاني بهذا العالم الوقور . وهو يركب دراجته في الشارع الرئيسي في مدينة اكسفورد . وقد نفخ الهواء عباءته الجامعية السوداء . يصرخ باعلى صوته «بريطانيا تحكمي في امواج البحر» .

اما الحبر الفرنسي برودل . فانه ينظر اليه بتلك الدهشة الفرنسية الجذابة على طريقة الممثل «موريس شفالييه» . يهز كتفيه ويمط شفتيه ويقول «بوف . هؤلاء الانجليز» ثم يضحك بصوت مرتفع ويقول عبارة بذيئة لا تليق بالاساتذة المحترمين ■



نحو أفق بعيد

-٣-



يكتبها : الطيب صالح

كنت اظن هذا البيت لابي تمّام :

وحبب اوطان الرجال اليهمو
مارب قضّاها الشباب هنالكا

ولكنني اراه احيانا ينسب لشعراء آخرين منهم ابن الرومي . هل يقوى ابن الرومي على مثل هذا ؟ ثم الا يمضي ابو تمام فيقول:

اذا ذكروا اوطانهم ذكّرتهمو
عهوذ الصبّى فيها فحنُّوا لذلكا ؟

لا ادري، فليس بين يديّ الآن ديوان ابي تمام لانظر فيه . ولكن هذا شعر نبيل ، وابن الرومي كان شاعرا كبيرا ، ولم يكن شاعرا نبيلا .

واذا كنتُ قد اوردتُ البيت الثاني على وجهه ، فما قوْلك ان الشاعر كرر «ذكروا» و«ذكرتهمو»؟ اليس هذا عيْبا في البيت ؟

لذلك انت تفضّل ان يكون بيتُ المتنبي :

ولم ار في عيوب الناس عيْبا
كنقص القادرين على التمام .

على هذا النحو :

«ولم ار في عيوب الناس شيئا» .

هكذا يرد البيت في اغلب طبعات الديوان .

لا يا رعاك الله . المتنبي عظيم لا يقول «شيئا» .

هذا شاعر عرف دقائق اسرار لغة العرب، وما تحويه الكلمات من طاقات . كان يستعمل الكلمات كانها عملة غالية . ليست مثل جنيه السودان وليرة لبنان . فلم يخش ان يقول «عيبا» بعد ان قال «عيوب» . لان في الكلمة الواحدة سعةً لمزيد من الانفاق . وقبلاً قال زهير:

بكرن بُكورا واستحرْن بسُحْرة
فهنّ ووادي الرُّسّ كاليد للفم .

انظر كم انقضى وقتٌ، كم انطوت مسافة ، بين البكور والسحور . لذلك فان هؤلاء النسوة ، حين اشرفن على وادي «الرّس»، كن مثل الصائم الذي دنا موعدُ افطاره ، ليس فقط ، لان اليد لا تخطىء الفم .

ولِمَ قال الشاعر «بكرن بكورا» ؟ اما كفاه ان النسوة قد «بكرن» ؟ صدقت . ولكن الم يكن هؤلاء النسوة على سفر ؟

الم ينهضن مبكرات فيصنعن الزاد ويجمعن المتاع ، وتُقوض الخيام وتُشدّ الحُمول ؟ تذكّر ان الخدم لم تضع لهن حوائجهن في حقائب «السمسونايت» ، وتحملهن سيارات «المرسيدس» الى المطار، وتقلهن طائرة الـ «بوينج» الى وادي الرُّس . انهن سرن سيرا مضنيا قبل ان تحر شمس النهار، ثم ربما «قيْلن» في الظهيرة . لا كما فعل صديقنا عبد الرحمن الابنودي :

.. انما واصلن السير بليْل . وفي الليل يطيب الغناء للمغنين ، ويطيب السير للسائرين . وعند الصباح يحمد القوم السُرى . كما قال خالد بن الوليد . اذا لماذا يا فداك نفس ، يستكثر على الشاعر انه انفق كلمتين لقاء كل هذا الزاد الشعري ؟

ومن اين بدات الرحلة ؟

الم تسمع ؟ اما قال لك الشاعر ؟

امن أمْ اوْفى دِمْنةً لم تَكلّم
بحُومانة الدُرّاج فالمُتثلّم

ديار لها بالرّقمتين كانها
مراجيع وشم في مناشر معصم

بها العِينُ والآرامُ يمشين خلْفة
واطلاؤها ينهضْن من كل مَجْثم

وقفت بها من بعد عشرين حجّة
فلأيا عرفتُ الدار بعد توهُّم

من تلك الديار بدان رحلتهن . وظللن يسرن . ولعلهن ما زلن سائرات في مسارب الخيال الى يومنا هذا .

هذا ما يفعله الشاعر العظيم . انه يفتح لخيالك افاقا لا تحد .

فتخيل كما يحلو لك . ولا عليك من هؤلاء الالسنيين والسيمائيين والبنائيين والتعبيريين والسورياليين والماديين والجدليين وما شابه . انهم جاءوا من اودية شتى الى وادي الرس ووادي العقيق ووادي الخزامى، فلن يطول مكثهم ان شاء الله . «تبصّرْ خليلي» كما حثك الشاعر، ولا تكن اقلّ بصيرة من مطايا ابي العلاء المعري:

تخيّلتِ الصباحَ معينَ ماءٍ
فما صدقتْ وما كذب العيانُ

وكاد الفجرُ تشربه المطايا

نحو أفق بعيد

-٤-



يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ، ٢١/٩/٨٨.
مطار الخرطوم ، صالة المغادرين.
الساعة ٤,٥٠ مساء

خرجنا من دار عثمان محمد الحسن متاخرين لانه وقف طويلا في صف البنزين . هذه الطوابير اصبحت سمة من سمات الخرطوم منذ عهد بعيد . طابور الخبز ، تقف فيه منذ منتصف الليل حتى طلوع الشمس، نساء حرائر ، ما كن يقفن مثل هذا الموقف من قبل ، من اللائي قال فيهن الشاعر «ما خرجن لريبة كظباء مكةَ صيدهُن حرامُ». طابور السكر، الرجال والنساء والكهول والشيوخ والصبيان . طابور الاحذية التي جاءت من مصر، والثياب الجاهزة التي وصلت من كوريا والصين . طابور حلويات العيد . طوابير عند ابواب السفارات ، للسفر ، للخروج ، للهروب ، للرحيل . ناس من الشمال يضربون في ارض الله شرقا وشمالا ، وناس من الجنوب، مثل جيوش النمل ، تسير ، تسير ، من جوبا الى ملكال ، ومن ملَكَال الى شَنْدي ، ومن شندي الى اتبرا ، الى مروى ، الى الدبَّة ، الى حلفا على حدود مصر . امواج في اثر امواج من اقوام زلزلتهم الحروب والمجاعات والفيضانات ، والحكام الاغبياء والوعود الكاذبة . ما كانوا من قبل يابهون للطعام والشراب ، فاصبح همُّهم الطعام والشراب . «فلا تكن يا عبد الله كالسائمة التي وجدت مرعى خصبا ، فاصبح همها في السِّمَن وداؤها لو تعلم في السمن» . ما كانوا يابهون للمظهر ، فاصبحوا يتنابذون بالالقاب ، ويتطاولون في البنيان ، ويتفاخرون بسيارات المرسيدس ، وترى المراة وهي تحمل على جسمها من الثياب والحلي ما كان يكفي لاعاشة اسرة كاملة ، حولا كاملا ، في الزمان القديم . زاد الكلام عن الاسلام وكثرت المساجد، وضعف الايمان . زادت المدارس، وعمّ الجهل . زادت المستشفيات وتفشت الامراض. لا عدل ولا حرية ولا ديموقراطية الا في بيانات الحكومة ومحطات الاذاعة .

الحكام السابقون واللاحقون والسابقون اللاحقون . وجعفر محمد النميري في منفاه يحلم بالعودة. تعود لاي شيء يا رعاك الله ؟ اما حكمت قرابة عشرين عاما ، فكنت مثل طفل شرس اطلق سراحه في متحف للخزف النادر، فكسرت وهشمت ؟ اما وجدت ثوبا ناعما فريدا غزَلَتْه بتؤدة وحكمة ، اصابع رجال عباد زهاد ، ونساء صابرات قانتات ، فمزقته وانت تظن انك تحسن صنعا ؟

●●●

المدينة مثل ثوب قديم مبتل ، لم يغسل منذ زمن طويل . دار عثمان محمد الحسن في «المقرن» اغرقتها المياه ، ومحت بعض رسائل جمال محمد احمد التي يعمل عثمان على جمعها واخراجها في كتاب . ان الله سبحانه وتعالى قد راف باستاذنا الجليل انه مضى ولم يشهد كل هذا الخراب . الشوارع مثل اطلال خولة ، وانصاب «ثورة» مايو التي هشّموها ايام الانتفاضة لم يستطيعوا ازالتها بعد . كتل قبيحة من الاسمنت والحديد ، لا تقول شيئا ولا تعني شيئا ، الا انهم اعطوها صفات طنّانة مثل «تحالف قوى الشعب العاملة» او «الثورة فكر وعمل وانتاج». ولا فكر ولا عمل ولا انتاج . وقد اصبحت ازالتها مشكلة ككل بقايا ذلك العهد الميمون . وتقول ، ما لهم وللتماثيل ؟ في مدينة ارضها صلصال ونيلها زلال ، اما كان يكفي قليل من النبات وقليل من الازهار ؟ لكنهم جاءوا بخبراء تخطيط المدن من ايطاليا والسويد ، فدفع من دفع ، واخذ من اخذ ، ورحل الخبراء وازدادت المدينة قبحا .

●●●

انني ادري لِمَ انا حزين الآن في هذا المكان . لقد وقفت على قبر انسان عزيز ، اعز انسان عندي، وانقطع اهم خيط كان يربطني الى هذه الديار. الحزن يعلو ويخبو ، ويمتد عبر زمن طويل ، وياتي على اشكال عدة ، ويهجم عليك من حيث لا تحتسب . لقد صبرت حين كان يتحتّم علي ان ابكي ، وبكيت حين كان يجمل بي الصبر. لذلك يدهمني الحزن الان ، في هذه الصالة الرثة ، في هذا المطار القميء ، في هذه المدينة المهملة ، في هذا الوطن الحبيب اللعين . وتحول الحزن الخاص الى حزن عام ، بسبب هذه اللوحة امامي في صالة المغادرة . منذ كَمْ الف عام وضعت هذه اللوحة في هذا المكان ؟ ومن الذي وضعها ؟ وماذا كان يدور في راسه ؟ لوحة بهتت الوانها واختلطت ، كُتب عليها باللغة الفرنسية Bon Voyage وباللغة العربية «رحلة سعيدة» .



نحو أفق بعيد

-٥-

الاربعاء . ٢١/٩/٨٨ .
مطار الخرطوم . صالة المغادرين .
الساعة ٤,٥٠ مساء .

انما هذان البيتان . حتماً . لأبي تمّام :

سودُ الوجوهِ كأنما نُسِجتْ لهم
أيدي السَّمومِ مدارعاً من قارِ

لا يبرَحُونَ . ومن رآهم خالَهم
أبداً على سفرٍ من الأسفارِ

وكأنما عنى بهما هؤلاء القوم . الذينَ يُسمَّوْن مجازا . السودانيين لان زعماءهم عشية الاستقلال . لم يستقروا على رأي . ويا ليتهم عادوا الى الاسم القديم «سنّار» . كان السنّاريون معروفين في العالم الاسلامي شرقا وغربا . لهم وقف في المدينة المنورة والأزهر الشريف . وهداياهم تذهب كل عام في محمل عظيم الى مكة المكرمة . وربما يكون من اسباب ان هذا البلد لا يستقر على حال . ان اسمه لا يعني لأهله شيئا . فما السودان ؟ مصر مصر . واليمن يمن . والعراق عراق . ولبنان لبنان . ولكن ما السودان ؟ لقد اطلق المستعمرون هذا الاسم على كل تلك الرقعة الممتدة من حدود الحبشة شرقا الى غاية بلاد السنغال غربا . فوجد الناس لبلادهم اسماء تعني لأهلها شيئا . وبقينا نحن وحدنا نحمل هذه التركة الاستعمارية الجوفاء . لذلك يستند «جون قرنق» على الرمز الاستعماري في دعواه الباطلة . فيقول . هذه بلاد السُّود . بلاد الزِّنْج . وانتم اهل الشمال عربٌ دخلاء . ويعتبر الارض مغتصبة . يريد ان يحررها «شبرا شبرا» كما يزعم . والا فمِنْ مَنْ يريد ان يحرر السودان ؟ . وما معنى «جيش تحرير السودان» ؟ واذا سار الحال . على هذا المنوال . فما الذي يحول بينه وبين تحقيق هذا الحلم ؟ انه الآن . في هذه اللحظة . يستطيع ان يُسقِط مئات من المظليِّين من طائرات الهليكوبتر . التي تمده بها هذه الدولة او تلك . ويحرك مئات الآلاف من أعوانه الذين يحيطون بالخرطوم كحلقة الخاتم . حينئذ سوف يجد الصادق المهدي وحسن الترابي ومنصور خالد وبقية هؤلاء السادة النجباء . ان النسيج الذي نسجوه . أوهى من بيت العنكبوت . سوف تراق دماء كثيرة . حينئذ سوف نسمع نشيدا جديدا . ونرى وجوها جديدة على شاشات التلفزيون . سوف تُغلق ابواب وتفتح ابواب . وتعيش احلام وتموت أحلام . وسوف يكون السودان «سودانا» بحق وحقيق حينئذ .

آه . صدقت يا أبا تمام . ولكنْ هذا السواد مثل غيم كثيف في ليلة قمراء . فوراء الظلام الذي تراه ضوءٌ كثير . وقد اعطت تصاريف الايام ونوائب الدهر . بعداً آخر للبيتين . كما يقول نقاد الشعر . لم يكن هؤلاء القوم «يبرحون» هذه الديار المترامية الاطراف . كانوا قانعين بما قسم الله لهم فيها . وهو كثير . يزرعون النخل في ديار «المحَسْ» و«السُّكُوت» ويزرعون الحنطة والشعير في ديار البديريَّة والشايقيَّة والرُّكابيِّين . يزرعون الموز في كَسَلا . والبرتقال والجوافة في شَنْدي . والذرة في ارض البُطانة . والقطن في ارض الجزيرة . ويجنون الصمغ العربيَّ من شجر الهَشَابْ في كردفان . يصيدون البقر الوحشيَّ في جبل مَرّه والظباء عند تخوم بحر الغزال . ياكلون سمك النيل الابيض وسمك البحر الاحمر . يُخرجون الذهب من مكامنه في «حلايبْ» وفي «جبال شَنْقُول» . كانوا يتناشدون شعر «الدُّوبيتْ» على الآبار . ويرقصون «الدّليبْ» في ضوء الاقمار . ويرتِّلون القرآن في جوف الاسحار . ويستخفهم الطرب في حلقات مديح المصطفى المختار . كانت البلاد تضج في العَشِيَّات بثُغاء الشياه . ورُغاء الابل . وصهيل الخيل . وكان الرجل يمشي من «ابو حمد» الى «ابو دليق» . فلا يخشى الا الله والذئب على غنمه . لكن انظر اليهم الآن يا أبا تمام . في هذه الصالة الرثّة . في هذا المطار القمِيء . في هذه المدينة المهملة . في هذا الوطن الحبيب اللعين .



يكتبها : الطيب صالح

هذه المرأة الوسيمة من عرب البطّاحين دون شك . وهذه الشلوخ الافقية على الخدود الحنطية . لا بد انها «شايقية» من نوري او تنْقاسي وهذا الرجل الاخضر . سواده زنجي وسمْته عربي . وهذه المرأة . لونها مثل الذهب المُترَّب . بجاوية لا بد . من القوم الذين امتطى المتنبي ناقة من نوقهم حين خرج هاربا من مصر :

الا كلُّ ماشيةِ الخيْزَلَى
فدى كلِّ ماشيةِ الهيْذَبَى

وكلِّ نَجَاةٍ بجاويةٍ
خَنُوفٍ وما بيَ حُسْنُ المِشى

انظر اليهم يا أبا تمام . ينتظرون الطائرات تحملهم الى بلدان الخليج . الخروج . الهروب . الرحيل . انهم ينتظرون . وانا مثلهم انتظر . ولكن الحزن الذي يلسع قلبي . وكأنما ينبع من هذه اللوحة الباهتة امامي . يخصني وحدي . فأنا بعدُ كاتب . وهذه الاحزان هي زادي وعُدّتي . كما يتزود الاثرياء بحساباتهم في البنوك . لقد اختلط الحابل بالنابل . وأصبح النازح كالمقيم . والمقيم كالمسافر .

هل أنت قلت حقاً يا أبا تمام ؟

وحبَّب أوطان الرجال اليهمو
مآربُ قضّاها الشبابُ هنالك ؟

نحو أفق بعيد

-٦-


يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ٢١/٩/١٩٨٨ .
مطار الخرطوم ، صالة المغادرين .
الساعة : ٤,٥٠ مساء .

نعم . لا بد ان يكون البيت لابي تمام ، فما لابن الرومي وذلك ؟ انه شاعر كبير لا شك ، احسن القول في وصف المغنيات ومجالس الطرب، وولد معاني عجيبة عن الالات والاصوات . وهل مثل شعر العرب في الحنين الى الاوطان ؟ وقد قال اخو بني حَنيفة :

الا هـل الى شَمِّ الخُـزامَى ونظـرةٍ
الى قَـرْقَـرَى قبـل الممـات سبيـلُ
فـأشـربَ من مـاء الحُجَيـلاءِ شربـةً
يـداوَى بـهـا قبـل الممـات عليـلُ
فيـا أثَـلاتِ القـاع قلبـي مـوكَّـلٌ
بكـنَّ وجـدوى خيـركُـنَّ قليـلُ
ويـا أثَـلاتِ القـاع قـد مَـلَّ صُحبتي
مسـيري فـهـل في ظلكُـنَّ مقيـلُ
أريـد انحـدارا نحـوهـا فيـردُّنـي
ويمنـعنـي ديـنٌ عـلَيَّ ثقيـلُ
أحـدِّث نفسي عنـكِ اذ لستُ راجعـا
اليـكِ ، فحـزنـي في الفـؤاد دخيـلُ

وقد رووا ان عبد الملك بن مروان ، وقد كان ملكا عالما بالشعر محبا له ، بكى لما سمع هذه الابيات، فارسل الى الشاعر مالا يقضي دينه ويرده الى اهله ، فلما جاء الرسول وجد الشاعر قد مات .

وانت ايها المسكين ، تجلس كانما منذ قرون وكانك سوف تظل جالسا الى الابد ، في هذا المكان الأهل المهجور ، في هذه المدينة الجميلة المهملة ، في هذا الوطن الغني الفقير . ينتظرون طائرات الخليج . هذان عريسان جديدان يجلسان خجلين في بركة من العطر والحناء ، والعروس في وجهها ذلك الخفر القديم . وهذه الطفلة البسوها «فستانا» ابيض مزركش الاطراف ، لا يليق بها ولا يليق بهذا المكان .

وهذا رجل مريض مسافر للعلاج ، ربما في الرياض او في الدوحة . وهذه المراة المسنة ، بين السبعين والثمانين ، وجهها جميل يذكرك بوجوه أحبيتها في الزمان القديم ، ربما من نواحي رُفاعَة او الكاملين . ساكنة وادعة مطمئنة . ما الذي اخرجها من حِمَاها وأجلاها عن مرابعِها ؟ وهذا الشاب سمْتُه سمت ضابط في الجيش ، ربما ارسلوه في بعثات عسكرية الى امريكا وبريطانيا وموسكو . ثم اخرجوه في حركة من حركات التطهير الكثيرة . قد ينتهي به الامر ان يعمل حارسا في محل تجاري في دبي . وهذا الشاب واضح انه من هذه الطبقة الجديدة التي وُلدت وربَتْ مع «ثورة» مايو . الله اعلم يُهرِّب ماذا ، او يبيع ويشتري ماذا . يريد ان يغتني باي وسيلة . ثم يفعل ماذا ؟ وهذا شاب يافع ، تخرج لتوه من جامعة الخرطوم . درس الزراعة . يكون محظوظاً لو وجد عملا كتابياً في شركة مقاولات في عَجْمان . انهم ينتظرون وانت مثلهم تنتظر. وتسال نفسك ، ما الفرق بين هذا الحشد في هذا المطار ، وبين جمعٍ من اهل الشام ؟ في اولئك حركة وتوتر وتدافع . وطّنوا انفسهم على الاغتراب منذ زمن ، وهم اهل حياة ومطلب عيش ، ينظرون الى امام ، الى حيث يقصدون . اما هؤلاء ففي حركتهم بطء وتراخ ، ينظرون الى الخلف ، تشدهم الى مواطنهِمْ ، من حيث خرجوا ، قيودٌ لا فكاك منها . تحسبهم كسالى ، وما هم بكسالى . لكنهم لا يعملون للعمل في حد ذاته . يعملون حين تستثار هممهم ، نخوةً او حَمِيَّةً او غيره .

لذلك هَبُّوا في اكتوبر وهبوا في ابريل يعملون محبَّة . ويعملون جلْبا للمدح ودفعاً للذَّم ، ولا يعملون لمجرد الطعام والشراب . حينئذ يعمل الواحد منهم عمل عشر رجال ، وقد يعمل بلا مقابل . فيهم ، حين يكونون في أحسن حالاتهم ، كبرياء وعذوبة وزهد . وتسال نفسك وانت تجلس في هذا المكان الذي تسلَّخت حيطانه وتشقَّقت جدرانه وبهُتَتْ الوانه ، تنظر الى لوحة تقول لك بالفرنسية «Bon Voyage» وبالعربية «رحلة سعيدة» هل بقيت من ذلك بقيَّة ؟ ام ان صروف الزمان ونوائب الدهر ، وغباء الحكام ، قد قضت عليه الى غير رجعة ،

كما قضى النيل على العالم الذي حملْتَه في خيالك كلُّ تلك الاعوام ، وأخذتَ تسافر وتعود ، تسافر وتعود ، تبحث عنه ، مثل جندي في جيش منهزم ؟ ■

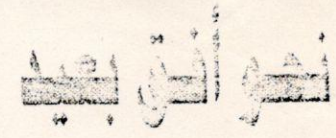
في رحاب عبد الله بن عمر

(6)

آخر ورقة







372

من ذُرّيّة عبد الله بن عمر رحمه الله، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان رضي الله عنه. أمه حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب. كان من أماجد فتيان قريش، وكانوا يلقّبونه بـ(المطرَف) لشدة وسامته. تزوج فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم، فولدت له محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، الّذي أسموه (الدّيباج) لشدة وسامته أيضاً.

ذكروا ان عبد الله بن عمرو بن عثمان كتب الى الخليفة عبد الملك بن مروان يقول:

«أمّا بعد، فإنك تعلم بلاء أمير المؤمنين عثمان عندكم في رفع اقداركم واحسانه اليكم. وان مروان أوصى بقضاء دين عمرو بن عثمان، فانْ تفعلْ فأهلُ ذلك نحن، وان لم تفعل فسيُغْني الله عنك والسلام».

فردّ عليه عبد الملك بن مروان:

«أمّا بعد، فانّ عمرو بن سعيد كان أقربَ رحماً بي منك. وانّه لمّا اخطأ قدمُه، فرّقتُ بين رأسه وجسده. ولقد هممتُ ان ألحقك به».

فردّ عليه عبد الله بن عمرو:

«انْ تفعلْ فانّي لمُعرقٌ في الشّهادة، فأنا ابن أميريْ المؤمنين عمر وعثمان».

تلك الجذوة العُمريّة لا تخبو ابداً.

هذا، وعمرو بن سعيد الّذي أشار اليه عبد الملك، هو عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن أميّة. وأبوه سعيد بن العاص، هو الّذي ذكرنا من أمر تولّيه الكوفة على عهد عثمان، وفتحه طبرستان وغيرها من بلاد ما وراء النهر. وهو الّذي ذكره الراجز الغوغائي من الذين تسوّروا الدار على الخليفة الشيخ رحمه الله بقوله:

يطلُبْن حقّ اللّه في الوليد
وعند عثمان وفي سعيد

وكان مروان بن الحكمَ، بعد ان وثب على الملك أثر انتصاره في موقعة (مرج راهط) قد أوصى ان يكون عمرو بن سعيد خليفة بعد عبد الملك، لكنّ عبد الملك لم يلبث ان قتله. وقالوا ان ذلك اوّل غدر كان في الاسلام. وفي ذلك قال بعضهم:

يا قومُ لا تُغلَبوا عن رأيكم فلقد
جرّبتم الغدر من أبناء مروانا
أمسوا وقد قتلوا عمراً وما رشدوا
لكي يولّوا أمورَ النّاس ولدانا

رووا ان عبد الملك بن مروان، بعد ان قتل عبد الله بن الزبير بن العوام عام خمسة وسبعين، خطب النّاس بالمدينة فقال:

«أمّا بعد، فإنّي لستُ بالخليفة المُستضْعَف (يعني عثمان)، ولا الخليفة المُداهن (يعني معاوية)، ولا الخليفة المأفون (يعني يزيد). الا وانّ مَنْ كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويُطعمون من هذه الاموال. الا وانّي لا اداوي أدواءَ هذه الأمّة الاّ بالسيف حتّى تستقيم لي قناتُكم. تكلّفونا اعمال المهاجرين ولا تعملون مثل اعمالهم! فلن تزدادوا الاّ عقوبة حتّى يحكم السيف بيننا وبينكم. هذا عمرو بن سعيد، قرابته قرابتُه، وموضعُه موضعُه، قال برأسه هكذا، فقلنا بأسيافنا هكذا.

الا وإنّا نحمل (نحتمل) لكم كلّ ش[illegible] وثوباً على أمير او نَصْب راية. ا[illegible] الجامعة (الأغلال) الّتي جعلتها في عُنق عمرو بن سعيد، عندي. والله لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا الاّ ضربتُ عنقه».

هذه الخطبة النّكباء، لا تُكاد تُصدَّق، لولا انها تواترت لدى عدد من المؤرّخين الثقات، ممّا يرجّح صحة روايتها. وما اقدم عليه عبد الملك قبلُ وبَعد، يؤكّد على الأقل صحة النوايا الّتي انطوت عليها. حديثه عن (تقوى الله) يؤكّده ما رُوي عن الحجّاج انه كان يقول (انظروا الى هذا! إنّه يأمرنا بتقوى الله)، وما كان الحجّاج لعبد الملك بن مروان الاّ كما كان (آيخمان) لهتلر!

انه مذهبٌ بائسٌ في الحكم، هو ع[illegible] النقيض تماماً من مذهب الرجل العمـ[illegible] حقّاً، أبي عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطّاب.

حدّثوا عن خالد بن سُمير قال:

«قيل لابن عمر (لو أقمتَ للنّاس أمرهم فان النّاس كلّهم قد رضوا بك). فقال أرأيتم إنْ خالف رجلٌ بالمشرق؟ قالوا (أنْ خالف رجلٌ قُتل، وما قَتْل رجلٍ في صلاح الأمّة؟). فقال:

«والله ما أُحبُّ لو أنَّ أُمّة محمد صلى الله عليه وسلّم، أخذتْ بقائمة رُمح، وأخذتُ بزُجّه*، فقُتل رجلٌ واحد من المسلمين وليَ الدّنيا وما فيها» ■

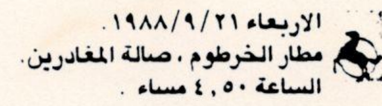
---

* فسّروا أنّ زُجّ الرُّمح هو الحديدة الّتي تُركّب في أسفل الرمح، تركز به في الأرض، والسّنان اعلا الرّمح يُطعن به.

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

-٧-



الاربعاء ٢١/٩/١٩٨٨.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين.
الساعة ٤،٥٠ مساء.

تجلس في هذا المطار الذي لم تعد تنزل فيه الطائرات الا لماما، واذا نزلت لا تقوم الا بشق الانفس، في هذه الصالة التي تسلخت حيطانها، وتشققت جدرانها، تنظر الى الصور التي اخذها مصورو وزارة الاعلام. منذ كم الف عام أخذت هذه الصور، فكأنك تنظر اليها من وراء سحاب او من تحت ماء عكر؟ مجموعة من رجال «الهدندوه» بشعورهم الكثة وسراويلهم الطويلة وصديريّاتهم القصيرة يرقصون بالسيوف.

نساء «الرشايدة» الجميلات في عيونهن بقية من بريق رغم تقادم العهد بالصورة. قافلة من «البقارة» ربما في نواحي «بابنوسه». رجل ضرير تلعب اصابعه باوتار الطنبور. ذلكم النعام ادم، العازف الموهوب. انه من ديار قريبة من ديارك، ويغني الحانا قريبة الى قلبك. رجال من جبال النوبة، على رؤوسهم قرون الثيران وفي أذرعهم الخرز، وفي ارجلهم الخشاخيش، يرقصون رقصة «الكمبلا». نساء «الدنكا» الفارعات، صدورهن نصف عارية ونصف مغطاة. غابة نخل في «نوري» هاماتها تنوء باحمال السبيط، وساقية الله اعلم اين. لقد انقرضت السواقي وصمت غناؤها للنيل منذ سنين. وحيد القرن وفرس النهر، وعل في «الدندر» وقطيع افيال عند خط الاستواء. جبل البركل وجبل مَرّه وجبل توريت.

اه، اي وطن رائع يمكن ان يكون هذا الوطن، لو صدق العزم وطابت النفوس وقل الكلام وزاد العمل!

اعلان يحثك باللغة الانجليزية واللغة العربية ان تجيء الى «ازكويت». ماذا في اركويت؟ وكيف تصل الى اركويت؟

الحبال التي ربطت هذه البلاد بالعالم شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، تقطعت حبلا بعد حبل. وقفت سفن النيل وقطارات السكة الحديد والطائرات الا القليل، وآل هذا المطار كانه محطة خلوية في صعيد مهجور. لم تبق الا قوافل الابل كما كان منذ قرون، وحافلات هالكة تشتبر طرقا غير معبدة، تنوء وتقوم.

انه امر عسير.

الطفلة التي زينوها مثل وصيفة في عرس، جاءت وقبلتك بغتة، فانتبهت فرحا، ونظرت اليها توزع قبلاتها كيف تشاء. شاب استعارك قلما فاعرته، ورجل طلب «فكة» عشرة جنيهات فلم تجد له الفكة. رجل استكتبك رسالة فكتبتها له. منذ كم وانت تكتب الرسائل لقوم لا يقراون ولا يكتبون؟ وسالك واحد واثنان وثلاثة متى تقوم الطائرة؟ فقلت لا ادري. ياخذون متاعك ويختفون. لا احد يُسال ولا صحف تُقرا ولا ماء يشرب. وسوق الاشياء المعفاة من الضرائب، مثل قطعة من الاثاث الحديث في دار انسان فقير. عطور «شانيل» وسجائر «مارلبورو» وربطات عنق «ايف سان لوران».

انه امر عسير.

لماذا لا يبداون بالاشياء الصغيرة لانجاز الاحلام الكبيرة؟! كل واحد من هؤلاء الناس الاذكياء الاغبياء عنده «مشروع شامل» لاقامة مجتمع «فاضل» يدوم الى الابد. وما ادراه ما الابد؟ ويقتلون انفسهم ويقتل بعضهم بعضا لتطغى احلام على احلام.

المراة المسنة الجميلة الوجه من نواحي «رفاعه» او «الكاملين» ابتسمت لك، كانها تعرفك. نعم، انها تعرفك. فقد احببتها، اذ أنت طفل يحبو، واذا انت صبي دون البلوغ. لهم الويل، كيف اجلوها عن حماها، وقد آن لها ان تستريح؟

انهم ينتظرون، وانت مثلهم تنتظر، وحالك كما قال مجنون بني عامر:

كأنَّ فؤادي في مخالب طائر ... اذا ذكرتْ ليلى يشُدُّ به قبضا
كأن فجاجَ الارض حلقةُ خاتم ... عليَّ فما تزداد طولا ولا عرضا

تجلس، وفي خيالك ذلك العطر الذي لن ينضب ما دمت حيا. وهو حب أودى قبلك بالتجاني يوسف بشير ومحمد المهدي المجذوب. ومثلك كثيرون. منهم صلاح احمد ابراهيم في باريس، وسيد احمد الحَرْدلُو في صنعاء، والفيتوري في الرباط، وابراهيم الصلحي في الدوحة، وعبد الواحد يوسف في عُمان، وحسن ابشْر الطيب في الكويت.

ان تنتمي الى هذا الوطن البعيد المنال، ذلك امر عسير. ان تكون سمعت زغاريد النساء في الاعراس، ورايت انعكاسات الضوء على وجه النيل وقت الشروق ووقت الغروب. ان تتذكر مذاق تمر «القُنديل» اول الموسم، ولبن البقر «الغريض» ورغوته معقودة عليه في «الحلابات». ذلك امر عسير.

وهؤلاء الزعماء النجباء، الاذكياء، الاغبياء، الا يحبون الوطن كما تحبه انت؟

بلى.

اذا لماذا يحبونه وكانهم يكرهونه، ويسعون الى اعماره وكانهم مسخرون لخرابه؟ ■



يكتبها: الطيب صالح